طبعة رابعة منقحة

سليم مطر

الذات الجريحة



إشكالات الهويّة في العراق والعالم العربيّ «الشرقمتوسطيّ»



مركز دراسات الأمة العراقية - ميزوبوتاميا / جنيف - بغداد
دار الكلمة الحرة - بيروت

الــذات الجريحــة

إشكاليات الهوية في العراق والعالم العربي

(الشرقمتوسطي)

ســليم مطــر

«طبعة رابعة منقحة»



مركز دراسات الامة العراقية . ميزوبوتاميا / جنيف . بغداد

دار الكلمة الحرة . بيروت

عنوان الكتاب: الذات الجريحة
نوع الكتاب: فكر وتاريخ
أسم المؤلف: سليم مطر/ جنيف www.salim-matar.com
الطبعة: الرابعة المنقحة
تاريخ الإصدار / نيسان 2008
إصدار: مركز دراسات الامة العراقية ـ ميزوبوتاميا / بغداد ـ جنيف
دار الكلمة الحرة / بيروت
عدد الصفحات : 496
لوحة الغلاف: اللبوة الجريحة/ جدارية عراقية من الفترة الآشورية
تنفيذ الخرائط: المهندس خالد الياس بطرس – استراليا / khalid@olomsoft.com
تصميم: محمد خير المغربي ـ دمشق



الإشراف الاداري: طارق كامل tariq_963@yahoo.com
موقعنا على الانترنت :www.mesopotamia4374.com

مادامت النمور لا تمتلك مؤرخيها...

فـأن حكايــات الصيــد

ستظل تمجد الصيادين..

مثل افريقي

محتويات الكتاب

المدخل : الانسان الممزق الهوية في هذا العالم العربي 7

الفصل الأول : تجديد الهوية الفكرية 25

- ثنائية التطرف والضياع وحتمية الفكر الوسطي الجديد 27
- الثقافة بين المجتمع والسياسة والدين 49
- حول المرأة والفلسفة الصينية «التاوية» 61
- نموذج للفهم العرقي القومي للتاريخ والنظرة التغريبية للمجتمع 70

الفصل الثاني : تجديد الهوية التاريخية العراقية 81

- العقدة الإيرانية والهوية العراقية الممزقة بين العروبة والتفريس 83
- التفريس باسم العروبة 102
- تأثير العقدة الايرانية في الحاضر العراقي 117
- التشيع العراقي وريث أديان النهرين 137
- ملاحق معلوماتية عن تاريخ العلاقات بين العراق وايران 141

الفصل الثالث : تجديد الهوية الشرقمتوسطية «العربية» 177

- عالم عربي أم عالم شرقمتوسطي 179
- مع الوحدة العربية.. ضد القومية العربية 190
- بلدان الهلال الخصيب والهوية المنسية 199
- ملاحق معلوماتية عن تاريخ بلدان المشرق العراقي ـ الشامي وعن وحدة الهلال الخصيب والحزب السوري القومي 219

الفصل الرابع : تجديد الهوية التاريخية للشعوب «العربية» 247

- الميراث القبلاسلامي ومستوجبات التصالح معه 249
- المانوية.. نموذج لتاريخنا المسروق 258
- مقترحات لتوحيد تاريخنا الممزق 300
- ترجمة تراثنا العربي الى العربية 281
- ملاحق معلوماتية عن العربية والسامية وأصول شعوب المنطقة وتاريخ التعريب 287

الفصل الخامس : تجديد الهوية الوطنية ـ الحالة العراقية 331
- المعارضة العراقية والبناء الفكري الجديد 333
- الهوية العراقية الممزقة 363
- الشيعة والمشكلة الطائفية في العراق 380
- قضية كردستان الكبرى وحقوق الفئات العراقية 399
- ملاحق معلوماتية عن إشكاليات الوضع العراقي وتنوع الفئات اللغوية والدينية والمذهبية 437

خاتمة : اقتراحات تكميلية لبناء هوية وطنية ـ الحالة العراقية 478

ملاحظة للقارىء : ***ان تسمية (شرقمتوسطي) نحت من (شرق متوسطي) مثل (رأسمالي) من (رأس مالي). ونعني بها بلدان العالم العربي التي تقع جميعها شرق البحر المتوسط، بما فيها البلدان البعيدة عن ضفافه مثل العراق والأردن والجزيرة العربية، وهي تقابل أوربا التي تقع غرب المتوسط. راجع الفصل الثالث.***

المدخل

الإنسان الممزق الهوية في هذا العالم العربي

أتذكر في أواخر الستينات في بغداد، وكنت في بدايات سن المراهقة والوعي السياسي، أني طرحت سؤالاً على أحد أصدقاء أبي، وكان هذا الرجل فقيهاً ورعاً يتحدث دائماً عن الدين والسياسة:

ـ يا عم قل لي من فضلك إذا كان الإسلام هو دين الله والمسلمون هم الأولى برحمة الباري عز وجل، طيب لماذا هكذا نحن العرب متخلفون وضعفاء أمام اليهود والغرب؟

وكان جواب الرجل بسيطاً وصادقاً يعبر بجلاء عن بقايا العقلية «العثمانية» السائدة:

ـ اسمع يا بنيّ: إن الله سبحانه وتعالى منح لكل ملّة موهبة: اليهود وهبهم المال، والنصارى العلم، أما نحن فقد وهبنا الإيمان. لهذا يا ابني هم لهم المال والدنيا، أما نحن فلنا الله والآخرة... الجنة بانتظارنا لو تمسكنا فعلاً بديننا وتركنا ملذات الدنيا.

أما أنا، فلأني أعشق الدنيا وقد أمضيت سنوات طفولتي بالحرمان والخوف والإذلال، فإني تركت الدين بكل عنفوان الشباب واتجهت بكل روحي الى الدنيا الى أوربا والغرب حيث المال والعلم وملذات الحياة.

حصل هذا في أوائل السبعينات، وكانت بغداد ومدن العراق وجميع المدن العربية تغلي بالتيارات الثورية والقومية والماركسية مع بقايا الليبرالية القديمة. الجميع وحتى البسطاء من أبناء الشعب كانوا يتشدقون بالتقدمية والاشتراكية والماركسية والوجودية والإلحاد وكان الشعار المهيمن بين المثقفين: «أنظر الى ورائك بغضب» وهذا يعني كل بساطة نبذ كل ما هو ماضي والاتجاه نحو المستقبل كالحصان الجامح.

بأسم الثورة والتقدم رحنا نسخر ونحتقر كل ما له علاقة بماضينا وعاداتنا وتراث شعبنا. صحيح أننا كنا نغطي كل هذا بمقولات قومانية وطبقية تفتخر بالامة العربية وتمجد الطبقات الكادحة، ولكن في تفاصيل الفكر والنظر كنا نعتبر رجعياً وظلامياً كل ما له علاقة بالدين والتقاليد والتراث الوطني والقومي.

بأسم الخوف من الطائفية والرجعية تجنبنا كل ما له علاقة بالممارسات والتقاليد الدينية. صار واحدنا لكي يبين تقدميته وتحضره يبدأ بالسخرية من الدين والرجعية طبعاً. نتشدق بمقولات ماركس وغوركي ولينين، وإذا كان واحدنا متمرداً وجودياً يحتقر السياسة كما يدعي فعليه بكامو ونيتشه وسارتر. بأسم الخوف من العشائرية شرعنا باحتقار كل تقاليد وتراث أهلنا وبصقنا على مفاهيمهم التي يؤمنون بها منذ آلاف السنين. صرنا نخجل حتى من أسمائنا من ثيابنا من لهجتنا من مأكلنا. حتى الخمور كنا نحتسيها ليس لأنها من تقاليد مجتمعنا بل لأنها رمز للتمرد على الدين وتقليد للتحضر الغربي. رحنا نفتخر باستماعنا لموزارت وبتهوفن وحفظ أكبر عدد من الأسماء الأجنبية ابتداءاً من بيكاسو ودالي وشلوخوف وأنتهاءاً بكاسترو وغيفارا وماوتسي تونغ. نسخر من أمهاتنا عندما نراهن يلطمن أو يبكين على مقتل الحسين، بل إننا كنا نأسف لوجود الجوامع والعتبات المقدسة ونتمنى لو يأتي اليوم الذي سنحولها الى جامعات ومنتديات للثقافة والشباب. وصل بنا الأمر أننا في العام 1977 صفقنا للحكومة «التقدمية» وهي تضرب بطائراتها «الاشتراكية»! تجمعات «العشائر الرجعية»! في ذكرى عاشوراء.

تحت الأقدام

رواية «المسخ» لكافكا تتحدث عن ذلك الإنسان البائس الذي يستيقظ يوماً فيجد نفسه قد تحول الى صرصار. وينتهي مصيره بسحقه تحت الأقدام. يمكننا دون مغالاة كثيرة مقاربة حال الإنسان العربي وعموم العالم الثالث مع حال ذلك المسخ .

معظم الطروحات التي تناقش أسباب بروز الحالة الدينية والتطرف السياسي تؤكد على العامل الاقتصادي وانتشار الفقر وغياب الديمقراطية، وأن المسؤول عن هذه الحالة هي الحكومات وحدها. لا أحد يختلف على دور الحكومات الأساسي في انحطاطنا الى مرحلة الخراب، لكن هذا لا يعفي أبداً جميع الأجيال المثقفة والمسيسة التي ساهمت في هذا البناء المشوه للعقل العربي منذ مطلع القرن وحتى الآن. بشكل أوضح نقول: أنه ليس الفقر وغياب الديمقراطية وحدهما السبب في حالتنا تلك، إنما أيضاً عملية الانمساخ العقلي وتشويه الهوية الوطنية والإنسانية التي أخضعنا شعوبنا لها وساهمنا بحسن نية في قتل كرامة الإنسان وتغريبه وسحق شعوره بتفرده وخصوصيته.

منذ أجيال عديدة وجميع تيارات الحداثة والعلمانية، حكومية ومعارضة، ليبرالية وقومية وماركسية، لا تكف عن إشعار المواطن بـ «تخلفه ورجعيته وغبائه وانغلاقه ووو... مادام لم

يتبنَّ الحداثة». نذكره بتخلفه في كل جوانب حياته وعقله: مأكله، مشربه، ثيابه، مسكنه، تقاليده، حكاياته وأغانيه، وسائل علاجه ومعيشته. الأكثر من هذا، أشعرناه بتخلف معتقداته الدينية وطقوسه المقدسة.

مشكلتنا أننا منذ مطلع القرن اندفعنا بسذاجة المستعبدين للتخلص من ظلامية الحقبة العثمانية وميراثها الإسلامي المغلق. من سخرية القدر أن العثمانيين الذين ظلوا لقرون مغمضي الأعين تماماً عن الثورة التكنولوجية العلمية المتفجرة عند جارتهم أوربا؛ فجأة في مطلع القرن الحالي أعلنوا ثورتهم العلمانية الحضارية، بمراهقة طائشة قرروا أن يلغوا بأعوام ميراث قرونٍ بأكملها. سيد أتاتورك اعتقد أن تطور الأتراك وتحضرهم يكمن بخلعهم الطربوش وارتداء القبعة الأوروبية المتحضرة التي كانت قبعة الفلاحين والعمال والفقراء، باعتراف الكثير من المثقفين الأتراك أن أكبر جريمة قام بها أتاتورك ضد ثقافة الشعب التركي، أنه غيَّر بجرة قلم الكتابة العربية الى الكتابة اللاتينية مما خلق قطيعة وحشية بين التاريخ العقلي للشعب التركي وحاضره الجديد. لقد وصلت السذاجة العثمانية الى حد فرض قص الشارب ومنعه حتى الآن في الجيش التركي.

كان من المعقول أن تتجنب النخب العربية هذه العلمانية التركية المراهقة، فتعترف أولاً بحقيقة وجود الإسلام واستحالة إلغائه بمجرد تبني الحضارة الغربية، ثم العمل على تطوير الإسلام وضخ الحياة والحضارة اليه ودفعه ليستعيد عنفوان فترة ازدهار الحضارة العربية الإسلامية بدينها المنفتح الواعي والمتنوع. ألم تكن دمشق وبغداد والقاهرة والأندلس عواصم للتعددية الحضارية والدينية والفكرية تضاهي ما هي عليه الحضارة الغربية الحالية من تنوع ثقافي وتعددية فكرية وسياسية؟

يبدو أن المحاولات الأولى في أواخر القرن الماضي، مثل الأفغاني والطهطاوي والكواكبي، كانت تصب في هذا المجال وتبحث عن الطريق الوسط للعودة للاسلام الحضاري وتجديده، ليستوعب من ناحية متطلبات الحداثة والتقنيات الغربية ومن ناحية أخرى يحافظ على الشخصية الوطنية والخصوصية التاريخية الأصيلة. لكن هذه المحاولة قضي عليها في مهدها مع مطلع القرن أمام الزخم الهائل لتجربة أتاتورك وكذلك الاجتياح الأوروبي للمنطقة عسكرياً وتكنولوجياً وعقلياً.

من أهم نتائج هذا الانكسار العربي ظهور الانشقاق التاريخي الذي لا زال سائداً حتى الآن: انفصال التيار الديني عن التيار المدني، أي بقاء الدين محصوراً في التكيات والجوامع

والمدارس الفقهية المتخصصة، وبالتالي بقاؤه خاضعاً لكل إرث الحقبة العثمانية المغلق والمتعصب والساذج. أما التيار المدني فقد لجأ لأسهل الحلول، إذ تبنى العلمانية الغربية وحكم على الدين بالتخلف والرجعية وراح يشيع بصورة تلميذية ساذجة كل المظاهر والعادات والتقاليد والأفكار والمبادىء والأذواق والمشاعر الأوروبية، مع انسلاخ مفتعل عن الماضي الوطني باسم محاربة الإرث العثماني المتخلف.

ما زلت غير متدين، أقولها ليس بفخر أبداً بل لأنها الحقيقة ولكي أدفع عني «تهمة» الميول الدينية السلفية التي سيقذفها بوجهي الكثير من العلمانيين لكن تحرري من الانبهار الساذج بالنموذج الغربي جعلني أتحرر من تبجحي بإلحادي وحداثتي وتقدميتي وترفعي عن معتقدات شعبي أو معتقدات أي شعب على وجه الأرض. الآن فقط أدركت أن التعصب والظلامية يمكن أن تكون أيضاً صفة للعلمانيين والملحدين والعلميين. جرائم العصر الحديث وحروبه الاستعمارية والأهلية ومظالمه ودكتاتوريته معظمها مورست وتمارس من قبل أناس ليس لهم أي علاقة بالدين. الدكتاتورية التي تمارس في البلد العلماني الاشتراكي الفلاني ليست أرحم من دكتاتورية البلد الديني الفلاني.

حتى وصولي إلى أوربا كنت أحمل صورة ساذجة ومضخمة عن المجتمعات الأوروبية وحضارتها الخارقة: الناس في أوربا كلهم يلبسون نظارات طبية، يأكلون العلم ويشربون الثقافة ويمضون لياليهم بأحلام ساخرة عن الله. تخلصوا من الدين ونسوا من هو المسيح. تراهم إما يساريون يتعبدون في محراب ماركس وسارتر وغيره، أو يمينيون يتعبدون في محراب مونتسكيو وكانط وبرغسون وغيره. ليس لديهم عواطف ومشاعر شخصية ومحسوبيات جماعية، بل هناك العقل والحسابات العلمية وروح التنظيم والانضباط الحضاري. نساؤهم يا صاحبي ملتهبات ومتفتحات بكل معاني الكلمة، ورجالهم باردون ولا يعرفون الغيرة، والأهل يطردون أبناءهم وبناتهم بعد سن الثامنة عشرة !!

بعد اكتشاف أوربا بدأت أوهام الشرق تتبدد. أول ما لفت انتباهي أنه ليس كل رجال أوربا يشبهون «آلان ديلون» ولا كل نسائهم يشبهن «بريجيت باردو». إنهم يختلفون عنا في الكثير من مظاهر الحياة التقنية والسياسية والثقافية، لكنهم مع كل هذه الاختلافات لا زالوا بشراً مثلنا. أو بالأحرى عرفت أننا بشرٌ مثلهم! هم مثلنا يلهثون وراء لقمة العيش، ويحلمون بالغنى والمرتبة الاجتماعية. مثلنا يقعون في الحب ويتألمون وينتحرون من الخيبة ويقتلون بسبب الكرامة

أو الجشع. ثم هم مثلنا لا زالوا يعيشون عذابات المرض وقلق الموت وفراق الأحباب، ويعانون الحيرة أمام معضلة الله وسر الوجود.

في أوربا دُهشت عندما أدركت أن الخمرة ليست رمزاً للحداثة، والأوروبيون ليسوا جميعاً يقدسون الخمرة، وثمة الكثيرون يحتسونها بصورة محدودة أو نادرة، بل هناك دول مثل السويد قد فرضت الحدود الصارمة على تناول الخمرة وقننتها مثل الدواء، لأنها سبب للكثير من المشاكل الصحية والاجتماعية بالإضافة الى معظم حوادث الطرق.

الأهم من هذا في أوربا اكتشفت أن هناك أيضاً شيئاً اسمه الدين، الكنائس موجودة في كل قرية ومدينة يدرسون اللاهوت ويحضرون الشعائر ويحتفلون بالأعياد المقدسة، يرسمون الصليب على معظم أعلامهم ويمنحون أطفالهم أسماء القديسين، بل إن الكثير من مدنهم وقراهم تحمل أسماء القديسين والأولياء. حتى الأميركان وضعوا على دولاراتهم عبارة: «نحن نؤمن بالله».

الأوروبيون مثلنا، فيهم الطيبون وفيهم الأشرار، وبعضهم يعاني أيضاً من العقد والانحرافات النفسية. ربما هم أسوأ منا في بعض النواحي، يعيشون الانمساخ والتآكل بسبب هيمنة روح المنافسة وثقافة السوق والعزلة الفردية وتلوث الطبيعة والمخدرات والعنصرية وحوادث السير والانتحار والتسلح والخطر النووي.

قبل اكتشاف أوربا كنت أرثي لحال الشخص الذي يذهب للحج أويؤدي فروض الصلاة والصوم وفي أحسن الأحوال كنت أقول عنه: «مسكين ضيع شبابه». الآن بدأت أدرك أن الصوم والصلاة والحج والبكاء في عاشوراء ممارسات إنسانية لخلق حالة من السلام الروحي في نفس الإنسان، ومحاولة للحوار بين الإنسان والكيان المطلق، ليكن الله أو بوذا أو براهما أو المجهول أو أي كان. حتى الإنسان العلمي الملحد يلبي من دون قصد حاجته للاتصال بالقوة المطلقة: الاستماع الى الموسيقى والرقص والإبداع الفني والتمعن بالجمال والذوبان في خلجات العشق والحب بأنواعه، كلها بالحقيقة طقوس لمناجاة الكائن المجهول الأعظم.

ترى الأوروبيين لم يتركوا شيئاً من التراث والتقاليد إلا درسوه وسجلوه وعملوا على إحيائه وتطويره. وأن سر حضارة أوربا وعنفوانها يكمن في قوة شخصيتها التاريخية وحفاظها على أصالتها التراثية والدينية. الثورة العقلية الأوربية لم تبدأ كما نتصور برفض المسيحية ومعاداة الكنيسة، بل قبل كل شيء كانت بالعودة الى التراث الأوروبي الماقبل المسيحي

والروماني واليوناني. وبالتالي تطوير المسيحية وتطويعها لكي تتقبل التراث الأوروبي القديم ومن ثم تتقبل العلم والحداثة الأوروبية الأصيلة.

صحيح أنهم أخذوا الشيء الكثير منا حتى قبل الإسلام والأندلس. هل نسينا أن الديانة المسيحية قد ولدت ونشأت في منطقتنا وصنّاعها والمبشرون بها خلال قرون كانوا من أسلافنا! بل إن معظم الطقوس والتراتيل الكنسية مقتبسة نصاً من تراثنا، حتى ثياب أسلافنا لا زال يرتديها كهنة أوربا: الجلباب والطاقية ثم الفوطة البيضاء على رؤوس الراهبات!

رغم ذلك فإن الأوروبيين طوعوا المسيحية حسب واقعهم ومتغيرات عصرهم ابتداءاً من الكاثوليكية ثم البروتستانتية وصولاً الى العلمانية التي لم تلغ المسيحية حسبما نتوهم بل طوعتها حسب حاجات المجتمع والدولة الجديدة. نهضة أوربا ابتدأت بالكشوفات الجغرافية ثم الفتوحات الاستعمارية وحتى التصفيات العرقية. كل هذا والكنيسة كانت حاضرة والمبشرون المسيحيون كانوا في مقدمة الجيوش بل إن الكنائس الأوروبية منذ الحروب الصليبية كانت تعتبر المسيحيين العرب ناقصي الإيمان، ولهذا عملت منذ قرون وحتى الآن على إخضاع الكنائس العربية النسطورية واليعقوبية والمارونية والقبطية الى هيمنة الكنيسة الكاثوليكية ثم البروتستانتية.

هاهي أوربا بعد قرون العلم والعلمانية، لم تتخلص أبداً من المعتقدات الدينية بل هناك عودة كثيفة الى الدين مع نمو مستمر للطوائف الجديدة مسيحية وشرقية. ثم بروز التيارات السياسية والفكرية المطالبة بالتخفيف من هيمنة العلم والتقنيات واحترام البيئة والاعتراف بالطب الشعبي والعلاجات الروحانية وحتى السحرية.

مختصر الحديث أخيراً في أوربا سقطت تفاحة نيوتن على رأسي واكتشفت الحقيقة: أن الأوروبيين لا تدور حولهم الشمس بل هم بشر مثلنا يدورون حول الشمس بكل طيبة وتواضع. لا هم ملائكة كما يصورهم علمانيونا ولا هم شياطين كما يتوهمهم متدينونا. الفرق الوحيد بيننا وبينهم يكمن في مشيئة التاريخ والجغرافية التي منحتهم منذ قرون فرصة بناء ذاتهم وخلق عناصر قوى مادية ومعنوية تضخ فيهم الاحساس بالتفوق والهيمنة على العالم «المتخلف». هذا التفوق هو الذي يجعل الأوروبيين يصمدون أكثر أمام أسباب الانمساخ والتمزق ويحافظون على نوع من الاستقرار الاجتماعي السياسي.

أما نحن فلأننا دائماً وراء أوربا، فإننا بحاجة إلى أجيال وحروب وخيبات لكي ندرك أن الغرب بدأ ينتبه لمغالاته في عبادة العلم والتقنيات واحتقار التقاليد الروحية والمواريث الإنسانية.

الدشداشة والسيارة

ذات يوم كنت أتمشى مع صديق بمحاذاة بحيرة جنيف، فجأة سمعته يردد بسخرية:

ـشوف شوف... يظل هؤلاء العرب متخلفين دائماً.

رأيت أمامنا مجموعة من الخليجيين بثيابهم التقليدية اصطفوا ليلتقط لهم أحدهم صورة وخلفهم البحيرة.

استمر صاحبي بتعليقه:

ـ شوف هؤلاء «المعكَلين» ـ أي لابسو العقال لم يتعلموا حتى الآن أنه ليس من الذوق أن تحشر نفسك في الصورة. شوف الأوربيين يا أخي لهم حس جمالي بالأشياء، تلاحظهم لا يحشرون أنفسهم بالصورة إنما يصورون المشهد وحده، أما نحن فنبقى متخلفين.

لم أجبه وبقينا نسير. بعد خطوات قليلة رأينا المشهد نفسه، ولكن هذه المرة لم يكونوا عرباً بل كانوا يابانيين!

حينها التفتّ الى صاحبي وسألته:

ـ ما رأيك إذن بهؤلاء اليابانيين، هل هم أيضاً متخلفون؟ تراهم أكثر من العرب يحشرون أنفسهم ليس فقط في الصور السياحية بل حتى في صور التجسس.

هذه الحكاية أثارت فيّ عدة معان، أولها أننا دائماً نقارن أنفسنا بأوربا وكل شيء لا يمارسه أو يتذوقه الأوروبيون هو بالتأكيد متخلف غير حضاري. حتى أحاسيسنا الجمالية وأذواقنا مسخناها حسب مقاييس أوربا. وقعنا دون وعي منّا بـ «العنصرية الذاتية»، السخرية والاحتقار لشعبنا وأحاسيسه وأذواقه.

الجانب الآخر من الحكاية، أن صاحبي سخر من هؤلاء العرب لأنهم «معكَلين»، رغم أني أعرف جيداً أن أباه مثل أبي كان يرتدي العقال العربي والصاية العراقية. لكن «الحضارة» عودتنا السخرية من «أهل العُكَل»، لأن الحداثة والتقدم ارتبطا لدينا دائماً بـ «الأفندية والخواجات».

أتذكر أننا أبناء الحارات الشعبية في بغداد كنا نعاني من الشعور بالنقص من لبس «الدشاديش» مقارنة بـ «المتمدنين» الذين يرتدون «البيجامات». في أوربا اكتشفت ان البيجامة يرتدونها للنوم فقط. أما نحن فتعودنا أن نرتديها ونفتخر بها في الطرق والمقاهي. هناك طرفة في

قرى أهوار العمارة تتحدث عن طفل ريفي أتى يوماً المدرسة مرتدياً البيجامة وعندما سأله المعلم عن الأمر، أجابه مفتخراً:

ـ يا أستاذ هذا قاط (أي بدلة) جابه أخوي من بغداد.

قضية الثياب هذه قد تبدو ثانوية في نظر الكثيرين، ولكنها بالنسبة إليّ خلاصة التعبير عن الاحتقار الذاتي الذي عشناه ونعيشه. الآن فهمت لماذا أصر غاندي منذ إعلان تمرده وحتى موته على ارتداء الملابس التقليدية الهندية رغم أنه أمضى شبابه الأول كمحام عصري وأنيق على الطريقة الأوربية. موقف غاندي هذا لعب دوراً كبيراً في تقوية الإحساس بالأصالة والهوية الهندية. لا زالت حتى الآن الثياب التقليدية الهندية رجالية ونسائية سائدة لدى جميع الهنود بما فيهم النخب السياسية والمثقفة والغنية. هذا الموقف انعكس على جميع تفاصيل الهوية الهندية وخفف من حدة الانمساخ الحضاري والسياسي الذي عانوه خلال قرون الاحتلال البريطاني.

ليس صدفة أبداً أن جميع الحركات الإسلامية تصر على ارتداء الثياب التقليدية. إنها ردة فعل طبيعية على الاحتقار الذي مارسه «المتحضرون» ضد هذه الثياب (موضوع ثياب المرأة سنتطرق له لاحقاً).

قبل فترة تذكرت أن الحكومة في العراق منذ سنوات منعت قيادة السيارة لمرتدي الدشداشة. سألت الأصحاب إن كان منع الدشداشة يعود الى إعاقتها لحركة القدمين أثناء القيادة؟

لكن الجميع استغربوا تساؤلي عن قضية واضحة كالشمس:

ـ أخي فكر شوية، معقولة تسمح لواحد متخلف يلبس الدشداشة ثم يسوق السيارة. الله أكبر، يعني الواحد يتحضر شوية. السيارة مع الدشداشة!!

هكذا مسختنا تربية عقود الحداثة!

لا أحد ينكر أن أجيال الحداثة والتغيير بجميع تياراتها الفكرية والسياسية كثيراً ما كانت صادقة في نواياها، بل إن الكثير من الحداثيين قد كافحوا باخلاص وضحوا حتى بأرواحهم من أجل تطورنا الحضاري والإنساني. لكن مشكلة هذه التيارات أنها كانت مهووسة بالنموذج الغربي «اشتراكي أو رأسمالي» الى حد الاعتقاد بوضاعة وتخلف كل ما هو غير غربي.

منذ البداية فرضت حكوماتنا على الموظفين والعمال والطلاب خلع الثياب الوطنية وارتداء الثياب الأوروبية. حتى بعض المتدينين «المتنورين» ساهموا بحسن نية في هذه الحملة. قرأت مرة

أنه في سنوات الأربعينات أعلن مفتي سورية عن أسفه لاستمرار الناس في ارتداء «الثياب الدينية» أي الثياب الوطنية، مفتينا الطيب هذا كان يعتقد أنه لأمر سيء أن يتشابه بالثياب الناس العاديون مع المتدينين وأن تنعدم الفروق الشكلية بينهما. أي بصراحة، يا جماعة حلوا عنا كونوا أفندية واتركوا لنا الدين وثياب الدين.

هكذا إذن اكتملت المأساة، وتم الفصل التام بين الدين والدنيا، بين الماضي والحاضر، حتى بالثياب خلقنا عالمين نقيضين: عالم أهل الحداثة الأفندية ذوي البنطال والقميص والكرافات والقبعة والرأس المكشوف، وعالم أهل الدين والبساطة والتقليد و «التخلف» ذوي الشروال والجلابية والطاقية والعقال والعمامة!

أما بالنسبة الى ثياب المرأة فالمسألة أكثر تعقيداً وتحتاج الى قسم خاص بها.

أفخاذ تقدمية!

أتذكر في أواخر الستينات أنه انتشرت في بغداد بين النساء موضة الـ «ميني جوب». وهو الثوب القصير الى ما فوق الركبة. بالإضافة الى موضة البناطيل الضيقة التي تكشف عن ثنايا الجسد. حتى الشابات اللواتي حافظن على لبس العباءة السوداء اضطررن الى ارتداء هذه الثياب تحت العباءة. التعيس في الأمر أن المرأة التي غيرت مظهرها لم تغير سلوكها وعقليتها. ظلت كعادتها صعبة المنال متحفزة للرد بعنف على أي بادرة تحرش. تصوروا إذن حال الرجال في صيف بغداد حيث الحرارة عند الظهر تتجاوز الخمسين. الجميع يلهث من العطش والعرق النازف بينما الأفخاذ السمراء والبيضاء تتهادى تحت الشمس بشموخ وتوهج مثل حراب الجنود. بين حين وآخر يفاجئك مشهد اللحم البض يقدح من بين سواد العباءة كبرق في ليل دامس. لم يتوقف الأمر عند هذا الحد بل تطورت الأزياء نحو ما يسمى بالـ «ميكروجوب» حيث يكشف الثوب عن الأفخاذ كلها. صدقوني، إنه الجنون بعينه. لو تعرفون كيف كان حالنا نحن الشباب «التقدميون» كنا نعاني الأمرين: من ناحية يتوجب علينا احترام حرية المرأة وتحضرها و«خلاعتها الثورية»، ومن ناحية أخرى فإن أجسادنا وأرواحنا لا تكف عن العويل كلما واجهنا جبروت تلك الأفخاذ. كنا نخفف عن أنفسنا بالاعتقاد بأن الذنب ذنبنا نحن فحول الشرق المحرومين المكبوتين، بحيث تثيرنا رؤى مثل تلك «الأفخاذ التقدمية» وما علينا إلا تطوير أنفسنا وشعبنا «الطيب البسيط» لكي تصير مسألة الجنس ثانوية جداً، مثل أوربا!

الكثيرون في بغداد يتذكرون حادثة غريبة وطريفة جرت في أواخر السبعينات. كان بطلها وضحيتها إسكافي له دكان يقع في شارع الرشيد. كان هذا المسكين يمضي وقته في ترقيع الأحذية وتلميعها ، بينما الأفخاذ الكريمة لا تكف عن المرور أمام دكانه ؛ بل ما فتئت أعدادها تتفاقم كجراد ينهش في روحه. كلما رفع رأسه شعر بسكين الشهوة تنغرز في أعماقه فيخفض عينيه على الحذاء لاعناً الزمان والقدر. ذات ظهيرة رمضاء تفجرت دماء الغضب في عروقه بعد أن فقد الأمل تماماً في الإبقاء على صبره ، وإذا بصاحبنا يمسك شاكوشه «مطرقته» ، ثم يخرج «عضوه» ويضعه على السندان صارخاً به : «كل مشكلتي بسببك ، لأقتلك قبل أن تقتلني» ، ثم عاجله بضربة عصماء جعلته يفقد وعيه تماماً ويشرف على الموت لولا سيارة الإسعاف.

موضوع ملابس النساء إذن ليس ثانوياً كما يدعي الكثيرون ، بل هو الآن بالذات يعتبر قضية أساسية في الصراع الدائر بين العلمانيين والمتدينين. منذ العشرينات تفجر الصراع حول قضية ثياب المرأة مع انطلاقة الدعوة الى السفور ورفض الحجاب والمطالبة بالمساواة القانونية والاجتماعية. مسألة ثياب المرأة منذ البدء وحتى الآن ظلت نقطة انطلاق أساسية في الصراع الفكري السياسي والاجتماعي بين دعاة الحداثة ودعاة السلفية.

طبعاً يتوجب علينا بهذه المناسبة التأكيد قبل كل شيء على حقيقة الوضع اللاإنساني للمرأة في مجتمعاتنا. لكن موضوع الثياب أمر يناقض مسألة مساواة المرأة لأنه يحولها الى موضوع جنسي لا أكثر.

مشكلتنا في الحقيقة أننا على جري العادة ، اتخذنا من النموذج الغربي مثالاً مطلقاً للحلول الممكنة وانقسمنا حوله الى نقيضين : العلمانيون يدافعون عن وضع المرأة و«ثيابها» في المجتمع الغربي ، والمتدينون يدينونه ويعتبرونه نموذجاً للفساد والتفسخ والتعري. من الطبيعي أن نختلف مع المتدينين الذين اعتبروا أي زينة أنثوية هي رجس من عمل الشيطان حتى خلطوا بين الطهارة والقبح. المرأة الطاهرة لدى المتدينين بالضرورة ان تصير قبيحة المنظر ومحجورة في كيس فضفاض وغطاء رأس خانق ، في حمى عدائهم للنموذج الغربي تناسوا أن أمهاتنا خلال جميع قرون الإسلام وما قبل الإسلام وحتى الآن بقين يرتدين الثياب الوقورة والمقبولة دينياً دون التخلي عن التنويع والتزين بالألوان والحلي والوشم. لدينا ما لا يحصى من الأزياء الشعبية والتاريخية المتميزة بالأناقة والكفاية العملية والصحية ما يغنينا تماماً عن اللجوء لأكياس العفة هذه.

لكن رفضنا لهذا التحجر الديني لا يمنع من إدانتنا أيضاً للتحجر العلماني والغربي بتقديس عري المرأة! نختلف مع المتدينين في تقديسهم لحجاب المرأة وتقبيحها ثم نختلف كذلك مع العلمانيين بربط تحرر المرأة بمدى قدرتها على الإثارة وإظهار المفاتن. هناك فرق بين الجمال والإثارة، الجمال يخاطب المشاعر والعقل والقلب، أما الإثارة فتخاطب شيئاً آخر نعرفه جميعاً ونعاني من حرقته ليلاً ونهاراً.

مشكلة ثياب المرأة هذه ليست خاصة بمجتمعاتنا بل هي في صلب معاناة المجتمعات الغربية. يكفينا بعض التعمق وراء المظاهر السينمائية المفتعلة لنكتشف أن معاناة الرجل الغربي الجنسية والعاطفية لا تقل حدة عن معاناة الرجل في بلداننا. صحيح أن درجة الكبت أقل بكثير مما لدينا، وفرص العلاقة والإشباع متوفرة أكثر مما في بلداننا إلا أن هذا لا يمنع من بقاء المشكلة رغم اختلافها الشكلي وتلونها.

عـري لا يرحم

كم هي أسطورية تلك الفكرة السائدة لدينا عن الرجل الأوروبي المترفع عن شهوات الجسد. الحقيقة أنه لا يختلف كثيراً عن أي رجل في العالم : يكره ويعشق ويغار ويخجل، ويعيش مثل كل الرجال حيرة علاقته بالمرأة. رغم كل مظاهر التحرر والإباحية والمساواة بين الرجال والنساء إلا أن علاقة الرجل بالمرأة أعمق وأعقد بكثير من أن تحلها مظاهر الإباحية والمساواة المزيفة السائدة في الغرب. من معالم هذه المعضلة مثلاً استفحال ظواهر اجتماعية مرضية مع استفحال جنون العري والإثارة الذي راح يسود عالم المرأة وأزياءها: مشاكل تعرض النساء لأنواع المضايقات والتحرشات والابتزازات الجنسية، أي ما يسمى بـ «هوس الاستعراضية ــ I, Exhibitionisme» ويعني الممارسات الخليعة التي يقوم بها الرجال للتحرش بالنساء، وهي تهمة يعاقب عليها القانون بالسجن لعدة أسابيع. ثم هناك أيضاً مشكلة «الابتزاز الجنسي – I, Harcelement Sexuel» أي استغلال الرجل لمنصبه لابتزاز المرأة الخاضعة لسلطته. هناك احصائيات نشرت في سويسرا تكشف عن نسبة 40٪ من العاملات والموظفات تعرضن لمثل هذا الابتزاز. أما مشكلة تكاثر حالات الاغتصاب فإنها تأتي في قمة معاناة المرأة. الرجل طبعاً هو المذنب في جميع هذه الحالات!

في الفترة الأخيرة ثمة أصوات حتى نسوية بدأت ترتفع متسائلة عن دور المرأة في تشجيع هذه المشاكل. إذا كان الرجل يمارس بعض الحركات ويظهر بعض المشاهد لكي يتحرش بالمرأة

ويجرح مشاعرها، فإن المرأة يكفيها ثيابها المصممة بأكثر الطرق دهاءً للتحرش بالرجل وإلهاب مشاعره!

إني طالما اندهشت من سر هذه الأسطورة السائدة بيننا عن الرجل الأوروبي المكتفي والشبعان! لمن إذن هذه المباغي وهذه المؤسسات الجبارة المتخصصة بعوالم الجنس والعلاقات السرية. هل هي فقط لرجالنا القادمين من الشرق؟ في كل مدينة أوروبية هناك المواخير وعلب الليل ومحلات الجنس وسينما الخلاعة وأفلام الفيديو والمجلات المتخصصة في مختلف عوالم الجنس والإثارة. بل في الأعوام الأخيرة بدأت تظهر الإبداعات العجيبة الغريبة من أجل تلبية حاجات الرجل المثارة والمعذبة: الهواتف الخلاعية بجميع أنواعها وألعاب الكمبيوتر الجنسية والبرامج التلفزيونية الخاصة وما لا يحصى من المؤسسات السرية والعلنية المتخصصة بأنواع الشذوذ والبغاء وإغراء النساء والشبان للدخول الى سوق الجنس.

مختصر الأمر، أن الرجل الأوروبي مع كل اختلافاته عنا فإنه من أجل إرضاء حاجته للمرأة يبقى خاضعاً للقانون الكوني الذي أنوجد منذ انبثاق المجتمع البشري: إما عن طريق العلاقة الشرعية العلنية القائمة على الديمومة والعواطف الثنائية المتبادلة مثل الزواج أوالصداقة الثابتة، وهذا هو السائد في أوربا؛ أو عن طريق العلاقات السرية العابرة باستخدام المال والمركز الاجتماعي (أي البغاء). في كل مكان وزمان ظل سائداً هذا القانون، لأن المرأة تظل محكومة بطبيعتها الفيزيولوجية التاريخية مهما اختلفت الظروف والحضارات: تعاني الحيض ومخاطر الحمل وتحذر من عضلات الرجل ونزواته الفحولية. منذ القدم تعودت المرأة أن لا تمنح نفسها إلا في حالتين: إما من أجل العواطف والحياة المشتركة وتحقيق حلم الأمومة، وأما (في حالات محدودة وحسب الظروف الاجتماعية) تمنح نفسها من أجل المال والمصالح. وهناك نسبة ضئيلة من النساء الباحثات عن المتعة فقط لكن معظمهن يمارس التجربة من أجل العثور يوماً على رجل الأحلام «لتعيش معه بثبات ونبات وتخلف له صبياناً وبنات»!

إذن، الرجل الأوروبي مثل جميع رجال الأرض يعاني من الكبت والإثارة والرغبة الممنوعة بالمرأة الأخرى. وعري المرأة وحركاتها وثيابها المثيرة تلهبه وتعذبه وتدفعه للجوء الى شتى الوسائل العلنية والسرية لإخماد الشهوة في جسده. ثم هل تعرفون أن «العادة السرية» منتشرة في فرنسا مثلاً بين أكثر من 80٪ من الشباب و 60٪ من الشابات، حسب جميع الاستكشافات والاحصاءات الصحافية!!

إن جزءاً كبيراً من إشكالية الرجل والمرأة في المجتمعات الغربية يكمن في اعتبار درجة تحرر المرأة تابعة لدرجة ممارستها للإثارة والتعري. هناك الكثير من مثقفي الغرب بدأوا يدركون أن ثمة تقديس متفاقم للعري والإثارة. إذا كانت المرأة في بلداننا شبه محجوبة وغائبة عن الحياة العلنية، فإنها في أوربا حاضرة بعريها الذي لا يرحم. إينما تلتفت تأتيك صفعات الإثارة من كل صوب: أفخاذ وأرداف ونهود تتلوى مثل الأفاعي في كل مكان، في الشوارع والباصات والمحلات وبوسترات الحيطان والصحف والأفلام. هوس أحمق لا يدل أبداً على الإشباع بقدر ما يدل على جنون الكبت وتفاقم اللعبة الأزلية بين الرجل والمرأة.

الأنكى من هذا أن ظاهرة الخلاعة والثياب المثيرة راحت تتفاقم مع تفاقم الخوف من مرض الإيدز. يبدو أن الخوف المتعاظم من هذا المرض حد كثيراً من حرية العلاقات الجنسية ودفع بقوة الميل نحو العلاقات الدائمة والمستقرة وتكوين العائلة والإخلاص المتبادل. لكن الأمر يبدو وكأن هناك قوى خفية تدفع الى بروز نوع من الانتقام الذاتي والتعذيب المتبادل: كلما تعاظم الخوف من الحرية الجنسية وتنامت ميول العلاقة الجدية، كلما تعاظم ميل المرأة الى الإثارة والتفنن بلبس الثياب الكفيلة بتسبب الأزمات القلبية وغير القلبية عند أطهر الرجال. الذي يستحق الملاحظة أن معظم مصممي أزياء النساء في أوربا هم من الرجال «المستأنثين أو المستخنثين». يُعتقد أن إصرارهم على إبداع الموضات النسائية المثيرة وتفضيل العارضات الخارقات الجمال والرشاقة والأنوثة، هو نوع من الانتقام من أندادهم الرجال «الطبيعيين».

يخطىء من يظن أن هذه الحالة هي من ضرروات الحداثة. ويخطىء من يعتقد أن هذا العري حالة طبيعية وأصيلة في أوربا. حتى أوائل هذا القرن كانت المرأة الأوروبية بصورة عامة ترتدي الثياب العريضة الطويلة التي لا تكشف إلا عن الأقدام والكفين والرأس. بل في القرى لا زالت المرأة مثل نظيرتها الشرقية تغطي شعرها. لا ندري كيف حصل الأمر وتحولت مسألة تحرر المرأة الى تحرر الجسد من وقار الثياب المريحة والجميلة. يمكننا الافتراض أن هذه الظاهرة نتاج عقلية نظام السوق والروح الاستهلاكية: كلنا يعرف قانون العرض والطلب في النظام الليبرالي. المسألة المهمة في هذا النظام هو مبدأ الدعاية وإثارة الرغبة بالطلب. إن الإشباع المعقول لا يجب أن يحدث أبداً، وإلا تكدست البضائع وهبطت الأسعار وكسد السوق. الإثارة الدعائية هي الكفيلة بتجديد الحاجة وإبقاء الزبون دائم التوتر واللهاث وراء المنتجات. بنوع من التبسيطية يمكننا تفسير سبب ارتفاع هذه الحمى في الغرب لتقديس عري المرأة وإثارتها. إن عقلية السوق والعرض والطلب لم تترك شيئاً في أوربا إلا وأصابته بعدواها بما في ذلك علاقة المرأة بالرجل.

حداثتهم

ذات أمسية، كنا مجموعة جالسين ندردش، فتطرقنا الى تجربة بلد عربي «ثوري». أراد أحدنا أن يذكر مثالاً على مدى تقدمية الحكومة ومدى تخلف الشعب:

ـ تصوروا أن هذه الحكومة شيدت العمارات، لكن الناس لتخلفهم أسكنوا الخرفان والمواشي معهم في الشقق حتى لتشاهد رؤوس الخرفان متدلية من الشرفات!

طيب، لنفترض ان هذه الحكاية صحيحة، فهل تصلح مثالاً على تخلف الشعب أم الحكومة؟ علماً أن مساحة ذلك البلد قد تعادل نصف مساحة أوربا الغربية وسكانها أقل من سكان مدريد. طيب هل كان من الضروري تقليد الحضارة الغربية وبناء العمارات. أما كان من المعقول بناء البيوت التي تحترم خصوصيات الناس وظروفها المعيشية. هل تربية المواشي دليل التخلف، وهل أوربا بلا فلاحين ولا رعاة؟ وصل بنا الأمر أن نحتقر جميع مظاهر الحياة التقليدية حتى الموجود منها في أوربا نفسها وكأن الغرب لا يقطنه غير العلماء والمثقفين ونجوم السينما!

حتى الآن لا زال الكثير منا يعتقد أن حليب نستله أفضل لأطفالنا من حليب الأمهات! وأن كثرة السيارات والآلات والعمارات دليل الحضارة والتقدم، تمشياً مع قطيعتنا التاريخية قمنا بعملية فصل قاسية بين الواقع والحاضر، بين موروث الماضي ومشروع المستقبل، حجزنا معظم تقاليدنا ومعتقداتنا في تابوت مقدس اخترعه لنا الأوروبيون اسمه «الفولكلور ـ التراث الشعبي» ثم قولبنا إبداعاتنا الحديثة حسب الذوق الغربي: الموسيقى والشعر والفن والثقافة، بل حتى أزيائنا الموروثة. باسم التطور والحداثة أهملنا كياننا الروحي والعقلي المجبول بخصوصيات آلاف الأعوام من التاريخ والجغرافيا والبيئة.

أما حداثة الأوروبيين فهي على عكس حداثتنا تماماً. كل شيء في حضارتهم الحديثة قد تأتى من تاريخهم وميراثهم: مأكلهم ومشربهم، ثقافتهم وفنونهم، أسماؤهم وألقابهم، وحتى ثيابهم. الأوروبيون لم يكتفوا بتبني تراثهم وإحيائه بل راحوا يدرسون تراث الشعوب الأخرى ويبدعون ويتخصصون فيه أكثر من أصحابه أنفسهم. حتى تاريخنا هم الذين كتبوه لنا. كشفوا لنا عن حضاراتنا القديمة وعلمونا لغاتها وبنوا لنا متاحفها وألفوا الكتب عنها وعلمونا دراستها في جامعاتهم. حتى تاريخنا الإسلامي تفننوا في كشفه لنا: الحلاج وثورة الزنج وابن خلدون ومواضيع لا تحصى قدمها لنا الأوروبيون. لو أراد أحدنا معرفة تاريخ أي

شيء عن بلدانا منذ فجر الخليقة وحتى الآن فإنه مضطر للاعتماد على المصادر المكتوبة بلغات أوروبية مثل الإنكليزية والفرنسية والألمانية! في أوربا أدركت قيمة حكايات ألف ليلة وليلة التي كنت استنكف من قراءتها بإعتبارها خزعبلات عتيقة. هنا عرفت أنها موجودة في كل مكتبة شخصية وعامة الى جانب الكتب المقدسة.

بسبب هذه الحداثة التي تحترم الأصالة الوطنية فإن المجتمعات الأوروبية عموماً لا تعاني من التناقضات العقلية الاجتماعية بالحدة ذاتها التي لدينا. أول ما يجلب الانتباه في المجتمعات الغربية قلة التمايزات الشكلية والعقلية والحضارية بين الطبقات والأجيال المختلفة. صحيح أننا نجد جميع الانقسامات المعروفة: مؤمن وملحد، ريفي ومديني، تقدمي ومحافظ، نساء ورجال، جيل قديم وجيل جديد، لكن تبقى التمايزات العقلية والحياتية بين هؤلاء أخف بكثير من التمايزات في مجتمعاتنا. عندما ننظر مثلاً الى الفروق المظهرية والحضارية بين جيلي الآباء والأبناء في أوربا فإن الفروق بينهما عموماً لا تتعدى الفروق بين سنوات عمريهما واختلاف الظروف التقنية والثقافية التي مرت عليهما. ترى الاب والابن، الام والبنت، متقاربين في الملبس والمأكل والمشرب والثقافة وتجارب السفر وارتياد أماكن الرياضة والتعلم والمتعة. أما عندما ننظر الى تنوعات مجتمعاتنا فإن الفروق الحياتية والشكلية والعقلية بين الفئات المختلفة قد تتعدى القرون: في الملبس والمأكل والمشرب والسفر والمعتقدات الفكرية والدينية ونمط الحياة المعيشية. بكل بساطة ليس هناك ما يجمع بين فئات مجتمعنا: الأبناء يختلفون تماماً عن الآباء. المتمدنون يختلفون تماماً عن الريفيين، العلمانيون يختلفون تماماً عن المتدينين، وهكذا دواليك.

لنتصفح مثلاً أي مجلة عربية اجتماعية فنية قد نجد فيها مقالة تشتم الغرب وفيها صفحة تراث ودين في الوقت نفسه نجد فيها كل ما هو نقيض تام لواقعنا. معظم الدعايات تظهر رجالاً ونساءً بسحنة وهيئة أوروبية تماماً حتى دعاية الصابون الوطني تحمل صورة رضيع أشقر بعيون خضراء وابتسامة غربية ساحرة. صفحات الأزياء عادة منقولة من صحف غربية، ومعظمها أزياء تعجز عن ارتدائها حتى المرأة الغربية. صفحة أخبار السينما العالمية تحدثك عن آخر صرعات السينما مع صور نجوم ونجمات فوق البشر. صفحة الغرائب مليئة بأخبار العجب عن المجتمعات الغربية. حتى صفحات أخبار الفن والسينما العربية تظهر لك نجوم ونجمات العرب بآخر الصرعات الغربية بسذاجة تستحق الرثاء. لا أحد يدري كيف حصل أن معظم نجماتنا شقراوات بيضاوات أكثر من الأوروبيات! تأتيك أخيراً صفحات

أخبار نخبة المجتمع. تشاهد صور حفلات الزواج والاستقبال تحمل من عجائب المظاهر ما يثير سخرية حتى الإنسان الغربي: النساء في آخر الموضات تشع من عيونهن أنوار الحضارة كحوريات الجنة، والكثيرات منهن بأسماء تقدمية جداً مثل: كارول وجوليا وزيزي وميمي. أما الرجال فتراهم يضحكون بخيلاء الديوك الرومية مخنوقين بالكرافات والجاكيتات الثقيلة وأحزمتهم تضغط بلا رحمة على كروشهم الفارهة. أما العرسان فترى واحدهم محجوزاً ببدلته السموكن وبجواره عروسته ترتدي فستان عرسها الأوروبي الذي تخلت عن لبسه الكثير من نساء الغرب(*).

أي متفحص للحياة العقلية الغربية يكتشف أن معظم الإبداعات التي نعتبرها رمز الحداثة والتقدم ما هي في الحقيقة إلا تراث وتقاليد شعبية غربية. خذ مثلاً «الموسيقى الكلاسيكية» رمز النخب الغربية المتميزة، ما هي إلا الموسيقى التراثية المثقفة، مثلما هي عندنا الموشحات الأندلسية أو المقامات العراقية. موسيقى البيتلز (الخنافس) التي انتشرت على أنها رمز الحداثة والتمرد ما هي إلا تطوير للموسيقى الشعبية الإنكَليزية. موسيقى الجاز الأميركية ما هي إلا تحديث لموسيقى الزنوج الموروثة عن أسلافهم الأفارقة. الثياب الحديثة من بنطال وقميص وسترة وقبعة ما هي إلا تطور طبيعي للثياب الأوربية المعروفة منذ قرون.

أتذكر مثالاً على مدى استخفاف نخبنا المتعلمة بتراثنا الوطني: تتحدث الباحثة الموسيقية العراقية شهرزاد حسن في كتابها «دور الآلات الموسيقية»، أنها منذ أعوام تقدمت بطلب الى وزارة الثقافة العراقية من أجل القيام بكشف وإحصاء للآلات الموسيقية الموجودة في العراق. حينها أجابها المسؤول ساخراً: «لماذا تتعبين نفسك وتكلفينا المصاريف، آلاتنا معروفة ولا تتعدى أربعة أو خمسة: مثل «الطبل والناي والعود والربابة». بعد إلحاح ومحاولات تمكنت هذه الباحثة من إقناع المسؤولين. أنجزت البحث بعد سنوات من التجوال في معظم قرى العراق ومدنه.. كانت النتيجة مدهشة: اكتشفت هذه الباحثة أن هناك أكثر من ستين آلة موسيقية بعضها موروث منذ زمن سومر وبابل وآشور ولا زالت مستعملة في طقوس الطوائف الدينية المتنوعة وكذلك في الحفلات الشعبية في المدن والقرى. اكتشفت كذلك مئات الألحان والأنغام الأصيلة والمجهولة تماماً من قبل أساتذة الموسيقى وفقهائها!

---

* يلاحظ ان المجتمع المغربي هو الوحيد من بين كل المجتمعات العربية الذي لا يزال فيه العرسان حتى في العوائل (الراقية) يرتدون الثياب الوطنية. ان ثياب العرائس خصوصا هي من اجمل الثياب التي يمكن ان تشاهدها العين.

إننـا في حمـى لهاثنـا وراء كنـوز الغـرب تناسـينا كنوزنـا الموروثـة منـذ فجـر التـاريخ. منـذ العشرينات رحنا نلهث لنجعل موسيقانا تستوعب النغمات والآلات الموسيقية الغربيـة. أدخلنا الأكورديون والكمان والإيقاع والبيانو والغيتار والأرغـن. والآن اجتاحنـا الجهـاز الألكترونـي الجامع لكل الآلات والألحان!

نخبنـا المتحضرة اعتقـدت أن تطـور موسـيقانا سـيحدث عنـدما نـبني دور الأوبـرا ونـشكل «الأوركسترا السمفونية الأوربيـة». ألم يكـن مـن المعقـول، أولاً الـتفكير مـثلاً بتكـوين المراكـز والفرق المتخصصة باستعادة الآلات والألحان الـتي كانـت سـائدة في حـضاراتنا القديمـة؟ ألـيس من المعقول أيضاً أن تشكل فرق تعزف لنا موسيقى جيراننـا في الحـضارة والجغرافيـة مثـل إيـران وتركيـا وافريقيـا، ثـم بعـد هـذا يمكننـا أيـضاً تـشكيل الفـرق الـسمفونية الغربيـة وحتـى بنـاء الأوبرات، لمَ لا؟!

فنانونا ظلوا بأغلبيتهم الساحقة مغمضي الأعين عن تراثنا الموسيقي الفائق التنـوع والثراء، وحصروا فنهم في ألحـان مكـررة وآلات محدودة معظمهـا غربيـة، بـل هـي محـدودة الاسـتعمال حتـى في الغـرب. النـاظر الى الموسـيقى الغربيـة يلاحـظ أن لكـل فرقـة تخصـصها الموسـيقي ولهـا آلاتهـا الـتي تميزهـا عـن الآخـرين. لـو نعـد آلات الموسـيقى المستخدمة في الفـرق الغربيـة بكـل أنواعها، لأحصينا ربما الآلاف من مختلف الآلات ومعها الألحان المختلفة. لم يتركوا آلة أو لحناً على وجه الأرض إلا واستخدموه وجعلوه جزءاً مـن موسـيقاهم. بفـضل زنـوج أميركـا تمكنـوا من تطويع الموسيقى الإفريقية وآلاتها لتكون جزءاً من تراث الغرب الموسيقي، بـل إن بعـضهم أدخل التراتيل الدينية في غنائه كما فعلت مادونا مع تراتيل فيروز، وكما فعل المغنّي الإنكليزي «كوين» مع ألحان عاشوراء واللطم وترديد الجموع.



في حواري مع الغـربيين، تعلمـت تـذكيرهم بـأن لـيس كـل تقاليـدهم «تقدميـة» ولـيس كـل تقاليدنا «رجعية». خذوا مثلاً عادة استخدام اسم العائلة في الغرب. الشخص يحمل دائمـاً اسـم العائلة نفسه «أي العشيرة» الموروث منذ قرون الإقطاع، حتى الآن بصورة لا شعورية يـصيبني الانزعاج عندما ينـاديني أحـدهم باسـم عـائلتي كـدليل علـى الاحـترام: «مـسيو ماتـار ــ سـيد مطر!». لماذا هذا الاحتقار لاسمي الشخصي، لماذا هذا الإصرار على تقديري مـن خـلال اسـم عائلتي؟! ثم الأنكى من هذا أنهم يجبرون الزوجة على إلغاء اسم عائلتهـا وحمـل اسـم عائلـة

زوجها. بل في سويسرا هناك ما هو أكثر غرابة وطرافة، أنهم في الوثائق الرسمية يفرضون على الزوجة أن تغير حتى مكان أصلها حسب مكان أصل الزوج. هذه هي التقدمية والحداثة!

احترام الذات من اجل احترام الآخر

أوّل شروط تحقيق العلاقة السوية مع الغرب أن نعترف بتمايزنا عنه. ليس من أجل العداء والخصام إنما بالعكس من أجل تجنب نظرتنا الأحادية إليه سلباً أو إيجاباً، وبالتالي تشوه علاقتنا بذواتنا الفردية والجماعية. إن اعترافنا بشخصيتنا وخصوصيتنا يؤدي الى الاعتراف بخصوصية الغرب وشخصيته المتميزة، وهذا وحده الكفيل بخلق علاقة مساواة وتبادل حضاري.

صحيح أن إشكالية علاقتنا بحضارة الغرب وحداثته أمر واقع فرضته سنة الحياة. أوربا ومكتشفاتها التقنية والعقلية دخلت فينا منذ قرون وصار من المستحيل رفضها أو تناسيها. بل حتى لو أننا قررنا يوماً على طريقة ألبانيا الشيوعية مثلاً قفل حدودنا وقطع علاقتنا بالغرب حتى لو رجعنا الى العصر الحجري. لكن المشكلة أن هذا غير ممكن أبداً، لأن أوربا لا تتركنا مهما فعلنا. هناك التاريخ والجوار والجغرافيا والاقتصاد والنفط خصوصاً.

كل هذا صحيح، أوربا والغرب أمر محتم علينا مهما شئنا. ولكن ألا يحق لنا أن نحلم بتخطي هذه الإشكالية الثنائية التي وضعنا أنفسنا فيها منذ أجيال: إما اعتبار الغرب هو الجنة الموعودة والنموذج الأمثل للتقليد والمقارنة كما يتصور العلمانيون، أو اعتبار هذا الغرب جهنم وبؤرة للفساد والتفسخ كما يتصور المتدينون.

إن تجاوز هذه الإشكالية يكمن في مدى قدرتنا على ابتداع (تيار وسط) يحترم الخصوصية الدينية والحضارية والشعبية، وفي الوقت نفسه ينفتح على علوم الغرب وتقنياته ومعارفه مع الحفاظ على نظرة نقدية إنسانية تميز بين عيوب الغرب ومحاسنه. لكي نتجنب هوس علاقتنا بالغرب، مقتاً أو عشقاً، ونقيم علاقات طبيعية معه من دون خضوع وانمساخ وتمزقات فردية وجماعية. إن لم نستطع أن نصنع الديموقراطية بصورتها المثلى، فعلى الأقل نحلم بخلق حالة من الاستقرار السياسي والسلام الاجتماعي والاعتدال الإقتصادي دون حروب أهلية ودولية وانمساخ علماني وديني وفقر مدقع وأزمات اقتصادية وحياتية مستمرة.

الفصل الأول

تجديد الهوية الفكرية

- من أجل فلسفة وسطية حديثة
- الثقافة بين المجتمع والسياسة والدين
- حول المرأة والفلسفة الصينية (التاوية)
- نموذج للفهم العرقي والتغريبي

ثنائية التطرف والضياع...
وحتمية الفكر الوسطي الجديد

إن التطرف في الانقسام والتناحر بين تيارات الحداثة وتيارات المحافظة في العالم العربي يعود الى التطرف الحاصل في العقل العربي بأكمله. العنف السياسي والاجتماعي والتوترات والانقلابات والحروب الأهلية تعود أولاً الى التطرف العقلي الشامل لكل مفاهيم الحياة والمعتقد، وهذا التطرف يكمن أساساً في سوء الفهم الحاصل بتفسير «ثنائيات» الوجود وما تنتجه من تضاد متطرف في الرؤى الدينية والفكرية والاجتماعية.

إن إشكالية الثنائية هذه مسألة واقعية تواجه الانسان منذ لحظات الوعي الأولى ومنذ فجر التكوين العقلي للبشرية. جميع الأديان والفلسفات قد اعترفت بالثنائية لأنها أمر مكشوف وواقعي لا يمكن إنكاره. كل شيء في الكون له جانبان متعاكسان في المعنى والاتجاه : الليل والنهار، الحر والبرد، الأعلى والأسفل، الأنثى والذكر، النفس والجسد، العلم واللاهوت، وهكذا دواليك. واستناداً إلى هذه الثنائية شرع الإنسان بتكوين أسئلته الفكرية والدينية عن الكون والمجتمع. وتأخذ هذه الأسئلة أشكالاً مختلفة حسب الزمان والمكان رغم أن الجوهر يبقى متمحوراً حول المقارنة بين هذه الثنائيات. المعضلة الأساسية تكمن دوماً في كيفية التعامل مع ثنائيات الوجود هذه وعلاقاتها بـ «الثنائية التفاضلية الكبرى» عن الخير والشر، الأحسن والأسوأ، السعادة والتعاسة، وصولاً الى ثنائية الخالق الأعظم، المنقسمة الى الله خالق الحق والنور والخلود، ونقيضه الشيطان، خالق الباطل والخطيئة والظلام .

المشكلة تكمن إذن ليس في الاعتراف بالثنائية ، بل في ميل الإنسان الى طرح هذه الثنائية بالمعنى التفاضلي. إذ يتم التطرف باعتبار الخير في طرف والشر في الطرف الآخر. وتجري المقارنة التفاضلية بين من هو الأحسن ومن هو الأسوأ: الليل أم النهار، الحر أم البرد، الأرض أم السماء، الدنيا أم الآخرة، الأنثى أم الذكر، الماضي أم المستقبل، المادة أم الروح، الجسد أم النفس، الدين أم العلم، الريف أم المدينة، ... الخ.

الحقيقة أن هذه الإشكالية الثنائية التفاضلية تعود الى إشكالية الانقسام الثنائي في طبيعة الإدراك عند الإنسان، ثم في طبيعة علاقته مع الوجود. وهي تستند الى محورين متداخلين:

أولاً : محور ثنائية الإدراك: من المعروف أن للإنسان خمس حواس يدرك من خلالها الوجود ويشكل بواسطتها الوعي : النظر، الشم، السمع، اللمس، الذوق.. وعبر هذه القنوات يتحسس الانسان الكون ويبني علاقته مع ذاته ومع الآخر. جميع الموجودات التي يدركها الانسان بواسطة هذه الحواس، تسمى بالأشياء الواقعية المادية التي يثبت وجودها بصورة حسية واختبارية، ويمكنه كذلك أن يؤثر عليها عملياً من خلال الفعل اليدوي والتقني والعلمي. لكن المشكلة أن الانسان لا يدرك كل الوجود عبر هذه الحواس الخمس، بل ثمة قسم آخر يدركه الانسان من خلال «حواس» غير واضحة المعالم، لا جسمانية ولا مادية: الحدس والمشاعر والتفكير والتخيل. الأحلام مثلاً، تلعب دوراً مهماً في تفكير الانسان والتأثير عليه، رغم أنها مستقلة عن حواسه. كذلك الذاكرة والخيال والمشاعر والعواطف والحدس والاتصالات الروحية بين البشر جميعها تمارس تأثيراً. الحب والحقد والخوف والقلق والفرح والشهوة. أمور لا يمكن إدراكها حسياً، بالإضافة الى أن الكثير من ظواهر الطبيعة التي تتحكم بمصير البشر من الصعب تحديدها ولمسها بواسطة الحواس، مثل الموت والروح والطاقة والوعي ودورة الأفلاك وتطور الحياة وحركة بواطن المادة. أمور لا تحصى تواجه الانسان منذ لحظات الوعي الأولى، من الصعب عليه وضع تفسير واقعي حسي لنشاطها وتأثيرها. جميع هذه الأمور والظواهر غير المدركة بواسطة الحواس الخمس أطلق عليها الانسان: الجوانب الغيبية أو الروحية أو اللاهوتية.

الذي فاقم من حدة الإشكالات والتعقيد، أن هذه الجوانب «اللامادية» تتقاسم التأثير على الوجود بشكل متداخل تماماً مع الظواهر الحسية الواقعية: ظاهرة الجوع مثلاً حالة مادية محسوسة سببها مادي مكشوف هو نقص الطعام، لكن هذا الجوع يسبب أيضاً مشاعر الحزن والقلق والغضب والإنهاك وحتى الموت. العكس يحدث كذلك، خيالات الخوف والقلق قد تؤثر على الجسد وتؤدي الى الإجهاد والمرض. بهذا المعنى فإنه ثمة تداخل تناقضي ينشأ في رؤية الانسان لماهيات الوجود وتنفصم رؤية الانسان للموجودات الى ميلين متعارضين :

الميل الذي يعطي الأهمية للوجود اللاحسي الغيبي اللاهوتي. والميل الذي يعطي الأهمية للوجود المحسوس الواقعي والمادي. المطر مثلاً : شيء واقعي محسوس، لكن الانسان لم يدرك واقعياً كيف يأتي هذا المطر ولماذا يخضع لدورة المواسم، ثم ما سر قدرته على منح الحياة والخصب. كل هذه الأمور ظلت تدفع الإنسان الى الإيمان بوجود قوى خفية مسؤولة عن هذه الأمور.

ثانياً : محور ثنائية العلاقة بين الانسان والوجود: وهي ثنائية الخير والشر. الحقيقة أنه ليست ثمة خير ولا شر في الوجود لو لم يكن الانسان موجوداً. مفهوما الخير والشر خلقهما الانسان لتعريف علاقته هو بالموجودات الحسية والغيبية. الخير ما هو إلا تعبير عن الفائدة التي يجنيها الانسان من مظاهر الوجود : الصحة، الفرح، الشبع، الأمان، الولادة، الدفء، القوة...، الخ. كذلك الشر، ما هو إلا تعبير عن الأذى الذي يلحق بالانسان من مظاهر الوجود: المرض، الحزن، الجوع، الطوفان، الموت، البرد، التعب، ... الخ.

النار، قد تكون خيراً، ، لو استخدمها الانسان للدفء والطهي، وقد تكون شراً لو تسببت في حرق الانسان وممتلكاته. كذلك هو الحال بالنسبة لجميع الموجودات من الحيوان والطبيعة والكون.

هذا التداخل بين الثنائيات، بين الغيبي والمادي، ثم بين الخير والشر، كان الأساس لجميع الأسئلة الفكرية التي شرع البشر بتشكيلها منذ فجر الحضارة: في أي طرف من ثنائيات الوجود والإدراك يكمن الخير، وفي أيهما يكمن الشر؟ أيهما يمثل الله والسعادة والخلود، وأيهما يمثل الشيطان والتعاسة والفناء؟

على هذا الأساس تداخلت ثنائيات الرؤيا والمعتقد وتمحورت حول استفهامين متداخلين :

- ❖ لمن الأولوية.. اللعوامل المحسوسة القابلة للتعامل الجسدي المباشر من قبل الانسان؟ أم للعوامل الغيبية التي لا يستطيع أن يتعامل معها الانسان إلا من خلال الطقوس الروحية والدينية والرمزية؟
- ❖ ثم في أي من ثنائيات الوجود يكمن الخير، وفي أيها يكمن الشر؟ أفي الجسد أم في الروح؟ أفي الظلام أم في النور؟ أفي الذكورة أم في الأنوثة؟ أفي الدنيا أم في الآخرة؟ أخذت الأسئلة تتعمق وتتعقد كلما حصل الإنسان على أجوبة.

هكذا شرع الانسان يصوغ أسئلته ويعمل فكره ويبحث عن أفضل الحلول التي تعينه على الوصول الى الخير وتفادي الشر. منذ الانسان الأول تمحورت الانقسامات المعتقدية حول طرفي الثنائية، وانقسم الناس عموماً الى ميلين متناقضين :

ــ الميل الغيبي اللاهوتي، الذي يعطي الأولوية للعوامل الغيبية والإلهية والقوى الخفية. أي الاعتقاد أن الخير والشر يكمنان في مظاهر الوجود المستقلة عن الإدراك الحسي

المباشر للانسان، وبالتالي فإن التعامل الديني والايماني يتم مع هذه المظاهر من أجل الحصول على الخير وتفادي الشر. هكذا نشأت الأساطير والأديان وطقوس العبادة وجميع مظاهر الخضوع للقوى الغيبية المتحكمة بحياة الانسان والطبيعة.

ـ الميل الواقعي الحسي الذي يعطي الأولوية للعوامل المحسوسة الأرضية والارادة البشرية والتقنية. أي أنه على الانسان الاعتماد أساساً على المظاهر الحسية العلمية والتقنية من أجل الحصول على الخير وتفادي الشر. وهكذا قام الانسان بصنع أدواته وتقنياته واكتشف الأسلحة والأعشاب الطبية وطور العلوم المختبرية والوسائل المادية للسيطرة على الطبيعة وخلق الخير وتفادي الشر.

تاريخ الانقسام الفكري

تاريخ التنافس والتعايش بين هذين الميلين هو تاريخ العقل البشري وتطور الحضارة منذ فجر التاريخ وحتى الآن. يبدو أن تاريخ البشرية قابل للتشبيه والمقارنة مع تاريخ الفرد الانساني. على هذا الأساس يمكن الافتراض أن الولادة «الحضارية والعقلية» للبشرية قد حدثت مع نشوء أول معالم التعقل : الاستقرار والتدجين والزراعة واللغة والكتابة والبناء وخلق الأساطير والأديان والأفكار والدول. إذا كان الفرد يمر في حياته بعدة مراحل، فإن البشرية قد مرت بمرحلتين مختلفتين متكاملتين من الطفولة ثم المراهقة :

1 ـ **مرحلة الطفولة الحضارية** : حيث الانسان لم يزل حديث الخروج من رحم الطبيعة الأم وقريباً من عالمه الأولي «الحيواني». علاقة الانسان مع البيئة لم تزل وطيدة ولم تؤثر عليها بعد المكتشفات التقنية والحضارية. الايمان في هذا الطور ظلَّ مركزاً على قوى الطبيعة الغيبية «الخيرة» و «الشريرة»، من مطر وعواصف وحيوانات ونجوم ونباتات وتحولات المواسم.

مع نمو الحضارة وتقنياتها ومكتشفاتها يبدأ الانسان تدريجياً بالتحرر من مؤثرات الطبيعة. تركيز السلطة السياسية وتوسع الدولة وهيمنة الملوك يدفع بالانسان الى تركيز القوى الغيبية والبحث عن الرموز الكبرى التي تمثل بشكل غير مباشر مجاميع ظواهر الطبيعة. بالتدريج يختصر الايمان الى بضعة آلهة كل منها يمثل مجموعة معينة من قوى الوجود : إله الخصب، وإلهة الجمال، وإلهة الموت، وغيرها.

مع الاستمرار في هذا الطور بدأ ميل الانسان الى إيجاد إله واحد موحد لجميع الآلهة، كما تجلى فيما بعد بظهور الأديان الشمولية والتوحيدية مثل اليهودية والزرادشتية والبوذية والهندوسية. في هذا الطور اختصرت الثنائية الى أبسط حالاتها: قوة الخير المتمثلة بالإله الجليل المتحكم الأكبر بالانسان والكون، وقد يكون اسمه الله أو النيرفانا أو النور أو المطلق. أما قوة الشر فتتمثل بالشيطان والظلام والفناء الأبدي، تلك القوة الجبارة التي تنافس قوة الخير لتدفع بالانسان والكون الى الخطيئة والدمار.

لكن هيمنة هذا الميل الغيبي لم يمنع الانسان من النشاط في التعامل مع الموجودات الحسية. ان الطقوس والنذور والمعابد لم تكن قادرة وحدها على توفير الخير والأمان والراحة للإنسان ومكافحة الشر والقلق والمرض. متطلبات الحياة ظلت تفرض على الانسان التعامل أيضاً مع المحسوسات، وبالتالي تطوير المعارف المتعلقة بالميل الواقعي المادي. لذلك قامت الحضارات أيضاً بتطوير التقنيات والأسلحة والمعارف العلمية والبحث الدائم للكشف عن أسرار الكون والطبيعة والسيطرة عليها لكسب الخير وتجنب الشر.

كلما تقدمت البشرية في معارفها واكتشافاتها وقدراتها على السيطرة، كلما اشتد الميل الى الاعتراف بالعلوم والعوامل المختبرية المحسوسة والتقليل من أهمية الجوانب الروحية الغيبية. جميع الحضارات ساهمت بالتقدم أكثر في هذا الطريق من خلال تطوير العلوم الفلكية والتقنية والحربية والطبية والهندسية.

بما أن الفرد لا يترك فجأة مرحلة الطفولة قفزاً نحو مرحلة المراهقة، بل يتدرج ببطء باكتشاف الحياة والنمو الجسدي والمعرفي؛ كذلك البشرية قد احتاجت عدة آلاف من السنين في مرحلة الانتقال والنمو المعرفي نحو الأمور الواقعية الحسية والعقلية. أبرز الخطوات «التنظيرية» الواضحة لهذا الميل العقلي تمثلت ببروز المنطق والفلسفة والبحث عن العوامل الواقعية والمحسوسة في تفسير وتحليل ظواهر الوجود الانساني والكوني. ابتداءاً من الألف الأول قبل الميلاد شرعت البشرية بتطوير علوم المنطق والفلسفة وخصوصاً بين شعوب البحر المتوسط إغريق وشرقيين وبالاعتماد على ميراث جميع الحضارات البشرية. رغم النمو المتتالي لهذا الميل «العلمي» فانه ظل خاضعاً للميل الروحي الديني حيث ظلت السيطرة الفعلية (السياسية والعقلية) للأديان والمعتقدات اللاهوتية.

2 ـ **مرحلة المراهقة العلمية** : يمكن القول أنه منذ القرن الخامس عشر وبدء عصر النهضة في أوربا الغربية، شرعت البشرية ببلوغ المرحلة التي يمكن أن نطلق عليها «مرحلة المراهقة العلمية». مع انطلاقة الثورة العلمية والصناعية فرض الميل الحسي المختبري هيمنته الكاسحة على أوربا أولاً، ثم بالتدريج على باقي أجزاء العالم مع تسارع وتيرة التقدم المادي طغت الرؤية العلمية المضادة للتيار المهيمن السابق الروحي اللاهوتي.

وكما في المرحلة السابقة حيث لم يستطع الميل الغيبي رغم سيطرته أن يلغي تماماً الميل المادي؛ كذلك في هذه المرحلة فان سيطرة الميل المادي لم تستطع ان تلغي الميل الغيبي. في هذه المرحلة اشتد الصراع بين الميلين واتخذ طابعاً اجتماعياً وسياسياً متطرفاً حتى سيطر الميل العلمي تماماً سياسياً وعقلياً من خلال ما يسمى بالثورة العلمانية، حيث تم عزل الدين والروحانيات من إدارة الدولة والمجتمع.

كما يحدث للانسان في مرحلة المراهقة من تمرد مطلق على الماضي العائلي والموروث الاجتماعي، فان البشرية كذلك تمردت تماماً على ماضيها الروحي وهجمت بعنف ووحشية على انتمائها «الطبيعي»، وراحت تعمل بلا هوادة على تدمير الحياة الحيوانية والبيئية وتقديس العلوم والتكنولوجيا ومنتجات الحياة المادية.

إن قرون الثورة الصناعية وعصر الأنوار واحتدام الصراعات السياسية الاجتماعية بين أنصار الحديث وأنصار القديم أضفت بعداً سياسياً للصراع بين هذين الميلين. وهذا الأمر دفع المفكرين لابتداع أساس فلسفي ـ ديني للصراع المحتدم بين المالكين الحكام من جهة، والمنتجين المحكومين من جهة ثانية : الحكام مع الدين والكنيسة والروح والقوى الغيبية، إذن فالمحكومون هم مع العلم والمادة والإلحاد وقوى الانسان المنتجة!

هذا يعني النفخ المفتعل في السؤال الفلسفي التالي : لمن الأسبقية... للمادة أم للروح.. للدين أم للعلم.. الارادة البشرية أم المشيئة الالهية؟

لقد ضخم الغربيون هذا السؤال وهولوه حتى جعلوا منه المدخل لكل سؤال فلسفي، بل صار الدليل للحكم على أي موقف اجتماعي وأخلاقي وسياسي: المثالي المتدين الروحي المؤمن بأسبقية الروح والله، هو اليميني الرجعي الإقطاعي والمالك المعادي للعلم والحداثة والتقدم.. المادي المعتقد بأسبقية المادة والطبيعة، هو العلماني اليساري الديمقراطي الملحد المكافح من أجل التقدم والحداثة والرخاء!

طبعاً إن سيطرة هذا الانقسام لم يمنع التداخل والتردد بين الميلين، ومحاولة بعض المفكرين الجمع بينهما. لكن تطور الثورة العلمية والتناحر السياسي برر أكثر فأكثر الاصرار على وجود تناحر بين ما يسمى بالمادي وما يسمى بالروحي. إذ تم فرض سؤال جديد في الفكر الانساني لم يسبق طرحه بمثل هذه التناحرية المتطرفة: «أيهما أسبق المادة أم الروح.. الظروف المادية هي التي تحكم التاريخ أم هي الروح المطلقة والمشيئة الإلهية من يقود التاريخ...؟». راحوا يقسمون بعشوائية وتعسفية مسميات الوجود الى عوامل مادية وعوامل روحية. مثلما تفتش في الماء عما هو ثلج وعما هو بخار!

النظرية الماركسية والتجربة الشيوعية تعبير عن ذروة طيش الأحلام البشرية المراهقة للانسلاخ التام من الماضي الروحي والطبيعة الأم، من أجل إعادة إحياء الانسان لـ «جنته» الحنونة المفقودة من خلال السيادة المطلقة للعلم والتكنولوجيا والقوى المادية المنتجة. ماركس نموذج لمعظم المفكرين الثوريين في تلك الحقبة. خلط بين الدين كروح وأخلاق وحاجة طبيعية والدين كاستخدام آيديولوجي من قبل الحكومات والقيادات الفقهية والاجتماعية. حدة الصراع الاجتماعي السياسي أدت بماركس مثل معظم أبناء زمانه الى التطرف في رؤية ثنائية الوجود. اعتبر ماركس «الدين أفيون الشعوب». بدل من رفض تشويه الحكام للدين تم رفض الدين بأكمله ورفض كل ما هو روحي ومجهول وغير حسي في الانسان والكون. كان من المعقول القول بأن: «دين الحكام والمالكين هو أفيون الشعوب»، وعلى المضطهدين أن يحرروا دينهم ومعيشتهم وحياتهم بجميع تفاصيلها من استغلال وتشويه المالكين. الدين إحساس روحي شامل لجميع البشر وحاجة فطرية للايمان بقوة مطلقة تربط بين وجود الانسان كفرد مع باقي الأفراد والجماعات البشرية والكون بأجمعه. إن رفض الدين يوازي رفض باقي مكونات الروح الانسانية. ماركس نفسه يعترف أن الطبقات المالكة لا تتحكم بالاقتصاد والحياة المادية فقط، بل هي تفرض سيطرتها المادية من خلال فرضها لآيديولوجيتها على عقلية المجتمع وتحكمها بالانتاج الروحي: الدين والفن والأخلاق والثقافة والتقاليد جميع هذه المكونات العقلية يمتلكها الأسياد ويتمتعون بها ويمارسون من خلالها سيطرتهم وتبرير وجودهم.. إذن في هذه الحالة يحق القول: «الدين... وجميع مكونات الروح الانسانية، هي أفيون الشعوب...». وهذا بالضبط الذي حدث فيما بعد عند محاولة تطبيق الماركسية بشكلها الستاليني التبسيطي، ثم ساد هذا الفهم في العالم العربي والعالم الثالث.

جميع شعوب الأرض قد شاركت في خطيئة التطرف الثنائي هذه، لكنها جميعها كذلك ساهمت في البحث عن الدرب الانسجامي الوسط بين الثنائيات. ثمة شعوب كانت أنضج من غيرها في الاقتراب أكثر ناحية الرؤية الانسجامية هذه. ليس هناك أعراق أفضل من أعراق، بل هناك أعراق هيأتها ظروف الطبيعة والتاريخ والجغرافيا لأن تكون في مقدمة المسيرة الحضارية. التاريخ يكشف أن شعوبنا كانت أقرب الشعوب الى الميل الوسط. شعوب الضفة الشرقية للبحر المتوسط من (العالم العربي)، هي الرائدة دائماً في صنع المشاريع الانسانية الكبرى. الجغرافية والطبيعة والتاريخ حتمت على هذه الشعوب أن تكون دائماً في مركز العالم روحياً ومادياً. ليس صدفة أبداً أن تنبثق في هذه الأوطان أولى الحضارات والثقافات والأديان الكبرى، لأنها متوسطة في كل شيء. جغرافياً هي في وسط قارات العالم، بين آسيا وافريقيا وأوربا. وهي في الوسط تماماً بين الشرق والغرب.. هم شرقيون إزاء الغربيين، لكنهم غربيون إزاء الشرقيين في آسيا. حتى المناخ هو مناخ المنطقة المعتدلة. أما الطبيعة فهي نموذج لتكامل الثنائيات، جفاف الصحارى الكبرى، وسيولة الأنهار والينابيع والبحار والوديان الخصبة.

العلماء الغربيون الذين فرضوا منظورهم التاريخي الذاتي على العالم نجحوا بإقناع العرب بأن تاريخهم العقلي قائم على الأسطورة والدين والروحانيات، وأن حضاراتهم الفرعونية والعراقية والشامية وعموم الحضارة العربية الاسلامية لم تبدع إلا في هذا المجال. وأن المنطق والفلسفة والعقل العلمي والتجريبي هي خصال أوروبية أبدعها الإغريق والرومان وطورها الغربيون. علماء الغرب هؤلاء لم يشاهدوا من الميراث العقلي للمنطقة العربية غير جوانبه الأسطورية الروحية، أما الجوانب المنطقية والعلمية فإما لم يشاهدوها أو أنهم نسبوا إبداعها الى الإغريق والرومان وأوربا.

التاريخ يبرهن بشكل جلي على أن العقلية (الشرقمتوسطية) (السامية الحامية ــ العربية)[*]، أبدعت دائماً في المجالات العلمية والمنطقية، مثلما أبدعت في المجالات الدينية والروحية. يكفي النظر الى الانجازات الكبرى في مجالات الفلك والحساب واللغات والهندسة وبناء الدول والجيوش ومشاريع الري وعلوم الفلك والجغرافية ووسائل النقل

---

* إننا مع الفكرة القائلة بأن العوائل اللغوية (سامية ، حامية ، آرية – ألخ ..) هي ليست عوائل عرقية بل وحدات لغوية تضم مختلف الاعراق والشعوب التي لمختلف الأسباب، تبنت لغات متشابهة .

والإبحار. الناظر الى تاريخ اللغة والكتابة يكتشف أن هذه الحضارات هي أول من طور علم اللغات والأبجديات، من المرحلة الصورية البسيطة المماثلة للطبيعة (الهيروغليفية في بلاد النيل والمسمارية في العراق الألف الرابع قبل الميلاد)، وصولاً الى المرحلة المنطقية الشاملة المتمثلة باختراع نظام الأبجدية (السينائية الفينقية) في الألف الأول قبل الميلاد. إن اختراع الأبجدية كان من أكبر الثورات (الفلسفية المنطقية) في العقل البشري. ويمكن الجزم أنه بدون هذه الثورة لا يمكن تصور إمكانية نشوء علوم المنطق والفلسفة لدى شعوب البحر المتوسط فيما بعد. في القرن الثالث قبل الميلاد برزت مساهمة العالم الشرقي بصورة مباشرة في تطوير الميل الفكري العقلي (الفلسفة والمنطق)، إذ نافست مراكز الفلسفة الشرقمتوسطية مثيلاتها في اليونان وإيطاليا: الاسكندرية في مصر وأنطاكيا وبيروت في الشام والرها ونصيبين في بلاد النهرين.

أما الإسلام، فهو بحقيقته نموذج مختصر للعقل الشرقمتوسطي. تاريخ الفكر العربي الاسلامي يمنح أمثلة كثيرة عن مدى تداخل الميول الفكرية المتناقضة، في ظل حضارة تواقة الى التكامل بين الثنائيات. الاسلام بحد ذاته لم يشتمل على اللاهوت والروحانيات فقط، بل اشتمل أيضاً على جوانب الحياة المادية الواقعية والمحسوسة. انه دين الروح: الله والجنة والنار والملائكة والأنبياء والصلاة والصوم والحج، لكنه أيضاً هو دين المادة والتجارة والجنس والمجتمع والدولة وتقسيم الثروات وتفاصيل الحياة اليومية.

ان سر عظمة الحضارة العربية الاسلامية يكمن في قدرتها على استيعاب جميع الإبداعات العلمية والمادية. رغم هيمنة الميل الديني الروحي سياسياً واجتماعياً، طبيعة الاسلام هذه منحت المجال الكبير لتنوع الإبداعات العقلية الى حد يفوق التصور. كان يكفي للمبدع أن لا ينتقد الاسلام (والخليفة) مباشرة وينتبه الى ذكر اسم الله في كتاباته حتى يمتلك الحرية المطلقة في ولوج مجالات التفكير والتعبير مهما كانت. مثال على هذا تلك الحرية التي كان يتمتع بها العلماء والفلاسفة العقلانيون من أمثال الكندي وابن رشد وابن خلدون رغم تناقضهم (الفكري) مع الاسلام السائد. لأنهم رغم عقلانيتهم وعلميتهم، كانوا كذلك من المؤمنين بالله والمكررين لأسمه في تحليلاتهم وكتاباتهم. وبالعكس لدينا مثال (الحلاج) وبعض المتصوفة والثوار الذين صلبوا وأحرقوا رغم إيمانهم الحقيقي بالإسلام وتصوفهم وزهدهم وصلواتهم التي لا تنقطع، كل هذا لم يشفع لهم لأنهم «لم يحسنوا» استخدام الكلمات في تعبيرهم عن

روحانيتهم هذه، إذ تطرقوا مباشرة الى التشكيك بالمعنى الرسمي لمفهوم (الله) وكذلك سلطة الخليفة، فكان من السهل اتهامهم بالزندقة.

إن مشكلة العقل العربي في العصر الحديث تكمن في عجزه عن إدراك حقيقة ميراثه (الاسلامي وما قبلاسلامي[*]) المتضمن جميع العناصر الروحية والعلمية التي تساعد على صنع تيار وسطي حقيقي يجمع بانسجام بين ثنائيات الوجود.

يمكن تحديد نقاط القوة في الحضارة العربية الاسلامية بالنواحي الثلاث التالية :

أولاً : حرية تفاعل التيارات المختلفة: إن سر عظمة أي حضارة يكمن في قدرتها على منح حرية التعبير والتفاعل لجميع التيارات العقلية في المجتمع. صحيح أن الميل الديني اللاهوتي هو الذي كان يمتلك زمام السيطرة على جميع مناحي الحياة العقلية في ظل الاسلام، إلا أن هذا الأمر لم يمنع من إعطاء مساحة واسعة من الحرية للميول العلمية والمنطقية. الدليل على هذا أنه في ظل الحضارة العربية الاسلامية ظلت تتفاعل بصورة مبدعة ثلاثة تيارات مختلفة في ظل وضع جدالي أقرب ما يكون الى الوضع الليبرالي السائد حالياً في الغرب :

- **التيار الديني السلفي** : ويطلق عليه أيضاً (تيار النقل) و (أهل السنة والحديث) و(أهل الإيمان)، ومن أبرز ممثليه (الحنبلية). وهذا التيار كان له حضوره في جميع الطوائف والمذاهب منذ نشأة الاسلام. وهو عموماً التيار المهيمن سياسياً الذي يرفض استعمال المنطق والفلسفة ويدعو الى الإيمان المباشر بالله والأنبياء والأئمة دون طرح أسئلة أو بحث عن براهين واقعية لتحليل وتفسير هذا الإيمان. الامام الغزالي من أقوى المدافعين عن هذا التيار رغم أنه لجأ الى المنطق والفلسفة لدحض ومقارعة أصحاب التيار العقلي.

  ويعتبر كتابه (تهافت الفلاسفة) الحجة التنظيرية الكبرى التي ساعدت على السيادة المطلقة لهذا التيار ولتبرير موت التيارات المنافسة الأخرى.

- **تيار الفلاسفة** : ويطلق عليه أيضاً (تيار العقل والبرهان) و (المتكلمة) وهو التيار الذي أخذ بعلم المنطق والفلسفة والبرهان، ومن أبرز رموزه الكندي والفارابي وابن رشد وابن خلدون. رغم أن هؤلاء الفلاسفة ظلوا على ادعائهم الأولي بالإيمان الديني والمشيئة الإلهية، إلا أنهم في التفاصيل كانوا يعتمدون على العلم والمنطق في رؤية

---

* ماقبلاسلامي : نحتت من كلمتي (ماقبل اسلامي) .

الواقع وتحليل الجوانب التاريخية والعقلية. صحيح أن هذا التيار كان يعتبر متطرفاً بنظر الغالبية من المتعلمين وغير المتعلمين، وتعرض أصحابه الى المضايقة والقمع، إلا أنه كان يتمتع بمساحة كافية من حرية التعبير والتأثير على العقل الديني السائد.

- **التيار الوسطي** : بالحقيقة أن هذا التيار كان موزعاً بين ميول عديدة مترددة بين تياري العقل الإيماني والعقل البرهاني. وتظل الصفة الجامعة بين أقسام هذا التيار هي الرغبة بمزج العقل مع الايمان. وأول بوادر هذا التيار عبر عنها (المعتزلة) وتطور فيما بعد على يد (اخوان الصفا). كذلك حاول الإمام الأشعري أن يكون مذهباً وسطياً يجمع بين الناحيتين. ويمكن اعتبار المتصوفة أكثر الذين جمعوا بصورة خاصة بين تطرف المنطق الفلسفي وتطرف الايمان الروحي، واعتمدوا بذلك على المذاهب القديمة التي صنعتها الشعوب الشرقمتوسطية أسلاف العرب، مثل المسيحية والمانوية البابلية والهرمزية المصرية والاسم الذي ساد عن هذه التيارات هو العرفانية(*).

وبرز كذلك فلاسفة جمعوا بين الفلسفة والإيمان مثل ابن سينا وابن عربي. لكن مشكلة هذا التيار الوسطي أنه ظل مهمشاً بسبب عدم قدرته على خلق نظرية واضحة منسجمة تجمع بين ثنائيات الوجود المادي والروحي. ويمكن الافتراض أن نقطة الضعف هذه تعود أساساً الى طبيعة المرحلة الحضارية آنذاك التي لم تهيىء الظروف لخلق مثل هذا التيار. ربما لو أن الحضارة العربية الاسلامية ظلت مستمرة بتطورها الطبيعي لتهيأت أسباب نجاح هذا التيار وهيمنته فيما بعد.

ثانياً : قدرة الحضارة العربية الاسلامية على استيعاب ميراث الشعوب الشرقمتوسطية التي تعربت وأسلمت بمعظمها وانصهرت عرقياً وحضارياً في الحضارة الجديدة. والذي منح الاسلام هذه القدرة على الاستيعاب، أن العرب كانوا من ذات الحضارة والثقافة السامية الحامية التي عمرت المنطقة منذ آلاف الأعوام، ثم ان الاسلام اعتبر نفسه متمماً للأديان والمعتقدات التي صنعها الأسلاف. تاريخ الحضارة العربية الاسلامية يكشف عن مدى اشتراك العناصر المسيحية واليهودية والهرمزية والمانوية في ضخ الاسلام بمعارفها الموروثة. اللغة العربية طورت نفسها وكونت نحوها المنطقي من خلال تجربة اللغة السريانية. علوم

---

* العرفانية (الغنوصية) : هي تيارات فكرية دينية أنشرت في مصر والشام والعراق قبل الميلاد بقليل، وهي تجمع بين الأيمان الروحاني التصوفي والمنطق الفلسفي، وكانت أمتداداتها في الأسلام متمثلة في الاشراقية والتصوف .

الفلك والتنجيم والكيمياء ورثت وطورت علوم حضارات العراق ومصر والشام. المنطق والفلسفة العربية الاسلامية استوعبت أساساً ميراث الشعوب السالفة.

ثالثاً : قدرة الحضارة العربية الاسلامية على استيعاب معارف الشعوب الأخرى غير الشرقمتوسطية التي دخلت الاسلام وساهمت بتشييد الحضارة وتبنت اللغة العربية في إبداعها الثقافي. الشعوب الايرانية والتركية والهندية قد رفدت الفكر الاسلامي بميراثها المجوسي والهندوسي والآسيوي التركستاني. من هذه الشعوب برزت أسماء كبرى مثل ابن سينا والفارابي والغزالي وغيرهم. ولم ينحصر انفتاح الحضارة العربية الاسلامية على الشعوب المسلمة، بل كذلك الشعوب المجاورة التي ظلت مستقلة عن الاسلام، مثل الهندوس والصينيين واليونانيين والرومان من خلال الترجمة والاقتباس والمقارنة. مثال حكايات ألف ليلة وليلة برهان على هذه الناحية، حيث بدأت فكرة هذه الحكاية في الهند ثم طورها قليلاً الفرس والأتراك ثم تلقفها العراقيون لتأخذ شكلها الفني العميق في بغداد ولتصبح تامة التكوين في مصر.

عصر انبثاق فكر وسطي جديد

ربما يصح الافتراض أو على الأقل التمني، أن البشرية احتاجت لبضعة آلاف من الأعوام لتنهي «مرحلة الطفولة الغيبية»، لكنها لم تحتج إلا لبضعة قرون لكي تبدأ بالتخلص من «مرحلة المراهقة العلمية»!

تجارب التاريخ تثبت أن التطرف في واحد من الميلين الغيبي أو العلمي، يؤدي حتماً الى اختلال التوازن في البنية العقلية الاجتماعية. تارة باسم اللاهوت والدين والمثل السماوية، وتارة باسم العقل والعلم والواقعية، وفي كلتي الحالتين ظلت البشرية تخوض الحرب وتشن الغزوات وتبرر الاستعباد وتمجد التضحيات ولا تكف عن تبديد ثروات الطبيعة والانسان.

كوارث الحربين العالميتين الأولى والثانية ربما هي آخر الزفرات الكبرى لطيش المراهقة الغربية والبشرية عموماً. ليس صدفة أنه في الغرب خصوصاً قد شرعت الانسانية بإدراك مدى هشاشة الثورة العلمية والعقلانية التي كان يعتقد بقدرتها المطلقة على الخلاص وخلق الجنة «التكنولوجية الرأسمالية أو الشيوعية» على الأرض. بدأ هذا الغرب يراجع بصورة بطيئة جميع طروحات «المراهقة» المتطرفة عن العلم ونفي ميراث البشرية الروحاني.

الحقبة العالمية الحالية تمثل حالة مخاض لانبثاق حضارة انسانية جديدة مبدؤها الاعتدال والوسطية والنسبية في التعامل مع ثنائيات الوجود. مع نمو التجارب والنضوج العقلي يبدأ الانسان فرداً وجماعة بالميل نحو التوازن في رؤية الموجودات وتفضيل الوسطية لايجاد الحلول. هكذا بدأت البشرية الآن بالتخلص من طيش «المراهقة العلمية»، لتبلغ عمراً جديداً من الشباب الناضج، مستفيدة كذلك من ميراث «الطفولة الروحية»، لكي تشق درباً وسطياً يجمع بين العلم والروح، بلا تطرف ولا تبسيط.

تتجلى حالة البحث هذه عن الوسطية بأوضح أشكالها في الناحية الفكرية السياسية. هذا النزوع الوسطي يفسر بروز الجماعات البيئوية والسلمية المنفتحة على العلوم الحديثة من ناحية، وروحانيات الشعوب وميراث أديان أوربا والعالم. كذلك البحث عن نظام وسطي بين الاشتراكية والليبرالية قائم على الحياة التعاونية السلمية واحترام الأديان وتقاليد الشعوب وبساطة الحياة المحدثة. بدأت تنتشر الدعوات القائلة بأن العلم ليس بالضرورة مناقضاً للروح. الطب الحديث يمكن أن يستفيد من الطب التقليدي. الكيماويات لا تستغني عن الأعشاب. وتقنيات الاتصال والتنقل لا تنفي طاقات التبادل الروحية. وأن العوامل الاقتصادية والسياسية والمناخية ليست وحدها مسؤولة عن التاريخ. بل هناك العوامل الخفية الدينية والفلكية وتأثيرات الكواكب. وأن علم النفس والتربية لا ينفي تأثير عوامل الايمان الديني في حركة التاريخ وحياة الشعوب. وان الاعتقاد بالنظريات الحديثة لا يغني عن الاعتقاد بالنظريات القديمة. علماً أن هذه التيارات لا زالت ضعيفة ومشتتة ومحاصرة من قبل التيارات (العلمية) المدعية بالعقلانية الانتاجية المدافعة عن نظام السوق ومؤسساته الاعلامية والتربوية الجبارة.

كثيراً ما يساء فهم الميل الوسطي باعتباره نوعاً من التوفيقية والنفعية المتغيرة. الحقيقة أن هناك فرقاً بين هذين المفهومين. التوفيقية هي محاولة الجمع بين النقيضين جنباً الى جنب والمناورة بالاعتماد على كل منهما، بينما الوسطية هي البحث عن الاعتدال بين معتقدين متطرفين بتناقضهما. لوأخذنا معتقدين متضادين مثل العلم والدين، فإن التوفيقي يحاول أن يكون بنفس الوقت متديناً جداً وعلمياً جداً دون أي محاولة لايجاد منطق واحد يجمع بين الموضوعين، إذ تراه ينتقل من حالة التزمت الديني الى حالة التزمت العلمي حسب المزاج والظرف والمصلحة. أما الوسطي فانه يبحث عن المنطق الواحد الذي يجمع بين العلم والدين مع تشذيب كل منهما من جوانبه المتطرفة. أي أنه يعتمد على مبدأ يفترض فيه أن القوى الغيبية والالهية يمكنها أن تكون حقيقة موجودة ومسؤولة عن انبثاق الدين، لكن

هذا لا يمنع أن تكون هذه القوى أيضاً مسؤولة عن العلم ومانحة للانسان القدرة على التفكير والابداع.

بهذا المعنى فان الوسطي هو أولاً وأخيراً من يعتمد على مبدأ النسبية في التعامل مع ثنائيات الوجود. الخير لا يكمن إطلاقاً في أحد طرفي الموجودات، ولا الشر يكمن في الطرف الآخر. الخير والشر يكمنان في الطرفين معاً وفي آن واحد: البرد وحده هو الشر، كذلك الحر وحده هو الشر، والانسجام والتوسط بين الاثنين هو الدفء والراحة للانسان والطبيعة. الخير يكمن في انسجام الثنائيات، والشر يكمن في تناحرهما. الأنثى وحدها هي الوحشة والجفاف، والذكر وحده هو السأم والموت، الانسجام والتوافق بين الاثنين هو الحب والخصب والحياة. بين الماضي والمستقبل هناك الحاضر، والحاضر هو الخير وهو الواقع، وهو الماضي والمستقبل بآن واحد. ان الشر لا يكمن في النار وحدها بل في الثلج أيضاً، أما الخير فيكمن في وسط النار والثلج، أي الماء الجاري من اتحادهما، وهو الارتواء والخصب وسر الحياة.

هكذا جميع ثنائيات الوجود يكمن خيرها في تكاملها وتوسطها، وشرها في تناحرها وتطرفها. إذا كان الله هو رمز الخير، فإن الله إذن هو انسجام الثنائية ومركزها، والشيطان هو تطرف الأحادية وجانبها الأقصى.

المشروع العربي لخلق فكر وسطي عالمي

يبدو أن العرب (وعموم العالم الثالث)، بسبب تبعيتهم التلميذية للغرب، كالعادة لم يتمكنوا حتى الآن من الاستفادة من هذا الجانب الايجابي الناشىء في الغرب. تراهم قاموا باقتباس تبسيطي متطرف لهذه التحولات العقلية الناشئة. جميع التيارات السياسية والثقافية المعروفة في العالم العربي: ليبرالية وقومية وماركسية، كلها قلدت الغرب بتلميذية كسولة ومشوهة ومتطرفة. وهاهم المتدينون يكررون نفس الخطيئة. إن تنامي التيارات الدينية لم يكن إلا إنعكاساً مضخماً وكاريكاتورياً للتيارات الجديدة المتنامية في الغرب، وهي التيارات البيئوية والسلمية المنادية بالعودة الى الطبيعة واحترام الأديان والروحانيات وتقاليد الشعوب. لكن الإسلاميين بسطوا المسألة وتطرفوا في تفسيرها: الكفاح من أجل الطبيعة والجمال والصحة صار هو الكفاح من أجل الآخرة والجنة الموعودة. الكفاح من أجل بساطة الحياة واحترام التراث الروحي، تحول الى كفاح من أجل تراث مطلق بجماله وزهده وتدينه. والنتيجة أن

الأصوليين في بلدانا يجاهدون من أجل العودة الى ماضٍ فردوسي والتقدم نحو مستقبل فردوسي كذلك. أما الحاضر فقد استحال الى جهنم، والبشر مُسخوا الى شياطين تتصارع مع ملائكة!

رغم مرور أكثر من قرن على انطلاقة الحركة الإصلاحية في المجتمعات العربية، لا زال العقل العربي يعاني من انفصامية ازاء أسئلة عن ثنائيات تتفاقم وتزداد حدة مع الزمن: الانسان مخيَّر أم مسيَّر؟ الأفضلية للنفس أم للجسد؟ الأسبقية للمادة أم للروح؟ عاطفة أم عقل؟ علم أم دين؟ ليبرالية أم اشتراكية؟ ديمقراطية أم مركزية؟ وحدوية أم قطرية؟ تراث أم حداثة؟ علمانية أم شريعة؟ قومية أم عالمية؟ طائفية أم وطنية؟... الخ.

كل يوم تضاف ثنائيات جديدة على هذه القائمة. حول هذه المقارنات انقسمت مجتمعاتنا ونخبنا الى أحزاب وطوائف وجيوش تتصارع حتى الموت، من أجل مساندة جانب ضد جانب آخر.

إن الصراع بين الثنائيات لا يمكن الغاؤه تماماً من العقل، فهو ميل طبيعي عند البشر. ولكن المشكلة تحدث عندما يهيمن تماماً على العقل هذا الميل الثنائي ولا يجد الفكر الانسجامي الوسطي الذي يخفف من حدته. الفكر الوسطي يكون دوره أشبه بالهيدروجين في الجو، إذ بوجوده يمنع تفاعل الأوكسجين مع النار، ويخفف من حدة الصراع بين الطرفين، وبالتالي يجنب الأرض حرائق لا تتوقف. هكذا بالضبط هو دور الفكر الوسطي.

إن مشروع الفكر الانسجامي الوسطي يعتمد في تكوينه على الأهداف التالية:

أولاً: عقد الصلح والتقارب بين منهج التحديث والعلم وبين الدين والتراث. إنه مشروع كبير يتلخص بتحرر العلمانيين من نظرتهم الاستعلائية للتراث الديني من أجل دخولهم هذا الميدان وطرحهم من جديد جميع الأسئلة والمجادلات التي كانت سائدة في عصور الحضارة العربية الاسلامية. وهذا يعني تخليص الدين والتراث من سيطرة تلك النخبة من الفقهاء المنعزلين عن الحداثة والعلم، وإحداث نهضة فكرية دينية أشبه بالتي حدثت في أوربا بالنسبة للمسيحية. وهذا يتطلب أولاً نبذ تلك الفكرة العلمانية التبسيطية التي تعتقد أن الدين قد تجاوزه الزمن وهو ضد الحضارة والحداثة والعلم.

والمسألة الأخرى المهمة في هذا المجال، هي نبذ تلك الفكرة المهيمنة منذ قرون، على أن تراثنا الديني والقومي الوحيد هو التراث العربي الاسلامي. أي إعادة الاعتبار للتراث

الحضاري الذي سبق الحقبة العربية الاسلامية والذي اعترف به القرآن أيضاً، إنه تراث بلاد النهرين والشام وبلاد النيل واليمن والحجاز وشمال افريقيا. وهذا يعني القيام بنهضة فكرية تعتمد الترجمة الكثيفة لذلك التراث الحضاري الممتد على عدة آلاف من السنين والمتضمن جميع المعتقدات والأديان التي صنعها الأسلاف وشكلت الأساس التراثي للحضارة العربية الاسلامية، مثل أديان النهرين والنيل وعلومهما التنجيمية التي شكلت مصدراً أساسياً في تطور المعارف الانسانية. كذلك دراسة باقي الأديان التي رغم انقراضها فإنها لا زالت حية في كل تفاصيل معتقداتنا الدينية والشعبية والثقافية مثل المانوية البابلية والهرمزية المصرية، بالاضافة الى الأديان التي لا زالت حية مثل الصابئة واليهودية والمسيحية.

إن الفكر الوسطي الانسجامي يبتغي من هذا أساساً تصحيح حالة الانفصام المرضي (الشيزوفيرنيا) التي تسود العقل العربي، بسبب الانفصام التاريخي والعقلي في الشخصية العربية، بين الانتماء للحقبة الحديثة، أوالانتماء للحقبة العربية الاسلامية، أو الانتماء للحقبة الحضارية والدينية السابقة للاسلام.

ثانياً: إضفاء بُعد إنساني عالمي على (المذهب الوسطي) الشرقمتوسطي مع احترام الخصوصيات الوطنية والمعتقدية لكل شعب. قد تبدو طريفة وغير واقعية هذه الدعوة العالمية لمشروع فكري عربي، لأننا تعودنا الاعتقاد بأننا حتى الآن غير قادرين على معالجة مشاكلنا فكيف بنا بمشاكل العالم؟ وهذا الكلام يبدو صحيحاً لأول وهلة، لكن التمعن قليلاً بالتفاصيل التاريخية والمعاصرة يكشف عن الأهمية الكبرى لمثل هذه المسألة. إن جميع الحضارات التي قامت في منطقتنا منذ فجر التاريخ وحتى انتهاء الحضارة العربية الاسلامية، كانت كلها تتميز بصفة أساسية ثابتة رغم جميع المتغيرات: الشمولية الانسانية العالمية. إن سر قوة وحيوية جميع الحضارات التي قامت في منطقتنا أنها كانت ذات دعوة عالمية من الناحية السياسية والفكرية والدينية. أفضل مثال، أن هذه المنطقة كانت مهد أكبر دينين عالميين شاملين لجميع البشر (المسيحية والاسلام)، بالاضافة الى المانوية البابلية والهرمزية المصرية اللذين تحولا الى دينين عالميين لبعض الوقت لكنهما ذابا أخيراً في المسيحية والاسلام. أمر يدعو للتساؤل حقاً أن جميع هذه الأديان قامت بدعواتها العالمية في ظل وضع وطني يسوده الضعف والتشرذم وهيمنة الأجنبي، ومع هذا فإن صناع هذه الأديان كانوا يدركون في حدسهم الموروث أن إنقاذ شعوبهم يمر بالضرورة بالدعوة الى

انقاذ الانسانية جمعاء. وإلا كيف تفسر هذه الثقة والجرأة الخارقة لأن يقوم النبي عيسى (ع) ثم تلامذته بدعوة المحتلين الرومان الى اعتناق دينهم! نفس العمل مارسه الهرمزيون في مصر، بعدها يقوم ماني البابلي بنشر أتباعه في جميع أنحاء الامبراطورية الفارسية والامبراطورية الرومانية. وبعد قرون يقوم النبي محمد (ﷺ) وأصحابه بدعوة ملوك وأباطرة العالم لاعتناق الاسلام بينما هم لا يمتلكون حتى إمارة صغيرة يحتمون بها، ووصلت ثقتهم بدعوتهم العالمية أنهم حققوها فعلاً خلال أقل من قرن!

أسباب كثيرة فرضت على شعوب المنطقة أن تكون بطبعها عالمية، لعل أهمها أنها في وسط العالم ممر ومعبر ومرتع لجميع الحضارات والأعراق والشعوب في قارات العالم الأولى آسيا وافريقيا وأوربا، يكفي أن تكون هذه المنطقة من أكثر بقاع العالم التي ظلت تمتزج بها على الدوام الأجناس البشرية لقارات العالم القديم : آسيا وافريقيا وأوربا.

إن مكمن ضعفنا هو الانغلاق القومي الديني، وسر قوتنا في عالميتنا التي من خلالها فقط تتشكل قوميتنا. هذا يعني إعطاء الناحية الوطنية والمبادىء الوطنية بُعداً عالمياً، ليس بالمعنى التضامني فحسب، إنما في جوهر المبدأ بحيث أن العالمية والوطنية يكونان كلاً واحداً من الصعب الفصم بينهما. وهذا بالضبط المبدأ الذي منح القوة للنهضة الأوروبية وبرر حروب الحقبة الاستعمارية، أي ما أطلقوا عليه (المذهب الانساني).

لكن هذه المرة فإن البشرية ربما تكون قد استفادت من تجاربها السابقة التي أدت دائماً الى ذوبان المبدأ الانساني العالمي بالمصلحة القومية والدينية المغلقة. الهدف والطموح الآن هو العكس، أي ذوبان الحالة الوطنية بالهدف الانساني الأكبر.

إن التقارب العالمي الحالي يفرض التوحد. وإن كانت الأعوام الأخيرة تشهد بروز النزعات القومية والدينية والمذهبية، وهي بحقيقتها ليست ضد التقارب والتوحد العملي الحاصل بين الشعوب، بل العكس تماماً أي ضد الهيمنة القومية التي تمارسها بعض الشعوب القوية باسم العالمية والأخوة الوطنية. معنى هذا أن النزاعات الحالية هي أبداً ليست ضد الحالة الانسانية العالمية بل ضد التعصبية القومية التي تحاول أن تستخدم العالمية من أجل الهيمنة وقمع الشعوب الضعيفة. إذن الوحدة العالمية لا تقوم مثل السابق على أساس القوة واستحواذ المجموعات القوية على المجموعات الضعيفة ومسخ تقاليدها ولغاتها ومعتقداتها. بل إن العالمية الجديدة تقوم على أساس خلق مذهب عالمي انساني شامل يحترم

جميع خصوصيات الأفراد والمجموعات والشعوب ويخلق الانسجام بين المصالح الخاصة المختلفة والمصلحة العليا للبشرية بالتقارب والتفاهم والعيش بسلام وعدالة على هذه الكرة الأرضية التي تتحول يوماً بعد يوم الى قرية عالمية.

إن العرب لقادرون على التبشير بهذا المبدأ، وهذا أولاً وقبل كل شيء يحل مشاكلهم الوطنية الداخلية والطائفية والدينية، ثم ثانياً يمنحهم قوة إنسانية في تعاملهم مع العالم وتقديم هويتهم ودينهم بصورة جذابة وإيجابية خالية من التهديد والعنف ورغبات الاستحواذ والفرض. هذا يتطلب قبل كل شيء إعادة الروح العالمية للاسلام، ليس عن طريق تصدير الثورة ــ كما حاولها الشيوعيون في روسيا وغيرهم من قبل، ويحاولها الأصوليون الاسلاميون الآن ــ بل من خلال إعطاء معنى واضح وتفصيلي للموقف الانساني للاسلام القائم على أساس احترام حقوق الانسان، بما يعني هذا احترام حرية كافة الأديان والمعتقدات لجميع البشر. إن الفكر الوسطي لقادر على نفخ الروح الانسانية العالمية في الاسلام وذلك بتحويله الى دين شامل وحي وديناميكي يمكن أن يشمل حتى غير المسلمين، فأي انسان مظلوم مهما كان دينه أو معتقده من شأن الاسلام الاهتمام به والتضامن معه: الاسلام دين الله، والله رب جميع البشر، إذن الاسلام دين جميع البشر حتى الذين لم يسلموا. المسلم الحقيقي ليس هو من يُدخل الآخرين في الاسلام، بل من يُدخل الاسلام في قلوب الآخرين.

ثالثاً: التحرر من سيطرة التمركزية العقلية الغربية، والانفتاح على التراث الفكري والديني لجميع الشعوب. إن دراسة الهندوسية والتاوية والمجوسية وأديان شعوب افريقيا وآسيا وتركستان وهنود أمريكا، يجب أن تكون من المصادر الأساسية في الترجمة والبحث والتدريس في المدارس والجامعات. يوماً بعد يوم يكتشف الغرب نفسه أن في الفلسفة التاويه الصينية واليوغا الهندية وعلوم التنجيم التقليدية والمعتقدات السحرية الافريقية والهندية، ثمة الكثير مما يمكن الاستفادة منه في الحياة المعاصرة.

ما دام الانتاج العقلي الغربي هو المهيمن على حياتنا الروحية فاننا لن نستطيع أن نخلق التوازن الروحي المطلوب في ذواتنا من أجل التحرر وبناء حضارة جديدة. إن مواجهة الهيمنة العقلية الغربية لا يكون فقط بالعودة الى تراثنا الديني والقومي، بل كذلك بالعودة الى تراث الشعوب الأخرى التي تعودت هي أيضاً الخضوع للغرب. وهذا يتطلب القيام بنهضة فكرية للاتصال بالشعوب الأخرى وتبادل المختصين بالتراث وعقد المؤتمرات

الفكرية والدينية وتكوين لجان بحث وترجمة مختصة بالتعريف بتراث الشعوب ومدى علاقته التاريخية بتراثنا الديني والقومي. هذا الانفتاح على التراث العالمي يمنح العقل العربي البعد العالمي والديناميكية والقدرة على التطور والتأثير المستقبلي على العالم أجمع، بالاضافة الى أنه يغني الشخصية العربية ويمنحها الثقة بالذات والقدرة على التحرر من الهيمنة العقلية الغربية. ثم ان هدف التحرر من هذه التمركزية الغربية لا يعني أبداً العداء لكل ما هو غربي، بل الانفتاح على الابداعات والتقنيات الغربية مع التحلي بروح النقد والتمييز بين ما هو مفيد وما هو سيء لمجتمعاتنا وللمجتمعات الغربية نفسها. لأن انفتاح الفكر الوسطي على التراث العالمي لا يتنافى مع حقيقة أن المجتمعات الغربية تملك تراثاً روحياً ومادياً يشكل جزءاً من التراث العالمي. ثم ان هدف انقاذ العقل العربي من ثنائية التطرف والانفصام، يشمل أيضاً جميع الانسانية بما فيها المجتمعات الغربية نفسها.

رابعاً : الانفتاح على جميع المناهج والتيارات الفكرية التي اكتشفتها البشرية وتجنب الانغلاق والتعصب لمنهج واحد سواء في المجال الابداعي أو العلمي أو التحليل التاريخي والاجتماعي. مثلاً، يمكن الاستفادة من علم النفس لتحليل الشخصيات ونشاط الجماعات. الاستفادة من المنهج الماركسي في تحليل العلاقة بين الطبقات ودوافع الأفراد المصلحية. الاعتماد على المنهج البنيوي في تحليل العلاقة بين مكونات البنية الاجتماعية أو الإبداعية. الاعتماد على المنهج «التنجيمي» والطبيعي لمعرفة تأثير دورة الأفلاك البيئية على الأفراد والجماعات. الاعتماد على المنهج الثقافي لاكتشاف ديمومة الشروط والصفات في حركة التاريخ. يمكن حتى الأخذ بنظر الاعتبار الرؤية الغيبية والدينية في تحليل الوقائع والأحداث ودور الايمان في نشاط الأفراد والجماعات.

هذا يعني : أن الفكر الوسطي يؤمن أنه ليس هنالك منهج أو رؤية واحدة تحمل كل الحقيقة، بل إن كل منهج يحمل جزءاً من الحقيقة ودور النشاط الفكري الانساني يتحدد أولاً في احترام جميع المناهج والانفتاح عليها من أجل اكتشاف ذلك الجزء من الحقيقة الكامن في كل منها.

وهذا الانفتاح الفكري يعني بالضرورة أيضاً الانفتاح على جميع الوسائل والتقنيات العلمية واللاعلمية (شعبية ودينية وسحرية)، في التعامل مع ضروريات الحياة. مثلاً : في مجال الطب والعلاج، هنالك الوسائل التحليلية العلمية والأدوية الكيمياوية والعمليات الجراحية، لكن هذا لا ينفي إمكانية الاستفادة أيضاً من الأساليب الطبية الشعبية وأدوية

الأعشاب التقليدية والأبر الصينية. ثم ان أساليب العلاج النفسي الحديثة يمكن أن تستفيد كثيراً من أساليب الإيحاء السحري الشعبية وتقنيات اليوغا الهندية، وحتى تقاليد الصلاة وتقديم النذور للقديسين ومراقد الأولياء، من الأمثلة الشائعة في هذا المجال، أن الكثير من علماء النفس اكتشفوا أن عملية الاعتراف أمام الكاهن التي يمارسها المسيحي يمكن أن تكون ذات مفعول إيجابي نفسياً وأخلاقياً بمستوى حالة المريض أمام المحلل النفساني. كل هذه الأمور يحاول الفكر الوسطي أن ينفتح عليها، ليس بهدف تبنيها الساذج، بل من أجل دراستها ومحاولة استخراج كل ما مفيد منها، وتخليصها من سيطرة الدجالين والمشعوذين. ها هو الغرب المتمسك بالعلم اضطر لتشكيل اللجان والمعاهد المتخصصة لدراسة ما يسمى بالظواهر الفوقطبيعية، لأنه أدرك أن في هذه المجالات المهمشة من قبل العلميين ثمة إمكانات كثيرة للاستفادة منها في الطب والتربية والاتصالات بل حتى في مجالات التجسس والتأثير السياسي والعسكري.

خامساً: البحث عن نظام سياسي واجتماعي جديد يجمع بين محاسن الديمقراطية والتعددية ومحاسن الاشتراكية والعدالة الاجتماعية. إذا كان التاريخ الحديث قد أثبت فشل ما يسمى بالتجارب الاشتراكية، فإن التاريخ الحديث كذلك يثبت يوماً بعد يوم فشل الليبرالية القائمة على منطق هيمنة الأقلية الثرية (أفراداً وشعوبا) على الأغلبية الفقيرة (أفراداً وشعوباً). إذا كانت الاشتراكية قد فشلت بسبب عدم قدرتها على احترام التعددية الفكرية والخصوصيات الروحية والدينية للشعوب، فإن الليبرالية يتفاقم فشلها بسبب عدم قدرتها على احترام العدالة الاجتماعية على صعيد الوطن والعالم أجمع وسيطرة نظام السوق القائم على مبدأ الربح والمنافسة التي تصل الى حد شن الحروب الاعلامية والنفسية والعسكرية من أجل احتكار السوق وإبعاد المنافسين.

يدعي المدافعون عن النظام الليبرالي بالعقلانية والعلمية في تسيير عملية الانتاج وتطوير المجتمع. لكنه يكفي التمعن قليلاً بالتبذير الهائل للطاقة البشرية وثروات الطبيعة الذي يمارسه نظام السوق لكي نكتشف مدى العبثية والجنون الذي يسيطر على العالم : ما يقرب من ثلث طاقة البشر وثروات الطبيعة تبذر على انتاج الأسلحة المدمرة وصناعة الحروب. جزء كبير من الانتاج يتمثل ببضائع مكررة وغير مفيدة لا تخدم إلا عملية المنافسة بين الشركات، غابات بكاملها يتم استهلاكها بأيام من أجل انتاج ورق لعدد واحد من مجلة تلقى في البحر. جزء كبير من الانتاج يتمثل بوسائل الاعلام الجبارة

للترويج للبضائع وتشجيع عملية الاستهلاك والمنافسة ومسخ الروح الانسانية وتضخيم الاحساس بالنهم والحاجة لدى الناس الى حد الضياع والانتحار. جزء كبير من الانتاج يمكن اختصاره والاستغناء عنه، لأنه لا يخدم إلا أرباح الشركات ويشكل ضرراً على المجتمع، مثل هذا العدد الهائل من السيارات وما تستهلكه من بترول وما تسببه من حوادث رقم واحد يكشف عن مدى هذا الجنون: حتى أعوام الثمانينات فان عدد السيارات في سويسرا ـ 7 ملايين نسمة ـ يضاهي عدد السيارات في الصين ـ ما يقرب المليار ونصف المليار نسمة ـ!

هذا البحث عن الطريق الوسطي الثالث بين الاشتراكية والليبرالية، يعني أساساً عقلنة ميول التحديث التقني والتخفيف من حدة المكننة الجبارة التي تكتسح بلا رحمة حياة البيئة وتقاليد المجتمع الموروثة. المصانع والمختبرات وناطحات السحاب لا تنفي أهمية وسائل الانتاج التقليدية واحترام خصوصيات المجتمع والبيئة. السدود الجبارة ومكائن الضخ والأسمدة الكيماوية وأدوية النباتات لا تنفي أهمية دراسة وسائل الري التقليدية والأسمدة الطبيعية وطرق الزراعة الموروثة. كل يوم يكتشف الغرب أن الجنة الموعودة لا يمكن بناؤها من خلال التصنيع والتكنولوجيا وحدهما، بل إن للبيئة وتقاليد الحياة محاسنها وأهميتها في تطوير المجتمع. غدت معروفة للجميع المخاطر الكبرى التي تحيق بالكرة الأرضية من جراء تلوث الجو وثقوب الأوزون ونقص الأوكسجين وتسمم النبات والمياه وانقراض الحيوان. حوادث الطرق وحدها تقتل يومياً من البشر ما يضاهي عدد ضحايا الحروب والطواعين التاريخية، بالاضافة الى أنتشار الأمراض الاجتماعية والتعقيدات النفسية والجريمة والبطالة والمخدرات والعنف، كل هذا من جراء التطور التقني والتصنيع والهجرة نحو المدن الكبرى ونظام الانتاج المادي الذي تحول أشبه بمارد انعتق من سيطرة الانسان وراح يعبث بالحياة والطبيعة ويشوه كل ما هو جميل وحي في الكرة الأرضية.



إن هدف المبدأ الوسطي البحث عن إمكانات خلق مجتمع انساني يستطيع أن يعيش في ظل نظام انساني عالمي يحترم الخصوصيات الدينية والقومية. وهذا النظام كذلك من ناحية ديمقراطي ومتعدد الميول الفكرية والسياسية، ومن ناحية اخرى اشتراكي يضمن العدالة الاجتماعية من خلال سيطرة المجتمع (وليس الدولة) على وسائل الانتاج عبر الهيئات المدنية والنقابات والجمعيات والمصارف التعاونية والشعبية.

تبقى المشكلة أن مثل هذا النظام من الصعب جداً تحقيقه بشكل متكامل على صعيد بلد واحد. النظام السياسي والاقتصادي صار متداخلاً على صعيد العالم أجمع ويبدو من المستحيل انفصال بلد ما عن باقي العالم، لهذا فإن الكفاح الأساسي يتمثل بالعمل على خلق تيار عالمي يشمل الحكومات والأحزاب والجماعات الدينية والثقافية للمطالبة من خلال وسائل الإقناع والكفاح السلمي باتفاق البشرية (عبر الأمم المتحدة مثلاً، وكذلك الهيئات الدولية مثل مجموعة عدم الانحياز والجامعة العربية والمؤتمر الإسلامي) على إيجاد حلول مشتركة وعامة للبشرية جمعاء وانقاذها من التدهور الذي لو استمر على هذا المنوال سيؤدي بالأرض الى كارثة جماعية من التلوث والفقر والحروب والتدمير الذاتي. وهذا يعني أن هدف بناء نظام انساني ديمقراطي وعادل لم يعد حلماً طوباوياً لمجموعة من المناضلين، بل صار ضرورة حياتية للانسانية جمعاء، في الغرب مثلما في العالم الثالث علمانيون ودينيون، وحتى الأثرياء والسياسيون المستفيدون ظاهرياً ووقتياً من ديمومة الكارثة العالمية الحالية. إن الدعوة لفكر وسطي انسجامي ليست دعوة لمذهب أو معتقد سياسي أو ديني ينافس المعتقدات والأديان السائدة، بل هي دعوة لاتخاذ الواقعية والنسبية في التعامل مع جميع المعتقدات والأديان السائدة. إنها قد تكون دعوة خيالية وصعبة التحقيق، لكنها في كل الأحوال ليست أسوأ من الدعوات الأخرى السائدة التي فشلت حتى الآن بانقاذ البشرية من الفقر والتناحر والدمار الذاتي. قد يصح القول ان القانون الوحيد الذي أثبته تاريخ البشرية منذ فجر الحضارة وحتى الآن هو استحالة سيادة رؤية مذهبية أو دينية واحدة حتى في داخل الشعب ذي المعتقد أو المذهب أو الدين الأوحد. إن قانون التنوع والتعددية والنسبية في مجال الفكر والايمان هو الحقيقة الوحيدة المطلقة التي مارستها جميع الأديان والمعتقدات حتى وإن حاولت عدم الاعتراف بها. إذن فإن هدف الفكر الوسطي أولاً الاعتراف بهذه الحقيقة، وثانياً الكفاح الفكري والضميري من أجل إيجاد قاسم مشترك ورؤية وسطية للحوار والتفاهم بين جميع التيارات بهدف خلق برامج عمل مشتركة لانقاذ الأوطان.

إن الحقبة الحالية التي تعيشها شعوب المنطقة العربية تتشابه بالكثير مع الحقب المظلمة التي تميزت بالضعف وهيمنة الأجنبي وفقدان الثقة بالذات وغموض الهوية الوطنية والقومية وطغيان النزاعات الوطنية والحزبية والقبائلية والطائفية. إنها نفس إشكاليات الحقب السابقة التي دفعت أسلافنا الى تقديم مشاريع فكرية ودينية عالمية لانقاذ أوطانهم من خلال الدعوة لانقاذ العالم أجمع.

الثقافة بين المجتمع والسياسة والدين

سُئل يوماً الكاتب المصري يوسف إدريس، كيف استطاع أن ينتقل من طبيب جراح الى كاتب قصة؟ وكان جوابه: «إني لا أشعر بفرق كبير بين المهنتين... بالأمس كنت أشرّح الانسان بواسطة المبضع، والآن أشرّحه بواسطة القلم...»!

رغم تنوع تعريفات كلمة «مثقف» وغموض المعنى في جميع لغات العالم، إلا أن ثمة تعريفين سائدين رغم تمايزهما فإنهما متداخلان في المعنى. أولهما التعريف العام الشامل لجميع المتعلمين ممن يطلق عليهم تسمية «شغيلة الذهن»، أي كل من زاول العمل الذهني بتنوعاته العلمية والتقنية والكتابية والفنية، من مهندسين وأطباء وإداريين واقتصاديين وسياسيين وكتاب وفنانين. هؤلاء يشكلون عموماً الفئات المثقفة مقارنة بـ «شغيلة اليد» من عمال وفلاحين وحرفيين وعسكر وغيرهم. علماً أن هذا الفصل بين الفئتين يجب أن يعامل بصورة نسبية بسبب التداخل التقني بين العمل الذهني والعمل اليدوي. ثمة تعريف ثان لكلمة «مثقف»، هو أضيق معنىً من الأول، إذ يشمل قطاعاً واحداً من «شغيلة الذهن». فيكون «المثقف» هو الذي يزاول النشاط في المجالات الجمالية الروحية والفكرية: الفن والأدب والفكر من خلال الكتابة والرسم والتمثيل والتصوير والغناء. بصورة أكثر دقة، يقصد بالمثقفين، الكتاب والفنانين بجميع تنوعاتهم. على هذا الأساس يمكن القول أن من تبقى من قطاعات التقنيين والأطباء والاختصاصيين والسياسيين وغيرهم، يمكن تمييزهم بتسمية «مثقفين عمليين».

بالنسبة للمثقفين في بلداننا، فإنهم يعانون من إشكاليات ونواقص ذاتية ووطنية رغم خصوصيتها فإنها عموماً تتقارب مع أوضاع المثقفين في العالم الثالث بسبب الخضوع المشترك لظروف الهيمنة الاستعمارية وسيطرة الثقافة الغربية (طبعاً الثقافة السوفيتية والماركسية جزء من الثقافة الغربية). لكن يمكن القول أن أوضاع مثقفي منطقة المشرق: «العراق وسوريا ولبنان وفلسطين والأردن»، بينها قواسم مشتركة في التاريخ والميراث الحضاري والعقلية السائدة والظروف السياسية بالاضافة الى تشابه المجتمعات من ناحية التنوعات الدينية والمذهبية والسكانية (نقترح استخدام فئة سكانية بدل قومية أو عرقية).

يتوجب التنويه الى أن تعداد نقاط الخلل لدى المثقفين لا يقصد به جميع المثقفين، لأننا ندرك أن بينهم الكثيرين ممن يمتلكون الأصالة الذاتية والوطنية في إبداعاتهم. المقصود إذن هو القسم الأكبر من المثقفين الذين خضعوا بدرجات متفاوتة لحالة الانمساخ والانقطاع عن الواقع

مثل الكثير من مثقفي العالم العربي وعموم العالم الثالث. هذا الخلل بالحقيقة يشمل المجتمع بأكمله بقطاعاته المتعلمة وغير المتعلمة وخصوصاً النخب المثقفة التي تتحمل المسؤولية الأولى بخلق وعي المجتمع والدولة. يمكن تعداد نقاط الخلل كالتالي :

أولاً: علاقة المثقف بالمجتمع :

يبدو أن العلاقة متخلخلة تماماً بين ثقافة النخب المتعلمة وثقافة عموم المجتمع الواقعية والموروثة. قد تكون هذه الإشكالية طبيعية، إذ تعاني منها حتى المجتمعات الصناعية المتقدمة. لكن في بلدان العالم الثالث فإن الفروق المادية والثقافية بين فئات المجتمع شاسعة الى أقصى الحدود. في بلد «متقدم» مثل فرنسا، المسافة الحضارية بين المثقف الفرنسي والفلاح الفرنسي لا تتعدى المسافة الجغرافية بين القرية الفرنسية والعاصمة باريس. بينما في العراق فان المسافة الحضارية بين الفلاح والمثقف تتجاوز المسافة الجغرافية بين القرية العراقية والعاصمة بغداد، بل هي تفوق المسافة بين العراق وكل من باريس أولندن أوموسكو! إن ظروف التبعية المادية الثقافية فرضت واقعياً الهيمنة الثقافية الروحية لعواصم العالم «المتقدم». بمعنى أن المثقف الغربي يستمد مرجعيته من مركزه الثقافي الوطني أولاً ومن ثم من المراكز الثقافية العالمية، بينما مثقف العالم الثالث فانه رغماً عنه ظل يستمد مرجعيته من مراكز الثقافة العالمية البعيدة جغرافياً وحضارياً!

هذا الواقع الانفصامي للمثقف في بلداننا أنتج لديه شعوراً عميقاً بالاغتراب الروحي عن المجتمع بتنوعاته الثقافية والسياسية والحياتية. لهذا السبب، ساد لدى النخب المتعلمة نوعٌ من مشاعر النرجسية والاستعلاء المزوجة بروح العطف الأبوي والشفقة نحو باقي المجتمع «الجاهل». وتجلت هذه الحالة في جميع المعتقدات والإبداعات الثقافية والسياسية والعلمية. وتشترك في هذا الاحساس جميع النخب المتعلمة والفئات العليا والغنية، حتى التي تؤمن بالثورة والعدالة. بل حتى الأصوليين ودعاة الدين والعودة الى ميراث السلف الصالح سقطوا منذ البدء في اغراءات النرجسية والترفع عن عقلية المجتمع! إذا كان المثقف المدني (نقترح استخدام «مدني» بدل «علماني» لتجنب الإشكاليات التاريخية الخاصة بفرنسا وأوربا) يتهم عادة المجتمع بـ «الجهل والتخلف»، فإن «المثقف الديني» راح هو الآخر يمارس نرجسيته واستعلائه من خلال اتهام المجتمع بـ «الكفر والمروق عن مبادىء السلف الصالح».

كل نخبة تختلق لها فانتازيا خاصة بها لتبرير تعاليها وشفقتها الأبوية والبنوية باسم سلطة المعرفة والتفقه.

بصورة أوضح نقول: إن مشكلة المثقف في بلداننا أنه اكتسب نفس عقدة المثقف الغربي، لكن بصورة متطرفة ومقلوبة: إن المثقف الغربي ينظر الى مواطنيه بدرجة معقولة من الاستعلاء ضمن حدود التمايز داخل الحضارة الواحدة، لكن هذا المثقف رغماً عنه يشارك مجتمعه بمعتقدات الاستعلاء والغرائبية الأنثربولوجية عند النظر الى المجتمعات «المتخلفة» والتي أطلق على إبداعاتها بكل بساطة تسمية «فولكلور» (كشف عن هذه الحالة بصورة رائعة ادوارد سعيد في كتابه المعروف عن الاستشراق). أما بالنسبة لمثقف العالم الثالث فان مشكلته تكمن في تبنيه نفس نظرة المثقف والمواطن الغربي نحو ثقافة شعبه وعموم الشعوب «المتخلفة»!

للتمثيل على هذه الحالة، نستشهد بذلك الاعتقاد الباطني والعلني المتداول بين الكثير من المثقفين (وأشباه المثقفين) (نقول الكثير وليس الجميع): أن الإبداع والذكاء هي خصال خاصة بالمثقفين. وهذا يعني التعامل مع جميع نشاطات الناس ومعتقداتهم وإبداعاتهم، على أنها نشاطات شعبية «فولكلورية». طبعاً هناك استثناءات إيجابية منها مثلاً انتشار ظاهرة الاهتمام بالشعر الشعبي وكذلك نمو التيارات الباحثة عن الأصالة في الموسيقى والرسم والأدب.

هذا الوهم الاستعلائي شكل دائماً حاجزاً بين المثقف والثقافة الوطنية والشعبية، فتشوهت الرؤية الثقافية وساد زيف الإبداع والفهلوة الاستثقافية وهيمن الميل الى استخدام الرموز العصية والمستوردة من نوعية: «يا طائر البطريق... وأرفع قبعتي تحية لك يا سيدتي...»! لقد طغى الغموض والتعقيد الى درجة أنه صار شرطاً أساسياً للقيمة الإبداعية: تقديس الرمز المجهول واللغة العصية على الفهم ذات المفردات القاموسية والجمل الطويلة المعقدة التي لا تعرف منها الفاعل والمفعول به إلا بعد قراءتها مرات عديدة. في القصص والأشعار يجب أن تكون المدن مجهولة والشخوص بلا أسماء والأحداث بلا أوطان ولا تواريخ.

لوحات الرسامين مهما احتوت على أشكال واقعية فانها بالضرورة يجب أن تلطخ بالألوان القاتمة والضباب الداكن الذي يغطي مساحة اللوحة ويخفي محتواها.

ترانا تعودنا الاستماع منذ أعوام الى الجواب المكرر، للرد على شكوى الناس من هذا الغموض والإبهام: «إذا كان المتلقي لا يفهم فهذه مشكلته. عليه أن يعي أكثر ليدرك مقاصدي...»! كل هذا الغموض والتعقيد يبتغي بالنهاية أن يشعر «المواطن المسكين» بجهله

وعدم قدرته على الارتفاع الى مستوى هؤلاء «المبدعين الكبار». ولا يدري هذا المواطن أن قسماً كبيراً من هؤلاء المثقفين أنفسهم غير قادرين على «فك طلاسم» بعضهم البعض. الجميع يشتركون بديمومة هذه «الأكذوبة الكبرى» من خلال «هز الرأس» أمام اللوحة أو النص ثم التشدق بالأسماء الرنانة من نوع دالي وبيكاسو وسارتر وفوكو لتغطية العجز عن الفهم الحقيقي!

صحيح أن «الغموض الطبيعي» يمكن أن يكون ميزة فنية وإبداعية مقبولة. لكن المشكلة أن هذا «الغموض الأدونيسي» أصبح «الممثل الشرعي الوحيد» للإبداع، وصار الوضوح والمباشرة «العدوالامبريالي الأول» الذي يتوجب على المبدع الانتصار عليه! رغم أن شاعراً كبيراً مثل «السياب»، أوفناناً أصيلاً مثل «جواد سليم» أو روائياً مبدعاً مثل نجيب محفوظ لا يمكن أبداً اتخاذهم نموذجاً للغموض الحالي.

يمكن في هذا السياق طرح التساؤل التالي : لماذا تخلو ثقافتنا الحديثة مما يسمى بالإبداعات الشعبية، أي الكتب والقصص المكتوبة بلغة مبسطة وموجهة الى أكبر عدد ممكن من القراء المتوسطي الثقافة؟ منذ أكثر من قرن والثقافة الغربية لم تتوقف عن انتاج هذا النوع من الكتب العاطفية والبوليسية والعلمية والخيالية المقروءة من قبل حتى المثقفين «الرهيفي والنحيفي» المستوى. نفس التساؤل يُطرح بالنسبة للفقر الشديد الذي تعاني منه الثقافة الموجهة للأطفال فنياً وأدبياً. كل هذا لأننا تعودنا تقديس «الثقافة الراقية» والاستخفاف بكل الابداعات الثقافية التي قد تهبط قليلاً الى مستوى «الشعب الجاهل»! حتى الآن لم يتطرق أحد الى سبب الانفصال الكبير بين كلمات الاغاني السائدة وكلمات القصائد الفصيحة!؟

من أجل أن يؤكد المثقف تفقهه بالثقافة الغربية، تراه انكب على التكرار التلميذي الساذج للنظريات والتيارات والمصطلحات والرموز والأسماء الأجنبية «الغربية». إن الانفتاح والاقتباس والاستلهام من الثقافة الغربية المهيمنة يمكن أن يكون أمراً طبيعياً وايجابياً، لكن المشكلة تكمن في «المركزية الطاغية» لهذه الثقافة وباعتبارها أيضاً «الممثل الشرعي الوحيد» للثقافة العالمية والأجنبية! صحيح أن هناك محاولات محدودة بدأت في سنوات السبعينات بترجمة ابداعات أمريكا اللاتينية وافريقيا، ولكن حتى هذه الترجمات لم تصلنا إلا بعد الاعتراف بها من قبل الغرب! الموسيقى الافريقية لم نكتشفها إلا من خلال الغرب، حتى أغاني «الراي» الجزائرية أتتنا عن طريق الغرب، بل إننا متخلفون بسنوات طويلة عن الغرب

في اعترافه بالثقافات الأجنبية. منذ سنوات الستينات بدأت تنتشر في الغرب تيارات بديلة تدعو للانفتاح على الروحانيات الهندية والصينية والاسلامية والعلوم «الشعبية» مثل طب الأعشاب والعلاجات الروحية وغيرها. بل إنه في بعض الدول الافريقية شكلت الحكومات لجان من المتخصصين بالطب الشعبي من أجل اختبار الأطباء الشعبيين ومنحهم اجازات العمل والاشراف على نشاطاتهم ومنع المشعوذين. في الغرب فقط عرفنا أن «علم التنجيم» هو علم «بابلي مشرقي» صميم، وأهل النهرين هم أول من أبدع هذا العلم بحكم علاقتهم اليومية مع السماء والنجوم. طبعاً هذا لا يعني اتفاقنا مع «الشعوذات» التي تمارس أحياناً بأسم هذا العلم.

مختصر القول، أن الانفتاح على الثقافة الأجنبية يعني قبل كل شيء الانفتاح على ثقافات جميع الشعوب وخصوصاً الثقافات التي تربطنا بها علاقات تاريخية وجغرافية مديدة: مثل (الثقافات الفارسية والتركية والآسيوية والافريقية بالاضافة الى ثقافات الشعوب الغربية).

إن انفصام المثقف عن مجتمعه تمثل أيضاً بالتجاهل الطاغي الذي يمارس ازاء ثقافات الجماعات السكانية والدينية والمذهبية التي يتكون منها الوطن. صحيح أن الثقافة العراقية أنجزت خطوة مهمة منذ سنوات ألا وهي الاعتراف بالثقافة الكردية وتقديمها وترجمتها الى العربية. لكن هذه الخطوة تظل ناقصة من دون الانفتاح على ثقافات جميع الأديان والمذاهب والجماعات السكانية في العراق وعموم منطقة المشرق. باسم الخوف من «إثارة الحساسيات والنعرات» تم تجنب التطرق لثقافات وميراثات الفئات الوطنية : أكراد، سنة، شيعة، سريان، صابئة، تركمان، يزيدية، فيلية، أرمن، ثم الدروز والعلوية والشركس والطوائف المسيحية وباقي التنوعات الأصيلة مثل النوبيين والزنوج في السودان والأمازيغ في بلدان المغرب. بل حتى القبائل والقرى والمدن المختلفة تستحق الاهتمام بمواريثها وتقاليدها وفنونها التي تشكل بمجملها ثقافة الوطن بأكمله. لهذا ترى مثلاً شاعرنا يمكن أن يقتبس الرموز من الأساطير الإغريقية والهندية والافريقية لكنه لم يفكر يوماً بأساطير وثقافات الجماعات التي يتآلف معها يومياً في سوح الوطن..

إن سر قوة الأنظمة الغربية لا يكمن فقط في الاقتصاد والتكنولوجيا والعسكر، بل قبل كل شيء في القدرة على دفع جميع التنوعات الثقافية للتعبير عن نفسها وبالتالي صهرها في ثقافة وطنية واحدة موحدة تمنح الانسان الثقة بالذات والحس بالأصالة والانتماء للهوية الوطنية المشتركة. الديمقراطية لا تعني فقط حرية التعبير لجميع التيارات الفكرية والسياسية، بل قبل

كل شيء حرية التعبير لجميع التنوعات الثقافية والدينية والمذهبية والسكانية بما فيها حتى المواريث العشائرية والاقليمية ضمن مبدأ مقدس يبتغي بناء ثقافة وطنية متنوعة وموحدة من خلال الاتفاق على أن اللغة الوطنية (العربية بالنسبة لنا) تظل هي اللغة الأساسية (وليست الوحيدة) المشتركة بين كل هذه التنوعات الثقافية.

نضرب مثلاً صغيراً على هذه الحالة: أليس من الغريب أن نسمع في محطات الراديو والتلفزيون في بلداننا أغاني انكليزية وفرنسية واسبانية وحتى بلغة الهونولولو، ولكننا لم نسمع أو نشاهد أغنية سريانية أو تركمانية أو أرمنية أو بربرية أو نوبية. تُعرض علينا أفلام عن طقوس وتقاليد الهنود والأفارقة وجميع الشعوب، لكننا لم نشاهد أبداً فلماً عن طقوس وتقاليد المسيحيين أو الصابئة أو اليزيدية أو الأقباط أو العلوية أو الشركس. الشيعة مثلاً لم تعرفهم التلفزيونات العربية إلا بعد أن «تفضلت» علينا المؤسسات الغربية بتصوير بعض شيعة لبنان وهم يفجون رؤوسهم بالسواطير! إنها أمثلة بسيطة عن حالة الانقطاع الثقافي والاحتقار الذاتي وفقدان القدرة على النظر الى الذات الوطنية دون الاستعاضة بالكاميرات والعيون الغربية. لماذا كل قصصنا وتمثيلياتنا وأفلامنا وقصائدنا ولوحاتنا محدودة الأماكن والأجواء والنماذج ولا تبتعد أبداً عن المركز الثقافي الاجتماعي المقرر من قبل الحكومة. لم نشاهد إلا نادراً فلما مصرياً واحداً يتحدث عن شخصية مصرية قبطية، ثم لماذا هذا الاصرار على احتقار الانسان «الصعيدي» والسخرية من لهجته في جميع الأفلام المصرية؟ ثم لماذا جميع الشخصيات من ذوي البشرة السوداء لا يمثلون الا أدوار الخدم في الأفلام المصرية. رغم أن جزءاً من الشعب المصري بأشكال افريقية. بل وصل الأمر الى حد اختيار «رجال بيض» للقيام بدور «عنتر العبسي» مثل سراج منير ثم فريد شوقي بعد تسويد بشرتهما بالسخام؟

ثانياً: إشكالية العلاقة بين المثقف والسياسي:

إن هذا الخلل الاستعلائي بين المثقف والمجتمع، قد يكون عاملاً أساسياً في فشل المثقف باستلهام الواقع، وبالتالي فشله بالتأثير على هذا الواقع. ديمومة الفصام العقلي بين المثقف والناس أفسح المجال للسياسي ورجل الدولة لأن يفرض سيطرته المطلقة على الواقع الوطني: دولة وشعباً وثقافة!

إن إشكالية العلاقة بين المثقف والسياسي تكمن في الفرق بين أساليب ونوعية رؤاهما: المثقف، إنسان البحث في متاهات الخيال والحس والتفكير وتأمل الأسمى والأجمل. أما

السياسي، فهو انسان الممارسة والدولة والحسابات والتخطيطات وقياسات موازين القوى والدفاع عن برنامج سياسي محدد للتفكير والتطبيق.

يُقال عن الجيش الوطني الحقيقي أنه القادر على أن يكون «فوق الميول والاتجاهات». المثقف يشبه العسكري في هذه الناحية، بمعنى أن المثقف الحقيقي هو المثقف المستقل، ليس لأنه فوق الميول والاتجاهات بل على العكس، لأنه الجامع الأكبر للميول والاتجاهات.. إنه ضمير الناس والوطن والحاكم المحايد بين الفرقاء. يمكن تشبيه الفرق بين السياسي والمثقف بالفرق بين النبع والنهر. السياسي مهما كان واسع الطموح وذو برنامج شمولي فانه بطبيعته يبقى يمثل نبعاً ونهيراً يصب مع باقي الروافد الوطنية في نهر الثقافة الوطنية والانسانية. التيارات السياسية ما هي إلا نهيرات تصب في نهر الثقافة الكبير. والمثقف مهما التزم بتيار معين فانه بطبعه لن يكون مثقفاً مبدعاً ان لم يكن رافداً وطنياً كبيراً يصب بدوره في بحر الثقافة الانسانية والكونية.

هذا الاختلاف بين السياسي والمثقف ليس اختلافاً تناقضياً، بل هو اختلاف تكاملي، لأنهما طرفان متكاملان في معادلة الوطن والانسان، ويفترض أنهما يشتركان في مسؤولية ديمومة الحياة وتحسينها وتجميلها. النظام الاجتماعي السياسي الأمثل هو الذي يتعاون فيه المثقفون والسياسيون بصورة تسمح لكل منهما أن يحافظ على دوره المطلوب : أن يحاول السياسي دفع المثقف الى المشاركة أكثر في تطوير الواقع وبرامج الاصلاح الاجتماعي. بنفس الوقت فإن المثقف يحاول أن يدفع السياسي للتخفيف من حدة «حزبيته» وأن يكون أكثر جمالية وإنسانية وشمولية.

كثيراً ما يواجه المثقف بمسألة «الالتزام» بقضية الشعب والدولة، ولكن لا أحد يواجه السياسي بمسألة «الالتزام» بقضية جمالية الانسان وخياله وشموليته الروحية! ان هذا التخلخل في العلاقة بين المثقف والسياسي أدى الى الفهم الضيق لمعنى «الالتزام»، وبالتالي دفع المثقفين الى التمزق بين موقفين متعارضين تماماً :

ـ البعض فهم «الالتزام»، بالمعنى الحزبي والخضوع الفكري والإبداعي للقائد السياسي دولة أوحزباً بحيث يغدو المثقف مفسراً وإعلامياً للبرنامج السياسي الذي يفرضه رجل الحزب والدولة. يغصب المثقف نفسه على حصر عالمه الشامل والمتنوع في رافد سياسي مقنن فتتقلص مسافات الابداع والنقد والتفكير الى حدود الآيديولوجية والبرنامج التعبوي السياسي.

ـ البعض الآخر تمرد على «الالتزام» فلجأ الى نقيضه، أي الى الـ «لاإلتزام». حيث يسود الاعتقاد بأن السياسي نقيض للانساني والثقافي وبالتالي يتوجب الترفع عن جميع تفاصيل الواقع اليومي وتجنب القضايا الاجتماعية والسياسية المباشرة واللجوء للغموض والفذلكة الاستعلائية.

بسبب هذه العلاقة المشوهة ظلت الحياة السياسية في العراق مثل الكثير من البلدان العربية تفتقر الى الابداع التنظيري والبحث الموضوعي في الواقع السياسي والاجتماعي والفكري العراقي. الحركات السياسية والدولة ترفض المثقف الذي يتدخل مباشرة في تحليل الواقع، لأنها تفضل المثقف «الشَّعّار» السهل الذي يمنح دون اعتراض وتمنع ويمارس دور المفسر والمزوق والطبال. أما المثقف الآخر «المستقل» فقد فضل تجنب المواجهة (ودوخة الرأس) بأمور لا تقوده إلا الى الاضطهاد والعذاب، فالتجأ الى مزاولة الابداعات الروحية التي لا تمس مباشرة الحياة الاجتماعية والسياسية. أبسط مثال على هذه الحال أنه حتى الآن ورغم الألوف المؤلفة من المثقفين والسياسيين العراقيين المتواجدين في الخارج، فاننا لا نمتلك حتى الآن أية دار نشر أومؤسسة أومجلة فكرية سياسية خاصة بالمثقفين منفتحة على جميع التيارات وتعني بصورة مستقلة وتفصيلية بدراسة الوضع في العراق! لا السياسيون يرغبون بذلك، خوفاً من فقدانهم سيطرة مفاهيمهم وتنظيراتهم على الوضع والقرار العراقي؛ ولا المثقفون يجرأون على كسر هيمنة الأحزاب، وولوج الواقع الاجتماعي والوطني وفرض مفاهيم ثقافية شاملة وعميقة ومتجددة على الخطاب السياسي التبسيطي والمكرر.

ثالثاً: إشكالية العلاقة بين المثقف والديني:

كلنا نتذكر، نحن الأجيال الشابة من المثقفين «الثوريين» كيف كنا نستخف بتقاليد أهالينا وشعائرهم عندما يؤدون الصلاة والصوم أو يمارسون طقوس عاشوراء. بل كنا حتى نستخف بتراثهم الأدبي والأسطوري وحكايات ألف ليلة وليلة. لأننا أخذنا «العلمانية» من ذيلها ولم نفهمها إلا على طريقة الثورة الفرنسية والثورة الروسية، أي «نبذ الدين وتجاهله»! لم ندرك أن أوربا لم تصل الى ما وصلت اليه الآن إلا بعد قرون من الابداعات الفكرية التي لم تترك ذرة واحدة من التراث الديني إلا وتطرقت اليها وناقشتها ونبشت في مجاهيلها. لا زال حتى الآن التراث الديني يشكل جزءاً مهماً من الإبداعات الثقافية والأكاديمية بجميع تياراتها المختلفة. بل وصلت «التخمة» بالاوربيين بحيث أنهم راحوا يدرسون تراثنا الاسلامي وقبل الاسلامي وأبدعوا به وراحوا يعلموننا إياه في جامعاتهم!

إن الخلل في العلاقة بين المثقف والواقع الشعبي، ثم بين المثقف والسياسي، مرتبط أساساً بموقف المثقف إزاء الدين. وصل الأمر الى حد تناسي أي علاقة بين الدين والثقافة، باعتبار الدين مسألة تقليدية «متخلفة» وهو معني بشؤون الماضي واهتمامات الشعب «البسيط». أما الثقافة فهي شأن معاصر ونخبوي ولا تهتم إلا بأمور المستقبل السوريالية والدادائية والوجودية والماركسية والليبرالية والبنيوية والأبستمولوجية والسكسيولوجية، وهلمّ جرا. غدا من الطبيعي اعتبار أمور الفقه ونصوص التراث وتواريخ الأنبياء والأولياء والطقوس والحكايات كلها من الأمور الشعبية التي تقع خارج دائرة الثقافة والإبداع. من المعتاد الكلام عن «التعصب الديني»، لكن لا أحد يتكلم عن «التعصب الحداثي» الذي يتجاهل كل ما هو تراثي وديني وشعبي باعتباره متخلفاً وخرافياً!

إن ابتعاد المثقفين عن «المجال الديني» أعاق تطور الدين وتحديثه على عكس ما جرى في أوربا. لقد ظل الدين معزولاً في التكايا والجوامع والمؤسسات الفقهية المغلقة ولم يتخلص من إرث الحقبة العثمانية المظلمة التي قضت على الميراث المزدهر للعصرين الأموي والعباسي. إن الاجتياح السلفي الحالي يعود أساساً الى تخلف ثقافتنا عن إنجاز المهمة التاريخية الكبرى: «تطوير الدين وتحديثه»، أي صنع الأساس الأول لتطوير وعي المجتمع والدولة وخلق هوية ثقافية وطنية قادرة على منح الانسان الثقة بالذات بلا توتر ولا شعور بالنقص إزاء الحداثة القادمة من الغرب. إن الحالة الانفصامية بين الديني والثقافي، ليس المثقف وحده هو المسؤول عنها، بل كذلك رجل الدين. بالاضافة الى الترفع الذي يبديه المثقفون هناك أيضاً ضيق الأفق والانغلاق الذي أبداه الفقهاء والمثقفون الدينيون إزاء كل ما هو حداثي و«علماني» وداع الى التجديد، حتى وصل بهم الأمر الى معاداة كل ما هو أدبي وفني باعتباره مناقضاً للدّين! نتيجة هذا لم يفكر أحد أن الدين بحد ذاته ثقافة، ورجل الدين هو رجل مثقف قبل أي شيء وكل ما في الأمر أن ثقافته متخصصة بالأمور الدينية والفقهية والتاريخية.

مشكلة المثقفين الدينيين أنهم بغالبيتهم تابعون للمؤسسات الرسمية الدينية (سنية أو شيعية أو مسيحية، وغيرها). في العقود الأخيرة بدأ المثقفون الاسلاميون ينضوون تحت راية الأحزاب الدينية. وفي كلتي الحالتين لا يزال هؤلاء يعانون مثل المثقفين العصريين من التبعية للمؤسسة الرسمية والحزبية، بالاضافة الى ديمومة عزلتهم وتأخرهم عن التعامل مع مواضيع العصر وأفكاره.

إن تجاهل الثقافة الحديثة للمجال الديني أعاقها عن إمكانية ضخ الاسلام بالمعارف والعلوم والمفاهيم الجديدة. لقد فشلنا حتى بإعادة العنفوان الحضاري الأول للاسلام المزدهر بما لا

يحصى من التيارات الفقهية والفلسفية والصوفية بالاضافة الى التعايش مع الأديان والمذاهب المختلفة. يكفي القول مثلاً، أن مذهب «المرجئة» الذي ساد العصر الأموي قد سبق بقرون مفهوم «العلمانية» الغربية: أن الانسان يحاسب فقط على أعماله ازاء المجتمع، أما بالنسبة لإيمانه الديني فان محاسبته تعود الى الله و «ترجأ» أي تؤجل الى الآخرة حيث يوم الحساب.

على كل حال، يبدو أنه منذ الثمانينات بدأت الثقافة الحديثة تهتم بالاقتراب من المجال الديني. ان الاجتياح السلفي الحالي وما يطلق عليه بـ «الصحوة الاسلامية» رغم تطرفه ومغالاته وتكفيره للمجتمع، إلا أنه ساهم بخلق حالة ايجابية مفيدة على المدى البعيد: إدراك الكثير من المثقفين خطأ تجاهلهم لأهمية الدين، وبالتالي ضرورة الاهتمام بالمجال الديني لضخه بالدراسات والنقاشات والمعارف والمفاهيم العصرية. وهذا هو أملنا الوحيد بإمكانية خلق «تيار اسلامي معتدل» منفتح على العصر والحداثة ويؤمن بالتعددية السياسية والفكرية والدينية على نمط «التيار الديمقراطي المسيحي» الموجود في أوربا، رغم الاختلاف الكبير بين الحالتين.

المثقف والتاريخ

من أول الحلول الممكنة لتخطي هذه الإشكالية المزمنة، أن يتخلص المثقف العراقي والمشرقي (والعربي عموماً) من إحساسه الدائم بكونه ضحية للأنظمة الجائرة والمجتمع المتخلف. صحيح أن الأنظمة جائرة وصحيح أن المجتمع متخلف، ولكن الصحيح أيضاً أن المثقف يمكن أيضاً أن يكون جائراً ومتخلفاً بانقطاعه عن أصالته الذاتية والوطنية ونظرته النرجسية الاستعلائية. بمعنى أن الحس النقدي الذي يتحلى به المثقف ازاء الدولة والمجتمع والدين لن يكون مفيداً وايجابياً إلا بإكماله أيضاً بالحس النقدي ازاء ذات المثقف ومدى دوره في تخلف الدولة والمجتمع والدين وعموم الثقافة الوطنية. ان حلقة تخلف الدولة والمجتمع والدين لن تكتمل إلا بتخلف المثقف ومساهمته في تشكيل الوعي الوطني المتخلف الذي يبرر لمثل هذه الطغم الاستبدادية أن تستحوذ على الدولة والوطن بأكمله.

ثم تأتي بعد ذلك أهمية اتخاذ الخطوات اللازمة لإصلاح العلاقة بين المثقف والسياسي ثم بين المثقف والديني. نعتقد أن الوسيط الوحيد القادر على اجراء الحوار بين المثقف والسياسي، هو «المثقف السياسي» أو «السياسي المثقف» من أمثال «لينين ومحمد باقر الصدر وانطون

سعادة» وغيرهم. وهذا يعني أن على كل حركة سياسية أن تضع في حسبانها الاشراك المباشر للمثقفين السياسيين في قيادة الحركة والتنظير لها. وبنفس الوقت أن يلعب هؤلاء المثقفون الحزبيون دوراً وسيطاً بين الحركة السياسية والحركة الثقافية. أي بصورة أوضح أن تكف الحركات السياسية عن جعل المثقف المرتبط بها كداعية واعلامي للتأثير على المثقفين وجرهم الى مواقعها. بل الأمر يجب أن يكون العكس، أي أن يلعب المثقف الحزبي دوراً أساسياً في نقل آراء المثقفين للتأثير على الحركة السياسية وضخها بالخطاب الثقافي الشمولي والمستقل.

نفس الأمر ينطبق على مسألة العلاقة بين المثقف والدين، فيتم الحوار وتبادل التأثير من خلال «المثقف الديني» الذي يجب أن يلعب دوراً أكثر استقلالية وشمولية في تكوين ثقافة دينية منفتحة على الثقافة العصرية ومؤثرة على البرنامج السياسي للحركات الدينية. وبالتالي تكوين ثقافة دينية منفتحة على الفكر المدني (أي العلماني أو الحديث)، وهذا سيؤدي بالتأكيد الى تكوين ثقافة مدنية وطنية منفتحة وممثلة لجميع التنوعات الدينية الاسلامية السنية والشيعية وكذلك المسيحية وجميع الأديان والمذاهب والجماعات الثقافية والسكانية في العراق ومنطقة المشرق وعموم العالم العربي.

يمكننا هنا أن ننوه الى مسألة قد تبدو ثانوية، لكنها بالحقيقة مهمة وتلعب دوراً في تعميق الأصالة والشمولية لدى المثقف، ونعني بذلك: «الثقافة التاريخية». الملاحظ وحسب اطلاعاتنا الشخصية أن أغلب مثقفينا تخلو مكتباتهم وقراءاتهم من الكتب المعنية بسرد تاريخ الشعوب والأوطان. تجد الكتب المتنوعة في مجالات الأدب والفن والفكر والتراث، وهي طبعاً مجالات ثقافية أساسية لا يمكن الاستخفاف بأهميتها. لكن تبقى قراءة «كتب التاريخ» شرطاً أولياً لاكتمال المعرفة خصوصاً بالنسبة لمثقفي الشعوب التي تعاني من الانمساخ التاريخي وتمزق الهوية الوطنية. ربما قلة اهتمام مثقفينا بالتاريخ تعود أيضاً لذلك الانقطاع والانمساخ الثقافي الذي فرض على ثقافتنا باسم الحداثة والمستقبلية والنقمة على الماضي «الظلامي المتخلف». لهذا ترى مثقفينا عموماً يميلون الى القراءات الأدبية والفنية والفكرية والسياسية، ثم البعض يضيف الى ذلك الكتب التراثية المعروفة بسبب أهميتها اللغوية والشعرية. أما كتب التاريخ فهي الأقل والأندر عموماً.

إن قراءة التاريخ الوطني والعالمي ستمنح مثقفينا العمق الثقافي الوطني والانساني وتجعلهم قادرين على الإمساك بالمعلومات والأدلة والأمثلة التي تغني الأصالة الذاتية وتدعم الثقة

بديمومة الهوية الحضارية. ان قراءة التاريخ تكشف المعلومات عن تفاصيل الجماعات الدينية والمذهبية والسكانية المتنوعة التي يتكون منها الوطن وأدوار هذه الجماعات في صنع تاريخ المنطقة. إن قراءة التاريخ تعني بكل بساطة قراءة تاريخ جميع المعارف والانجازات الانسانية في مجالات الأدب والفن والفكر والاجتماع والسياسة والدين والحروب والعلوم والتقنيات وغيرها. قد لا نغالي لو جزمنا أن «قراءة التاريخ» ، هي الشرط الأول لتكوين المثقف الانساني الشمولي والأصيل ذاتياً ووطنياً.

باختصار نقول : إن الشعوب التي لا تقرأ التاريخ لا يمكنها أبداً أن تساهم بصنع التاريخ. إن فهم الحاضر واستشراف المستقبل لن يتما إلا بدراسة الماضي واستيعاب معانيه، وهنا يكمن سر قوة الحضارة الغربية ودهاء الحركة الصهيونية، لأنهما هضما جيداً التاريخ ثم تمكنا من السيطرة عليه.

حول المرأة، والفلسفة الصينية «التاوية»

كان من المفروض على الأقل تخصيص فصلٍ كاملٍ عن قضية المرأة، لأهميتها الحاسمة في بناء هوية أي شعب ووطن، لكن شحة الوقت وطبيعة الكتاب فرضت الاقتصاد بهذا الموضوع.

باختصار، إن موضوع المرأة هو أكثر المواضيع التي تستحق التعامل معها بالاعتماد على الفلسفة الصينية «التاوية». بالحقيقة أن هذه ليست فلسفة بالمعنى الشائع بقدر ماهي «طريقة حياة»، إذ لا تتعارض مع أي دين أومعتقد. إنها تعتبر الحياة والوجود بأجمعه يتكون من جانبين متكاملين: (ين) و (يان) أي (مؤنث) و (مذكر)، ويمكن الترجمة أيضاً بـ (منفعل) و(فعّال). بمعنى أن كل شيء في الوجود إما (مؤنث) أو (مذكر).. نعم كل شيء : البشر والحيوان والنبات وجميع المواد وأعضاء الجسد والسماء والأرض وحتى الغذاء والدواء. مثلاً، النهار مذكر والليل مؤنث، الحر مذكر والبرد مؤنث، المالح مذكر والحلو مؤنث، الحديد مذكر والخشب مؤنث.. الخ. كل الوجود (ثنائي) لكن هذه الثنائية التاوية تختلف تماماً عن (ثنائيتنا التناقضية) أي (ثنائية الأحسن والأسوأ) السائدة لدى شعوب ضفتي البحر المتوسط في أوربا والعالم العربي. الثنائية التاوية هي (الثنائية الانسجامية) حيث كل طرف لا يكتمل إلا بالطرف الآخر.. الخير يكمن بالانسجام والتكامل بين الثنائيات، والشر يكمن في تخلخل الانسجام والتوازن بين هذه الثنائيات.

بناءاً على هذا فإن أي مجتمع لن يبلغ الاستقرار والأزدهار إلا بتوازن ثنائياته وتكاملها: الدولة والمجتمع، القوى السياسية والقوى المدنية، الدين والعلم، الانتاج والابتهاج، المدينة والريف.. ومن بين كل ثنائيات المجتمع، فإن ثنائية (المرأة والرجل) هي الأكثر أهمية على الإطلاق، في جميع النواحي البيولوجية والروحية والتربوية والاقتصادية والسياسية. دائماً المجتمعات التي تعيش حالة عنف وتوتر وقمع هي المجتمعات التي يبلغ فيها تخلخل التوازن بين الرجل والمرأة حده الأقصى، حيث السيطرة الحاسمة لعناصر الذكورة ورموزها : الفحولة والأبوة والقوة والعمل والعقل (الخالي من العواطف والضمير) والسلاح والحديد والجفاف والصراخ والفردية. كل هذه العناصر (الذكورية) هي ضرورية ومفيدة للمجتمع في حالة التخفيف من سيطرتها بموازنتها مع عناصر الأنوثة: الأمومة والليونة والراحة والعواطف والخضرة والرطوبة والهدوء والروح الجماعية.

لهذا فان المجتمع الأمثل هو المجتمع الذي يتمكن من تحقيق التوازن بين مكوناته الذكورية والأنوثية، في الدولة والادارة والقانون والدين والثقافة والتربية وجميع مكونات الحياة المادية والروحية.

حكاية المرأة الغربية

لو تفحصنا بعض الشيء التجربة الغربية بشقيها الماركسي والليبرالي، فاننا نلاحظ أن مشكلة المرأة تكمن في غياب التوازن بين الأنوثة والذكورة في الدولة والمجتمع، رغم كل الادعاءات بالحرية والمساواة بين الجنسين. المشكلة أنهم تصوروا أن «المساواة» بين الرجل والمرأة تعني «التشابه» وليس «التوازن والانسجام». حكاية المرأة الغربية هي حكاية كل الجماعات الضعيفة الخاضعة: تتوهم بأن التحرر من عبودية الأسياد يكمن بتقليدهم والتشبه بهم. فتراها رغم التحرر من العبودية فانها تظل تعيش في عبودية أقسى وأعنف هي عبودية الروح والعقل وانمساخ الأنا والاحتقار الدائم للذات لأنها لن تستطيع أبداً بلوغ مستوى السادة السابقين. حكاية المرأة تشبه حكاية بعض الأفارقة الذين تصوروا أن مساواتهم مع المستعمرين تكمن بتحولهم من اللون الأسود الى الأبيض! وهذا بالضبط ما عملته نخبنا الحداثية والتقدمية التي تصورت بأن تطورنا ومساواتنا مع الغرب يكمن بتشبهنا به وتشابهنا معه، والنتيجة أنهم حولونا الى أشبه بحيوانات سيرك بعد أن نجحت بالتخلص من سيدها «الغربي» راحت تتصارع بوحشية فيما بينها لأنها تريد تقليد سلوك وعادات سيدها السابق وتتشبه به.

هكذا حال المرأة حسب الطريقة الغربية، إنها منذ أجيال تمضي وقتها لكي تستطيع أكثر وأكثر أن تنمسخ الى رجل: لكي تتمرد على جدار البيت وعبودية تربية الأطفال والخضوع الاقتصادي للرجل، تراها تمضي نهارها في سوق العمل والانتاج محرومة من بهجة الأمومة وهي بالكاد تقتنص الساعة لكي تمضي بعض الوقت مع أبنائها المعقدين بسبب العزلة والحرمان. وفوق كل هذا فشلت حتى بالاحتفاظ (برجلها) الذي رغم تشدقه بالحرية والمساواة إلا أنه يبقى رجلاً يحلم أن يعود الى بيته بعد كفاح العمل فيجد امرأته تنتظره بزينتها وعطرها وقد أعدت له المائدة وهيأت الأطفال ورتبت الفراش. لهذا تجد أن نسبة الطلاق في أوربا تبلغ أحياناً نصف مستوى حالات الزواج، ونسبة النساء اللواتي يعشن وحدهن بعد خيباتهم المُرّة مع الرجل تفوق نسبة المتزوجات، والأطفال الذين يعيشون مع أمهات بلا رجال تبلغ نسبتهم الثلث.

المشكلة ليست بحصول المرأة على حق العمل وتحررها الاقتصادي، بل بتصوير هذا الحق على أنه واجب وشرط أساسي لتحررها ومساواتها بالرجل. الآن فقط بدأت بعض الحركات النسوية تنتبه الى هذه الحقيقة القاسية وتعترف بأن المرأة تبقى تتميز عن الرجل بأمور كثيرة وأهمها بأن المرأة هي التي تحمل وتنجب وترضع وتربي الأطفال، وفي الأمومة تكمن لذتها وقوة شخصيتها وشعورها بحريتها. لكن المشكلة تكمن بعدم اعتراف الدولة والمجتمع بأن الأمومة وتربية الأطفال هو أيضاً عمل «اقتصادي» يفوق انتاجية وفائدة للدولة والوطن جميع الأعمال الانتاجية الأخرى، لأنه ينتج أهم «سلعة» في الوجود، ألا وهي الانسان. بناءاً على هذا فانه على الدولة والمجتمع أن تعترف للمرأة بهذا العمل «الانتاجي» وتمنحها حقوقاً مثل حقوق العاملين: المرتب والاجازة والضمان الاجتماعي وجميع الحقوق الأخرى.

أما المشكلة الثانية المرتبطة بالأمومة والعمل فهي مشكلة تحول المرأة الى سلعة مهمتها الإثارة وجذب الرجل الى عوالم فنطازية تتجاوز بإباحيتها عوالم ألف ليلة وليلة. يبدو أن مهمة الإثارة هذه أتت لتكمل المهمة الأولى الهادفة الى تدمير الحياة العائلية: من ناحية سيسأم الرجل زوجته التي تهمل جمالها وأمور البيت بسبب انشغالها بالعمل خارج الدار، ومن ناحية ثانية فان هناك ما يدفع الرجل لكي يسأم من زوجته بأسرع وقت حتى لو كانت ملكة جمال الكون: خلال كل الوقت وفي جميع الأماكن يجب أن يظل الرجل معرضاً للإثارة والانشداد نحو نساء يفقن الحوريات بفتنتهن ليجعلنه لا يكف عن مقارنتهن بزوجته ولا يمكنه أبداً تجاهلهن لأنهن منشورات على بوسترات الحيطان وفي الصحف والتلفزيون والسينما والكتب.. أما في الشوارع والمحلات العامة فحدِّث ولا حرج. كم هي معروفة تلك الطرفة التي تتحدث عن الرجال الذين تنط عيونهم شبقاً لمرأى أفخاذ وأرداف نساء ساحرات في الطريق، لكنهم سرعان ما يصابون بالخيبة بعد اكتشافهم بأن تلك النساء هن زوجاتهم اللواتي لا يثرنهم في البيت، إلا أن الثياب الداعرة في الشارع قد أحالتهن الى بغايا واعدات.

إن شعوب الغرب (ونحن وراءهم طبعاً) تعاني من سيطرة تلك الأجهزة الشيطانية الجبارة التي تمتلك وسائل الأعلام والثقافة وتسخرها لخدمة غايات لا انسانية لجني الأرباح وتحويل البشر الى أسراب من الجراد المستهلك حتى للقاذورات المغلفة بورق الألمنيوم الملون. لقد نجحت وسائل الاثارة الجهنمية بتدمير أقصى حدود المعقول في الهيجان الشبقي، إذ بلغت

درجة الكبت لدى بعض الرجال أنهم راحوا يبتدعون طرقاً خارقة من أجل الحصول على المتعة الجسدية : اختطاف الأطفال واغتصابهم، بل هناك رواج للمجلات والأفلام التي تظهر ممارسة الجنس مع الأطفال الرضع!!

بدل المساواة والتوازن تحولت العلاقة بين المرأة والرجل الى لعبة قاسية ومأساوية كل طرف يحاول فيها أن ينتقم من الطرف الآخر بطريقته الخاصة : الرجل بواسطة الاحتقار والعنف والاغتصاب والابتزاز الجنسي، والمرأة بواسطة الاثارة والتمنع وتهييج العواطف.

العشيقة والعاملة والأم الحنون

هناك في أوربا عموماً زيادة عدد الانتحار، وخصوصاً بين الشباب بين سن (15-24) حيث يعتبر الانتحار السبب الثاني للوفاة بعد السبب الأول المتمثل بحوادث الطرق! أكثر خمس دول بعدد المنتحرين هي : هنغاريا والنمسا والدانمارك وفنلندا وسويسرا. لوحظ أن عدد محاولات الانتحار بين النساء، وخصوصاً من الشابات يفوق عدد الذكور عدة أضعاف قد تبلغ ثمانية مرات وأكثر. انه فرق هائل يدعو الى التساؤل. إن هذا الرقم يؤكد أن أسباب الانتحار ليست شاملة لكلي الجنسين. والواضح أن المرأة، وخصوصاً الشابة، رغم كل مظاهر الخلاعة والتبجح السينمائي، فهي تعاني أضعاف أضعاف ما يعانيه الشاب. مشكلة الفتاة في أوربا أنه مطلوب منها الوصول لثلاثة أهداف بآن واحد :

1 ـ أن تكون جميلة ومثيرة وحسب أكثر القياسات صرامة من ناحية الطول والوزن. إذا نقص كيلو من جسمها أو زاد فهذه كارثة. يجب عليها ليل نهار أن تراعي طولها ووزنها ومكياجها وقصة شعرها وتناسق أعضائها. هناك عشرات الصحف والمجلات في كل لغة متخصصة بجمال المرأة وريجيمها ورياضتها ومواد المكياج العجيبة الغريبة مع عارضات أزياء نحيفات مثل جياع العالم الثالث. في كل مجلة وجريدة تجد عدة اعلانات كل منها يدعي اكتشاف طريقة سحرية بتخفيف الوزن، وكلها تحتوي صوراً لنساء أشد حسناً من الملائكة. وطبعاً في جميع اعلانات الريجيم لن تجد أبداً صورة واحدة لرجل لأن جمال الجسد من واجبات المرأة وليس الرجل! هناك اعلانات عن أجهزة كهربائية متنوعة، بعضها خاص بتنحيف الأفخاذ، وأخرى لتنحيف الأرداف، وأخرى لتنحيف البطن والخصر، وأخرى للأثداء. أما المرأة التي لا تريد أن تتعب نفسها بتمارين وأجهزة معقدة، فهناك العمليات

الجراحية التي تبدل كل شكلها وتقطع كل الأجزاء الزائدة من جسمها وتضع لها بدل اللحم والدم مادة السلكوين : لتضخيم الشفاه والأثداء والارداف!

2 ـ بالاضافة الى واجب امتلاك الجمال والطول والنحافة والاثارة الدائمة، فانه بنفس الوقت على الشابة أن تكون أيضاً متفوقة بدراستها طامحة للنجاح والحصول على أفضل المعدلات لأن الجمال والجسد وحدهما غير كافيين بل يجب أن يضاف اليهما الشهادة الدراسية والعمل المرموق!

3 ـ يضاف الى كل هذا، أنه لا يكفي أن تكون الشابة جميلة ومثيرة ومرموقة بالدراسة بل يتوجب عليها منذ سن المراهقة أن تكون مؤهلة لكي تصبح حبيبة ساحرة وزوجة مستقبلية مخلصة وأم خصبة حنونة. والفتاة التي لا تجد أمير أحلامها الذي تمارس معه تمثيلية الحب الناري أمام الأصحاب وبشكل ظاهري فانها ستحس بنفسها معقدة وخايبة وتتعرض للسخرية والاستغراب لأنها غير قادرة على هذه المهمة لأسباب نفسية أو جمالية!

كم صعب ونادر جداً امتلاك القدرة على تحقيق هذه المهمات الثلاثة : جميلة ومهيجة مثل بريجيب باردو أو مادونا... ذكية وجدية مثل مدام كوري أو مسز تاتشر.. حبيبة وأم حنونة مثل مريم العذراء والأم تيريزا. وعندما تفشل الشابة بالتوفيق بين هذه المهمات الصعبة فانها إما أن تلجأ الى الانتحار أو الإدمان على المخدرات أو الدخول في سوق البغاء، أو أن الحظ يحالفها وتكون واقعية وتجد من يتفهمها ويساندها فتقرر تنفيذ واحدة من هذه المهمات الثلاثة، ولكن بعد معاناة وخيبات وجروح نفسية منتشرة في أنحاء الروح تظهر آثارها في الحياة الاجتماعية والعلاقة مع الرجل.



المقصود من كل هذا القول بأن حصول المرأة على حريتها ومساواتها مع الرجل ليس بالسهولة التي أوهمنا بها الماركسيون والليبراليون: يكفي أن تتحرر المرأة من عبودية البيت والتبعية الاقتصادية للرجل حتى تبلغ حريتها ومساواتها. لا إن واقع العلاقة بين الرجل والمرأة وخصوصياتهما البيولوجية والروحية والتاريخية أكثر تعقيداً بكثير مما يدعيه هؤلاء الحداثيون. في أكثر الأحزاب الشيوعية شيوعية وعلمانية لا تتجاوز نسبة النساء في القيادة في أحسن

الأحوال الـ (10٪) وفي أكثر البرلمانات الغربية تحرراً ومساواة لا تتجاوز نسبة النساء الـ (15٪)[*].

لا نقول هذا لكي نبرر بقاء المرأة على خضوعها للرجل وحجرها في البيت بحجة أنه ليس هناك حل. إن فشل الحداثة الغربية بخلق التوازن بين المرأة والرجل، لا يبرر أبداً الدفاع عن الطروحات الدينية التي تحول الرجل الى «حارس» مسكين يمضي ليله ونهاره بتحمل عذابات هوسه الجنوني على «عفة وطهارة» ذلك «السجين الخطر» المسمى «امرأة»! إن الاطلاع على محصلتي التجربة الغربية والتجربة الدينية المحافظة ورغم تغليف الحقيقة بالادعاءات الفضفاضة المتنوعة، فإن التجربتين تتفقان على «تقديس الفحولة»، فبينما العلماني يجهد بدفع «المرأة» لكي تنمسخ الى «فحل»، فان المتدين يجهد لكي «تستحيل» المرأة الى «ملاك» طاهر مهمتها الوحيدة أن تثبت للرجل بأنه ما زال «فحلاً» رغم كل «اخصاءات» الحياة وجبابرة الأرض.

ان فشل الحركات الانسانية والاصلاحية حتى الآن بخلق النظام القادر على خلق التوازن بين المرأة والرجل هو السبب الأول والأكبر بديمومة آلام البشرية وتفاقم خيباتها وصراعاتها وسيطرة الفحولة والعنف وشراهة الانتاج وتدمير الطبيعة واكتساح التقنيات الحديدية لأنوثة الأرض وتحويل البشر الى عقول شيطانية جامحة همها الأول والأخير هو الربح ثم الربح ثم الربح!

---

* يورد غارودي في كتابه «في سبيل ارتقاء المرأة» ص10، الأرقام التالية:

«في فرنسا أقل من 4٪ من النساء العاملات يتوصلن الى مراكز ضمن الملاكات العليا و 7٪ فقط من رؤساء المشاريع هم نساء (وأقل من ذلك بكثير في المشاريع الكبرى). وبالمقابل فأن النساء يمثلن 70٪ من موظفي المكاتب و 80٪ من مستخدمي المصالح و65٪ من العمال المأجورين. وبالأجمال فأن أجور النساء بمجموعها 30٪ أقل من أجور الذكور وظروف عمل سيئة ومهام تكرارية وتقييم اجتماعي يعادل الصفر».

ملحق

عن اشتراك المرأة في إدارة الدولة

نورد هذا المثال عن الجدل الدائر في الأردن حول تخصيص (حصة اجبارية ـ كوتا) في البرلمان الأردني للمرأة ـ لا نخفي بأننا مع نظام (الكوتا) هذا، لأن هنالك آلاف الموانع الاجتماعية والسياسية والنفسية التي تعاكس المرأة في حريتها السياسية والانتخابية، إذن من حقها الحصول على امتيازات قانونية وتشجيعية (كوتا) لتسهيل وصولها الى البرلمان وإدارات الدولة. ان المعارضين لهذا القانون بحجة أنه يهين المرأة ويعتبرها أقل قدرة من الرجل، أشبه بالذين يعارضون قوانين (محو الأمية والدراسة الالزامية) لأنها تهين المجتمع وتعتبره غير قادر على تعليم نفسه من دون الزام قانوني! ونشير الى أن مشكلة (الكوتا) مطروحة الآن للنقاش كذلك في المجتمعات الغربية، لأن مشكلة اشتراك المرأة في السياسة لا زالت قائمة.

كوتا نسائية في الإنتخابات
تثير جدلاً في الأردن

الجدل الحاد الذي تشهده الساحة الأردنية حالياً مع اقتراب موعد الانتخابات البرلمانية انعكس على كافة الأطراف السياسية وطبقات المجتمع الأردني .

والحديث عن تخصيص (كوتا) نسائية ضمن التعديلات المنتظرة على قانون الانتخابات يلقي بظلاله على كافة التجمعات في الأردن النسائية منها بشكل خاص كون المرأة الأردنية هي المعنية بالدرجة الأولى بهذا التعديل إذا حصل.

ولم تنجح محاولات المرأة الأردنية لاختراق البرلمان الا في الانتخابات التي جرت عام 1993 التي أوصلت النائبة توجان فيصل الى البرلمان.

ومن المعروف أن تلك الانتخابات لم تشهد سوى ترشيح ثلاث سيدات فقط لخوض الانتخابات كانت توجان إحداهن، وعزا المراقبون عزوف المرأة الأردنية عن خوض التجربة من جديد للخسارة القاسية التي منيت بها (16) سيدة خضن الانتخابات البرلمانية التي جرت في عام 1989 وهي أول انتخابات برلمانية تجري في الأردن بعد عودة الحياة الديمقراطية.

والآن وقبل سبعة أشهر على الموعد المحدد لإجراء الانتخابات المقررة في شهر تشرين الثاني (نوفمبر) المقبل انقسمت آراء وتوجهات المرأة الأردنية حول موضوع قانون الانتخاب وتخصيص كوتا للنساء ضمن التعديلات المقترحة، ورغم اتفاقهن على رفض قانون الصوت الواحد لتنافيه مع القواعد الديمقراطية، الا أن الخلاف في وجهات النظر حول تخصيص (كوتا) للنساء بدأت في الظهور بشكل علني وخاصة مع اعلان بعض السيدات عن رغبتهن في الترشيح للانتخابات المقبلة. وتقود النائبة توجان فيصل التيار الذي يرفض تخصيص (كوتا) للنساء في البرلمان وتطرح وجهات نظر ترى أنها منطقية في تعليل أسباب رفضها للكوتا. تقول توجان «أنا ضد الكوتا لأني أؤمن بالمساواة بين كافة أفراد الشعب الأردني، وتجربتي في الوصول للبرلمان أكبر دليل على أن قوة المرأة هي التي ستوصلها». ويؤيد الفيصل في هذا الاتجاه الطبيبة والصحافية هدى فاخوري التي سبق وان خاضت الانتخابات 1989 وخسرت، حيث تقول «نريد برلماناً قوياً ولا نريد للمرأة أن تصل من خلال كوتا لأن ذلك مظهر من مظاهر الضعف، لنترك المجال مفتوحاً أمام الجميع والشعب هو الذي يختار الأكفأ والأقدر سواء أكان رجلاً أو امرأة».

على الجانب الآخر يقف فريق المؤيدات للكوتا النسائية من منطلق انه لا بد من العمل بنصوص الاتفاقية الدولية الخاصة بالقضاء على كافة اشكال التمييز ضد المرأة والتي تدعو في أحد بنودها إلى تخصيص ما نسبته 30٪ للمرأة في المجالس البرلمانية. ويقود هذا الاتجاه قيادات الحركة النسائية في الأردن وحزبيات عريقات في الأحزاب اليسارية.

رئيسة اتحاد المرأة في الأردن والمحامية اللامعة أسمى خضر تقول «أنا مع الكوتا النسائية مرحلياً نظراً للفرق الشاسع بين الفرص التي أعطيت للرجل في مجتمعنا في كافة الميادين وبين الفرص التي منعت عن المرأة لأسباب اجتماعية كثيرة، واللحاق بالركب بالنسبة للمرأة في ظل تصورات مجتمعنا الحالية لا تزال صعبة لذلك لا بد من اجراءات استثنائية لمساعدة المرأة على تقليص الفارق بينها وبين الرجل في العديد من مناحي الحياة وخاصة السياسية منها، والكوتا النسائية اجراء لا بد منه في المرحلة الراهنة». الشاعرة والأديبة عائشة الخواجا الرازم كانت أول امرأة أردنية تعلن نيتها في ترشيح نفسها للانتخابات المقبلة بصرف النظر عن صدور قانون يحتوي على تعديلات تنص على الكوتا أو لا وتقول «رغم قراري بترشيح نفسي للانتخابات المقبلة فاني من أشد المؤيدين لفكرة الكوتا النسائية وهناك العديد من المناصرين لي في هذا الطرح».

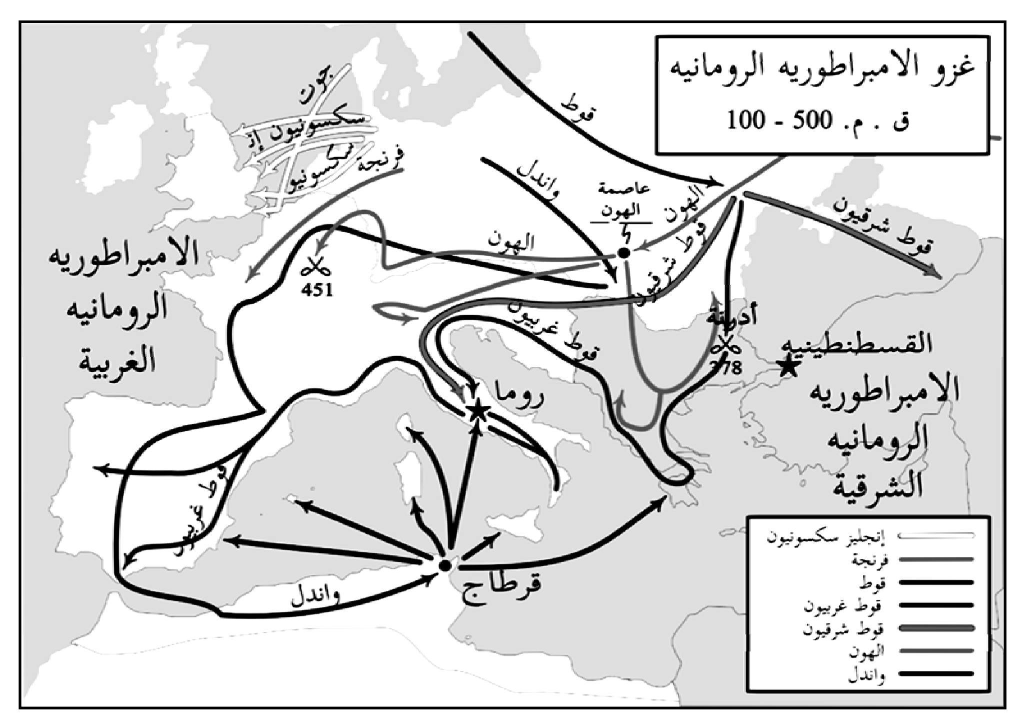
وتعترف الرازم أنه برغم تحفظها الشديد على النائبة توجان فيصل الا أن اداء الفيصل في البرلمان منحها الثقة كسيدة وزاد من وعي الشارع الأردني لأهمية وجود المرأة في البرلمان.

وتتوقع الرازم ان تعلن حوالي 50 سيدة اردنية ترشيح أنفسهن للانتخابات المقبلة من كافة أنحاء الأردن بما فيها مناطق الريف والبادية، وترى أن حصول المرأة على عشرة مقاعد في البرلمان المقبل انجاز عظيم للمرأة الأردنية.

اميلي نفاع احدى القيادات النسائية البارزة في الأردن ومن أقدم أعضاء الحزب الشيوعي الأردني أعلنت عزمها عن ترشيح نفسها للانتخابات المقبلة وتعمل من خلال تشكيل تحالف نسائي اردني للمطالبة بتعديل قانون الانتخابات وتخصيص ما نسبته 20٪ من مقاعد البرلمان للمرأة، وتؤكد ان الكوتا النسائية اصبحت ضرورية أكثر من أي وقت مضى لأن نظرة المجتمع لأداء المرأة لا زالت دون المستوى المطلوب لذلك ليس من السهولة ايصال المرأة للبرلمان وخاصة مع وجود قانون الصوت الواحد الذي قلل من فرص الأحزاب السياسية وليس فرص المرأة فقط. وتعتقد نفاع انه لا بد من ايصال عدد كاف من النساء الى البرلمان لتشكيل قوة ضاغطة تتمكن من وضع التشريعات التي تساند المرأة وتعطيها قدراً أكبر من الحقوق.

من جريدة القدس اللندنية 2 / 5 / 1997

نموذج للفهم «العرقي القومي» للتاريخ، والنظرة التغريبية للمجتمع



قبائل الرعاة(البدو) الجرمانية تغزو الدولة الرومانية وتدمر أوربا

مصيبة البداوة العربية، والفهم العرقي القومي للمجتمع(*)

طالعنا الكاتب (...) بدراسة على حلقتين في هذه الصحيفة (11 و 12 تشرين الثاني 1996)، بعنوان «نقد الحس النقدي عند العرب».

نشيد أولاً بالنيات الصادقة التي أبداها الكاتب خلال دراسته هذه وخشيته الطيبة من اعتبار أفكاره «هجوماً غير عادل على العقل العربي». كذلك التواضع الذي عبر عنه صراحة بقوله : «لا أدّعي أن ما سأقوله صحيح بالكامل، بل إن هذه مجرد أفكار يغلب عليها الرجحان في الوقت الحاضر. هي قابلة للتعديل والتحوير، كما أنها قابلة للمناقشة والتفنيد».

يمكننا اختصار فحوى هذه الدراسة بنقطتين أساسيتين :

* ان هذا الموضوع قد سبق نشره كرد على موضوع سابق في «جريدة القدس اللندنية» .

أولاً : ماهية المشكلة، وقد لخصها الكاتب بعنوان الدراسة نفسها: غياب أو ضعف الحس النقدي عند العرب. من مظاهر هذه المشكلة حسب المقال ان العرب يعانون من : «التمسك بالرأي بصرف النظر عن قيمته وجدواه دون محاولة تفهم الآراء الأخرى... وتغلب الوثوق بالرأي والحسم فيه أكثر من الشك واحتمال البدائل... والميل الى الخضوع الى النزاعات العاطفية أكثر من الميل الى المحاكمة العقلية... تمجيد السلف والتراث... القصور الهائل عن متابعة وإدراك ما يجري في عالم اليوم... فشل تطبيق الأسلوب الديمقراطي في الحكم...».

ثانياً : أسباب المشكلة، وقد طرح الكاتب فرضيته المحورية عن أسباب هذه المشكلة واختصرها بسبب واحد أساسي، وهو : «البداوة». طيلة الحلقتين تم الحديث عن هذه العلة المحورية كالتالي : «الجذور البدوية التي تتميز بها غالبية الشعب العربي التي تفرض عليها تقاليد وعادات وقيماً أخلاقية معينة من الاعتداد بالنفس والفخر وحب الغلبة... العصبية القبلية والغزو باعتبارهما من القيم الاجتماعية المستحبة لدى الأعرابي والعربي بوجه عام... عدم نجاح العربي في التحرر من قيم بداوته حتى بعد انتقاله الى مرحلة حضارية متقدمة... اننا لا نزال بدائيين في أفكارنا أو متأثرين بقيم البداوة أكثر من تأثرنا بقيم الحضارة... ان العربي بوجه عام لا يزال متمسكاً أو متأثراً بقيم وتقاليد بدائية تعود أصولها الى المجتمع البدوي المتخلف...».

الحقيقة أن تعقيبنا هذا لم تكن غايته الرد مباشرة على كاتبنا، بل لأننا وجدنا دراسته تمثل نموذجاً «للرؤية العرقية القومية» السائدة والمغطاة بصبغة «حداثية علمانية تقدمية». بمعنى واضح نقول ان هذا المنهج ليس فقط (عرقياً قومياً)، بل انه يتبنى أيضاً طروحات (الاستعلاء الغربي) على (الشعوب المتخلفة عرقياً، والشعوب المتطورة عرقياً)[1].

إن الأفكار التي رددها الكاتب عن (بداوتنا وتخلفنا) طالما تعودنا سماعها منذ أجيال وأجيال. والطريف أن أكثر من يردد هذه الاتهامات القاسية هم أنفسهم دعاة القومية الأصيلة والمؤمنين بأن عروبتنا تكمن في انحدارنا الحتمي من قبائل البادية وصولاً الى الجد الأسطوري الأكبر «يعرب وشريكيه الشهيرين قحطان وعدنان»! إن هذا يذكر بحكاية ذلك الأعرابي الذي كان يصنع ربّه من العجين ويشرع بتقديسه وتبجيله والصلاة له، ولكن حين يشح الغذاء ويشتد الجوع ينهال هذا الأعرابي على ربه المسكين ويلتهمه بدون رحمة. هكذا يفعل «عروبيونا» حينما صنعوا لنا أصولاً عربية بدوية مقدسة بدماء نقية صافية تلغي جميع

الأجناس التي استقرت في أوطاننا طيلة عشرات الآلاف من السنين ؛ لكن هؤلاء القوميين ما إن يحاصرهم الجوع الحضاري التقدمي لا يجدون غير ربهم البدوي (القحطاني العدناني) هذا لينهالوا عليه لعنة وتدميرا.

معنى تخلفنا وضعف حسّنا النقدي

ان مشكلة (ضعف الحس النقدي) لدى العرب التي تحدث عنها الكاتب هي ذاتها تصلح أن تكون فرضية تحتاج للبحث والاثبات وليس مشكلة متفق عليها كما حاول أن يصورها. يمكن الاتفاق على وجود الكثير من العيوب التي تسود المجتمعات العربية، لكن الذي يستحق التساؤل، هل أن هذه المشكلة «عربية بدوية خالصة» أم مشكلة انسانية عامة توجد لدى جميع شعوب الأرض مع الاختلاف بحدتها وبمظاهرها ووسائل التعبير عنها؟

بالامكان الاتفاق مع الكاتب في حديثه عن عيوب المجتمعات العربية لو أنه تحدث من دون الاستناد والمقارنة إلى تلك «المُثل الحضارية العليا» التي فرضتها علينا الحداثة الغربية. إن الكاتب لم يتحدث عن العرب بمنطق نقدي داخلي، بل استند مباشرة وبصورة غير مباشرة على المقارنة مع (الشعوب المتطورة التي تبنت العلم ونبذت الخرافة)، وان مشكلة العرب كما يقول بأنهم : «يتمسكون بالمعتقدات والخرافات التي كانت شائعة لدى الشعوب البدائية... ويعزون الكوارث الطبيعية أحياناً الى أسباب غيبية... ولأنهم وقعوا في الشرك الأبدي للعاجزين : اللاهوت...». ثم يقارن العرب بـ «الشعوب البدائية!» حين يقول : «ان ظاهرة الإيمان بالخرافات هذه وممارسة الطقوس والتعاويذ والعادات ـ يضع الكاتب هنا بين قوسين كلمتين بالانكليزية دون أي داع ـ التي تنتقل من جيل الى جيل لدى الشعوب البدائية...».

إننا أبداً لسنا من المدافعين عن المعتقدات الغيبية والخرافات والتعصب الديني، ولكننا تعلمنا من تجارب الزمن أن نطرح التساؤل التالي : هل مشاكل البشرية وكوارثها خلال هذا القرن وحده أتت من المؤمنين باللاهوت وعلم الغيب وأهل البادية، أم على العكس؟ أليس قيام أكبر حربين عالميتين قامت بهما تلك الدول التي تحمل آخر ما ابتدعه العلم والعلمانية من ماركسية وقومية اشتراكية وليبرالية؟ ثم نسأل هل هناك مجتمع أو انسان يمكن أن يتمسك بالحياة من دون خرافة وحلم. حتى لو كانت باسم الحرية الليبرالية أو الجنة الشيوعية؟ ثم كاتبنا نفسه أليس هو من المؤمنين بخرافة (أصلنا العربي البدوي والحداثة التقدمية)؟ لينظر الكاتب

حوله حيث يعيش في نيويورك وليستقصي درجة الايمان بالغيب حتى في الوسط الأكاديمي الأمريكي والغربي... لينظر الى الكنائس حوله وليطالع الصحف والاعلانات اليومية عن قراءة الكف والشفاء بالسحر والانتماء للطوائف والأديان العجيبة الغريبة! كل هذا يغيب عن دعاة الحداثة والتقدمية، بل يصل الأمر بهم لحد الاعتقاد بأنه حتى خرافات الغرب ومعتقداته الغيبية واللاهوتية هي تقدمية علمانية حداثية!

منذ أوائل هذا القرن سقطنا في تلك «الثنائية التفاضلية التبسيطية» التي ترى جميع الاختلافات في الكون والمجتمع إما أسود أو أبيض، إما خير مطلق أو شر مطلق: تقدم أو تخلف، علم أو خرافة، حضارة أو بداوة، علمانية أو تدين، مادية أو مثالية، قومية أو قطرية، اشتراكية أو رأسمالية، وهكذا دواليك. إنها «ثنائية انفصامية» صنعها الغرب وسببت لنا الكثير من الانقسامات والعقد النفسية والكوارث الاجتماعية. إننا لا ندعي أبداً بعدم وجود «الخير والشر» في الحياة، بل نعم هناك السلام والحرب، الصحة والمرض، الراحة والتعب، الطيبة والقسوة، الحرية والقمع، الأمان والقلق، الغنى والفقر، الخصب والجفاف، البناء والدمار، ... الخ. إنها ثنائيات تناقضية واقعية ومعاشة ولكن من الخطأ تعميمها تلقائياً على (المجتمعات وتواريخها وقيمها الأخلاقية وأساليبها السياسية) كما أوهمنا بذلك الغرب منذ القرن الماضي. الغرب نفسه بدأت فيه قطاعات مهمة من المثقفين تدرك مدى سذاجة العقل الغربي في فرضه هذه الثنائية التفاضلية وتعميمها التبسيطي على طبيعة مجتمع أو جماعة ما. إنّ أهم سبب (وليس السبب الوحيد) لتعصبنا وتخلفنا ليس بداوتنا وحدها (إن وجدت حقاً)، بل مصيبتنا تكمن بسقوطنا في مطب «الثنائية الغربية» واستمرار فقداننا لثقتنا بشخصيتنا كأفراد وشعوب أمام جحافل الهيمنة الغربية المادية والروحية. باسم التحديث والتقدم (حسب الذوق الغربي)، وللخلاص من ظلامية الحقبة العثمانية أقحمنا أنفسنا في حومة صراعات فكرية وفنية أدبية مغلفة ببرامج سياسية ذات مصطلحات رنانة لا توجد إلا في عقولنا وليس لها أي وجود في واقعنا ومجتمعاتنا.

صحيح أنه من واجبنا الاعتراف بعيوبنا وتفهم أسبابها، ولكن أيضاً من الخطأ المبالغة بعيوبنا و«جلد الذات» من خلال الاعتقاد بأن الشعوب الأخرى أفضل منا. طبعاً آننا ضد الطرح الديني والقومي المتعصب الذي كلما سمعك تتحدث عن عيوبنا رد عليك بالحديث عن عيوب الغرب (وانحطاطه وتفسخ أخلاقه). اننا مع الحل الأمثل وهو «الحل الوسط»: الحديث عن عيوبنا والبحث فيها ونقدها وإدانتها من دون الإصابة بـ «عقدة الخواجة» التي تعتبر الحضارة والأخلاق والتقدم والتطور لدى الغرب وكل العيوب والتخلف لدينا. يعني

لـدينا مـشاكلنا ونواقـصنا ولـديهم نواقـصهم ومـشاكلهم: إذا كانـت لـدينا المـرأة، محجـورة ومقموعة ويبرر أحياناً حتى قتلها باسم العفة والشرف، فلديهم المرأة تائهة في وسط غابـة مـن وسائل الاثارة والتعري والابتزاز الجنسي ومخاطر الاغتصاب والتشتت بـين حاجات الأمومـة وواجبات العمل والانتاج التي قد تؤدي الى الجنون والإدمان والانتحار. إذا كان المـواطن لـدينا مسكيناً خانعاً لمؤسسات العائلة والمدرسة ثم الجيش والادارة والدولة الـتي قـد تـسجنه وتقمعـه وحتى تحكم عليه بالموت لمجرد أنه يحمل أفكاراً تختلف عن أفكارها؛ لكنك في الغرب لا تمـوت في السجن، بل تموت مـن التلـوث وصـخب مـدن الحديـد العملاقـة وتهديـد البطالـة وحـوادث الطرق وأمراض الـسرطان والتـنفس والجـنس الـتي تحـصد الأرواح كـل عـام اكثـر مـن سـجون العالم الثالث وحروبه!

أمام هذه الحقائق التي تدعمها الاحصائيات والأرقـام والـتي لا تغيـب عـن علـم الكاتـب، خصوصاً وهو يعيش في (نيويـورك) الـتي تعتـبر واحـدة مـن أكثـر مـدن العـالم الغربـي بمـستوى الجريمة والانحلال الاجتماعي والتمايز الطبقـي والعنـصري. كيـف يمكننـا الحـديث عـن ضـعف «الحس النقدي» عند الشعب الفلاني مقارنة بالشعب الفلاني؟ أي «حـس نقـدي» تمتلكـه هـذه الحضارة الغربية التي حولت الانسان الى جزء ثانوي من آلة الانتاج الجبـارة، ودمـرت الطبيعـة بنباتاتهـا وحيواناتهـا وأراضـيها وبحارهـا وجعلـت مـن التـسلح وإشـعال الحـروب شـرطاً مهمـاً لبقائها، وحولت العالم الثالث الى مزبلـة لأسـلحتها الفاسـدة ومكائنهـا العتيقـة وسـاحة لنهـب الخيرات وتفريغ المنافسات بتشجيع الحروب والدكتاتوريات. وفوق كل هذا يبقى العالم الثالث بالنسبة للغرب مجالاً حيوياً للحديث عن الهمجية والتخلف والبداوة مقارنة (بنا نحن الغـربيين) أصحاب الحضارة والتقدم والحداثة والديمقراطية والانسانية، ووو!!

إننـا بحاجـة ملحـة لإعـادة النظـر في جميـع المـصطلحات والتعريفـات والمفـاهيم الأخلاقيـة والـسياسية والفكريـة والثقافيـة الـتي تعلمناهـا مـن الغـرب في العـصر الحـديث، ثـم قدسـناها وأصبحت من البديهيات التي لا تقتضي حتى التساؤل والتفكير!

الرؤية العرقية والبداوة الأزلية

النقطة المهمة التي تمحورت عليها جميع أفكار الكاتـب، هـي مـسألة تـأثير (البـداوة) علـى المجتمعات العربية. الحقيقـة أن هـذه النقطـة مكـررة ومكـررة الى حـد القـرف ولـيس هنـاك شـيء جديد في التطرق اليها. منذ طفولتنا ونحن نسمع الكبـار يتحـدثون عـن بُعبُـع البـداوة هـذا. أينمـا

ذهبنا في أي بقعة من الأرض تواجهنا تهمة البداوة هذه. أي كتاب نفتح مهما كانت لغته عن تاريخ العرب والحضارة العربية فإنه يبدأ بالحديث عن الصحاري والبعران والأصل البدوي للشعوب العربية والحضارة الاسلامية. الحقيقة أن فكرة «الأصل البدوي» فكرة مضخمة ومنفوخة أضعاف حجمها الحقيقي. يكفي التخلي عن «الفهم العرقي القومي» لتاريخ الشعوب العربية وحضاراتها والتحلي بحد معقول من الرؤية الواقعية الانسانية لاكتشفنا ان «البداوة» لا تشكل في حضورها وفي تأثيرها خلال جميع مراحل التاريخ أكثر من 20٪ أو 30٪ من المجتمعات العربية. الكاتب نفسه يستشهد بمثال يتناقض مع فرضيته تماماً. يقول ان نسبة البدو قبل قرنين في مصر كانت تشكل سدس السكان، يعني بدوي واحد مقابل خمسة من المزارعين والمدنيين. طيب لنفترض في أسوأ الأحوال وفي ظل انهيار الدولة والكوارث فإن نسبة البدو تزداد الى أقصى الحدود فتصل الى الثلث، أي بدو 30٪ و 70٪ غير بدو! هل من المعقول بهذه الحال أن نختصر عقلية وروحية مجتمع بأكمله حسب عقلية ثلث سكانه المهشمين ثقافياً وسياسياً واقتصادياً!

لا أحد يعلم كيف يتسنى للميول القومية العرقية امتلاك هذه القدرة العجيبة على التعامي عن الحقائق التي لا تحتاج رؤيتها حتى الى دراسة وبحث، بل يكفي رؤية الواقع من دون آيدلوجيات طنانة تبهر البصر والبصيرة: هل أهل العراق منذ أن وجد النهران وبعدهما الانسان هم بدو أم مزارعون ومدينيون منتشرون على ضفاف النهرين.. هل حضارات سومر وأكد وبابل وآشور وبغداد هي حضارات بدوية أم زراعية حضرية؟ نفس الحالة بالنسبة لمصر والشام وشمال افريقيا. أليس نحن من صنع اولى الحضارات الزراعية وشيد أول المدن وكون أول الدول واخترع الكتابة والعلوم والفنون والآداب وأحتضن الأديان السماوية الثلاث؟ طيب أين هي البداوة الأولية التي ابتلينا بها واصبحنا بسببها بلا (حس نقدي)؟ ثم لماذا بالضرورة أن تكون عيوبنا ودكتاتوريتنا وتعصبنا نتيجة أصولنا البدوية؟ ألا يمكن أن نحمل جميع هذه العيوب وأكثر منها من دون أن تكون لنا أصول بدوية.. هل من الضروري أن يكون سكان المدن والأرياف بطبيعة «ديموقراطية!!» ومتفتحة وانسانية وتقدمية جدا جداً؟!

المشكلة تظل تكمن في الاعتقاد الخاطيء الذي فرضته علينا هذه الرؤية العرقية القائلة بأننا جميعنا نحن «العرب» أو قل نحن «الناطقين بالعربية» تلقائياً منحدرين مباشرة، دماً ولحماً وروحاً من تلك القبائل البدوية التي تشكلت منها الجيوش الاسلامية الفاتحة. ولكن أية مراجعة للوضع

التاريخي أثناء الفتح تكشف لنا الحقيقة الساطعة التالية : في فترة ظهور الاسلام كان سكان الجزيرة العربية كلها بين مليونين وثلاثة ملايين نسمة. بينما سكان العراق وحده بين ستة الى سبعة ملايين نسمة[2]، أغلبيتهم الساحقة من الزراع وسكان المدن الناطقين بالآرامية (السريانية) المنتشرين في الحواضر التي تعمر ضفاف دجلة والفرات من نينوى حتى الخليج. وكان معظم سكان العراق قبل الفتح مسيحيين نساطرة مع أقليات من اليهود والصابئة والمانوية. أما البدو فقد ظلوا طيلة تاريخ النهرين على أطراف ضفاف الفرات الغربية. ظلوا أقلية مهمشة وتابعة ثقافياً ودينياً للحواضر العراقية، والدليل على هذا أن القبائل البدوية العربية التي قطنت العراق وسوريا قبل الاسلام اعتنقت المسيحية واللغة السريانية في الحيرة وبُصرى[3].

لقد ظل البدو منذ عهد السومريين والأكديين حتى العباسيين والعثمانيين لا يزدادون عدداً وأهمية إلا عند ضعف الدولة العراقية. يبرز دورهم الاجتماعي والعسكري من خلال الغزو والاستيطان والتحالف مع الأمراء والملوك. نفس الحالة يمكن ملاحظتها في تاريخ سوريا وعموم الشام. أما مصر فقد عاشت نفس الحالة ولكن بدرجة أقل بسبب طبيعة نهر النيل المحاط بصحارى واسعة ونائية بعيدة عن مناطق ترحال البدو في سيناء من الشرق والصحراء الليبية من الغرب[4].

يتوجب التأكيد أن البادية (وخصوصاً بادية الشام) بالنسبة لسوريا والعراق ظلت دائماً تغذي المشرق (الهلال الخصيب) بالقبائل البدوية[5]، ولكن البادية لم تكن المصدر الوحيد لتكوين المجتمعات العربية الحالية. إن المصدر الأول والأهم لتجديد السكان هم سكان هذه البلدان أنفسهم من زراع ومدينيين. جميع البحوث التاريخية والآثارية تتفق على أن البلدان العربية الحالية من العراق حتى المغرب ظلت مسكونة بالبشر منذ عشرات الآلاف من السنين، بل إن البحوث الأخيرة أثبتت أن (الانسان الذكي ـ كرومانيون) قد انبثق من الشرق الأوسط وشمال افريقيا[6]. في هذه المنطقة نشأت أول المستوطنات الزراعية وأول المدن وأول الدول والحضارات، إذن أليس من المعقول أن هؤلاء الناس المستوطنين منذ القدم هم الذين يكونون المصدر الأول والأساسي لتجديد المجتمعات وديمومتها؟ رغم تغيير اللغات والأديان والدول إلا أن الديمومة السكانية الوطنية تبقى هي الأصل والدليل على هذا اتفاق الباحثين التاريخيين على التشابه البدني «العرقي» بين العراقيين الحاليين وهياكل العراقيين القدماء الموجودة في التماثيل والرسوم والمقابر[7]، نفس الحال لوحظ بالنسبة للمصريين الحاليين وتشابههم مع المصريين القدماء.

رعاة الهضاب الآسيوية

طبعاً لا ننكر أبداً دور الصحراء بتصدير البدو الى البلدان العربية الحالية ، ولكن ثمة مصادر سكانية أخرى غير الصحراء لا تقل أهمية عنها. هل نسينا أن العالم العربي لا تحده الصحارى فقط ، هناك حدود أخرى هي القارات الثلاثة التي تحيطه : افريقيا وآسيا وأوربا. مصر مثلاً ظلت طيلة تاريخها تستقبل مصادرها السكانية كالتالي : أولاً سكانها الأصليين الذين قطنوها منذ التاريخ السحيق ، ثم من الشرق حيث الجماعات البدوية والحضرية التي ظلت دائماً وحتى الآن تأتي من الشام وشمال الجزيرة العربية عبر سيناء ، ثم من الغرب حيث قبائل ليبيا وشمال افريقيا ، أما من الجنوب فكانت تأتي قبائل النوبة (السودان حالياً) ، أما من الشمال فكانت الجماعات الأوروبية (الرومانية واليونانية) التي ظلت تأتي مصر عبر البحر المتوسط ، يضاف الى كل هؤلاء الجماعات الآسيوية التركستانية والقفقاسية والايرانية والعراقية التي ظلت تستقر في مصر عبر الاحتلال أو الهجرة.

بالنسبة لحالة العراق ، فإن مصدره السكاني الأول هو سكانه الأصليون أنفسهم الذين صنعوا الحضارة السومرية الأكدية الموجودون في العراق منذ التاريخ السحيق. أما مصدره الثاني فهي الجماعات الشامية (السامية) البدوية والحضرية التي ظلت تغذي العراق سكانياً منحدرة من أعالي الفرات أو عبر بادية الشام. يضاف الى ذلك مصدر مهم لسكان العراق طالما تجنب ذكره القوميون خشية تشويه أسطورة نقاء الدم العربي لشعب العراق ، فالحدود الشرقية والشمالية ظلت منذ الأزل تغذي النهرين بالقبائل والجماعات الرعوية الآسيوية (آريون وتركستان وقفقاس وأرمن) الذين ظلوا يذوبون في الغالبية العراقية ويتبنون حضارتها ولغتها ودينها. مثلاً حتى أواسط هذا القرن ظلت القبائل الرعوية الكردية تهبط من جبال زاغاروس وتأتي لتستقر في سهول أربيل وكركوك والموصل. بفضل الدعم العثماني تمكنت هذه القبائل من فرض الاسلام واللغة الكردية على المناطق المسكونة أصلاً بالجماعات السريانية المسيحية[8]. يعني أن العراقي الحالي من الشمال حتى الجنوب بدمه وبدنه وتكوينه العرقي والروحي لم يحمل فقط مواريث البدو العرب كما يُشاع بل هو يحمل قبل كل شيء مواريث أسلافه الأوائل (السومريين والأكديين) ثم مواريث الجماعات الآسيوية (الآرية التركستانية الكردية القفقاسية الأرمنية) بالاضافة الى

المواريث البدوية العربية، وهذا التنوع في الأصول نلاحظه على العائلة العراقية الواحدة وعلى وجوه الأشقاء مختلفي الأشكال والألوان!!

إن الأصل البدوي العربي الضخم والمبالغ به يستند الى الفهم العرقي القومي الذي فرضه علينا المؤرخون الغربيون: أوهمونا بأن قوة عروبتنا تكمن في مدى إيماننا بأصلنا البدوي العربي القح، وبالتالي نجحوا بفصلنا (عرقياً) عن تواريخنا السابقة للفتح الاسلامي بالاضافة الى فصل الناطقين بالعربية عن اشقائهم في الوطن من غير الناطقين بالعربية. أراد الغربيون بذلك التخلص من تلك «العقدة المزعجة» المتأتية من شعورهم بأن دينهم المسيحي قد صنعه أجداد هؤلاء «العرب المسلمين»، ولأننا أيضاً الورثة (العرقيين) للحضارات الانسانية الكبرى في مصر والعراق والشام وشمال افريقيا. يبدو أن مصلحة الغرب هذه التقت أيضاً مع مصلحة الصهيونية لتبرير ادعاءاتها بأجنبية الشعب الفلسطيني عن أرضه وعن ميراثه الكنعاني اليهودي الآرامي المسيحي، ما دام الفلسطينيون منحدرون (عرقياً) من نسل القبائل العربية البدوية التي وصلت فلسطين بعد طرد اليهود!!



إن دراسة طبيعة المجتمعات العربية ومشاكلها وكذلك دراسة أي مجتمع آخر يجب أن تتجنب الوقوع في شرك التبسيطية والنظرة الأحادية والاستناد الى منهج واحد محدد. إن الوجود الاجتماعي أشبه بالوجود الكوني، من الصعب جداً الحكم عليه من خلال رؤية واحدة ومنهج محدد. هناك مناهج للبحث والتحليل عديدة، منها المنهج الاقتصادي الماركسي الذي يؤكد على العامل الطبقي، وهناك المنهج الديني المثالي الذي يؤكد على العوامل الايمانية والإلهية، وهناك المنهج العرقي الذي يؤكد على ديمومة الخصائص القومية مهما اختلف الزمان والمكان، وهناك المنهج الجغرافي الذي يؤكد على العوامل الجغرافية والطبيعية في التأثير على المجتمع. ثمة مناهج أخرى عديدة معروفة وغير معروفة، منها مثلاً المنهج (البابلي) الذي يؤكد على دور الكواكب وتأثير النجوم في تصرف الأفراد والشعوب، وهذا المنهج يزداد أتباعه يوماً بعد يوم عبر الاهتمام بعلم التنجيم.

نقول أن كل واحد من هذه المناهج يحمل جزءاً من الحقيقة الكلية التي لم ولن يستوعبها منهج واحد أو معتقد حتى الآن. إن هذه المناهج والنظريات أشبه بالثقوب في الجدار المطل على الحقيقة الكونية. من يبتغي معرفة أكبر قدر ممكن من الحقيقة عليه النظر خلال أكبر عدد من الثقوب (المناهج أو الرؤى أو النظريات) المنتشرة في الجدار.

هذا هو المنهج الذي ندعوه بـ «المنهج الوسطي» الجامع بتنوع وديناميكية بين مختلف المناهج الانسانية السابقة واللاحقة. إن هذا «المنهج الوسطي» يساعدنا على تجنب السقوط في شرك التعصب (الغربي والبدوي!)، ويجعل رؤانا تتقبل الاستفادة من جميع التجارب الخاصة والعامة. المنهج الوسطي المنفتح والمتنوع سيخلصنا من (عقدة الخواجة) ويساعدنا على تجنب هذه التبعية التلميذية للرؤية الغربية (وثنائياتها الانفصامية) التي تغلق العقل وتقتل الثقة بالنفس وتلغي الاحساس بتمايز الذات لدى الأفراد والشعوب.

« سليم مطر ـ جريدة القدس 10 – 12 – 1996 — لندن »

المصادر

1ـ من أشهر ممثلي هذه النظرية العرقية، العلامة الفرنسي (رينان) عن (تخلف العرق السامي). لقد تحدث عنه ـ ادوارد سعيد ـ الاستشراق ـ ص 163.

2ـ حول الاحصائيات السكانية التاريخية، راجع :

ـ فيليب فارج ـ المسيحيون واليهود في التاريخ الاسلامي ـ الفصل الأول ـ دار ابن سينا ـ القاهرة ـ 1994.

ـ شارل عيساوي ـ تأملات في التاريخ العربي ـ الفصل الثاني ـ مركز دراسات الوحدة ـ بيروت ـ 1991.

3ـ عن السريان في العراق والشام قبل الاسلام وبعده، راجع :

ـ الأب البيرو أبونا ـ تاريخ الكنيسة السريانية ـ 3 أجزاء ـ دار المشرق ـ بيروت ـ 1986.

ـ نينا بيغوليفسكايا ـ ثقافة السريان في القرون الوسطى ـ دار الحصاد ـ دمشق ـ 1990.

ـ الأب جورج قنواتي ـ المسيحية والحضارة العربية ـ المؤسسة العربية ـ بيروت .

4ـ عن طبيعة الهجرات البدوية وتنقلات الشعوب في العراق وسوريا ومصر، راجع :

GEORGES ROUX - LA MESOPOTAMIE-SEUIL - PARIS - 1985

(انه كتاب بالفرنسية ومترجم عن الانكليزية، باعتقادنا أنه أفضل مصدر عن تاريخ العراق القديم وتفاصيل مكوناته الحضارية والسكانية).

ـ فيليب حتي ـ خمسة آلاف عام من تاريخ الشرق الأدنى ـ مجلدان ـ الدار المتحدة ـ بيروت ـ 1983.

ـ برهان الدين دلو ـ حضارة مصر والعراق ـ الفارابي ـ بيروت ـ 1989.

ـ فيليب حتي ـ تاريخ سوريا ـ مجلدان ـ دار الثقافة ـ بيروت ـ 1958.

5ـ عن دور البدو في العراق زمن العثمانيين، راجع :

ـ علي الوردي ـ لمحات اجتماعية ـ ثمانية اجزاء ـ دار كوفان ـ لندن ـ 1992 (لاحظ مثلاً، الجزء الخامس ـ القسم الثاني ـ الفصل الثامن).

6ـ عن آخر النظريات عن أصل الانسان، راجع :

TOUS PARENTS. P. 53 – Museumd' histoire Naturelle-Geneve-Paris- 1995.

7ـ عن التكوين البدني (العرقي) لسكان العراق، راجع (الموسوعة الاسلامية) باللغة الفرنسية أو الانكليزية ـ قسم العراق ـ السكان.

8ـ عن تاريخ التوسع الكردي، راجع الموسوعة الاسلامية ـ قسم الأكراد.

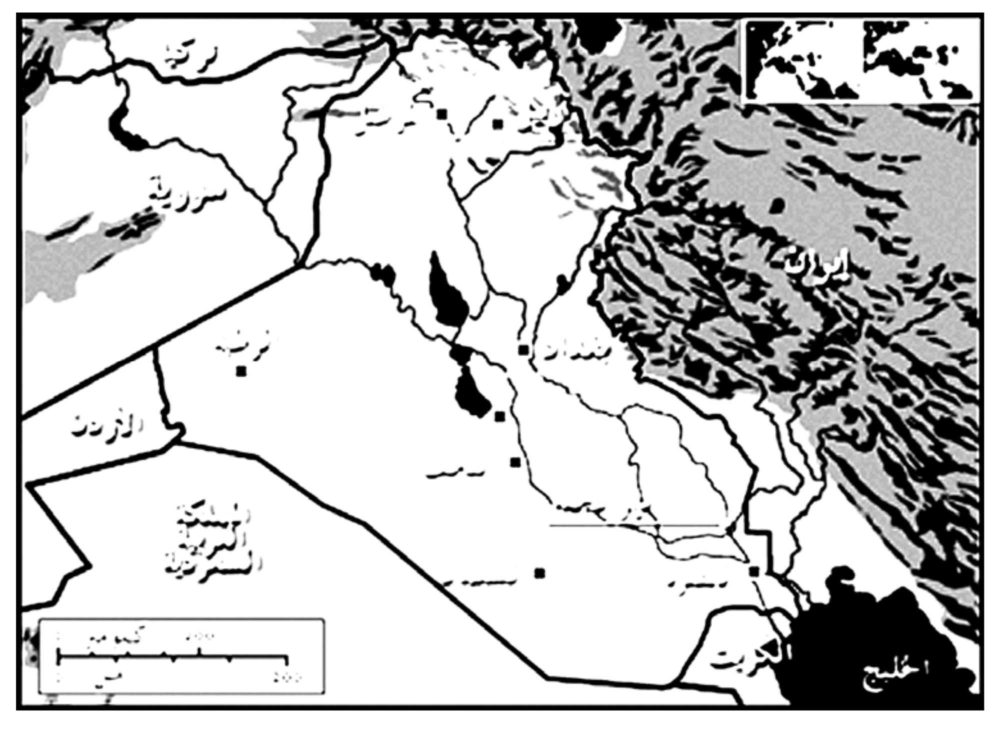
الفصل الثاني

تجديد الهوية التاريخية العراقية

- ❖ العقدة الايرانية والهوية العراقية الممزقة بين العروبة والتفريس
- ❖ التفريس باسم العروبة
- ❖ تأثير العقدة الايرانية في الحاضر العراقي
- ❖ ملاحق معلوماتية عن تاريخ العلاقات بين العراق وايران

العقدة الإيرانية والهوية العراقية الممزقة

بين العروبة والتفريس



(حدود العراق)

طالما ردد الناس في بلداننا بأننا نحن «العرب» متشبثون أكثر من اللازم بماضينا وتاريخنا. لكن الحقيقة عكس ذلك تماماً لأننا عندما نقارن حالنا مع الغربيين سنكتشف أننا أقل الشعوب تشبثاً بتاريخنا، لأننا الأقل معرفة ودراية بهذا التاريخ. نحن من بين الشعوب التي وافقت عن حسن نية أن تتآمر مع الآخرين ضد تاريخها لتقطيعه وتشويهه ومنح الجزء الأعظم منه لشعوب أخرى من فرس ورومان والمتبقي في مجاهل النسيان. بل يمكن التأكيد ـ وسندلل على كلامنا هذا لاحقاً ـ بأن السبب الأول والأكبر لضعفنا وتمزقنا وتوتر حاضرنا والتناقض المتطرف بين تياراتنا يكمن في ضعف هويتنا التاريخية وتمزقها وتقطيع أوصالها من قبل مؤرخينا المعاصرين. إن الشعوب مثل الأفراد من لا يتعرف ويعترف ويتصالح مع ماضيه فإنه سيعيش متغرباً منفصماً عن حاضره.

إن الذي دفعنا للبحث في هذا الموضوع، إطلاعنا على الأجزاء الثلاثة من كتاب الباحث الإيراني «الشهيد آية الله مرتضى المطهري» والمعنون (الإسلام وإيران)[1]. يبدو أن هذا الكتاب يعكس وجهة نظر ايران الرسمية والدينية والشعبية بخصوص دور الإيرانيين في الحضارة الاسلامية، وبالذات دور العناصر «الفارسية» في صنع الحضارة العربية الاسلامية في العراق. الترجمة العربية للكتاب صدرت من طهران في أواخر الثمانينات وقامت بتوزيعه السفارات الايرانية في الخارج على الجماعات العربية المقربة إليها.

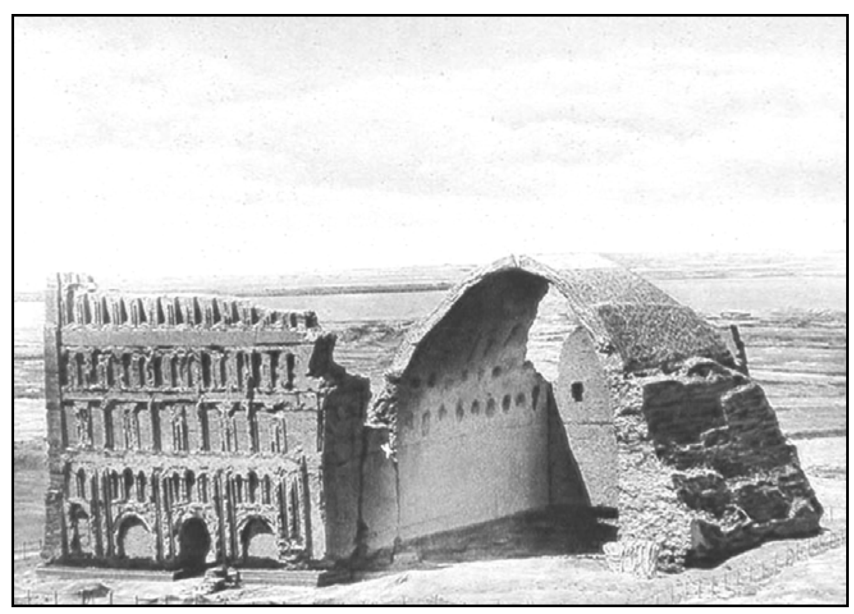
عبر الأجزاء الثلاثة من (الاسلام وايران) جهد (آية الله المطهري) لتأكيد فكرة أن معظم الابداعات الحضارية العراقية «قبل الاسلام» و«بعد الاسلام» ماهي إلا جزء من الحضارة الإيرانية الفارسية بالاستناد الى الفرضية التالية : أن جميع سكان العراق الأصليين من غير «العرب الأقحاح» هم تلقائياً من الفرس، ما دام العراق كان خاضعاً لايران خلال عدة قرون قبل الفتح العربي الاسلامي! كأن المسلمين عندما فتحوا العراق وجدوه «أرضاً بلا بشر»، إلا من بعض الجاليات الايرانية من ناحية وبعض الأعراب القاطنين في الحيرة من ناحية أخرى.. هذا هو كل ما تبقى من شعب النهرين بعد أربعة آلاف عام من الدول والامبراطوريات والحضارة الواحدة المستمرة مع اختلاف التسميات: السومرية الأكدية البابلية الاشورية الآرامية. إذن عندما وصل العرب عمروا أرض النهرين «القاحلة من السكان!»، ومع الفتح الاسلامي بدء تاريخنا كعراقيين ناطقين بالعربية! خلاصة هذا، ان كل انسان وكل فكرة أو نشاط أوانتاج لا تثبت اصالته العربية وقدومه المؤكد من الجزيرة العربية فإنه تلقائياً ومن دون أي جدل «أعجمي فارسي»! سيكتشف القارىء معنا بعد قليل كيف أن هذا «التفريس» والتقطيع لتاريخ العراق هو الجزء الأهم من عملية التقطيع التي تعرضت لها تواريخ البلدان العربية بصورة عامة. وكيف أن هذا التمزيق لماضي العراق كان السبب الأول والأكبر لتدمير حاضر العراق ومنع تكوين «هوية وطنية موحدة».

إن اختيارنا الحديث لهذا الكتاب، لأن كاتبه باحث معاصر ورجل دين معروف ومعترف به من قبل النظام الاسلامي في ايران. من خلال هذا الكتاب النموذج يمكننا أن نكشف عن أمرين متداخلين:

ــ رغم إيمان النخبة الايرانية بالعقيدة الاسلامية ودعوة الأخوة والمساواة بين الشعوب الاسلامية، إلا أن هذا لم يلغ «الأعماق القومية» الفارسية الايرانية التي تبلغ حد التعصب القومي والاعتقاد بأفضلية الايرانيين على الشعوب الاسلامية الأخرى. ان هذا الموقف الاسلامي

الايراني يلتقي بالنتيجة مع الموقف القومي العلماني (الشاهنشاهي) الذي يتميز بتقييمه السلبي لدور الاسلام والمسلمين في تاريخ ايران واحتقاره المعلن والواضح للعرب والاسلام. صحيح أن الاسلاميين الايرانيين اختلفوا مع القوميين العلمانيين بأنهم قيموا ايجابياً الفتح العربي ودور الاسلام في نهضة ايران، إلا أنهم بنفس الوقت تبنوا الغرور القومي والتعصب العرقي المغطى بالاسلام. ها هو المطهري يقول: « إن أكثر الآثار الاسلامية سواء في العلوم الدينية أوغيرها كانت من مساعي المسلمين الايرانيين، وهذا هو فخر وميزة المسلمين الايرانيين على العهد الاسلامي» (ج3 ص 62). وطيلة الأجزاء الثلاثة جهد الباحث الى تأكيد هذه الفكرة، ولكن على حساب ا لعراق والعراقيين الذين سُرق دورهم بكل تعسف وظلم.

ـ الأمر الثاني الذي يكشفه لنا هذا الكتاب، هو الأمر الأكثر قسوة ومرارة : أن «التعصب القومي الايراني» بشكليه العلماني والاسلامي يلتقي ويستفيد كثيراً من «التعصب القومي العربي» رغم الخلاف وحتى العداء المعلن بين الموقفين القوميين العربي والايراني، إلا أنهما بتطرفهما وتعصبهما اتفقا على خلع الهوية الوطنية عن التاريخ العراقي و«تفريس» حضارته وابداعاته باحتساب الجزء الأعظم من ناسه ومبدعيه على ايران. ولنا في هذا أمثلة لا تحصى سوف نورد العديد منها لاحقاً.



طاق كسرى، قصر الملك الساساني في مدينة(المدائن) العراقية الآرامية
لاحظ رغم الهيمنة الفارسية، الا ان الهندسة وفن البناء العراقي هي التي كانت سائدة!

معنى الموالي والاعاجم

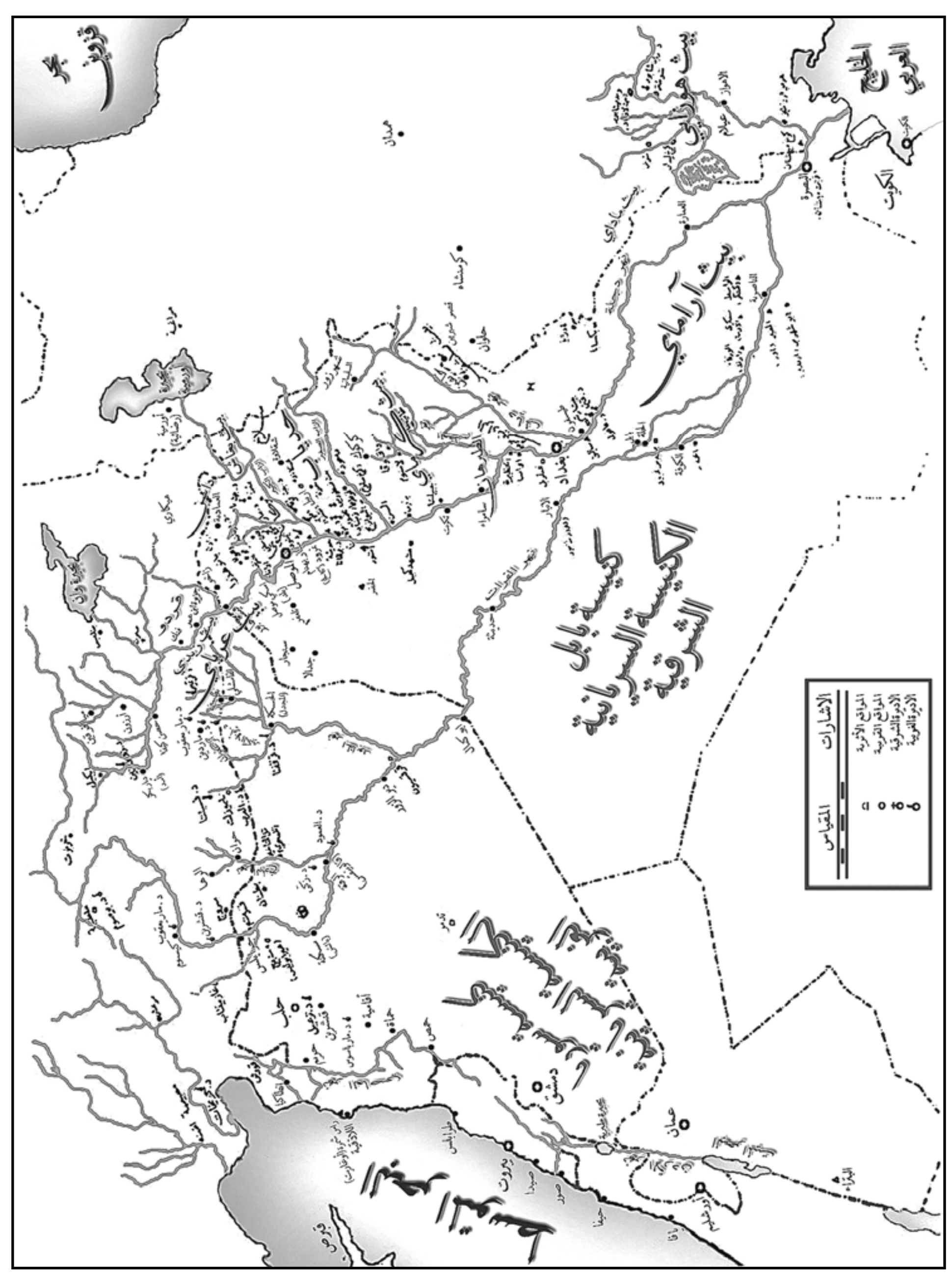
يتوجب التأكيد أن عملية «التفريس» هذه ليست قديمة أبداً، بل بدأت فقط منذ القرن الماضي تحت تأثير المفاهيم القومية والطائفية للدولة العثمانية. منذ ذلك الوقت شرعت النخب العراقية والعربية «المعثمنة» باعادة كتابة تاريخنا بطريقة أدت الى قلب معاني جميع المصادر التاريخية. قبل أن نتحدث عن أسباب عملية «التفريس» هذه ونورد الأمثلة العديدة عليها، نوضح أولاً الطريقة (السحرية) التي تمت بها. نؤكد على أهمية هذه الطريقة لأنها من القوة والثبات والتكرار بحيث أننا جميعاً عراقيين وعرباً اقتنعنا منذ أجيال بحقيقة هذا «التفريس» وتقبلناه وهضمناه وعشناه بصورة يومية وتلقائية أشبه بمن يتقبل حقيقة أن قدميه مقيدتان بالسلاسل، فيتعود الزحف كأمر طبيعي وموروث من التاريخ!

هذه الطريقة السحرية والبسيطة جداً تتلخص بالتالي: أن القارىء لتاريخ الحضارة العربية الاسلامية في المشرق وفي العراق خصوصاً، أي منذ الفتح حتى سقوط بغداد التي دامت ستة قرون؛ يلاحظ في جميع المصادر التاريخية التي كتبت خلال هذه القرون الستة ثمة «مفردتان» تتكرران عبر جميع الصفحات. هاتان المفردتان أشبه بالمفاتيح أي تلاعب بهما أو سوء فهم لمعانيهما سوف يتغير فحوى السرد التاريخي بأكمله، والمفردتان هما: «الموالي، العجم».

الذي حدث، أن النخب العربية «المتعثمنة» التي كتبت تاريخنا في العصر الحديث لسبب سوف نفصله لاحقاً، قررت بوعي ومن دون وعي اعتبار هاتين المفردتين بمعنى واحد وحيد هو: «الفرس الإيرانيون». هكذا نزلت الصاعقة السحرية وبقدرة قادر تغيرت معاني جميع المصادر التاريخية العربية القديمة وأعيدت قراءتها وتفسيرها بحيث أصبحت كلها لا تتحدث إلا عن «الفرس الإيرانيين». أي موضوع أو حدث أو دين أو مذهب أو ثورة أو قصيدة أو حكاية، تتعلق بـ «الموالي أو العجم»، فهي تلقائياً ومن دون شك تعني «الفرس الايرانيين»!

نوضح باختصار معنى هاتين المفردتين:

ـ **الموالي**: وهم سكان البلاد المفتوحة الأصليين الذين اعتنقوا الاسلام وقاموا بموالاة قبيلة عربية أو شريف عربي. تسمية (مولى، موالي) تعني الفرد والجماعة التي وضعت نفسها بموالاة وحماية قبيلة عربية قوية أو قائد أو شريف عربي ذي جاه وسلطان. وقد شاع هذا الأمر



خارطة العراق المسيحي قبل الفتح العربي وتقسيم المناطق حسب الأسقفيات النسطورية(السريانية الشرقية) . أما بلاد الشام (سوريا الطبيعية) فكانت بأغلبيتها تابعة للكنيسة اليعقوبية(السريانية الغربية) .

المصدر : تاريخ الكنيسة السريانية – البيرابونا – ج1

خصوصاً في العراق عندما بدأت الأغلبية الساحقة من العراقيين المسيحيين الآراميين (السريان) باعتناق الاسلام و «موالاة» احدى القبائل العربية أو أحد قادة الجيوش الكبار المسلمين والذين أصبحوا بمعظمهم ملاكين كباراً للأراضي والقرى العراقية. أطلق العرب على فلاحي العراق تسمية نبط «وهم ينزلون سواد العراق.. يسكنون العراق وأربابها» ما يقول (ابن منظور)[2] ، وشملت تسمية نبط أيضاً آراميّ الشام. ويلاحظ في المصادر التاريخية أن تسميات عديدة أطلقت على سكان العراق الأصليين المسيحيين الناطقين بالآرامية: (سريان، كلدان، نبط، أهل بابل، آراميون، نصارى، نساطرة). وهي تسميات متأتية من التنوع المذهبي والمناطقي وتمايز اللهجات بين أهل الريف والمدينة وبين شمال النهرين (الجزيرة) وجنوبه (البطحاء). لكن الجميع كانوا ناطقين باللغة السريانية (المشتقة من الآرامية) كلغة فصحى للكتابة وللطقوس الدينية. انظر مثلاً كيف يتحدث (ابن خلدون) عن أهل العراق: «وأما وجود السحر (علم التنجيم) في أهل بابل وهم الكلدانيون من النبط والسريانيين فكثير»[3].

يذكر (البلاذري) ان عمر بن الخطاب قسم أرض السواد (العراق دون الموصل) بين المقاتلين المسلمين، فوجد أن كل مقاتل عربي سوف يكون مسؤولاً عن أراضي ثلاثة فلاحين عراقيين. معنى هذا أن كل مقاتل يقابله ثلاثة فلاحين مع عوائلهم. ويضيف (البلاذري) أيضاً، أن عثمان بن حنيف ختم على رقاب (550) الف علج[4] (وهي تسمية أطلقت تهكماً على الفلاح العراقي). يعني هذا في أرض السواد وحدها كان هناك أكثر من نصف مليون فلاح عراقي، واذا احتسبنا معهم عوائلهم بالاضافة الى سكان المدن والأهوار والبوادي فإنهم يضاهون عدة ملايين نسمة. وتتفق التقديرات التاريخية على أن عدد سكان العراق عند الفتح بحدود سبعة ملايين. (لاحظ الجدول الاحصائي التاريخي في الملحق نهاية الفصل).

مع انتشار الاسلام واستقرار المقاتلين العرب في الحواضر وتملكهم للقرى والأراضي ساد لدى أبناء القرى والعشائر العراقية الآرامية تقليد الموالاة وحمل أسماء وألقاب عربية. الذي ساعد على هذا التعريب هو التقارب الثقافي واللغوي بين الآراميين والعرب. وذكر لنا (الجاحظ) في كتابه (البيان والتبيين) أنه حتى القرن الهجري الثالث ثمة الكثير من أهل الريف العراقي لم يتقنوا العربية بعد[5]. ويمكننا ان نتخذ من حياة (الجاحظ) مثالاً واضحاً على عملية «الموالاة» التي عاشها أهل العراق. من المعروف ان (الجاحظ) لم يكن عربياً بل هو عراقي بصري من موالي (كنانة) وقدحمل جده (محبوب البصري) لقب (الكناني) لأنه كان يشتغل

جمالاً لدى أحد الملاكين العرب اسمه (أبو قلمس عمرو بن قلع الكناني)[6]. ويبدو أن مؤرخينا المعاصرين قد أعفوا (الجاحظ) من تهمة «الفارسية» رغم أنه من (الموالي) بسبب دفاعه عن العرب في رسائله وكتبه!

انتشر نظام الموالاة أولاً بين العراقيين القاطنين في الحواضر الجديدة التي استقرت فيها الجيوش العربية مثل الكوفة والبصرة والموصل. يقول المؤرخ الدوري: «ان جمهور الموالي في العراق كانوا من النبط. ومع ذلك فان الاشارة الى الموالي النبط نادرة، ويبدو أن ذلك يعود لصلتهم بالعرب في الأصول والثقافة... يقال أن دواد الطائي تكلم أمام الحجاج. فقال له الحجاج: الكلام كلام عربي والوجه وجه نبطي... بعد ثورة الأشعث ضد الأمويين، تخوفت السلطة من الموالي المقيمين في الكوفة، وقيل عنهم: إنما الموالي علوج، وإنما أتي بهم من القرى فقراهم أولى بهم..»[7]. ويؤكد لنا (الدوري) أن هؤلاء الفلاحين كانوا يتكلمون الآرامية. يحدثنا (دلو) عن هذه الحالة: «في خلافة عثمان تردت أوضاع الموالي الاجتماعية والاقتصادية وزادت حالتهم سوءاً وذلك عندما أرادت الأرستقراطية العربية أن تجعل من السواد «بستاناً لقريش». فانفلت أقاربه الحكام في انتزاع أراضي الموالي وأرزاقهم واستغلال جهودهم دون رحمة مما دفعهم الى الانحياز الى جانب (علي) الذي أدخلهم في صفوف جيشه، إذ كان منهم فيه ثمانية آلاف. وساوى بين الموالي والعرب في العطاء وكتب الى عماله يأمرهم بحسن معاملتهم»[8] وساءت أكثر حالة العراقيين زمن الأمويين وبالذات فترة (الحجاج) الذي فرض عليهم الجزية رغم دخولهم الاسلام. نتيجة ذلك قام العراقيون بعدة ثورات معروفة بالاشتراك مع الجاليات العربية المقيمة التي عانت هي أيضاً من اضطهاد الأمويين: ثورة الكوفة بقيادة المولى أبو علي الكوفي. ثورة عبد الرحمن بن الأشعث التي اشترك فيها من موالي الكوفة والبصرة أكثر من مئة ألف. وعلى أثر فشل الثورة أمر الحجاج بإرجاع الموالي الى قراهم وختم (بالنار) على يد كل مولى اسم قريته لكي لا يغادرها الى المدينة. ثم شارك الموالي بثورات الحارث بن سريج وابي مريم ونافع بن الأزرق وعبيد الله الماحوز وقطري بن الفجاءة، ثم ثورة المختار الثقفي الذي احتوى جيشه على عشرين الف مولى عراقي. وطبعاً أن الحركات الشيعية والعباسية كانت بأغلبية ساحقة من الموالي العراقيين بالاضافة الى الجاليات العربية[9].

بسبب هذا الظلم الاقتصادي والاجتماعي واستمرار فرض الجزية على العراقيين رغم اسلامهم واغتصاب أراضيهم من قبل القادة والأمراء العرب، وبالتالي استمرار ثوراتهم التي

كانت تنتهي بالفشل وزيادة القمع والظلم فقد توسعت الحركات المعارضة للهيمنة الأموية ولسيطرة الأقلية القبائلية العسكرية العربية. انتشرت الأفكار التي تدعو الى «المساواة» بين العرب وغير العرب والتي تجلت بالتيارات التالية : مذهبياً بالحركة الشيعية، وسياسياً بالحركة العباسية، وثقافياً بالحركة الشعوبية (أهل التسوية). جميع هذه الحركات كانت عراقية أصيلة، لأنها نشأت ونشطت في العراق ومؤسسيها وقادتها من العراق، لكنها فيما بعد انتشرت وأثرت في الفرس والتركستان(*) وغيرهم من الجماعات المضطهدة. يقول (ابن قتيبة) شاتماً المثقفين الشعوبيين : «هم أوباش النبط وأبناء أجراء القرى»[10]، ويعني (أبناء الفلاحين) ولم يقل عنهم (أبناء الفرس) كما يحلو لمؤرخينا المعاصرين أن يقولوا عنهم.

كل هذه الحركات كانت تطالب برفع الظلم وبالمساواة الانسانية بين الأقلية العربية العسكرية الحاكمة والأغلبية العراقية (آراميين وعرب) المحتقرة والمضطهدة. ولم تكن هذه الحركات موجهة ضد العرب كقوم، بدليل أن معظم قادتها من أصول عربية مثل أئمة الشيعة وبني العباس.

إن حركات العراقيين كانت موجهة ضد العنصريين العرب من ملاكين وأمراء البدو والعسكر الذين كانوا يقسون على الفلاحين والحضر ويستخفون من طريقة عيشهم. يقول أحد الأعراب متهكماً من الموالي : «يكسحون طرقنا ويخرزون خفافنا ويحوكون ثيابنا»[11]. وتؤكد لنا مصادر التاريخ كيف أن الكثير من المتعصبين العرب حاولوا المستحيل للوقوف بوجه التيار الكاسح للتزاوج بين الجاليات العربية والسكان الأصليين الذين اعتنقوا الاسلام، وقد أطلقت تسمية «هجين» على الذين يولدون من هذا التزاوج. يقول الرياشي[12]:

إن أولاد الســـــراري كثروا يا رب فينـــا

رب أدخلني بــــــلاداً لا أرى فيها هجينا

لكن الوقوف بوجه تيار الامتزاج والتزاوج بين العرب والآراميين في العراق وسوريا خصوصاً كان من المستحيل بحيث شمل أخيراً حتى الخلفاء الأمويين والقادة العسكريين ومعهم المتعصبين من دعاة الحفاظ على نقاء الدم العربي. ومع الزمن ذابت الأقلية العربية (بدنياً وعرقياً) في الأغلبية من السكان الأصليين. لكن رغم ذوبان العرب عرقياً إلا أنهم بفضل السلطة والدين الاسلامي تمكنوا من فرض اللغة العربية وجعل السكان الأصليين

---

* فضلنا أستخدام تسمية «تركستان» لسكان آسيا الوسطى، بدلاً من تسمية «أتراك» التي أصبحت تعني سكان دولة تركيا الحالية.

يحملون أسماء وألقاب القبائل العربية المحاربة المسيطرة وكذلك أسماء أشراف العرب من الملاكين والقادة العسكريين. ولهذا فإننا في العراق نعتقد فعلاً وحقيقة بأن عشائرنا عربية صميمة قادمة من الحجاز واليمن لأنها جميعها تدعي الانتساب للقبائل العربية الكبرى مثل : (طي وبني تميم وخزاعة وقريش وربيعة وبني هاشم والعلويين)، بينما الحقيقة أن هذه ألقاب (ولاءات) فُرضت على أسلافنا العراقيين بعد الفتح الاسلامي وهذا الأمر حدث في البلدان العربية الأخرى مثل القبط في مصر والبربر في شمال افريقيا والنوبة في السودان.

المشكلة التي عقدت موضوع «الموالي» بالنسبة لمؤرخينا المعاصرين أن تسمية «موالي» تشمل أيضاً الأقلية من الأسرى والعبيد التابعين لإحدى القبائل العربية أو الأشراف العرب. وهذا الأمر شجع على وضع الأغلبية في سلة الأقلية، وبالتالي اعتبار جميع الموالي من الأسرى والمماليك والعبيد الأجانب. طبعاً «الأجنبي» هو «الأعجمي»، إذن بالنسبة لمؤرخينا المعاصرين لا بد أن يكون هذا «الأعجمي» فارسياً حسب الفهم القومي «المعثمن»!

ـ الاعاجم: بالنسبة لمفردة «أعجمي، أعاجم» فهي في جميع المراجع اللغوية تعني كل من جهل اللغة العربية. أعجمي رديف لكلمة أجنبي. بل إن العرب أطلقوها حتى على أقسام أخرى من العرب. يقول شاعر من قبائل الأزد اليمانية: «واستعربوا ضلة وهم عجم»[13]. وحسب ابن منظور في (لسان العرب) للتفريق بين العرب العاربة والعرب المستعربة: «المستعربة هم عجم دخلوا في العرب»[14] لهذا فإن المصادر التاريخية العربية تتحدث عن الأعاجم لتشمل كل الجماعات والشعوب غير الناطقة بالعربية وكما يعبر عن ذلك (ابن خلدون): «وهذا عام في جميع أصناف أهل اللسان الأعجمي من الفرس والروم والترك والبربر والفرنج وسائر من ليس من أهل اللسان العربي» (ص 1055).

لسوء الحظ، أنه منذ قرون وحتى الآن قد ساد لدى العراقيين تسمية أعجمي بمعنى فارسي ايراني. على هذا الأساس فإن الأمر انعكس على قراءة المصادر العربية القديمة من قبل مؤرخينا المعاصرين وتم اعتبار أي حديث أو ذكر للأعاجم فإنه يعني الفرس الإيرانيين.

على هذا الأساس قد تم «تفريس» كل سكان العراق الأصليين. بل إن مؤرخينا المعاصرين اضطروا للاستعانة بشعوب أخرى من أجل انجاز عملية التضخيم الأسطوري لدور «الفرس» وتقزيم دور «العراقيين». جميع سكان المناطق الآسيوية المحاذية لايران من تركستان وسند (باكستان) وأفغان وأكراد وأرمن وقفقاس تم اعتبارهم «فرس» لأنهم (أعاجم) أو لأنهم (موالي)!

لكي تتكامل المصيبة ويصل هذا التشويه الى ذروته فان الفهم القومي العرقي العربي قد فرض نفسه بحيث تم نزع الهوية الوطنية العراقية حتى عن المواطنين الأصليين الذين لم يعتبروا «موالي»، ونعني المواطنين الذين لم يدخلوا الاسلام: مسيحيين ويهود وصابئة ومانوية، والذين أطلق عليهم تسمية «أهل الذمة». بما أن هؤلاء ليسوا «عرب أقحاح» بالاضافة الى أنهم غير مسلمين فانهم تلقائياً حُسِبوا على «الأعاجم» وهم أجانب يمكن بسهولة اعتبارهم بصورة أو أخرى على الفرس! نعم إن مؤرخينا اعتبروا الكثير من «أهل الذمة» العراقيين من الفرس الإيرانيين. لقد وصل الأمر الى حد تحريف المعلومات التاريخية بصورة سافرة تدعو للاستغراب. اسمعوا مثلاً مؤرخنا القومي «شكري فيصل»، يتحدث في كتابه الموسوعي «المجتمعات الاسلامية» عن اختلاط الفرس بالعرب في العراق تحت عنوان: «الزواج بالكتابيات الفارسيات»، يستشهد بالمؤرخ الطبري الذي يقول: «تزوج المهاجرون والأنصار في أهل السواد يعني في نساء أهل الكتابين منهم»[15]. وبكل حماسة قومية يفسر مؤرخنا (نساء أهل الكتابين) بمعنى النساء الفارسيات! بينما أي شخص منا مهما كان اطلاعه محدوداً يعرف جيداً أن «الكتابين» هما «الانجيل والتوراة» و«أهل الكتابين» هم «النصارى واليهود». ثم ان الطبري يتحدث عن «أهل السواد» وأرض السواد هي العراق. طيب كيف حصل ان «الفرس» صاروا هم أهل السواد وهم النصارى واليهود؟ على هذا المنوال يستمر مؤرخنا بتفريس 90٪ من سكان العراق ومبدعيه وحضارته بحماسة لا تكل. وسوف نورد لاحقاً العديد من الأمثلة.

الانتماء القبائلي

هكذا إذن تكاملت المؤامرة وتم تمزيق التاريخ العراقي وحُسِبَ القسم الأعظم من ناسه ومبدعيه على «الأعاجم الفرس الإيرانيين». لم يبق للعراق غير أولئك الذين ثبت أصلهم (العربي القح). لكن المشكلة أنه حتى هؤلاء لم يُحتسبوا على العراق بل تم احتسابهم بكل بساطة على أصولهم القبائلية، فيقال (شيباني، أزدي، طائي)، وبالتالي يتم ارجاعهم تلقائياً الى نجد أو الحجاز أو اليمن، ثم الى (الأمة العربية) جمعاء من دون أية إشارة لأصلهم العراقي!

الآن لنعد الى كاتبنا (آية الله المطهري) حيث سنسجل عدداً من نماذج «التفريس» الكلي الذي قام به للحضارة العراقية في العصور الاسلامية. سوف نستشهد أيضاً ببعض النماذج لإسهامات المؤرخين العرب في عملية «التفريس» هذه ولنبين مدى التداخل بين الموقفين القوميين العربي والإيراني.

من أهم الأسس التي اعتمدت عليها الرؤية القومية العرقية هي الازدواجية الظالمة في التعامل مع أصول الشخصيات العراقية والكيل بمكيالين مختلفين: بالنسبة للعراق فانه مغيب كوطن وكشعب، بل هناك القاب وانتماءات قبائلية يمانية وحجازية ليس فيها أي ذكر للانتماء العراقي. أما بالنسبة لايران فانها حاضرة كوطن ثابت ومقدس فوق الدين والقبيلة واللغة، بل انها تعامل كأمبراطورية (عرقية قومية أزلية) إذ يُحتَسبْ عليها جميع أبناء البلدان التي كانت تابعة سابقاً للامبراطورية الفارسية الساسانية: العراق وأفغانستان وتركستان. هذا الأمر أشبه باعتبار شعوب اليونان وأرمينيا وسوريا والعراق مع مبدعيهم جزءاً من «الأتراك» لأنهم خضعوا للدولة العثمانية لعدة قرون! هذه بعض نماذج «التفريس» المأخوذة من الجزء الثالث من الكتاب:

ـ خلال حديثه عن فقهاء المذاهب السنية الأربعة: (مالك بن أنس، الشافعي، أحمد بن حنبل، أبو حنيفة النعمان)، يقول الكاتب: «وعلى هذا فليس من هؤلاء الأئمة الأربعة ايراني في الأصل إلا أبا حنيفة، والآخرون عدناني وقحطاني وشيباني» (ص 104). هكذا اذن وبكل بساطة يتم الحديث عن الانتماء لايران كوطن وقومية تسري دماؤها حتى في الذين لم يعيشوا فيها أبداً لا هم ولا أسلافهم. وعلى العكس تماماً بالنسبة للعراق أرضاً وشعباً وحضارة يتم تغييبه من التاريخ ويُحسَبْ أبناؤه على انتماءاتهم القبائلية السلالية الأسطورية المفترضة. السبب واضح جداً، لأن الإمام (أبو حنيفة) الذي تم اعتباره إيرانياً على أساس أصل جده (زوطي) المفترض من سبي كابول (الطريف ان كابول في أفغانستان وليس في ايران. ولا ندري إن كان أهل كابول وافغانستان يرضون بأن يحسبهم مؤرخونا على ايران؟).

أبو حنيفة هذا الذي تم اعتباره فارسياً، اسمه (النعمان بن ثابت الكوفي) ولد في الكوفة، وأبوه (ثابت) ولد وعاش في الكوفة وتزوج من امرأة كوفية ومات في الكوفة، والنعمان نفسه كذلك ولد وعاش وتزوج من امرأة كوفية وعاش فيها وأبدع وتكلم باللغة العربية ولم يعرف لغة أخرى أبداً، ولم يسافر خارج العراق ولم يشاهد لا ايران ولا غيرها، وأمضى حياته يكافح وينشر دعوته في العراق حتى أطلق على مذهبه «مذهب أهل العراق»[16]، ومات سجيناً في بغداد ولا زال قبره فيها (الامام المعظم) ومذهبه حالياً هو المذهب الرسمي لسنة العراق. طيب كيف حصل وان اعتبر ايرانياً؟! أية طاقة خارقة لهذا الأصل الايراني الذي يتجاوز بجبروته كل حدود المنطق والعقل. وأي حظ تعس لهذا العراق البائس الذي يُنسَبْ

أبناؤه ومبدعوه لايران بكل تعسف وصفاقة. تصوروا أن الكاتب (عبد الرحمن الشرقاوي) يتحدث عن أبي حنيفة قائلاً: «ولد أبو حنيفة بالكوفة سنة 80 هـ من أسرة فارسية وسمي النعمان تيمناً بأحد ملوك الفرس[17]. هكذا يصل الجهل والتجاهل بكاتبنا بحيث أنه يعتبر اسم «النعمان» (أحد ملوك الفرس). فهو أولاً تجاهل بعناد أن اسم (النعمان) (عربي قح)[*] وليس له أية علاقة بالفرس. ويكفي مطالعة أي معجم لمعرفة ذلك. ثم ان أي قارىء للتاريخ يعرف أن (الملك النعمان) الشهير لم يكن (أحد ملوك الفرس) بل كان أميراً عراقياً مسيحياً في منطقة الحيرة (قبل الاسلام). والحيرة نفسها هي منطقة الكوفة التي ينتسب اليها أبو حنيفة. اذن فإن (أبا حنيفة) حينما اختار له اهله اسم (النعمان) ليس تيمناً بملوك الفرس بل تيمناً بملوك الحيرة العراقيين العرب!

تبقى الحقيقة الوحيدة من كل هذه التخريجات العجائبية لتبرير «تفريس» (الامام أبي حنيفة) ان هناك سبباً واحداً وحيداً: ان (أبا حنيفة) حتى وإن كان (بيولوجياً وعرقياً!) ثلثيه (عراقي) من ناحية أمه وأم أبيه الكوفيتين، وأنه حضارياً وتربوياً وانسانياً هو عراقي 100٪، فانه ما دام ليس من أب عربي خالص فانه يكفي لنفي كل انتمائه للعراق حتى لو عاش فيه هو وأسلافه خلال ألف عام. لقد تم اعتباره (فارسياً ايرانياً) بصورة تلقائية ومطلقة!

أما فقهاء المذاهب الثلاثة الذين اختصرهم (المطهري) بانتماءاتهم القبلية المفترضة دون أية إشارة لأوطانهم، فإن (الإمام ابن حنبل الشيباني) ولد وعاش وتعلم وأبدع ومات في بغداد في العراق ومن أبوين عراقيين. إذن فإن كان (شيبانياً عربياً)، فهو قبل كل شيء عراقي الوطن والهوية. أما (مالك بن أنس)، فانه من أهل المدينة ولد وعاش ومات فيها، فهو عربي لكنه قبل كل شيء حجازي الوطن والهوية. أما (الإمام الشافعي) فهو فلسطيني من غزة، انتقلت به أمه الى مكة وهناك عاش وتعلم وأبدع، ثم انتقل الى بغداد فالقاهرة حيث مات ودفن. اذن فهو فلسطيني الأصل حجازي المنشأ والوطن[18].

هكذا تعامل مؤرخونا المعاصرون مع الشخصيات المعروفة، فيردوها الى أصولها القبائلية دون أية اشارة للأوطان باستثناء ايران فهي الوطن والقبيلة والقومية والأمة! يقول مطهري مرة أخرى: «أبو عبيدة ايراني ألأصل، وأبو زيد خزرجي، وأما الأصمعي فباهلي» (ص110)، علماً أن الثلاثة هم مبدعون عراقيون مولداً وتجربة وثقافة وتزاوجاً ونسلاً.

---

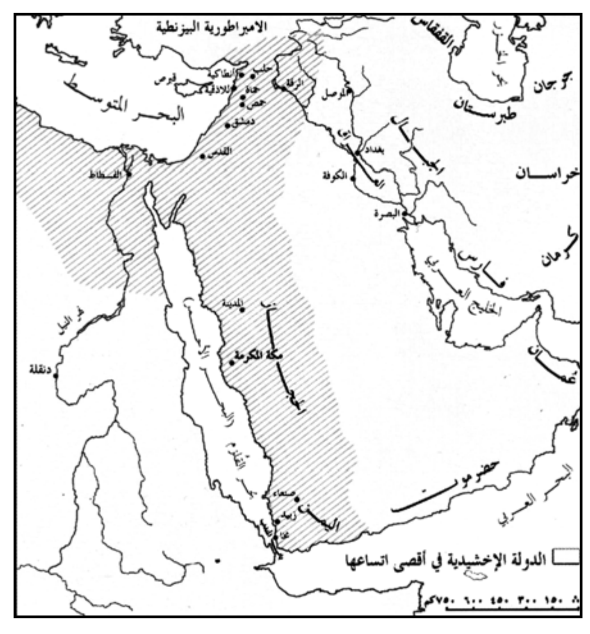
* بالحقيقة ان أسم (نعمان) هو آرامي اطلق على آله الخصب (بعل تموز) ومنه أطلق على ورود الربيع (شقائق النعمان). وهي من جذر (نعم) بمعنى (جميل).

النقاء العرقي للشخصيات الفارسية

قبل أن نورد نماذج أكثر على عملية «التفريس» التي قام بها المؤرخ (المطهري) وكذلك المؤرخون العرب المعاصرون، نود أولاً أن نحاجج أصحاب هذه الطروحات القومية العرقية ونكشف عن مدى هزالة هذه الطروحات ومدى الظلم الذي حاق بالعراق ماضياً وحاضراً. لنستعين بمثال من ايران نفسها :

ـ إن الإمام الخميني قائد الثورة الاسلامية الايرانية، لا أحد يشكك بحقيقة انتمائه لإيران، اجتماعياً وسياسياً وحضارياً، انه ايراني بكل معنى الكلمة. لكن لو اعتمدنا المنطق «القومي السلالي البيولوجي» الذي طبّق بصورة تعسفية على شخصيات التاريخ العراقي، فان الإمام الخميني ليس ايرانياً أبداً. فهو أولاً من جد اسمه (أحمد الهندي) ولد ونشأ في كشمير الهندية وقد هاجر الى النجف في أوائل القرن الماضي ثم تزوج من ايرانية وأقام في ايران في بلدة (خمين). ولا زال شقيق الامام الخميني الأكبر يسمى (نور الدين الهندي)[19]. هل يحق لنا على أساس الفهم القومي السلالي اعتبار الخميني هندياً كشميرياً وليس ايرانياً؟ ثم إذا أردنا التطرف أكثر في الفهم القومي، فاننا يمكن اعتبار الامام الخميني عربياً عراقياً لأنه يحمل لقب (الموسوي): أي من الذين يعتقدون أنهم من أحفاد (الامام موسى الكاظم حفيد الامام علي). و(الامام الكاظم) عاش ومات في العراق ولا زال قبره مزاراً شيعياً مقدساً معروفاً في بغداد. وعلى هذا المنوال يمكن احتساب جميع أبناء فئة «السادة» العلويين في ايران على العرب والعراق باعتبارهم من أحفاد الامام علي بن أبي طالب الهاشمي القريشي الحجازي، وقد هاجر أسلافهم الى ايران من العراق ولبنان والبحرين والإحساء، ومنهم عوائل مشهورة ومتنفذة في المجتمع والدولة في ايران (وقد يكون المطهري نفسه واحداً من هؤلاء السادة!). إن تاريخ ايران الاسلامي مليء بالشخصيات التاريخية التي كانت تدعي وتفتخر بالنسب العلوي العربي، مثل العائلة الصفوية مؤسسة الدولة الصفوية (القرن 16 م) التي فرضت التشيع بالقوة على ايران وبالاستعانة بفقهاء العراق والاحساء والبحرين ولبنان[20]. ومن الشخصيات العلوية الشهيرة أيضاً الملكة (فرح ديبا) زوجة الشاه المنفية الآن في مصر[21] وعدد هائل من العوائل والشخصيات المعروفة في تاريخ ايران منذ قرون وحتى الآن!

من مظاهر اللاعدل أيضاً في سرد التاريخ من قبل مؤرخينا القوميين انهم ركزوا بصورة مبالغة جداً على وجود الفرس في العراق، لكنهم لم يعطوا أهمية لوجود العراقيين (والعرب)





خارطة الامبراطورية العباسية واقاليم ايران وافغانستان

في هاتين الخارطتين تتبين المناطق الآسيوية التابعة للخلافة العباسية علماً بأن إيران في هذه الفترة ليس لها وجود ككيان موحد بل منقسمة الى عدة أقاليم مثل (فارس) وطبرستان وأذربيجان واقليم الجبال أما خراسان فكانت تشتمل على اجزاء من أيران وأفغانستان الحالية واقليم الأحواز فكان أقليماً خاصاً ليس له أية علاقة بأيران وهو أقرب الى العراق بحكم اشتراكه بالسهل والطبيعة وكذلك التكوين السكاني والحضاري الذي كان ولازال نفس الموجود في جنوب العراق .

المتميز في ايران بالاضافة الى تركستان وافغانستان وبلاد السند. العلامة (ماسينيون) يحدثنا بإسهاب عن نشاط جاليات أهل البصرة والكوفة في خراسان بعد الفتح ويعدد مدن الاستيطان المعروفة : بلخ ومرو وهراة وسيراف ونيسابور ويشير الى دور العراقيين الحضاري والسياسي في ايران حيث أسسوا مدينة (قم) التي أصبحت منذ الفتح (مركز) التشيع العراقي الذي خلق (التشيع) الايراني فيما بعد. وكذلك دورهم في بناء مدينة (البيزا أو البيضاء) التي أنجبت سيبويه والحلاج[22].

يذكر (الطبري) أنه كان في خراسان اربعون الفاً من مقاتلة البصرة وسبعة آلاف من الكوفة ومعهم سبعة آلاف من موالي العراق. ويذكر (البلاذري) ان والي خراسان «حول معه من أهل المصرين (الكوفة البصرة) زهاء خمسين الفاً بعيالاتهم وأسكنهم دون النهر ـ أي خراسان ـ»[23]. وكل هؤلاء العراقيين اعتبروا خراسانيين شكلوا النخبة (المسلمة) التي قادت الحياة الثقافية والدينية والسياسية والعسكرية في خراسان. وهؤلاء الخراسانيون (العراقيون) هم الذين ساهموا بنجاح الثورة العباسية وعادوا الى العراق وشاركوا ببناء الدولة في بغداد. يلاحظ مثلاً أن الكثير من هؤلاء الرجال يحملون ألقاباً خراسانية وعربية في نفس الوقت : قحطبة الجرجاني (الطائي)، الفضل الطوسي (التميمي)، جديع الكرماني (الأزدي)، عبد المالك الجرجاني (العتكي)[24].

إذن، مشكلة الانتماء والنقاء «القومي السلالي» لا تخص العراق وحده بل تخص ايران بدرجة أكثر حدة، خصوصاً اذا علمنا أن الفرس في ايران ظلوا طيلة التاريخ أقلية عرقية فرضت نفسها على باقي شعوب ايران من خلال اللغة فقط. من المعروف أن الناطقين بالفارسية كلغة أم في إيران أقل من 50٪، وهناك أكثر من الثلث ناطقون بلهجات تركستانية مختلفة بالاضافة الى الأكراد والعرب والبالوش، لكن الفارسية تبقى اللغة الرسمية والثقافية لهذه الفئات اللغوية. ثم ان جميع السلالات التي حكمت ايران منذ عشرة قرون وحتى القرن الحالي كانت سلالات تركستانية : (السلاجقة، الايلخانيون، التركمان، الصفويون، القاجاريون)[25]، ولكن في ظل هؤلاء سادت اللغة الفارسية الحديثة ونشأ الأدب الايراني منذ الفردوسي وعمر الخيام وحتى الآن، وان الكثير من مبدعي ايران ما كانوا من الفرس بل من أصول «عرقية» مختلفة منهم

التركستاني، ومنهم العربي، ولكن الجميع تبنوا اللغة الفارسية وأبدعوا بها وتم اعتبارهم ايرانيين فرس.

لماذا اذن لا ينطبق هذا المقياس على العراق أيضاً، ولماذا تم التعامل مع شخصياته المبدعة على أساس مدى انتمائهم «العربي القح»، وتم التغاضي عن حقيقة انتمائهم لأرض العراق ومجتمعه وحضارته ولغته الوطنية (العربية)؟

إن الحديث عن المبدعين في ظل الحضارة العربية الاسلامية يجب أن لا يستند على الأصل العرقي السلالي المفترض إنما على أساس أرض الميلاد والمنشأ والثقافة. للأسف نحن في العراق وفي عموم البلدان العربية وبسبب الفهم العرقي العروبي لا زلنا مترددين بقبول هذه الحقيقة الانسانية العالمية ونشعر بالخجل من عدم ثبات «الأصل العربي القح» للمبدع أو للمواطن. وطالما سمعنا وقرأنا الكثير عن الأسف أو التشفي لأن أغلب مبدعي الحضارة العربية لم يكونوا من أصول عربية متناسين حقيقة أن الأغلبية الساحقة من شعوبنا (الناطقة بالعربية) ليست من أصول عربية بالمعنى السلالي العرقي، بل هي من أصول وطنية أصيلة مستوطنة منذ سحيق التاريخ وقد دخلت الاسلام واستعربت وأصبحت شعوباً عربية. لقد تم تناسي حقيقة أن الانتماء للوطن وحضارته هو الأساس وليس الانتماء لهذه القومية البيولوجية الأسطورية المفترضة. بسبب الفهم القومي الضيق تم اعتبار جميع المبدعين الذين ينتمون لأصل وطني (مثل الآراميين والأكراد والتركمان والأرمن واليهود وغيرهم في العراق خصوصاً) على (الأعاجم والفرس)، ما داموا ليسوا عرباً أصلاء ولا ينحدرون مباشرة من عدنان وقحطان! ولنا مثال (صلاح الدين الأيوبي) الذي يُحسب دائماً على أصله «الكردي» من دون الاهتمام بحقيقة مولده هو وإبيه في العراق ثم نشأته وحياته في سوريا[26].

إن هذا الفهم القومي للتاريخ يتغذى دائماً بمفاهيم قومية عرقية ترسخت ونمت منذ أجيال وصارت جزءاً من تكوين الثقافة العربية حتى بتياراتها الأممية والعلمانية والعلمية. بل غدا من شبه المستحيل الحديث بأي موضوع اجتماعي تاريخي دون القبول ضمناً بهذه الطروحات العرقية شئنا أم أبينا، فإننا تعودنا على قبول المبدأ القومي التالي: إن طريق الانتماء للوطن لا بد أن يمر بالجزيرة العربية ![*]

---

* إننا نذكر وسوف نكرر في كل الكتاب، بأننا لسنا ضد شعوب الجزيرة العربية، وإننا نعتز بأهل اليمن ونجد والحجاز والخليج العربي. إننا فقط ضد الفهم التعسفي العروبي العرقي للتاريخ.

وزارة الثقافة العراقية أصدرت عام 1978 كتاباً من ثلاثة مجلدات (للدكتور ناجي معروف)، يحاول فيه أن يثبت «عروبة» العلماء المنسوبين الى «العجم». بل إن مؤرخنا «الدكتور» جهد لإثبات «عروبة» حتى الجماعات الأخرى مثل «الأكراد». تراه يستند الى (ابن حوقل والمسعودي والمقريزي) ليقول : «إن الأكراد ينتسبون الى كرد بن مرد بن عمرو بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن..»[27] وبالتالي فان أصل جدهم من اليمن، نعم هذا «دكتور» وأفكاره «العلمية جداً» تُدرس في الجامعة ويؤمن بها الكثير من المثقفين والسياسيين في العراق. يكفي أن نثبت أن الأكراد أصلهم «عرب من اليمن» حتى تنحل مشكلتهم في «العراق»! لأن الانتماء لأرض العراق ولشعب العراق ولتاريخ العراق لا بد أن يمر لا محالة، بالانتماء لليمن أو للحجاز (مع تقديرنا لأهل اليمن والحجاز الذين لا نعتقد بأنهم بحاجة لأن يكون الأكراد منهم فلديهم ما يكفي من المشاكل).

الانتماء للوطن

يجب التوكيد أننا لا نبتغي أبداً إنكار دور العناصر الايرانية في صنع الحضارة العربية الاسلامية، ولكننا ضد المغالاة العنصرية من الجانبين العروبي والايراني. اننا ندعو لتبني المنطق الوطني الانساني الذي يعتمد وطن الميلاد والمنشأ والثقافة من أجل الاتفاق على تحديد الانتماء الوطني للشخصية التاريخية. بهذا المنطق الانساني سوف نمنح لكل وطن حقه وحصته من الشخصيات التي ساهمت بصنع الحضارة في ظل الامبراطورية العربية الاسلامية.

على هذا الأساس، فإن مبدعين مثل (ابن العميد) و (الصاحب بن عباد) و(الطغرائي) و(الغزالي) هم ايرانيون دون جدل رغم تبنيهم للغة العربية ومعيشتهم في بعض الفترات في العراق والمنطقة العربية. هم ايرانيون لأنهم ولدوا وعاشوا في مناطق هي حالياً جزء من ايران وهذا يكفي لتأكيد انتمائهم الوطني حتى وإن كان بعضهم أصله عربي عراقي مثل (يحيى التميمي) الذي ولد وعاش في نيسابور واشتهر بأنه شيخ خراسان وإمام زمانه[28].

بالحقيقة ان هوس «التفريس» لم يشمل الشخصيات العراقية وحدها بل كل الأعاجم وخصوصاً من مناطق التركستان (آسيا الوسطى)، وهي حالياً تشكل جمهوريات (أوزبكستان وكازاخستان وتركمانستان وطاجكستان وقرغيزيا) وكلها ناطقة بلغات تركستانية متقاربة عدا طاجكستان التي تتقاسمها الفارسية والتركستانية. بلدان تركستان هذه فيها مدن معروفة جداً في التاريخ الاسلامي وأنجبت الكثير من الشخصيات المعروفة التي اعتبرت ظلماً من قبل

مؤرخينا على أنها فارسية : في كازاخستان مدينة (فاراب) ومنها أبو نصر الفارابي. في أوزبكستان مدينة (بخارى) ومنها الإمام البخاري وكذلك ابن سينا ، ومدينة (خوارزم) ومنها العلامة الخوارزمي والعلامة البيروني والإمام الزمخشري ، ومدينة (ترمذ) ومنها الكثير من العلماء الملقبين بالترمذي. أما تركمانستان فإنها ضمت أيضاً عدة مدن معروفة ومهمة مثل (مرو وآمل وبيهق وسرخس ونسا) وكل واحدة من هذه المدن أنجبت العديد من الشخصيات التاريخية المعروفة من أشهرهم الإمام المؤرخ الطبري والإمام السرخسي.

يمكن أيضاً ذكر بلاد أفغانستان التي تختلط فيها اللغات التركستانية والآرية. هذه البلاد انهضم حقها من قبل مؤرخينا المعاصرين لأن الكثير من شخصياتها حُسِبوا على ايران والفرس. فيها مدن مهمة معروفة مثل (كابول) وكذلك (بلخ) التي منها أتت عائلة (البرامكة) الشهيرة في الدولة العباسية والتي احتسبها مؤرخونا خطأ على الفرس. علماً بأن (برمك) الجد الأول لم يكن مجوسياً بل بوذياً، بعد سبيه وزوجته الى العراق ولد ابنهما (خالد) الذي أنجب (يحيى) الذي أنجب (جعفر البرمكي) الوزير الشهير زمن (هارون الرشيد)[29]. إذن عائلة البرامكة عراقية صميمة من خلال الولادة والتربية والتزاوج بأمهات عراقيات ، ولكن هذا لا يمنع من ذكر الأصل الأفغاني البوذي لجدهم الأول.

نعود من جديد الى مؤرخنا (المطهري) لنبين كيف أنه تخطى حيثيات المنطق الانساني والوطني والتاريخي وتبنى المنطق القومي الطائفي المراوغ من أجل «تفريس» الشخصيات التاريخية العراقية. هذه بعض النماذج :

❖ «محمد بن قاسم الأنباري المعروف بابن الأنباري ، نسبة الى الأنبار ، الذي سمي أنباراً لأنه كان مخزن الحبوب على عهد الساسانيين» (ص 107). الأنباري هذا اعتبر ايرانياً لمجرد ان منطقة الأنبار كانت تابعة للساسانيين مثل كل العراق وخصوصاً أن الأنباري هذا ليس عربياً قحاً وإنما من أهل العراق الآراميين الأصليين ، اذن فهو ايراني !

❖ محمد بن اسحاق المطلبي أول مؤلف للسيرة النبوية ، هو ايراني لأنه «مولى شيعي من عين تمر بالعراق التي كانت تحت سيطرة الفرس...» (ص 109) (عين تمر) منطقة على أطراف بادية العراق قرب كربلاء وليس لها أية علاقة بايران لا من بعيد ولا من قريب !

❖ «ابن خلكان الأربيلي هو ايراني لأنه من مواليد اربيل في العراق» ! (ص 109) !

❖ «موسى بن نصير فاتح المغرب والأندلس هو مولى فارسي» (ص 222) بينما يخبرنا التاريخ بأن حكاية موسى بن نصير مثل حكاية الحسن البصري والعديد من الشخصيات المعروفة مثل اسماعيل بن يسار ومحمد بن سيرين، إنهم ولدوا في الحجاز من آباء آراميين سبوا في جنوب العراق أثناء حروب خالد بن الوليد الأولى. يقول فيليب حتي: «كان موسى ابن رجل نصراني من العراق أخذه خالد بن الوليد أسيراً مع عدد من الصبيان أمثاله كانوا يدرسون في كنيسة تدرس الأناجيل»[30].

❖ «الحسن البصري من الموالي العجم بل الفرس» (ص 113) علماً بأن الحسن البصري هذا جميع المصادر التاريخية تتفق على أنه ولد في الحجاز وأصل أبيه آرامي مسيحي أو صابئي من ميسان في جنوب العراق وقد تم سبي أبيه وهو صبي وعاش وتزوج في الحجاز، وقد أتى الحسن الى البصرة وعاش بين أقاربه[31]. لكن المشكلة بما أنه ليس عربياً قحاً بل مولى عراقي الأصل، فإنه تلقائياً صار محسوباً على الايرانيين.

❖ «معروف الكرخي، كان من كرخ بغداد واسم أبيه «فيروز» ومن هنا يظن أنه ايراني... قيل أن أبويه كانا مسيحيين وأسلم هو...» (ص 202). إن هذا مثال على مدى التعسف في البحث عن أية اشارة توحي بفارسية الشخص. حتى الاسم يمكن الاستدلال عليه لاثبات الايرانية: فهذا اسم (فيروز) دليل كاف على نفي عراقية هذا المبدع. وكأن الأسماء الايرانية لا يمكن أبداً اطلاقها على غيرهم. لننظر الى الأغلبية الساحقة من الايرانيين أليست أسماؤهم عربية، فهل هذا يكفي لنفي انتمائهم لايران؟ والطريف ان حجة الأسماء هذه تم استخدامها بكثرة من قبل الأجهزة الحكومية في العراق من أجل التشكيك بعراقية المواطنين وخصوصاً إذا كانوا من الشيعة!

❖ «إن أول متكلم مسلم ألف كتاباً في مسائل علم الكلام هو علي بن اسماعيل بن ميثم التمار، وهو هجراني بحراني، وحيث أن البحرين كانت تحت حكم الساسانيين فهو لذلك ايراني...»(ص111). تصوروا أن كاتبنا هذه المرة تخطى العراق ليشمل برحمته أهل البحرين، وخصوصاً وأن أهل البحرين هؤلاء من الشيعة، فما أسهل احتسابهم على ايران!.



التفريس باسم العروبة

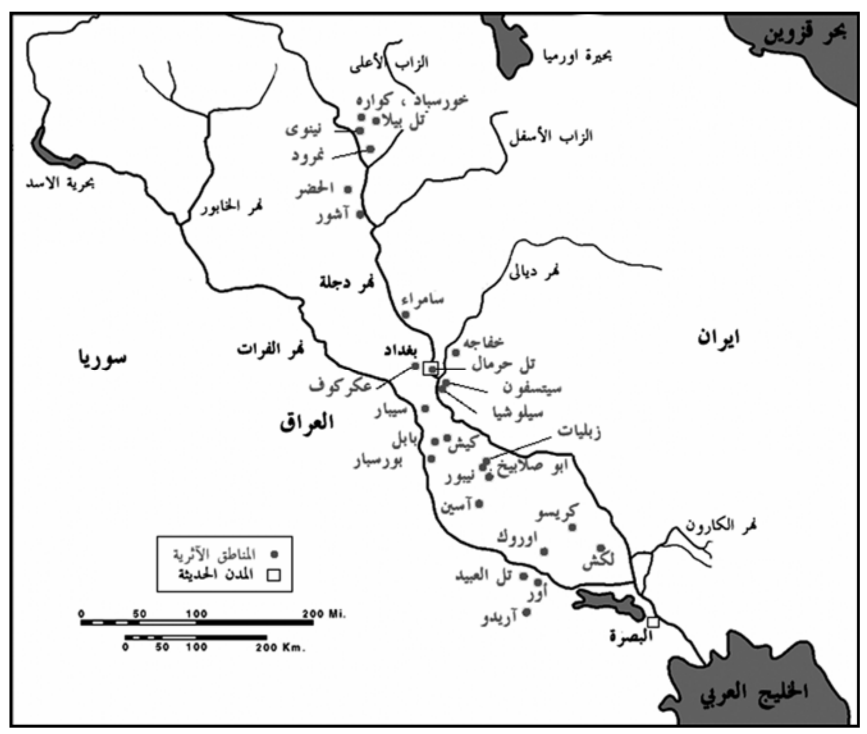
مثلما ذكرنا، أن عملية «التفريس» هذه لم يبادر بها الايرانيون، بل هي بالحقيقة من صنع المؤرخين العراقيين والعرب «المتعثمنين». أما كيف تم هذا «التفريس» وأسبابه فسوف نتطرق اليها لاحقاً. الآن نستشهد ببعض نماذج هذا «التفريس العروبي» الذي تخطى بتعنته وعنصريته حتى القوميين الايرانيين. يلاحظ أن عملية «التفريس» تضمنت عدة حلقات متداخلة: أولاً، الايحاء وكأن بلداننا كانت خالية من السكان قبل وصول العرب. ثانياً، الايحاء وكأن السكان الذين وجدهم العرب أمامهم ما هم إلا (جماعات) مهمشة معزولة (سريانية أو قبطية أو بربرية) يتم حسابها بسهولة على الأجانب، وفي العراق على الأعاجم «الفرس». ثالثاً، وهي الحلقة الأقوى التي تم تطبيقها خصوصاً على العراق، فبعد اخلائه من معظم سكانه وتفريس الباقين تم الاجهاز على كل العراق وعاصمته بغداد وحاضرته ودولته العباسية باعتبارها كلها محسوبة على «الفرس»! ونجد هذه الفكرة مكررة في معظم الكتب العربية، وها هي بعض النماذج:

اخلاء البلاد من سكانها

ـ يقول المؤرخ (ابراهيم أيوب): «وتولى الأعمال الكتابية في الخلافة العباسية الفرس، لأن الفرس كانت لهم القدرة الفائقة في الكتابة بينما كان العرب يفخرون بالسيف لا بالقلم»[32].
لاحظوا كيف وضعنا هؤلاء المؤرخون بين نارين: إما عرب بدو (يفخرون بالسيف لا بالقلم) أو فرس حضر (لهم القدرة الفائقة بالكتابة). ليس هناك من حل وسط: هناك عرب بدو، وفرس حضر، وما علينا إلا أن نختار واحداً من اثنين: أما أسلافنا العرب البدو أو خصومنا الفرس الحضر! هذا هو تاريخنا «العروبي» الذي ضحى بأسلافنا وتاريخهم الحضاري الطويل ونظف بلداناً من سكانها لكي لا يبقى فيها سوى «العرب والفرس»!

لو عدنا الى التاريخ الموضوعي المتخلص من عقدة القومية فإنه سيخبرنا بحقيقة ثالثة واضحة للجميع ولا يمكن أن ينكرها حتى الخصوم لأنها موجودة في أي كتاب يتناول حال المنطقة قبل الفتح العربي الاسلامي. بالنسبة للعراق، نستشهد بكاتبنا «المطهري» نفسه الذي يورد المقطع التالي متحدثاً عن دور العراقيين قبل الاسلام: «وكانت أهم ناحية من نواحي الدولة الشاهنشاهية الايرانية الساسانية أرض العراق ما بين النهرين والتي كانت ميداناً للحرب بين الساسانيين والرومان، وكان أكثر أمم هذه الأراضي من العنصر السامي

ويتكلمون باللغات السامية وأن أكبر خدمة قدمها هؤلاء لايران هي أنهم كانوا يترجمون علوم اليونان الى اللغة السريانية وهم الذين أشاعوا الطب والرياضيات والنجوم والفلسفة في ايران، وقد قام من بينهم علماء كثيرون وكانت لغتهم السريانية قد شاعت لدى البلاط الساساني بعد أن كانت اللغة الآرامية (العراقية أيضاً) هي اللغة الرسمية للدولة في ايران» (ج 1 ص 27).



الوجود البشري والحضاري في العراق

نعم هذه هي حقيقة العراقيين ودورهم أثناء السيطرة الايرانية قبل الاسلام ويمكننا أن نجد في كتب التاريخ نفس الحقيقة عن دور الشاميين والمصريين وأهل شمال افريقيا.

لكن مؤرخينا يصرون بهوس غريب على اعتبار بلداننا قاحلة إلا من الأعاجم الأجانب وأن أسلافنا عرب وتراثهم «البداوة والجاهلية». إن هذا الهوس «العروبي التفريسي» جعل مؤرخينا يخشون ويتجنبون ذكر أي شيء عن الفترة التي سبقت الفتح، بل حتى يصرون على تشويه الحقائق التاريخية المعروفة. وان اضطروا الى ذكر هذه الحقائق فانهم يفعلون المستحيل

لكي يحرفوا معانيها الى حد يجعل أي مراقب موضوعي يعتقد بأن هؤلاء المؤرخين العروبيين جعلوا من العروبة أقرب الى «القومية المازوشية» التي تتلذذ بجلد الذات والتنكر لمفاخرها وتضخيم أمجاد الخصوم!

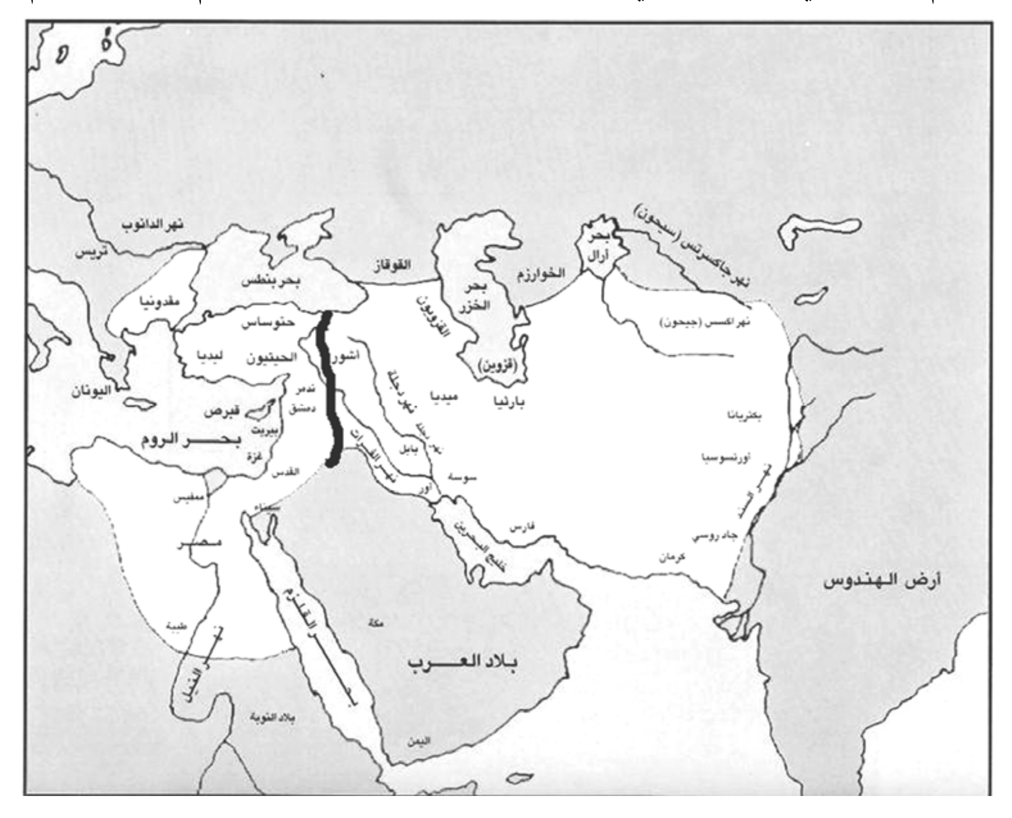
هاكم مثلاً مؤرخاً مثل (شكري فيصل)، يطرح نفس الموضوع أعلاه الذي طرحه (المطهري) عن نشاط العراقيين قبل الاسلام ولكن بطريقة محرفة مشوهة تصر على «التفريس»:

«شارك السريان الساكنون في الامبراطورية الساسانية في تطور الأدب السرياني... وان السريانية قد شغلت المقام الأول كأداة ثقافية أكثر من اللغة الفارسية نفسها»[33]. لنقارن بين المقطعين. (مطهري) رغم أنه ايراني، إلا أنه ذكر بتلقائية اسم (العراق ما بين النهرين) عند حديثه عن السريان. ولكن مؤرخنا العروبي (شكري فيصل) تحدث عن السريان: «الساكنون في الامبراطورية الساسانية»، هكذا، نعم، «الساكنون». كما لو يقال (الجزائريون الساكنون في الامبراطورية الفرنسية!) لقد ألغي تماماً اسم الوطن وأصبح أبناؤه (ساكنون لدى الدولة المستعمرة). كل هذا من أجل تجنب ذكر بأن هنالك بلد اسمه «العراق بلاد النهرين» وفيه شعب متحضر ناطق بالسريانية قبل أن يجيئه العرب!

لو تفحصنا مثلاً دور «الفرس» في عملية الترجمة والنهضة الحضارية الكبرى التي أحدثتها. جميع المصادر التاريخية القديمة والحديثة تعترف بدور الفرس المحدود جداً في الترجمة. ابن النديم في (الفهرست) يحدثنا عن بضعة كتب عن قصص ملوك فارس وعن حكايات (كليلة ودمنة) التي ترجمها الفرس عن الهندية. ليس هناك كتاب فارسي واحد في العلوم والفلسفة أو في التاريخ[34]. بينما على العكس، جميع المصادر تعترف بالدور الحاسم للعراقيين (السريان) الذين نقلوا ما لا يحصى من الكتب من اللغتين السريانية واليونانية الى العربية. يكفي أن نسجل هنا مثالاً واحداً على مدى غنى وعظمة الثقافة السريانية في بغداد العباسية: إن المترجم الشهير (حنين بن اسحق العبادي) وهو نسطوري من الحيرة (قرب النجف والكوفة) ولغته الأم هي السريانية، قام هذا المثقف الكبير بترجمة (39) كتاباً من اليونانية الى العربية، لكنه في نفس الوقت قام بترجمة (95) كتاباً الى السريانية وحدها[35]!

لكن مع هذا يصر مؤرخونا المعاصرون على تضخيم دور «الفرس» وتقزيم دور «العراقيين» ومعهم باقي الشعوب الأصلية في الشام ومصر وشمال افريقيا.

يقول المؤرخ (ابراهيم أيوب): «كانت الدولة الاسلامية قد اتسعت رقعتها وانفتحت على غيرها من الشعوب غير العربية من أصحاب الحضارات القديمة كالفرس والروم والهنود وهذا ما جعل المسلمين يقتبسون عن الحضارات التي احتكوا بها...»[36] لاحظ غياب أي ذكر للشعوب الأصلية التي تقطن البلدان العربية قبل العرب (الأقباط والسريان والبربر وغيرهم). هكذا في جميع كتب التاريخ المعاصرة يتم الحديث عن تأثير (الفرس والإغريق والهنود) من دون أية اشارة لدور السكان الأصليين للبلدان (العربية) المفتوحة: الآراميون في العراق والشام، الأقباط في مصر، البربر في شمال افريقيا. هؤلاء السكان معظمهم دخلوا الاسلام



خارطة التقسيم الامبراطوري قبل الإسلام

الامبراطورية البيزنطية والامبراطورية الفارسية الساسانية قبل الفتح الاسلامي . لاحظ ان الامبراطورية الفارسية كانت تشمل كل من بلاد النهرين وأرمينيا والقوقاس وافغانستان ومعظم تركستان. أما البيزنطية فتشمل كل السواحل الشرقية من البحر المتوسط لاحظ أيضاً أن العراق الحالي ظل دائماً موحداً حتى في ظل السيطرة الاجنبية .

المصدر : Histoire du Moyen – Orient – Bernard Lewis

واستعربوا وساهموا فعلياً ببناء دولة الخلافة وتكوين جيوشها وازدهار حضارتها. المسألة المهمة التي غابت عن المؤرخين الذين كتبوا عن المؤثرات «اليونانية والفارسية والهندية»، أنهم تناسوا المصدر الأهم والأكبر للثقافة والحضارة في العصر العربي الاسلامي: (الميراث السامي ـ العراقي الشامي) ثم (الميراث الحامي ـ المصري المغاربي). أليس الاسلام قلباً وقالباً ديناً سماوياً. الاسلام بتفاصيله ومعانيه وأفكاره وروحانيته ما هو الا خلاصة لأديان «المنطقة الشرقمتوسطية» (الآسيوية السامية ـ الافريقية الحامية) التي استعربت وأصبحت بلداناً عربية. الميراث الديني «الشرقمتوسطي»: العراقي الشامي المصري المغربي تجلى قبل الاسلام في الديانات المسيحية واليهودية والصابئية والتيارات والعرفانية (الغنوصية). هذا التراث العريق والفعال والجامع لثقافات الشرق والغرب كان المصدر الأول لتطور الفقه والثقافة والفكر في الاسلام. هل نسينا ان المسلمين عندما فتحوا هذه البلدان وجدوا أمامهم أغلبية ساحقة من المسيحيين بكنائسهم وخزانات كتبهم وفقهائهم وصراعاتهم الفكرية وطوائفهم المختلفة اليعقوبية والنسطورية وتياراتهم الفلسفية والروحانية والتنسكية والاشراقية العرفانية[37]. أليست شعوبنا هي التي صنعت المسيحية ونشرتها وكافحت من أجلها حتى فرضتها على المحتلين الرومان والبيزنط وجعلت أوربا تتخلى عن أديانها السابقة وتتبنى هذه الديانة الشامية السامية المشرقية؟ لا زالت المسيحية الأوروبية بموسيقاها وغنائها وروحانيتها وطقوسها وحتى ثبات قديسيها كلها تشهد على التأثير المسيحي السوري، بل ان بعض السوريين وصلوا الى منصب البابا في روما بعد أن سبق لهم تكوين سلالات من الأباطرة الرومان السوريين. وكانت مدينة «أنطاكيا» السورية مركز اشعاع حضاري وديني خلال عدة قرون وحتى الفتح. أما مصر فان مدينة «الاسكندرية» خلال ثمانية قرون وحتى الفتح تعتبر المركز الحضاري الأول لمنطقة البحر المتوسط ومركز التقاء التيارات الثقافية الشرقانية (السامية والحامية) واليونانية، ومن الاسكندرية انبثقت: (الغنوصية والأفلاطونية الجديدة والهرمزية)، وأنجبت أعظم العلماء والفلاسفة الذين تم احتسابهم على اليونان زوراً وظلماً مثلما تم احتساب التراث الشامي المسيحي كذلك على اليونان والرومان!

أما بالنسبة للدورالحضاري لشمال افريقيا، فيكفي الاطلاع على تلك الأسماء اللامعة التي شكلت تيارات هامة لعبت أدواراً معروفة في تاريخ المسيحية الشرقمتوسطية وتأثيرها المباشر على أوربا: (القديس ايروس الليبي) مؤسس الطائفة (الآريوسية) الشهيرة، و(القديس أوغسطين) (الفنيقي الجزائري) أول فلاسفة المسيحية، ثم (دونات) مؤسس (الحركة الدوناتية) ورائد أول حركة ثورية مسيحية ضد هيمنة الكنيسة الرومانية[38].

بالنسبة للعراق، عندما دخل المسلمون وجدوا أمامهم كنيسة بابل النسطورية التي كانت تضم 90٪ من العراقيين ومنتشرة كنائسها وأسقفياتها من نينوى حتى الأحواز وسواحل الخليج وقطرايا (امارة قطر الحالية). وكان المبشرون العراقيون النساطرة قد امتد نشاطهم وبنيت كنائسهم في تركستان والهند وحدود الصين. بالإضافة الى ايران حيث نافست النسطورية العراقية المجوسية الايرانية ودخلت حتى في البلاط الايراني مما دفع بشاهات ايران الى القيام بمذابح عديدة معروفة ضد نساطرة العراق. ويذكر لنا التاريخ دور الملكة الشهيرة «شيرين» زوجة الملك «كسرى الثاني ــ القرن السابع م» التي كانت مسيحية آرامية من مدينة (ميسان) في جنوب العراق[39]. لقد لعبت هذه الملكة دوراً مرموقاً بحماية النساطرة العراقيين. الى جانب الأغلبية الساحقة من النساطرة كانت هناك أقلية من «اليعاقبة» في تكريت والموصل، وهناك أيضاً طوائف نشطة من اليهود والمانوية البابلية والصابئة والدهريين (الدنيويين)، وجميع سكان النهرين كانت لغتهم الفصحى والدينية هي اللغة السريانية (المشتقة من الآرامية)، أما الناس فحسب مناطقهم يتكلمون بلهجات آرامية متنوعة شكلت الأساس للهجات العراقية الحالية. علماً بأن العراقيين قد تمكنوا في القرن الثالث من ابداع «الديانة المانوية» التي جمعت بين المسيحية وعبادة النجوم البابلية والصابئية. تمكن النبي «ماني البابلي» من نشر دينه وكنائسه من الصين حتى بلاد الغال. وقد ألف «ماني» سبعة كتب كلها باللغة السريانية، وبمبادرة من المبشرين العراقيين تم تكوين أول أبجدية تركستانية (الأبجدية الأيغورية) مشابهة للسريانية. لقد فرضت المانوية نفسها حتى على المجوس في ايران وشقت ديانتهم لتنبثق منها (المزدكية) الايرانية[40]. وظلت المانوية نشطة حتى أواسط العصر العباسي وأطلق عليها تسميات «الزندقة والمثنوية والمنانية» حتى هذه «الديانة المانوية البابلية» اعتبرها مؤرخونا المعاصرون جزءاً من المجوسية الايرانية. وخلطوا بينها وبين المزدكية الايرانية، علماً بأن (ابن النديم) قد تحدث عنها باسهاب في فهرسه، لم يشر بكلمة واحدة عن دور ما للفرس في نشاط المانوية والزندقة، وانما تحدث عنها كحركة عراقية وأنصارها في العراق!

إذن، هؤلاء السكان الأصليون في العراق والشام ومصر وشمال افريقيا (آراميون وقبط وبربر) اعتنقوا بأغلبيتهم الاسلام وتبنوا العربية والعروبة، فهل يعني هذا انهم يستحقون الالغاء من التاريخ واعتبارهم (شعوب منقرضة) كما يحلو لمؤرخينا المعاصرين الحديث عنهم. والحقيقة ان شعوبنا الأصلية هذه لم تنقرض بل ذابت حضارياً في الثقافة والدين الجديدين. لقد مرّت بحالة الذوبان وتغيير اللغة والدين هذه جميع شعوب الأرض طيلة فترات التاريخ.

لأن التاريخ يخبرنا دائماً أن «انقراض اللغة والدين» أسهل بكثير من «انقراض الناس». وأن عمليات الإبادة «العرقية» الفعلية للشعوب لم تعرفها البشرية إلا في القرون الأخيرة وعلى يد الأوروبيين بسبب امتلاكهم للأسلحة النارية ووسائل السيطرة والفتك والإبادة التقنية والطبية (مثال قارة أمريكا الشمالية).

أليس من المعقول أن تكون شعوبنا الأصلية هي المصدر الأول والأكبر في صنع الحضارة العربية الاسلامية التي نشأت واستقرت عواصمها في بلداننا: دمشق وبغداد والقاهرة؟ هل من المقبول أن يعترف مؤرخونا المعاصرون (إسلاميون وعلمانيون) بتأثير: «المجوسية الايرانية والروحانية الهندية والفلسفة الاغريقية»، مع تجنب الاعتراف بالتأثير الحاسم لميراث شعوبنا الأصلية بحجة (غير معلنة) بأنه ميراث (مسيحي ـــ يهودي) يقلل من دعوة انتساب شعوبنا للقبائل العربية الفاتحة؟ أليس من الظلم أن جميع المؤرخين العرب المعاصرين يذكرون المصادر (اليونانية والفارسية والهندية) للثقافة الاسلامية مع تجاهل المصدر الأول والأكبر لشعوبنا التي منحت الاسلام ميراث أربعة آلاف عام من الحضارات والابداعات العلمية والأدبية والدينية؟

تعجيم السكان وتغريبهم

بعد أن أتم مؤرخونا إخلاء العراق من سكانه الأوائل فإن المرحلة الثانية تمثلت بتغريب وتعجيم الباقين ممن أسلموا (الموالي) والتعامل معهم كأجانب متطفلين على بلادهم ودولتهم. اسمعوا ماذا يقول مؤرخنا الكبير (أحمد حسن الزيات) عن العصر العباسي في بغداد: «وأطلق الخلفاء أيدي الموالي في سياسة الدولة واستبدوا بأمورها وكالوا للعرب من الحقارة والمهانة صاعاً بصاع. فضعفت العصبية العربية، وعلا صوت الشعوبية، ونتج عن ذلك دخول العناصر الفارسية والتركية والسريانية والرومية والبربرية في تكوين الدولة، وتمازجهم بالتزاوج والتناسل...»[41]. لاحظ مؤرخنا كيف يرثي حال العرب الذين لم يسمحوا فقط بإشراك هؤلاء «الموالي الأعاجم» في الدولة، بل تركوا الدماء العربية تتلوث بدماء هؤلاء الموالي من خلال التزاوج والتناسل! بالاضافة الى وضع الجميع في جبهة واحدة، والعرب في الجبهة المقابلة. والطريف ان كاتبنا اعتبر الجميع «موالي أعاجم»، لكنه استثنى ذكر «الأقباط» لأن وطنيته المصرية منعته من تغريب وتعجيم أشقائه «الأقباط» وجرح مشاعرهم، أما الآخرون فلا يهم!

يبلغ الحرج بهؤلاء المؤرخين من أجل الاعتراف بدور العراقيين المتميز في صنع الحضارة العباسية الى حد الاضطرار للاعتماد على الطروحات العنصرية المعروفة ضد الشعوب

السامية. ترى مؤرخنا (الزيات) يشرح النزعة العقلية التي سادت لدى أهل العراق في ذلك الوقت فيقول: إن «القياس في استنباط الفقه.. بتأثير الجنسية الآرية فيهم» (ص 436). نعم هكذا، فأهل العراق «عرب بدو» لا يعرفون غير الصحراء وخيالاتها وروحانيتها والنزعة العقلية لا تأتيهم إلا من «الآريين الايرانيين»! لقد أصاب العمى القومي مؤرخنا بحيث جعله يتناسى حضارة أربعة آلاف عام سبقت الاسلام وسبقت حتى الوجود الآري في ايران وان العراقيين هم الذين أسسوا علوم الرياضيات والطب والفلك والنجوم وحساب الزمن والهندسة، هذا باعتراف جميع المؤرخين. بل إن العالم الفرنسي الشهير (جان بوترو)[42] طالب بتدريس حضارة النهرين في المناهج الدراسية الأوروبية قبل دروس الحضارة اليونانية والرومانية باعتبارها الأساس الذي انطلقت منه الحضارة الانسانية.

إن حمى «تفريس» سكان العراق شملت جميع المؤرخين حتى مؤرخ جاد مثل «فيليب حتي» فهو مثلاً في كتابه الشهير عن (تاريخ العرب) يتبنى مثل الباقين عملية «تفريس» الشخصيات العراقية بصورة تتنافى مع العلمية والجدية التي يتصف بها عادة. تراه مثلاً يتحدث عن أحد الأطباء في زمن العباسيين: «وقد اشتهر طبيب يهودي بصري الأصل فارسي الجنس يدع ماسرجويه.. قام بترجمة كناس سرياني الى العربية..»[43]. تصوروا، طبيب يهودي ومن أهل البصرة وترجم من السرياني الى العربي.. طيب من أين أتاه هذا«الجنس الفارسي»؟ طبعاً السبب الوحيد لتفريس هذا الطبيب العراقي البصري، ان اسمه (ايراني). لماذا إذن لا يحتسب علماء ايران على العرب ما داموا كلهم حملوا الأسماء العربية؟!

يبلغ هذا الفهم العرقي القومي لدى بعض المؤرخين حد الابتذال والتبجح بالتعصب الطائفي والقومي. ها هو أحدهم ويدعى (الدكتور محمد شريف) صاحب كتاب معنون (القادسية الكبرى) والصادر عام 1986 دعماً لسياسة الحكومة العراقية. خلال جميع صفحات الكتاب البالغة (611 صفحة) كافح مؤرخنا العروبي بكل شهامة من أجل «تفريس» ليس تاريخ العراقي وحده، بل كذلك القسم الأكبر من التاريخ العربي وخصوصاً المتعلق بالشيعة:

ـــ كالعادة ابتدأ بتعجيم وتهميش سكان العراق الأصليين (الأنباط)، إذ يقول عنهم تهكماً: «إنهم جماعة أطلق عليهم اعتباطا أو تندراً لقب الأنباط يعملون في الزراعة للدهاقين الفرس»[44]. هكذا عدة ملايين من الفلاحين اعتبروا «جماعة» يعملون في الزراعة للدهاقين الفرس!

وبعد أن أتم الخطوة الأولى بدأ هجومه «التفريسي» الكاسح ضد التاريخ العراقي والعربي :

ــ مؤسس السبئية (فرقة شيعية) عبد الله بن سبأ اليهودي المجوسي بن الأمة السوداء (ص132). «القرامطة وحركة الزنج كلها بقيادات فارسية». وان «الباطنية والدولة الفاطمية (في المغرب ومصر وسوريا) قد مهد لها ميمون القداح الديصاني المجوسي اليهودي» (ص154). «ومدينة السلمية قرب حماه مقر الاسماعيلية زعيمها فارسي» (ص157). و«مذهب النصيرية (علوية سوريا) له علاقة باسماعيل الصفوي (الفارسي)» (ص 158). إن «المانوية والسبئية وآراء يوحنا الدمشقي والغنوصية، كل هذه مهدت السبيل الى ظهور الزندقة والشعوبية والحقد على العرب حملة الرسالة»(ص 151)!

تفريس العراق ودولته العباسية

بعد أن أنجز المؤرخون عملية «تفريس» سكان العراق الأصليين قبل الاسلام ثم بعد الاسلام لم يبق لهم غير «تفريس» كل العراق وعاصمته بغداد ودولته العباسية. هذه بعض النماذج :

ـ الزيات يقول : «أما الدولة العباسية فقد اصطبغت بصبغة فارسية، لأن الفرس هم الذين أوجدوها وأيدوها، فاتخذت قصبتها بغداد أقرب الأمصار الى بلادهم» (ص233). هكذا اذن، تم اختيار (بغداد) لأنها قريبة من ايران! لا ندري عن أي «فرس» يتحدث هؤلاء المؤرخون؟ هل كان العباسيون قريشيين عراقيين أم فرس؟ الحركة العباسية تأسست ونشطت وانتشرت في العراق وأنصارها وكوادرها ومثقفيها من العراقيين، وحتى الخراسانيين الذين ناصروها (تركستان وايرانيين) كانوا تحت قيادات ونخب من العراقيين (عرب وموالٍ) الذين أقاموا في خراسان بعد الفتح. مقر قيادة الحركة العباسية لم يكن في ايران بل في «الأردن» (قرية الحميمة) جنوب البحر الميت[45].

طيب، إذا كانت الدولة العباسية فارسية، لماذا لم يختر هؤلاء الفرس عاصمتهم في ايران نفسها؟ ألم يختر الفاطميون القاهرة، والأندلسيون الأندلس، فما الذي منع الفرس من تأسيس العاصمة في بلادهم؟ ثم لماذا لم يختاروا خليفة ايرانياً؟ ألم يختر الأتراك العثمانيون خليفة من عندهم على كل المسلمين وجعلوا العاصمة (اسطنبول) في بلادهم، وظلوا يحكمون العرب والمسلمين لما يقرب الخمسة قرون! ثم عن أية صبغة فارسية يتكلمون، وقد تخلى الايرانيون

طوعاً خلال أقل من قرنين عن دينهم المجوسي الذي اعتنقوه لما يقرب الألف عام! ثم اللغة الفارسية أي دور لعبت في زمن العباسيين، ألم تكن العربية هي السائدة حتى في ايران، بل ان لغتهم الفارسية تغيرت تماماً بتأثير العربية وانفصلت عن اللغة السابقة (البهلوية). لو كان الايرانيون بذلك الحضور الأسطوري المنفوخ لماذا لم يفرضوا لغتهم مثلما فعل العثمانيون بفرضهم التركية على دولة الخلافة العثمانية وادارتها رغم ايمانهم بالاسلام والقرآن!

ـ أما مؤرخنا (جورجي زيدان) فانه بكل بساطة أطلق على العصر العباسي (العصر الفارسي)، ويقول: «إن الدولة العباسية قامت بالفرس وفيهم الموالي وأهل الذمة»[46]. ان مؤرخنا يحتسب سكان العراق (الموالي وأهل الذمة) على الفرس! لكنه بعد فصل يضطر ان يذكر حقيقة أساسية تكشف عن مدى زيف المبالغة بدور الفرس في الدولة العباسية: «من بين 13 خليفة عباسي لأم غير عربية، هناك المأمون فقط أمه فارسية» (ص 429). نعم المأمون فقط كانت أمه فارسية. وباقي الأمهات كن عراقيات ومصريات وسريانيات وبربريات وأرمنيات وتركستانيات وغيرهم. وأشهر أمهات الخلفاء العباسيين التي لعبت دوراً سياسياً متميزاً في التاريخ، لم تكن فارسية، بل هي «الخيزران» أم الخليفة هارون الرشيد التي كانت من أصل (بربري مغربي، أو يماني)[47].

ـ مؤرخنا وناقدنا الكبير (أحمد أمين) في كتابه الأساسي (فجر الإسلام) يعطي للفرس الدور الأول والحاسم في كل شيء، إنه بكل سهولة وتلقائية اعتبر العراق كله جزءاً من «بلاد فارس»! تراه مثلاً للتدليل على دور الفرس في التأثير على فن الكتابة العربية، فانه يستشهد بالدور الكبير الذي لعبه كاتب الأمويين (عبد الحميد الكاتب). وللتأكيد على «فارسية» هذا الكاتب اسمعوا مؤرخنا ماذا يقول عنه: «ان عبد الحميد من الموالي وأصله من الأنبار» ثم يضع ملاحظة في أسفل الصفحة: «الأنبار: مدينة على الشاطىء الأيسر للفرات في الشمال الشرقي من العراق»[48]. نعم هكذا للتدليل على فارسية الشخص يكفي أن نثبت انه من العراق. علماً أن مدينة الأنبار تبعد مئات الكيلومترات عن ايران وهي محاذية تماماً لسوريا ولبادية الشام وسكانها متأثرون كثيراً بالقبائل البدوية، هي منذ القدم مدينة سامية عربية عراقية خالصة تماماً، فكيف حصل أن أصبح أبناؤها محسوبين على الفرس؟

ـ (فيليب حتي) يقول في معرض حديثه عن بناء بغداد: «اختار المنصور قرية فارسية على الضفة الغربية لدجلة موقعاً يبني فيه عاصمته بغداد»[49] هكذا بسهولة عجيبة تمتلىء كتب

التاريخ بهذه المفاهيم السريعة والبديهية الى حد القرف. عن أية قرية فارسية يتحدث هذا المؤرخ وهو يعرف جيداً بأن بغداد في وسط العراق، والعراق كله باعتراف هذا المؤرخ كان آرامياً مسيحياً ثم إسلامياً عربياً فمن أين أتت هذه القرية الفارسية لتصبح مكاناً لعاصمة الخلافة؟ لو افترضنا ان اسم «بغداد» من أصل فارسي، فهل هذا يكفي للقول بأنها قرية فارسية. هل يصح القول أن (طهران) عربية بالاعتماد على اسمها فقط؟ وهل (طرابلس) يونانية؟ ثم ان اسم «بغداد» لم يثبت أبداً أصله الفارسي بل هناك فرضيات عدة. ها هو (أمين الريحاني) يقول: «بغداد بابلية الأصل. فقد أسسها نبوخذ نصر في المكان الذي دارت فيه رحى الحرب بينه وبين أعدائه، تذكاراً لانتصاره عليهم، وأسماها «بعل داد» أي مدينة بعل... وقد اكتشف عام 1848 في الجانب الغربي في الكرخ بقية حصن مبني بالآجر عليه اسم نبوخذ نصر وفتوحاته»[50] (علماً أن حرفي العين والغين يتبادلان في اللغات السامية مثل كلمتي عرب وغرب).

أن يكون اسم (بغداد) عراقياً سامياً هو أمر طبيعي، خصوصاً اذا علمنا ان الأغلبية الساحقة من أسماء المناطق العراقية هي أسماء (سومرية ـ أكدية ـ آرامية) سبقت العرب، مثل: سامراء وبعقوبة والبصرة وكربلاء وميسان ونينوى وكركوك واربيل والكوفة والنجف ودجلة والفرات، وغيرها العديد من الأسماء[51]، بل ان الكثير الكثير من المسميات التي نعتقدها عربية في العراق هي ميراث عراقي سابق للعرب. منها مثلاً، أسماء الأشهر الميلادية الحالية الموروثة من تقويم السنة البابلية التي تبدأ بشهر نيسان وتنتهي بآذار، نجد بقايا هذا النظام البابلي في ترتيب الأبراج الذي يبتدىء بالبرج الأول (الحمل) في نيسان[52].

إننا على هذا المنوال يمكننا أن نستشهد بعشرات الكتب المؤلفة من قبل عراقيين وعرب، أما بالنسبة لتلك المؤلفة من قبل المستشرقين فانها عموماً لا تختلف عن الكتب العربية بسبب التأثير المتبادل بين الطرفين في هذا المجال. هناك كتب لا يمكن أن نستشهد ببعض مقاطعها لأنها منذ أول صفحة حتى آخرها تعلن عن عنصريتها (القومية المازوشية) بأسم (النقاء العروبي) ومعاداة (الفرس المجوس) تعتبر كل شيء أنتجته الحضارة العباسية هو فارسي من دون أي جدل: «الثياب الزاهية والقصور الفخمة والخمرة والغزل وحب الورود والنساء والغلمان والأفكار والتيارات الشيعية والمعتزلة والتصوف والدولة الفاطمية وثورات القرامطة والزنج». كل شيء يصبح بالنسبة لهؤلاء القوميين فارسياً زنديقاً شعوبياً مجوسياً، بصورة تبلغ حد



هذه الخارطة تكشف عن ضخامة التواجد المسيحي حول بغداد العباسية والعدد الكبير للأديرة والكنائس المنتشرة في جميع أنحاء العراق.

المصدر : تاريخ الكنيسة السريانية البيرابونا : ج2

الهوس المرضي! نسجل هنا بعض هذه الكتب الزاخرة في كل صفحة بالأمثلة التفريسية الى حد السريالية والفنتازيا والهذيان: (الدكتورة زاهية قدورة – الشعوبية وأثرها)، (الدكتورعبد الله الغريب – وجاء دورالمجوس)، (الدكتورمحمد شريف – القادسية الكبرى)، (الدكتور عبد العزيز الدوري – الجذور التاريخية للشعوبية).

النخب «المتعثمنة» والتعصب الطائفي ـ العروبي

الأمر الذي يجلب الانتباه ويستحق البحث والاهتمام ان هذا التضخيم «الهوسي والمرضي» لدور الفرس ليس له أي أثر في المصادر التاريخية المعروفة التي كتبت في تلك الفترة مثل: (تاريخ الطبري) و (فهرست ابن النديم) و (معجم البلدان لياقوت الحموي) و (كتب ورسائل الجاحظ)، والعشرات من المصادر التاريخية الأخرى التي تمكنا من الاطلاع عليها. جميع المصادر تذكر الفرس بصورة معقولة جداً وتشيد بدورهم مع ذكر الشعوب الأخرى من دون مبالغة ولا تعصب. (مقدمة ابن خلدون) أفضل مثال على الرؤية الموضوعية الانسانية للتاريخ العربي الاسلامي. إنه يكتب التاريخ من دون تعصب لأي جهة ويذكر الجميع بخيرهم وشرهم. تراه رغم افتخاره بأصله العربي اليماني «الحضرموتي» فانه لا يتوانى عن القول: «إن العرب أبعد الناس عن الصنائع... والسبب في ذلك أنهم أعرق في البداوة وأبعد عن العمران الحضري.. وأن عجم المغرب من البربر مثل العرب في ذلك لرسوخهم في البداوة..» (ص730). لكن اعترافه ببداوة العرب لا يجعله أبداً يقع في مطب «التفريس» الذي وقع فيه مؤرخونا القوميون ولا تراه يتحدث عن (اليونان والفرس والهنود) دون أي ذكر لشعوبنا الأصلية. لا، انه على العكس يمنح الدور الأول في تكوين الحضارة العربية الاسلامية لشعوب المنطقة الأصليين تراه يقول: «لم يكن على وجه الأرض لهذا العهد أحضر من أهل الشام والعراق ومصر» (ص 658). ثم انه يعترف بدور «الفرس» الحضاري ولكن من دون أية مبالغة وهوس وبالتساوي مع الشعوب الأخرى: «فالفرس طالت مدتهم (بالحضارة) آلافاً من السنين وكذلك القبط والنبط والروم» (ص638). ثم انه يعترف بدور مصادر الحضارات الأخرى التي تلفت معظمها حسب تصوره: «أين علوم الفرس التي أمر عمر بمحوها عند الفتح، وأين علوم الكلدانيين والسريان وأهل بابل، وما ظهر عليهم من آثارها ونتائجها، وأين علوم القبط من قبلهم»(ص 63). طالما كرر مؤرخونا المعاصرون مقولة (ابن خلدون) المعروفة: «إن حملة العلم في الاسلام أكثرهم من العجم» (ص 1047). لكنه أبداً لم يفهم كلمة «عجم»

على أنها تعني «الفرس» ، بل فهمها بمعنى «غير الناطقين بالعربية» كما بينا سابقاً. تراه يقول : «حملة الحديث الذين حفظوه على أهل الاسلام أكثرهم عجم أو مستعجمون باللغة والمربى لاتساع الفن بالعراق» (ص 1049). ثم يذكر (ابن خلدون) دور أهل بابل الذين أوجدوا (علم التنجيم والفلك) الذي أسماه (السحر والطلاسم) وتراه يشير بكل صراحة ووضوح كيف ورث علماء العراق والمشرق هذا العلم من أسلافهم. يقول «وجود السحر في أهل بابل وهم الكلدانيون من النبط والسريانيين فكثير.. وفي أهل مصر من القبط وغيرهم وكان لهم فيها التأليف والآثر ولم يترجم لنا من كتبهم فيها الا القليل، مثل الفلاحة النبطية لابن وحشية من أوضاع أهل بابل فأخذ الناس منها هذا العلم وتفننوا فيه.. ثم ظهر في المشرق جابر بن حيان كبير السحرة في هذه الملة» (ص 924). ان (ابن خلدون) بوعيه التاريخي الشامل أدرك دور شعو بنا الأصلية باغناء ميراث البشرية يقول : «وكان الكلدانيون ومن قبلهم السريانيون ومن عاصرهم من القبط عناية بالسحر والنجامة وما يتبعها من الطلاسم، وأخذ ذلك عنهم الأمم من فارس ويونان» (ص 890).

إذن، إن عملية «التفريس» المعاصرة ليس لها أي أساس علمي في المصادر التاريخية الأصلية.في الحقيقة ان عملية «التفريس» هذه للتاريخ العراقي تعود أساساً الى نهاية الفترة العثمانية أي في القرن الماضي حينما بدأت أولى بوادر النهضة الثقافية وإعادة كتابة التاريخ العربي الاسلامي. من المعروف أن النخب المثقفة في العراق والشام رغماً عنها تبنت الكثير من مواقف الدولة العثمانية المسيطرة التي كانت تخوض الصراع المرير والدامي ضد خطر الدولة الايرانية. المشكلة ان السلالات التي حكمت ايران منذ القرن السادس عشر (الصفوية ثم القاجارية) كانت ناطقة بالتركستاني مثل العثمانيين ؛ وهذا يعني أن الشيء الوحيد الذي كان يفصل الايرانيين عن العثمانيين، لا اللغة ولا القومية ولا الدين، بل هو «المذهب» وحده.

على هذا الأساس أخذ الصراع المذهبي بُعداً سياسياً وحضارياً وصار الانتماء الطائفي أشبه بالانتماء القومي. كل «الشيعة» في العالم صاروا تلقائياً محسوبين على ايران، وكل «السنة» صاروا محسوبين على الدولة العثمانية. حدة المشكلة تركزت أساساً على العراق. من سوء حظه أن الايرانيين اعتنقوا «المذهب الشيعي الجعفري» الذي مقر عتباته المقدسة وحوزته العلمية في العراق. أما العثمانيون فقد اعتنقوا «المذهب الحنفي» الذي كان يسمى (مذهب أهل العراق) ومؤسسه الفقيه العراقي (أبو حنيفة) المدفون في بغداد[53]. إذن تكاملت المأساة وأصبح العراق

البائس الجريح مركز مذهبي هذين العملاقين المتصارعين و«ساحة حربهما المقدسة» وصار الشعب العراقي كبش فداء لفروض الحج الدامي وبالذات الأغلبية الشيعية. بكل بساطة احتسب العثمانيون هؤلاء الشيعة العراقيين على ايران وتم اعتبارهم نوعاً من الرتل الخامس. خلال أربعة قرون ظلت ايران تكافح المستحيل من أجل انتزاع العراق وعتباته الشيعية المقدسة من العثمانيين. بين حين وآخر تجتاح ايران العراق وتنتزعه من الأتراك وتشرع بالمذابح ضد السنة وتنبش قبر (أبي حنيفة). وسرعان ما يعود الأتراك ليعيدوا جثمان (أبي حنيفة) الى وضعه ويشرعوا بالمذابح والقمع ضد الشيعة.. وهكذا لأربعة قرون! لقد بذلت ايران الجهد والمال والذهب من أجل كسب شيعة العراق وجرهم لنصرتها. وكانت جموع الحجاج الايرانيين لا تتوقف وجثث موتاهم القادمة الى مقبرة النجف كانت هي التجارة الأولى الرائجة بين العراق وايران، بل كان الأمر يصل أحياناً الى حد تهريب هذه الجثث سراً بين البضائع الأخرى[54]! أما طلاب العلم الايرانيون فقد ظلوا دائماً هم الأغلبية في الجامعات والحوزات الشيعية العراقية. خلال هذه القرون تمكنت ايران فعلاً من أن تؤثر في جزء مهم من النخب الشيعية العراقية وتبث فيهم روح التعاطف والتعلق الخاص بايران. بل ان الكثير من قادة هذه النخبة الدينية العراقية كانوا بصورة أو أخرى من أصول ايرانية أو نتيجة تزاوج عراقي ايراني ولهم علاقة متميزة مع ايران. طبعاً مقابل هذا، فان الدولة العثمانية جرت الى جانبها النخب السنية العراقية وفضلتهم في المكاسب السياسية والعسكرية والاقتصادية لقاء تهميش شيعة العراق وعزلهم عن كل ما يتعلق بالدولة ومؤسساتها الادارية والعسكرية والتعليمية.

في ظل هذه الوضعية المتوترة قامت النخب العراقية والشامية والمصرية «المتعثمنة» بكتابة التاريخ العربي، والعراقي خصوصاً في ظل تلك الأجواء المشحونة بالتعصب الطائفي والصراع الايراني ـ التركي كُتب تاريخ العراق الأموي والعباسي. والمشكلة أن هذا التعصب العثماني المعادي للشيعة ولايران التقى مع التيار «القومي العروبي» الذي وقع في الفخ العثماني وتبنى الفهم العرقي للتاريخ بتأثير من أيديولوجية «القومية الجرمانية» التي كانت مؤثرة في النخب العثمانية على غرار الألمان، قام الأتراك بصنع قوميتهم على أساس «القومية الطورانية» واعتبار الشعب التركي جزءاً عرقياً بيولوجياً من «الوطن الأم» في طوران (تركستان) في آسيا الوسطى[55]. على غرار الأتراك قام دعاة القومية العربية باعتبار شعوب العراق والشام وباقي البلدان العربية منحدرة عرقياً من «الوطن الأم» الجزيرة العربية[56]. ثم ان هذه النخب العربية «المتعثمنة» ورثت أيضاً عقدة خاصة بالأتراك تتمثل بحقيقة تأثير الثقافة

الفارسية على الشعوب التركستانية منذ أيام الامبراطورية الساسانية واستمرار تأثير الثقافة الفارسية على الثقافة التركية العثمانية.

على أساس هذا الفهم «العروبي العرقي» الممتزج بالطائفية العثمانية وعقدة النقص التركية ازاء الحضارة الايرانية، تمت كتابة التاريخ الاسلامي العربي بطريقة قومية طائفية معاصرة. في جو الرعب الايراني الشيعي تمت غربلة تاريخ الحضارة العربية الأموية العباسية وذلك برمي كل ما هو مشكوك في نقاء عروبته في «مزبلة الشعوبية الفارسية»! هكذا اذن وقعت نخبنا المثقفة في المأزق التركي العثماني وتبنت مفاهيم «العروبة العرقية الطائفية» وأعلنت الحرب الشعواء ضد كل ما له علاقة بالفرس والشيعة. من أجل تضخيم الدور السلبي «للعدو الفارسي» ثم تضخيم الدور الكلي لهؤلاء الفرس، بحيث حُسِبَتْ عليهم كل تفاصيل الحضارة في بغداد والعراق: الإلحاد والزندقة (فارسية)، الطرب والفن والخلاعة (فارسية)، التغزل بالجواري والغلمان والخمرة (فارسية)، التشيع والمانوية والباطنية (فارسية)، الشعوبية والتمرد والثورة (فارسية). لم يُترك شيء من الحياة والحضارة والابداع إلاونُسب الدور الأول والأكبر فيه للفرس. بل حتى الأعلام والمبدعين اللذين من أصول تركستانية وقفقاسية وأرمنية وهندية وسندية تم احتسابهم على الفرس، مثل (ابن سينا والفارابي والخوارزمي والبيروني) لمجرد أنهم ليسوا «عرباً أقحاحاً»!



تأثير العقدة الإيرانية في الحاضر العراقي

بما أن الشعوب مثل الأفراد، بقدر ما يكون الاحساس بالماضي هشاً والارتباط به ممزقاً، بقدر ما يكون الارتباط بالحاضر كذلك هشاً وممزقاً. بعد أن تم تصفير الدور العراقي في الحضارة العربية الاسلامية وتضخيم «البعبع الفارسي» في هذه الحضارة انعكس الأمر مباشرة على الواقع السياسي والثقافي للمجتمع العراقي. هكذا خلقت في العقل الباطن العراقي «عقدة نفسية ــ سياسية ــ ثقافية» تمس مباشرة الاحساس بقيمة الذات الوطنية التاريخية وهذه العقدة يمكن تسميتها بكل بساطة: «العقدة الايرانية». هذه العقدة تتغذى من مصدرين: أولهما هو الماضي الذي تم «تفريسه» وتمزيقه، والثاني هو الحاضر المهدد دائماً بما يسمى بـ «الخطر الايراني». وظل الهدف الخفي غير المعلن من كل عملية التشويه هذه خدمة

الضرورة السياسية العثمانية الكبرى: احتساب شيعة العراق (والبلدان العربية) على الفرس «الزنادقة المجوس» واعتبارهم جاليات أجنبية مشكوك بولائها، وبالتالي تبرير عزلهم وقمعهم وحتى طردهم من الوطن. هذا ما مارسته فعلاً الحكومات العثمانية في جميع مناطق الشيعة وحتى خارج العراق. في مكة والمدينة مثلاً حتى أواسط القرن الماضي كان الجزء الأكبر من السكان في هاتين المدينتين هم شيعة[57]، والآن لا يوجد في هاتين المدينتين أي أثر لهؤلاء الشيعة. والسبب أن العثمانيين والوهابيين رغم عدائهم وحروبهم الدامية إلا أن مصلحة الاثنين التقت في محاربة الشيعة من خلال المذابح والتهجير والإجبار على تغيير المعتقد. سياسة العزل والإفقار والإبعاد مورست في البحرين والإحساء وسوريا ولبنان، أما في العراق فقد واصلت الحكومات العثمانية ثم العراقية عمليات الطرد المستمرة للجماعات الشيعية التي وصلت ذروتها في الثمانينات بطرد ما يقارب مليون عراقي الى حدود ايران بحجة عدم ثبوت أصولهم العراقية العربية النقية[58].

هكذا إذن فعلت النخب «المتعثمنة» في تاريخنا وحاضرنا. بسبب مصالح طائفية ضيقة وبسبب تبعية قرون للدولة العثمانية تمت التضحية بتاريخ الوطن وحاضره ومستقبله. رغم زوال العثمانيين إلا أن عقليتهم التي زرعوها خلال قرون ظلت تنمو وتثمر في عصرنا الحديث. ثم ان الانكليز اللذين شكلوا الدولة العراقية الحديثة تبنوا نفس اللعبة ودعموا عملية الهيمنة الطائفية وتشجيع حالة عزل الشيعة من أجل تطبيق سياسة «فرق تسد»[59]. حتى عندما حاول الملك الراحل (فيصل الأول) التخلص من هذه الحالة الطائفية فانه عانى من مصاعب كثيرة انتهت بموته المشكوك بأسبابه. ان التيار القومي العربي الذي فرض هيمنته السياسية والثقافية استمر بالعزف على وتر «الخطر الايراني». من خلال التبجح بالعلمانية والنقاء العرقي العربي استمرت اللعبة الطائفية العثمانية واستمر تشويه التاريخ العراقي والمغالاة بتفريسه واتهام خيرة أعلامه ومبدعيه بالميول «الشيعية الفارسية المجوسية اليهودية الشعوبية الزندقية» (هذه العبارة الأخيرة ليست مبالغة من عندنا بل مذكورة في عدة كتب تطرقنا لبعضها في دراستنا). وصل الأمر الى ذروته في الثمانينات عندما تم تحطيم تمثال الشاعر العراقي الأحوازي المعروف «أبو نواس» بعدما صدرت فتوى قومية باعتباره فارسياً!

إن هذه النظرة العنصرية «التفريسية» من القوة والتأثير بحيث أنها دخلت في جميع كتب التاريخ وتربت عليها في العصر الحديث أجيال وأجيال من الطلبة والمثقفين والسياسيين والمؤرخين ودخلت حتى في الذهنية الشعبية بحيث صار من الطبيعي الاعتقاد بأن «التشيع»





خارطة الأحواز التابعة حالياً لأيران

هذه خارطة منطقة الأحواز(عربستان) تبين الفرق بين الاحواز (الصغرى) بحجمها التاريخي المعقول والواقعي، و(الاحوزا الكبرى) المبالغ بحجمها إذ تشمل كل الساحل الايراني من الخليج والذي تطالب بها الحركات الاحوازية، لانها مقطونة بسكان عرب! كذلك خارطة (ولاية الاحواز) الحالية وتقسيماتها الادارية بعد(تفريس) مسمياتها من قبل الحكومة الايرانية، بما فيها اسمها (الاحواز) الذي اصبح(خوزستان) ويعني(ارض الاحواز)!

علماً بأن الأحواز ظلت دائماً جزءاً تابع حضارياً وسكانياً للعراق، واحيانا اداريا وسياسيا. ويكمن السبب في أن هذه المنطقة هي أمتداد جغرافي طبيعي لسهل جنوب العراق. منذ فجر التاريخ كانت فيها الحضارة العيلامية التي ظلت خلال ألفي عام تابعة حضارياً ودينياً للسومريين والساميين. علماً ان العيلاميين شعب (أسياني) مثل السومريين وهم سكان المنطقة منذ التاريخ المجهول. بعدها أنتشرت المسيحية النسطورية بين سكان الأحواز وكذلك اللغة الآرامية العراقية، وتكونت فيها مدينة (جندشابور) الشهيرة بكونها مركزاً علمياً حضارياً للثقافة السريانية المسيحية وكذلك الأغريقية. وكان الأسم السرياني لهذه المدينة هو (بيت عابات – بيت العيبة أو الهزيمة). بعد الفتح الاسلامي انتشرت اللغة العربية وأصبح السكان جزءاً من سكان وعشائر جنوب العراق، لكنها الآن ومنذ عام 1925 أصبحت جزءاً تابعاً لأيران وتعاني من عمليات التفريس المستمرة.

العراقي والعربي هو من أصل فارسي، وان جميع جوانب الحياة والثقافة في العراق الحديث والتي لم يثبت قدومها من الجزيرة العربية ــ بالتأكيد ــ يجب أن تكون فارسية: الموسيقى والغناء والطبخ والحرفيات والثياب والطقوس الدينية، وحتى الكلمات والأسماء (العراقية القديمة ـ السومرية ـ الآرامية) بما أنها غير عربية فهي تلقائياً فارسية[60].

إن هوس «التعريب» و«التفريس» شمل حتى المواطنين العراقيين. فكل مواطن عراقي لم تثبت أصالته العربية وأنه من أحفاد «قحطان وعدنان» فان عراقيته مشكوك بها، حتى لو كان مستوطناً في العراق منذ الف عام. ترى العراقي قد تعود أن يفعل المستحيل لكي يثبت للآخرين ليس عراقيته فحسب بل قبل كل شيء عليه أن يثبت «أصله العربي» وأنه من جد يعود الى بني «لخم أو تنوخ أو خناعة»! أفضل دليل على مدى «الأسطورية والتوهم» التي لجأ اليها العراقي خلال قرون من القسر أو الإغراء من أجل الادعاء بأي «لقب عربي أصيل»، هو هذا الكم الهائل من العوائل والعشائر العراقية التي تدعي الأصل «القريشي الهاشمي العلوي» من الذين يطلق عليهم بالعراقي «سيد شريف». الباحث «حنا بطاطو» يذكر لنا أرقاماً عجيبة عن عدد السادة في العراق والمنتشرين بين الشيعة والسنة، وبين العرب والأكراد والتركمان، وفي المدينة والريف والبادية. حتى عام 1936 كانت حصة هؤلاء «السادة» في رئاسة الوزراء قد بلغت (2,69٪)[61]. بل الطريف ان لقب «سيد شريف» فرض نفسه حتى على حزب علماني مثل الشيوعي العراقي إذ يلاحظ مثلاً أنه في عام 1956 تكونت قيادة اللجنة المركزية من ثلاثة «سادة قريشيين»، أحدهما شيعي (حسين الرضي) والثاني سني (عامر عبد الله)، والثالث كردي (جمال الحيدري)[62]! بل حالة «التعريب القريشي العلوي» جذبت حتى «الرئيس صدام»[*] الذي نشر شجرة العائلة ليؤكد ان سلالته تعود للإمام علي ابن أبي طالب! من دون أية مبالغة يمكننا بكل اطمئنان أن نقول ان عدد الذين يعتقدون بأنهم من أصل «سيد شريف» في العراق يزيد على ثلث عدد السكان!!

ان هذا الفهم العرقي «العروبي والتفريسي» للماضي العراقي شكل الأساس لرؤية الحاضر وتحديد معنى الوطن والمواطنة. صار من الطبيعي اعتبار أرض العراق وحدوده هي ارض الناطقين بالعربية فقط، أما المناطق التي يقطنها عراقيون غير ناطقين بالعربية مثل الأكراد

* الطريف أن هنالك تقولات منتشرة بين أهل الأنبار وتكريت نفسها، تدعي بأن عائلة «البيكات» التي ينتمي إليها (صدام) تعود لجذور تركمانية عراقية، مستعربة وليست عربية (قحة ونقية)!؟

والتركمان والسريان فهي مناطق غير عراقية كافية وأكيدة، وأنها قابلة للتمايز بل والتفاوض على مدى عراقيتها وحتى القبول المبدئي بحق انفصالها المستقبلي! هذا بالضبط الذي تعودنا عليه بخصوص المناطق العراقية التي يقطنها أكراد عراقيون، بالاضافة الى الطروحات المتكررة عن مخاوف تقسيم العراق الى مناطق قومية وطائفية. ان مناطق مثل كركوك واربيل والموصل التي شكلت منذ فجر التاريخ جزءاً طبيعياً وسكانياً من بلاد النهرين وعاشت طيلة تاريخها في ظل الدول الرافدية وقطنتها دائماً الجماعات العراقية خلال جميع العصور ولا زالت أسماؤها وآثارها شاهدة على عراقيتها؛ ولكن بما أن هذه المناطق غير مقطونة الآن بأغلبية عربية فإن هذا يكفي للتشكيك بعراقيتها وتبرير ضمها الى خرائط «كردستان» الكبرى التي يحلم دعاتها بالانفصال عن الوطن العراقي. كل هذا أتى من «ضعف الهوية العراقية» وضعف الشعور بالانتماء الى وطن عراقي ذي تاريخ واحد يشترك فيه جميع العراقيين مهما اختلفت انتماءاتهم الفئوية «القومية!» والمذهبية والدينية.

رعب التفريس

إن هذه «العقدة الايرانية» ظلت تُغذى من قبل النخبة الحاكمة باسم «الخطر الايراني» ومكافحة «الشعوبية» التي اتهم بها الشيوعيون والشيعة والاكراد والتركمان وجميع العراقيين اللذين تجرأ أحدهم وشكك بنقاء «الأمة العربية» أو امتدح بالصدفة أي شيء يتعلق بالفرس من بعيد أو قريب.

في أعوام الثمانينات مع اندلاع الحرب العراقية ـ الايرانية، وصلت حمى «التفريس» الى ذروتها وهبطت الى مستوى الابتذال الذي يخجل منه أشد القوميين المخلصين للأمة العربية. السيد خير الله طلفاح (خال الرئيس) أصدر كتابه الشهير الذي بيع إجبارياً لمعظم العراقيين وجاء فيه: «ثلاثة أشياء أخطأ الله بخلقها: الفرس واليهود والذباب»[63]. في هذا الكتاب يعتبر (طلفاح) الفرس (حيوانات متنكرة بجلد بشر)! هذه العنصرية المخجلة بسذاجتها لم تبق ضمن النطاق الاعلامي والتربوي بل تجلت على شكل قوانين بلغت حد الطعن بكرامة الانسان العراقي والعسكري بالذات، إذ أجبرته حتى على التخلي عن زوجته والتنكر لأبنائه إن كان فيهم شيئاً من الدم «الفارسي المجوسي». تصوروا عام 1981 أصدر الرئيس القرار التالي: «الزوج العراقي المتزوج بامرأة من أصل ايراني يستلم (4000) دينار اذا كان عسكرياً، و (2500) اذا كان مدنياً في حالة تطليقه من زوجته أو تسفيرها خارج العراق»[64]! وعلى هذا

الأساس دفعوا حتى الأزواج والأقارب للمشاركة بحملة تهجير لما يقرب من مليون عراقي «اتهموا» زوراً وبهتاناً بالأصل الإيراني لأنهم من أصول شيعية لا أكثر ولا أقل.

في ظل هذه الأجواء السائدة في العراق منذ أيام العثمانيين، فإن «العقدة الإيرانية» مع الزمن ظلت تزداد قوة وتأثيراً وانتشاراً بحيث أنها تغلغلت حتى في عقول المثقفين والمتعلمين الرافضين مبدئياً للطروحات القومية والعرقية. نورد هنا بعض الأمثلة المختصرة من التي نسمعها ونقرأها كل يوم بصورة «طبيعية» ويومية دون أي احتجاج أو استغراب من أحد:

ـ نستشهد مثلاً بموقف الشاعر العراقي الراحل بلند الحيدري. رغم أصالة هذا الشاعر ومواقفه الديمقراطية الصادقة ومعاناته الشخصية من الاضطهاد والقمع، إلا أن هذا لم يمنعه من الوقوع في فخ «العقدة الإيرانية» والفهم القومي العرقي للمجتمع العراقي. قام شاعرنا بحماسة غريبة بتبني ادعاءات السلطة الطائفية وأعلن في مقابلة مع (صحيفة القدس 22ـ5ـ1996)، عن خلع الهوية العراقية عن الشاعر الكبير «محمد مهدي الجواهري» واحتسبه بكل بساطة على «الفرس»!

علماً أن مشكلة «تفريس» الجواهري قديمة تعود الى أعوام العشرينات. يتحدث عنها الجواهري بإسهاب في مذكراته، يقول أنه طُرد من وظيفته كمدرس بسبب قصيدة تغزل بها بمصيف ايراني فاعتبرت قصيدة «شعوبية». ويدافع الشاعر عن نفسه قائلاً: «لقد غنيت مصايف لبنان وسوريا وفلسطين وامتدحت في شعري باريس وسواستوبول وستالينغراد وبراغ، أفهذه شعوبية؟»[65] علماً بأن المسؤول عن طرده هو أحد كبار مؤسسي التيار العروبي (ساطع الحصري) الذي كان مشرفاً على وضع نظام التربية في العراق. وكان الحصري هذا لا يتقن العربية كفاية لأن ثقافته ولغته الأم هي التركية[66]، بالاضافة الى تعصبه (العلماني العروبي) ضد الشيعة. لهذا السبب تم طرد الجواهري لأنه نجفي ومدح بعض علماء الشيعة! لكن والحق يقال، ان التعصب الطائفي لم يكن هو المسيطر تماماً على الحياة السياسية العراقية، فترى رغماً عن الحصري وأتباعه من المتعصبين أصبح الجواهري فيما بعد من المقربين جداً للملك الراحل (فيصل الأول)، والشاعر الذي يتغنى بقصائده جميع العراقيين بمختلف تياراتهم وأديانهم ومذاهبهم وفئاتهم اللغوية.

ــ في مقابلة لصحيفة (القدس 22 ـ 8 ـ 1996) مع الموسيقار العراقي (نصير شمة) ذكر حادثة تتجلى فيها بشاعة تأثير هذه «العقدة الايرانية». والحكاية أن (نصير) أراد تحقيق مشروع

(الفارابي) باضافة الوتر الثامن الى العود، وعندما علم الموسيقار العراقي (منير بشير) بهذا الأمر ولأنه مستشار في وزارة الثقافة كتب «تقريراً أمنياً خطيراً» يتهم فيه منافسهُ الشاب بالخيانة الوطنية لأنه : «يدعي (اي نصير) بأن الفارابي من صنع العود. وطالما أن الفارابي فارسي فانه هذا يعني أني أنسب أصول العود لايران.. الشيء الذي جعل من تواصلاتي موضع اتهامات يقاضي بموجبها القانون»! تصوروا مدى السذاجة التي زرعتها هذه العقدة في عقول ونفوس هؤلاء المثقفين الحكوميين. أي اطلاع على التاريخ يبين لنا جيداً بأن «الفارابي» ليس فارسياً أو ايرانياً إبداً، بل هو تركستاني من مدينة (فاراب) الواقعة حالياً في جمهورية كازخستان. لنفترض أن الفارابي كان فارسياً فما هي المشكلة؟ ثم ان اضافة وتر جديد لا يعني أبداً نفي حقيقة معروفة لجميع المهتمين بأن أول من صنع العود وعزف عليه وكتب نوطاته وحفظه وطوره ونقله الى العرب والى الفرس والأتراك وغيرهم هم العراقيون القدماء. الاثار والمنحوتات البابلية والآشورية تشهد على الأمر. الطريف في هذه الحادثة أن (منير بشير) من عائلة مسيحية عراقية وخشيته هذه من (الفرس) ليس لها مبرر (طائفي) شخصي غير التملق لمهووسي «العقدة الايرانية» السائدة.

ـ ان هذه «العقدة الايرانية» دخلت في أعماق العقلية العراقية بمستوييها الشعبي والمثقف. تصوروا أن يتجادل مجموعة من المثقفين القوميين حول مدى حقيقة «عروبة» صديقهم المثقف فلان. لأن المشكلة حسب طرحهم ان فلان من «بني تميم» وهذه العشيرة العراقية (العربية) موجودة في العراق قبل الفتح العربي بعدة قرون. على هذا الأساس فإنها يقيناً قد «تلوثت» بالدماء الفارسية بعد أن اختلطت وتزاوجت مع الفرس الحاكمين وهذا الأمر يقلل من نقاوتها العربية! الأكثر عجباً في هذه الحكاية أن هؤلاء المثقفين هاربون من جور النظام ومنفيون في بلد عربي مجاور!

ـ ان تأثير العقلية العثمانية وتهويل الخطر الايراني جعل العراق من الحالات النادرة بين أوطان الأرض، إذ تقوم الدولة باعتبار الأغلبية الساحقة من شعبها : «أجانب مشكوك بعراقيتهم ومواطنيتهم» وهم الشيعة من (عرب وفيلية وتركمان) ثم الأكراد. من الطبيعي أن ديمومة هذه المشكلة منذ قرون جعلت حتى ضحاياها يدخلون بلعبتها. فليس من المستغرب أن تجد الكثير من الاسلاميين الشيعة العراقيين والعرب من يفضل الانتماء السياسي والحضاري لايران، بل هناك من يلجأ الى اصطناع أصل ايراني ما دام قد تعلم من كتب التاريخ القومية

بأن العراقيين والعرب «بدو متخلفين» و «الفرس» هم أصحاب الحضارة. يبدو أن هذه الصورة القومية المبتذلة عن بداوة العراقيين وتحضر الفرس شائعة جداً في ايران وطالما سمعناها شخصياً من أصدقائنا الايرانيين!

بالنسبة للأكراد الذين هم أيضاً من ضحايا هذه «العقدة الايرانية» فانهم وجدوا الحل بالتخلص من أي انتماء لهؤلاء «العراقيين البدو» والبحث عن الانتماء للعرق الآري الايراني «الهندوأوروبي» أملاً بالانتساب لبعض أمجاد هذا «العرق الآري المتطور!». رداً على ادعاء العروبيين بالأصل الحجازي اليمني، فإن الأكراد بكل بساطة اصطنعوا لهم تاريخاً وأصلاً من خارج العراق بل وحتى من خارج كردستان العراق أي الأصل الميدي الايراني «الهندوأوروبي» ! هناك تيار مهم بين المثقفين الأكراد العراقيين يقوم بالمبالغة والتطرف ينفي الأصل العراقي القديم لسكان كردستان العراق الذين شاركوا في الحضارة العراقية منذ العهد السومري وحتى الآن، تشبهاً بالعروبيين قام القوميون الأكراد بصناعة أسطورة قومية اعتمدت على حجة معروفة وهي أن اللغة الكردية الحالية من أصل آري. وبناء على هذا الفهم القومي الضيق اخترعت أسطورة الأصل الميدي «الايراني» للأكراد. متناسين أن جبال كردستان العراق (الجانب الغربي من زاغاروس) مقطونة بجماعات عراقية (غير آرية) منذ سحيق الزمن[67]. وقد شاركت هذه الجماعات الأصيلة بصنع الحضارة العراقية منذ الألف الثالث قبل الميلاد، مثل الغوتيين والكاشايين والحوريين[68]. وأن تبني لغة لا يعني أبداً الانتماء العرقي لأصل هذه اللغة. فلأن معظم سكان العراق يتكلمون العربية لا يعني أبداً بأنهم منحدرون عرقياً من تلك الأقلية العربية المحاربة التي قدمت من الجزيرة العربية. من المعقول مثلاً أن يربط (أكراد ايران) تاريخهم بالأصل (الميدي) الايراني على اعتبار أن هذه الحضارة كانت في ايران بما فيها منطقة كردستان ايران الحالية. ولكن هذه الحضارة (الميدية) ليس لها أية علاقة بمناطق سكنى الأكراد في العراق، بل أن هذه المناطق الكردية العراقية ظلت دائماً جزءاً من الحضارات والدول التي قامت في العراق. أفضل مثال لنا هو منطقة أربيل، تاريخها المعلوم وآثارها وشواهدها الحالية كلها تبين أنها حملت التراث العراقي منذ السومريين والآشوريين والآراميين حتى العصر العربي الاسلامي. لا زالت حتى الآن تحتفظ باسم (اربيل) الموروث منذ العهد السومري ـ الآشوري بمعنى (أربع ايلو ـ أي الآلهة الأربعة). طيب لماذا يتخلى أكراد العراق عن تراث مناطقهم العراقية الكردية ويتمسكون عنوة بتراث ايران وأكراد ايران؟

إن هذا الفهم القومي «الميدي» لأصل الأكراد دفع بعض المثقفين الأكراد الى محاولة ربط كل ما له صلة ما باللغة الكردية بالحضارة الايرانية. مثلاً بعضهم يصر على تغيير تسمية الطائفة «اليزيدية» الى «الأزدية» واعتبارها من أصل زرادشتي، وبالتالي نفي عراقية اليزيدية[69]. متناسياً حقيقة أن هذه اليزيدية واحدة من الطوائف العراقية النادرة التي حتمت عليها ظروف التاريخ والجغرافيا لأن تجتمع فيها، بصورة رائعة، مواريث جميع الأديان العراقية: البابلية والمانوية والمسيحية والاسلام؛ بالاضافة الى مواريث الفئات اللغوية العراقية المختلفة: العربية والكردية والسريانية.

ـ هناك بعض الباحثين من يحاول أن يبذل الجهد المستحيل من أجل احتساب حتى الجماعات العراقية القديمة على الفرس مثل الصابئة، يحاول البعض تفريس أصول الديانة الصابئية وربطها بالديانة الزرادشتيه وتجاهل الأدلة الساطعة على بابلية هذه الديانة وآرامية لغتها.

ـ أما بالنسبة للتركمان فانهم يقطنون فعلياً في العراق منذ أكثر من الف عام وأصبحوا جزءاً فعالاً من سكان العراق وتاريخه. بل إن دماء الكثير من العراقيين (العرب) تحمل آثاراً من دماء التركستانيين الذين لم يتوقفوا عن الاستيطان في العراق منذ الألف الأول قبل الميلاد. لكن مع ذلك فان بعض القوميين التركمان (الطورانيين) لا يتوانون عن التنكر لأي ارتباط بالعراق والحديث عن تركيا «الوطن الأم»[70]! متناسين الحقيقة التالية المضادة لفهمهم القومي: ان الشعب التركي الحالي في تركيا ليس له أية علاقة بشعوب تركستان الآسيوية ولا يحتفظ منها بغير اللغة. باعتراف جميع الباحثين ان الشعب التركي الحالي هو خليط من سكان الأناضول القدماء من حيثيين وليديين واغريق وأرمن، بالإضافة الى البلقان والعرب والأكراد والقفقاس وغيرهم من الجماعات التي تشكلت منها الامبراطورية العثمانية خلال خمسة قرون من التمازج والاختلاط في ظل سيطرة أقلية محاربة من القبائل التركستانية التي نجحت بفرض الاسلام ولغتها التركية رغم ذوبانها البدني والحضاري في الجماعات الأخرى[71].

تجربة تركيا تمنحنا أمثلة تكشف عن مدى سذاجة الادعاءات القومية العرقية. إن (حزب الاتحاد والترقي) الذي يعتبر أول الأحزاب القومية التركية التي نبذت الانتماء العثماني الاسلامي ودعت الى «الأمة االطورانية» ونقاء العرق التركي؛ إن قادة هذا الحزب ومؤسسيه جميعهم ليس فيهم حتى واحد يحمل «الدم التركي النقي»: أولهم من أصل بولوني اعتنق الاسلام، واثنان يهود، وآخر بلغاري غجري اعتنق الاسلام، والأخير نصفه شركسي ونصفه مجري»[72].

طبعاً مثل هذا الميل للبحث عن أصول خارجية و «وطن أم» غير العراق يجد تبريره وحجته في تأكيد العروبيين على الأصل الحجازي اليمني (العدناني القحطاني) للعراقيين الناطقين بالعربية.

ـ رغم أن هذه «العقدة الايرانية» تخص العراق والعراقيين قبل كل شيء، إلا أنها أيضاً شملت «برحمتها» جميع الطوائف الشيعية في المنطقة العربية : سوريا ولبنان وشرق السعودية والبحرين والامارات وعمان واليمن. بالاستناد الى هذه العقدة تستمر تغذية تهمة «الزندقة والشعوبية والعمالة لايران» ونزع الوطنية عن أي تحرك سياسي أو فكري أو اجتماعي يقوم به الشيعة، وتبرير عزلهم واضطهادهم السياسي والاجتماعي. وهذه التهمة من الشيوع بحيث يتبناها مثقفون وسياسيون بعيدون جغرافياً ووطنياً عنها، كما في مصر والمغرب العربي حيث تخلو هذه البلدان من أية طوائف شيعية، بالاضافة الى بُعدها الجغرافي عن ايران. مثلاً لا زالت حتى الآن الكتب المدرسية الليبية تعتبر التشيع من «معتقدات الفرس السابقة.. ومأوى يلجأ اليه كل من أراد هدم الاسلام لعداوة وحقد، ومن كان يريد ادخال تعاليم آبائه من يهودية ونصرانية وزرادشيتة وهندية..»[73]! هكذا إذن باسم النقاء العروبي يتم احتساب التشيع واليهودية والنصرانية والهندية بالاضافة الى الزرادشيتة، جميعها على الفرس! ثم يأتي المفكر المغربي (محمد عابد الجابري)، ليحتسب بكل بساطة التشيع العراقي والعربي على «الاشراق الفارسي»، واعتبر تيار التشيع في الاسلام نقيض العقلانية وممثل لما أسماه «بالعقل المستقيل»[74].

على هذا المنوال سنجد في الغالبية الساحقة من الكتب العربية التي تتطرق للشيعة باعتبارهم «فرساً مجوساً». كما يقول (الدكتور عبد الله الغريب) في كتابه الدعائي الشهير الذي مولته الحكومة العراقية، والذي طبع أربع مرات خلال بضع سنوات، وهو بعنوان (وجاء دور المجوس)، يقول هذا الدكتور : «نحن نعلم أن رفع الشيعة لشعار آل البيت وعصمة الأئمة هو في أصله معتقد مجوسي..»[75]. وكلنا نعلم أن أهل بيت النبي محمد واحفاده الأئمة هم عرب وليسوا ايرانيين! مع الشيعة، يحتسب مؤرخنا (الدكتور) على «الفرس» معظم المذاهب والحركات التي لها صلة ما بالتشيع : الدروز والنصيريين والاسماعيليين والحمدانيين (وهؤلاء كلهم في العراق والشام)، ثم الأغالبة والأدارسة والموحدين (وهؤلاء كلهم في المغرب). وخصص مؤرخنا كل مقطع من كتابه البالغ (500 صفحة) للهجوم على المذاهب الباطنية والشيعية باعتبارها كلها (فارسية خمينية)!

الكتابة الوطنية للتاريخ

إن إشكالية العلاقة التاريخية بين العراق وايران هي «العقدة الأولى» التي ظلت تواجه بناء «الهوية الوطنية العراقية» في العصر الحديث. حول هذه «العقدة الإيرانية» تمحورت جميع مشكلات الهوية الوطنية العراقية :

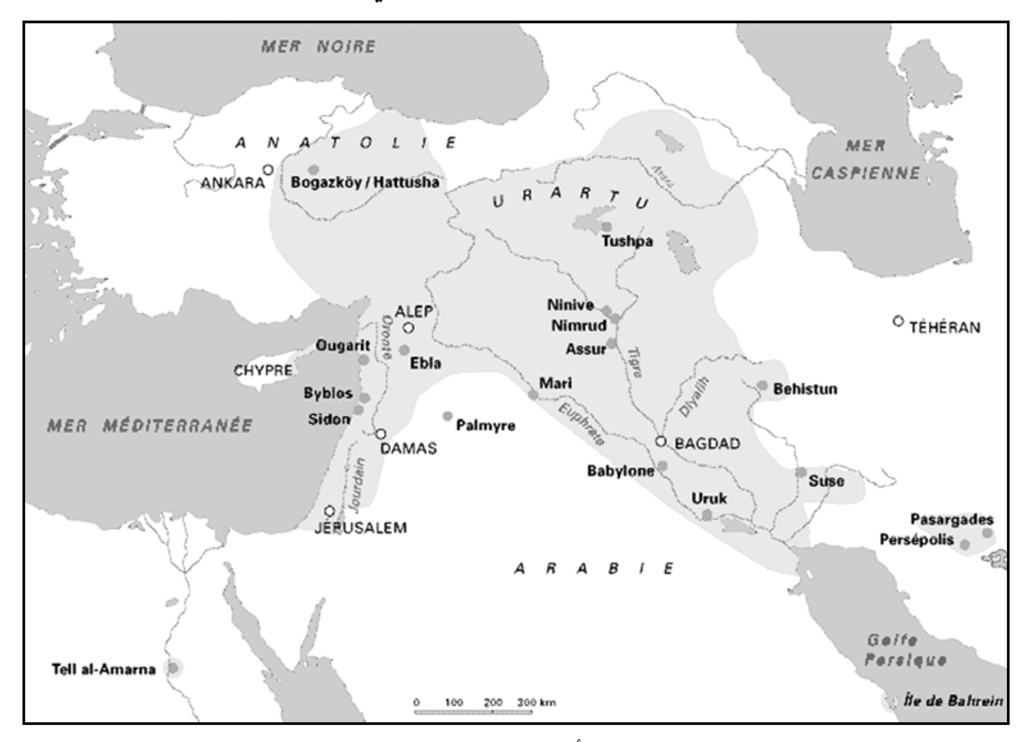
ـ المشكلة الطائفية وتاريخ التشيع العراقي وعلاقته بالتشيع الايراني.

ـ المشكلة الكردية وحقيقة انتماء الأكراد الى العراق.

ـ مشكلة الانتماء «القومي العربي» للعراق وموقف الفئات العراقية (غير الناطقة بالعربية) مثل التركمان والسريان والصابئة واليزيدية والفيلية.

ـ مشكلة علاقة العراق بالجارين المنافسين والمتنافسين: تركيا وايران، وتأثيرها المباشر على العلاقة التاريخية الخاصة مع سوريا وعموم الشام.

إن النخب العراقية لو نجحت منذ عقود في دراسة وتوضيح «تاريخ العلاقات الايرانية ـ العراقية» لساهمت في فك هذه «العقدة الايرانية» وبالتالي خلق الأساس لبناء هوية عراقية



حضارة العراق وتأثيرها على عموم الشرق الاوسط..

وطنية واضحة موحدة. إن حل هذه العقدة سوف يجنب الشعب العراقي الكثير من الصراعات القومية والطائفية وعمليات التهجير والحروب الدولية ومشاريع التقسيم وغيرها من الكوارث التي نتجت عن التمزق في الانتماء الوطني والرعب التاريخي من هذا «الخطر الايراني».

إن من أول شروط بناء هوية لأي دولة وشعب، هو كتابة التاريخ الوطني بصورة تعتمد المبدأين التاليين:

1ـ عدم تقطيع التاريخ واهمال فترات منه والتمسك بفترات أخرى. ان تاريخ الأوطان مثل تاريخ الافراد، ليس من الطبيعي أبداً أن يعتقد شخص ما بأنه قد ولد منذ عشرة أعوام فقط، بينما هو في الحقيقة قد ولد منذ ثلاثين عاماً.

2ـ أن يكون تاريخ الوطن شاملاً لجميع تنوعات المجتمع. ان يتم الاعتراف باسهامات جميع الفئات اللغوية والدينية والمذهبية في صنع تاريخ الوطن. ان الهوية الوطنية الموحدة تستند أساساً على تاريخ وطني شامل وموحد يعترف به الجميع لأنه يعترف بدور الجميع في صنعه فليس الناطقون بالعربية وحدهم من صنع تاريخ العراق بل جميع الفئات.

مشكلة الهوية التاريخية العراقية تكمن في فقدان الديمومة التوحيدية لهذه الهوية. إن التاريخ العراقي مقطع ومجزأ ومشتت الى عدة فترات وأجزاء لا يربط بينها رابط. لقد تعود العراقي أن لا يشعر بأي انتماء وطني تاريخي لأية حقبة من ماضيه:

ـ بالنسبة للتاريخ العراقي السابق للاسلام، مهما افتخر به العراقي إلا أنه في أعماقه يعرف أنه ليس له أية علاقة (عرقية قومية) مع صناع تلك الحضارة السومرية البابلية الآشورية الآرامية. العراقي (العربي) تعلم خلال أجيال أن يعتبر أجداده (قحطان وعدنان) وأنه مرتبط قومياً وعرقياً بتاريخ أجداده العرب في الحجاز واليمن، وبالتالي فان علاقته بتاريخ العراق القديم علاقة رمزية لا أكثر. أما الفئات العراقية الأخرى، تشبهاً بالعروبيين فقد صنعت لها تواريخاً وأسلافاً من خارج أرض العراق (أكراد آريون ميديون) و(تركمان طورانيون أتراك). بقي (سريان) العراق هم الوحيدون الذين يشعرون بانتمائهم لتاريخ العراق السابق للاسلام. لكن المشكلة أنهم اعتبروه تاريخهم القومي الخاص بهم ولا يخص غيرهم من العراقيين. ثم أنهم خلقوا قطيعة تامة مع العصور الاسلامية باعتبارها عصور عربية اسلامية لا تخص السريان المسيحيين، رغم الاشتراك المباشر والفعال للعناصر السريانية المسيحية بصنع التاريخ الاسلامي في العراق.

ـ بالنسبة للعصور العربية الاسلامية وبالذات القرون الستة من الدولتين الأموية والعباسية في بغداد، فان العراقي كذلك تعود أن لا يشعر بأي انتماء وطني خاص بهذه الحقبة. الأمر يبدو أقرب الى المفارقة لكنها الحقيقة. ليس هناك لدى العراقي أي شعور بأن (هارون الرشيد) عراقي أو الجاحظ أو التوحيدي أو ابن حيان أو اسحق بن حنين. هؤلاء بالنسبة للعراقي «عرب» وكفى. بالتالي فانهم لا يختلفون مثلاً عن أعلام الأندلس أو مصر أو الحجاز. بل ان العراقي (مثل كل العرب) لم يهتم أبداً إن كان (الفيلسوف الكندي) مصري أو عراقي، المهم أنه عربي وليس فارسي!

هذه الحقيقة ليست مشكلة الشعب العراقي وحده بل هي مشكلة معظم الشعوب العربية. لأننا تعودنا عند قراءة تاريخ الحضارة العربية الاسلامية، أن تكون الأوطان غائبة بالنسبة للأعلام والشخصيات المعروفة ليس هناك غير انتماءات قبلية: (هارون الرشيد) عباسي قريشي عدناني عربي، وفلان طائي، وفلان لخمي، وفلان خزاعي، والكل يرجعون للجزيرة العربية. أما الباقون من الأعلام والشخصيات غير العربية فانهم عموماً أعاجم غرباء مهمشي الأصول: سريان أو قبط أو يهود أو بربر، وكل هؤلاء يتم احتسابهم بالتساوي مع العناصر الفارسية أو التركية أو الرومية وغيرها من العناصر (غير العربية). يمكن لمؤرخينا المعاصرين ذكر جميع الأصول الوطنية الأجنبية عدا الأصول المصرية أو العراقية أو السورية أو التونسية، خوفاً من تهمة «القطرية» ومعاداة «القومية». (ابن خلدون) لأن جده ربما العاشر أو العشرين «قحطاني من حضرموت» فانه يبقى يمانياً ولا يمكن أن يقال عنه تونسي! لا أحد يقول عن (هارون الرشيد) أنه عراقي لأنه هو وأبيه وجده وجد جده جميعهم قد ولدوا وعاشوا ونشأوا وتثقفوا في بغداد في العراق!

على عكس حال البلدان العربية، فان باقي الأوطان (غير العربية) دائمة الحضور والاعتراف من قبل مؤرخينا المعاصرين. هناك اليونان والهند وخراسان وتركستان وأرمينيا، حتى الأندلس تذكر كانتماء وطني (ربما لأنها الآن اسبانية غير عربية!) أما (ايران) فهي الوطن الأقوى والأكثر اعترافاً من قبل جميع مؤرخينا، إذ يكفي مثلاً أن يعتمد الخلفاء العباسيون على بعض الوزراء الذين (ربما يعتقد) أن فيهم شيئاً ما من أصل فارسي، حتى يتم اعتبار العصر العباسي بكامله فارسياً ايرانياً!

هكذا اذن، وضعتنا العروبة في مفارقة عجيبة غريبة: من ناحية لدينا أوطان لها حدود رسمية ودول معترف بها عربياً وعالمياً، ومن ناحية ثانية ان أوطاننا هذه بلا تواريخ متميزة.

الوطن الذي بلا تاريخ مثل الانسان الذي بلا ماض.. انه طفل ساذج جاهل فاقد للشخصية سهل الانقياد والتأثر بالآخرين. وهذا هو الحاصل فعلاً منذ بدايات هذا القرن وحتى الآن. المأساة الفلسطينية مثال واضح على مدى ضعف الهوية الوطنية التاريخية التي استثمرتها الصهيونية من أجل تبرير طرد الشعب الفلسطيني من أرضه : (ما دام الفلسطيني عرقياً عربياً فليعد الى أرض أسلافه العرب!) لنا أمثلة كثيرة من معظم الدول العربية، خصوصاً تلك التي فيها تنوع ديني ومذهبي ولغوي، والعراق أكثرها تعقيداً. اننا لم نفكر حتى الآن بكتابة تاريخ بلداننا بطريقة تحترم خصوصية واهمية ومشاركة كل بلد عربي. الاعتراف بالخصوصية الوطنية التاريخية لكل بلد عربي لا يمنع الاعتراف أيضاً بأن بلدان العالم العربي تجمعها عشرات القواسم التاريخية والجغرافية والثقافية والسكانية والسياسية. كتابة التاريخ الوطني لا تتناقض بالضرورة مع كتابة تاريخ جامع لبلداننا قادر على أن يبرز تقاربها وتشابهها وتوحدها الروحي والثقافي والسياسي والجغرافي منذ فجر الحضارة وحتى الآن. ينقصنا الاعتقاد والقبول بأن (المرحلة العربية الاسلامية) لم تنبثق من الصحراء والعدم وليست منفصلة عن المراحل التاريخية التي عاشتها منطقتنا، بل هي تتمة لمراحل حضارية وتفاعلات سكانية ودينية وثقافية مستمرة خلال آلاف السنين منذ أيام البابليين والكنعانيين والفراعنة والقرطاجيين. هناك كل الشواهد المعقولة التي تساعد على كتابة مثل هذا التاريخ الشامل المتخلص من العقدة القومية العرقية الضيقة واللاإنسانية.

بالنسبة للعراق فان القطيعة مع تاريخنا (قبل الاسلامي) عودتنا ان نتعامل مع تراثنا الشعبي واللغوي والثقافي والفني من خلال الفهم القومي الضيق والمجزأ. كل شيء لم يثبت قدومه من الجزيرة العربية فانه تلقائياً أجنبي وعلى الأغلب أعجمي فارسي: الطبخ والثياب والغناء والآلات الموسيقية والطقوس الدينية وخصوصاً الشيعية. لم يحاول أحد أن يعود الى التراث العراقي السابق للاسلام. كم تنقصنا البحوث اللغوية التي تحاول ان تجد مؤثرات اللغة (السومرية ـ الأكدية ـ الآرامية) في اللهجة العراقية الحالية. ان الجزء الكبير من مفردات اللهجة العراقية الحالية وطريقة إبدال الحروف مثل (ق تتحول ال گ) بمعظمها من بقايا اللغة (الآرامية السريانية) الموروثة بدورها من اللغة (السومرية الأكدية).

يمكن ان نستمر على هذا الحال لنكتشف الكثير الكثير من الموروثات الفنية والأدبية والأسطورية والدينية والتقاليد الشعبية والحرفية والهندسية. الكثير من الباحثين تحدثوا عن الموروث الفارسي والهندي والعربي في حكايات الف ليلة وليلة، دون محاولة البحث عن

الموروث العراقي القديم في هذه الحكايات، بالاضافة الى موروثات الشام ومصر: أليس من المعقول مثلاً ملاحظة تأثير أسطورة كلكامش ورحلاته الشهيرة في رحلات السندباد البحري؟ نفس الشيء يمكن أن يقال عن التقاليد والطقوس (الشيعية) التي احتسبت جملة وتفصيلاً على الفرس: أليس من المعقول القيام بمحاولة الربط بين المأساة الحسينية ومأساة تموز ووسيطهما المسيح المصلوب.. ألا من رابط بين رمز المرأة المقدسة في (عشتار) و (مريم العذراء) و (فاطمة الزهراء).. هل هي صدفة أن يضيف العراقيون لقب (الزهراء) الى (فاطمة) من دون أية علاقة مع ميراث معبودتهم عشتار (إلهة كوكب الزهرة)؟

على هذا الأساس فانه أمام الباحثين العراقيين والعرب مساحات شاسعة من البحث التاريخي العقلي لم تطأها الأقلام التي ظلت بمعظمها مطوقة ومحصورة بتقاليد الفهم العرقي القومي البيولوجي الخانق للحقيقة العلمية والخيال الانساني المبدع.

طيلة دراستنا هذه تحدثنا عن إشكالية «الهوية الوطنية التاريخية». لكن بالحقيقة ثمة إشكالية أخرى معروفة لا تعني العراق وحده بل تعني جميع بلدان العالم الثالث، تتمثل بالتمزق الطبيعي في الذات الفردية والجماعية بسبب عملية التحديث والتأثيرات الحضارية الكاسحة القادمة من الغرب. ومشكلة الحداثة هذه الشهيرة بـ «عقدة الخواجة»، انها وحدها كافية للتأثير على كل تفاصيل الحياة والفكر والممارسة وخلق التمزقات الاجتماعية والتوترات السياسية. لكن «مشكلة الحداثة» هذه تصبح أعقد وأصعب عندما تحل في مجتمع يعاني أساساً من التمزق بسبب «ضعف الهوية الوطنية التاريخية».

يعني هذا ان العراق والكثير من البلدان العربية تعاني من هاتين «العقدتين» بآن واحد. ان حل «عقدة الحداثة» يتطلب الكثير من الخطوات الحياتية والتربية المستمرة والدائمة التجدد والتطبع لاشكاليات الحداثة المعقدة والمتغيرة. لكن حل «العقدة الوطنية التاريخية» أسهل بكثير، لأن الأمر لا يتطلب غير قناعة وإرادة النخبة الوطنية التي تقرر أن تكتب تاريخها بصورة انسانية ووطنية وتعيد النظر بمناهج التربية الوطنية. ان بناء «الهوية الوطنية» سوف يساعد كثيراً على مواجهة «مشكلة الحداثة» لأن «الهوية الوطنية» أشبه بالخلايا الدفاعية في ذات الوطن، إذا كانت قوية وواضحة وشاملة فانها تساعد الجسم الوطني على تجميع قواه واكتساب ثقته بنفسه من أجل مواجهة عواصف الحداثة ومتغيراتها اليومية الكاسحة للأسس الثقافية والدينية والسياسية.

ان بناء (هوية وطنية) مستقرة وواضحة تتفق عليها جميع فئات الشعب قضية شاملة وعامة تخص جميع الأوطان. معاينة سريعة لخارطة العالم تبين لنا أن الأوطان المستقرة القوية هي الأوطان التي تمكنت من انجاز مهمة بناء الهوية. ان ضعف الهوية الوطنية لأي شعب يؤدي الى ضعف الشخصية الاجتماعية والفردية وكثرة التوترات السياسية وسيادة العنف وديمومة الدكتاتورية.

ان الدافع الأول للّجوء للدكتاتورية هو ضعف القاعدة الاجتماعية للفئة الحاكمة بسبب الاعتماد على أقلية لا تمثل الا جزءاً من الشعب: تجمع عشائري أو طائفي أو ديني أو مناطقي أو سياسي، أو كلها معاً مثل حالة العراق! من أجل التعويض عن ضعف القاعدة الاجتماعية للسلطة يتم الاعتماد على الأجهزة المخابراتية والحزبية القمعية. بقدر ما تتمكن الدولة من تمثيل مختلف الفئات الدينية والمذهبية واللغوية والمناطقية بقدر ما تضطر بدرجة أقل لاستعمال القوة في ديمومة سيطرتها. ان الديمقراطية لا تقوم الا في الدولة القوية والدولة لا تكون قوية إلا بمدى قدرتها على تمثيل أوسع قاعدة من فئات الوطن، والدولة لا يمكنها ان تمثل كل تنوعات المجتمع من دون امتلاك أساس (فكري ـ تاريخي ـ تربوي) وطني وشامل متفق عليه من قبل جميع هذه التنوعات مهما اختلفت قناعاتها ومشاريعها السياسية. من دون «هوية وطنية موحدة» لا يمكن أن توجد «دولة وطنية موحدة» والا فان العنف البوليسي والحروب الخارجية هي الوسيلة الوحيدة لديمومة الدولة التي لا تستند على هوية وطنية متكاملة وموحدة.

ان الحاجة لبناء «هوية وطنية موحدة» ليس من أمور الترف والبحث عن امجاد وهمية بل هي ضرورة انسانية ملحة. أية مجموعة من البشر لا يمكن ان تمضي حياتها تعيش في رقعة واحدة وتشترك في تفاصيل الحياة اليومية من دون حد أدنى من الشعور بالانتماء لمثال أو فكرة مشتركة. حتى إن لم تكن هذه الفكرة موجودة في الماضي فانها على الأقل ستكون مشروع المستقبل. ان الشعور بالانتماء الى (ماض مشترك) يساعد على (الاشتراك في الحاضر) والاستمرار بـ (الاشتراك في المستقبل). ليس هناك فرد أو جماعة يختار طواعية عدم الارتباط ببلاده وبناس بلاده، انه أمر قاس ومتعب ان تشعر بالأجنبية والاغتراب عن أناس تتعايش معهم كل يوم وتتصل معهم في كل شؤون الحياة اليومية وتشاركهم الأرض والهواء والماء والسماء. ان الانسان الذي يشعر بالشك بحقيقة انتمائه لبلاده ولناس بلاده أشبه بالطفل الذي يشعر بالشك بحقيقة انتمائه لعائلته... كلاهما يعاني الغربة والاغتراب الى درجة قد تؤدي الى الدمار الذاتي أو الجنون. وهذا هو الحاصل فعلاً في بلداننا.

قائمة مصادر الفصل الثاني

1 ـ المطهري، آية الله مرتضى ـ الاسلام وإيران ـ 3 أجزاء. منظمة الاعلام الاسلامي ـ طهران (1390 هـ).

2 ـ ابن منظور ـ لسان العرب ـ 15 جزءاً ـ دار صادر ـ بيروت 1968 ـ ج 7 ص 411.

3 ـ ابن خلدون ـ المقدمة ـ دار الكتاب اللبناني ـ بيروت 1982 ـ ص 927.

4 ـ البلاذري ـ فتوح البلدان ـ المكتبة التجارية ـ القاهرة ـ ص 326.

5 ـ الجاحظ ـ البيان والتبيين ـ 4 أجزاء ـ القاهرة 1961 ـ ج 3 ص 71.

6 ـ الطويلي، أحمد ـ الجاحظ ـ الشركة التونسية ـ تونس 1987 ـ ص7.

7 ـ الدوري، عبد العزيزـ التكوين التاريخي للأمة العربية ـ مركز دراسات الوحدة العربيةـ بيروت 1986 ـ ص 86.
نشير الى أهمية الفصل الثاني الذي يتحدث بصورة معقولة رغم بعض «التفريس»، عن الموالي وعملية التعريب التي جرت خصوصاً في العراق.

8 ـ دلو، برهان الدين ـ مساهمة في اعادة كتابة التاريخ العربي ـ دار الفارابي ـ بيروت 1985 ـ ص 166.

9 ـ نفس المصدر ـ الفصل الثامن.

10 ـ عمر، فاروق ـ التاريخ الاسلامي ـ دار اقرأ ـ بيروت 1985 ـ ص 236.

11 ـ ابن عبد ربه ـ العقد الفريد ـ لجنة التأليف ـ القاهرة 1948 ـ ج3 ص 414.

12 ـ المبرد ـ الكامل في اللغة والأدب ـ القاهرة 1365 هـ ـ ج1 ص 314.

13 ـ الأصبهاني، أبو الفرج ـ الأغاني ـ 24 جزء ـ دار الكتب ـ القاهرة ـ 1974ـ ج 14 ص 288.

14 ـ ابن منظور ـ مصدر سابق ـ مادة عرب.

15 ـ فيصل، شكري ـ المجتمعات الاسلامية ـ دار العلم ـ بيروت 1981 ـ ص 111.

16 ـ ابن النديم ـ الفهرست ـ مكتبة خياط ـ بيروت ـ ص 201 وبعدها.

17 ـ الشرقاوي، عبد الرحمن، أئمة الفقه التسعة ـ دار غريب ـ القاهرة 1995 ـ ص 56.

18 ـ عن الأئمة يمكن مثلاً مراجعة نفس المصدر السابق.

19 ـ هويدي، فهمي ـ ايران من الداخل ـ مركز الأهرام ـ القاهرة 1988 ـ ص 20 ـ 21.

20 ـ نوار، عبد العزيز ـ دار النهضة ـ بيروت 1973 ـ الفصل السابع، كذلك المصدر رقم 53.

21 ـ جانو، أسيمة ـ التاج الايراني ـ مكتبة مدبولي ـ القاهرة 1987 ـ ص 43.

22 ـ ماسينيون ـ خطط البصرة ـ المؤسسة العربية ـ بيروت 1981 ـ ص 28 ـ 50.

23 ـ فيصل، شكري ـ مصدر سابق ـ ص 206.

24 ـ عمر، فاروق ـ مصدر سابق ـ ص 132.

25 ـ عن تاريخ ايران وسلالاتها الحاكمة، يمكن مراجعة الموسوعة الكونية الفرنسية والموسوعة الاسلامية ـ مادة ايران.

26 ـ العلوي، هادي ـ شخصيات غير قلقة ـ دار الكنوز ـ بيروت 1995 ـ فصل 14.

27 ـ معروف، ناجي ـ عروبة العلماء المنسوبين الى البلاد الأعجمية ـ وزارة الثقافة ـ بغداد 1978 ـ 3 أجزاء ـ ج 1 ص 97.

28 ـ الترمانيني، عبد السلام ـ أزمنة التاريخ العربي ـ الكويت 1982 ـ ص 936.

29 ـ حتي، فيليب ـ تاريخ العرب ـ دار غندور ـ بيروت 1990 ـ ص 359.

30 ـ حتي، فيليب ـ موجز تاريخ الشرق الأدنى ـ دار الثقافة ـ بيروت ـ ص 167.

31 ـ فيصل، شكري ـ مصدر سابق ـ ص 82 ـ 83.

32 ـ أيوب، ابراهيم ـ التاريخ العباسي ـ الشركة العالمية ـ بيروت 1989 ـ ص 216.

33 ـ فيصل، شكري ـ مصدر سابق ـ ص 233.

34 ـ عن الترجمة من الفارسية، راجع مثلاً :

ـ ابن النديم ـ مصدر سابق ـ 244.

ـ عبد الباقي، أحمد ـ معالم الحضارة العربية ـ مركز دراسات الوحدة ـ بيروت 1991 ـ الفصل الخامس.

35 ـ قنواتي، جورج ـ المسيحية والحضارة العربية ـ المؤسسة العربية ـ بيروت ـ ص 103.

36 ـ أيوب، ابراهيم ـ مصدر سابق ـ ص 211.

37 ـ بخصوص الوضع الحضاري للمنطقة قبل الفتح مباشرة، راجع مثلاً :

ـ حتي، فيليب ـ تاريخ سوريا ـ دار الثقافة ـ بيروت 1972.

ـ النشا، مصطفى ـ نحو تاريخ جديد للفلسفة القديمة ـ وكالة زوم برس ـ القاهرة 1992.

ـ دمشقية، غسان ـ لاهوت التحرير ـ دار الأهالي ـ دمشق 1990.

ـ الجابري، محمد عابد ـ بنية العقل العربي ـ المركز الثقافي ـ الدار البيضاء 1986 (القسم الثاني فصل خاص بالعرفانية).

38 ـ عن تاريخ بلدان المغرب :

ـ غوتيه ـ ماضي شمال افريقيا ـ دار ف ـ لندن 1983.

ـ المدني، أحمد ـ قرطاجنه في اربعة عصور ـ المؤسسة الوطنية ـ الجزائر 1986.

39 ـ عن وضع سريان العراق :

ـ بيغوليفسكا، نينا ـ ثقافة السريان ـ دار الحصاد ـ دمشق 1990.

ـ أبونا، الأب البير ـ تاريخ الكنيسة السريانية ـ 3 أجزاء ـ دار المشرق ـ بيروت 1992 (ص 126 عن الملكة شيرين).

40 ـ عن المانوية، راجع مادة (Manicheisme) في إحدى الموسوعات العالمية.

ـ ابن النديم ـ مصدر سابق ـ ص 318.

41 ـ الزيات، أحمد ـ تاريخ الأدب العربي ـ دار الثقافة ـ بيروت 1978 ـ ص 234.

42 ـ BOTTERO Jean-Initiation aL'Orient ancient-Seuil- Paris 1992 p 25-35

43 ـ حتي ـ تاريخ العرب ـ مصدر سابق ـ ص 319.

44 ـ شريف، محمد ـ القادسية الكبرى ـ دار الجيل ـ القاهرة 1984 ـ ص 116.

45 ـ دلو ـ مصدر سابق ـ ص 196.

46 ـ زيدان، جرجي ـ المؤلفات الكاملة ـ دار الجيل ـ بيروت 1983 ـ مجلد 12 ص 356.

47 ـ الترمانيني ـ مصدر سابق ـ ص 973.

48 ـ أمين، أحمد ـ فجر الاسلام ـ الهيئة المصرية ـ القاهرة 1996 ـ ص 191.

49ـ حتي ـ موجز تاريخ الشرق ـ مصدر سابق ـ ص 186.

50 ـ الريحاني، أمين ـ ملوك العرب ـ مجلد4 ـ ص 36.

51 ـ ماسينيون ـ مصدر سابق ـ ص 71.

52 ـ فريحة، أنيس ـ دراسات في التاريخ ـ منشورات جروس ـ طرابلس 1991 ـ ص 121.

53 ـ الوردي، علي ـ تاريخ العراق الحديث ـ 8 أجزاء ـ كوفان للنشر ـ لندن 1991 ـ الجزء الأول (المقدمة والفصل الأول).

54 ـ الوردي ـ نفس المصدر ـ ج 2 ص 259.

55 ـ زين، نور الدين زين ـ نشوء القومية العربية ـ دار النهار ـ بيروت 1979 ـ ص 86 ـ 87.

56 ـ نفس المصدر ـ ص 74.

57 ـ عن شيعة مكة والمدينة، راجع :

ـ الخليلي، جعفر ـ موسوعة العتبات المقدسة ـ قسم المدينة المنورة ـ دار التعارف ـ بغداد 1970 ـ ص 257.

ـ الهاجر، يوسف ـ البقيع ـ مؤسسة البقيع ـ بيروت 1990.

58 ـ BABKAHAN AL-IRAK (1970-1990) P 41

59 ـ بطاطو، حنا ـ العراق ـ الكتاب الأول ـ مؤسسة الأبحاث ـ بيروت 1990 ـ ص 205 ـ 221.

60 ـ ماسنيون ـ مصدر سابق ـ لاحظ «تفريس» ابراهم السامرائي للتسميات الآرامية الشائعة في البصرة ـ ص 74 ـ 78.

61 ـ بطاطو ـ مصدر سابق ـ الكتاب الأول ـ ص 242 ـ راجع خصوصاً الفصل الأول السابع عن «السادة» أنه من أغنى وأطرف فصول الكتاب.

62 ـ نفس المصدر ـ الكتاب الثالث ـ ص 13 و 313.

63 ـ مصدر رقم (58) ص 83.

64 ـ نفس المصدر ـ ص 104.

65 ـ الجواهري، محمد مهدي ـ ذكرياتي ـ دار النهرين ـ دمشق 1988 ـ ص 163.

66 ـ نفس المصدر ـ ص 147.

67 ـ حول نظريات أصل الأكراد، راجع مثلاً :

ـ الحاج، عزيزـ القضية الكردية في العشرينات ـ المؤسسة العربية ـ بيروت 1984 ـ ملحق تعريفي.

ـ الموسوعة الاسلامية باللغة الفرنسية أو الانكليزية ـ مادة (KURDE).

68 ـ عن دور الشعوب القادمة من زاغاروس في تاريخ العراق القديم، راجع أي كتاب عن تاريخ العراق، مواد : (غوتيون، كاشيو، حوريون) منها مثلا:

ـ دلو ـ مصدر سابق.

كذلك:

ROUX GEORGES - LA MESOPOTAMIE-SEUIL- PARIS 1985

69 ـ راجع مثلاً :

جريدة المؤتمر العراقية ـ لندن ـ عدد 57 ـ 1996 ـ مقالة (سامي شورش) عن اليزيدية.

70 ـ راجع مقالتنا عن (الهوية العراقية) ـ جريدة القدس 23ـ 2ـ 1995.

71 ـ فارج، فيليب ـ المسيحيون واليهود في التاريخ العربي والتركي ـ سينا للنشر ـ القاهرة 1994 ـ الفصل السادس.

72 ـ زين ـ نشوء القومية ـ مصدر سابق ـ ص 86.

73 ـ هويدي، مصطفى علي ـ تاريخ الوطن العربي وحضارته ـ اللجنة الشعبية للتعليم ـ ليبيا 1993 ـ ص 233.

74 ـ راجع الرد الجيد والمفصل في كتاب :

ـ طرابيشي، جورج ـ مذبحة التراث ـ دار الساقي ـ بيروت 1993 ـ ص 73 ـ 129.

75 ـ الغريب، عبد الله ـ وجاء دور المجوس ـ بلا دار نشر ـ طبعة رابعة 1985 ـ ص 56.

التشيع العراقي، وريث أديان النهرين

ثمة اصرار غريب من قبل ورثة التشويه الطائفي العثماني على اعتبار التشيع حالة فارسية أولاً وأخيراً. والحقيقة التي أشرنا اليها سابقاً ان الهدف الأول والأخير من كل عملية التشويه والتفريس التي جرت لكل تاريخ العراق منذ سقوط بابل وحتى الآن، هو: «تفريس الشيعة» ونفي الانتماء الوطني عنهم خدمة لأهداف الدولة العثمانية في صراعها ضد ايران الشيعية. ولقد نجح هؤلاء القوميون المتعثمنون في غايتهم خير نجاح. لكنهم لسذاجتهم وانقيادهم للميراث العثماني الطائفي، لم يدركوا انهم بعملهم هذا قاموا بتقطيع الوطن وتاريخه وهويته الجامعة، وهم هيأوا بذلك لعزل الدولة عن الأغلبية الساحقة من مواطنيها ودفعها لممارسة الدكتاتورية كوسيلة وحيدة لتعويض فقدان القاعدة الاجتماعية الممثلة لكل مكونات الأمة العراقية.

إن معرفة جذور التشيع العراقي تتطلب البحث في تاريخ المجتمع الذي صنع هذا التشيع. لو أخذنا نماذج من الحواضر المعروفة التي شكلت وتشكل حتى الآن مراكز التشيع في العراق، لاكتشفنا ان التشيع العراقي نشأ وترعرع في بيئة عراقية أصيلة بعيدة عن المؤثرات الفارسية المزعومة. وان التشيع العراقي ما هو إلا خلاصة لتراكم التجارب الدينية في بلاد النهرين منذ ديانة الكواكب السومرية السامية حتى المانوية البابلية والمسيحية النسطورية العراقية.

مثلاً، مدينة «النجف» المرتبطة بحاضرة الحيرة والكوفة، هذه المدينة تقع ضمن منطقة بابل الكبرى حاضرة النهرين التاريخية والتي ظلت مقدسة لدى العراقيين حتى بعد دمارها. لهذا أطلق النساطرة تسمية (كنيسة بابل) على كنيستهم الكبرى وكذلك فعل المانوية. لقد ورث الشيعة هذا التقديس لبابل وعبروا عنه من خلال اختيارهم للنجف كمركز للمرجعية العليا والحوزة العلمية الأولى. لم يكن صدفة أن يكون قبر الامام علي في النجف، وهو الذي اختار الكوفة (المحاذية تماماً للنجف وبابل) عاصمة للخلافة الاسلامية. ان تأثير ميراث بابل في الشيعة ليس افتراضاً سطحياً، بل هناك دلائل كثيرة تؤكد هذا نورد منها على سبيل المثال: حسب ياقوت الحموي في (معجم البلدان) ان الشيعة يعتقدون أن النبي ابراهيم أتى

من بابل واشترى النجف وقال أنه سيُحشر مع أولاده في ذلك الموضع سبعون ألف شهيد[1]. إن طقوس عاشوراء تذكر بطقوس أهل النهرين بالاحتفال بغياب تموز في ظلمات الأرض، ثم بطقوس النساطرة بالاحتفال بذكرى صلب المسيح، وطقوس المانوية بالاحتفال بصلب ماني البابلي. أليس عاشوراء مقتبس من اسم عشتار امرأة تموز. في عاشوراء «كانت النساء يمشين بشعور منثورة وأوجه مسودة وملابس ممزقة يلطمن الخدود ويولولن حزناً على الحسين الشهيد»[2]، ونساء بابل كن يفعلن نفس الشيء حزناً على هبوط تموز الى العالم السفلي. و«عاشوراء كان يُعرف بكونه اليوم الذي تسقط فيه أول مطرة في السنة، والذي خلق فيه آدم وحواء والسماء التاسعة، ومنحت فيه الرسالة المقدسة لأرواح العشرة آلاف رسول»[3].

الذي يؤكد لنا أيضاً أن حواضر الشيعة المعروفة لم تكن فارسية رغم سيطرة الفرس على العراق لعدة قرون بل كانت عراقية بناسها ولغتها وديانتها، ان هذه الحواضر كانت مراكز مسيحية نسطورية قبل الاسلام وظلت كذلك خلال عدة قرون بعد الاسلام. لو أخذنا النجف مثلاً فإن هذه المدينة ظلت لقرون بعد الاسلام تزخر بالنشاط النسطوري السرياني. المصادر التاريخية تتحدث عن وجود عدة أديرة مسيحية في النجف: الحريق، الاسكون، هند، عبد المسيح، العذارة، مارت مريم، ودير حنا الكبير وغيرها من الأديرة[4]. ويذكر الشابشتي: «أن النصارى يخرجون يوم عيدهم (السكورة ــ أي الشكورة من السرياني) الى القبة في أحسن زي، عليهم الصلبان، بأيديهم المجامر، والشماسة والقسان معهم يقدسون على نغم واحد متفق الألحان ويتبعهم خلق كثير من متطربي المسلمين وأهل البطالة..»[5].

وكانت النجف المرتبطة بحاضرة الحيرة والكوفة معروفة بحسن حاناتها وجودة خمرتها، بحيث أنه يحكى أن الخليفة الوليد بن يزيد أتى من دمشق عبر صحراء السماوة مخصوصاً ليتذوق خمرة النجف والحيرة. وكان في الحيرة أربع حانات شهيرة، هي حانة عون، وحانة دومة (وهي سيدة مسيحية معروفة تغزل بها اسحاق الموصلي وأبو نواس)، ثم حانة شهلاء اليهودية، وكان حنين الحيري وهو نصراني من أشهر مطربي الحيرة وله أغان عن النجف (النجاف بالسرياني)[6].

أما سامراء (شمال بغداد) حاضرة الشيعة المهمة، فانها كانت كذلك منطقة مسيحية تحتوي العديد من الأديرة: سامراء، مار ماري، السوسي، باشهر، عبدون، صباعي، العذارى،

العلث، مارجرجيس[7]. واسم (سامراء، أو شامرا) هو اسم آرامي قديم وليس له علاقة بـ «سر من رأى» حسبما أشيع فيما بعد. إن دير سامراء الموجود منذ القدم قد اشتراه المعتصم وكون حوله مدينته وحول الدير الى مركز بيت المال[8]. وكان أسقف سامراء زمن الخليفة المتوكل هو «قيوم»، وفي زمن المعتمد اسمه «ايشو عزخا». لقد استمرت الأسقفية في سامراء حتى زمن المغول، وفي زمن اباقاخان ابن هولاكو كان مطران سامراء ابن «بريخشوع». ولقد لعب الآراميون دوراً في بناء سامراء ونقل تراثهم الهندسي البابلي، فان مأذنة سامراء الشهيرة (الملوية) التي بُنيت زمن المتوكل قد أشرف على بنائها المهندس دليل بن يعقوب النصراني[9] الذي استوحاه من الزقورات السومرية البابلية.. نضيف الى هذا ان أسماء الغالبية الساحقة من المدن والقرى العراقية (كذلك مدن وقرى الشام)، هي أسماء آرامية: مثل الكوفة (من نهر الكوثا)، وكربلاء (كرب ايل ـ خربة الله ـ خربة بمعنى قرية كما هو شائع حتى الآن في الشام). نفس الشيء بالنسبة لمعظم المدن العراقية: بعقوبة وديالى والبصرة (بصريانا) وميسان والمدائن ونينوى وتكريت وكركوك واربيل (اربع ايل)..

أخيراً، يمكننا تسجيل بعض الملاحظات التي تدل على علاقة التشيع بالأديان العراقية والسامية السابقة:

- تكرار الرقم (12) المقدس: الابراج البابلية (12)، تلاميذ المسيح وكذلك تلاميذ ماني (12)، والأئمة المقدسين لدى الشيعة (12).
- ذكرى غياب تموز في ظلمات الأرض، وذكرى صلب المسيح وصلب ماني البابلي، وذكرى استشهاد الحسين.
- تقديس الإلهة عشتار رمز كوكب الزهرة، وتقديس مريم العذراء، وتقديس فاطمة ومنحها لقب «الزهراء ـ من كوكب الزهرة رمز عشتار»، كذلك لقب «البتول» وهوكذلك لقب مريم البتول ـ أي الطاهرة.
- عودة الإله تموز كل عام رمز الربيع والخصب، وعودة المسيح المرتقبة لدى جميع الساميين بما فيهم المسلمون وخصوصاً الشيعة. وعودة المهدي المنتظر لدى الشيعة (الإمام الغائب)، وهذا المهدي يطلق عليه العراقيون بما فيهم السنة (الخضر).

أخيراً، فكرة البناء الهرمي للمؤسسة الدينية ومراتب رجال الدين المتصاعدة والتي نجدها مشابهة تماماً لنظام الكنيسة النسطورية والكنيسة المانوية.

يمكن للباحث المتخصص أن يلاحظ الكثير من التفاصيل التي ورثها التشيع ، كما الاسلام بصورة عامة من أديان وثقافات الهلال الخصيب (العراق وسوريا) باعتبار هذه المنطقة هي الأقرب الى مكة والعرب جغرافياً ولغوياً وحضارياً ، وفيها تكونت أولى وكبرى الحواضر العربية الاسلامية مثل دمشق والكوفة وبغداد. طبعاً لا يمكن نكران تأثير الأديان والثقافات الايرانية والمصرية والهندية والاغريقية والمغاربية والأندلسية التي أسهمت بدرجات مختلفة في صنع هذه الحضارة الاسلامية العالمية.

قائمة المصادر

1ـ الخليلي ، جعفر ـ موسوعة العتبات ـ قسم النجف ـ ج9ـ ص 68ـ دار المعارف ـ بغداد ـ 1965.

2ـ نفس المصدر ـ قسم كربلاء ـ ج1ـ ص373.

3ـ نفس المصدر.

4ـ مصدر (1) ـ ص 27ـ57.

5ـ نفس المصدر ـ ص 53.

6ـ نفس المصدر ـ ص40ـ57.

7ـ نفس المصدر ـ قسم سامراء ـ ص29ـ74.

8ـ نفس المصدر ـ ص 15.

9ـ نفس المصدر ـ ص89.

ملاحق معلوماتية

خاصة بالعلاقات الحضارية

التاريخية بين العراق وايران

إحصائيات سكان المشرق المسيحيين أثناء الفتح الاسلامي

هذان الجدولان يبينان الحقائق التالية :

ـ ان سكان الجزيرة العربية زمن الفتح لا يتجاوزون المليون وهناك تقديرات قصوى لا يتجاوزون المليونين.

ـ ان سكان العراق يتجاوزون التسعة ملايين ، وهناك تقديرات دنيا تصل الى سبعة ملايين. بالنسبة لسوريا الطبيعية(الشام) فانها تبلغ أربعة ملايين وقد تتدنى الى ثلاثة ملايين في تقديرات أخرى. والغريب ان مصر كانت عند الفتح في حالة سكانية كارثية بسبب الظروف الطبيعية والصحية والاقتصادية التي سادت تلك القرون السابقة للفتح ، ويبلغ العدد أقل من ثلاثة ملايين وقد يرتفع الى أربعة ملايين حسب تقديرات أخرى.

ـ ان أكثر من (90٪) من سكان النهرين وسوريا ومصر كانوا على الديانة المسيحية مع نسبة من اليهود لا تتجاوز الـ (5٪).

ويمكن ان نفترض بصورة أكيدة وجود أقليات أخرى من الصابئة والمانوية في العراق ، اضافة الى أقلية من (المجوس) بسبب وجود الاداريين والدهاقنة (مسؤولي الضرائب) الايرانيين أثناء السيطرة الساسانية قبل الفتح. ان وجود 90٪ من المسيحيين في العراق يؤكد على ضآلة الفرس (المجوس) الذين استوطنوا في العراق. ولكن يمكن ان نفترض أن الكثير من الايرانيين والآسيويين استوطنوا في العراق وتزاوجوا مع العراقيين واندمجوا فيهم واعتنقوا ديانتهم وتكلموا لغتهم الآرامية ، وهؤلاء (الأعاجم) اعتبروا سرياناً عراقيين خارج نطاق الوجود الاداري الايراني. نفس الحالة يمكن افتراضها بالنسبة للوجود (البيزنطي) في سوريا ومصر :

ملاحظة للقارىء، نرجو إضافة ثلاثة أصفار الى كل رقم في الجدول. مثلاً رقم (1000) يعني مليون

الطوائف في الأزمنة الأولى للخلافة العربية (بالآلاف)

الاقليم	اجمالي السكان	المسيحيون	اليهود
شبه الجزيرة العربية	1000	100	10
سوريا	4000	3960	40
بلاد النهرين	9100	9009	91
مصر	2700	2673	27
الاجمالي	16800	15742	168

السكان بحسب الطائفة في سوريا، من عام 633 الى عام 1580 (بالآلاف)

السنة	الاجمالي	المسلمون	المسيحيون	اليهود
633	4000	0	3960	40
730	4000	250	3710	40
900	4000	2000	1960	40
1199	2700	n.d.	n d	n.d
1343	1200	1068	120	12
1350	1000	890	100	10
1580	1419	1291	115	13

من كتاب «المسيحيون واليهود في التاريخ الاسلامي ـ فارج وكرباج ـ ص 44 – 45»

تعريب وأسلمة سكان العراق الآراميين (الأنباط)

إن هذه المقاطع من كتاب المؤرخ (الدوري) تكشف عن ان سكان العراق عند الفتح الاسلامي كانوا يتكلمون الآرامية من الشمال حتى خليج البصرة. ويبدو أن عملية التعريب ونشر الاسلام بدأت في الحواضر التي استقرت فيها الجيوش العربية مثل البصرة والكوفة والموصل، لأن سكان هذه الحواضر اضطروا بسهولة الى التخلي عن ديانتهم المسيحية النسطورية وتبني اللغة العربية وحمل القاب عربية من أجل تسهيل حصولهم على امتيازات الدولة الاسلامية والمشاركة في الجيوش والحصول على الغنائم. وتبين المصادر التاريخية أن سكان الأرياف بقوا عدة قرون بعد الفتح على ديانتهم المسيحية ولغتهم الآرامية. وقد أطلق العرب على الآراميين العراقيين والسوريين تسمية : (نبط ، أنباط).

وتكشف لنا هذه المقاطع عن أن الكثير من العراقيين ادعوا بالنسب الفارسي من أجل إغاظة الفاتحين العرب الذين استغلوا الفلاحين العراقيين واستولوا على أراضيهم وفرضوا «الجزية» حتى على الذين اعتنقوا الاسلام. ثم ان كلمة «فارسي» في ذلك الوقت لم تكن تعني أبداً قومية معينة بل كانت مثل كلمة «عثماني» و «بيزنطي» أي جميع الشعوب التي كانت خاضعة للامبراطورية الفارسية من ايرانيين وتركستان وأرمن وآراميين :

❖ وكان الفلاحون في القرى في صنف الأحرار نظرياً، إلا أنهم في الواقع لم يكونوا دائماً كذلك وكانوا يؤلفون جزءاً كبيراً من الشعب ويتكلمون الآرامية مع العربية.

ويستعمل لفظ (النبط) للاشارة الى الفلاحين الذين يتكلمون الآرامية في العراق وخصوصاً في منطقة البطيحة. وقد أوضح ابن الكلبي ان العرب كانوا يطلقون لفظ (النبط) على سكان العراق الذين لم يكونوا رعاة ولا جنوداً ويسمى المسعودي فلاحي العراق (النبط) و(السريان).. ويصيب المسعودي حين يعتبر النبط سكان العراق القدماء وأن الفرس أضعفوهم. ثم يذكر أن النبط دخلوا في جملة الفرس «وانتسبوا اليهم»، وأنه لما حصلت الفتوحات الاسلامية ذهب بعض النبط الى الانتساب للفرس «وأنفقوا من النبطية لزوال العز الذي كان فيهم، وانتمى جلهم الى ملوك الفرس». ثم يقتبس شاعراً يتساءل :

«وأهل القرى كلهم يدعون بكسرى قباذ فأين النبط؟»

ليظهر بذلك أن عامة القرويين من النبط. وأخيراً يتحدث عن قرى نبطية قرب سامراء.

ولقد قامت الطبقة المتوسطة من الآراميين بدور مهم في الحركة الثقافية في العراق وأخرجت عدداً من الأطباء الكبار والفلكيين والعلماء والمترجمين. وقد كانت حرّان المركز الأول للثقافة الآرامية وفيها بقية الدين الصابئي القديم الذي يدور حول عبادة الكواكب. وكانت هناك مجموعات كبيرة نسبياً من الآراميين المسيحيين في تكريت والرقة وقرب الموصل.

وكان فلاحو السواد فقراء جداً، يقول المقدسي في معيشة أهل البطيحة : «عيش ضيق، إدامهم السمك، وماؤهم حميم»... ثم يصف النظرة الاجتماعية اليهم فيقول : «وعقلهم سخيف ولسانهم قبيح» والكثير من هؤلاء الأنباط كانوا من الأقنان ويعيشون في القرى ويعتبرون جزءاً من الأرض. وكان هؤلاء في الأصل من الفلاحين النبط الأحرار، ليس لهم ما يملكون إلا مقدرتهم على العمل. وعندما تنتقل ملكية الأراضي التي يشتغلون عليها سواء أكان ذلك بالفتح أو بالشراء كانوا يبقون على الأرض، كان السادة الجدد يعتبرونهم جزءاً من ملكيتهم الجديدة ويعاملونهم معاملة العبيد. وقد حصل هذا قبل الاسلام، وجاء الاسلام فألغى الفوارق الطبقية بين المغلوبين وحرر العاملين في الأرض، إلا أن قسماً منهم بقوا عبيداً في الواقع».

من كتاب «تاريخ العراق الاقتصادي» ـ عبد العزيز الدوري ـ ص 31ـ32 و 76ـ77.

العقيدة القومية الإيرانية

هذا تعريف مكثف لطبيعة العقيدة القومية الايرانية، وهي لا تختلف كثيراً عن العقيدة القومية العربية:

❖ بالاضافة الى ذلك فإن النظام البهلوي، مثله في ذلك مثل النظام النازي في ألمانيا والفاشي في ايطاليا يروج أيديولوجية قومية تقوم على الشوفينية وعلى الحنين الامبراطوري وعلى عبادة شخصية القائد.. وهناك في هذا الصدد نقطة شبه محددة وهي أن الشاه نفسه قد أخذ على عاتقه اعادة تأكيد ايمانه بالنظرية العرقية القائلة بأن ايران بلد «آري»، كما انه أضاف الى الألقاب الرسمية لقب آريامهر (نور الآريين). وقد بدأ اصطناع ميثولوجيا قومية ايرانية خاصة في القرن التاسع عشر من جانب المثقفين، وقد شجع رضا خان فيما بعد ذلك تشجيعاً عظيماً فقد عمل على إعادة كتابة التاريخ الايراني للتقليل من أهمية الفترة الاسلامية التي بدأت في القرن السابع عندما فتح العرب إيران. وبدلاً من ذلك عمد الى تفخيم الماضي ما قبل ـ الاسلامي الذي يمتد من القرن الخامس الميلادي وشجعت الدولة أعمال الحفريات الأثرية للتنقيب عن مخلفات هذه الفترة. وكان هذا التاريخ الدعاوي هو ما يتعلمه الأولاد في المدارس، والصحف الايرانية مليئة بقصص شوفينية حول كيف اخترع هذا الملك أو ذاك الاستراتيجية العسكرية وكيف أن الحضارة الايرانية فاقت كل ما عداها. وهنا تستخدم الملكية والقومية كي تعضد الواحدة منهما الأخرى ذلك إن إحدى الموضوعات الرئيسية في ايران اليوم هي ان ايران لا تكون قوية إلا إذا كانت محكومة لشاه قوي وكانت الاحتفالات بمرور 2500 سنة على الملكية التي أقيمت عام 1971 مخصصة للتأكيد على هذه العلاقة.

ويتضمن رفض الفترة الاسلامية نشر فكرة شوفينية ضد العرب الذين تلام «بربريتهم» على كل أراضي ايران اللاحقة.

ولعل من المثير للسخرية الى حد بعيد ان كافة الأدلة المتوفرة تشير الى ان العرب فتحوا ايران بسهولة بالغة لأن جمهرة السكان الايرانيين رحبت بهم. فقد رأى هؤلاء في الغزو العربي وسيلة للاطاحة بحكامهم من الشاهات المتجبرين واحتضنوا الاسلام جزئياً على الأقل بوصفه دين أكثر ديمقراطية من العقيدة الزرادشتية التراتبية التي كانت مسيطرة في إيران حتى ذلك

الحين.. وهناك تشويه آخر قام به النظام بدأه رضا خان عام1936، ذلك هو محاولة تطهير اللغة الفارسية من الكلمات الأجنبية ــ وخاصة العربية والتركية ــ واستبدالهما بـ «فارسية نقية».. ويفترض في الوثائق الرسمية في الجيش ان تكون مكتوبة بهذا الأسلوب الجديد، ولكن الفشل كان نصيب هذه السياسة بشكل عام: فالشاه نفسه لا يتكلم هذه «الفارسية النقية» على الاطلاق، كما ان النظام تردد على الدوام في القيام بأحوج الاصلاحات جميعاً، أي استبدال الخط العربي غير الفعال بخط تسجل فيه كل الحروف سواء أكانت حروف علة أو حروفاً ساكنة. وكان أتاتورك قد قام بهذا الاصلاح في العام 1982».

من كتاب «مقدمات الثورة في ايران ـ فريد هوليدي ـ ص 84ـ85»



مناطق الوجود العراقي التاريخي
في إيران وتركستان

صحيح أن العراق (بلاد النهرين) كان حضارياً ولغوياً جزءاً من المجموعة السامية ــ العربية وبعلاقة روحية متميزة مع بلاد الشام. إلا أن العلاقات السكانية ظلت وطيدة مع الشرق الاسيوي (الايراني ــ التركستاني ــ القفقاسي الأرمني). وظلت الهجرات الاستيطانية والغزوات مستمرة نحو العراق منذ فجر التاريخ وحتى القرن الحالي. لهذا فإن العراقيين ارتبطوا سكانياً مع هذه المناطق وكثرت الهجرات العراقية التجارية والدينية والعسكرية نحو ايران وارمينيا وتركستان. العراقيون هم الذين نشروا المسيحية والمانوية في هذه المناطق، ولازالت الآثار المسيحية السريانية في الهند والصين وتركستان وايران وارمينيا. أما الفتح الاسلامي لآسيا فإن الجيوش كانت بأغلبيتها من سكان العراق (العرب والآراميون) ومراكز الانطلاق والقيادة كانت في الكوفة والبصرة.

هنا لمحة عن وجود العراقيين في خراسان التي تشتمل حالياً على أجزاء من شرق ايران وأفغانستان وتركمانستان للعلامة ماسينيون:

❖ وقد كان تأثير البصرة عظيماً في خراسان ولا سيما في أقاليمها الأربعة: هَراة ونيسابور وبلخ ومرو..

أما بلخ فهي بَختر القديمة بوابة أسيا الوسطى، وهي على اتصال بطريق الحرير والصين، كما انه الطريق الذي كان الترك وأصحاب الأغنام يسلكونه في تنقلهم الى أعالي الجبال ما بين أُش وكشغر وتَرفان وهو كذلك الطريق الذي اتبعه الاسكندر. ولعل «بلخ» أكثر عواصم خراسان آثاراً بصرية. ومن الناحية السياسية لما كان الأزديون هم المؤسسون لبلخ فُوِّض البكريون قبل سنة 132هـ بادارتها، وكان رؤساء بني شيبان القائمين على طريق القوافل التجارية فيها (النقيب الأول أبو خالد الشيباني (فطر 129 هـ)، وفي فانين كان الوالي بصرياً في سنة 130هـ وقد توفي والي خراسان سنة 140هـ).

إن أمراء «بلخ» وهم بنو ماهان (من سنة 130 الى 260هـ) الذين جُرِّدوا عن إمارتهم من قبل بني فَريغون القادمين من جُوزجان كانوا أتباع النقيب الشيباني: منهم عبسى (المتوفي سنة 134هـ) وابنه (رئيس الحرس العباسي في بغداد سنة 158هـ، انظر ابن خلكان ط. وستنفلد 447/1 ـ 466)، وبعد موت والي خراسان سنة 191هـ كان لحفيدة عيسى بن علي ثروة طائلة في «بلخ» (انظر الطبري 713/2)، ومنهم داود أمير بانجور (قرب بلخ) كان والياً على البصرة سنة 206هـ.

ومن الناحية العقلية تبع البلخيون النمط البصري؛ ففي «الحديث» كانوا متشددين ولكنهم منهجيون، ومنهم مقاتل بن سليمان وكان ذا أصول في تفسير القرآن (انظر مجموعتنا لسنة 1929 ص 194 ـ 210)؛ وفي ميدان الاعتزال كان للبلخيين مدرسة خاصة. وفي الزهد كانوا أصحاب النظريات «للمراحل» المكتسبة (شقيق، حكيم الترمذي) وأتباع الحلاج المتطرفين الذين عرفوا بـ «العطارين»؛ وفي الفلسفة كان أبو زيد البلخي الباحث المستقل. وفي التاريخ الأدبي كان البرمكيون وهم أصلاء في مدينة بلخ، قدموا اليها من البصرة قبل أن يستقروا في بغداد.

أما «مرو» فقد جاء اليها البصريون من هواة؛ وقد تركوا بكراً وعبد القيس في «مرو الروذ» «وطالقان». وقد استقر في «مرو» كل من بني تميم وبني خزاعة والأزديين وعمروها.

وإذا تأملنا في الجيش الخراساني الذي كان نواة للجالية العباسية المستقلة الى قطاعات تتبع رؤساء عسكريين وذلك في الجانب الغربي سنة 762م كما في الجانب الشرقي في سنة 674م، وهذه الجالية كانت مستقرة في مرو الروذ، أمكننا بقوة أن نتحرى الاشعاع البصري في المحيط البغدادي منعكساً وآتياً عن طريق «مرو». ومن هذا التأثير ما كان قبل ذلك في علم الحديث،

فقد تأثر البغداديون باثنين من علماء الحديث من «مرو» هما ابن المبارك (المتوفى سنة 181 هـ في هيت) وهو حنظلي من غطفان، وابن حنبل الشيباني الذُهلي من بكر (أو بالأحرى حرقوصي من تميم). ان تخطيط بغداد في الجانب الغربي يشير الى أن باب الشام للضبيين ولجماعات من طوس وابيورد (تميم، انظر ميهنة مواطن الزاهد أبو الخير الذي نزل أحفاده في بغداد)؛ وأن باب البصرة للتميميين وبني الحارث من أهل البصرة (والى جانب الكنديين في الكوفة وهم الأشاعثة)؛ وان باب المحول لبني الحارث من اهل مرو وأبيورد والأهواز (خوز). أما الجانب الشرقي فلخزاعة وبلحارث (المخرِّم) وتميم.

وبصرف النظر عن الاتصالات غير المنظمة والمقصودة مع الرقة (حيث الاسطرلاب الحرّاني الذي عرفه التميميون في الكوفة) والاتصال مع الموصل، لم تفلح الكوفة إلا في مسألة واحدة هي توليد «جالية ـ Colonie» فكرية كانت قد تبنتها، وكان ذلك في مدينة «قم» تلك المدينة العجيبة «المقدسة» عند الشيعة حيث قُدِّست فيها السيدة فاطمة ــ رضي الله عنها ـ وتبدو عظمتها وقدسيتها في انها عندهم قد تحولت الى «فاطر» من «الفطرة» والى ليلة القدر والمسجد الأقصى، والدرة البيضاء و«كوني ــ Kuni» وهي المحور من الصفوة المختارة الخمسة من أهل «العَبا». لقد كانت «قم» إقطاعاً للمرازبة الكوفيين من بني الأشعر اليمانيين ومن الطلحيين الذين ينتسبون الى الأمير الثالث طلحة (المتوفي سنة 110هـ) طوال الحقبة الممتدة بين 83 الى 270 هـ تقريباً. ان هذه «النحلة» الفاطمية التي نجدها في سورية لدى الشعراء «النصيريين» «المهلبيين» تبدو قد تطورت بعيداً عن النظريات الغنوصية لأتباع سلمان الفارسي في المدائن.

وكانت البصرة قد أدخلت «التقنيات ــ Techniques» شيئاً فشيئاً الى «سيراف»، كما أدخلت صناعة الدباغة استفادة من خشب الطلح في عدن وذلك قبل سنة 530هـ بوساطة الأسرة المنذرية الذين قدموا من سيراف (ذكر ذلك ابن المجاور في مخطوطة في باريس رقمها 6021).

كلمة عن نيسابور (ابراشهر، نوشهر):

كانت نيسابور مأهولة بالمعمرين البصريين (Colons) من القبائل: الليث وسُلَيْم وبني عامر وباهلة، وكان فيها من العرب من أصحاب القطائع (Apanages) من البيوتات والأسر التي تنتمي الى بني حنيفة والفضلية والشيشانية والقرشيين والتميميين والضبيين والذبيانيين

الذين قدموا جميعاً من البصرة. كما نجد بين ولاة نيسابور الربيع الحارثي (المتوفى سنة 53 هجرية الذي كان الحسن البصري كاتباً له) والليثي والحنفي والأموي والتيمُلي والأزدي (المهلّب) والباهلي والحرشيّ (القيسي) والكلابي والقسري والسُّلمي (مؤرخ الصوفية أبو عبدالرحمن السلمي) والهلالي والكناني؟

وفي نيسابور تجتمع أفواج الحجيج من البصريين متوجهة أنظارها نحو مكة.

وفي سنة 265هـ اجتمع وجهاء نيسابور يعضدهم جماعة من العُبّاد سُمُّوا «المطّوعة»، كما كانت الحال في البصرة، وقاموا بحملة على الطوائف الدنيا من العيّارين والجلاّدين والحجّامين الذين يدعون الى المشاركة في الملكية. وكذلك كان بنو مجاشع في نيسابور وقد كانوا قد قدموا من البصرة. وكان رئيس المتطوعين في نيسابور ذهلياً (ي. ف ابن محمد المتوفي سنة 267 هجرية). وكان صديق الصوفي أبو عثمان في الحيرة .

لقد اتخذت الجماعات البصرية من هذه المدينة حصناً منيعاً للمذهب السني ضد المذهب الشيعي المتعاظم شأنه في مدينة مشهد.

من كتاب «خطط البصرة ـ العلامة ماسينيون ـ ص 43 ـ 50»



دور سريان العراق والشام
في النهضة الحضارية العربية

رغم العناوين الكبرى عن دور «الفرس» في صنع الحضارة الاسلامية، إلا أن تفاصيل التاريخ تكشف لنا مدى المبالغة والطنين المزيف عن دور الفرس، على حساب التجاهل والتحريف لدور المشارقة السريان من عراقيين وشاميين. لأنه بكل بساطة تم اعتبار هؤلاء السريان أجانب أعاجم لأنهم ليسوا «عرباً أقحاحاً»! هنا نورد مقارنة سريعة عن دور الفرس والهنود مقارنة بدور السريان في إحداث النقلة الحضارية الكبرى من خلال حركة الترجمة التي تمت في بغداد العباسية :

❖ الترجمة من اللغتين الفارسية والهندية

هناك ظاهرتان بارزتان في موضوع حركة الترجمة تستحقان الوقوف عندهما قليلاً لمعرفة أسبابهما. الأولى عدم الاهتمام بكتب تاريخ أمة اليونان وأبها، والثانية عدم النقل من التراث الفارسي والهندي إلا ما ندر. إن سبب عدم نقل شيء يستحق الذكر من كتب تاريخ اليونان وأدبها واضح، وهو أن ما يحتويه هذان الموضوعان من الأساطير بعيد عن العقلية العربية، وما يشوبهما من الوثنية وتعدد الآلهة يعتبر كفراً يخالف روح الإسلام. أما النقل من اللغة الفارسية فقد كان ضئيلاً جداً قليل الأثر. وسبب ذلك كما نرى، أن الفرس لم يكن لهم تراث طبي يستحق النقل لغلبة الطب اليوناني عليه. وان تراثهم الأدبي والتاريخي محشو بالأغاليط والخرافات والمبالغة مما لا يستسيغه العقل. يقول المؤرخ اليعقوبي: «فارس تدّعي لملوكها أموراً كثيرة مما لا يقبل مثلها، من الزيادة في الخلقة حتى يكون للواحد عدة أفواه وعيون، ويكون للآخر وجه من نحاس، ويكون على كتفي آخر حيّتان تطعمان أدمغة الرجال، وطول المدة في العمر، ودفع الموت عن الناس، وأشياء ذلك مما تدفعه العقول ويُجري فيه مجرى اللعبات والهزل، ومما لا حقيقة له». أما تراثهم الروحي فقد كان ثنوياً يقوم على الزعم بأن النور والظلمة أزليان، وذلك مما يعتبر شركاً في الإسلام. سبق أن أشرنا الى أن حركة الترجمة كانت بدأت بنقل الكتاب الهندي السد هانت في علم الفلك عند الهنود. وكانت ترجمت بعض الكتب في الرياضيات وبخاصة في الحساب.

أبرز المترجمين وما ترجموه من الكتب

لقد كانت حصيلة حركة الترجمة أن نُقل الى اللغة العربية واللغة السريانية كثير من كتب اليونان وغيرهم في الطب والفلسفة والرياضيات. وهي العلوم التي نالت اهتمام العلماء العرب آنذاك «بحيث لم يعد باقياً الشيء الكثير من العلم المعروف في عالم ذاك الزمن. ولم ينقل الى العربية». وقد أحصى ابن النديم والقفطي وابن أبي أصيبعة جانباً مهماً من تلك الكتب مع مترجميها مما تيسرت لهم معرفته. وفيما يأتي نذكر أبرز مترجمي القرن الثالث وأهم ما ترجموه من الكتب:

حنين بن اسحق

أبو زيد العبادي، كان ماهراً في الترجمة الى جانب مهارته في الطب. وقد انصرف الى ترجمة الكتب اليونانية وإخراجها باللغة العربية أو السريانية، إذ كان فصيحاً في اللسان اليوناني واللسان العربي «دخل الى بلاد الروم لأجل تحصيل كتب الحكمة وتوصل في تحصيلها غاية إمكانه، وأحكم اليونانية عند دخوله الى تلك الجهات، وحصل نفائس هذا العلم».

كان في بيت الحكمة قسم خاص بالترجمة، فأناط المأمون رياسته بحنين ليتولى شؤون الترجمة والإشراف عليها. وبلغ من حرص حنين واهتمامه بما أوكل إليه أن تولى بنفسه ترجمة عدد كبير من الكتب الى العربية أو السريانية، كما كان يعيد النظر فيما يترجمه غيره من النقلة ويصلحه، بحيث يمكن القول إن جميع ما ترجم في بيت الحكمة في عهد حنين قد عرض عليه وراجعه وأجرى فيه ما رآه ضرورياً من التصحيحات قبل صدوره.

وقد أولى المأمون حركة الترجمة عناية فائقة، فكان يتابع أعمال حنين ومن معه. ويقول ابن أبي أصيبعة أنه رأى عدداً من كتب جالينوس وغيره بخط الأزرق كاتب حنين وعلى بعضها هوامش بخط حنين باليوناني، على تلك الكتب علامة المأمون.

ويستدل من رسالة حنين أن ما ترجمه من كتب جالينوس الى السريانية جاوز المئة كتاب، وما نقل منها الى العربية تسعة وثلاثون كتاباً، وهي في الطب والفلسفة. ويتضح من قائمة ابن النديم بما ترجم من كتب جالينوس وشروحه على بعض كتب أبقراط، أن حنيناً ترجم أغلب الكتب الستة عشر التي يقرأها طلاب الطب على التوالي من كتب جالينوس.

وترجم حنين بن اسحاق من كتب أرسطو مايلي: كتاب قاطيغورياس (المقولات) الى اللغة العربية، وكتب باريارمانياس أو باريرمينياس (العبارة) الى اللغة السريانية، وقسماً من كتاب انولوطيقا الأول (التحليل) الى اللغة السريانية، وبعض أقسام من كتاب انولوطيقا.

ثابت بن قُرَّة

كان ثابت بن قرة الحرَّاني الرياضي الفيلسوف المتوفى سنة 288 ممن برعوا في الترجمة وبرزوا فيها. ويظهر من عدد الكتب واختلاف مواضيعها مما نقله الى اللغة العربية من اللغتين اليونانية والسريانية، انه كان يجيد هاتين اللغتين الى جانب اللغة العربية. يقول القفطي عنه: «وأما نقله من لغة الى لغة فكثير». ويقول ابن أبي أصيبعة: «كان جيد النقل الى العربية، حسن

العبارة، قوي المعرفة باللغة السريانية وغيرها». ويقول عنه المستشرق أوليري: «وهو عالم يعرف اللغة الاغريقية والسريانية والعربية». وجاء في تراث الاسلام عنه «كان ثابت يعرف اللغتين السريانية واليونانية اضافة الى العربية فترجم الكثير عن هاتين اللغتين الى العربية». وجاء في تراث العرب العلمي «كان ثابت يحسن الى جانب اللغة العربية اللغات السريانية واليونانية والعبرية، ولما عمل في نقل بعض الكتب من اليونانية أبدى كفاية عالية بحيث عدّ من كبار المترجمين».

اسحاق بن حنين

تعلم اسحق صنعة الطب ومارسها بمهارة فكان واحد عصره فيها. وكان يجاري أباه حنيناً في سعة معرفته باللغة العربية واللغتين اليونانية والسريانية، بل كان يزيد عليه فصاحة، وقد عمل معه في الترجمة فتميَّز بصحة النقل وجودته، إلا أن نقله للكتب الطبية قليل جداً بالنسبة الى ما نقله من كتب الحكمة. لحقه الفالج آخر عمره وبه مات في ربيع الآخر سنة 298.

حبيش بن الأعسم

هو ابن أخت حنين بن اسحاق وقد درس عليه صنعة الطب. وأتقن اللغتين السريانية واليونانية الى جانب اللغة العربية، وحذا حذو خاله في الترجمة من حيث الدقة وأكثر نقله من اللغة السريانية، وكان حنين يقدمه ويثني على نقله. وكان ممن ينقلون الكتب الى اللغة العربية لأبناء موسى بن شاكر. يقول عنه ابن أبي أصيبعة «هو ناقل مجود يلحق بحنين واسحاق».

قسطاً بن لوقا البعلبكي

كان بارعاً في علوم كثيرة منها الطب والفلسفة والهندسة والموسيقى، فصيحاً باللغتين اليونانية والسريانية وباللغة العربية، جيد النقل، وقد نقل عدداً من الكتب وأصلح نقولات كثيرة. دخل بلاد الروم وجمع عدداً من التصانيف القديمة وعاد الى الشام. ويقول أوليري أنه تعلّم في بلاد الإغريق ولذا امتاز بالترجمة. وقد استدعي الى العراق ليعمل في الترجمة. ويعتبر قسطاً من فلاسفة المترجمين ومن مترجمي بيت الحكمة المشهورين وقد عمل بمعية حنين بن اسحاق. توفي قسطاً في أرمينيا حوالي سنة 300.

متى بن يونس

أبو بشر من أهل دير قُنَّى، أحد الأديرة القريبة من بغداد، ودرس في مدرسة مار ماري التابعة لهذا الدير، عاش ببغداد ودرس كتب أرسطو في المنطق على ابراهيم القويري. واليه انتهت رياسة المنطقيين في عصره، وصنف عدداً من الكتب والتفاسير في المنطق، ودرس عليه هذا العلم عدد كبير من الطلاب، وكانت وفاته ببغداد سنة328.

ترجم أبو بشر الى اللغة العربية كتب أرسطو في المنطق والطبيعيات منها: كتاب انولوطيقا الثاني (البرهان) نقله من السريانية، وكتاب سوفسطيقا (المغالطة) نقله من السريانية، وكتاب أبوطيقا (الشعر) نقله من السريانية كذلك، وكتاب الكون والفساد بتفسير الاسكندر الأفروديسي، وكتاب الآثار العلوية، ومقالة اللام من كتاب الإلهيات.

أبو عثمان الدمشقي

سعيد بن يعقوب من أهل دمشق سكن بغداد واشتهر بها طبيباً في أواخر القرن الثالث، وكان منقطعاً الى أبي الحسن علي بن عيسى وزير المقتدر بالله، وقد أناط به رياسة البيمارستان الذي أسسه في سنة 302 في محلة بالجانب الغربي من بغداد وأنفق عليه من ماله، ثم أضاف الى أبي عثمان رياسة جميع البيمارستانات في بغداد ومكة والمدينة. ولأبي عثمان الدمشقي عدد من التصانيف الطبية، وكان من النقلة المجيدين الى اللغة العربية. وذكره ابن النديم في قائمة المترجمين. وكان فصيحاً باللغتين اليونانية والعربية معتمد النقل.

نقل الى العربية مقالات من أصول الهندسة لإقليدس، وكتاب طوبيقا من ترجمة اسحق بن حنين الى السريانية. كما نقل قسماً من السماع الطبيعي، وكتاب الكون والفساد من الترجمة السريانية، وكتاب المدخل الى القياسات الحملية لفرفوريوس.

عيسى بن يحيى بن ابراهيم

أحد تلاميذ حنين بن اسحاق، وقد درس عليه صنعة الطب، وعمل معه في الترجمة في بيت الحكمة، وكان من الناقلين المجودين من اليونانية الى اللغة العربية وقد أثنى حنين على نقله، وكان عيسى يقلده في الترجمة، وله مصنفات في الطب.

ساهم عيسى بن يحيى في حركة الترجمة مساهمة فعالة فنقل عدداً من الكتب من اليونانية أو مما ترجم منها الى السريانية. ومما نقله الى اللغة العربية: كتاب السبعين مقالة للطبيب اليوناني أوريباسيوس، من اللغة السريانية. ونقل مما فسره جالينوس من كتب أبقراط: كتاب

عهد أبقراط وكان حنين نقله الى السريانية وأضاف اليه، فترجمه عيسى بالاشتراك مع حبيش، وكتاب الأمراض الحادة، وكتاب الفصول، وكتاب الأخلاط. وفسّر القسم السادس من كتاب ابيذيميا، كما فسّر كتاب طبيعة الانسان وكان حنين قد نقل نصه الى العربية.

اصطفن بن بسيل

من الكتّاب النحارير الحاذقين في الترجمة ممن عينهم المتوكل على الله ليعملوا بمعية حنين بن اسحاق عندما أناط به رياسة بيت الحكمة. ويظهر أنه كان جيد النقل، يقارب في نقله حنين بن اسحاق ولو أنه كان دونه فصاحة.

من كتاب «معالم الحضارة العربية ـ أحمد عبد الباقي ـ ص 272 ـ 286».



أهمية الترجمة السريانية في النهضة الحضارية

نكمل موضوع الترجمة بايراد هذا المقطع الذي يتحدث عن تأثير حركة الترجمة التي لولاها لما تفجرت الحركة الحضارية الكبرى في العصر الاسلامي. ومن جملة التأثيرات التي يتجنب الحديث عنها مؤرخونا المعاصرون هو التأثير اللغوي والعقلي الذي انتقل من اللغة السريانية الى اللغة العربية. والسبب منطقي جداً: ما دام جميع المترجمين كانت السريانية هي لغتهم الأم وهي لغة شقيقة للغة العربية، إذن فمن المعقول جداً أن يعتمد هؤلاء السريان على لغتهم السريانية في صياغة الترجمة العربية التي كانت لغة محدودة بالمفردات الصحراوية والشعرية. على هذا الأساس فإن اللغة العربية ما أصبحت لغة علمية فلسفية حضارية إلا بالاقتباس الكلي من اللغة السريانية بمفرداتها وجملها وبلاغتها. ومن الغباء أن يركز مؤرخونا المعاصرون على بعض المفردات الفارسية التي دخلت العربية لتبرير الحديث عن تأثير الفرس، بينما يتم تناسي التأثير الحاسم للسريانية على العربية، وذلك بسبب جهلهم للوجود السرياني في العربية، ولأن السريانية شقيقة للعربية ومن الصعب تحديد التأثير، كما لو نضيف اللون الأزرق الغامق على اللون الأزرق الفاتح، فيصبح لوناً واحداً، هو الأزرق:

❖ أهمية حركة الترجمة:

كان لحركة الترجمة ـ التي أولاها الخلفاء في بغداد وسامراء رعاية خاصة وشجعها رجال الدولة العربية وأعيانها، فنشطت وازدهرت في خلال القرن الثالث ـ أهمية خطيرة في مسيرة

الحضارة العربية. فقد ساعدت العلماء والدارسين على أن يتعرفوا على ثقافة الأمم السابقة وعلومها، في حقول الفلسفة والطب والرياضيات والفلك وأحكام النجوم وغيرها، وأن يلموا بها وينهلوا منها مما وسَّع آفاق تفكيرهم العلمي بما يناسب المستوى الحضاري الذي وصلوا اليه.. فأفادوا منها كثيراً في مختلف العلوم وبخاصة في الطب والفلسفة وعلم الفلك. فقد استفاد الأطباء مما اطلعوا عليه من كتب التشريح العديدة مما ترجم لأبقراط وجالينوس وغيرهما، لأن الدين الاسلامي لا يبيح المثلة بالانسان حياً أو ميتاً. فكانت هذه الترجمات خير ما وضح لهم مبهمات هذا الموضوع. كما أخذت مصنَّفاتهم الطبية تعكس جوانب عديدة من الطب اليوناني. فإن ما صنفه يوحنا بن ماسويه، وحنين بن اسحاق، وأبو بكر الرازي، وغيرهم من علماء الأطباء، كان متأثراً بما جاء في كتب جالينوس الى حد كبير.

كذلك انتفع رجال الدين وبخاصة علماء الكلام منهم، بكتب الفلسفة والمنطق والجدل. وقد ظهرت آثار ذلك على عدد غير قليل منهم. وكان علماء المعتزلة أكثر استفادة من غيرهم فصاروا أقدر على الجدل والمناظرة. وغدا تأثير الفلسفة اليونانية ومنهجها واضحاً في تفكير رجال مختلف المذاهب الاسلامية وأعمالهم. وكان الكندي فيلسوف العرب يحذو حذو أرسطو في منهجه الفلسفي وفي تصانيفه الفلسفية.

ومن النتائج المهمة الأخرى لحركة الترجمة أن ظهرت حركة تأليف في بعض فنون المعرفة. فقد بدأ المترجمون يضعون الرسائل والكتب ليستعملها الطلاب، وهي بشكل ملخصات في شتى أنواع العلوم وبخاصة الطبية منها. ثم ما لبثت هذه الحركة أن توسعت بين العلماء العرب الذين أخذوا يكتبون على أسس متينة من المعرفة. فقد ظهرت في الطب والفقه والتاريخ واللغة مثلاً، كتب كثيرة وبعضها بعدة أجزاء بحيث كان بعضها أشبه بالموسوعات. كما كان المؤلف الواحد يصنف عشرات الكتب في مختلف المواضيع مدلّلاً على سعة معرفته وتفننه بمختلف العلوم. فقد صنف الكندي ما يزيد على 250 كتاباً في الفلسفة والجدل والمنطق والرياضيات والفلك والطب والسياسة وغيرها. وقد دلّل في أكثرها على اطلاع واسع ومعرفة عميقة. وصنف محمد بن زكريا الرازي عميد الأطباء ما يزيد على 230 كتاباً في الطب والصيدلة والكيمياء والفلسفة والرياضيات والفلك وأحكام النجوم وغيرها. وهي أيضاً تدل على سعة علمه وعمق تفكيره. وصنف ثابت بن قرة الرياضي الفيلسوف ما ينيف على السبعين كتاباً في فنون مختلفة.

ولم تقتصر حركة التأليف ووفرة ما صنف من الكتب على المواضيع التي عالجها الفلاسفة والأطباء والرياضيون فحسب، بل تناولت العلوم القرآنية من تفسير وقراءات، وعلوم

الحديث، وعلوم الفقه والكلام. اضافة الى ما صنف في التاريخ والجغرافية وأحوال البلدان. أما في ميدان اللغة والشعر والأدب عامة فقد نبغ شعراء مفكرون مجددون الى جانب أساتذة الأدب واللغة المتقدمين. فإن ما صنفه الطبري وابن قتيبة والجاحظ وأبو حنيفة الدينوري، وغيرهم من علماء هذا القرن وأدبائه لجدير بالاعجاب سواء من حيث كميته أو نوعيته. ولكن مما يؤسف له أن هذا العدد العظيم من الكتب المصنفة والمترجمة لم يصلنا منه سوى النزر اليسير، إذ ضاع القسم الأعظم بفعل عوادي الزمن المختلفة، ولم يبق من تلك الكتب سوى عناوينها وأسماء مصنفيها بفضل محمد بن اسحاق المعروف بابن النديم المتوفى سنة 380 في كتابه القيم «الفهرست».

«نفس المصدر السابق - ص 286-287».



تأثير الديانة العراقية على المجوسية

كثيراً ما تُنسب الى ايران وديانتها الزرادشتية تأثيرات مبالغة على مذاهب أهل العراق الاسلامية وقبل الاسلامية، لكن المصادر التاريخية تتفق على العكس، أي التأثير الحاسم لحضارة العراق على ايران في جميع المجالات اللغوية والعلمية والفنية والدينية. هنا مثال على تأثير ديانة العراق على الديانة الزرادشتية.

❖ «لقبه ملك الملوك أو الملك الأكبر (شاهَنْشاه). اختير دائماً من أسرة الأخميديين. وهي زعيمة عشائر الفرس. يتول الحكم بالوراثة إلا في حالات استثنائية (داريوس خلف قمبيز). ولم يتخذ الملك صفة الإله كما في مصر، بل اعتبر نفسه ممثلاً للإله «أهُورَا مَزّدا». ولما ضَمَّت دولتهم بلاد ما بين النهرين اعتبر نفسه ممثلاً للإله «مردوخ»، ولما أخضعوا مصر اعتبر نفسه ممثلاً للإله «أَمُون ـ رَعْ». لا بل أمر بأن تقام أنْصاب تمثله متعبداً للإله «أمون ـ رع». فلم يكتف الفرس إذن بالاقتباس بل حاولا التكيّف أيضاً. تعبد الفرس للإله «أهُوْرَا مَزْدا»، فعُرِفَتْ ديانتهم باسم «المزْدِيّة». واقتبسوا من بلاد ما بين النهرين الاعتقاد بوجود «الأرواح». ولما برز المصلح «زرادشت» أعطاها مفهوم «التوحيد» ونقلها الى مرحلة التطبيق الأخلاقي.

ومـا لبثـت تـأثيرات مـا بـين النهـرين أن اعترتهـا وسـاد الاعتقـاد بوجـود «الأرواح». فمنهـا «الأرواح الصالحة» التي تحيط «بأُرمُزّد»، ومنهـا «الأرواح الشريرة»، وعلـى رأسـها إلـه الـشر والظـلام «أهْرِيمـان». والـصراع بـين «أُرْمُـزد» و«أهْريمـان»، أو بـين الأرواح الـصالحة والأرواح الشريرة مستمر».

من كتاب «الحضارات ـ لبيب عبد الساتر ـ ص 68ـ69».



حضارة بين النهرين وتأثيرها على الحضارات الأخرى

❖ «إن أهـم ظـاهرة بـرزت في حـضارة بـلاد مـا بـين النهـرين هـي ظـاهرة ازدهـار مجموعـة حـضارات تابعـة للعـالم الـذي يحيطهـا، وكانـت تلـك الحـضارات التابعـة مولـدة في النـوع مـع عناصر حضارة بلاد ما بين النهرين بسماتها القومية وسيطرتها الواضحة بحيث انه من الـصعب اكتـشافها وعزلهـا في سـبيل القيـام بدراسـة خاصـة لهـا. ومـن تلـك الحـضارات هـي الحـضارة العيلامية بعاصمتها سوسة (الاحواز)، والحضارة الأوراتية في موصاصير (ارمينيا)، والحضارة الحثية بعاصمتها الأناضولية ختوشا (تركيا).

أخيراً، يجب الاهتمـام بـدور مـصر الهيلنـستية باعتبارهـا نقطـة انتـشار أفكـار بـلاد مـا بـين النهرين: التي نقلت التنجيم وعلم الفلك البابلي من مصر الى الغرب، وان هذا يوازي انتشار الفن الآشوري ـ عبر آسيا الـصغرى الى اليونـان ويـوازي كـل ممارسـات القـصر الآشـوري غـير الممارسات الفارسية والساسانية الى البيزنطيين ومن ثم الى أوربـا. إن الـشيء الـذي لم يكتـشف بعد هي الاتصالات فيما بين بلاد بابل الهيلنستية والهند بل حتى الشرق الأقصى».

من كتاب «بلاد ما بين النهرين ـ ليوا وينهايم ـ ص 83ـ89».

❖ وجـاء التنجـيم الى الغـرب مـن بابـل، وشـجع عليـه الموسـوعي الرواقـي «بوزيـدونيس posidonius» فقد كان الرواقيون والأفلاطونيون في صف التنجيم، في حين كان الأبيقوريـون والمسيحيون ضده، وتفترض نظرية التنجيم وجود علاقة بـين النـاس والنجـوم «فـنحن نـشارك الكواكب في القدرات والمشاعر» ولما كان مسار «زحل» بطيئاً، فقـد اعتقـدوا أنـه يجعـل النـاس

كسالى، أما كوكب الزهرة فهو المشرف على الحب، في حين أن كوكب المشتري Jupiter يهب الناس القوة، وعطارد يبارك التجارة، وارتبطت الأفعى بإله الشفاء، والبرج الذي يحمل هذا الاسم يساعد على الشفاء، وكان التنجيم شبه علم، كما كان حساب خرائط البروج عملاً معقداً. وكان يطلق على المنجمين لقب الرياضيين Mathematici.

وانفجرت الحركة في عهد تيبروس Tiberius الذي اعتكف في كابري ومعه (حشد من البابليين)».

من كتاب «المعتقدات الدينية لدى الشعوب ـ جفري بارندر ـ ص 127»

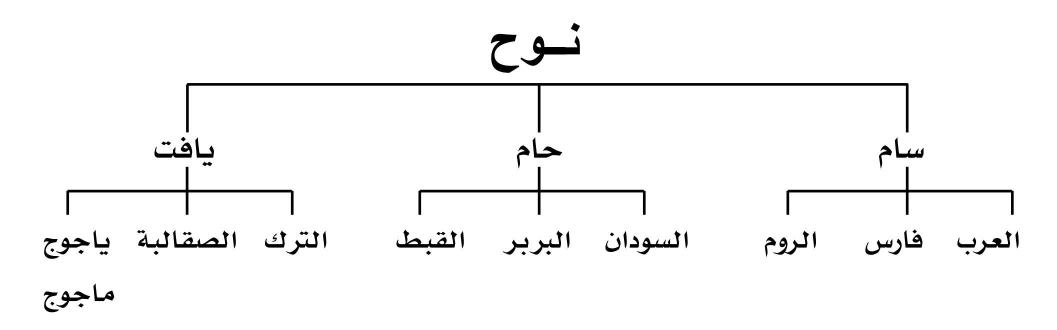


اسطورة «علم الانساب» العربي

ان إدعاء معظم سكان العراق والشام وباقي البلدان العربية بالنسب العربي والانتماء للقبائل العربية النازحة من الجزيرة يبدو واهياً واسطورياً لأنه اعتمد على ما يسمى بـ«علم الأنساب» الذي لا زال يعتمد عليه الكثير من المثقفين والمؤرخين القوميين. لكن اية نظرة سريعة لهذا «العلم» تفضح لنا هشاشته وسذاجته واسطوريته!

❖ قال في العقد الفريد: ونوح النبي عليه السلام وهو ابو البشر الثاني عليه الصلاة والسلام، لان ما قبله من اولاد آدم لم يبق لهم نسل من بعد الغرق بالطوفان، فالباقون من نسل نوح. قال الله تعالى: ﴿وجعلنا ذريته هم الباقون﴾.

ولنوح عدة اولاد: سام وحام ويافت. فأولاد سام: العرب وفارس والروم. وأولاد حام: السودان والبربر والقبط. وأولاد يافت: الترك والصقالبة وياجوج وماجوج.



وذكر ابن الاثير في تاريخه ذرية نوح عليه السلام، قال وهب ابن منبه: ان سام بن نوح ابو العرب وفارس والروم. وحام بن نوح ابو السودان. ويافث بن نوح ابو الترك وياجوج وماجوج. وقيل القبط من ولد قوط بن حام. قال ان امرأة سام بن نوح صلب ابنه بتأويل بن محول ابن اخنوخ بن قين بن آدم. قال واما يافت فله من الولد جامر ومومع ومورك وبوان ونوبا وماشح وتيرش. فمن ولد جامر ملوك فارس في قول، ومن ولد تيرش الترك والخزد. ومن ولد ماشج الاسبان. ومن ولد مومع ياجوج وماجوج. ومن ولد بوان الصقالبة وبرجان».

«من كتاب انساب العرب ـ سمير القطب ـ ص 321»



مشكلة نقل الجنائز الايرانية الى العراق

هذه الحكاية المحزنة والطريفة تكشف عن مدى تعلق الإيرانيين روحياً وتاريخياً بأرض العراق:

❖ مشكلة نقل الجنائز:

انتهز مدحت باشا فرصة زيارة الشاه ففاوضه حول بعض المشاكل التي كانت قائمة بين البلدين إحداها كانت مشكلة نقل الجنائز.

والواقع أن مشكلة نقل الجنائز كانت من المشاكل المستعصية التي أدت الى الضرر الفادح بالفرد والمجتمع، فقد كان الإيرانيون يحرصون كل الحرص على نقل موتاهم الى العراق لدفنها في النجف، فكانت الجثث تتعفن في الطريق لطول المسافة، وكثيراً ما كانت سبباً في نقل الأمراض والأوبئة الى العراق. وقد تم الاتفاق بين مدحت باشا والشاه على أن لا يسمح بدخول الجنائز الايرانية الى العراق إلا بعد مرور سنة واحدة على الوفاة.

كان القصد من هذا الاتفاق أن يجري دفن الموتى في المقابر المحلية في ايران مؤقتاً لمدة سنة واحدة وهو ما يعرف عندهم بـ «الأمانة»، حتى إذا انتهت السنة جاز نقل الجثث الى العراق، وهي عندئذ ليست سوى عظام جافة لا لحم عليها، وبذلك يمكن تجنب الضرر الناتج عنها. وقد وضعت الحكومة العثمانية على الحدود الايرانية موظفين صحيين يراقبون نقل الجنائز ويفحصونها لكي لا تكون «طرية».

ظن مدحت باشا حين عقد هذا الاتفاق مع الشاه أن المشكلة حُلَّت حلاً نهائياً واستراح الناس منها، وقد تبين فيما بعد أن ظنه هذا كان خاطئاً من بعض الوجوه. ذلك أن بعض

الايرانيين لجأوا الى «التهريب» في نقل جنائزهم فأدى هذا الى ظهور مشكلة ربما كانت أشد ضرراً من المشكلة الأولى.

ظهر في بعض المدن الايرانية أشخاص اختصوا بتهريب الجنائز وكأنهم جعلوا ذلك مهنة لهم، فهم يأتون بجثة الميت فينتزعون عنها اللحم بالسكين والحجر ثم يرشون على العظام مقداراً من النورة والزرنيخ ويتركونها معرضة للشمس والهواء حتى تصير كأنها مدفونة تحت التراب مدة طويلة. وتُحمل هذه العظام في صندوق خاص بها، أما اللحم فيحمل في كيس حتى إذا وصل أصحاب الجنازة الى النجف جمعوا اللحم والعظام ودفنوها معاً في قبر واحد بعد أن يقرأوا الفاتحة والأدعية المناسبة طبعاً!».

من كتاب «تاريخ العراق ـ ج 1 ـ علي الوردي ـ ص 259ـ261».



نماذج من عقلية تفريس الحضارة العراقية

إن عملية «التفريس» للحضارة العراقية والعربية وصلت الى حد الهوس المرضي وتحويل «العروبة» الى نوع من «القومية المازوشية» التي تتلذذ باحتقار الذات. وهذا نموذج من هذه الطروحات العجيبة التي تعودنا قراءتها من دون أي استغراب، بقلم دكتورة عروبية جداً، لاحظ أنها اعتبرت كل شيء غير (عربي قح) هو فارسي، حتى حُب الورود وتنوع الثياب والخمرة واللهو وارتياد البساتين:

❖ «وإذا أردنا أن نعطي للقارىء صورة واضحة عن الحياة في ذلك العصر كانت بغداد هي المكان الملائم لإعطاء مثل هذه الصورة، فقد ازدهرت فيها الحضارة ازدهاراً رفيعا، واحتشدت قصورها بالجواري والقيان والغلمان وانتشرت فيها مجالس اللهو والشراب، وغصت بأنواع من الأجناس المختلفة نتيجة للفتوح والسبي، وكان لكل من هذه الأجناس صفاته ومميزاته الخاصة، ولكن الطابع القوي الذي ساد هذه الأجناس جميعاً هو الطابع الفارسي، فتغلغلت العادات الفارسية في النفوس، وأصبح تقليدها أمراً محبباً حتى قال المقريزي «فسموا عوائد العجم أدباً، وقدموها على السنة» ويكفي أن نتأمل عادات الشعوب في ذلك العهد لنرى مصداق هذا القول، فنجد المنصور سنة 153هـ يأمر الناس بارتداء الملابس الطويلة المفرطة الطول، وهي زي فارسي ـ وقد انتشر ارتداء القلانس صيفاً وشتاء، وكان الناس يلبسونها إذا مثلوا بين يدي الخلفاء والأمراء والعظماء تعظيماً وتبجيلاً لهم كما أحدث

المنصور عادة تقبيل الأرض بين يدي الخليفة وهذا أصدق شاهد على تطور العادات في هذا العصر إذ لم يكن العربي المعروف بأنفته وكبريائه يرضى بمثل هذا في العصور السابقة. واقتبس العرب من الفرس تنويع الأزياء بحيث يكون لكل طبقة زي خاص تعرف به ، فكان للخلفاء رداء خاص للرأس (عمامة) وللفقهاء عمامة ، وللأعراب ، حتى اللصوص كانت لهم عمامة... وكان أصحاب السلطان على مراتب ، ولك مرتبة زي ، وكان الشعراء يلبسون الوشي والمقطعات والأردية السود. وفي هذا العصر ظهر التأنق في الملبس حتى أصبحت هناك فئة خاصة تعرف بالتأنق والتظرف وتتخذ العادات الفارسية في المأكل والمشرب وآداب المائدة والكرم والضحك والتعطر والتطيب وحبهم للورد ومدحهم إياه وكانوا يشترون أزياءهم من خراسان ونيسابور ، وقد غالوا في تطرفهم الى حد الزندقة والكفر. وكان في طليعة جماعة المتطرفين الشاعران الفارسيان أبو نؤاس وبشار بن برد.

وما زال الفضل بن سهل بالمأمون حتى أقنعه بتغيير السواد بالخضرة وأن يكتب الى جميع أعماله كي يجعلوا أعلامهم وملابسهم خضراً. وكان الخضرة هي لباس كسرى والمجوس.

وكان للفرس أثر كبير في انتشار مجالس اللهو بين العامة وكذلك في انتشار المجون والخلاعة ، وقد حفل ذلك العصر بالماجنين وأشهرهم الحمادون الثلاثة ومطيع بن إياس ، وصالح بن عبدالقدوس ، ووالبة بن الحلباب وعمارة بن حمزة بن ميمون وغيرهم كثير من العرب والفرس.

ونلاحظ من ناحية أخرى أثر الفرس في فن العمارة العربية ، وهو فن اشتهر به الفرس في ذلك العهد شهرة واسعة ، وقد اشتهرت القصور التي شيدها المنصور كقصري الذهب والخلد ، وكذلك القصور التي بناها الرشيد على نهر دجلة والقصر الهاروني الذي بناه الواثق ؛ واشتهرت هذه القصور بفخامتها وروعتها ووضوح الأثر الفارسي فيها.

وكان شغف العرب بالبساتين في ذلك العصر عادة فارسية ، وكذلك اهتمامهم بالأزهار وتزيين موائدهم وثيابهم بها وتغزلهم فيها.

وانتشر بين الشعب والخلفاء لعب النرد وهو من وضع الفرس والشطرنج وهو من وضع الهند. وكان الغناء مطبوعاً بالطابع الفارسي إذ كان أغلب المغنين من الفرس وعلى رأسهم ابراهيم الموصلي ويرجع أصله الى بيت كبير من العجم ويليه في الشهرة ابنه اسحاق ، وكتاب الأغاني مليء بأخبارها.. وهما لم يشتهرا بالغناء فحسب ، بل جمعا الى ذلك الاطلاع الواسع

في الشعر والأدب وأدخلا من التجديد في فنون الغناء وآلاته وموازينه المأخوذة عن الفرس. وكان ينافسهم في البلاد المغني العربي القرشي المشهور ابن جامع وطالما حدثت منافسات وخلافات بينه وبين ابراهيم الموصلي كان يتحزب فيها رجال البلاط.

وكان ابن جامع يتزعم مدرسة الغناء الحديثة ـ الفارسية ـ بينما كان يتزعم المدرسة العربية القديمة الفارسي ابراهيم الموصلي فأصبح الغناء في ذلك العصر فناً رفيعاً وأصبح الناس ينظرون الى المغني نظرتهم الى أديب فنان، وهذا التقدير هو الذي دفع أحد الأمراء العباسيين الى الغناء دون أن يكون في ذلك منقصة له، ونعني به ابراهيم بن المهدي بن المنصور، فقد نازع أشهر المغنين وتفوق عليهم في كثير من الأحيان. وقد قلده في هذا المضمار كثيرون من أمراء البيت العباسي.

ولكن فضل الأعاجم في ميدان الغناء كان يقابله إساءتهم الى اللغة العربية حيث انهم وإن أغنوا اللغة العربية التحريرية غير انهم أفسدوا اللغة اللسانية بما أدخلوا عليها من لحن ولثغ، وخاصة في لغة الكلام والمخاطبة، ويروون ان عبدالله بن الأهثم مر ذات يوم بقوم من الموالي وهم يتذاكرون النحو فقال «لئن أصلحتموه، إنكم لأول من أفسده». ويقول الجاحظ أيضاً ان الفرس قد أدلوا اللكنة في اللغة العربية وانهم كانوا في كلامهم يلحنون «ولولا طول مخالطة السامع للعجم وسماعة للفاسد من الكلام لما عرفه».

وذكر ابن قتيبة أنه دخل أعرابي السوق فسمعهم يلحنون فقال «سبحان الله يلحنون ويربحون. ونحن لا نلحن ولا نربح».

وإذا أراد العربي أن يتملح أدخل في شعره أو كلامه شيئاً من الألفاظ والتعبيرات الفارسية وهكذا طعمت اللغة العربية باللغة الفارسية، وكان العامة والخاصة يستشهدون بأقوال حكماء الفرس وسير ملوكهم وسياستهم وأخبارهم، كما ترجمت كثير من كتبهم وأشعارهم الى العربية.

رأينا فيما سبق كيف تأثر الشعب في حياته الاجتماعية بالعادات والتقاليد الفارسية، غير ان هذا التأثير يظهر بشكل واضح في بلاط الخلفاء الذين ساروا في حياتهم الخاصة والعامة على نهج الأكاسرة فأغرقوا في الترف وأكثروا حولهم من مظاهر الأبهة والعظمة، وأحاطوا أنفسهم بحاشية كبيرة ونصبوا على أبوابهم الحجاب.. الى غير ذلك مما هو غريب عن العرب وحياتهم القاسية الخشنة. ومن الحق ان البلاط الأموي كان زاخراً بمثل تلك المظاهر، وكان الخلفاء الأمويون كلهم يشربون ويعقدون مجالس اللهو والغناء ما عدا عمر بن عبدالعزيز. وكان بلاطهم

صورة مصغرة لما صر عليه البلاط العباسي الذي كثرت فيه مجالس الشراب ولم يعد الخلفاء الذين كانوا جميعاً يشربون ويسمرون ما عدا المنصور يجدون حرجاً في الشرب واللهو. وهذه كلها عادات كسروية. وعلى ذلك نرى أن الأمر في الحياة الاجتماعية صار على ذلك النحو الذي وصفناه، فكان الترف والبذخ وما يستتبعهما من استهتار ومجون هما الطابع السائد في ذلك العصر. ولقد بينا بما لا يدع مجالاً للغموض الأثر الفارسي في مثل هذا الطور من أطوار الحضارة، ورأينا كيف اتخذ الخلفاء والأمراء السواد الأعظم من الشعب الحياة الفارسية مثلاً يتبع وأسلوباً جميلاً من أساليب الحياة، وفي ذلك انتصار ـ أي انتصار ـ للشعوبية ولكننا نستطيع أن نقول انه انتصار سهل لم تبذل فيه الدماء ولم تزهق فيه الأرواح. إذ كان التقليد هنا غالباً على الصراع وترك العرب الشعوبية تغزوهم في هذه الناحية بمحض اختيارهم وملئ إرادتهم».

من كتاب «الشعوبية وأثرها الاجتماعي ـ الدكتورة زاهية قدورة ـ ص 188ـ198».

الشعوب الآسيوية والجبلية تمتزج بسكان النهرين

إن طبيعة النهرين السهلية والخصبة ظلت دائماً مصهراً إنسانياً لمختلف الشعوب الأسيوية الرعوية والسامية البدوية. تمتزج وتذوب في سكان النهرين وتتبنى حضارتهم وتسهم بتطويرها، من دون أي صراعات عرقية وحروب أهلية على خلاف بعض الأوطان التي ظلت الصراعات الدينية والعرقية هي الطاغية على تاريخها.

❖ «دخلت أرض النهرين عبر ممرات الجبال الشرقية والشمالية موجات غازية من الأقوام والشعوب الجبلية والتي اختلطت بسكان بلاد النهرين والشرق العربي عامة اختلاطاً واسعاً وتركت آثارها في شمال العراق، في نوزي بالقرب من كركوك وهي أهم مراكز الحضارة الحورية، وكونت في الامبراطوية الميتانية الطبقة الأرستقراطية العسكرية المعروفة باسم ماريانو، وقد شاركت في تكوين حضارة البلاد وثقافتها وبخاصة في الفنون التشكيلية من نحت ونقش وأختام.

وقد هاجم بعض هذه الشعوب دول بلاد النهرين وعمل على تقويضها. فقد أضعف صراع الملوك الأكديين مع الكوتيين (الغوتيين)، واللولوبين مملكة أكّد وأدى الى انهيار الحكم الأكّدي (أواخر الألف الثالث). وعمل العيلاميون والكاشيون على تدمير الدولة البابلية الأولى. ودخل الحثيون المسيطرون على آسيا الصغرى في حروب مريرة مع الآشوريين في أواخر الألف الثاني ق.م وكذلك الأوراتيون الذين شكلوا مملكة هامة حول بحيرة وان في الألف الأول ق.م.

أما اتحاد القبائل الايرانية بزعامة الميديين فقد عمل على تقويض أركان الامبراطورية الآشورية 610 ق.م في حين أدى توحيد الفرس والميديين بزعامة قوروش الى اختلال ميزان القوى في آسيا الغربية والى قيام صراع بين فارس وبابل انتهى بسقوط بابل بيد الفرس عام 539 وبزوال آخر دول بلاد النهرين في العصور القديمة.

لقد عاشت هذه الشعوب القديمة في بلاد النهرين وهي مختلفة الأصول واللغات في تفاعل وتبادل مستمرين وقامت بينها صلات في السلم والحرب تمثل وقائعها صحائف التاريخ القديم. فقد سعى الرحلّ من البدو والرعاة الجبليين لاحتلال المناطق الخصبة والسيطرة على السهول وطرق القوافل. ولكن في البيئة الزراعية وفي وديان الأنهار قامت المجتمعات الحضرية المستقرة، مجتمعات الفلاحين والصناع والتجار في القرى والمدن. وفي هذه المجتمعات المدنية حل الانتماء الى المدينة والمعبد محل الانتماء الى القبيلة. وعندما خط الناس طرق المواصلات والقوافل التجارية والجيوش اشتدت قوة الحكومات واتسعت سلطة الدولة وقامت الممالك الكبيرة والامبراطوريات، جرى تنقل السكان ونقلهم على نطاق واسع حاملين معهم لغاتهم وثقافاتهم وعاداتهم. ومن هنا يمكن القول إننا عندما نتكلم في التاريخ القديم عن السومريين والبابليين والآشوريين والآراميين، فإننا لا نعني بذلك عروقاً، بل مجتمعات سياسية مدنية. فعندما تظهر الدولة وتتلاشى العروق ضمن الشعوب المكونة لها. أما استمرار العوامل العرقية بعد إنشاء الدولة فإنه يكون مدعاة لضعفها وربما لانهيارها.

إننا سنرى عند دراستنا لتاريخ دول بلاد النهرين أنه لم يقم فيها في تاريخها الطويل صراع عرقي. فالعوامل الاقتصادية والاستراتيجية هي التي كانت أكبر تأثيراً في تحرك الدول وفي إثارة الغزوات والحروب. وعلى الرغم من العنف الذي رافق تقلب الدول والسلالات الحاكمة، فقد قامت في بلاد النهرين حضارة مشتركة أسهم في صنعها السومريون والأكّديون والآشوريون والبابليون وغيرهم.. ولم تكن هذه الحضارة إلا جزءاً من حضارة الشرق العربي القديم كله. وفي تحليل مكونات هذا التراث الحضاري العظيم ليس بالمستطاع دائماً أن نحدد دور كل مجتمع من المجتمعات. فأين ينتهي جهد السومريين، وأين يبتدىء دور الأكّديين؟».

من كتاب «دول وحضارات في الشرق ـ عيد مرعي ومحمد فرزات ـ ص 60ـ61».



عودة «الشعوبية» الى التاريخ الحديث

هذه لمحة تكشف عن كيفية إعادة استخدام المفاهيم التاريخية بعد قولبتها المعاصرة من أجل أهداف سياسية طائفية عنصرية. علماً بأن هذه العنصرية الطائفية لم تكن حكراً على أهل السنة بل اشترك بها الجميع من مسيحيين وشيعة وغيرهم: فكما تبين لنا هذه اللمحة أن أحد منظري «الشعوبية» الجديدة هو السيد هاني الفكيكي أحد قادة حزب البعث التاريخيين وهو من أصل جنوبي شيعي، لكن أصله الشيعي لم يمنعه من الاشتراك بحملة العداء للشيعة باسم مكافحة الشعوبية الجديدة. علماً أنه نفسه اعترف فيما بعد في مذكراته بأنه كان ضحية للعنصرية الطائفية التي حدثت في حزب البعث وأدت الى طرده من قبل المجموعة العسكرية «السنية»:

❖ مبحث جانبي: الجدل حول الشعوبية

«لقد عادت الشعوبية في القرن العشرين مرة أخرى بأساليب أخرى وأهداف أخرى»

(صبحي محمد جميل، عميد قسم الدراسات الإنسانية ـ جامعة بغداد)

«إن من لم يعتقد بأن الجنس العربي هو الأفضل فهو شعوبي آثم»

(خير الله طلفاح، خال وصهر صدام حسين)

لقد أثارت النزاعات بين القوميين العرب والشيوعيين العراقيين قضية الطائفية السياسية في العراق مجدداً. ولم يكن التحليل العقلاني لاتجاه بعض الجماعات العرقية والمذهبية نحو حركات سياسية بالذات ليجد إصغاء في خضم هذه المعركة الضارية. لقد أدت الحقيقة التي تقول بأن الحزب الشيوعي وجد حتى في الثورة أنصاراً من الشيعة، وأن الرضى ــ وهو السكرتير العام ــ كان من أصل شيعي وتوصل الى أن يساوي الحزب الشيوعي بالشيعة، وذلك ليس في العراق فقط بل في بلاد عربية أخرى، وكذلك أدت هذه الحقيقة الى استعادة مصطلح كان قد طواه النسيان منذ عدة قرون والى استخدامه سياسياً وهو مصطلح «الشعوبية». ولقد اعتبر الكثير من القوميين العرب صراحة أو تلميحاً المصطلحات الثلاثة: الشيوعية، والشعوبية، والشيعة، مترادفات، إلا أن الشيعة قد كانوا ممثلين في الحياة السياسية جميعها كما كان الحال قبل الثورة. ولقد اكتسب مصطلح الشعوبية معنى خاصاً في عراق ما

بعد الثورة. ولقد حاول القوميون العرب باستعادتهم لمصطلح من العصور الوسطى الإسلامية أن يقذفوا خصومهم (الشيوعيين وقاسم) بأنهم خصوم للعروبة.

وعلى العكس من ذلك كان الفكيكي قد أوضح حينما كتب بعنوان «الشيوعية المحلية قمة للشعوبية وامتداد لها» يقول:

«في تلك المرحلة (بعد الحرب العالمية الأولى) من حياة الشعب العربي كانت الشيوعية ظاهرة جديدة في الوطن العربي. وحاول الشعوبيون عن طريقها ان يصلوا الى أهدافهم. ويؤكد هذا القول حقيقة أن قيادة الأحزاب الشيوعية قد أوكلت بانتظام لأعداء العروبة ووحدة العرب من هؤلاء العجم الممتلئين كرهاً».

وشهد هذا المصطلح نهضة جديدة له بعد الثورة الايرانية وبعد اندلاع الحرب العراقية الايرانية 1980، وتقابلنا بين الكتاب العراقيين أيضاً ثلاثة عناصر كان الكتاب السابق ذكرهم قد تناولوها أيضاً. إلا وهي: فكرة العداء الأبدي من الفرس للعرب واعتبار الشعوبية إحدى مظاهر هذا العداء والمساواة الخفية للشيعة بالغلاة أو بالزنادقة».

من كتاب «الطائفية والسياسة في العالم العربي ـ فرهاد ابراهيم ـ ص 270ـ 274».

هذا مثل آخر يبين كيف أن هذه العنصرية الطائفية من القوة بحيث أنها تطغى حتى على العلاقات الرفاقية، ويتم التعبير عنها بصورة مباشرة من قبل قادة الدولة:

❖ لقد برز عبدالسلام عارف في تاريخ العراق الحديث كأبرز حاكم طائفي، قد لا يصل إليه في طائفيته سوى أحمد حسن البكر الذي كان يختلف عنه بكونه طائفياً يعمل في الخفاء ويخطط بخبث ومكر عظيمين، ففي الفترة التي حكم فيها عارف خاصة بعد انقلاب 18 تشرين الثاني1963، كان الشارع العراقي يعيش أكبر انقسام طائفي في حياته وأصبح الصراع يتصاعد بين الشيعة والسنة الى درجة أصبحت تهدد فيها وحدة الشعب العراقي بأخطار جسيمة، ولم يخف عارف عداءه للشيعة وكانت حركة تشرين في واقعها تستهدف تعزيز النهج الطائفي لمؤامرة شقيقتها التي وقعت في شباط، حتى أنه لم يستطع أن يخف امتعاضه من وجود عدد من الشيعة أعضاء في ما يسمى بمجلس قيادة الثورة، ففي إحدى الاجتماعات لهذا المجلس وكان جميع أعضائه قد حضروا مكان الاجتماع في القصر الجمهوري إلا محسن الشيخ راضي وهو شيعي من النجف، حيث كان الجميع ينتظرون قدومه لبدء الاجتماع فما كان من عارف

إلا أن بادر الحاضرين قائلاً: (لماذا ننتظر هذا العجمي؟ دعونا نبدأ الاجتماع). وكلمة عجمي تعني في قاموس غلاة أهل السنة كل شيعي ولو كان معروفاً جيداً نسبه العربي. ولا يخفي بأن الذين آزروا عارف في انقلابه على حزب البعث كانوا يشاطرونه كثيراً في آرائه وتوجهاته الطائفية وكان قسم من هؤلاء أعضاء في قيادة الحزب نفسه، ونظرة واحدة للبيان الذي اصدره عارف يوم الثامن عشر من تشرين الثاني تبين لنا بعض دوافعه وسوداوية أفكاره. (أدت الهجمات على حريات الشعب التي قام بها الشعوبيون المتعطشون للدماء من أفراد الحرس القومي). وكلمة شعوبي يعرف العراقيون ما تعني فعلاً وهي في قاموس السياسة في العراق تطلق على الشيعة عموماً، وعلى الرغم من ان الحرس القومي من تنظيمات حزب البعث وقد نفذ هذا الجهاز مجازر رهيبة وأعمالاً منكرة في العراق ضد الشيعة لصالح الاتجاه القومي إلا أن هؤلاء لم يسلموا أيضاً من إطلاق صفة الشعوبية عليهم. فهم وعلى الرغم من الخدمات الكبيرة التي قدموها لسلطة الانقلاب والتي كان عارف شخصياً يشجعهم عليها اتهموا بالعداء للقومية العربية، ومرة أخرى ينتهي انقلاب تشرين الى مذبحة أخرى بحق الشيعة وتمتلىء بهم السجون ويطالهم الإعدام والإرهاب والتعذيب وتفصل أعداد كبيرة منهم من وظائفهم ويطاردون في أرزاقهم، فبعد كل مؤامرة وانقلاب تصب السلطة الحاكمة الجديدة جام غضبها وحقدها على الشيعة وحدهم، وهكذا كانوا دوماً كبش الفداء على مذبح الأطماع الشخصية للحكام. ولقد جاءت الوزارة التي شكلها طاهر يحيى بعد 18 تشرين سنية صرفة، ولم تحوِ في دورتها سوى اثنين من الشيعة اللذين كانوا في واقعهم أبعد ما يكون عن الشعور بمشاعر أهلهم وعشيرتهم».

من كتاب «البناء المعنوي للقوات المسلحة العراقية ـ العقيد احمد الزيدي ـ ص 83».

شيعة العراق والنخبة الدينية الشيعية المرتبطة بإيران

يبدو أن التاريخ وسوء الحظ أوقعا شيعة العراق وسط نارين: نار الحكومات التي اعتبرتهم دائماً على إيران والأعاجم، ثم نار النخبة الدينية المتفرسة عرقياً وسياسياً والتي لم ترتبط أبداً بالواقع العراقي وظلت حتى الآن تعاني من ازدواجيتها الوطنية.

هذه رسالة قارىء عراقي (شيعي) نُشرت في جريدة الوفاق العراقية المعارضة (لندن). إن هذه الرسالة تعبر بصدق وتلقائية عن الرأي الشعبي السائد لدى الأغلبية الساحقة من الشيعة العراقية.

❖ **«الله في عونكم أيها الشيعة»!!**

السيد رئيس التحرير المحترم

السلام عليكم وبعد... قرأت والأمل يحز في نفسي رد السيد زيد حمادي على مقالة الباحث «التنويري» (زاهر الجيزاني) ولم يبق أمام السيد (.. سوى أن يشتم العراق وشعبه بل لم يبق أمامه سوى أن يرمي شعب العراق في البحر أو يرجمه بحجر دفاعاً عن إيران. وإذا كان السيد (..) يدافع عن الشورجة ـ البورصة المالية ـ فالعراقيون العرب الشيعة لم يستفيدوا ديناراً واحداً من هذه البورصة.. ففقراء الشيعة سواء في بغداد أو الجنوب منذ الخمسينات يعانون من انعدام السكن والتعليم والصحة والتنظيم السياسي بسبب اضطهاد السلطة لهم ومع ذلك لم تسهم هذه البورصة المالية في التخفيف عن معاناتهم في حين كان تجارها وغالبيتهم من ذوي الأصول الايرانية يعيشون في بيوت فاخرة وأرصدة كبيرة. أمام مائة ألف صريفة تضم نصف مليون عراقي عربي شيعي يسكنون فوق المزابل وفي وسط مياه الصرف الثقيلة وفي ذيل بغداد ـ ولم يفكر هؤلاء في إنشاء صندوق إعانة لهم أوالتبرع بتحسين سكناهم أو مساعدتهم مالياً أو حث المراجع الدينيين على طرح مشكلتهم على نطاق علني.. انتظر فقراء الشيعة حتى ظهور عبدالكريم قاسم.. ليعاملهم بوصفهم مواطنين عراقيين وينصفهم.

أما المرجع الديني (السابق) فما يزال صدى الحديث عن الرصيد الملياري المسجل باسم وكلائه في الخارج يتفاعل بين فقراء الشيعة في المنفى ... وفي الأردن ما يقرب من 50 الف عراقي عربي شيعي ـ جائع ذليل ولهم الحق في هذه الثروة مثلما لهم الحق أيضاً في الثروة التي سرقها صدام.

هذه الكتلة الكبيرة المصروعة على رمضاء العراق تماماً مثل إمامهم الشهيد الحسين عليه السلام المصروع على أرض كربلاء لا ناصر لهم ولا معين فالطرد يأتيهم من جهاتهم الأربع في (مرقد السيدة زينب عليها السلام) الشيعة العرب العراقيون هم الفقراء والجائعون إنهم يتسولون والأحزاب السياسية المرتبطة بايران تستلم الأموال باسمهم، باسم آلامهم وتعاملهم متسولين وأذلاء بل أكثر من هذا تعلمهم وتدربهم على التسول وتذلهم في اليوم الواحد مئات المرات من خلال أوراق طعام حقيرة يتصدق بها هذا المكتب أو ذاك من مكاتب المراجع الايرانيين، أما الباحث «التنويري» (ز. ج) فقد أصاب كبد الحقيقة وعبر عن آلامنا وفتح أعيننا

على حقيقة غائبة عنا، وآن للضحية أن تقول كلمتها أمام جلاديها وأمام خادعيها على حد سواء، وسيكون الاتهام جاهزاً سلفاً هنا (جماعة صدام ـ مخابرات ـ خريج المدرسة العفلقية ـ الخ) والسؤال هل جماعة صدام ومخابراته وخريجوا مدرسته يعيشون فقراء وجائعين ومطرودين؟ كلنا يعرف أن هؤلاء حازوا على أفضل الأراضي وأفضل المناصب وأفضل الأرصدة. وكذلك أعوان المراجع الايرانيين لهم في المنافي أفضل الامتيازات ولا أقول سوى ـ إلى الله المشتكى من هذه المحنة. وقد أثبتت تجارب 1991 أن ايران ليست العمق الاستراتيجي للشيعة العراقيين وهي عمق للايرانيين وليس لسواهم.

والعراقيون العرب الشيعة هم الذين يحق لهم التحدث عن اضطهادهم ومأساتهم ولديهم كفاءات سياسية وثقافية قادرة على ذلك ولا يحق للشيعي الايراني أو الباكستاني أو الهندي أو الأفغاني التحدث نيابة عنهم».

المخلص زيدان العماري ـ جريدة الوفاق 4ـ 7ـ 1996».



مثال من تاريخ الشعوبية في سوريا

يبدو أن المطالبة بالمساواة ورفض هيمنة الأقلية الأرستقراطية العربية، لم يكن أمراً شائعاً في العراق فقط، فهذا نموذج من سوريا التي عرفت تيار «الشعوبية» بدرجة أقل من العراق:

❖ ديك الجن الحمصي

«ولقد كان دون هذين بمراحل بعيدة شاعر آخر هو عبدالسلام بن زغبان (777ـ849) الملقب بديك الجن لبشاعة سحنته وخضرة عينية. وهو من أبناء حمص لزم موطنه طول حياته فلم يبرحه. وكان من الراجح أنه من ذرية نصراني اعتنق الاسلام في موقعة مؤتة. على أن شاعرنا هذا يتمتع بأهمية خاصة لأنه عمد في شعره ـ الذي لم يبقَ منه إلا القليل ـ الى تأييد قضية الشعوب المغلوبة في وجه مفاخرالعرب ودافع عن تفوق السريان ـ أي السريان المستعربين ـ ضد العرب. لذلك كان خليقاً بأن يعتبر رائداً لتلك الحركة الفكرية الهامة التي عرفت بالشعوبية. ولقد كان ديك الجن شيعياً معتدلاً ومع اعتداله أقرب الى التهاود، إذ بذر أمواله في التماس الطرب والسعي وراء اللذات. وفي ساعة اهتياج من ساعات الغيرة الشديدة

عمد الى امرأته ـ وكانت قبلاً أمة نصرانية عنده ـ فسدد إليها طعنة قاتلة : لكنه تثبت بعدئذ من براءتها ، فكان طيفها لا ينفك يعتاده فيبرح به الألم ، على ما وصف في شعره الذي يتدفق عاطفة».

عن كتاب «تاريخ سوريا ـ فيليب حتي ـ ص 182».



كوارث الطبيعة والصراع الإيراني ـ التركي

هذا الجدول يكشف لنا عن توالي الكوارث الطبيعية والسياسية على العراق من ناحية غدر الطبيعة والنهرين الكريمين. ومن ناحية الاجتياحات الأسيوية (الايرانية ــ التركية) التي كانت تستفيد من غدر الطبيعة. علماً أن هذه هي الكوارث الكبرى ، أما عشرات الكوارث الصغرى فلا تذكر. ثم إن الصراع الايراني ـ التركي لم يكن فقط يستخدم أرض العراق في الحروب بل كان أيضاً يستخدم الشعب العراقي كوسيلة أساسية في هذه الحروب من خلال تقسيم العراقيين الى طرفين أساسيين في هذه الحروب : شيعة وسنة. مع ملاحظة أن الجدول يتحدث عن ذبح الأتراك (30) الف عراقي شيعي وليس (فارسي) كما العادة التي جرى استخدامها من قبل المؤرخين بتسمية الشيعة العراقيين ، ولجأ اليها أيضاً المؤرخ (حنا بطاطو) رغم صدق نواياه وعلميته المحترمة.

إن المطلع على مسيرة العراق منذ فجر التاريخ يمكنه ان يكتب مثل هذا الجدول عشرات المرات بسبب ديمومة الحالة الكارثية بالتعاضد بين غدر الطبيعة الكريمة واجتياحات الشعوب الآسيوية الرعوية والقبائل الصحراوية.

الكوارث التي حلت ببغداد خلال القرون 17 و18 و19 التي نملك سجلاً بها :

1621	مجاعة
1623	الفرس يذبحون ((مئات الألوف)) من السنّة ويبيعون ((آلافاً)) منهم عبيداً
1633	فيضان
1635	وباء
1638	مجزرة عامة نفذها الأتراك راح ضحيتها 30 الف شخص معظمهم من الفرس

1656	فيضان
1689	مجاعة ووباء
1733	حصار فارسي : ((أكثر من 100ألف ماتوا جوعاً)) ـ طاعون
1777ـ 1778	حرب أهلية في بغداد
1786	فيضان ـ محصول فاشل ـ مجاعة ـ اضطرابات مدنية
1802 ـ 1803	وباء ـ فناء ((معظم سكان العراق (؟!)))
1822	وباء ـ فيضان
1831	وباء ـ فيضان ـ حصار ـ مجاعة ـ هبط عدد سكان بغداد من 80 الف نسمة الى 27 الفاً
1877 ـ 1878	وباء ـ مجاعة
1892	فيضان
1895	فيضان

من كتاب «العراق ـ بطاطو ـ ج1 ـ ص 34»



ديمومة الميراث في الحياة اليومية

هذا الموضوع على طرافته، فإنه يذكر مسألة حقيقية عن ديمومة التقاليد الثقافية لدى الشعوب دون إدراك واعٍ بل بصورة تلقائية دفينة في أعماق الشعور الجمعي.

❖ لا جديد تحت شمس العراق

سألتني قبل أيام الصحافية الاذاعية لوريزا سواقي من اذاعة سبكترم، ما اذا كان هناك شيء من تراث العراق القديم ما زال حياً في العراق. وهو سؤال عميق في الواقع وطالما خطر للأجانب عند زيارتهم لهذا البلد العربي. بالطبع يشعرون بصدمة عندما يصلون الى هناك فعبثاً يبحثون عن برج بابل والحدائق المعلقة وقصور الرشيد ومدينة المنصور. فلا يجدون منها شيئاً. ولكن هذا بحث ساذج. فالمباني لا تشكل إلا جزءاً ضئيلاً من تراث الأمة. من يسأل عن تاريخ العراق فليبحث عنه في شعب العراق. كثير من التقاليد وأساليب الحياة العراقية يعود تاريخها الى عهود البابليين والسومريين.

خطر لي ذلك وأنا أتذكر اكتشافات العالم الآثاري الفرنسي جان بوترو. سبق لأولاد الحلال أن هربوا الى امريكا ثلاثة ألواح بابلية. درسها الخبراء الأمريكان فلم يجدوا فيها أي شيء يتعلق بمعالجة مرض الإيدز أو صنع قنبلة ذرية جديدة فتركوها جانباً. لم يفهموا محتوياتها قط، حتى قدر للعالم الفرنسي بوترو أن يلقي نظرة عليها. وفي الحال وكأي رجل فرنسي أصيل اشتم فيها رائحة أطعمة لذيدة فترك كل شيء وصب جهوده عليها. فتح قنينة شراب وشمر عن ساعديه وكان ما اكتشفه 35 وصفة مفصلة للطبخ. واتضح من قراءته للنصوص ومن قراءتي لوصفه لها، أنه لا جديد هناك تحت شمس المطبخ العراقي. فمعظم الطبخات الوارد ذكرها على الألواح المسمارية الثلاثة تتعلق بإعداد لمادة لا تكتمل أي وليمة عراقية بدونها، وأقصد بها «المرق» المتكون من الخضروات ولحم الخروف أو لحم العنز أو لحم الدجاج. وفيها اشارات لتطييب المرق بالثوم والكزبرة والكمون. ويعتمد أسلوب الطبخ على السلق بالماء.

واتضح أن هذه الألواح تعود الى عهد الملك حمورابي (1792ـ1650 قبل الميلاد). وهذا اكتشاف أزعجني كثيراً فإنني قضيت ثلاثين سنة من عمري ووالدتي رحمها الله تطبخ لي وتطعمني بأكلات من أكلات ذلك الملك البابلي المهيب وأنا أتدلع وأتدلل عليها وأركل بقدمي ما أعدته من طبيخ دون أن أدرك حقيقة الأمر. ثلاثون سنة من عمري وأنا أكل طعاماً بابلياً سومرياً دون أن أعرف.

تعتبر الآن هذه الألواح الثلاثة المكتوبة بالحروف المسمارية أقدم وصفات المطبخ عرفها الانسان. وتدل أيضاً على مدى اهتمام أبناء النهرين ببطونهم تماماً كما يفعلون اليوم. ألم أقل لا جديد تحت شمس العراق؟

وقد عقدت جامعة بيل ندوة «مأكولاتية» خاصة بشأن هذه الاكتشافات. وكان من أهم ما قدم فيها للمشاركين طبخة دجاج بالبهارات حسب تعليمات طباخ الملك حمورابي. وأعرب الجميع عن عميق تقديرهم لذوق الطباخ البابلي. وربما لن تمضي فترة طويلة حتى تتبنى مطاعم كنتوكي هذه الوصفة القديمة وتقوم بتسويقها من الرز باسم دجاج حمورابي، وكما أتوقع سيقدمونه في العراق في المهرجانات والندوات الفكرية باسم دجاج صدام.

ولكن لا حاجة للأخت لوريزا سواقي لأن تنتظر حتى ذلك الوقت. شرفينا بزيارتك لتعد لك زوجتي وليمة بابلية من المرق حسب مواصفات وتعليمات طباخ حمورابي، بل ربما

حمورابي نفسه، فلا بد أنه كان ماهراً في الطبخ كما كان بارعاً في التشريع، ككل أبناء النهرين.

«خالد القشطيني ـ جريدة الشرق الأوسط 25ـ 2ـ 1997».



الأصول العراقية للمفردات الأعجمية

إن الجهل بمعرفة اللغات القديمة لشعوب المنطقة الأصلية مثل السومرية والسامية والمصرية والبربرية أثر كثيراً على معرفة أصول اللغة العربية. وقد لعبت «العقدة الايرانية» دوراً بالاعتقاد بأعجمية وفارسية الكثير من هذه المفردات. هذا مثال على أهمية ربط الحضارة العربية ولغتها بما سبقها في المنطقة.

«وفي عام 1980 أحصى الأستاذ طه باقر ما يقرب من 250 كلمة تعود الى أصل سومري أو بابلي، في حين أنها كانت تعد من الدخيل أو الأعجمي في اللغة العربية. ونقتبس في أدناه عدداً من تلك المفردات:

الكلمة في العربية	أصلها البابلي
أباب (الماء)	abubu
أتون	utunu (سومرية الأصل)
آجر	argamanu
أرجوان	adranu
إقليم	kalam (سومرية الأصل)
بط	busu
بلور	burallu
دكان	tukkanu (سومرية الأصل)
تنور	tinuru
صنم	salmu

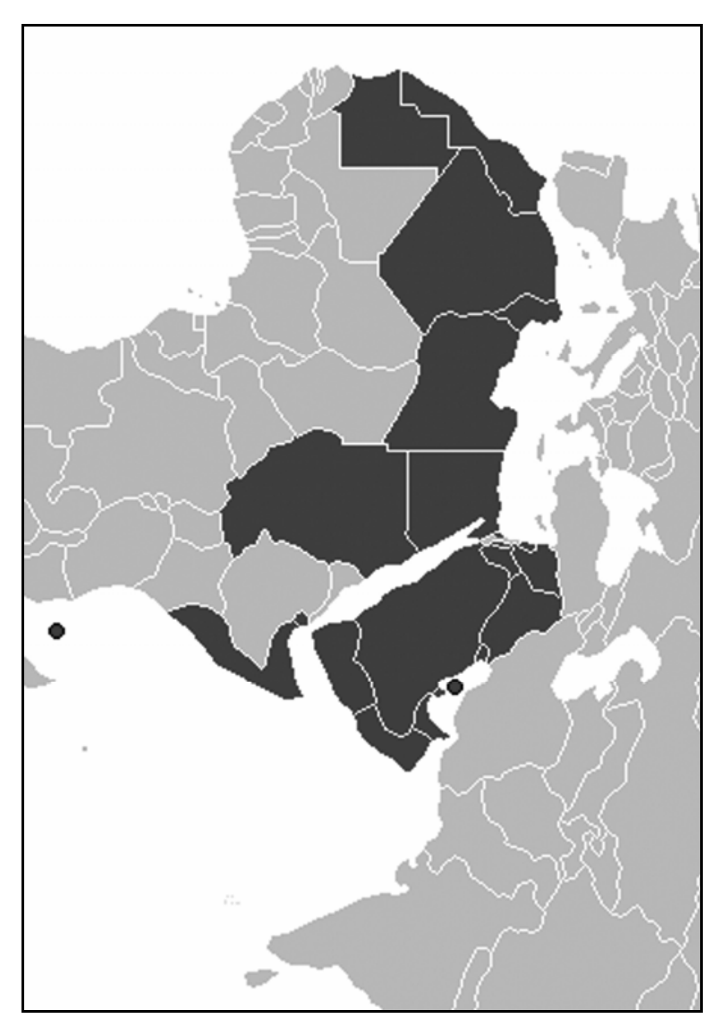
سفرجل	supurgillu
سوسن	shishnu
كبة	kuppatu
هيكل	ekallu (سومرية الأصل)
يرقان	amurriqanu

من كتاب «من سومر الى التوراة ـ د. فاضل علي ـ ص 147ـ 148».

الفصل الثالث

تجديد الهوية الشرقمتوسطية (العربية)

- عالم عربي أم عالم شرقمتوسطي؟
- مع الوحدة العربية وضد القومية العربية
- بلدان الهلال الخصيب والهوية المشرقية المنسية
- ملاحق معلوماتية عن تاريخ بلدان المشرق العراقي ـ الشامي، وعن وحدة الهلال الخصيب والحزب القومي السوري



خارطة العالم العربي (العالم الشرقمتوسطي)

عالم عربي أم عالم شرقمتوسطي

عربي.. عروبي.. اعرابي..

من اجل اسم جديد لهوية مزقتها الكلمات..

كانت المرة الأولى التي واجهتني بها هذه الإشكالية يوم 5 حزيران 1967. كان عمري آنذاك يتجاوز 11 عاماً، ولم أزل في أولى خطوات اكتشاف الذات والهوية والانتماء الى الجماعة. استيقظت ذلك الصباح على وهج حزيران وأناشيد المذياع وجدال أهل الحارة. كلمة «عرب» كانت تتردد بكثرة ذلك اليوم: العرب هجموا.. العرب سيرمون اسرائيل في البحر.. العرب تقدموا.. العرب.. العرب..

أصابتني الدهشة منذ تلك الساعة واحتجت الى أعوام لكي أفهم ماذا يقصد الناس بكلمة «عرب» وحتى الآن لم يكتمل فهمي تماماً. منذ صغري كنت أسمع كل يوم هذه الكلمة ولكن بمعنى أقرب الى الشتيمة. نحن سكان أحياء الطين المهاجرين من الجنوب، كان أهل بغداد (المتمدنون) يطلقون علينا تسمية «عرب» وكذلك «شروكية، أي شرقية»، القادمين من محافظات العراق الجنوبية الشرقية. منذ صغري تعلمت أن كلمة «عرب» هي عكس كلمة «حضر»، وهي رديف للفقر والتخلف والبداوة. وعندما كان يأتينا البدو مع جمالهم ليبيعوا الملح، كان الناس يقولون: (جاء العرب). كنت متيقناً أن رجال العرب مثل أبي تقليديون ويرتدون العقال العربي والنساء مسكينات يرتدين العباءات السوداء. أهل المدينة متطورون مثل الاوروبيين والكثير منهم مسيحيون وحتى أسماءهم شاعرية ومعطرة مثل طباعهم: لؤي، عدي، دريد، مي، منير، سهى، ... بينما أهلي «العرب» فأسماؤهم تبدو مضحكة وسيئة في عيون المتمدنين: جاسم، كاطع، حنتاو، صينية، موزة، شمخي، صلبوخ، وحتى صهيون!

وأهل الحضر دائماً لونهم أبيض كالحليب، نساؤهم سافرات ورجالهم أفندية مع ربطات عنق وأحذية لماعة وهم وأولادهم يرتدون البيجامات. بينما نحن «العرب» محروقون بالشمس والغبار ولهذا يسموننا (أولاد الملحة) ونرتدي الدشاديش «المتخلفة». وكنت أعتقد أن اللغة الفصحى ولهجة الأفلام المصرية هي من شيم أهل الحضر والمدينة بينما نحن العرب لهجتنا

ثقيلة مخزية. ولكي ندخل فعلاً في عالم الحضارة كنا نجهد أن نتخلص من لهجتنا ونرطن بكلمات فصيحة، فغصبنا أنفسنا بمناداة أبينا (بابا) بدل (بويا)، وأُمنا (ماما) بدل (يُمّا).

هذه الصورة التي كنت أحملها عن العرب حتى يوم 5 حزيران 1967، لهذا فان أول شيء خطر في بالي ذلك الصباح أن أعمامي «العرب» هجموا بفقرهم وخيولهم وسيوفهم على الاسرائيليين. وكنت أداري نفسي بأمل أن لا يكون أعمامي وحدهم في الحرب إنما معهم عرب الخليج والسعودية وربما الأردن، لأني سبق وأن رأيت في الصحف أنهم يرتدون العقال العربي. ولم أصدق مذيع تلفزيون بغداد الأفندي الجميل الأنيق وهو يقول بغضب وتحدٍّ: «نحن العرب»، ثم الأكثر عجباً أن عبد الحليم وفيروز وناس متحضرين كثيرين ينشدون أيضاً: «نحن العرب». الحقيقة أن أول من أوضح لي هذا الالتباس صديقي محمود الفلسطيني عندما أفهمني ذلك اليوم في المدرسة: ان هناك عرباً متخلفين فقراء واحدهم يسمى عُربي (العين مضمومة)، وهناك عرب متطورون وأغنياء واحدهم يسمى عَربي (العين مفتوحة)! وبين الضمة والفتحة هناك عالم لا محدود من الفروق الحضارية ومشاعر متناقضة تتراوح بين التفوق والعار.

أقولها بصراحة، أني خلال أعوام طويلة لم أتخلص تماماً من مشكلة انتمائي الى قوم اسمهم «عرب». مرحلة الشباب الأولى عشتها بثورة وتعصب قومي عربي مراهق حالم. يبدو أن التعصب لقضية ما يأتي عادة من الشعور الدفين بالعار ازاء هذه القضية. ثم عشت بعدها سنوات المرحلة النقيضة، حيث تمردت ورفضت كل ما هو عربي وقومي بحجة الانتماء الطبقي والأممي التقدمي والمتحضر والسبب يبقى هو ذاته أي الشعور الدفين بالعار. والآن ومنذ بضعة أعوام وخصوصاً بعد تجربة العيش في أوربا والمواجهة اليومية مع الاستعلاء الأوروبي من ناحية والانمساخ العربي من ناحية أخرى، بدأت اكتشف هويتي الحقيقية عبر اكتشاف حقيقة هوية الآخر (فرداً وجماعة). الانسان الآخر بأبعاده السياسية والعقلية والجغرافية والتاريخية. عرفت أن هذه المشكلة لا تخصني أنا وحدي بل إن جميع الشعوب الناطقة بالعربية تعاني من (تمزق كلامي ودام) في الهوية، أدى ويؤدي الى عذابات وصراعات وحروب أهلية لا تتوقف. منذ صبيحة يوم 5 حزيران 1967 وأنا أعيش وأتابع هذه الإشكالية التي تزداد حدة وتعقيداً عاماً بعد عام وبعد كل حدث. كل يوم يزداد يقيني بأن «عرب» ليست كلمة واحدة وليست معنى واحداً وليست انتماءاً تاريخياً أو جغرافياً أو سكانياً (عرقي) واحد. إنها (كلمة ـ هوية) لا تكف أن تكون عرضة لعواصف التفسيرات والحركات الإعرابية.

كلمة واحدة بمعاني متعددة

هناك حكاية عن أربعة مهاجرين من بلدان المغرب العربي، قرروا يوماً وضع إكليل من الزهور عند المكان الذي استشهد فيه رفيقهم الجزائري أثناء تظاهرات الطلبة في باريس منذ بضعة أعوام. في طريقهم الى المكان تجادل هؤلاء الشبان عن العبارة التي سيكتبونها على الإكليل. أحدهم قال : باسم الجالية «العربية»، فرد عليه الآخر معترضاً : باسم الجالية «الشمال افريقية»، أما الثالث فقد طالب، باسم الجالية «المغاربية»، والرابع أصر : باسم الجالية «الإسلامية»، حتى احتدم الجدل وتطور الى شجار أدى الى تمزق الاكليل وخراب المشروع.

هذا مثال واضح على إشكالية الهوية التي انغمر فيها العقل العربي فما أسهل أن نستمع الى البعض من مختلف البلدان العربية يبذل الجهد لكي ينفي تهمة أن يكون عربياً ليبرز انتماءه الوطني أو العرقي أو الديني أو القاري.

والمشكلة تكمن في أن تسمية «عرب» غير قادرة على إبراز معناها الجيوسياسي الشامل لكل الأعراق والطوائف والقوميات القاطنة في هذه البقعة المسماة العالم العربي. هذه التسمية ارتبطت منذ تكوينها تاريخياً بالعنصرالعربي وواقعياً باللغة والثقافة العربية. تسمية الأوروبي مثلاً لا تتضمن إمكانية تفسيرها بغير المعنى الجيوسياسي بسبب عدم وجود عرق أوروبي ولغة أوروبية بل هنالك لغات وثقافات وأعراق لها روابط ومصالح مشتركة تجتمع تحت اسم الانتماء الأوروبي الجيوسياسي.

عندما يلتقي مغربي من أصل بربري مع عراقي من أصل تركماني، أمن المعقول أنه لا شيء يجمع بينهما لكونهما ليسا من «عرق» عربي؟ كيف يمكن أن يعبرا عن انتمائهما المشترك لمنطقة جيوسياسية واحدة لها ما لا يحصى من الروابط والمصالح المشتركة وتجتمع تحت لواء جامعة الدولة العربية. بإمكان هذين البربري والتركماني أن يقولا نحن من الشرق أو الإسلام أو العالم الثالث، ولكنهما سوف يجدان صعوبة حقيقية في القول بأنهما «عرب» للتعبير عن انتمائهما المشترك لكتلة جيوسياسية واحدة. وعندما يقول العراقي الناطق بالعربية لأخيه العراقي الناطق بالسريانية بأنهما عراقيان الأمر مقبول، لكن السرياني سوف يجد صعوبة بتقبل عبارة (نحن عرب) لأنه يفترض مباشرة المعنى العرقي لهذه العبارة. لهذا يميل الكثير من العرب الى القول بأنه شرقي أو من الشرق الأوسط أو من الضفة الشرقية للبحر المتوسط أو من آسيا

أو افريقيا، أو أي اسم آخر للتعبير عن انتمائه لمنطقة تشترك بعوامل الوحدة الجيوسياسية اسمها العالم العربي. نفس الحالة من التشابك والتردد اللغوي نواجهها على الصعيد السياسي، أن يلتقي شخصان من نفس البلد أو حتى من نفس العائلة فيخاطب أحدهما الآخر: أنا فينقي لبناني وأنت عروبي متنكر لانتمائك الوطني للبنان.. أنا عراقي أصيل وأنت عربي بدوي غازٍ لوطني.. أنتم العرب أبناء الصحراء ونحن المصريين أبناء الحضارة الفرعونية العريقة.. تاريخنا نحن أبناء سومر، أو قرطاج، أو فرعون، أو ما شاء التاريخ، بينما هم أو أنتم أحفاد الصحراء والتاريخ المتأخر عن تاريخنا بآلاف السنين. نحن وأنتم وهم، وما لا يحصى من التشابكات اللغوية التي لا تكف عن التعقيد والتبسيط والاستغلال الساذج وتشويه الحقائق والحروب الصغيرة والكبيرة. كل هذا من أجل تجنب المعنى الفلاني لكلمة «عرب» بسبب تعدد التفسيرات والاستخدامات لهذه الكلمة التي ارتبط بها تاريخنا منذ الفتح العربي في القرن السابع وحتى الآن.

الاشكالية اذن تتمحور أساساً حول المعاني المتعددة والمتناقضة لهذه الكلمة ــ المصطلح «عرب». يمكننا تحديد المعاني المعروفة والمتداولة بخمسة. هنا محاولة للدخول في تفاصيل هذه المعاني المتنوعة، على أمل الدخول في تفاصيل التمزقات الواعية وغير الواعية التي نعاني منها أفراداً وشعوباً في دروب البحث عن الذات والهوية.

أولاً: المعنى العرقي القومي

وهو المعنى السائد والمستخدم رغم أن الكثير يحاول إخفاءه بمعانٍ أخرى. فالعرب حسب هذا المعنى هم مجموعات من البشر ينتمون الى أصول قبلية وثقافية واحدة، وتاريخهم الحضاري يبتدىء مع ظهور الاسلام وخروجهم من الجزيرة الى باقي المناطق التي تسمى الآن البلدان العربية. ولهؤلاء البشر مثل جميع الشعوب لغة واحدة هي اللغة العربية. وحسب هذا المعنى فإن القبطي عرقياً هو ليس عربياً، والآشوري ليس عربياً، والبربري كذلك، أغلب المجاميع السكانية القاطنة في هذه البلدان العربية هي ليست عربية بالمعنى العنصري والمحدد للكلمة. وعلى هذا الأساس فإن تاريخ العرب، ثقافةً وسياسةً وديناً وتراثاً ووجوداً بشرياً يبتدىء منذ القرن السابع ومن منطقة محددة هي الجزيرة العربية، ثم يمتد ويتفرع وينمو بعد الفتح العربي الاسلامي ليشمل جميع المناطق التي تم تعريبها أو ما يسمى اليوم بالعالم العربي.

ثانياً: المعنى الاجتماعي

وهذا المعنى يكاد أن يكون سائداً على المستوى الشعبي والتاريخي. ويمكن اتخاذ مثالي الشخصي الذي ابتدأت به الموضوع نموذج لهذا المعنى. والحقيقة ان كلمة «عرب» ارتبطت في أصلها اللغوي التاريخي بمعنى البداوة ثم فيما بعد اتخذت معناها القومي. المعنى اللغوي لكلمة «عرب» يقصد الناس المتنقلين، ومن المحتمل أن تكون هذه الكلمة ابدالاً مع كلمة «عبري» أي العابرين والمتنقلين. وهنالك فرضية أقوى تعتبر كلمة «عرب» متأتية من «غرب» وخصوصاً أن العين والغين تتبادلان في اللغات السامية، وأول من أطلق هذه التسمية سكان العراق الآشوريين في القرن الثامن قبل الميلاد على القبائل البدوية القاطنة في «غرب» الفرات. ويبدو أن هذا الخلط بين الانتماء العرقي للعرب والاتهام بالبداوة وعدم التحضر موجودة منذ القدم. حتى القرآن يشير الى هذه المسألة بالحديث عن الأعراب: ﴿وممن حولكم من الأعراب منفقون ومن أهل المدينة مردوا على النفاق...﴾ (سورة التوبة: الآية 101). حتى مؤرخينا والباحثين في تاريخ الأدب العربي قد وقعوا في إشكالية الخلط بين المعنيين. دائماً نسمع من يذكر مقولة ابن خلدون الشهيرة (اذا عربت خربت) متناسين انه لا يقصد المعنى «العرقي» إنما المعنى «الاجتماعي»، وبالذات بمعنى قبائل بني هلال التي اجتاحت وخربت المغرب. لأن ابن خلدون نفسه يفتخر بانتمائه للعرب وأصله المعروف المنحدر من قبائل اليمن. ويمكننا قول نفس الشيء عن الكثير ممن اتهموا بالشعوبية من قبل مؤرخينا بسبب الخلط بين المعنيين البدوي والعرقي. وهذا الخلط في المعنى نجده حالياً في جميع لهجات البلدان العربية. دائماً هنالك كلمة ما مشتقة من «عرب» تستخدم للاستصغار والاتهام بالبداوة: أعراب، عُربان، ... وغيرها!

ثالثاً: المعنى الجيوسياسي

هذا المعنى يرتبط أساساً بحقيقة واقعية وتاريخية مناقضة تماماً للمعنى العرقي. تبدأ الحكاية مع خروج القبائل العربية من الحجاز حاملة رسالة الاسلام والشروع بفتح وتعريب بلاد النهرين ومصر وشمال افريقيا. ومنذ الأعوام الأولى لتكوين الدولة العربية الاسلامية بدأ المعنى الجيوسياسي ينافس المعنى العرقي الذي حاول أحياناً أن يعارض وأحياناً ان يتفق ويندمج. القبائل العربية التي استوطنت هذه البلدان مهما كان عددها، فأن الأرقام تثبت أنهم

كانوا دائماً أقلية عددية مقارنة بالشعوب الأصلية القاطنة منذ آلاف السنين. ولكن القبائل العربية كانت تمتلك القوة العسكرية والسياسية بالاضافة الى القوة الفكرية والروحية الكبرى المتمثلة بالاسلام. في البدء ومع الدولة الأموية كانت لا تزال القبائل العربية لم تفقد بعد خاصيتها العرقية والتمايز عن الشعوب الأصلية (الموالي) القاطنة في هذه البدان. لكن بعد قرون من التزاوج والتمازج ومع ظهور الدولة العباسية وصلت حالة انصهار العنصر العربي في الشعوب الأصلية الى ذروتها. وهذا يفسر ردة الفعل القوية من قبل بعض المتمسكين بالنقاء العرقي ازاء حالة الذوبان الحضاري هذه ومحاولة تقديس القبلية العربية بأسم مكافحة الشعوبية.

في العصر الحديث اتخذ هذا المعنى الجيوسياسي طابعاً رسمياً مع تكوين جامعة الدول العربية وانبثاق مفهوم الدول العربية أو العالم العربي. هذه الدول تعترف بوجود أقليات ثقافية ودينية متنوعة في بلدانها وكذلك بانتمائها العربي الجيوسياسي البعيد عن الانتماء «العرقي». مصر والمغرب والعراق دول عربية مثلما تقول البرتغال والبانيا والسويد دول أوروبية، فالانتماء هنا انتماء سياسي جغرافي ومصالح مشتركة ولا يشترط أي انتماء عرقي أو قومي بالمعنى المباشر. هذا المعنى يفترض أن الأرمني المقيم في بلد عربي والقبطي والبربري هم عرب، كما الايطالي الكاثوليكي والألباني المسلم والألماني البروتستانت هم أوروبيون، وكما المصري والسنغالي والافريقي الجنوبي الأبيض هم افريقيون. انه انتماء جغرافي سياسي لا يعني أي انتماء عرقي أو اجتماعي.

رابعاً: المعنى العروبي القوماني

وهذا المعنى له جذوره القديمة منذ انبثاق مفهوم العرب. ويمكن أن نجد أساسه حتى في القرآن عندما أكد على: ﴿أنزلناه قرآناً عربياً...﴾ (سورة طه : الآية 103). ثم اصرار قادة العرب على أن يكون خليفة المسلمين من نسل عربي شريف وان تكون اللغة العربية هي لغة الدولة والدين والحضارة. ووصل الى ذروته في هذا الاتجاه الكفاحي في الفترة العباسية مع اندلاع الصراع مع الحركات الشعوبية المعادية للهيمنة العربية. ظل هذا الاتجاه خامداً خلال قرون الحقبة العثمانية وكاد أن يذوب في النسيان في الحالة الاسلامية ــ العثمانية المتعددة القوميات، لولا انبثاق التيار القومي الأوروبي والحركة الاستعمارية ثم انجرار الأتراك الى التعصب التركي وبالتالي دخول العرب في هذا المعترك الكفاحي وبدء تكون

حركة القومية العربية في أواخر القرن الماضي واعطاء هذا الاتجاه القديم بُعداً ايديولوجياً وبنية سياسية.

أول ما يميز هذه الحركة انها ترفض الانصهار القومي والثقافي والسياسي في الحالة الأجنبية (عثمانية اسلامية أو أوروبية). ثم الميزة الأخرى المهمة في هذا التيار انه حاول بصورة واعية ولا واعية أن يجمع ما بين الانتماء العرقي العربي والانتماء الانساني الجيوسياسي تحت شعارات الوحدة العربية والأمة والرسالة الخالدة. فهو من ناحية يعلن أن جميع القاطنين في البلدان العربية هم عرب بغض النظر عن انتمائهم العرقي، ومن ناحية أخرى يؤكد في تفاصيل دعوته على أهمية العنصر العربي وتاريخ انبثاق القبائل العربية من الجزيرة، وعلى عروبة الاسلام والانتماء العربي لقادة الحضارة العربية الاسلامية. فأي نصير لهذا التيار يحاول في أعماقه أن يثبت انتماءه «العرقي» العربي لتبرير ولتوكيد انتمائه للتيار العروبي الكفاحي هذا.

خامساً: المعنى التاريخي ـ الحضاري

هذا المعنى دخل الى الساحة في العصر الحديث مع بدايات عصر النهضة والاستقلال واكتشاف أبناء البلدان العربية أن لهم تاريخاً طويلاً عريضاً سبق الوجود العربي الاسلامي يشتمل على اكبر الحضارات وآلاف السنين: بابليين وكنعانيين وفراعنة وقرطاجيين وغيرهم.

والمشكلة التي واجهت وتواجه جميع المثقفين العرب وخصوصاً المؤرخين، أن مصطلح «عرب» ارتبط تاريخياً بعصر الفتح العربي وهذا يعني أنه لا يشتمل على العصور التي سبقته. فالحضارة النهرينية ليست عربية وكذلك المصرية والشامية والقرطاجية. هنا تأتي الازدواجية ـ الانفصامية بين التاريخ العربي القومي الذي يبتدىء بمكة والاسلام، ثم التاريخ الوطني لكل بلد عربي الذي يبتدىء بآلاف السنين قبل الاسلام. ومن أجل التخلص من هذه الانفصامية بين القومية والوطنية (القطرية)، ثمة ميل خجول بدأ ينمو عند المؤرخين العرب باطلاق تسمية عرب على الحضارات والشعوب السامية (العراقية والشامية والقرطاجية)، وأحياناً أقل تعتبر عربية كذلك الشعوب الحامية (المصرية والبربرية). (راجع مثلاً كتابات احمد سوسة وفكتور سحاب وبرهان الدين دلو، وغيرهم). وهي محاولات فاشلة تعاني من ضعف كبير لا يشجع على نجاحها، لأن كلمة «عرب» تحولت الى مصطلح شبه ثابت ارتبط دائماً بالقبائل العربية والجزيرة العربية والفتح الاسلامي واللغة العربية. بالاضافة الى أن المؤرخين أنفسهم لم

يتخلصوا من فهمهم العرقي العروبي، تراهم رغم «تعريبهم» للحضارات العراقية والشامية والمصرية فانهم يعودون دائماً الى «تقديس» الحضارات «العربية» في اليمن والجزيرة العربية ويعتبرونها هي الأساس والمنطلق للتاريخ «القومي العربي»!

العالم الشرقمتوسطي بدل العالم العربي

يمكن مقارنة تسمية «عرب» مع تسميات جيوسياسية مماثلة في مناطق أخرى من العالم. مثال «آسيا»، فهذه الكلمة تتضمن أيضاً بعض الإشكال. إذ هناك فرق بين أن يقول العراقي أو اللبناني أنه من قارة آسيا ولكنه لا يقول أنه «آسيوي» لأن هذه التسمية اتفق عليها عموماً أن تعني الانتماء الى الجنس الأصفر (الصين وتايلاند والفلبين وغيرها). هنالك مثال أقرب الينا تركيا مثلاً، فمشكلة تركيا ان هذا الاسم ارتبط بعرق معروف اسمه العرق التركي المنتشر في معظم أواسط آسيا وفي بلدان عدة مثل اذربيجان وتركستان وأوزبكستان وغيرها. ولكن تركيا البلد تعاني من ازدواجية أشبه بالازدواجية العربية: ان الشعب التركي الحالي ينتمي الى أصول عرقية مختلفة، منهم الأكراد والعرب والأرمن واليونان والسلاف. عبارة «أنا تركي» تفترض المعنى العرقي ــ اللغوي، وتتناقض مع الانتماء الوطني (الجيوسياسي) لباقي الأعراق غير التركية. ثم انه عند الحديث عن تاريخ الأتراك كعرق ولغة وشعب يتناقض مع تاريخ تركيا كبلد وارض موجودة ومسكونة بالشعوب والحضارات الحثية والاغريقية ـ البيزنطية منذ آلاف السنين قبل فتح الأتراك لتركيا الحالية. لهذا فإن الأتراك بحاجة الى تسمية أخرى يطلقونها على بلدهم لتجنب المعنى العرقي التركي، ومن أجل الانتماء للمعنى الجيوسياسي الشامل لتنوع الشعوب وامتداد التاريخ. وربما تسمية «بلاد الأناضول» هي الأنسب والأكثر تطابقاً مع تاريخ البلد وسكانه وثقافته المتنوعة العريقة.

ربما التجربة الايرانية أفضل مثال على نصف النجاح في اتخاذ المسميات الشاملة. فايران حتى أوائل القرن كانت تسمى (بلاد فارس). ولكن الفرس في ايران لا يمثلون أكثر من 50٪ من السكان والباقون من الأكراد والتركستان والعرب والبلوش وغيرهم. لذا كان الاختيار الذكي للشاه رضا خان باعادة استخدام اسم (ايران عام 1935) بمعنى بلاد الآريين، ومنهم الفرس والأكراد والغيلانيين والمازندارانيين. ولكن هذا الحل يعاني من ضعف لِكَون بعض القوميات في ايران هي من أصول غير آرية مثل التركستان والعرب.

بناء على هذا يمكن ان نفترض أننا اتفقنا يوماً على الحفاظ فقط على المعنى العرقي لتسمية «عرب» فنقول : القبائل العربية، اللغة العربية، تاريخ العرب الذي بدأ في الجزيرة العربية في القرن السابع. أما المعنى الجيوسياسي المعبر عن العالم العربي بتاريخه وتراثه وحضاراته وشعوبه، فيمكن استخدام تسمية أخرى غير هذه التسمية. لنقل مثلاً اننا اخترنا تسمية «شرقمتوسطي»، وهذا اختيار أولي قابل للنقاش والتغيير لكننا فضلناه لأسباب عديدة منها : ان اشتقاق كلمة «شرقمتوسطي» للتمييز عن «شرقي» و «مشرقي» وأيضاً شموليتها لجميع منطقة شرق البحر المتوسط أي ما يسمى حالياً «العالم العربي» الذي يقابل أوربا التي تقع غرب البحر المتوسط. وهذه التسمية متداولة منذ سنوات وقد سبق مثلاً استخدامها من قبل عبد الرحمن منيف في روايته الشهيرة (شرق المتوسط). ومن المعروف ان البحر المتوسط لا يشمل فقط البلدان الواقعة على سواحله، بل يمتد تأثيره الى ابعد من ذلك. ان العراق مثلاً يعتبر من بلدان البحر المتوسط الذي يتوقف تأثيره عند جبال زاغاروس لهذا فأنه لا يمكن اعتبار ايران شرقمتوسطية. وفي كل الاحوال انها قضية اتفاق مصطلحي ولا تشترط ابداً التقيد الحرفي بالواقع فليس هنالك مصطلح واحد يتطابق تماماً مع الواقع الذي يعبر عنه. من حقنا نحن ايضاً ان نصنع ونفرض مصطلحاتنا ولا نترك الغربيين يفرضون دائماً مصطلحاتهم علينا كما هو حاصل مثلاً بمصطلح (الشرق الادنى والاوسط)، و(العالم الثالث).. وغيره الكثير الكثير..

إن تسمية «شرقمتوسطي» هذه لو افترضنا إمكانية استخدامها بدلاً من تسمية «عربي» فإنها سوف تجنبنا جميع الإشكاليات العرقية والتاريخية والاجتماعية التي أضعفت حتى الآن روح الوحدة والهوية المشتركة بين شعوب وجماعات بلداننا «العربية». حينئذٍ سيمكننا القول مثلاً «العالم الشرقمتوسطي» بدل «العالم العربي»، وجامعة «الدول الشرقمتوسطية» وتاريخ «الشعوب الشرقمتوسطية». وعندما ندخل في التفاصيل سنقول أن هذه الشعوب الشرقمتوسطية تتكلم حالياً اللغة العربية منذ أن فتحتها القبائل العربية التي فرضت لغتها والاسلام من خلال امتزاجها بالشعوب الشرقمتوسطية الأصلية. ومعظم الشعوب التي استوطنت في العالم الشرقمتوسطي خلال التاريخ هي شعوب يجمعها الانتماء الى الوحدة اللغوية للعائلة السامية ــ الحامية، مصريين وبربر وبابليين وعبرانيين وآراميين، وآخرهم العرب، بالاضافة الى جماعات كثيرة آسيوية (كردية وتركمانية وأرمنية وشركسية) وكذلك أوروبية وافريقية، ومساهمتها الثقافية والسياسية في خلق الهوية الشرقمتوسطية المتنوعة

والموحدة في ذات الوقت. تاريخ هذه البلدان الشرقمتوسطية يمتد لعدة آلاف من الأعوام، وخلاله انبثقت أولى حضارات البشرية في بعض أجزاء هذا العالم الشرقمتوسطي. العراق ومصر، وأعقبتها حضارات كبرى في بلاد الشام ثم اليمن وشمال افريقيا. وفي القرن السابع برزت من بين هذه الشعوب مجموعات قبلية صحراوية تقطن الجزيرة العربية، شاعت تسميتهم «عرباً». في القرن السابع خرجت هذه القبائل العربية من صحارى ومدن الجزيرة حاملة رسالة الاسلام وشرعت بفتح باقي العالم الشرقمتوسطي من العراق والشام وبلاد النيل وشمال افريقيا وشملت الفتوحات أجزاء أخرى خارج العالم الشرقمتوسطي: في آسيا (ايران والهند والبقاع المنغولية ـ التركستانية) حيث انتشر فيها الاسلام والحضارة الشرقمتوسطية ذات الرداء العربي ـ الاسلامي. كذلك امتدت هذه الحضارة نحو جنوب أوربا (بلاد الأندلس وصقلية). ومنذ ذلك الوقت شاعت بين شعوب العالم الشرقمتوسطي اللغة العربية والدين الاسلامي، بالإضافة الى غلبة العنصر العربي على البنية العقلية للشعوب الشرقانية بحيث شاعت كلمة «عرب» في تسمية هذه الشعوب..

يمكننا تقسيم المراحل التاريخية التي مر بها العالم الشرقمتوسطي حسب العصور التالية:

1 ـ **من 4000 حتى بضعة قرون ق. م**: العصور التاريخية والحضارية الأولى، في وادي النهرين ووادي النيل وبلاد الشام، ثم امتداد تأثيرهما الى باقي أجزاء العالم الشرقمتوسطي في اليمن وشمال افريقيا. وفي المرحلة الأخيرة من هذه العصور انبثقت أولى التيارات التوحيدية الثقافية، ومن اهمها الابجدية الكنعانية والديانة اليهودية في فلسطين كتعبيرعن التقارب الحضاري بين شعوب العالم الشرقمتوسطي.

2 ـ **من بضعة قرون ق. م حتى القرن السابع ب. م**: عصور السيطرة الأجنبية (الايرانية والاغريقية والرومانية والأثيوبية) على جميع أجزاء العالم الشرقمتوسطي. وتميز أيضاً هذا العصر بانبثاق المسيحية كدين يعبر عن الحاجة للتوحد الروحي والسياسي للشعوب الشرقمتوسطية.

3 ـ **بين القرن السابع ب. م والقرن 13**: عصور الحضارة العربية الاسلامية وانتشار القبائل العربية واندماجها في الشعوب الشرقمتوسطية التي تبنت الاسلام واللغة العربية وصنعت حضارة شرقمتوسطية منفتحة على جميع حضارات البشرية.

4 ـ **بين القرن 13 والقرن العشرين** : العصور المظلمة والسيطرة الأجنبية على العالم الشرقمتوسطي، العثمانية والايرانية ثم الأوروبية.

5 ـ **القرن العشرين:** عصر النهضة والاستقلال ونشوء جامعة الدول «العربية» الشرقمتوسطية وبروز العالم الشرقمتوسطي في الساحة العالمية ككتلة جيوسياسية ينطق أغلب سكانها باللغة العربية وتعتنق أغلبيتها الدين الاسلامي، وتمثل امتداداً حضارياً عريقاً ومقابلا للكتلة الأوروبية الواقعة على الضفاف الغربية للبحر المتوسط.

علماً أن هذا العالم الشرقمتوسطي يتكون من العديد من الأوطان والشعوب المتمايزة في تاريخها ولهجتها وتكوينها السياسي، لكنها جميعاً تشترك في قواسم تاريخية ـ جغرافية ـ ثقافية، ولغة عربية موروثة منذ القرن السابع وجماعات لغوية مختلفة : بربر وأكراد وشركس وتركمان وأفارقة، وغيرهم. الاسلام (بطوائفه المتعددة) هو الدين الغالب على أبناء العالم الشرقمتوسطي، بالاضافة الى طوائف مسيحية ويهودية وصابئية وغيرها موروثة منذ عصور قديمة. وتوجد مصالح اقتصادية وسياسية تم التعبير عنها من خلال تكوين جامعة الدول الشرقمتوسطية، وانبثاق الحركة التوحيدية الشرقمتوسطية الداعية الى تقارب وتعاون هذه الدول والشعوب، على غرار المجموعات الجيوسياسية الأوروبية والأمريكية وغيرها. علماً أن تسمية (شرقمتوسطي) تترجم الى الأوروبي بـ(EST MEDITERANEEN).

أخيراً، نعرف ونعترف أن مقترحنا هذا قد يثير الاستغراب أو الابتسام لدى البعض، فاننا في كل الأحوال لا نبتغي غير اثارة التساؤل والتفكير في بديهيات تتطلب الجرأة في مناقشتها ومراجعتها بدلاً من تقديسها ثم تدمير الأوطان وخوض الصراعات والحروب بين الأشقاء بسببها!

مع الوحدة العربية.. ضد القومية العربية
العروبة السياسية بين «حق العرق» و «حق الأرض»

إن الدول الوطنية التي تأسست في البلدان العربية وخصوصاً في بلدان المشرق العربي (الهلال الخصيب) بعد الحرب العالمية الأولى، قامت منذ البدء على أساس خاطىء يعتمد الفلسفة التالية: «إن الوحدة ضد التنوع.. وإن تجاهل الجزء وكبته سيؤدي الى ذوبانه في الكل..». وقد اتخذت هذه الفلسفة سلاحاً لها مفهوم «القومية العربية» التي عملت على تجاهل حقيقة التنوعات السكانية لمجتمعات بلدان المشرق. المشكلة ليست في الإقرار بحقيقة وجود هذه «العروبة» التي تجمع الشعوب العربية بروابط ثقافية ولغوية وتاريخية وجغرافية اضافة الى المصالح السياسية والاقتصادية. إن روابط العروبة هذه ايجابية ومقبولة ما دام هدفها جمع شمل البلدان العربية وتقريبها وتوحيدها ولنا في هذا نموذج الوحدة الأوروبية. لكن المشكلة هو سيادة المفهوم «العرقي» أو ما يسمى بالمفهوم «القومي» لهذه العروبة، أي التأكيد على شرط الأصل «القبائلي التاريخي» الذي يعتقد ويُفترض أنه متوفر في جميع الناطقين بالعربية! على هذا الأساس تمت محاربة وقمع جميع الطروحات التي تطالب باحترام التنوعات السكانية والثقافية الأخرى تحت ستار: «مكافحة الشعوبية» ثم محاربة جميع الطروحات التي يمكن أن تؤكد على الأصالة الوطنية باسم: «مكافحة الميول القطرية».

لقد تجلى هذا الفهم «العرقي القومي» للعروبة بقياس وطنية المواطن بمدى «أصالته العربية» واعتبار المواطنة والانتماء للوطن حسب ما يسمى بـ «حق العرق والقومية» وليس على«حق الأرض والوطن». لقد ابتدعت الانسانية منذ القدم وكذلك الديمقراطيات الغربية مفهوماً يستحق الاستشهاد به: «حق الأرض» أي أن الانسان يمتلك حق الحصول على المواطنة والجنسية بمجرد ولادته على أرض الوطن أو عيشه لسنوات معينة في الوطن. بناءً على هذا يتم منح الأجانب الجنسية مجرد ولادتهم أو زواجهم بمواطن أو مواطنة أو إقامتهم فترة معينة. إن حق الانتماء للأرض أقوى من حق الانتماء للقومية والسلالة العرقية وهذا مالم تعترف به العروبة السياسية لحد الآن.

إن سيادة عقلية الانتماء القومي العرقي أدت الى ضعف الانتماء الى الأرض وتاريخها وثقافتها وناسها. بمعنى أن الحكومات لا تعامل المواطن والجماعات الوطنية على أساس

الانتماء للوطن والاقامة على أرضه والانصهار بتاريخه وثقافته بل على أساس الانتماء للتاريخ القبائلي العربي الحجازي القديم.

من أبسط الأدلة على هذه العقلية هو تعامل حكوماتنا في منح الجنسية للمواطنين. في حالة العراق مثلاً، استمرت جميع الحكومات العراقية منذ عام 1921 وحتى الآن على التعامل مع الكثير من الجماعات العراقية مثل الأرمن والآثوريين وكذلك مع الكثير من الشيعة من عرب وفيلية على اعتبارهم أجانب أتراكاً أو ايرانيين ورفض منحهم الجنسية وحتى طردهم من الوطن. لقد تجلت ذروة هذه السياسة العنصرية في أعوام الثمانينات عندما قامت الحكومة بطرد ما يقرب المليون عراقي (من الشيعة) الى ايران بحجة عدم امتلاكهم الجنسية العثمانية رغم أصالتهم الوطنية وتوطنهم في العراق منذ أجيال، بل إن الكثير منهم من عشائر ــ عربية «أصيلة عرقياً!». بنفس الوقت لا تتوانى هذه الحكومة من منح الكثير من الأشخاص غير العراقيين الجنسية العراقية بحجة أنهم عرب قادمون من بلد عربي! ثم التعامل مع الجماعات العراقية المختلفة بريبة واحتقار ما داموا لم يثبتوا انتماءهم الحقيقي للسلالة العربية. وعلى هذا الأساس أيضاً استمرت عمليات تعريب المناطق غير الناطقة بالعربية (كردية وتركمانية وسريانية) بتهجير السكان الأصليين وإحلال الناطقين بالعربية محلهم.

الحقيقة ان «حق العرق» هذا من صلب فلسفة الحركة الصهيونية لقد قامت اسرائيل على فكرة ان اليهودي أينما عاش ومهما كان تاريخه ووطنه وجنسيته فانه يمتلك «حق العودة» والتوطن في فلسطين باسم «حق العرق» أي الانتماء لما يفترض أنه «العرق اليهودي». ثم ان الصهيونية قد نجحت باستغلال الطروحات العروبية العراقية القائلة بأن جميع العرب من «أصل قبائلي عربي» توطنوا فلسطين وغيرها بعد الفتح العربي الاسلامي. على أساس هذا الفهم «العرقي ـ العربي والصهيوني» بررت الصهيونية طردها لشعب فلسطين باعتبار اليهود هم «عرقياً» من سلالة السكان الأصليين لهذه الأرض حسب التوراة، وان الفلسطينيين ما هم إلا من سلالة العرب القادمين من الجزيرة العربية وما عليهم إلا ترك فلسطين والعودة الى موطنهم الأصلي!

إن الخطاب العروبي فشل من الأساس في مواجهة الخطاب الصهيوني لأنه لم يناقض المنطق الصهيوني القائم على حق العرق. ان الخطاب البديل المطلوب هو الذي يؤكد على ديمومة وجود شعوبنا في أوطانها منذ الحقب البعيدة. وأن هذه الشعوب طيلة تاريخها استقبلت

الكثير من الجماعات والأديان واللغات، لكنها ظلت هي نفسها سليلة الأرض والتاريخ مهما اختلفت الأسماء واللغات والأديان. هذا يعني أن الفلسطينيين هم أبناء أرض فلسطين منذ التاريخ المجهول ثم وجود الكنعانيين ثم اليهود ثم الآراميين ثم العرب ثم الصليبيين. تتبدل الأسماء واللغات والأديان وشعب فلسطين هو نفسه لأنه شعب هذه الأرض التي تذوب في تاريخها الجماعات واللغات والأديان الجديدة. على هذا الأساس فان اليهود (أو الاسرائيليين) مهما كانت أصالتهم السلالية اليهودية المفترضة فانهم في أقصى الأحوال لا يمكنهم ان يكونوا سوى جزء من شعب فلسطين. إذا كان اليهود يبتغون العيش بسلام فعليهم مجاراة منطق التاريخ والقبول بكل بساطة بحقيقة انتمائهم للشعب الفلسطيني بدلاً من محاولة نفيه وطرده من أرضه وإلغاء تاريخه.

هذا هو التاريخ الأسطوري الذي فرضته علينا العروبة السياسية. ولم يدرك مفكرو العروبة بأنهم يتفقون دون وعي مع المشاريع الغربية والصهيونية. يبدو أن تحالفاً غربياً صهيونياً قد تم من أجل كتابة تاريخنا بالصورة التي تلائم المشاريع الاستعمارية القديمة والجديدة. إن الغربيين منذ الحروب الصليبية يكافحون من أجل دحض أية فكرة تقول بأن خصومهم هؤلاء «العرب المسلمون» هم أحفاد الذين صنعوا «الدين المسيحي» الذي تجهد أوربا على تصويره كدين روماني اغريقي. أما الصهيونية فإنها راحت تستغل هذا الهاجس الأوروبي القديم من أجل نفي فكرة أن يكون سكان فلسطين والمشرق الحاليين هم أحفاد الذين صنعوا اليهودية مثلما صنعوا من بعدها المسيحية ثم الاسلام، وبالتالي منح الشرعية التاريخية لاستيطان اليهود في فلسطين وطرد الفلسطينيين من وطنهم. ان الطرفين الغربي والصهيوني اتفقا على خلق قطيعة بدنية عرقية بين العرب الحاليين وأسلافهم صانعي الحضارات قبل الاسلامية، والتأكيد على وجود تواريخ عديدة لمختلف المذاهب والأديان والجماعات الثقافية اللغوية. كل هذا من أجل خلق التناقض التاريخي بين الناطقين بالعربية والجماعات السكانية الأخرى : بين العرب والبربر في المغرب، والعرب والنوبيين في السودان، والمسلمين والأقباط في مصر. أما في بلدان المشرق فان المشروع الصهيوني لن يجد شرعيته إلا بتفكيك المشرق الى دويلات مذهبية وقومية ودينية لكل منها تاريخها الخاص على غرار دولة اسرائيل العرقية.

إن فكرة النقاء العرقي (القبائلي) العربي التي أشاعتها العروبة السياسية، تبدو خرافة واهية عند وضعها تحت ضوء التاريخ. إن أية مراجعة لتاريخ المنطقة تثبت بصورة لا تقبل الجدل ان شعوب المشرق خصوصاً من أكثر شعوب الأرض تمازجاً واختلاطاً مع ما لا يحصى من

الشعوب والجماعات والأجناس السوداء والبيضاء والشقراء والصفراء والحمراء خلال الآلاف من الأعوام. ان موقع منطقة المشرق في وسط القارات الثلاث جعلها محطة لمرور واستيطان الكثير الكثير من الجماعات القادمة من آسيا وافريقيا وأوربا. والشعوب التي لم تأت المشرق غازية أو سائحة أو باحثة عن الرزق والتجارة، فإن أسلافنا تكفلوا بجلبهم كأسرى وعبيد ومماليك وجوار منذ فتوحات البابليين والآشوريين والفينيقيين حتى الفتوحات العربية. يكفي ملاحظة التاريخ الأموي والعباسي مثلاً حيث ظلت أسواق دمشق وبغداد خلال قرون تستورد الآلاف المؤلفة من العبيد (السود) والمماليك (البيض) والجواري من كل جنس ولون المجلوبين من المستعمرات والبلدان المفتوحة، بالاضافة الى الرقيق المستورد من بلدان آسيا وأوربا. يبدو أن سهولة شراء الرقيق وصلت حينذاك الى مستوى شراء حصان أو ماشية. طبعاً فإن هؤلاء البشر استوطنوا المشرق وتزاوجوا هم وأحفادهم وذاب نسلهم في السكان الناطقين بالسامية ثم العربية. بل إن بعض هؤلاء الرقيق تمكنوا من تكوين سلالات حاكمة منها سلالة المماليك «الشركس والشيشان» الذين حكموا مصر والشام عدة قرون، وقد سبق الأمر في العراق مع (المحاربين التركمان) زمن العباسيين وتكرر الأمر في بغداد أثناء الحكم العثماني مع المماليك السلاف والجورجيين.

من سلبيات العقلية العروبية

إن التشوهات التاريخية والعقلية التي خلقتها هذه العروبة السياسية قد أدت الى سلبيات عديدة في عصرنا الحديث، يمكن إيراد أهمها كما يلي :

أولاً - إن هذه العقلية العروبية كانت ولا تزال ضد الطبيعة والحقيقة التاريخية التي عاشتها شعوب المشرق وعموم العالم العربي منذ القدم وحتى الآن. الملاحظ في جميع الحضارات الكبرى التي قامت في منطقتنا انها كانت بصورة وأخرى تعتمد وتعترف وتستفيد من هذا التنوع الديني والسكاني (العرقي) والمذهبي. يكفينا مثلاً التمعن بالعصرين الأموي ثم العباسي خصوصاً، حيث وصلت الحضارة العربية الاسلامية الى ذروتها بسبب تلك الحرية التي توفرت لظهور التنوع العجيب في الأعراق والأديان والمذاهب والتيارات الفكرية التي لا تحصى. إن قمع هذا التنوع وتجاهله في العصر الحديث باسم الوحدة والأصالة القومية والعرقية كان هو السبب المباشر في تخلفنا وتمزقاتنا الروحية والسياسية والثقافية. ثم ان هذا الفهم الضيق للوحدة أدى كذلك الى هشاشة هويتنا الفردية والجماعية

وعدم امتلاك الثقة بالذات الوطنية التي تساعد على تقبل الحضارة «الغربية» دون توترات وتمزقات فردية وجماعية. ان التأكيد على مسألة التنوع والاختلاط هذه ليس الهدف منها أبداً التقليل من أصالة شعوبنا وعراقة وجودها في المنطقة، بل العكس الغاية من ذلك هو تبيان حقيقة أن التنوع والتعددية الثقافية والسكانية من الميزات التاريخية الأصيلة والدائمة في مشرقنا وعالمنا العربي. ثم ان الخوف من الاعتراف بالتنوع أدى تلقائياً الى تهيئة احتكار السلطة من قبل أقليات طائفية ودينية تجعل من شعار الوحدة والخوف من التفتت مبرراً لعزل الجماعات الوطنية الأخرى. جميع تجاربنا التاريخية تكشف لنا ان عدم الاعتراف بهذا التنوع وتجاهله وكبته كان دائماً سبباً لتخلفنا وتمزقنا وان الاعتراف بهذا التنوع والتعددية مع التأكيد على «التوحد والمركزية السياسية والثقافية» كان السبب الأول في ازدهارنا وتماسكنا ووحدتنا.

ثانياً - إن هذه العروبة ومفهومها التوحيدي الكلاني، لم يلغ فقط حقيقة خصوصية كل بلد عربي عن الآخر، بل ألغت كذلك حقيقة خصوصية كل منطقة اقليمية عربية عن الأخرى. لقد جرى القفز العجائبي على منطق الجغرافية والتاريخ في جميع التجارب الوحدوية العربية. كأن يتوحد العراق مع اليمن الواقعة في أقصى جنوب الجزيرة، في الوقت الذي لا زالت فيه الحدود مغلقة تماماً بين سورية والعراق منذ عشرات الأعوام وحتى الآن، بصورة لم تحدث بين بلدين في الكرة الأرضية أبداً! ثم تتوحد ليبيا مع سوريا في الوقت الذي تسود حالة الاحتراب مع الدول المجاورة! إن من أول شروط عقلنة مفهوم التقارب والوحدة في العالم العربي، هو الاعتراف بحقيقة وجود مناطق اقليمية مختلفة ومتمايزة في الجغرافية والتاريخ والخصوصيات السكانية والمذهبية والعقلية. إن تجربة الاتحاد بين بلدان المغرب العربي يمكن أن تكون دليلاً ايجابياً في هذا المجال. لماذا مثلاً يخاف الجميع من الحديث علناً من أن العلاقة بين سوريا ولبنان (وكذلك مع فلسطين والأردن، بالاضافة الى العراق) لا تعتمد أساساً على رابطة العروبة، بل على رابطة أعمق وأقرب بكثير من هذه العروبة، أي رابطة الأرض والتاريخ المشترك الذي سبق العروبة بآلاف الأعوام. على هذا الأساس يبدو من المعقول أولاً الاعتراف بوجود المجموعات الاقليمية التالية : مجموعة بلدان المغرب العربي، مجموعة بلدان النيل (مصر والسودان)، مجموعة بلدان الجزيرة العربية، ثم مجموعة بلدان المشرق العربي (بلدان الهلال الخصيب). وكل مجموعة من هذه البلدان تستحق أولاً التقارب والتضامن والتفاهم فيما بينها على غرار

تجربة الاتحاد المغاربي. وهذه هي المرحلة الأساسية التي يجب أن تسبق كل حديث عن «الوحدة العربية الكبرى» !

ثالثاً - إن هناك ما هو أكثر بديهية ووضوح في هذه الممارسة العروبية الساذجة، وهو الموقف المعلن لجميع الحركات العروبية بعدم الاعتراف بالحدود السياسية للبلدان العربية، وتكرار القول بأنها «حدود مزيفة ومصطنعة». هذا يعني بكل بساطة التضحية بالانتماء للأرض والوطن باسم الانتماء لهذه «الأمة العربية» الأسطورية التي خلقتها أوهام الحالمين. هذا الموقف المحتقر لحدود البلدان العربية سمح للحركات والأنظمة «العروبية» بالتدخل المباشر في شؤون الدول الأخرى وسيادة عقلية التآمر والاحتراب في التعامل بين الدول العربية. وكان من المفروض بدلاً من هذه العقلية التدخلية أن تسود عقلية أكثر واقعية واعتدالاً تعتمد مبدأ التضامن والدعم والاعتراف المتبادل وتشجيع التقارب في كل المجالات. ان رفض مبدأ التدخل وقيام الحركات السياسية «القوموية» ذات الفروع «القطرية»، هذا لا يعني أبداً رفض مبدأ التضامن والتفاهم بين الجماعات والنخب المختلفة في البلدان العربية. انه أمر معقول جداً تكوين الاتحادات النقابية والمنظمات والجمعيات الرياضية والثقافية والفنية ودور النشر والصحف التي تجمع بين بلدان كل مجموعة اقليمية عربية، وبين المجموعات الاقليمية ككل. بل ليشمل التقارب أيضاً الأحزاب الوطنية المختلفة ذات المبادىء المتقاربة مع التشديد على تجنب التدخل وفرض الوصاية «القومية العليا». هذا يعني عدم الاكتفاء بتطوير نموذج «جامعة الدول العربية» كمؤسسة واقعية للتقارب والتوحد، بل يضاف اليها كذلك «جامعة الأحزاب والمنظمات النقابية العربية» كمؤسسة شعبية للحوار والتقارب بين الشعوب العربية. إن مثل هذا الأمر واضح في التجربة الأوروبية، حيث تتكون منظمات للتنسيق والتضامن والتشاور بين الأحزاب الأوروبية المتشابهة، مثل الأحزاب الديمقراطية المسيحية، والأحزاب الاشتراكية، بالاضافة الى البرلمان الأوروبي المشترك ومؤسسات حقوق الانسان وغيرها.

رابعاً - بسبب هذه العصبوية العرقية التي نشرتها العروبة السياسية، انتشرت كذلك التيارات «العصبوية» القومية والدينية والمذهبية والقطرية المعادية لكل ما هو «عربي». هناك مثلاً «دعاة الفرعونية والقبطية» في مصر اللذين وصل بهم الأمر الى حد المطالبة بإلغاء اللغة العربية. وهناك نفس الشيء «دعاة البربرية الأمازيغية في الجزائر والمغرب» اللذين يعتبرون

أشقاءهم الناطقين بالعربية «أجانب غزاة» ويفضلون استخدام الفرنسية على العربية. وهناك أيضاً دعاة «العراقوية البابلية والآشورية» الذين يجاهرون بعدائهم لكل ما هو عربي. ثم هناك دعاة «كردستان الكبرى» الذين يطالبون بكل شمال العراق وسوريا. وهناك دعاة «الفينقية اللبنانية والأمة المارونية» ويضاف الى هؤلاء جميعاً دعاة «الأمة الاسلامية» الذين يقفزون على جميع شروط التاريخ والجغرافية والثقافة ويطالبون بالوحدة مع ايران وباكستان في الوقت الذي يرفضون بشدة أي حديث عن الوحدة العربية!

يمكن تفهم جميع هؤلاء في معاناتهم من كابوس «القومية العربية» التي حاولت أن تمسخ جميع الخصوصيات الجغرافية والتاريخية والدينية واللغوية باسم الانتماء العرقي القبائلي العربي. لكن رفض «القومية العربية» لا يجب أن يعني أبداً معاداة الشعوب العربية والناطقين بالعربية، واللجوء للانعزالية الوطنية والطائفية والدينية والعرقية. ان الاعتراف بالخصوصيات الوطنية واللغوية والدينية لا يعني أبداً رفض حقائق التاريخ والجغرافية والثقافة التي تؤكد أن بلدان العالم العربي ظلت تعيش حتمية التقارب والتمازج والتوحد منذ آلاف الأعوام قبل الفتح العربي الاسلامي، وما التوحد الحضاري البشري الذي ساد زمن الخلافة العربية الاسلامية إلا مرحلة طبيعية من التطور التاريخي الذي حتمته ظروف التوحد الجغرافي والتقارب الحضاري البشري منذ فجر التاريخ.

التاريخ يعطينا شواهد على هذه العلاقة الحتمية بين الانتماء الوطني والانتماء القومي. محمد علي باشا والي مصر لم يكن وطنياً عربياً ولا فكرياً عروبياً (إنه ألباني الوطن وعثماني الانتماء)، لكنه عندما توطن في مصر وأصبح حاكمها قام بفتوحاته القومية نحو السودان وبلاد الشام والجزيرة العربية. خضوعه اللاشعوري لإرادة مصر (دولة وتاريخ) حتمت عليه هذا الطموح بتكوين امبراطورية عربية، كأنه بذلك يلبي حاجة التاريخ والجغرافية بأزلية التواصل والتوحد بين بلدان وشعوب المنطقة. ويمكن ان نضع في نفس السياق محاولات جمال عبد الناصر الوحدوية التوسعية. لكن اختلاف جمال عن محمد علي، انه كان واعياً لهذه الضرورة التاريخية وبالتالي الحاجة الى أيديولوجيا عروبية (الناصرية) تحمي وتبرر هذا الطموح المصري بالتوسع والتوحد مع بلدان المنطقة. هذا المثال يبين مدى سذاجة الطروحات القطرية التي تتهم الانتماء العرقي والاتجاه العروبي وحده بالمسؤولية عن هذه الطموحات الوحدوية.

انه سؤال يستحق التفكير حقاً، لو افترضنا ان التاريخ ارتأى ان تظل مصر قبطية ـــ مسيحية، فهل هذا يعني انه كان بالامكان ان تتجنب الصراع مع اسرائيل؟ لو اعتمدنا على

تاريخ مصر والعلاقة المتوترة بين الفراعنة والعبرانيين، ثم الطموح المصري (الفرعوني القبطي) بالتمدد والتوسع والاندماج مع بلاد الشام والعراق والجزيرة. بالاضافة الى هذا، تأثير الخلاف بين المسيحية الشرقية القبطية مع اليهودية المنغلقة المتعصبة، ثم الأهم من كل هذا حتمية الصراع بين الانتماء المصري للمشرق وافريقيا والعالم الثالث وانتماء اسرائيل للغرب وامريكا والعالم الصناعي، كل هذه الأمور تؤكد على حتمية الصراع القبطي الاسرائيلي بضراوة قد تفوق ضراوة التيار العروبي الناصري (المسلم العربي).

التضامن والتوحد العقلاني

إن رفض العروبة السياسية وأساطيرها العرقية لا يعني أبداً رفض مبدأ التقارب والتفاهم والتضامن بل حتى التوحد الديمقراطي بين البلدان العربية. على العكس، إن رفض المفهوم التبسيطي العرقي للعروبة هو رفض لحالة الاحتراب والتشرذم السائدة بين البلدان العربية بسبب عقلية التآمر والاحتراب التي خلقتها هذه العروبة. إن بلداننا المحكومة بهذه الحركات «القوموية» فشلت حتى بإقامة علاقات طبيعية (وليست قومية) فيما بينها. بل إنها على العكس خلقت حالة من التنافر والتباعد وقطع العلاقات وغلق الحدود منذ عشرات السنين وحتى الآن. إننا بحاجة ماسة جداً الى استلهام تجربة الوحدة الأوروبية التي بدأت واستمرت وتطورت من دون هذه الهلوسات «القوموية» والمزايدات والمؤامرات التدخلية، وحتى من دون أية تنظيمات «قوموية» كبرى تحتقر الحدود «المصطنعة» وتبرر التآمر والتدخل والاحتراب.

إن شعوب العالم العربي تمتلك عاملاً مهماً يمنحها الأفضلية في تحقيق التقارب أكثر بكثير من حالة الشعوب الأوربية: عامل اللغة والثقافة العربية المشتركة التي خلقت وتخلق الوحدة الروحية والذهنية بين جميع شعوب العالم العربي رغم الحدود وعقلية التآمر والاحتراب السائدة بين الحكومات. يتوجب التأكيد على أن وجود الثقافة واللغة العربية لا يعني أبداً أنها خاصة فقط بـ «العرب المنحدرين من السلالات العربية النقية» كما أوهمتنا الحركات العروبية واستغلتها الحركات «العرقية والقومية» المضادة للعروبة. العربية هي لغة وثقافة شعوب البلدان العربية بجميع تنوعاتها السكانية والدينية والمذهبية. بمعنى أوضح، مثلاً إن المواطن الناطق بالعربية في المغرب أو الجزائر ليس بالضرورة أن يكون من «العرق» العربي بل

هو مواطن أصيل في وجوده مثل أخيه البربري الناطق بالأمازيغية. ونفس الحالة تنطبق على جميع البلدان العربية.

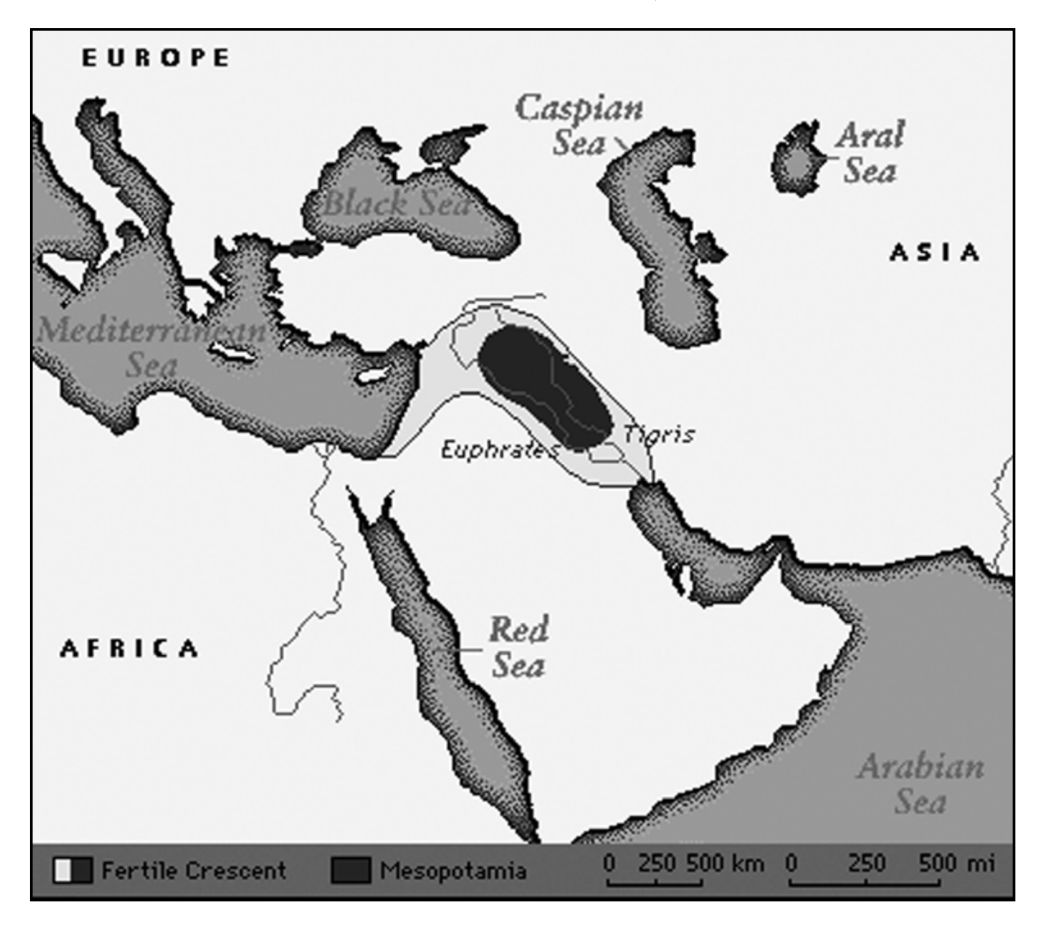
يلاحظ مثلاً في تجربة الوحدة الأوروبية، أنه من المعروف عن الجماعات السكانية التي تعتبر «أقلية لغوية أو مذهبية» في بلدها هي التي تصوت أكثر وتتحمس للاسراع في قيام الوحدة الأوربية، لأن هذه الوحدة سوف تخلص هذه «الأقليات» من شعورها بثقل «الأغلبيات» ولتصبح جميع الفئات خاضعة للدولة الأوروبية الكبرى المتعددة الأعراق والشعوب والمذاهب. أما نحن فان الفهم العروبي العرقي للوحدة العربية قد خلق الخوف في الجماعات التي تحس بنفسها كأقلية سكانية أو دينية، لأن الوحدة العربية صورت منذ الأساس على أنها تحقيق لسيطرة «القومية العربية» وتذويب للفئات المختلفة الباقية. إن شعور القبطي في مصر، أو النوبي والزنجي في السودان، أو الكردي والتركماني والسرياني والشركسي والأرمني في العراق والشام، بانتمائه لوطنه وأصالته التاريخية في هذه الأرض سوف يبرر لجميع هؤلاء تمسكهم باللغة العربية كلغة تاريخية وطنية لا تمثل أي عرق أو قومية أو انتماء قبائلي أسطوري. هذا الشعور بالأصالة سيدفع الجميع الى التمسك بمبدأ التعاون والتقارب وحتى التوحد بين بلدان العالم العربي، مثلما يفعل أي مواطن أوروبي مهما كان مذهبه أو لغته بالتمسك بالوحدة الأوروبية.

إن الوحدة التي ترفض التنوع والتعدد لا تؤدي إلاّ الى التشرذم. كذلك التنوع والتعدد الذي يرفض التضامن والتوحد لا يؤدي إلاّ الى الضعف والاحتراب. خصوصاً وأننا في عالم تقوده الامبراطوريات والوحدات الجيوسياسية الكبرى التي لا ترحم الضعيف والصغير مهما كان بعيداً منعزلاً.

بلدان الهلال الخصيب والهوية المنسية
تاريخ صراع الأقطاب حول منطقة المشرق

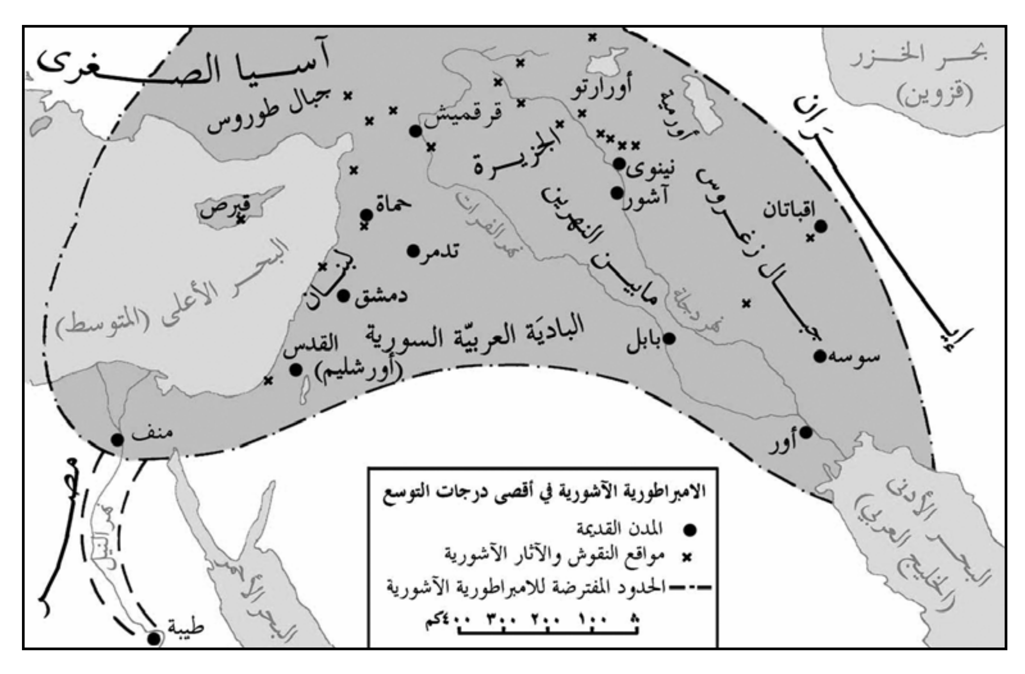
إن العلاقات بين الأوطان محكومة أساساً بشروط الجغرافية والبيئة ؛ وبما أن هذين العاملين ثابتان على مر التاريخ فإن طبيعة العلاقات بين الأوطان تتمتع بديمومة وثبات «نسبي» رغم تغير الأديان والحضارات والمعتقدات.

منذ فجر التاريخ وحتى الآن تميزت منطقة المشرق «الهلال الخصيب» بالوحدة الحضارية والسكانية السامية ـ العربية ، رغم انقسامها الى طرفين متمايزين جغرافياً وسياسياً : الطرف



الهلال الخصيب

الشرقي أي العراق بلاد النهرين بخصوصيته النهرية التي حتمت قيام دولة موحدة لادارة النهرين وحياة السكان التي تعتمد عليهما بشكل أساسي ؛ ثم الطرف الغربي أي الشام سوريا الطبيعية (حالياً سوريا ولبنان وفلسطين والأردن) التي اعتمدت أساساً على البحر المتوسط والتوسع التجاري والحضاري على ضفافه، مع وجود تنوع في التضاريس الجغرافية الداخلية أعاقت قيام دولة موحدة على غرار النهرين. ان الجوار والتداخل الجغرافي بين النهرين وسوريا خلق وحدة حضارية وسكانية مستمرة منذ فجر التاريخ وحتى الآن. ثم ان موقع المشرق فعلاً في نقطة التقاء آسيا وافريقيا وأوربا، جعله نقطة التقاء لحضارات هذه القارات الثلاث. رغم سيادة اللغة السامية ــ العربية إلا أن هذا المشرق استوعب ما لا يحصى من الجماعات الآسيوية التركستانية والايرانية والكردية والأرمنية، كذلك الأوروبية «الاغريقية والرومانية»، بالاضافة الى الجماعات الافريقية «المصرية والبربرية والنوبية والزنجية». لكن هذه الجماعات كانت سرعان ما تمتزج بالأغلبية السامية ـ العربية وتتبنى حضارتها ولغتها السائدة.



طيلة التاريخ، ظلت الدول العراقية تميل للتوسع نحو ساحل المتوسط الشامي

إن هذا الموقع الجغرافي الوسطي بين القارات التاريخية الكبرى قد لعب الدور الحاسم في تاريخ المشرق وتكوينه السياسي والسكاني والعقلي. الميزة الأساسية لمنطقة المشرق أنها شكلت منذ القدم المحور الذي تدور حوله أقطاب «منطقة الشرق الأوسط» بتنوعاتها الحضارية والسكانية والجغرافية القادمة من آسيا وأوربا وافريقيا. لقد شكل وادي النهرين بوابة المشرق نحو الحضارات الآسيوية الايرانية الهندية الصينية، وشكلت الشام «سوريا الطبيعية» بوابة المشرق نحو حضارات البحر المتوسط بقسمها الشرقي الحامي (المصري البربري) وقسمها الاوروبي (الاغريقي الروماني). ليس صدفة ان الاسلام لم يأخذ امتداده الحضاري المعروف إلا بعد انتقال الدولة الاسلامية الى المشرق. الحضارة العربية الاسلامية قد انطلقت من العاصمة دمشق ثم بلغت ذروتها في العاصمة بغداد. في هاتين المدينتين تمكن أهل المشرق من لعب دورهم التاريخي الحقيقي وجعلوا من منطقتهم مركزاً لحضارة عالمية كبرى تمتد على مدى القارات الثلاث.

من أجل معرفة الطبيعة السياسية والعقلية لمجتمعات المشرق ودوله، يتوجب معرفة طبيعة الأقطاب المجاورة المحيطة بهذا المشرق وماهية الثوابت التاريخية التي تتحكم بهذه الأقطاب. يمكن عد هذه الأقطاب الكبرى المحيطة بخمسة : (القطب الايراني، القطب المصري، القطب الأناضولي، القطب الجزيري الحجازي، القطب الأوروبي) هذه الأقطاب بمجموعها مع المشرق اصطلح على تسميتها بمنطقة «الشرق الأوسط» عدا القطب الأوروبي الذي ظل على علاقة مباشرة بالمشرق من خلال البحر المتوسط .

القطب الايراني

ايران هي الجارة الكبرى المشرفة مباشرة على المشرق عبر سلسلة جبال زاغروس طول الحدود الشرقية لوادي النهرين. تمتد هذه الحدود جنوباً من خليج البصرة حتى الشمال حيث جبال ارمينيا وطوروس الأناضول. إن التجاور الجغرافي الحميم بين الهضبة الايرانية والعراق كان بالحقيقة تجاور النقيضين: ايران، رأس الكائن الآسيوي المرتكز على الهضبة الايرانية وجبالها، والممتد بين هضاب وجبال أواسط آسيا الآرية التركستانية حتى حدود الهند والصين وروسيا. لبثت ايران دائماً ترمق بشغف وحماس ناحية الغرب حيث وادي النهرين وشواطىء سوريا الواعدة. أما العراق، رأس الكائن المشرقي المرتكز على نهري دجلة والفرات والمنفتح على سهول سوريا الخصبة حتى شواطىء المتوسط. لبث العراق دائماً يرمق بخوف وحذر

حدوده الشرقية حيث تتربص شعوب ايران وآسيا بانتظار فرصة للانحدار والهبوط واجتياح النهرين كما فعلت طيلة التاريخ !



منطقة المشرق العراقي الشامي (الهلال الخصيب) والاقطاب المنجذبة اليها طيلة التاريخ

ايران ظلت دائماً أشبه بالعاشقة الولهة الباحثة عن كل السبل للسيطرة على الحبيب ؛ والعراق ظل دائماً ذلك اليافع المتمرد الهارب من سيطرة الحبيبة. جبال زاغروس ترتفع على النهرين الى مسافة تبلغ أحياناً (4548 قدماً ــ جبل زارد). الهضبة الايرانية وجبالها منحت الايرانيين دائماً قوة حربية حاسمة من خلال الانحدار العسكري والاجتياح السريع. ايران ذات الأراضي الجبلية وصحراء «لوط» القاحلة ظلت دائماً ترمق بإعجاب وشهية الحضارات الكبرى الناشئة في الوادي الخصيب وما تنتجه من ثروات وخيرات وعلوم ومعتقدات. ثم إن موقع العراق ظل ضروريا للوصول الى الشام وشواطىء المتوسط.

على مدى التاريخ لبثت الشعوب الرعوية الآسيوية (الآرية ــ التركستانية)، ما إن تحط الرحال في الهضبة الايرانية قادمة من أواسط آسيا حتى تفتح عيونها على وادي النهرين بنهريه وأراضيه السهلة الخصبة الغنية فتنحدر عليه بسهولة من أعالي زاغاروس. من ابرز هذه الشعوب والجماعات التي اجتاحت العراق منذ عصر السومريين وحتى القرن الماضي :

عيلام، غوت، كوش، حوريين، ميد، اخمين، بارث، ساسان، بعد الاسلام برز : البويهيون والأتراك السلاجقة، المغول، ثم الصفويون، لقد تعددت فترات الاجتياح والسيطرة الايرانية الآسيوية وتراوحت بين عشرات السنين حتى عدة قرون. أما المجموع الكلي لهذه الفترات فيبلغ عشرات القرون المتقطعة. أطول هذه الفترات كانت سيطرة البارثيين والساسانيين التي دامت من القرن الأول ق. م حتى القرن السابع والفتح العربي.

على مر التاريخ ظل الهم الأول والرئيسي للدولة العراقية حماية حدودها الشرقية لدرء خطر الاجتياحات الايرانية الآسيوية. جميع الأنظمة العراقية تجنبت مغامرة السيطرة على ايران بسبب صعوبة الصعود الحربي نحو جبال زاغاروس والهضبة الايرانية. وكان أقصى ما تفعله الدولة العراقية انها تقوم باجتياحات سريعة وعمليات تأديب للدول والقوى المشاكسة في ايران. (يبدو ان صدام لم يفطن لهذه الحقيقة التاريخية الجغرافية فقام بمغامرته الحربية التي انتهت بكارثة). ان الدولة العربية الاسلامية هي الدولة «المشرقية» الوحيدة التي تمكنت فعلاً من عبور جبال زاغاروس وفرض السيطرة على الهضبة الايرانية وعموم آسيا الوسطى. وهذا امر استثنائي في تاريخ المشرق ويعود ربما أساساً الى العنفوان الحربي الذي كانت تتمتع به القبائل العربية الصحراوية القادمة تواً من بوادي الجزيرة العربية.

المسألة المهمة التي يمكن ملاحظتها أن ايران خلال جميع فترات احتلالها للعراق لم تستطع أبداً أن تفرض ثقافتها أو سكانها على النهرين، بل كان العكس هو الذي يحصل : في كل مرة تحتل ايران النهرين كانت تكتسب وتتبنى الحضارة العراقية : اكتسبت الكتابة المسمارية والثقافة السومرية منذ الألف الثالث ق. م، ثم الحضارة البابلية التي أثرت بصورة كبيرة على الثقافة الايرانية والديانة المجوسية. وصل الأمر في الحقبة الساسانية انهم جعلوا عاصمتهم في المدائن وسط العراق قريباً من بابل القديمة وصارت اللغة الآرامية (السريانية) العراقية- السورية هي السائدة ثقافياً في أنحاء الامبراطورية الفارسية مع بقاء اللغة البهلوية محصورة في البلاط الايراني. المسيحية النسطورية العراقية انتشرت حتى بين العائلة الملكية في ايران ونافست المجوسية. علماً ان هذه المجوسية فشلت تماماً بالانتشار بين العراقيين وبقيت محصورة بين الجاليات الايرانية المقيمة. الديانة المانوية البابلية انتشرت بزخم في ايران حتى أنها شقت الزرادشتية لتخرج منها الطائفة المزدكية التي جمعت بين المجوسية الايرانية والمانوية العراقية.

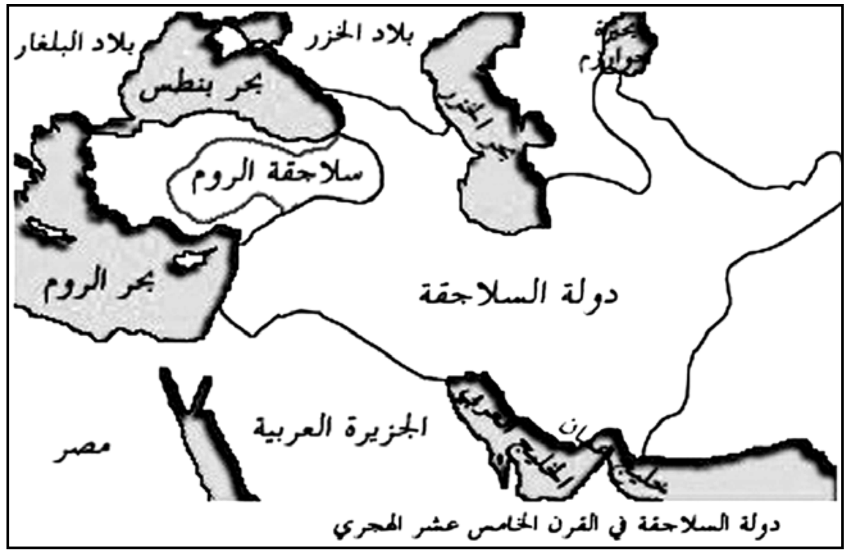
أتت بعد ذلك الحقبة الاسلامية لتصبح ايران مسلمة بعد أن سبقها العراق. لقد انتشر الاسلام في ايران أساساً بواسطة الجيوش العراقية البصرية والكوفية التي استوطنت ايران

خصوصاً في خراسان ونيسابور وقم، وشكلت أساس الجيش الخراساني الذي ساند الثورة العباسية. عندما ساد التشيع في العراق بدأت ايران السنية تدريجياً أيضاً تميل الى التشيع، حتى تمكن الصفويون أن يفرضوا التشيع في القرن السادس عشر. علماً أن الصفويين اعتمدوا على الفقهاء و«السادة» العراقيين واللبنانيين والبحرانيين لنشر المذهب الجعفري. ان فئة السادة في ايران (من بينهم الإمام الخميني) التي تتمتع بقدسية دينية وسياسية في الدولة والمجتمع، لا ينكرون من أنهم من أصول عراقية عربية (لبنانية وبحرانية وإحسائية) وينحدرون من نسل الإمام علي. لكن طبعاً هذا لا يقلل من حقيقة انتمائهم التاريخي والحضاري لإيران.

إن حاجة ايران للسيطرة على النهرين لم تكن مدفوعة بحقد وكبرياء قدر ما هي مدفوعة بعشق ورغبة بالذوبان والاندماج. أوضح صورة لمدى تعلق الايرانيين بالعراق تقديسهم وحبهم للأئمة والعتبات المقدسة في العراق. كم من الحروب خاضها الايرانيون ضد العثمانيين من أجل تحرير العتبات المقدسة؟ وكم هناك من الأساطير عن الجهود العجيبة التي ظل يبذلها الايرانيون من أجل دفن موتاهم في مقبرة النجف في العراق.

حقبة الشاه الأخيرة كشفت عن تجربة طريفة تستحق الاشارة اليها: عام 1975 في ظل المنافسة بين نظام الشاه ونظام البعث، قام الشاه بتكوين حزب حكومي حمل الكثير من سمات حزب البعث، بل حتى اسمه هو (حزب ريستاخ) ويعني (حزب البعث أو النهضة) في الفارسية!

إذن، مشاعر إيران نحو العراق ظلت دائماً مفعمة برغبة وحب وغيرة. العشق الايراني، نموذج للعشق الامتلاكي حيث تندفع الحبيبة باسم الحب للسيطرة على حبيبها. أما العراق، فيبدو أنه ظل دائماً رافضاً متهكماً من هذا «العشق». ظلت مشاعر العراق نحو ايران مفعمة بتوجس وحيرة مع بعض التعاطف والسخرية. تجربة الحرب مثال واضح لهذه الحالة: صدام حسين عندما اجتاح ايران كان أساساً مدفوعاً بالخوف والقلق من الثورة الايرانية وطموحاتها التوسعية. أرادها ضربة هوجاء خاطفة لإسقاط الثورة وإقامة نظام أكثر أماناً له. أما ايران فانها منذ أول الثورة راحت تعلن عن رغبتها بتغيير النظام في العراق وإقامة نظام اسلامي لانقاذ الشعب العراقي من «الكفرة». حتى الاستمرار بالحرب كان العراق يشن هجماته مدفوعاً بالخوف والأمل بايقاف الحرب مع التبجح السافر باعلان الحقد العنصري على الفرس «المجوس»؛ أما ايران فقد ظلت على العكس مستمرة حتى آخر رمق باسم الحب للشعب العراقي والعتبات المقدسة وتخليصه من (حكم الطغاة!!).



دولة السلاجقة في القرن الخامس عشر الهجري

الاجتياحات الآسيوية (التركستانية والايرانية) للعراق والشام..

بالنسبة لدور الشام في هذه الإشكالية فهو التالي: منذ فجر التاريخ استمرت ايران تكافح المستحيل لتجعل النهرين جزءاً من كيانها الحضاري وتركيبها السكاني لتبعده عن التأثير السامي ثم العربي القادم من سوريا وبادية الشام العربية. رغم القرون الطويلة من الاحتلال فشلت ايران تماماً في التأثير على التكوين السكاني والحضاري للعراق وبالتالي فشلت أيضاً في جعله جزءاً من حضارتها وسكانها. يعود هذا الفشل أساساً الى اختلاف الجغرافية والبيئة. كان من المستحيل على الشعوب الإيرانية الآسيوية ذات الطبيعة الجبلية من الحفاظ على كيانها السكاني الثقافي في أرض سهلية ومنخفضة مثل أرض النهرين. (ان اختلاف الجغرافية والبيئة أعاق العرب أيضاً عن تعريب ايران رغم استقرار الكثير من الجماعات العراقية والعربية فيها وفرضهم الاسلام والحضارة العربية المشرقية).

لهذا استمرت السيطرة الايرانية سيطرة عسكرية سياسية ولم تصل الى سيطرة حضارية سكانية. علماً أنه على مدى التاريخ استقر في العراق الكثير الكثير من الايرانيين والأكراد والتركستانيين وامتزجوا وتزاوجوا مع العراقيين. لا يمكن أبداً نكران حقيقة أنه في دماء جميع العراقيين هناك نسبة من مختلف الدماء الآسيوية. ونفس الأمر ينطبق على شعوب ايران ووسط آسيا اذ تمتزج فيهم نسبة مهمة من الدماء العراقية. لكن حضارة ايران وثقافتها ظلت دائماً آرية آسيوية، وحضارة العراق وثقافته ظلت دائماً سامية عربية مشرقية.

إذاً كان العائق الأكبر أمام ايران من أجل «تفريس العراق» هو الجماعات السامية ثم العربية القادمة من سوريا والجزيرة العربية: إما عن طريق بادية الشام وشمال الجزيرة العربية حيث تحط الرحال على ضفاف الفرات؛ وإما عن طريق شمال سوريا حيث تنحدر القبائل السورية من أعالي دجلة والفرات وتعمر شمال النهرين أولاً ثم تنحدر حتى الجنوب.

هنا بالضبط يكمن سر العلاقة بين الشام والعراق ودور ايران في هذه العلاقة. بمعنى أوضح أن العراق ظل دائماً متوجساً من السيطرة السياسية العسكرية المنحدرة من الشرق حيث زاغاروس وايران، وبنفس الوقت ظل مرتبطاً بسوريا حيث تمتد فيها جذوره الثقافية والسكانية والروحية. ايران حيث «العشق الامتلاكي» والخطر السياسي العسكري، والشام حيث «الارتباط الروحي والعقلي» وامتداد الجذر السكاني والحضاري.

لو انتقلنا الى الجانب الشامي لوجدنا ان علاقة الشام بالعراق متأثرة بدورها بطرف آخر، أي «مصر» الجار الكبير الواقع على الجنوب حيث سيناء وساحل المتوسط ثم وادي النيل. يبدو أن هناك «بعض التشابه» بين التأثير الايراني على العراق والتأثير المصري على الشام. لكن الإقرار بهذا التشابه لا يمنعنا من التأكيد على وجود اختلاف كبير بين «علاقة ايران بالعراق» و«علاقة مصر بالشام».

إن العراق وايران رغم تمازجهما السياسي والحضاري فان التمازج الثقافي والسكاني ظل انفعالياً ولم يصل الى حد الانصهار والتوحد بل ظل التمايز والحفاظ على الخصوصية هو السائد في العلاقة، كما أوضحنا ذلك سابقاً. أما بالنسبة للشام ومصر فان العلاقات السكانية والحضارية بين الطرفين ظلت تميل نحو التقارب والتشابه مع مرور الزمن بسبب تشابه الجغرافية والبيئة بين سوريا ومصر، بالاضافة الى الانفتاح وتمازج سكاني تاريخي بين المنطقتين بحيث يصح القول أن «سكان مصر» منذ القدم وحتى الآن ما هم إلا مزيج تاريخي أصيل بين الجماعات السامية القادمة من الشام مع الجماعات الحامية البربرية القادمة من شمال افريقيا وبلاد النوبة «السودان». حسب اعتقاد تيار مهم من المؤرخين أن الشعوب السامية ما هي إلا فرع من الشعوب الحامية(*) (المصرية البربرية) وقد قدمت من شمال افريقيا بعد التصحر الذي حدث في الألف العاشر قبل الميلاد. وقد امتزجت هذه الشعوب الجديدة بسكان المشرق الأصليين من سومريين وغيرهم وخلقت ثقافة جديدة هي الثقافة السامية التي ظلت قريبة من الثقافة الحامية القديمة. ثم بعد ذلك بدأت بعض هذه الجماعات السامية المشرقية تنحدر من المشرق نحو الجزيرة العربية حتى اليمن وتمتزج بالشعوب الأصلية لتكون ثقافة جديدة هي الثقافة العربية المتفرعة من الثقافة السامية المشرقية.

المهم، من دون التوسع بالتفاصيل التي لا يسمح بها موضوعنا، نقول ان العلاقة السكانية (العرقية) بين أهل سوريا وأهل مصر علاقة سكانية ـ ثقافية قديمة جداً.

---

* نكرر ان هذه الشعوب لاتجمعها علاقات عرقية بل علاقات لغوية . الأصح إذن القول : الشعوب الناطقة بالسامية، والشعوب الناطقة بالحامية، والشعوب الناطقة بالآرية .. ألخ ...

مع نشوء الحضارة السامية (الكنعانية) ونمو النشاط التجاري للسوريين حول ضفاف المتوسط، بدأت موجات الهجرة السورية الى مصر (وشمال افريقيا). منذ ذلك الوقت وحتى الآن ظلت الجماعات السامية تأتي مصر قادمة من سوريا وشمال الجزيرة العربية. يمكن ذكر بعض الأمثلة على التأثير السوري منها سيطرة قبائل «الهكسوس» السورية على مصر لعدة قرون، تاريخ «اليهود» الفلسطينيين في مصر، انتشار المسيحية اليعقوبية السورية «القبطية» في مصر. يبدو أن الهجرات السامية كانت تضطر الى التوسع نحو سواحل شمال افريقيا عندما كان يصعب عليها الاستقرار في مصر بسبب قوة الدولة المصرية. مثال على هذه الجماعات الفينيقية (الكنعانية اللبنانية) التي تمركزت في قرطاجة (تونس) وعمرت سواحل ليبيا والجزائر والمغرب (بين القرن الثامن ق. م حتى القرن الأول ق. م). إن هذه الهجرات السامية وصلت الى ذروتها في عصر الفتح العربي الاسلامي وتعريب أقباط مصر وانتشار الثقافة العربية بلهجتها وخواصها الشامية. يمكن الاستشهاد كذلك بحالة قبائل بني هلال التي قدمت من الشام وشمال الجزيرة العربية عبر سيناء واستقرت في صعيد مصر زمن الدولة الفاطمية وبعدها نزحت الى المغرب وفرضت التعريب. أما في العصر الحديث فنلاحظ هجرة الشاميين (من سوريا ولبنان خصوصاً) منذ القرن الماضي ودورهم المعروف بالاسهام في النهضة المصرية الحديثة.

بالاضافة الى هذه العلاقات السكانية والحضارية بين المنطقتين فان سوريا ظلت تشكل أيضاً مصدر خطر على مصر بسبب قدوم الكثير من الغزاة الى مصر عبر سوريا وبالذات خطر الدول المختلفة القادمة من هضبة الأناضول مثل الحثيين والاغريق والبيزنط والصليبيين وأخيراً العثمانيين. كذلك هنالك خطر الهضبة الايرانية عبر العراق والشام حيث تمكن الفرس من القضاء تماماً على آخر الدول الفرعونية في القرن السادس ق. م، مباشرة بعد سقوط آخر الدول البابلية التي كانت مهيمنة على العراق وسوريا!

لهذه الأسباب جميعاً، بالاضافة الى ضعف الدول السورية بشكل عام فان مصر ظلت دائماً مدفوعة الى فرض سيطرتها على الشام سياسياً وعسكرياً. لم تكف مصر طيلة تاريخها عن العمل على مد نفوذها أو احتلالها للشام، منذ الفراعنة ثم البيزنط حتى العصور العربية الاسلامية مع آل طولون والفاطميين ثم المماليك حتى محمد علي باشا، وانتهاءاً بالوحدة المصرية السورية عام1958 .

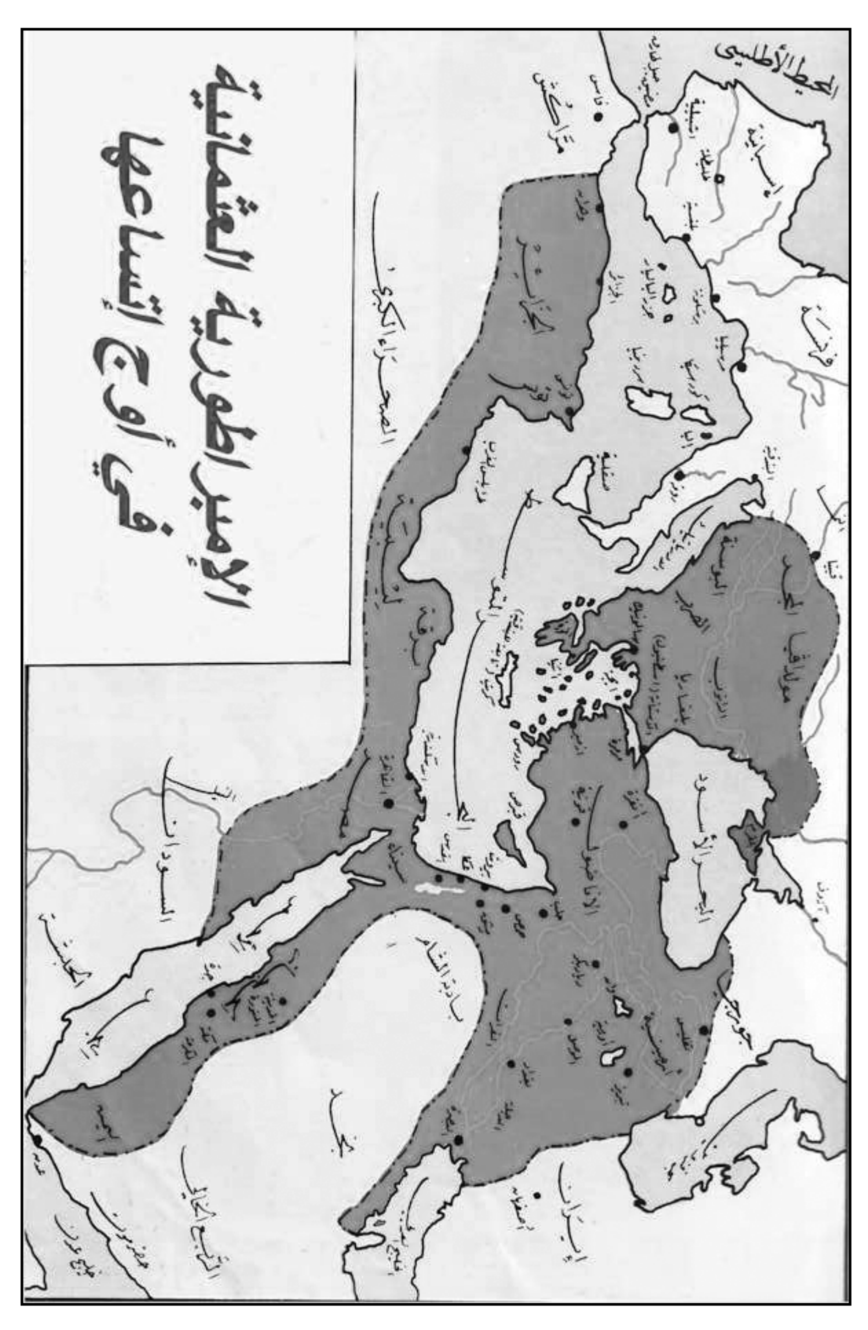
القطب الجزيري «السعودي»

تمتد منطقة الجزيرة العربية على حدود المشرق شرقاً من خليج البصرة ومروراً ببادية الشام حتى خليج العقبة وصحراء سيناء. لبثت هذه المنطقة دائماً ضعيفة التأثير سياسياً وحضارياً بسبب ندرة الدول والمراكز الحضارية القوية فيها وذلك لوعورتها وموقعها الجغرافي المهمش والمعزول بحرياً عن العالم من ثلاث جهات، عدا الجهة الشمالية التي تحد المشرق. لكن جنوب الجزيرة (اليمن السعيد) ظل متميزاً بجباله وخصوبته وموقعه البحري الذي سمح له بالاتصال بالمصريين والأحباش من خلال البحر الأحمر، وكذلك بالايرانيين عبر خليج عمان. أما باقي الجزيرة فكانت في وسطها صحراء قاحلة تمتد من حدود اليمن جنوباً حتى بادية العراق والشام شمالاً. القسم الغربي (الحجاز) الممتد على ضفاف البحر الأحمر من خليج العقبة حتى اليمن، ظل خلال آلاف الأعوام على علاقة وطيدة مع سوريا التي نقلت اليه الحضارة السامية مع بعض المؤثرات المصرية والحبشية. وقد تجلى هذا الأمر بوضوح في القرون الأخيرة التي سبقت الاسلام مع نشوء الخط التجاري المعروف بين الشام واليمن عبر مدن الحجاز (مكة ويثرب). ليس صدفة أن ظهور الاسلام في الحجاز كان تعبيراً عن الامتزاج الحضاري بين التأثيرات المشرقية القادمة من الشام والعراق (المسيحية واليهودية والصابئية والمانوية) والتأثيرات اليمانية التي كانت تحمل بدورها الكثير من المؤثرات السامية والمصرية. أما شرق الجزيرة أي سواحل الخليج فإنها ظلت طيلة التاريخ على علاقة وطيدة مع جنوب العراق منذ السومريين حتى العصور الحديثة، وما انتشار القرمطية والتشيع في منطقة الخليج إلا دليلاً على عمق العلاقات البشرية والحضارية مع جنوب العراق، بالإضافة الى تشابه اللهجات والتقاليد بين المنطقتين. وفي معظم فترات الخلافة العربية والعثمانية ظل شمال الخليج مرتبط إدارياً بولاية البصرة.

إن تأثير الجزيرة العربية على المشرق بدأ يتضح في فترة ما بعد الميلاد عندما بدأت هجرات القبائل العربية نحو أطراف سوريا والعراق لتمتزج مع سكان المشرق وتتبنى حضارتهم المسيحية السريانية. بعد انبثاق الاسلام والفتح العربي لمنطقة المشرق تقاطرت القبائل والجماعات العربية على العراق وسوريا وامتزجت بالسكان الأصليين ونشرت بينهم اللغة العربية والاسلام. الملاحظ أنه رغم قدوم العرب المسلمين وجيوش الفتح من الجزيرة العربية إلا أن التأثير الثقافي

والسياسي لهذه المنطقة بدأ بالضعف بعدما انتقلت مراكز الخلافة الاسلامية الى دمشق والبصرة والكوفة ثم بغداد. سرعان ما تسلم أهل المشرق (السكان الأصليين ومعهم العرب الذين توطنوا وأصبحوا مشارقة) أجهزة الخلافة العربية وتطوعوا في جيوشها وضخوا في الاسلام واللغة العربية جميع ما ورثوه من حضاراتهم السالفة زمن الأمويين ثم العباسيين، رغم احتفاظ الحجاز (مكة والمدينة) بأهميتها الدينية والتاريخية لكنها فقدت دورها الحضاري والسياسي. ظل التأثير البشري للجزيرة من خلال هجرات القبائل العربية نحو المشرق ومصر وشمال افريقيا لكن من الناحية الحضارية والسياسية ظلت هذه المنطقة مرتبطة بمراكز الخلافة والحضارة في المشرق خصوصاً حتى علوم اللغة العربية نشأت وتمركزت في الكوفة والبصرة. إن الأغلبية الساحقة من العناصر التي لعبت دوراً مذكوراً في الحضارة العربية الاسلامية كانوا من سكان المشرق منهم العناصر المشرقية الأصلية المستعربة من مسلمين ومسيحيين ويهود وصابئة ومانوية، ومنهم العناصر العربية التي استقرت وتزاوجت وامتزجت مع أهل المشرق وصارت جزءاً من سكانه وحضارته. طبعاً لا ننسى كذلك دور جميع الشعوب التي تكونت منها الامبراطورية مثل الفرس والتركستان، بالاضافة الى المصريين (مسلمين وأقباطاً) والبربر واسبان الأندلس، لقد ساهم جميع هؤلاء في صنع الحضارة العربية الاسلامية.

في القرن التاسع عشر حاولت منطقة «نجد والحجاز» ان تخلق لها دوراً سياسياً دينياً شبيهاً بدورها القيادي أثناء الفتح الاسلامي من خلال الحركة الوهابية وغزوات الوهابيين لأطراف العراق وسوريا. لكن سليقة التاريخ والجغرافية أفشلت هذه المحاولة بسبب ضربات العثمانيين والمصريين لها فلبثت الوهابية محصورة في نجد فقط. تكررت المحاولة مرة أخرى بعد الحرب العالمية الأولى من خلال قيام شريف مكة وأبنائه بقيادة الثورة العربية ومحاولة إعادة عملية الفتح الاسلامي للمشرق. لكن هذه الثورة انتهت بانتقال العائلة الهاشمية الى عواصم المشرق وفقدانهم السلطة في الحجاز وعموم الجزيرة لصالح العائلة السعودية. من جديد ومنذ أعوام الستينات بدأت العربية السعودية بمحاولة القيام بدور قيادي ديني وسياسي ازاء منطقة المشرق وعموم العالمين العربي والاسلامي. هذه المحاولة ظلت ضعيفة التأثير من الناحية الثقافية والعقائدية بسبب الإمكانات «التاريخية» المحدودة في هذا المجال. لكن التأثير السياسي المهم الذي نجحت العربية السعودية بممارسته استند على الثورة النفطية الهائلة لنشر العقيدة الوهابية وبناء الجوامع ودعم الحركات الدينية والبنوك الاسلامية؛ كذلك عبر انشاء امبراطورية اعلامية جبارة تعتمد على كوادر صحفية ومثقفة بمعظمها من منطقة المشرق ومصر.



(الدولة العثمانية)

هذا القطب يقع في شمال منطقة المشرق حيث هضبة الأناضول (وهي تركيا الحالية التي ضمت اليها في هذا القرن مناطق ارمينيا وأعالي شمال النهرين التي تحولت الى مناطق كردية تركية حالياً). تفصل الأناضول عن الشام والنهرين سلسلة جبال طوروس. ان العوامل الجغرافية لهضبة الأناضول شبيهة بالهضبة الايرانية، لكن موقع الأناضول على ضفاف البحر المتوسط قلل من حدة حماستها في الاتجاه نحو الجنوب حيث منطقة المشرق. ان ارتفاع هذه المنطقة عن المشرق سمح لها كذلك بامتلاك سهولة في الانحدار والاجتياح العسكري. لقد ظلت الأناضول ذات تأثير سياسي عسكري واضح وتمكنت من فرض سيطرتها على النهرين والشام لعدة فترات متقطعة سواء بواسطة سكان الأناضول مباشرة (الحيثيين والبيزنط ثم العثمانيين اللذين سيطروا على المشرق لأربعة قرون)، أوبواسطة سكان اليونان وأوربا الشرقية القادمين عبر الأناضول: الاغريق (الاسكندر المقدوني، والدولة السلوقية) ثم الصليبيين الذين قدموا من أوربا عبر الأناضول.

الملاحظ أنه طيلة التاريخ ظلت هناك منافسة شديدة بين القطب الأناضولي والقطب الايراني للسيطرة على بلاد النهرين خصوصاً بالاضافة الى سوريا. هذه المنافسة بين القطبين تعود لعدة أسباب منها أن الهضبة الأناضولية تحد الهضبة الايرانية وتشترك معها بالطبيعة الجبلية وتشرفان على وادي النهرين وتتمتعان بسهولة اجتياحه العسكري. ان العراق يمثل بالنسبة للأناضول الممر التجاري الأساسي الذي يجب اجتيازه للوصول الى الخليج ومنه الى الهند، وخصوصاً أن الطريق عبر ايران صعب ومستحيل بسبب المنافسة ومناعة ايران الجبلية. ثم ان العراق ظل منذ فجر التاريخ يشكل بالنسبة لايران والأناضول وادي الخصب والخيرات ومركز الحضارات الذي طالما أثار شهية الجيران لاجتياحه والاستحواذ على خيراته والاستفادة من نتاجاته الحضارية.

لقد عاش وادي النهرين طيلة تاريخه في ظل المنافسة بين هذين الجارين الجبارين: منذ سقوط بابل وسيطرة الفرس الأخمينيين على النهرين عام 589 ق. م، بدأت المنافسة مع الاغريق المستقرين في اليونان والأناضول. تحول النهرين الى ساحة صراع بين الطرفين طيلة أربعة قرون. بعدها تمكن الايرانيون البارث من دحر الأغريق وفرض سيطرتهم على العراق عام (126 ق. م). بعدهم أتى الفرس الساسانيون عام (226 ب. م) حيث استمر العراق ساحة للمنافسة والحرب بين هؤلاء الساسانيين والبيزنطيين المستقرين في الأناضول وسوريا حتى

الفتح العربي الاسلامي في القرن السابع. منذ القرن السادس عشر تجددت هذه المنافسة واندلعت الحروب المدمرة بين الصفويين الايرانيين والعثمانيين المستقرين في الأناضول. خلال أربعة قرون تقريباً شهد العراق اجتياحه لعدة مرات من قبل الصفويين ثم انتزاعه من قبل العثمانيين، وتحول العراق الى ساحة صراع بين الأيرانيين والعثمانيين. لقد انعكست هذه المنافسة حتى على الوضع المذهبي في العراق: العثمانيون اعتنقوا المذهب السني الحنفي نسبة الى أبي حنيفة الكوفي العراقي «الإمام الأعظم». جهد الأتراك لدفع العراقيين الى ترك التشيع واعتناق المذهب الحنفي. أما الايرانيون فقد فضلوا منافسة الأتراك واعتناق المذهب الجعفري (العراقي) على أمل التحالف مع شيعة العراق ضد العثمانيين الحنفية! بسبب الصراع الصفوي العثماني تعمق الخلاف بين المذهب الجعفري والمذهب السني الحنفي واتخذ بعداً سياسياً واجتماعياً عنيفاً لم يعرفه من قبل. بالحقيقة ان المذهب الحنفي ومؤسسة أبي حنيفة أقرب المذاهب السنية الى الجعفرية تاريخاً ومعتقداً. الغريب ان هذه الحالة ما هي إلا تكرار حرفي لتاريخ الخلاف في المسيحية المشرقية قبل الاسلام عندما تعمق الخلاف لدى العراقيين بين أتباع المذهب النسطوري (وهم الغالبية) وأتباع المذهب اليعقوبي (الأقلية)، حيث لعب الصراع الفارسي ـ البيزنطي دوراً حاسماً في تعميق وتأجيج هذا الخلاف!

القطب الأوروبي

بالنسبة لهذا القطب الكامن على الضفة الغربية للمتوسط فانه تمثل عبر التاريخ بأغريق اليونان ثم الرومان ثم الصليبيين حتى الحركة الاستعمارية الأوربية في القرون الأخيرة، وصولاً الى التأثير الأوربي الغربي الحالي. إن هذا الموضوع بالحقيقة لا يتعلق بمنطقة المشرق وحدها بل يشمل كل الضفة الشرقية للبحر المتوسط أي كل العالم العربي من سوريا وحتى المغرب. ويستحق هذا الموضوع أن يعالج تحت عنوان: «تاريخ العلاقات العربية ـ الأوربية». منذ الألف الأول قبل الميلاد بدأ الكنعانيون «فينيقيو لبنان وعموم شواطىء سوريا» بنشر الحضارة المشرقية السامية على ضفتي البحر المتوسط الشرقية والغربية، بل أنهم منحوا قارة أوربا اسمها «غوربة ـ أوربا»، وهي التسمية التي أطلقها الشاميون على إلهة «الغروب» حيث «تغرب» الشمس على ضفاف اوربا، وقد اقتبس الاغريق هذه التسمية في أسطورتهم المعروفة التي تنسب لها تسمية أوربا. بعد ذلك ظهر الاغريق الذين نافسوا الفينيقيين واكتسبوا منهم الأبجدية والحضارة وحلوا محلهم في السيطرة على البحر المتوسط خصوصاً في القرن الثالث



الامارات الصليبية في ساحل الشام وشمال النهرين(جنوب تركيا حاليا)

ق.م مع انتصارات الاسكندر المقدوني. بعد ذلك ظهر الرومان اللذين سيطروا أيضاً على المنطقة بعدما قضوا على القرطاجيين الفينقيين في تونس وشمال افريقيا في القرن الثاني الميلادي. خلال قرون السيطرة الرومانية تمكن السوريون من لعب دور مهم في نقل الحضارة

السامية المشرقية الى الرومان، بل تمكنوا من تكوين سلالات من الأباطرة الرومان المعروفين. وصل التأثير السوري على روما وأوربا الى ذروته بجعل «المسيحية الفلسطينية السورية» دين روما وأوربا الرسمي والغاء جميع الأديان الأوروبية السابقة منذ القرن الرابع الميلادي. عبر هذه المسيحية تمكن السوريون من نقل تراثهم السامي المشرقي بطقوسه وآدابه وموسيقاه وباقي فنونه التي لا زال أثرها واضحاً حتى الآن. لقد وصل السوريون الى منصب بابا الفاتيكان لعدة مرات.

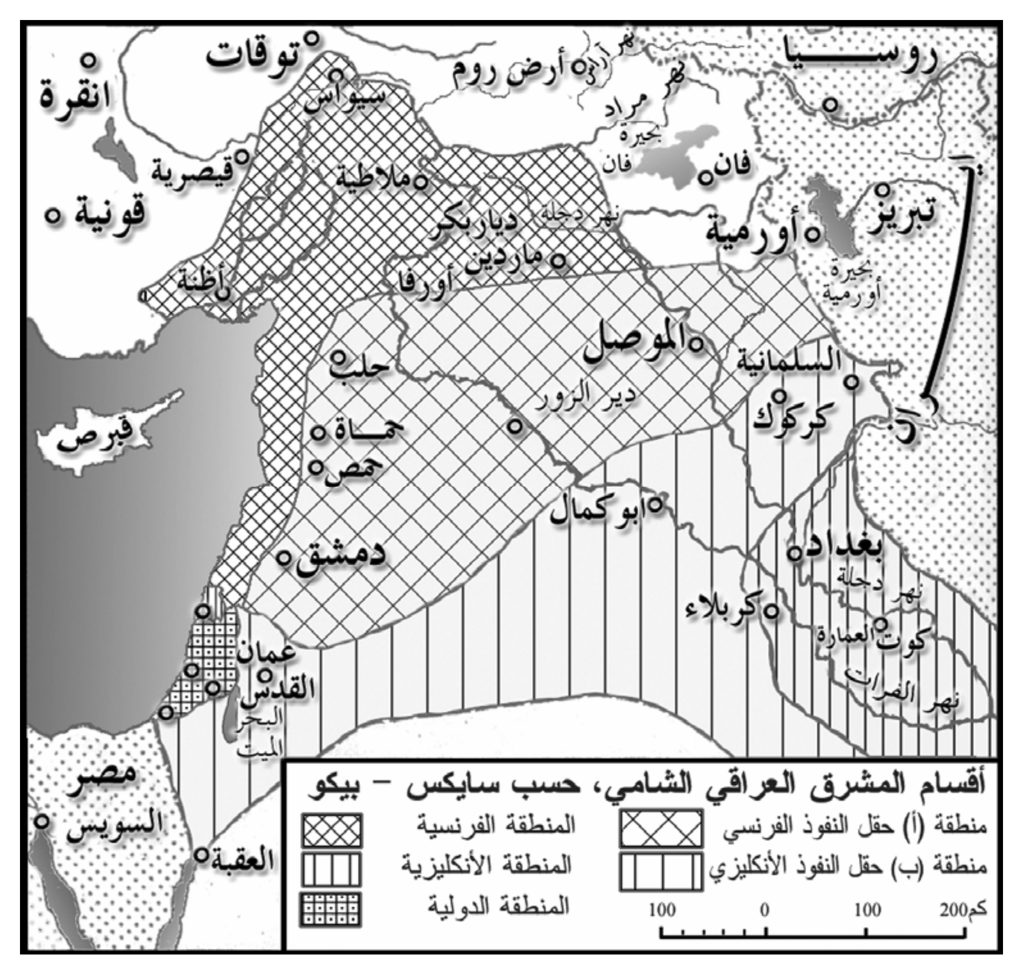
في القرن السابع انبثقت الحضارة العربية الاسلامية وظهور دور الأندلس في جنوب أوربا، عاد المشارقة السوريون ليكرروا من جديد دور أسلافهم الفينقيين بغزو ضفاف البحر المتوسط، لكن هذه المرة باسم الاسلام والحضارة العربية. وعاد من جديد دور أوربا و«الرومان» من خلال الحروب الصليبية والسيطرة على شمال النهرين وضفاف سوريا بين القرنين الحادي عشر والثالث عشر.

في الفترة العثمانية استمر التأثير الأوروبي على الشام من خلال النفوذ الديني والثقافي والتجاري خصوصاً منذ القرن السادس عشر بعد تمكن الفاتيكان من اقناع جزء من مسيحيي المشرق (أقسام من النساطرة واليعقوبية والمالكية والمارونية) بالتحول الى الكاثوليكية والارتباط بروما. ومنذ نهاية القرن الثامن عشر بدأ النفوذ الأوروبي على الضفة الشرقية للمتوسط يتخذ طابعه العسكري ابتداءً من غزو نابليون لمصر وفلسطين عام (1798). وفي هذه الفترة أيضاً بدأت الصهيونية الأوروبية بالاعداد لتنفيذ مشروعها الاستيطاني في فلسطين من خلال الاستيطان والتجارة. بعد الحرب العالمية الأولى وصل النفوذ الأوروبي الى ذروته بسقوط الدولة العثمانية وتقاسم العراق والشام بين الاستعمارين البريطاني والفرنسي وشروع الصهيونية «الأوروبية» بالإعداد الفعلي لمشروعها بتكوين دولة اسرائيل كممثل مباشر للقطب الأوروبي والغربي.

الخلاصة

من خلال هذه المراجعة السريعة لتاريخ الأقطاب الكبرى : «ايران، مصر، السعودية، تركيا، أوربا» وعلاقتها التاريخية بمنطقة المشرق (ببلدانها الحالية : العراق وسوريا والأردن وفلسطين ولبنان)، تتبين لنا الحقيقة التالية : «إن جميع هذه الأقطاب تمتلك ميراثاً تاريخياً مترسخاً في أعماق «الذاكرة الجمعية» وقائماً على مصالح وضرورات جغرافية وسياسية

وحضارية. مهما اختلفت الأديان واللغات والآيديولوجيات فإن «سليقة التاريخ والذاكرة الجمعية» تظل محكومة بديمومة الموقع الجغرافي وشروط البيئة.



اتفاقية سايكس ـ بيكو لاقتسام المشرق وليس الوطن العربي!

يبدو أن «غرور» أهل المشرق جعلهم يتصورون أنفسهم «كل العرب». فمن السهل لديهم الحديث عن «الوطن العربي» و«الأمة العربية» وو... ولكن الموضوع بالحقيقة يخص منطقتهم. مثلاً اتفاقية (سايكس ـ بيكو) كانت لاقتسام العراق والشام وليس «الوطن العربي» كما نسمع دائماً، والدولة «العربية» التي حاولوا تحقيقها بعد التحرر من العثمانيين كانت بالحقيقة « دولة مشرقية» ولكن تحت سلطة «ملك عربي» بسبب الأصل القرشي الشريف.

ثم إن هذه الخارطة تبين أيضاً أن شمال النهرين (الكردي ـ التركي) حالياً (مدن ماردين وديار بكر والرها «أورفا») كانت جزءاً من سورية وقد منحتها فرنسا إلى تركيا عام (1920ـ1923) بموجب اتفاقيات (سيفر ولوزان).

رغم الاختلاف بين هذه الأقطاب وشدة المنافسة بينها فانها تجتمع في مصلحة مشتركة تتمثل في النواحي التالية :

1 ـ أن هذه الأقطاب لا تسمح لأي قطب منها بفرض نفوذه وحده على كل المشرق. ان نفوذ أو سيطرة قطب معين على باقي المشرق يؤدي تلقائياً الى تهديد سلامة باقي الأقطاب وبالتالي يمهد للسيطرة على عموم الشرق الأوسط والبحر المتوسط.

2 ـ ان جميع هذه الأقطاب تشترك أيضاً في الرغبة بعدم السماح لبروز دولة مشرقية قوية ومنع أي تقارب وتحالف بين بلدان المشرق وخصوصاً التحالف بين البلدين الكبيرين سوريا والعراق. ان مثل هذا التحالف المشرقي يضعف من نفوذ باقي الأقطاب ويهدد ببروز قوة حضارية مشرقية كبرى تتمكن من الحد من طموح جميع الأقطاب الأخرى. ان مثال الحضارات المشرقية السالفة وتاريخ الامبراطوريتين الأموية والعباسية لا زال عميقاً في الذاكرة التاريخية.

3 ـ ان بقاء المنافسة بين بلدي المشرق الكبيرين : العراق وسوريا ، وتأثرهما بتجاذبات الأقطاب المحيطة كان السبب الأول والأساسي للخراب والهزائم العسكرية والحروب الأهلية والخارجية وسيطرة النظم الاستبدادية والأقليات المذهبية على عموم المشرق. منذ اغتصاب فلسطين وحتى عملية السلام المجحفة : الانقلابات العسكرية والمجازر والحركات الانفصالية في بلدان المشرق كانت دائماً بدعم من دولة ضد الدولة الأخرى. اندلاع حرب لبنان ودور الخصام العراقي السوري في ديمومتها. حرب العراق وايران التي بدأت بعد انقلاب صدام على الوحدة مع سوريا ، ثم دور الخصام السوري العراقي في ديمومة هذه الحرب. حرب الكويت وتأثير الخصام السوري العراقي في تأزيم الحالة حتى اندلاع الحرب. على هذا المنوال يمكن أن نقرأ تاريخ المشرق الحديث منذ الحرب العالمية الأولى وحتى الآن.

4 ـ ان تحالف بلدان المشرق يعد ضرورة حياتية وأمنية ازاء تهديد القطبين العملاقين ايران وتركيا. ويعد هذا التحالف ضرورياً بين العراق وسوريا ازاء الخطر الذي تمثله تركيا في تحكمها بينابيع دجلة والفرات وتهديدها للمصالح الحيوية للبلدين. ان القوة المشرقية لا تبتغي اعلان العداء «القومي» للقطبين الايراني والتركي ، بل الهدف الأساسي هو اقامة علاقات متوازنة وتشجيع روابط الأخوة والتقارب في جميع النواحي السياسية والثقافية والاقتصادية.

5 ـ ان التقارب العراقي السوري وتكوين تحالف مشرقي يؤدي الى الحد من تنامي الخطر الاسرائيلي العسكري والاقتصادي وبالتالي القدرة على مواجهتها حضارياً وفرض الأمر الواقع عليها : إما أن تقبل اسرائيل بمنطق التاريخ والجغرافية وتندمج حضارياً وسكانياً وسياسياً بمنطقة المشرق بميراثها اليهودي المسيحي الاسلامي ، وإما أن تصر على البقاء حالة شاذة تستمد ميراثها من الدويلات الصليبية والدور التوسعي المعروف للقطب الأوروبي ، وهذا الوضع شاذ لن يسمح بديمومته لا التاريخ ولا الجغرافية.

من كل هذا يمكن الجزم بأن طبيعة المشرق الجغرافية والتاريخية والسكانية لا تسمح أبداً بحل وسط ووضع حيادي عادي بين دول المشرق ، بل هنالك وضعان متطرفان متناقضان لا وسط بينهما : إما أن تبقى بلدان المشرق في حالة خصام وتنافس وتمزق حسب أهواء الأقطاب المحيطة ، وهذا يعني أن تظل تعيش في الخراب والانحطاط والصراعات السياسية والطائفية والسكانية والحروب الأهلية والخارجية في ظل أنظمة ضعيفة ونفوذ صهيوني وغربي متزايد ؛ وإما أن تدرك هذه البلدان منطق التاريخ وطبيعة دورها الحضاري ، فتقرر التقارب والتحالف وعدم الانقياد لأهواء الأقطاب المحيطة ، وهذا يؤدي تلقائياً الى خلق قوة مشرقية قادرة على حماية نفسها ودعم العلاقات الحضارية والانسانية بين عموم بلدان الشرق الأوسط والبحر المتوسط والعالم العربي. ان الحلف الحضاري المشرقي سوف يكون الأساس لحلف حضاري بين جميع بلدان العالم العربي لأن التاريخ برهن ويبرهن يومياً بأنه من دون تقارب بلدان الشرق لا يمكن أبداً الحديث عن أي تقارب أو توحد عربي. ان دور المشرق يشبه الى حد بعيد دور «أوربا الغربية» في توحيد القارة الأوربية.

ملاحق معلوماتية

عن تاريخ بلدان المشرق العراقي ـ الشامي
وعن وحدة الهلال الخصيب والحزب السوري القومي

أوربا.. أسم فينيقي سامي بمعنى (الغرب والغروب)

بالنسبة لتأثير الفينيقيين على الحضارة وبالذات على أوربا التي منحوها حتى اسمها (اوربا ـ غوربا) أي الغروب حيث تغرب الشمس على سواحل أوربا كما يراها السوريون القاطنون على السواحل الشرقية. والطريف أن اسم (اوربا) هو نفسه اسم (عرب) لأن حرف العين والغين يتبادلان في السامية مثل سين وشين. والعرب هم القاطنون في (غرب) الفرات وقد شاع الاسم لدى أهل النهرين لأن الصحراء في الغرب، والبدو يأتون من الغرب (بادية الشام). ولا زال العراقيون يطلقون على سكان أعالي الفرات (الغربية) عكس (الشرجية ـ الشرقية) وهم أهل الجنوب:

❖ أسطورة قدموس(*) فينيقية يونانية يمثّل فيها زفْسُ، ربُّ أرباب الأولمب وإلهُ المطر والرّيح والصاعقة، وزوجته هيرا الإلهةُ الحاميةُ للزواج دوراً عظيماً. ثم تبناها الرومانُ فجعلوا جوبيتر وزوّجه جونون يحلاّن فيها محلَّ زفسَ وهيرا. وقد ذكر هذه الأسطورة كثيرون من المؤرخين منهم هيرودوتُ وسيكَ وبوسانيا ونقولا الدمشقي، ونظَمها كثيرون من الشعراء شعْراً، وأشار إليها هوميروسُ وقصَّها الشاعرُ اللاتينيُّ أوفيدُ بين الأساطير التي نظمها في كتابه «التحوّل».

أفريقيا.. أسم فينيقي سامي بمعنى (الفرقة أو المقاطعة)

❖ كلمة افريقيا :

«اسم أفريقيا لا بد وأن يثير الانتباه. حيث أنه كان يطلق في البداية على قرطاجنة ومناطق نفوذها قبل أن يشمل القارة بأسرها. ففي زمن الحروب البونية كان المؤرخون اللاتين يطلقون اسم افريقي على المواطنين القرطاجيين. وكان السكان الثائرون يسمون باسم قبائلهم منهم من المور والبربر وليس الأفارقة. فالإفريقي هو المواطن القرطاجي. وأفريقيا الاسم الرسمي للمقاطعة المحيطة بقرطاجة في عهد الرومان وهي مستقلة ادارياً عن نوميديا وموريتانيا. وكان

---

* قدموس : لفظة يونانية معناها القاهر المظفّر . وأوربا لفظة سامية أصلها عَرُوباً ومعناها الغرب . ويقول هيرودوت إنَّ أوربا الفينيقية هي التي أعطت القارة الأوروبية اسمها ، لأنَّ هذه القارة لم يكن لها اسم في ذلك الزمان البعيد .
من كتاب «أساطير شرقية ـ كرم البستاني ـ ص45» .

العرب يطلقون على تونس التي نعرفها اليوم اسم أفريقيا. لهذا يربط المستشرقون كلمة أفريقيا بأصل سامي أصبح بالعربية «الفرق». ويرى سلان أن الكلمة الفينيقية التي تحولت باللاتينية لافريقيا تعني القطعة أو الجزء، وهي المقاطعة التي تنفصل عن الوطن الأم. أما غيزل فلا يعير انتباهاً لهذا الأمر. على أن كلمة أفريقيا ليست لاتينية وانما أخذت من اللغة البونية (الفينيقية).

ويبدو لي أن بقاء الاسم مع مرور الزمن يعني توفر عناصر معينة لاستمراره».

من كتاب «ماضي شمال أفريقيا – أ. ف. غوتييه – ص 89».



برديصان، عالم سرياني (عراقي سوري) يستحق التذكر

رغم مرور ستة قرون بعد سقوط بابل على يد الفرس (539 ق. م) ونهاية آخر دولة عراقية حتى الفتح الاسلامي، إلا أن العراق استمر بتقديم العلماء الكبار الذين أدخلوا الميراث الديني العراقي في الديانة المسيحية. عكس السائد لدى مؤرخينا المعاصرين من أن الديانة الفارسية (المجوسية) كانت المؤثر الأول في أديان المنطقة، نكتشف من خلال هذا النص أن الديانة العراقية والسورية كانت هي المؤثر الأول. بالإضافة الى تأثير الأفكار الروحية الفلسفية (الغنوصية ـ العرفانية) والهرمزية القادمة من الاسكندرية في مصر. علماً بأن هذا العالم قد ولد في (الرها) شمال النهرين العراقي السوري، والتي أصبحت في القرن الحالي تابعة لتركيا:

❖ في فجر الثقافة السريانية ظهر كوكب مشعّ وضّاء، كان «آخر الغنوصيين» مزج التصورات والآراء الفلسفية لبلاد ما بين النهرين (القديمة) والنصرانية والعقائد الغنوصية (العرفانية) القادمة من الاسكندرية.

ولد برديصان في الرها سنة 154 م ضمن أسرة علم وأدب. ونشأ في قصر ملكها (معنو) حيث كان أليف طفولة أبجر الثامن أمير الرها وملكها المستقبلي وحليف صباه وشبابه وعضيده في المشورة والرأي. أما اسمه فهو مستمد من اسم النهر (ديصان) الذي كان يمر بالرها. وتذكر المصادر المتوفرة عنه أنّ برديصان هو الذي استطاع أن يقنع أبجر وحاشيته باعتناق النصرانية إذ سبق لبرديصان (مستشار هذا الملك) ان دان بالنصرانية واهتدى اليها في مطلع شبابه.

لقد استطاع برديصان أن يلبي ميوله العلمية والفلسفية بفضل معرفته العميقة للغتين السريانية واليونانية على قدم المساواة حيث كان متبحراً في العلم السرياني والثقافة الاغريقية.

أصبح برديصان مسيحياً وداعية الى المسيحية وقد استهواه مذهب فالانتين (المصري)، أما معارفه الفلكية فقد استمدها من قدماء المنجمين ومن العقائد التنجيمية المختلفة. وقامت دعوته المسيحية على مجموعة من الآراء والمعتقدات الخاصة بالقضاء والقدر تكونت تحت تأثير أفكار الغنوصيين والأفكار التي تقول إن النفس لا تولد ولا تموت كما كان قريباً من أطروحات مرقيون وماني البابلي وكان ثنوي العقيدة بعامة.

وضع برديصان كتباً شتى لم يبق منها غير كتاب «شرائع البلدان» الذي أملاه برديصان على تلميذه فيليبس (كما تلقى أفلاطون كلمات معلمه سقراط الأخيرة). أو أنه يمثل صيغة سريانية فلسفية «للمحاورة عن النفس» وعن القضاء والقدر منسوبة الى برديصان أيضاً. والغريب أن هذا الكتاب الذي يدور البحث عنه أساساً عن النفس والقضاء والقدر عُرف عند السريان باسم «كتاب شرائع البلدان»، وذلك نقلاً عن عنوان الفصل المعقود، في هذا الكتاب في ايراد شرائع البلدان المختلفة حجة على حرية الانسان المطلقة (وهو على صورة حوار بين برديصان وتلميذه المدعو عويذا). وقد ترجم نصه السرياني الى اليونانية واستخدم في كتاب "Praeparatio" ليوسيقوس القيصري وفي كتاب "Recognitiones" لكليمنت ــ المزيف. وقد أثرت الآراء الفلسفية لبرديصان وكذلك نظرياته وتعاليمه التنجيمية والفلكية سواء على معاصريه أو على علماء القرون التالية. وظهر هذا التأثير العميق في الأدبين السرياني واليوناني في آن معاً. ومع أن كثيراً من الآراء والاستنتاجات التي كان يرددها برديصان مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالعقائد الغنوصية وبالتقاليد التنجيمية «البابلية» المحلية، ففي المحاورة المعقودة بين برديصان وتلميذه المدعو عويذا يصب الفيلسوف آراءه الفلكية ـ التنجيمية قائلاً: «إننا نستطيع أن نريك كيف أن المصائر والأقدار لا تفعل ذات الفعل لدى الناس جميعاً وأننا نملك حرية شخصية من شأنها أن تمنحنا امكانية «عدم الخضوع والاستكانة» لتأثير الطبيعة المباشر، وكيلا نكون تحت تأثير «السلطة الموجهة» (القضاء والقدر). أما عويذا فيردّ قائلاً، أنه لو تمت البرهنة على ذلك فإنه سيقتنع بصحة رأي الحكيم. عندئذ ينصحه برديصان: «اقرأ كتاب كهنة بابل الذي كُتب فيه، أن اتحاد النجوم واقترابها من بعضها يؤثر على أبراج الناس، واقرأ كتاب المصريين الذي يتحدث عن المصادفات والحظوظ التي تبرز للناس». فأجاب عويذا معلمه:

«لقد قرأت كتباً بالفلك والتنجيم ولكنني لا أعرف أيها كانت بابلية وأيها كانت مصرية». فيوضح له برديصان : «إنها علوم كلا البلدين».

وهكذا، فقد بنى برديصان علومه الطبيعية والفلكية على المعتقدات وعلى العلوم الفلكية، التي تم بلوغها في بلاد ما بين النهرين (في بابل) وفي مصر (في الاسكندرية). وكان الفرق بين هاتين المدرستين ضئيلاً حتى أنه يمكن القول أنه حصل تأثير علمي متبادل بينهما في القرن الثالث للميلاد الى درجة الامتزاج الكامل (تقريباً)، فتوحدتا في نظرية عامة كانت تتألف من منظومة علمية فلكية ضمن إطار شكلي في صورة معتقدات تنجيمية معينة تراكمت بعض مقولاتها بناءً على مراقبات طويلة (امتدت) الى قرون كثيرة كان يقوم بها «كهنة» بابل و«سحرتها» و «حكماؤها» لحركة النجوم والأفلاك. وبناءً على تلك الملاحظات الطويلة استطاع منجموا بابل أن يضعوا لوحة فلكية تقويمية دقيقة (الى حد كبير) عن التغيّرات الفلكية الطبيعية المتوقعة على مدار السنة بأكملها. وقد دوّنوا (بشكل خطي) جميع التغييرات التي تحصل في حركة النجوم والكواكب، ورسموا بنجاح عظيم أماكنها (منازلها) ودرجاتها ومداراتها وزواياها وسمتها أيضاً. على هذا، فإن العلوم الفلكية التي كان برديصان وأتباعه ينهلون منها بلغت شأناً كبيراً ومستويات رفيعة في تلك الأزمنة.

من كتاب (ثقافة السريان في القرون الوسطى ـ نينا بيغوليفسكايا ـ ص 173ـ180).



التأثير السوري في مصر

طيلة التاريخ ظلت مصر متعلقة بسوريا، ويمكن عد السيطرة المصرية على سوريا بعشرات القرون منذ الفراعنة والطولونيين والفاطميين والمماليك حتى الوحدة المصرية السورية عام 1958. ولكن رغم ذلك فإن السوريين هم الذين كانوا يضخون مصر بالهجرات السكانية والتأثيرات الحضارية وكان أبرزها انتقال المسيحية اليعقوبية من سوريا الى مصر باسم (الكنيسة القبطية) وكذلك انتشار اللغة العربية بلهجتها السورية من خلال الجيوش السورية، هنا لمحة عن التأثير السوري في مصر خلال العصور السابقة لانتشار المسيحية :

❖ التأثير السوري في مصر

«وكما كان تأثير الحضارة المصرية على سورية بارزاً فان هنالك دلائل تلفت النظر بصورة أوسع عن التأثير السوري في مصر. ويتضح التأثير السوري في أقدس قصة فرعونية مصرية وهي قصة آلام اوزيريس الذي قطع جسمه إرباً ووضع تحت شجرة الأثل في جبيل. ويظن البعض أن الجثة المشوهة وضعت في مصر. وقد تكون عبادة أوزيريس برمتها مأخوذة من الساحل السوري في تاريخ قديم جداً. وقد أدخل الإله حورون (Hawron) وهو الإله الرئيسي في يبنه الى معابد مصر في أيام امنحوتب الثاني (حوالي 1450 ـ 1430) ويظهر في اسم حورمحب مؤسس السلالة التاسعة عشرة (1350 ق. م) ويمكن الاستدلال على عبادة عشتاروت في منتصف القرن الثالث عشر من ان اسم أحد أبناء رعمسيس الثاني كان ميري استروت (Astrot_Meri) أي محبوب عشتاروت.

وكان الاقبال على الفتيات السوريات في مصر أكبر من الإقبال على الفتيات المصريات في سورية. وقد دخل منهن عدد كبير الى مصر بشكل رهائن وإماء أو زوجات عندما كانت الامبراطورية في ذروتها حتى أن تغييراً ملحوظاً حصل في سحنة أفراد الطبقة العليا. وكان بين حريم الملوك والأرستوقراطيين أميرات ميتانيات وحثيات وفينيقيات في كثير من الأحيان. وهنالك تباين واضح بين ملامح تحوتمس الرابع الدقيقة وأنفه الأقنى وبين النموذج الذي تمثله سحنة تحوتمس الأول بفكه الكثيف وأنفه القصير. وأتت مع الزوجات الأجنبيات أفكار أجنبية بين دينية وغير دينية. وقطع أخشاب الفصيلة الصنوبرية التي وجدت في قبور ما قبل عهد السلالات والدعائم المستخدمة في بناء قبور السلالة الأولى تدل على الاستيراد من سورية منذ ذلك العهد البعيد. وتشهد الآثار المتأخرة في مصر عن كثرة المحاصيل السورية في عهد الملكية الحديثة وغناها. وكان الصناع السوريون ينتجون أسلحة ثمينة مزخرفة وثياباً مزركشة وأواني أنيقة وأثاثاً ومركبات مرصعة بالذهب والفضة. واستعار المزينون السوريون من مصر نبات اللوتس (عرائس النيل) والبابيروس (البردى) وشوكة اليهود (acanthus) ولكن السوريين هم الذين جعلوا من الآراولة (الكرسنتيم) والسوسن والختمي نباتات زخرفية. وهم الذين كانوا أيضاً أول من فكر بوضع الزهور الاصطناعية في أوان معدنية. ولأجل نقل صمغ الصنوبر والصمغ العادي والعسل والزيت استخدم السوريون الجرار المستدقة في أسفلها وقد اكتشفت بقاياها في مصر وجبيل. ووجدت أوان مزخرفة بدهان ذي بريق معدني حسب أسلوب سورية الشمالي كمستوردات في قبور الفراعنة الأولين في أبيدوس. ووصل فن الدهان

ذي البريق المعدني الى كريت المينوسية من سورية الشمالية. وسرعان ما نشأ عند المصريين تذوق لمثل هذه المنتجات الفنية التي أتت بها حوادث الحرب أو عمليات التجارة والسياحة وأخذوا يقلدونها. وفي حركة البعث في فترة سايتي في القرن السابع نقل المصريون عناصر متزايدة من الفن الفينيقي الذي فقد أصالته في القرن التالي وكسفه الفن اليوناني.

ظهر العود لأول مرة في مصر بعد فتوحات تحوتمس الثالث. والأهداب الثقيلة التي عليه هي سورية في شكلها. وتظهر القيثارة لأول مرة مع البدو الساميين في عهد السلالة الثانية عشرة. وكانت سورية غالباً مصدر الرصاص الذي أصبح شائعاً في السلالة الثامنة عشرة.

ولم تكن القرون الأربعة للحكم المصري كافية لجعل سورية مصرية كما أن أربعة قرون من الحكم التركي لم تكن كافية لجعل سورية تركية. ولم يتأثر السكان الوطنيون إلا قليلاً بالفكر واللغة المصريين. وبقيت بضع كلمات مصرية في العربية الحديثة ولكن معظمها انتقلت فيما بعد بطريق اليونانية أو القبطية. وفي العصور الفينيقية كما في العصر الحديث هاجر كثير من السوريين الى وادي النيل ولكن قليلين جداً من المصريين هاجروا الى سورية. وكانت معظم العلاقات التجارية بيد الفينقيين. ويبدو أن اقليم مصر كان لا يسمح لسكانها بالعيش في بلاد أخرى خاصة حيث الأمطار وموجات البرد في الشتاء تتطلب مقدرة على المقاومة. وقد قال المثل الشائع أن من اعتاد على شرب ماء النيل يحب أن يشرب منه دائماً».

من كتاب «تاريخ سوريا ـ ج 1 ـ فيليب حتي ـ ص 146 ـ 148».



تعريب الأندلس من خلال السوريين

إن ديمومة التاريخ وتكرار الأحداث مرتبطة بديمومة الموقع الجغرافي وظروف البيئة. نلاحظ مثلاً أن موقع سوريا الطبيعية على البحر المتوسط جعل من سكانها منذ الأزل يتجهون بأنظارهم الى سواحل البحر المتوسط، سواء عن طريق التجارة الفردية أو الفتوحات التجارية السياسية. لقد عمر السوريون (الفينيقيون) جميع سواحل البحر المتوسط ونقلوا آثارهم وحضارتهم الى اليونان وايطاليا واسبانيا وشمال افريقيا ومصر. وقد لاحظ المؤرخون أن الفتوحات الأموية لشمال افريقيا واسبانيا هي شبه تكرار حرفي لفتوحات الفينيقيين السابقة وبنائهم لقرطاجة والكثير من الساحل الافريقي والاسباني مثل (برشلونة ــ برقة لونة ــ وقادس) في اسبانيا.

هنا لمحة عن توطن الشاميين في الأندلس التي فتحتها الجيوش المتكونة من البربر والسوريين كما حدث أيام القرطاجيين:

❖ تفريق الشاميين في الأندلس

«رأى أبو الخطار أن أهل الشام يسكنون كلهم في قرطبة وما جاورها وأنهم كثروا «عنده ولم تحملهم قرطبة» (ابن خلدون 4 : 119). فاذا نحن صرفنا النظر عن ان ازدحام هؤلاء في منطقة واحدة يثقل الحياة الاقتصادية في تلك المنطقة، فان وجودهم على مقربة من دار الحكم ينطوي على تهديد مباشر لأبي الخطار عاجلاً أو آجلاً. من أجل ذلك فرّقهم أبو الخطار في الأندلس، قيل بنصيحة أرطباش بن غيطشة، على الوجه التالي:

أ) أنزل أهل دمشق في البيرة (مقاطعة غرناطة) ـ لشبه البيرة بدمشق ـ وسماها «دمشق».

ب) أنزل أهل حمص في إشبيلية ـ لشبه مقاطعة اشبيلية بحمص ـ وسمّاها «حمص».

جـ) أنزل أهل قنّسرين في مقاطعة جيّان وسماها «قنّسرين».

د) أنزل أهل الأردن في مقاطعة ريّة (في أُرْشُذونة ومالِقة) وسماها «الأردن».

هـ) أنزل أهل فلسطين في شذونة (وهي مقاطعة شريش) وسماها «فلسطين».

و) أنزل أهل مصر، وكانوا كثاراً، في مكانين: في مقاطعة باجة من جنوب غربي الأندلس، وفي مقاطعة تُدْمير من جنوبي شرقي الأندلس.

وأقطع أبو الخطار أهل الشام في الأماكن التي أنزلهم فيها أراضي مما كان يملك عجم الأندلس (الاسبان الذين لم يعتنقوا الاسلام ولا تعلموا العربية) ثم أعطاهم من أنعام هؤلاء العجم ما يستطيعون أن يعيشوا به».

من كتاب «العرب والاسلام في الحوض الغربي ـ عمر فروح ـ ص 152 ـ 153».



البيئة وتأثيرها على شخصية المجتمع وعقليته

❖ أثر البيئة في مصر وأرض النهرين

إننا إذ نتوجه من مصر القديمة نحو العراق القديم، نغادر حضارة ما زالت آثارها الضخمة باقية، «أهرام عظيمة من الحجر تعلن سطوة الانسان في قهره القوى المادية»، ونتوجه نحو حضارة اندثرت آثارها وحالت مدنها الى ركام. فالتلال الشهباء الصغيرة التي تمثل ماضي العراق تكاد لا تذكر المرء بأي من عظمته السالفة.

ليس في ذلك من ضير، لأنه يتفق والذهنيتين الأساسيتين اللتين بنيت عليهما هاتان الحضارتان. فلو عاد المصري القديم الى الحياة اليوم، لسرّ لمرأى أهرامه وهي باقية بعد لأنه كان يعطي الانسان ومنجزاته الملموسة معنى جوهرياً يفوق ما ترضى بإعطائه معظم الحضارات. ولو عاد العراقي القديم الى الحياة، لما اضطرب كثيراً لمرأى آثاره وهي حطام، لأنه كان دائماً يعرف معرفة عميقة بأن «الإنسان أيامه معدودة ومهما صنع فما هو إلا ريح تهب». فمركز الوجود ومغزاه لديه بعيدان عن الإنسان ومنجزاته، بعيدان عن الأشياء الملموسة في قوى غير ملموسة تحكم الكون.

أما كيف توصلت الحضارتان المصرية والعراقية الى هاتين الذهنيتين المتباينتين ــ الواحدة تثق في قوة الانسان ومعناه الأبعد، والأخرى لا تثق ـ فسؤال عسير. فـ «ذهنية» حضارة ما هي نتائج حياتية معقدة متداخلة تتحدى التحليل الدقيق. ولذا فاننا سنشير الى عامل واحد يبدو أنه لعب في ذلك دوراً مهماً، هو عامل البيئة. فقد نشأت الحضارة المصرية في بلد مرصوص حيث تقع القرية لصق القرية فتطمئن، والمنطقة كلها محاطة ومعزولة بحواجز جبلية تحميها. في سماء هذا العالم المحمي تمر كل يوم شمس لا تخلله أبداً، وتنفخ الحياة فيه بعد ظلام الليل، وفيه يرتفع النيل الأمين كل سنة ليخصب التربة المصرية ويحييها من جديد. فكأنما الطبيعة هنا تكبح نفسها عن قصد، كأنها وضعت هذا الوادي في حرز حريز لكي يمتّع الانسان نفسه دونما عائق.

أما حضارة أرض النهرين فقد نمت في بيئة مختلفة كل الاختلاف. ولئن نجد فيها الإيقاع الكوني نفسه، بالطبع ـ تعاقب الفصول، سير الشمس والقمر والنجوم ـ فإننا نجد فيها أيضاً عنصراً من القسر والعنف لم تعرفه مصر. فدجلة والفرات يختلفان عن النيل، اذ قد يفيضان على غير انتظار أو انتظام، فيحطمان سدود الانسان ويغرقان مزارعه. وهناك رياح لاهبة تخنق المرء بغبارها، وأمطار عاتية تحول الصلب من الأرض الى بحر من الطين وتسلب الانسان حرية الحركة وتعوق كل سفر. فهنا، في العراق لا تضبط الطبيعة نفسها. إنها ببطشها تتحكم بمشيئة الانسان وتدفعه الى الشعور بتفاهته ازاءها».

من كتاب «ما قبل الفلسفة ـ هـ . فرانكفورت ـ ص 145 ـ 147».



عن النقاء العروبي لأسلافنا

نورد هنا موضوعاً شيقاً وطريفاً عن الجواري والعبيد في عصور الحضارة الاسلامية. والغاية من هذا الموضوع هي الدعوة للتفكير والتساؤل: أليس من المنطقي والمعقول أن يكون هذا العدد الهائل من الرقيق وخلال عدة قرون قد ترك أثره في التكوين العرقي لشعوبنا، بحيث يمكننا القول بكل يقين أنه ليس هناك أحد منا لم يرث شيئاً من هؤلاء الأسلاف من العبيد والجواري، سواء عن طريق الآباء أو الأمهات؟

❖ الرقيق

«كان مصدر الرقيق في بداية الفتوحات العربية من أسرى الأعداء ممن لن يعتنقوا الاسلام أو لم يدخلوا في ذمة المسلمين. إذ يقسم الأسرى والسبايا بأن يكون للدولة الخمس يُصرف في الصالح العام، وتوزع أربعة أخماس على المقاتلين، فيُعطى الفارس سهمين والراجل سهماً واحداً. ولم ينفرد العرب بهذه المعاملة للأسرى، فقد كان ذلك مرعياً عند الأمم الأخرى. فمن كان يقع من المحاربين العرب في أيدي الروم مثلاً، لكثرة الحروب معهم كان نصيبه الاسترقاق. إلا أن الدولة العربية كانت تُعنى بافتدائهم إما بالمال وإما بإطلاق ما يقابلهم من أسرى الأعداء.

ونظراً لتوسع الفتوحات العربية كثر الرقيق المجلوب من البلاد المفتوحة وشاع استخدامهم. إذ كان الأسرى والسبايا يوزعون على ذوي العلاقة من المحاربين جنداً وقواداً، وأكثر هؤلاء يبيعون ما يزيد عن حاجتهم منهم. فاتسعت معاملات شراء أنواع الرقيق واستجلابها فصارت تجارة واسعة، كان لها في بغداد سوق خاصة. وعندما انشئت سامراء أقيمت فيها سوق كانت تقع في الشارع الأعظم وهي مربعة الشكل بها طرق متشعبة وعلى جانبيها الغرف والحوانيت للرقيق أيضاً.

ويعتبر الرقيق ملكاً لصاحبه، له أن يبيعه أو يهبه أو يعتقه. ولصاحب الأمة أن يستمتع بها ويستولدها باعتبارها ملك يمينه سواء أكان متزوجاً أو غير متزوج، وإذا ما ولدت منه كان ابنها حراً، وسميت هي «أم ولد»، ورغم رقّها فلا يجوز له أن يبيعها أو يهبها وتصبح حرة عند وفاته.

ومع أن الاسلام لم يُلغ الرقّ فقد أمر بحسن معاملة الرقيق وعدم تكليفهم بما لا يطيقون من الأعمال، وشجع على عتقهم أي تحريرهم من عبودية الرق، بل إنه اعتبر ذلك من أجل

الأعمال. فقد جاء في الآيات الكريمة ﴿فلا اقتحم العقبة، وما أدراك ما العقبة، فكُّ رقبة﴾. وقد أكدت آيات أخرى من القرآن الكريم على ذلك. فقد ورد في الآية الكريمة ﴿واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً وبذي القربى واليتامى والمساكين والجار ذي القربى والجار الجَنْب والصاحب بالجَنْب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم إن الله لا يحب من كان مختالاً فخوراً﴾ وشجعت الآية الكريمة ﴿وأنكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم﴾ على الزواج من ملك اليمين إذا كانوا صالحين.

وللعبد أن يشتري حريته من مالكه، فقد جاء في الآية الكريمة ﴿... والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيمانكم فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيراً وآتوهم من مال الله الذي أتاكم ولا تُكرهوا فتياتكم على البغاء إن أرَدْنَ تحصناً..﴾ . أي أن المملوك إذا كان أميناً وكان ذا كسب وأراد أن يكاتب سيده على مبلغ معين لقاء عتقه فيكاتبه، سواء أدى المبلغ عاجلاً أو آجلاً.

وكان عتق الرقيق يتم على نطاق واسع في بعض المناسبات. وقد يشتري بعض الناس الرقيق لغرض عتقهم. فقد أعتق المتوكل على الله عند إعذار ابنه المعتز ألف عبد وأمر لكل منهم بمئة درهم وثلاثة أثواب.

وقد سمي الأرقاء البيض مماليك والسود عبيداً. وكان من الطبيعي أن تختلف قيمة المملوك أو العبد ذكراً أو أنثى بما يحسن من الأعمال، وحملة السلاح منهم أعلى منزلة من غيرهم، وقد صار منهم قواد وأمراء بارزون في الجيش العربي، وكان لكثير منهم شأن كبير في سير الأحداث ومصائر الخلفاء.

وكان الصقالبة والترك المصدر الذي لا ينضب معينه من المماليك. وما كان يجلب الى حاضرة الخلافة، بغداد أو سامراء من الصقالبة يأتي من بلاد الفرنج عن طريق الأندلس.

من كتاب (معالم الحضارة العربية ـ احمد عبدالباقي ـ ص 50ـ54)

وجود العبيد والجواري في حضارة العراق القديم

إن مجتمع مدينة بابل يذكر كثيراً بمجتمع مدينة بغداد في العصر العباسي، من حيث وجود فئات أجنبية عديدة بالاضافة الى السكان الأصليين:

❖ «كان مركز بابل التجاري يعطي زواره صورة ملونة لشعوب مختلفة، وفي المقدمة السكان الأصليون الذين عاشوا في بابل منذ أجيال عديدة، منذ أن وضع فيها أجدادهم عصا

الترحال بالاضافة الى الحجاج والتجار والضيوف الذين كانوا يقدمون من مختلف البلدان للاقامة في هذه المدينة الجميلة سواء لفترات طويلة أم قصيرة. ولقد جلبت الحملات العسكرية للملوك البابليين ولا سيما حملات نبوخذ نصر، الألوف من الأسرى الى بابل والذين كانوا يضطرون للعمل هناك كعبيد. إن المتجول في الشوارع والأسواق يمكنه أن يتعرف ببساطة ليس على ممثلي مختلف أنواع الشعوب حسب، بل كان بإمكانه أن يأخذ انطباعاً عن مختلف أنواع الطبقات الاجتماعية أيضاً. وكانت الطبقة الدنيا في المجتمع البابلي تتكون من العبيد. كانوا يشتغلون في مختلف أنواع الأعمال، فقد كانوا يعملون كعمال مساعدين في بناء القصور الملكية أو الزراعة أو كأجراء عند التجار وأصحاب الحرف أو كخدم في البيوت. ويلاحظ أن العبيد كانوا يعاملون كشيء زهيد منذ عهد سومر أو كأية قطعة يمكن التصرف بها كيفما يشاء دون أن يحميها أي قانون، فمثال نرى ذلك في مجموعة قوانين حمورابي التي تؤكد بأن عقوبة العبد تختلف عن عقوبة الحر وقد نص كما يلي: (وإذا فقأ أحدهم عين رجل حر، فقئت عينه. إذا فقأ أحدهم عين رجل عبد رجل آخر أو كسر عظمه، ينبغي أن يدفع لصاحب العبد نصف ثمن الأجير). وكان هذا المبلغ يدفع بالطبع الى صاحب العبد، إذ أن تشويه العبد كان يعتبر تقليلاً لثمنه. وكان العبد يعتبر بالنسبة لسيده أداة عمل ثمينة، ولذلك كان الاعتناء به من مصلحته الشخصية. وكان العبد الذي يعمل خادماً في أحد البيوت يعتبر على حد ما أحد أفراد العائلة. وغالباً ما كان يتخذ رب البيت عبده كعشيقة أو امرأة إضافية والتي كانت تستطيع نتيجة انجاب الأطفال ولا سيما الذكور أن تصل الى مركز مرموق في العائلة. ولم يكن عدد المشتغلين من العبيد في بيت مواطن متوسط كثيراً. وكانت معظم الأعمال يقوم بها أفراد العائلة التي كانت تملك عادة ما يتراوح بين واحد الى ثلاثة عبيد. وفي عهد نبوخذ نصر بنى الحرفيون وأصحاب المهن والمصالح ورشات انتاج كبيرة شغلوا فيها أعداداً كبيرة من العبيد».

من كتاب «رحلة الى بابل ـ ايفلين كلينكل ـ ص 46ـ47».



عن وحدة بلدان المشرق

إن الدعوة الى وحدة بلدان المشرق (الهلال الخصيب) قديمة وتعود الى سنوات العشرينات بعد التحرر من الاحتلال العثماني وانكشاف مؤامرات الانكليز والفرنسيين (سايكس بيكو) التي قسمت المشرق ووعد (بلفور) بمنح فلسطين لليهود. هنا بعض الآراء بهذا الخصوص :

❖ **مشهد وحدة الهلال الخصيب**

يرتكز هذا المشهد على فكرة وجود بنية تاريخية ـ اجتماعية واحدة في المنطقة المدروسة في هذا الكتاب، وأنه من الطبيعي تالياً أن تتكرس هذه البنية في شكل قانوني مناسب، هو دولة واحدة تضم أراضي المنطقة بأسرها. لقد دافع اللبناني أنطون سعادة عن الفكرة (ملحقاً قبرص والكويت بهذه البنية)، كما تبنتها أحياناً الأسرة الهاشمية. ويمكن الاعتقاد أن لا حياة لهكذا مشروع إلا من خلال وحدة الكيانين الأساسيين في المنطقة أي سوريا والعراق. وهذا ما حصل شكلياً ولفترة وجيزة عام 1979.

من المعقول التفكير بهذا المشهد خصوصاً إذا بدا أن المنطقة المعنية ازدادت هشاشة وضعفاً بسبب تضافر الضغوط الاقليمية المباشرة عليها المتأتية مثلاً من اسرائيل وايران وتركيا. فالمنطقة ككل تتميز بوجود أربعة كيانات (ومشروع كيان فلسطين) بمقابل اسرائيل نووية وتركيا موحدة وايران قادرة (من دون ذكر أطراف عربية كمصر أو السعودية). من هنا فالضغوط التوسعية على هذه المنطقة كانت دائماً كبيرة، باستثناء مراحل قصيرة من الزمن، كما في المرحلة الأموية أو في مطلع المرحلة العباسية. ولكن رد الفعل الطبيعي لحكام المنطقة لم يكن توحيدياً بقدر ما سعى الى موازنة ضغط خارجي بآخر. فوازن العراقيون لفترة الفرس بالترك، والسوريون محمد علي بالعثمانيين الى ما هنالك. هل هناك ما يشير الى تحول تاريخي في هذا المسلك؟ في الواقع فإنه من الصعب رؤية مؤشرات على هكذا تحول. إذ أنه خارج الحزب القومي السوري (وهو نفسه يبدو أحياناً وقد تخلى عن العراق حيث لم تلق طروحاته أي مدى يذكر)، ليس هناك من قوى تدعو فعلاً الى وحدة «الهلال الخصيب»، ولا يبدو أن هناك أنظمة تعمل فعلاً في هذا الاتجاه. ولكن المشهد يبقى قائماً ويصبح على الأرجح معقولاً أن بدا أن الثلاثي الاسرائيلي ـ الايراني ـ التركي يزيد من «أزمة الهلال» وأن العرب غير مهتمين بمواجهة حقيقية له. غير أن ضعف المشاركة العراقية النسبي في الحرب مع اسرائيل، والموقف الرسمي السوري من العراق خلال حربه مع ايران، وأمور أخرى، تشير الى أننا بعيدون عن أي تيار توحيدي «هلالي» حقيقي.

من كتاب «المجتمع والدولة في المشرق العربي ـ غسان سلامة ـ ص 258ـ259».



❖ الهلال الخصيب : نظام اقليمي جديد

طرح الرعيل القومي العربي الأول المتمثل بالأمير فيصل بن الحسين والزعامات السورية الوطنية وجماعة العهد من الضباط العرب في الجيش العثماني، فكرة الهلال الخصيب لوحدة المشرق العربي، ولكن اتفاقيات سايكس ــ بيكو حالت دون ذلك. إلا أن ظروف الحرب العالمية الثانية وتعقد القضية الفلسطينية دفعت مشروع الهلال الخصيب للواجهة مرة أخرى عندما طرح نوري السعيد في عام 1942 فكرة الهلال الخصيب في مذكرة اشتهرت باسم الكتاب الأزرق، بعث بها الى وزيرالدولة البريطاني كيسي، كتصور لمستقبل المنطقة بما يوفر حلاً للقضية الفلسطينية، تضمنت المبادىء الأساسية التالية :

1 ـ أن يعاد توحيد سورية ولبنان وفلسطين وشرقي الأردن في دولة واحدة.

2 ـ أن يبت سكان هذه الدولة أنفسهم في نوع الحكومة التي تروق لهم سواء أكانت ملكية أم جمهورية، وسواء أكانت وحدة أم اتحاداً فيدرالياً.

3 ـ أن تنشأ عصبة عربية ينضم اليها العراق وسورية فوراً على أن يسمح للدول العربية الأخرى بالانضمام اليها متى شاءت.

4 ـ أن يكون لهذه العصبة العربية مجلس دائم ترشحه الدول المنخرطة في سلك هذه العصبة ويرأسه أحد رؤساء تلك الدول على أن يتم انتخابه برضاء تلك الدول.

5 ـ أن يكون مجلس العصبة العربية مسؤول عن الأمور التالية : الدفاع، الشؤون الخارجية، العملة، المواصلات، الكمارك، حماية حقوق الأقليات، التعليم.

6 ـ يمنح اليهود في فلسطين ادارة شبه ذاتية في المنطقة التي يكونون أكثرية فيها مع منحهم حق ادارة مناطقهم في الريف والمدن بما في ذلك المدارس والمؤسسات الصحية على أن تكون جميع تلك المؤسسات تابعة لإشراف الدولة السورية.

7 ـ أن تكون القدس مدينة يسمح الدخول اليها لأبناء جميع الأديان بقصد الزيارة أو التعبد، وتتألف لجنة خاصة من ممثلي الأديان الثلاثة لضمان ذلك.

8 ـ أن يمنح الموارنة في لبنان ــ اذا شاءوا ــ ادارة ممتازة على نحو ما كانوا يتمتعون به في خلال السنوات الأخيرة في عهد الامبراطورية العثمانية على أن تستند الى ضمان دولي أسوة بالادارات السابقة وفقاً لأحكام الفقرتين 6 و 7 .

وعن عرب فلسطين واليهود كتب نوري السعيد يقول :

(إننا نجد عرب فلسطين يتخوفون من أن يصبحوا أقلية في دولة يهودية ولذلك نراهم معارضين أشد المعارضة في منح اليهود حقوقاً خاصة ولكن لا بد أن يخف هذا العداء اذا أصبحت فلسطين جزءاً من دولة عربية قوية كبيرة، وبذلك أيضاً يزداد اطمئنان اليهود على سلامتهم، فضلاً عن ازدياد الفرص الاقتصادية السانحة لهم عندما يصبحون طائفة متمتعة بإدارة شبه ذاتية في دولة أكبر بكثير مما كانوا يأملون).

بالرغم من أن نوري السعيد كان من الرعيل القومي العربي الأول، إلا أنه فقد ثقة التيار القومي الجديد بسبب دوره في حركات عام 1941 واصطدم بالتالي مع رواد المشروع القومي العربي الثوري الجديد المتحالف مع دول المحور إبان الحرب العالمية الثانية وفيما بعد الاتحاد السوفييتي إبان الحرب الباردة.

إن النجاح لا يقاس إلا بالنجاح، وقد أجهض مشروع الهلال الخصيب آنذاك لصالح مشروع «ثوري» ثبت فشله بعد نصف قرن. ليس في هذا إدانة أو تزكية لأحد، خاصة وأن كاتب السطور هو أحد المساهمين في هذه التجربة والمطلوب تجاوز التجربة.

ـ إن فشل المشروع القومي العربي «الثوري» في تحقيق أهدافه أضاف أعباء ثقيلة على الشعوب العربية ومقارنة بسيطة بين ما كان مطروحاً وما هو معروض اليوم يوضح ذلك العبء. ليس في هذا عودة للماضي بل دعوة للانفتاح والاستفادة من فرص متاحة اليوم قد تكون متواضعة ولكنها حتماً خطوة للأمام.

اذا كانت تطورات ما بعد الحرب العالمية الثانية قد حالت دون تحقيق مشروع الهلال الخصيب، فيا ترى هل الفرصة متاحة اليوم لنظام اقليمي جديد يؤسس على أطروحة الهلال الخصيب ويستند الى مصالح اقتصادية وأمنية مشتركة؟

إن هيمنة القطبية العالمية المزدوجة التي غذت التناقضات الاقليمية، وبداية الصحوة العربية من الحلم «الثوري» وغياب الخوف من هيمنة قطر عربي على آخر، وحاجة اسرائيل الى السلام الشامل، والحاجة الملحة للتنمية الاقتصادية والاقليمية المشتركة، كلها عوامل توفر فرصة قد تكون نادرة لبناء النظام الاقليمي الجديد.

من مجلة «الملف العراقي ـ غسان العطية ـ عدد 49ـ 1996».



نماذج طريفة عن اختلاط سكان الهلال الخصيب

إن العلاقات الحضارية والسكانية بين العراق ومناطق الشام قديمة. صحيح أن بلاد النهرين ظلت عادة تستقبل الهجرات الشامية، إلا أن أهل العراق بصورة أقل بكثير، ظلوا يهاجرون الى سواحل الشام لأسباب تجارية وكذلك كملجأ من الاضطهاد. هنا مقاطع عن الأسر اللبنانية التي تعتقد بأصولها العراقية. تكمن طرافة الموضوع في بعض التفاصيل التي تستحق بعض التوقف من حيث اعتقاد بعض العوائل المارونية الكبرى والمهمة بأصلها العراقي :

❖ جد الأسر التنورية ـ تنورين منطقة مارونية شمال بيروت

الجد الأول للأسر التنورية (حرب ـ يونس ـ طربيه ـ داغر ـ يعقوب) يدعى خطار وهو أتى من بلاد ما بين النهرين، هجر بغداد سنة 1421 الى مدينة حلب في شمال سوريا حيث سكن هناك قرقماز الأول كان أحد أحفاده نقل الى دمشق وكان يشغل منصب كاتخداه (أمين سر نائب الشام) اتهم بحماية الثائرين على الضرائب وفداحتها فهرب الى لبنان عام 1471 حيث استقر في يانوح واعتنق النصرانية مع أولاده (مخطوطة الأب بولس مطر) (جد أهالي «تنورين» الأول بغدادي اسمه خطار هجر بغداد عام 1421 الى حلب. نقل من أحفاده واحد اسمه قرقماز صار كاتخداه عند الحاكم. ثم عند مطالبة الشعب برفع البلص ساعده قرقماز الأول وهرب الى يانوح وصار نصراني مع أولاده). وجاء في المخطوط المعادي المؤرخ عام 1599 «إن جد أهالي تنورين هو بغدادي نقل الى حلب و رحل أحفاده الى الشام ثم الى لبنان» إذن فعيال تنورين مرجعهم الى أصل واحد، بسبب عدم توفر أسباب المعيشة والرزق لأولاد وأحفاد قرقماز الأول في يانوح نقل أحدهم المدعو قرقماز الثاني الى العاقورة حيث بنى كنيسة مار سابا. من أحفاد قرقماز الثاني موسى الذي نزح الى الهرمل عام 1491 وتوطن في بلدة مرجحين وتوفي فيها عن ولد اسمه جرجس ابي قرقماز. هذا الأخير دخل في منازعات دموية مع المتاولة هناك الذين حاولوا خطف إحدى بناته فاضطر الى الرحيل الى قرية تنورين التحتا وذلك عام 1520. هناك أقطعه الحاكم المتوالى أرضاً بين النهرين.

من كتاب «موارنة لبنان ـ محمد دكروب ـ ص 52ـ53».

الأكثر طرافة أن الصدفة التاريخية جعلت أن يكون الثلاثي الحاكم في لبنان، حسبما يعتقدون، من أصول تعود الى العراق: الرئيس الماروني (الياس هراوي) ورئيس الوزراء السني (رفيق الحريري) ورئيس مجلس النواب الشيعي (نبيه بري).

❖ «لعل العائلات المشهورة حظيت من معلومات الكتاب بحصة وافرة لسهولة الحصول على تاريخ مفصل لها من مصادر متنوعة أوردها بمعظمها رغم تقارب هذه المعلومات. ومن المفارقات كما أورد أبو سعد أسماء لافتة لبعض العائلات، وذلك أن بين الأسر المسلمة من يتسمى بأسماء من أصل صليبي، كآل برنار وداكيز ودبليز وشمبور. ويرى بعض المؤرخين أن هذه التسميات تعود الى اعلان بعض الصليبيين ـ الذين جاؤوا الى لبنان خلال الحملات ـ إسلامهم، وانخرطوا مع تعاقب القرون في البيئة الاسلامية اللبنانية.

وللأسماء والألقاب الطريفة أسبابها وتعليلاتها في المعجم، ومنها على سبيل المثال تسميات عائلات الرز والكوسا والبرغل والابريق والباعوط، واسم الأسرة الأخيرة هو سرياني لعيد كان يقع نهار الاثنين الذي يلي الفصح، ويعني التضرع والابتهال. كما ان اسم «فتوش» هو عربي عامي محرف عن «الفتوت» وهي أكلة قوامها في الأصل خبز يابس يفت ويعالج بالتوابل والزيت والخضار والسماق والبصل والفجل، ولا يعرف الكاتب شيئاً عن أصولها، إلا أن أشهر من برز منها النائب وزير السياحة الحالي نقولا فتوش.

ولترويكا السلطة في لبنان جذور تاريخية متقاربة كما يبين المعجم، فقد أورد الكاتب استناداً الى معلومات تاريخية موثقة أن رئيس الجمهورية اللبنانية الياس الهراوي هو سليل أسرة سكنت زحلة في البقاع وبسكنتا وأصلها في قرية الهري في شمال لبنان. أما جذورها فهي تعود الى اسم أسرة في العراق هي فخذ من آل زياد. ورئيس مجلس النواب اللبناني نبيه بري (الرقم 2 في الترويكا) اسم اسرته مشترك بين المسلمين الشيعة في جنوب لبنان والمسيحيين في غوسطا وصربا. وهو اسم علم يشبه النسبة، كان لجماعة من عرب البقاع. كما كان اسماً لفخذ من البزون في العراق، وبه عرفت قبيلة كانت تقيم في بادية الشام وباب النيرب في حلب. ولعائلة رئيس مجلس الوزراء اللبناني رفيق الحريري (الرقم 3 في الترويكا) فروع اسلامية شيعية وأخرى سنية. وأصل الاسم عربي يطلق على من يعمل أو يتاجر بالحرير. والأرجح ان مصدرها يعود الى قرية حرير القريبة من البصرة ويقال أن جد هذه الأسرة هو الشيخ علي بن أبي حسن الحريري الذي هاجر من حرير الى الشام وتزوج هناك

ونمت له ذرية توزعت على حماة وحوران وحلب. وآل الحريري الذين ينتسب اليهم الرئيس الحريري أصولهم حلبية».

من مقال عن (معجم أسماء الأسر في لبنان) ـ سناء الجاك وجريدة الشرق الأوسط 25 ـ 2 ـ 1997».



العروبة العرقية البدوية الرومانتيكية!

المفكر والناقد جورج طرابيشي يورد لنا مقاطع من طروحات (زكي الأرسوزي) أحد مفكري ومؤسسي التيار القومي «البعثي». ونكتشف من خلال ذلك مدى تطرف وسذاجة الطروحات القومية العرقية التي غرقت في «الرومانسية السياسية» وقرأ ت التاريخ من وجهة نظر قومية بل حتى قبائلية بدوية، الى حد احتقار جميع فترات وجوانب التاريخ الحضاري لشعوب المنطقة:

❖ وفي نص آخر يحدد فيلسوف «الأصالة الرحمانية» هوية أولئك الدخلاء و «الأغيار» و«الهجناء» بمزيد من الوضوح فيقول :

«ما إن نفد الدم العربي في الفتوحات وفي الاختلاف على مشروعية الحكم حتى تجرأ هجين، وهو المأمون على انتهاك حرمة بلاد العرب واحتلال عاصمة بلادهم بغداد بجيش من خؤولته من صعاليك إيران. وقام هجين آخر، وهو المعتصم بنقل العاصمة من بغداد الى سامراء، كي يحرر بني خؤولته، أوغاد تركستان، من رعاية العرب. وعندئذ أخذ العرب يتقلصون عن المدن آوين الى الأرياف. وعندئذ أخذ الدخلاء والهجناء والرعاع يطغون على سطح الحياة. وما إن طغى الأغيار على البيئة العربية حتى زاغت قيم الحياة الأصيلة عن محورها بحيث بدا الميل سوياً».

ومن الممكن تحديد دراما الانحطاط أو «الانحراف» عند الأرسوزي بأنها النقلة المزامنة لتحول العرب من الجاهلية الى الاسلام، من «العروبة» الى «العجمة»، لا بالمعنى العرقي للكلمة، فحسب، بل بالمعنى اللغوي أيضاً وأساساً. فخروج العربي الى العالم حاملاً رسالة الاسلام لتبرئة «الشعوب من آثامها» قد اضطر هذا العربي إياه الى مخالطة هذه الشعوب فاتحاً أمامها باب «الاستعراب» وزاجاً نفسه في وهدة «الاستعجام». ومن هنا كانت الخسارة مضاعفة. فـ «استعجام»

العربي قد أخرجه عن محور شخصيته أي عن حقيقته كما كانت تتجلى في العصر البطولي الجاهلي مما استتبع «انحلالاً» في لسانه، هذا اللسان الذي «به يتلخص بنيان الأمة» ومنه يستمد أبناؤها «مصدر كينونتهم» والذي بانقطاعه عن «أرومته» بل عن «رحمه» الأولى انقطع عن «نسغه» المغذي فأمسى «كالورقة التي قطعت عن غصنها فجفت وتناثرت في مهب الرياح». وفي الجبهة المقابلة جاء «استعراب» الأعجمي «الدخيل» ليوصل مأساة العربي «الأصيل» الى ذروتها. فـ «المستعربون»، الذين تطفلوا «كالبرغش» على دين العربي ولسانه معاً أتقنوا العربية من «خارج حدسها» بدون أن يكون في مكنتهم بحكم قدرهم البيولوجي ان جاز التعبير أن يتصلوا بها «اتصالاً رحمانياً» وبدون أن تكون لهم «بمثابة الأنسجة من الكائن الحي» و«الأم من مهجة كبدها».

وعلى هذا النحو بقي مثل هؤلاء «المستعربين» من اللسان الذي استعاروه مثل «الأمة المشتقة» من «الأمة الأصيلة» فبدلاً من أن يكون كيانهم ولسانهم شيئاً واحداً، وبدلاً من أن توحي كلماتهم بحقيقتهم، بقيت الكلمة عندهم «دلالية واصطلاحية يلتصق بها المعنى عرضاً مثلما تلجأ الروح المتشردة الى الجثة فتستوحش منها».

إنه لا يرى للعرب من مخرج من مأزق «الانحطاط» و «الانحلال» و «الانحراف» إلاّ بالعودة عن كل التراث الذي خلفه هؤلاء «الدخلاء»، وبالتطهر من كل السموم التي أفرزوها والتي أمست بمثابة «ظلف» أو «قرمة» ميتة تمنع تدفق النسغ الحي في الجسم العربي. وحتى يستعيد هذا الجسم قابليته للحياة، وقدرته على الإبداع، فلا بد له من تحقيق عودة مثلثة الأبعاد الى الوراء كطريق وحيد الى النهوض، أو «البعث» كما يؤثر فيلسوف «الرحمانية» أن يقول:

الارتداد زمنياً الى الجاهلية باعتبارها عصر العرب البطولي الذهبي:

ـ «أي عهد من تاريخنا انبلج في المثل الأعلى عن طبيعة أمتنا كقرارة لها وأمنية كما انبلج في الجاهلية؟ ونحن بالعودة الى جاهليتنا نلتقي مع أصول الثقافة الحديثة، الأصول التي تقوم على الاعتقاد بأن النفس تنطوي على مقوماتها، على عقل يؤهلها لمعرفة الحقيقة ووجدان ينير لها سبيل المعرفة. وفضلاً عن ذلك إننا لنتحاشى بهذه العودة ما أورثنا التاريخ من حزازات بين المذاهب والأديان».

الارتداد عن الحضارة المكتسبة الكاذبة الى البداوة الفطرية الأصيلة. فـ «البدوي حارس العروبة» كما يقول العنوان البليغ الدلالة لمقال كتبه داعية البعث الرحماني عام 1965 يعارض فيه «تحضير البدو»:

ـ «إن ابن البادية لا يمثل الأصالة فحسب، بل إنه العنصر الذي تقوم عليه ملاءمة الأمة العربية للمراحل التاريخية التالية.. إن كل نهضة عربية أصيلة قامت على ساعد أهل البادية.. أعتقد أن الخطأ كل الخطأ في الرأي القائل بتحضير البدو، ففي تحضير البدو إخضاع الأمة العربية للأراجيف التاريخية».

من كتاب «مذبحة التراث ـ جورج طرابيشي ـ ص 21ـ23».

طبعاً إن آثار وتطبيقات هذا الفهم القومي العنصري المحتقر للآخر وللذات الوطنية التاريخية كان ولا زال السبب الأول في جميع كوارث المنطقة وتمزق شعوبها وانعزال أنظمتها. هنا نموذج بسيط للتطبيقات السياسية لهذا الفهم العرقي :

❖ تهجير وتعريب!

أخطرت سلطات صدام 700 عائلة من أهالي خانقين بضرورة تغيير قوميتها من كردية الى عربية، وخاصة عشيرة الكاكائي التي أصبح اسمها البياتي أو الطائي، وكانت هذه السلطات قد رحلت 700 عائلة ممن لها أبناء في كردستان أو خارج العراق.

المشرف على عمليات التهجير والتعريب في جولتها الراهنة هو روكان التكريتي.

(جريدة المؤتمر العراقية 7ـ3ـ1997– لندن) .



وحدة «المشرق» في فكر انطون سعادة والحزب القومي السوري

إن المفكر (أنطون سعادة) زعيم الحزب القومي السوري يُعتبر من الرواد الأوائل الذين أكدوا على أن الأرض والبيئة والجغرافية هي التي تصنع «الأمة» وليس العكس كما هو شائع لدى القوميين العرب الذين تبنوا الفكرة القومية الألمانية التي تؤكد على أن «العرق واللغة» هي التي تصنع الوطن والأمة. بالنسبة لأنطون سعادة إن الوطن السوري يعني «الهلال الخصيب» أي سوريا والعراق ولبنان والأردن وفلسطين بالاضافة الى الكويت التي اعتبرها جزءاً من العراق. وأكد في جميع كتاباته أن الأرض السورية صهرت العديد من الشعوب والأقوام والجماعات في الحضارة السورية الممتدة منذ آلاف السنين.

رغم اعجابنا بشخصية (أنطون سعادة) واتفاقنا مع فكرته عن الانتماء للأرض وليس للعرق، وعن التقارب الخاص بين بلدان «المشرق» وغيرها من الأمور، إلا أننا نختلف أيضاً في أمور أساسية مثل :

1 ـ إطلاقه تسمية سوريا على منطقة المشرق (الهلال الخصيب) وهذا اختيار غير عملي لأن هناك دولة واقعية اسمها (سوريا) ومن الصعب على أبناء بلدان المشرق تبرير ادعائهم حمل اسم سوريا. وقد أثبتت التجربة أن هذا كان اختياراً غير واقعي. ونعتقد أن تسمية (المشرق) الأكثر واقعية ومقبولية.

2 ــ أن الحزب القومي السوري لم يختلف عن باقي الأحزاب القومية في الاعتقاد بأن (الحدود مصطنعة) وتكوين (تنظيم قومي حزبي شامل) من أجل قيادة النشاطات ضد (الحدود المصطنعة) وغيرها من الأمور. أننا نعتقد أنه من الضروري التخلي عن فكرة (الحدود المصطنعة) ويتوجب الاعتراف بخصوصية كل بلد مشرقي وعربي مع الدعوة الى التقارب والتوحد على الطريقة الأوروبية والتخلي كذلك عن فكرة «التنظيم القومي الموحد». وبدل ذلك خلق تيار فكري سياسي تنتمي اليه مختلف الأحزاب المتشابهة على طريقة الأحزاب الشيوعية والأحزاب الاسلامية والأحزاب الليبرالية. كل مجموعة من هذه الأحزاب تجتمع وتنسق مع بعضها كتيار واحد، ولكن من دون تكوين قيادة موحدة وفروع «قطرية» تابعة!

3ـ لقد فشل الحزب القومي السوري بتحديد موقف واضح من الطروحات القومية العروبية التي سيطرت على الساحة، إذ تأرجح موقفه بين العنصرية ضد العرب أو التطبيل والتزمير للعروبة والوحدة العروبية. ولم يتمكن الحزب من اتخاذ موقف عقلاني يؤكد على ضرورة التقارب والتوحد أولاً بين بلدان المشرق العربي ثم التقارب والتوحد بين الأقاليم (العربية) المختلفة: المغرب والنيل والجزيرة العربية.

4ــ ان انطون سعادة والحزب القومي السوري لهم الريادة بطرح فكرة الجمع بين المادية والروحية تحت اسم (المدرحية). لكنهم للأسف فشلوا بتطوير هذه الفكرة الأصيلة وضاعوا بالطروحات المقتبسة نصاً من الفلاسفة الغربيين، وترهلت هذه الفكرة مع الزمن حتى تم تناسيها تماماً ونحن نعتقد أن هذه الفكرة هي مستقبل الفكر الانساني ويمكن تطويرها وتعميقها (راجع الفصل الأول من هذا الكتاب).

هذه مقاطع عن مفهوم القومية لدى المفكر (أنطون سعادة) من (نشوء الأمم) والذي يُعتبر من أفضل كتبه ويستحق إعادة القراءة، وقد أصدره عام 1938 :

❖ «إن الأمة من الوجهة السلالية أو من وجهة الأصل، هي مركب أو مزيج معين كالمركبات الكيماوية التي يتميز كل مركب منها بعناصره وبنسبة بعضها الى البعض الآخر. وهذه الأمة السورية. فأي أصل واحد لها؟ أهو الأصل الكنعاني (الفينيقي)، والكنعانيون جاؤوا طبقة فوق طبقة أهل العصر الحجري، أم الأموري أم الحثي أم الآرامي (الكلداني)؟ أو ليست سورية مزيجاً أو مركباً معيناً من هذه الشعوب مضافاً اليها العرب بعد الاسلام وغيرهم. واذا أخذنا الوجهة الانثروبولوجية من الأصل السوري وجدنا أنه كذلك مزيج من مفلطحي الرؤوس ومعتدليها ومستطيليها كما أثبتت ذلك الأبحاث الانثروبولوجية. وكما سنسهب ذلك في الكتاب الثاني. قد رأينا أن فرنسا لا تختلف عن سورية وايطاليا بهذا الصدد. واذا وجهنا نظرنا الى انكلترا والجزر البريطانية عموماً فاننا نجد الحالة نفسها من المزيج ففي انكلترا وحدها شعبا «الانكليز والسكسون» ثم ما جاءهم من رومان، وهؤلاء الأخيرون كان لهم التأثير في تغيير لغة الانكليز حتى أصبحت لاتينية أكثر منها جرمانية، حتى أنشد تنسون «من نرمان وسكسون ودنمركيين نحن».

وماذا نقول في ألمانيا. أليست هي خليط من نحو ثلاث سلالات اثروبولوجية وتختلف اشكالها السلالية في الشمال والجنوب والوسط. مع كل ما يعني هنالك عن نقاوة الدم الآري؟ وهذه أميركا أمامنا فأية وحدة سلالية، تاريخية، أو أنثروبولوجية لها؟ أليست الولايات المتحدة خليطاً من انكليز وألمان وإرلنديين وطليان وسوريين وفرنسيين وأسوجيين... الخ. والبرازيل أليست هي خليط من برتغاليين وسوريين وألمان وطليان وزنوج وهنود أصليين واسبان. وعلى هذا قس أية أمة أميركية أخرى. أكرر أن الأصل الانساني الوحيد للأمة هو وحدة الحياة على تعاقب الأجيال وهي الوحدة التي تتم دورتها ضمن القطر. المزيج المتجانس أصل كاف للأمة وهذا المزيج هو ما يعبر عنه أحياناً بلفظة السلالة.

لا أمة على الإطلاق بدون قطر معين محدود. أما ما ذهب اليه اسرائيل زنويل Israel Zangwill من أن الشعب اليهودي تمكن من الاحتفاظ بنفسه بدون بلاد فمن الأغلاط الاجتماعية الفاضحة، فاليهود قد احتفظوا بيهوديتهم الجامدة من حيث هم مذهب ديني. وقد أكسبهم دينهم الشخصي عصبية لا تلتبس بالعصبية القومية إلا على البسطاء والمغرضين.

اليهود ليسوا أمة أكثر مما هم سلالة (وهم ليسوا سلالة مطلقاً)، إنهم كنيس وثقافة. لا يمكننا أن نسمي اليهود أمة أكثر مما يمكننا أن نسمي المسلمين أمة والمسيحيين أمة أو السنيين أمة أو الشيعة أمة والأرثودكس والكاثوليك أمة الخ. ولجميع هذه المذاهب عصبياتها وتقاليدها التي تتميز بها. الأمة تجد أساسها قبل كل شيء آخر في وحدة أرضية معينة تتفاعل معها جماعة من الناس وتشتبك وتتحد ضمنها.

لعل سورية أفضل مثال للبيئة التي تصهر الجماعات المختلفة النازلة بها وتحولها الى مزاج واحد وشخصية واحدة. فنحن نعلم أن سورية كانت مأهولة في العصر الحجري المتوسط، كما دلت البقايا المكتشفة في فلسطين، وأنها على الأرجح مصدر الثقافة المغالثية. ونعلم أيضاً أن جماعات شمالية كالحثيين وغيرهم قطعت رؤوس طورس وهبطت سورية لتلتقي فيها بالجماعات الجنوبية الخارجة من الصحراء فتمتزج هذه الجماعات كلها وما أضيف اليها مما جاء من الغرب كالفلسطينيين بعضها بالبعض الآخر وببقايا جماعات العصر الحجري وتكون مزيجاً خاصاً. ومع أننا نتمكن بالأدلة الرأسية والدموية من تقصي مختلف السلالات الموجودة حالياً في سورية فإننا نرى لها كلها طابع البيئة الخاص الذي يكسبها تشابهاً قوياً وتجانساً شديداً.

أما حيث تكون النفسيات الداخلة في لغة جديدة قوية فإنها تفعل في اللغة وتكسبها من نفسياتها وتوجيهها في التعبير عن احتياجاتها ومثلها العليا شأن السوريين في اللغة العربية فانهم أخذوها عن الفاتحين العرب ولكنهم نقلوا الى هذه اللغة علومهم وأدبهم ومجاري فكرهم فأصبحت اللغة العربية لغتهم القومية تسيطر نفسيتهم ومواهبهم فيها في بيئتهم وتجاوزها. وان من الأسئلة التي تنبه الفكر الى هذه الحقيقة: ماذا كانت تكون الثقافة العربية لولا ما نقله السوريون من السريانية واليونانية الى اللغة العربية؟».

من كتاب «نشوء الأمم ـ أنطون سعادة ـ ص 154ـ160».



الخوف الاسرائيلي من ادعاء الفلسطينيين بديمومة تاريخهم وأصالتهم في أرض فلسطين

نورد هنا نص مقالة نشرها كاتب اسرائيلي معروف. من خلال هذه المقالة نكتشف مدى الأهمية التي يمنحها الاسرائيليون لفكرة إيمان الفلسطينيين بديمومة جذورهم الوطنية في أرض فلسطين منذ الكنعانيين «على الأقل». والغريب أننا نكتشف من خلال هذه المقالة أن دعوة الفلسطينيين بجذورهم الكنعانية قديمة وتعود الى العشرينات، ولكن يبدو أن الاجتياح القومي الاسلامي خنق هذا الادعاء الفلسطيني باسم الأصل العربي الاسلامي!

❖ «اطلاع الجمهور الاسرائيلي على الادعاء العربي ـ الفلسطيني بأن عرب هذه البلاد هم ورثة وأحفاد الكنعانيين حدث في هذه الأيام إلا أن الادعاء نفسه قديم جداً فمنذ العشرينات كانت القيادة العربية الفلسطينية قد ذكرت هذه المسألة من خلال أطروحاتها الموجهة للبريطانيين، كما انها ذكرت في سلسلة مقالات صحافية في حينه. والغرض من هذا الادعاء هو البرهنة على أن عرب البلاد قد سبقوا أبناء اسرائيل الذين غزوا البلاد من الخارج. وهذا الادعاء يتضمن اشكاليات كثيرة فان كان الفلسطينيون هم أحفاد الكنعانيين فما هي علاقتهم وارتباطهم بالشعوب العربية الأخرى من أحفاد المحتلين الذين انطلقوا لاحتلال الشرق الأوسط وشمال افريقيا تحت لواء الاسلام قبل عدة قرون؟ من أجل التغلب على هذه المشكلة ادعو أن شعوب كنعان القديمة مثلهم مثل العمالقة والعموريون كانوا عرباً. لماذا؟ لأنهم تحدثوا بلغات سامية وما هو المغزى من ذلك أن العربية الأدبية ــ كما يدعون بروحية النظريات المتقادمة من القرن التاسع عشر ــ هي أم اللغات السامية، عليه فان كل الناطقين باللغات السامية يتحدثون لغات في اساسها عربية. من الصعب ايجاد تواصل في الواقع التاريخي الذي سبق الاسلام والذي تشكل الوثنية محتواه الديني. وهذا الأمر يعتبر مساساً خطيراً في نظر الاسلام للتاريخ اذ ينظر الى الوثنية التي سبقته على أنها «جهل» لا يتوجب التعامل معه بإيجاب.

المفكرون الاسلاميون بدورهم عارضوا بشدة كل محاولة لخلق تواصل انساني وطني بين العرب الحديثين وبين الشعوب الوثنية القديمة وقد نجحوا بالفعل في القضاء على التوجهات من هذا القبيل من جذورها. عليه فقد خشي الفلسطينيون وارتدعوا من استخدام الادعاء

بكنعانيتهم بشكل كبير واكتفوا بالادعاء الأكثر جدية بحقهم في البلاد لكونهم يشكلون أغلبية فيها. درويش مقدادي معلم وكاتب فلسطيني انتقل للعراق وجلب معه هذه النظرية اذ كانت قد جرت هناك محاولات مختلفة لبلورة وتوطيد هوية وطنية عراقية تقوم على التواصل مع البابليين العرب وصولاً الى العراقيين المعاصرين.

كثيرون من العرب المسيحيين لم يرتدعوا بالمرة عن الادعاء بكنعانيتهم. في لبنان ومصر ظهرت توجهات ونظريات فينيقية وفرعونية بالنسبة للهويات الوطنية اللبنانية والمصرية التي لا يوجد لها علاقة مع القومية العربية إلا أن طابعها المناهض للعرب والإسلام جعل الأغلبية الساحقة من الجماهير ترفضها. وفي أوساط الفلسطينيين واصل مسيحيون مختلفون ترديد الادعاء بكنعانتيهم وبالتدريج انتشر ذلك واستوعب ليصبح مقبولاً من كل الجمهور العربي الفلسطيني وكل طفل عربي أصبح يدرس عنه في المدرسة. ومن خلال فعلتهم هذه يقوم الفلسطينيون بغض النظر عن مشكلة أكثر جدية بالنسبة للادعاء بكنعانيتهم. فهم لا يتطرقون لمسألة اللغة التي تحدث بها الكنعانيون والتي استخدمها الكتاب المتدينون والعلمانيون. وفي أوساط الجماهير العربية هناك اجماع على أن اللغة المشتركة تشكل أساساً لتحديد وبلورة الهوية الوطنية. وهكذا يجعل العرب حسب وجهة نظرهم أمة واحدة ستقوم في المستقبل دولة واحدة موحدة بفضل لغتها العربية. وبناء على ذلك نجد أننا إن قمنا بتجديد الكنعانيين حسب لغتهم ودققنا في هوية ورثتهم لا نجد شيئاً يستجيب لتوقعات الفلسطينيين بالضبط.

لغة كتابات ميشع ملك مؤاب وخرصي السامري وجبل صور في لبنان وغيرها من الوثائق والرسائل المكتشفة في البلاد هي نفس لغة التوراة وهناك من يسمونها العبرية التوراتية والبعض الآخر يسميها السامية الغربية والواضح هو أن العربية المكتوبة نابعة منها أو تشكل تواصلاً لها وإن كان للكنعانية ورثة فهي العبرية الاسرائيلية الحديثة.

الفلسطينيون يتجاهلون الكتابة التي استخدمتها نيفي الكنعانية وهي نفس الكتابة التي وردت بالعبرية وتظهر بشكل تواصل في الكتابات الكنعانية والصيداوية المختلفة وفي كتاب الأحكام كذلك، وهي نفس الكتابة العبرية القديمة التي استبدلها المنفيون الى بابل بالكتابة الآرامية (الآشورية).

انعدام الجدية في محاولة ابراز كنعانية الفلسطينيين الأمر الذي لا يلغي قيمتها فحتى الأمور اللامنطقية والسخيفة التي تعتقد بها الجماهير تتحول الى عامل آيديولوجي يؤثر على المواقف السياسية الملموسة وإن قام الجمهور الفلسطيني فعلاً بهضم الادعاء بأصوله الكنعانية وعلم

أي لغة استخدموها وما هي اللغة الحديثة التي ورثها فإن ذلك قد يقلص من درجة عدائهم لجيرانهم الذين ينطقون بالعبرية، الورثة الفعليين للغة الكنعانية.

ولربما عرف جمهورنا أيضاً أن العبرية التي ينطق بها ليست الا «لغة كنعان» وعندما تنبأ يشعياهو النبي بانتصار أبناء اسرائيل على مصر قال: «في ذلك اليوم ستكون خمس مدن في بلاد مصر تتحدث بلغة كنعان وتدين بالولاء لجنودها».

لغتنا هي لغة كنعان ويريد العرب الفلسطينيون الاعتقاد بأنهم أحفاد كنعانيون فهل يمكن ان يطل وينبثق من هذه المسألة حل جديد ثوري للصراع الدائر هنا منذ قرن من الزمان، وهل يمكن ان تكون النبوءة العبرية الوطنية لكل من ع. ج. حورون وأوري الشلح (يوناتان رطوش) واهارون أمير عوزي اورنان هذه النبوءة التي تنفي بنفس الدرجة اليهودية الصهيونية والعربية بالاسلامية مرتبطة بالواقع أكثر مما اعتقدنا بشأنها؟

يهوشع فورات (معاريف) 1996/9/5

عن جريدة القدس اللندنية 6ـ9ـ1996



مشروع لخدمة منطقة المشرق

هذا مثال بسيط على المشاريع المشتركة التي يمكن تنفيذها في المنطقة من دون تلك الخطابات الوحدوية الرنانة والفارغة:

هذه فكرة مشروع لفتح قنال بين البحر المتوسط (الساحل السوري) مروراً بالصحراء السورية والعراقية حتى الخليج العربي ليصب بالقرب من ميناء أم قصر.

صفات المشروع بشكل عام

1 ـ العرض 600ـ800 متر. يكوّن بحيرات مالحة في بعض المناطق المنخفضة.

2 ـ العمق 100ـ200 متر تحت مستوى سطح البحر لتحمل سفن حمولة تزيد عن 100.000 طن.

3 ـ موانىء تجارية وسياحية.

4 ـ مجمعات سياحية وسكنية.

5 ـ طريق محاذ وجسور حسب الحاجة.

6 ـ خطوط خضراء من الأشجار على جانبي القنال بعمق مئات الأمتار على كل جانب كمرحلة أولى ثم تتزايد لتكون خطوطاً خضراء حقيقية بعمق عدة كيلومترات.

أهداف المشروع

1 ــ اقتصادية تجارية لسورية والعراق حيث يلغي القنال في حال انجازه دور قناة السويس ويحقق للعراق منافذ مباشرة للتصدير والاستيراد البحري. كما ان مرور القنال من الغرب وحتى أقصى الجنوب سيحقق فوائد مالية وزمنية عملية ويختصر من دور أساطيل النقل البري التي تمر من تركيا أو الأردن أو أقصى جنوب العراق.

2 ـ سياحية : تظهر نشرات الاحصاء الدولية ان للسياحة دوراً كبيراً في تحقيق عائدات مالية للكثير من بلدان العالم وتظهر الدراسات ان دور السياحة سيتعاظم في القرن المقبل ليضاهي أو يتجاوز دخل البترول للدول المصدرة لهذه المادة من هنا لا بد من التركيز على هذا الجانب باعتبار ان حالة المناخ في الصحراء الغربية في العراق تساعد على انشاء السياحة الشتوية ومن الممكن في حال انشاء المشروع تحويل الصحراء الى مركز عالمي سياحي شتوي مهم لجذب السياح على أن يرتبط ذلك باقامة اتفاقية بين البلدين لتسهيل مرور الأشخاص على جانبي الحدود دون عوائق.

3 ـ اصلاحية صحية : انشاء الخطوط الخضراء على جانبي القنال يساعد على تثبيت رمال الصحراء وزيادة كمية الأمطار وايجاد مساحات زراعية جديدة فضلاً عن زيادة الثروة السمكية في القنال أو البحيرات المتكونة منه ، بمعنى آخر فتح الباب جدياً لاستصلاح الصحراء وتغيير المناخ بدرجة كبيرة في المنطقة.

4 ـ ايجاد مجمعات سكنية جديدة وتوفير المزيد من فرص العمل للقرن المقبل واستيعاب الزيادة السكانية.

تكاليف المشروع وامكانيات البلدين

بوسائل التكنلوجيا المتوفرة وبامكانيات البلدين وربما باستخدام طاقات الجيشين (السوري والعراقي) لا تتعدى تكاليف المشروع عدة مليارات من الدولارات وعلى مدى 5 ـ8 سنوات اذا جرى العمل ليلاً ونهاراً.

وباختصار فالمشروع فكرة عامة وتتطلب الكثير من المناقشات السياسية والقانونية والفنية ولكن انجازه سيكون مفيداً للغاية لكل من سورية والعراق ولنبدأ من الآن.

جواد كاظم خلف/ عراقي
مهندس زراعي/ فرنسا

جريدة القدس 4ـ4ـ1997

الفصل الرابع

تجديد الهوية التاريخية

للشعوب «العربية»

- التصالح مع الميراث القبلاسلامي
- المانوية .. نموذج لتاريخنا المسروق
- مقترحات لتوحيد تاريخنا الممزق
- ترجمة التراث العربي الى العربية
- ملاحق معلوماتية عن العربية والسامية وأصول شعوب المنطقة وتاريخ التعريب

الميراث القبلاسلامي ومستوجبات التصالح معه

إن معظم خطوات الإصلاح التي قامت بها النهضة الأوروبية للتخلص من ظلامية العصور الوسطى هي خطوة تصالح الفكر المسيحي الأوروبي المهيمن مع الميراث قبل المسيحي (الاغريقي والروماني) الذي كان مندثراً خلال العصور الوسطى، لولا دور العرب في نقله والحفاظ عليه. وصل الأمر الآن بالأوروبيين أنه حتى المؤمن الكاهن المسيحي صار يبدو له طبيعياً الشعور بالانتماء للتراث الاغريقي والروماني والسلتي والجرماني، وبنفس الوقت الانتماء للتراث المسيحي بحيث أن الأوروبي مهما كان متديناً أو علمانياً تراه يقرأ ويدرس الانجيل وكتب القديسين مع كتب الإغريق والرومان وباقي التراث المحلي الأوروبي.

أما نحن لسوء حظنا لم نشاهد من أوربا والحداثة غير جانبها التقني التجديدي والمستقبلي. انزلقنا في وهم الفصام بين التراث والحداثة. فعلنا بالضبط عكس الأوروبيين، فشلنا تماماً في توحيد أجزاء تاريخنا وماضينا وتراثنا ولم نخلق حداثتنا الخاصة والأصيلة والمستفيدة من حداثة أوربا. قمنا بتشتيت ماضينا الى تواريخ وميراثات متعددة ومتناقضة: إسلامية وجاهلية وقومية وقطرية تعصمنا في رؤية التاريخ والتراث حتى استحالت تياراتنا الفكرية والسياسية في داخل البلد الواحد أشبه بشعوب مختلفة الأصول والأوطان لها تواريخها وتراثها وتقاليدها. إنها تتناقض حتى بالمنطق والجغرافيا واللغة والفنون والآداب وتقاليد المأكل والمشرب والملبس وجميع تفاصيل الحياة:

- ❖ التيار القومي والتيار الديني تبنّيا التاريخ العربي الاسلامي مع بعض التنوعات في تقييم الأحداث والمعاني الدينية واختلاف الموقف من مسألة التحديث. ويتفق التياران على اعتبار التاريخ الوحيد الذي يستحق التقديس والانتماء هو التاريخ العربي الاسلامي المنبثق بعد القرن السابع الميلادي. وأن التاريخ السابق ثانوي وهش التأثير لأنه «جاهلي» بالنسبة للاسلاميين، وقطري وغير وحدوي وغير عربي بالنسبة للقوميين.
- ❖ التيار الليبرالي والتيار اليساري اتفقا على تجاهل الماضي العربي الاسلامي باسم عالمية الحداثة وضد التعصب القومي والتفرقة الدينية. اعتقدا برؤية للوجود تعتمد المنطق الغربي (ماركسي أو ليبرالي) بالتأكيد على رؤية الحاضر وحده من اجل التجديد المستقبلي الاشتراكي أو الليبرالي.

❖ بين هذه التيارات الرئيسية، هناك ما سمي بالتيارات القطرية التي رفضت التاريخ العربي الاسلامي وتبنت تاريخ ماقبلاسلامي «الوطني»: الفرعونية المصرية والآشورية العراقية والفينيقية اللبنانية والسامية القومية السورية، وصولاً الى القرطاجية والبربرية المغاربية.

في هذا السياق يمكن اعتبار الرؤية الصهيونية النموذج الأكثر تطرفاً في استثمار هذه الانفصامية العربية. لقد قطعت الصهيونية تاريخ فلسطين وألغت الحقبة ما قبل اليهودية ثم الحقب التالية: المسيحية الآرامية، والاسلامية العربية باعتبارها تواريخ عابرة وغزوات أجنبية، وأن الحقبة اليهودية السالفة هي الديمومة الوحيدة لتاريخ فلسطين!

إن تخلخل القواسم التاريخية المشتركة بين تياراتنا العقلية المتنوعة أدى باستمرار الى احتدام التوتر الاجتماعي السياسي وهيمنة العنف وهوس التدمير الذاتي بسبب مسخ شخصية الفرد والمجتمع وتمزق الهوية الوطنية والروحية. يبدو أن الشعوب كالأفراد، الانفصام في رؤية الماضي والتاريخ يؤدي دوماً الى انفصام في الروح والعقل. الانسان السوي هو الانسان العارف والمعترف بتاريخه وماضيه والقادر على خلق الانسجام مع ذاته الموروثة بمحاسنها ومساوئها.

إن سر جبروت أوربا يكمن في قوة ثقتها بذاتها التاريخية وبالتالي انسجامها العالي مع حاضرها. جميع تيارات أوربا المتصارعة حداثية ومحافظة، علمانية ودينية، قطرية ووحدوية، يسارية ويمينية، قد اتفقت على رؤية شمولية مشتركة وموحدة ومنسجمة إزاء تاريخها وتراثها وتقاليدها، مع حرية الاختلاف في تفاصيل الأحداث وتقييمها سلباً أو ايجاباً.

ديمومة الأرض وديمومة التاريخ

يحكى أن الاسكندر المقدوني عندما احتل بلاد النهرين ودخل بابل (326 ق.م)، أعجبته خصوبة الأرض وعطاء النهرين وفخامة الحضارة، لكنه مقت سكان البلاد وميلهم الى التمرد. سأل مستشاره الحكيم عن رأيه بجلب عوائل جنوده الاغريق وتوطينهم بلاد النهرين ليسهل حكمها. لكن الحكيم اعترض قائلاً: «لو جلبت اغريق ووطنتهم هنا لا محال بعد أعوام سيطبعون بمناخ البلاد وأرضها ونهريها وثمارها وسيمتزجون بناسها وتاريخها ويكتسبون عاداتها، ولا محال في النهاية سيتشابهون مع سكان البلاد بطباعهم وعقليتهم ويفقدون أصلهم الاغريقي». وهذه الحكاية لها شواهد تاريخية مماثلة تثبت صحة منطقها. فالاغريق في بلاد الشام صاروا سوريين واستقلوا عن بلاد الاغريق وكونوا السلالة السلوقية (بين 300 ــ

30ق.م)، وفي مصر حدث نفس الشيء مع سلالة البطالسة. ومن تاريخنا العربي يمكن أن نأخذ مثال بلاد الأندلس التي استقلت عن باقي العالم العربي ـ الاسلامي وكونت حضارتها العربية ذات الخصوصية والاستقلالية الأندلسية (الاسبانية). يمكن ايراد أمثلة كثيرة عن ديمومة الخصوصيات التاريخية لكل بلد ومنطقة جيوسياسية مهما تنوعت واختلفت الحضارات والشعوب التي تتوالى على حكمها.

وبهذا المعنى إن القبائل العربية التي خرجت من الجزيرة حاملة لواء العروبة والاسلام قد فقدت خصوصيتها العرقية وبنيتها القبائلية ودخلت في تاريخ وتراث ودماء شعوب الأوطان التي حلت بها.

السؤال المهم الذي يطرح نفسه في هذا السياق: لماذا هناك بلدان فتحها العرب اعتنقت الاسلام ولكنها لم تتعرب، مثل ايران والسند وأفغانستان وأواسط آسيا التركستانية؛ بينما هنالك شعوب اعتنقت الاسلام وتعربت وهي الشعوب العربية الحالية، بل هناك بعض المجموعات قد قبلت التعرب دون أن تدخل الاسلام مثل الاقباط الحاليين وبعض الطوائف المسيحية وغير المسيحية في المشرق العربي (العراق وبلدان الشام)؟

لماذا ايران بقيت ايرانية بينما العراق صار عربياً؟ هل هذا يعني لأن ايران كانت وظلت مسكونة بالعنصر الايراني، بينما العراق: إما أنه كان أرض قاحلة خالية من البشر (التاريخ يقول العكس) وقد عمرها العرب، وإما أنها كانت مثل ايران معمرة بالملايين من الرافديين أحفاد السومرين والبابليين والآشوريين مع جاليات عديدة يهودية وفارسية واغريقية وحورية وغيرها، ولكن العرب بقدرة قادر أبادوا بدنياً جميع هؤلاء السكان وحّلوا محلهم!! هل من المعقول أن تكون الأقليات المسيحية السريانية القاطنة حالياً في شمال العراق (نينوى) هي كل ما تبقى أحياء من تلك الملايين من العراقيين القدماء؟ وهل هذا يعني أن جميع الناطقين بالعربية في العراق ينتمون الى العنصر العربي وهم فعلاً منحدرون من القبائل العربية التي نزحت من الجزيرة؟

التاريخ يخبرنا أن القبائل العربية كانت أقلية فعالة ومهيمنة سياسياً وثقافياً ودينياً تمكنت خلال قرون طويلة أن تصهر في داخلها الأغلبية الرافدية وعربتها من خلال التزاوج والاسلام واللغة العربية. في ايران حدث العكس أن الأقلية العربية اضطرت الى الذوبان ثقافياً وبدنياً في العنصر الايراني رغم نجاحها في فرض الاسلام وجزء من التأثير الثقافي واللغوي العربي، وقد حدث نفس الشيء مع الشعوب الآرية والتركستانية. يمكن تحديد العوامل التالية التي أدت الى التعريب:

أولاً : الوحدة الجغرافية :

إن السبب الأول الذي سهل عملية تعريب البلدان العربية الحالية هو التقارب العقلي والبشري بين القبائل العربية وسكان هذه البلدان. الناظر لتاريخ المنطقة يكتشف أن هذه الأرض الشاسعة التي يتكون منها العالم العربي الحالي كانت متصلة ببعضها منذ القدم: من خلال ساحل البحر المتوسط المنفصل عن أوربا بجبال طوروس شمال سوريا والممتد الى مصر وليبيا وتونس حتى جبال الأطلس في الغرب. يضاف الى السواحل أيضاً الصحراء الممتدة من جنوب الجزيرة العربية مروراً ببادية الشام وسيناء حتى الصحراء الكبرى في شمال افريقيا. على امتداد هذه السواحل والصحارى ظلت شعوب المنطقة وقبائلها وتجارها وغزاتها يتنقلون ويتمازجون ويؤثرون ببعضهم بعضاً منذ فجر التاريخ. ليس صدفة أن جميع المؤرخين اضطروا للاتفاق منذ عدة أعوام على الاعتراف بالوحدة اللغوية بين من سمّوا بالشعوب السامية والشعوب الحامية (المصرية البربرية النوبية)، وأطلقوا على لغاتهم تسمية العائلة «الإفريقية ــ الآسيوية». بل زاد الآن أتباع الفرضية القائلة بأن الجماعات السامية قد قدمت من شمال افريقيا عبر مصر، بعد عملية التصحر التي حدثت في المنطقة (بحدود 6000 ق.م)، والتي سبقت التصحر الذي حدث في المشرق والجزيرة العربية. ظلت الهجرات والامتزاجات مستمرة خصوصاً من القسم الآسيوي الى القسم الافريقي، منها هجرات الشاميين المستمرة الى مصر، ومنهم الفينيقيون الى تونس وشمال افريقيا. ان مراحل التقارب والتوحد بين شعوب المنطقة وصلت الى نضجها بانبثاق المسيحية التي نجحت تماماً بتحقيق الوحدة الدينية الروحية بين شعوب المنطقة من اليمن حتى المغرب. لكن هذه المسيحية تأخرت عن تحقيق الوحدة السياسية الثقافية بسبب تبني الامبراطورية الرومانية ثم البيزنطية لهذا الدين وبالتالي منعهم لأن يكون عاملاً للثورة السياسية. ولقد جاء الاسلام والتعريب في هذا الوقت بالذات ليلبي الضرورة التي تأخرت عنها المسيحية. على هذا الأساس يمكننا الافتراض انه لو لم تنبثق الموجة العربية الاسلامية وتوحد المنطقة ثقافياً وسياسياً، لكان من المحتم ان تنبثق موجة غيرها تقوم بنفس عملية التوحيد، ربما الأقباط، أو البربر، أو السريان.

ثانياً : التنظيم القبائلي :

بدأ سكان المشرق بالتحالف والموالاة مع القبائل العربية المهيمنة من خلال تقليد الحلف والموالاة المعروف لدى العرب والساميين. وهذا يعني حمل أسماء العشائر المهيمنة لضمان حمايتها بعد الدخول في الدين الاسلامي.

لقد اطلق العرب تسمية «مولى ـ موالي» على السكان الأصليين الذين دخلوا الاسلام وتعربوا. فيقال عن «فلان» انه من «موالي بني تغلب» مثلاً، ولن تزول صفة «مولى» عن الشخص والجماعة إلا بعد بضعة أجيال، ليصبح بعدها تميمياً أو تنوخياً أو قريشياً، الخ، وينسى أنه كان مشرقياً آرامياً أو عبرياً أو تركمانياً أو رومانياً أو اغريقياً أو كردياً ثم أصبح عربياً بواسطة الموالاة والتحالف.

عندما نقرأ تاريخ الحضارة العربية في دمشق وبغداد نكتشف أن معظم شخصيات «العرب» هم من «الموالي» مثل موسى بن نصير والحسن البصري وأبو نواس والجاحظ والمتنبي وغيلان الدمشقي ومقاتل بن حيان النبطي، وغيرهم وغيرهم. هؤلاء بالحقيقة من أهل العراق وسورية الذين انتمت عشائرهم وقراهم بالموالاة الى إحدى القبائل العربية. بل حتى الأشخاص الذين يحملون ألقاباً عربية مثل التميمي والقريشي وغيرها، هناك احتمال كبير أن يكون أصلهم من الموالي (أي السكان الأصليين) الذين حملوا لقباً عربياً لمجرد تمشية الأمور، خصوصاً وأن حمل الألقاب في تلك الأزمان أمر سهل لا يقتضي أية وثائق أو إثباتات، وهناك حكايات كثيرة تسرد مثل هذه الحالات. يبدو أن الكثير من السكان الأصليين الذين لم يدخلوا في موالاة إحدى القبائل العربية، التجأوا الى حمل ألقاب غير قبائلية، بل نسبة الى المدينة أو المهنة أو الصفة المعروفة، مثل: «المتنبي» أو «الحموي» أو «الماوردي ـ ماء الورد» وغيرها.

إن عاملاً مهماً لعب دوراً في تسريع عملية التعريب، وهو زواج المحاربين والمستوطنين العرب بنساء المناطق المفتوحة. ولنا مثال على هذا، ان معظم الخلفاء الأمويين وخصوصاً العباسيين كانوا من أمهات غير عربيات أي من (الإماء) وهن بمعظمهن من نساء العراق والشام، بالاضافة الى نساء من البربر والاقباط والأكراد والفرس والروم والتركمان. لقد استغرقت عملية الأسلمة والتعريب هذه عدة قرون، بل المصادر التاريخية تذكر أن الكثير من أرياف العراق والشام ظلت على مسيحيتها ولغتها السريانية (النبطية) حتى بعد قرون عدة من الفتح العربي.

من دون أي مبالغة وبكلام علمي دقيق، نقول أن تنظيم القبيلة العربية من الانفتاح والسعة بحيث يمكن مقارنته بتنظيم (الحزب السياسي) في العصر الحديث من حيث انفتاحه وتقبله كل الراغبين من مختلف الجماعات والأفراد التي تود الدخول فيه وتطلب حمايته، لأن عملية الكسب هذه تقوي القبيلة وتزيد من هيبتها وعدد رجالها ومحاربيها وتضمن الحماية للجماعات المنتمية اليها.

إن نظام الانتماء والكسب هذا المسمى بنظام (الحلف والموالاة) ظل سائداً بين القبائل والقرى في المشرق حتى أواسط القرن الحالي، حيث تفرض عشيرة قوية هيمنتها على عشائر وقرى المنطقة تحت راية شيخ محارب واسم قبائلي مشترك، ومع مرور الزمن والأجيال يسود الجميع الاعتقاد بأنهم منحدرون من أصل واحد وسلف أسطوري مشترك. يمكن ذكر أمثلة كثيرة من العراق الحديث مثل «حلف المنتفك» و« حلف بني لام» و«حلف البو محمد» في وسط وجنوب العراق. الملاحظ هنا ان بعض التحالفات القبائلية كانت تضم أيضاً جماعات عراقية ليست بالضرورة أن تكون آرامية نبطية أو عربية، بل كذلك جماعات مشرقية أخرى مثل الأكراد والفيلية والتركمان، الممتزجين والمتزاوجين مع العرب، وهذه حالة بعض أقسام من قبائل البيات والقيسية وربيعة والجبور.

يمكن الاستشهاد بمثال قبيلة (البيات) العراقية، المنتشرة فروعها من شمال العراق الموصل وكركوك مروراً ببغداد وديالى ثم واسط والحلة، ومركزها في الخالص. هذه القبيلة لعبت دوراً أساسياً في جميع أحداث العراق في العصر العثماني. البيات يعتقدون بانتسابهم الى قبيلة (آل ربيعة) التي تنتسب بدورها الى بني طي. لكن هذه القبيلة تحتوي على معظم تنوعات الشعب العراقي: التركمان والأكراد والفيلية بالاضافة الى العرب. كما يذكر الباحث (فرحان سعيد)، فإن قبيلة البيات «مخلوطة من العرب وغيرهم، وان كثيراً من أفراد القبائل التي كانت تطاردهم السلطات التركية، قد انضموا الى البيات، حتى اصبح عددهم 10000 كوخ وخيمة...» إن مثل هذا الاختلاط في القبيلة الواحدة لا يخص البيات إنما جميع القبائل العراقية (نفس الشيء بالنسبة لباقي العالم العربي). ويضيف الباحث: «إن هذا الأمر ينطبق على غالبية العشائر العربية في العراق، فالعشيرة تتألف عادة من العرب (الأقحاح!) ومن الحلفاء الذين ينضمون اليها ... والواقع أن العشائر المعاصرة لا تضم وحدة دموية متجانسة إنما هي مجموعة من البطون المتحالفة والمندمجة بعضها ببعض... التي جمعتها المصالح المشتركة والتضامن ...». (آل ربيعة الطائيون ـ فرحان سعيد ص317).

وآل ربيعة الطائية الذين ينتسب اليهم البيات، كانوا يحكمون منطقة ممتدة من حلب وحماة والأردن وفلسطين حتى حدود بغداد، ومقرهم قرب مدينة (عانة) العراقية، وأميرهم «أبو ريشة» لقب بملك العرب. وينتسب الى آل ربيعة ثلاثون عشيرة كبرى في العراق والشام، وكل عشيرة لها عشائر تنتسب لها، كل واحد من هذه العشائر الفرعية لها عشائر أيضاً تحتمي بها

وتحمل اسمها، وهكذا دواليك بحيث أن الباحث بأنساب العشائر يضيع لا محالة في مسميات وادعاءات وتشابه أسماء وألقاب تجعل من المستحيل التصديق بحقيقة أي ادعاء قبائلي. وتدحض ما يسمى بـ «علم أنساب العرب». إن تفاصيل تاريخ العشائر العربية الحالية في المشرق تكشف لنا ان هذه القبائل لم تستوعب في داخلها فقط الجماعات المشرقية السريانية بل حتى الجماعات اليهودية والكردية والفارسية والتركمانية والافريقية والاغريقية وغيرها، أي مختلف الجماعات القديمة والجديدة المستوطنة في المشرق.

ثالثاً: الفتوحات

يمكننا أن نضيف الى عملية التعريب بالحلف والموالاة هذه ما يمكن تسميته بـ «عملية التعريب بالوساطة»، أي تعريب المناطق الجديدة عن طريق توطين جماعات غير عربية أصلاً، ولكن تم تعريبها قبل توطينها في المناطق الجديدة. يمكن أن نستشهد على هذه الحالة بدور المشارقة في تعريب مصر وشمال افريقيا ثم الاندلس. من المعروف أن بلدان المشرق هي التي أصبحت موطن التعريب بعد أن أصبحت موطن الامبراطورية العربية الاسلامية في دمشق أولاً ثم في بغداد. ان الكثير من سكان المشرق تطوعوا في الجيوش العربية طمعاً بالامتيازات ومغانم الفتوحات. ثم أن العرب ما كانوا متمرسين بأمور التقنيات الحضارية والحربية والادارية فاضطروا للاعتماد على أهل المشرق في بناء دولتهم وجيوشهم وأساطيلهم. على هذا الأساس فان الفتوحات تمت بواسطة جيوش وبحارة وإداريين وحرفيين معظمهم من سكان المشرق الأصليين (سريان بأكثرهم وكذلك يهود وأكراد وتركمان وأرمن واغريق ورومان وغيرهم). لكن هؤلاء المشارقة عندما وصلوا الى البلدان المفتوحة حلوا فيها على أساس أنهم «عرب» لأنهم كانوا مسلمين وناطقين بالعربية وقادمين من عواصم الحضارة العربية الاسلامية. لهذا فإنهم قاموا بدورهم في تعريب البلدان المفتوحة ونقلوا اليها الحضارة المشرقية المغطاة بالاسلام واللغة العربية. ولنا مثل واضح جداً هو دور الجماعات البربرية المغربية في تعريب بلاد الأندلس بالتكاتف مع الجماعات السورية التي قادت الدولة الأموية في الأندلس. والطريف أن هذه الجماعات المسلمة (السورية البربرية اليهودية الاسبانية) عندما هربت الى المغرب بعد سقوط الاندلس، لعبت دوراً مهماً في إتمام تعريب بلدان المغرب! من هذا يمكن تشبيه عملية التعريب التي جرت في البلدان العربية أشبه بـ «الكرة الثلجية» التي تكبر وتكبر كلما تدحرجت أكثر.

رابعاً : الميراث المسيحي :

إن الدور التاريخي الكبير الذي قامت به القبائل العربية وهي تحمل رسالة التوحيد والوحدة باسم الاسلام واللغة العربية ، كان من المنطقي أيضاً أن تقوم به سابقاً الديانة اليهودية أو المسيحية. لكن اليهودية تجربة أولية ظلت أسيرة انتمائها القبلي الضيق وحدودها العنصرية العبرانية. ويمكن القول أن المسيحية هي محاولة أكثر نضجاً لكسر محدودية اليهودية وإعطائها الطابع القومي الشامل لشعوب المنطقة. نجحت المسيحية أن تكون تقريباً الدين الرسمي للأغلبية الساحقة من شعوب المنطقة العربية الحالية من نجران اليمن حتى الكوفة والشام ومصر وشمال افريقيا. حتى العراق الخاضع للفرس الزرادشتيين صار بأغلبيته مسيحياً نسطورياً. التاريخ لن ينسى أن أسلافنا هم من صنع المسيحية وفرضها بدم التضحية على امبراطوريات أوربا وشعوبها. ولكن هذا الدين عجز عن تحقيق الوحدة الروحية والسياسية لشعوب المنطقة بسبب اصطدامه بقوة الهيمنة المادية والروحية الاغريقية ـ الرومانية. ربما هذا يفسر اقبال قادة الدولة والفكر من الرومان والاغريق البيزنطيين (كذلك الفرس ولكن بدرجة أقل) على تبني المسيحية بسبب احساسهم بأن هذا الدين أخذ يتحول الى ايديولوجيا وروح خاصة بشعوب الضفة الشرقية من البحر المتوسط. لقد نجح الرومان والاغريق فعلاً من خلال تبنيهم للمسيحية ان يطيلوا أمد سيطرتهم وبقائهم في المنطقة ، وبالتالي إضعاف أسباب التحرر والتقارب بين شعوبها. ولكن المسيحية بعد اليهودية كانت الخطوة المهمة والممهدة لما قام به الإسلام والعرب في القرن السابع. وهذا بالضبط الذي دفع الاسلام أن يعتبر نفسه ديناً مصححاً ومتمماً لليهودية والمسيحية وجميع أديان المنطقة. وأن يكون العرب الموحدين والدامجين للشعوب السامية ـ الحامية التي سبقتهم.

يمكن تشبيه ما قام به الرومان والاغريق بتبنيهم المسيحية ، بما قام به الأتراك العثمانيون بتبنيهم للاسلام الذي ساعدهم في الهيمنة على المنطقة العربية لقرون عدة. كما أتى الاسلام كقوة روحية مضادة للهيمنة الأجنبية الممارسة باسم المسيحية ، كذلك أتت الحركة القومية العربية كقوة ايديولوجية مضادة للهيمنة التركية العثمانية الممارسة باسم الاسلام. لهذا فان الاسلام لم يأت ضد المسيحية ، بل اعتبر نفسه متمماً لها ومنقذاً لشعوبها من الهيمنة الاجنبية والمانح لها قوة قومية جديدة. هذا يفسر الاقبال السريع على الاسلام والتعريب من قبل هذه الشعوب ، كأنها أدركت بسابقتها التاريخية و (لا وعيها الجمعي)

وفي أعماقها الموروثة تلك الحاجة الى التوحد والتمايز عن جيرانها من شعوب آسيا وأفريقيا وغرب البحر المتوسط.

من هذا يحق لنا الاعتقاد انه من المنافي للحقيقة التاريخية القول أن أجدادنا الذين شيدوا الحضارة العربية الاسلامية هم من العرب الأقحاح وتاريخهم يبتدىء من عصر الفتح العربي الاسلامي. الشعوب العربية والحضارة العربية الاسلامية هي نتاج حضارات جميع الشعوب الأصلية التي امتزجت وذابت بالأقلية العربية التي سيطرت بعد الفتح.

المانوية .. نموذج لتاريخنا المسروق

تعتبر (المانوية) واحدة من أبرز الأمثلة على التغريب والتشويه اللذين تمت بهما كتابة تاريخ المنطقة العربية، خصوصاً بالنسبة إلى الحقبة «الآرامية السريانية» التي وحدت ثقافياً ولغوياً العراق والشام (بلاد الهلال الخصيب) خلال الألف عام التي سبقت الفتح العربي الإسلامي. ومن المثير للعجب إتفاق جميع المؤرخين العرب والأجانب على اعتبار «المانوية» ديناً آرياً فارسياً رغم جميع الشواهد التي تدحض تماماً مثل هذا الرأي، وتبين بصورة قاطعة أن هذا الدين عراقي الموطن مؤسسه رجل بابلي، واللغة التي نطق وكتب بها هي السريانية، لغة أهل العراق والشام خلال عدة قرون قبل الفتح العربي، والتراث الديني الذي نهل منه هو التراث السامي: البابلي العرفاني المسيحي.

يبدو أن السبب الأول لهذا التشويه التاريخي مرتبط بالفكرة الخاطئة التي تعتبر أجنبياً كل تراث الحقبة التي سبقت الفتح العربي الإسلامي، فهو تراث فارسي فيما يخص العراق، وإغريقي روماني فيما يخص الشام ومصر وشمال أفريقيا. لأنه خلال هذه الحقبة كانت المنطقة خاضعة للسيطرة الفارسية بالنسبة إلى العراق، والإغريقية الرومانية بالنسبة إلى باقي المنطقة. إن التشويه الذي تعرض له تاريخ (المانوية) مثال ساطع على التجاهل والتشويه الشاملين اللذين تعرضت لهما جميع تفاصيل التراث السابق للفتح العربي: التراث العرفاني (الغنوصي) واليهودي والمسيحي والصابئي والمانوي والهرمزي، كذلك جميع الابداعات الثقافية واللغوية والحضارية في مجالات الفنون والعلوم والفلسفة واللغات والآداب السريانية والقبطية. إذ تم احتساب تراث هذه الحقبة على تراث الدول التي كانت مسيطرة على المنطقة.

بعد سقوط بابل في (539) قبل الميلاد على يد الفرس الأخمينيين بسط الإيرانيون نفوذهم على بلاد النهرين حتى القرن السابع، أي ما يقرب من 11 قرناً. تخلل هذه الحقبة ثورات وتمردات فاشلة قام بها العراقيون، بالإضافة إلى حروب طاحنة بين الإيرانيين من جهة والاغريق والرومان من جهة ثانية للسيطرة على العراق. وقد تمكن الاغريق والرومان من انتزاع العراق من الفرس عدة مرات وفرض سيطرتهم عليه مدة عقود وقرون متقطعة، لينتزعه الفرس منهم من جديد. وهذه الحقبة تشبه إلى حد بعيد الحقبة التي أعقبت سقوط الدولة العباسية ونشوب الصراع بين الأتراك والفرس للسيطرة على العراق.

ظروف نشوء المانوية

خلال هذه القرون الطويلة تمكن أهل النهرين من الحفاظ على هويتهم السكانية والثقافية والدينية المتميزة عن إيران. وظل الانتماء السامي هو السائد وظلت اللغة الآرامية أولاً ثم فرعها السرياني منتشرين بين العراقيين، بل ان العراقيين فرضوا لغتهم السريانية لتكون لغة الثقافة الأولى في الامبراطورية الإيرانية نفسها بحيث فضلت اللغة الفارسية (البهلوية) استعمال الأبجدية السريانية، والتخلي عن نظام الكتابة المسمارية الذي سبق ان اقتبسوه أيضاً من أهل النهرين. ثم إن العراقيين ظلوا بعيدين عن الإيمان بالدين الزرادشتي الذي كان الدين القومي والرسمي للايرانيين. حافظ العراقيون على ديانتهم السامية ــ البابلية الموروثة والقائمة على عبادة الآلهة الممثلة للكواكب وقوى الطبيعة والمنقسمة عموماً إلى ثنائية قوى الخير والنور وقوى الشر والظلام. علماً أن هذه الثنائية البابلية هي التي اثرت في الإيرانيين وديانتهم الزرادشتية، وليس العكس كما توهم عادة المؤرخون. كان هناك ايضاً تواجد مهم لطوائف يهودية نشطة في انحاء النهرين منذ جلبهم من فلسطين على يد الكلدانيين. ومع انبثاق المسيحية في بلاد الشام في القرن الأول الميلادي، بدأت بالتدريج تتسرب الى العراق من القسم الشمالي (الرها ونصيبين) ثم نينوى وكرخاسلوخ (الاسم السرياني لكركوك الحالية) حتى ولاية بابل ومنها الى ولاية ميسان في الجنوب (وكانت تشمل كذلك البصرة والأهواز). وكانت هذه المسيحية مصحوبة بتيارات عرفانية غنوصية وهرمزية صوفية قادمة من الشام ومصر مع بعض التأثيرات الإغريقية. وبدأت تتشكل طوائف مسيحية عدة في شمال ووسط بلاد النهرين، بالإضافة الى الصابئة في الجنوب الذين مزجوا المسيحية بالعرفانية مع أصول الدين البابلي.

ديانة عراقية

في مثل تلك الظروف السائدة في العراق في القرن الثالث الميلادي نشأ الدين المانوي، حيث اشتق من اسم رجل بابلي أعلن النبوة يدعى (ماني). جميع المصادر التاريخية فارسية وعربية وغربية تتفق على القصة التالية لسيرة هذا النبي: «ولد ماني عام 216 ميلادي في احدى قرى ولاية بابل وكان دينه بابلي (وثني)، وفي سن الرابعة رحل أبوه إلى احدى قرى ولاية ميسان في جنوب العراق. هناك نشأ (ماني) على الدين الصابئي. وفي سن الشباب أخذ (ماني) يتنقل

في أنحاء النهرين واستقر في بابل. أعلن (ماني) نبوته وتكوينه للدين (المانوي) الذي انتشر خلال أقل من قرن من الصين حتى أسبانيا وبلاد الغال...» (لمزيد من التفاصيل راجع الموسوعة الكونية الفرنسية ـ جزء 11ـ ص646).

لكن مشكلة تحديد هوية هذا الدين وصانعه (ماني)، تبدأ عند الحديث عن الشعب والحضارة اللذين ينتمي إليهما. بكل بساطة تم اعتباره إيرانياً فارسياً لأنه ظهر في بلاد النهرين عندما كانت تابعة للأمبراطورية الايرانية. مثلما تم اعتبار المسيح وتراث المسيحية جزءاً من تاريخ روما، لأن المسيحية نشأت في الشام في ظل السيطرة الرومانية!

جميع تفاصيل تاريخ المانوية تثبت بلا جدال عراقية هذا الدين وعلاقته المباشرة بما سبق وبما لحق من تاريخ العراق الفكري والديني حتى نهاية العصر العباسي. ويمكن تقديم المبررات التالية للبرهان علي هذه الحقيقة:

1ـ ثمة تبرير عرقي فارسي طالما تمسك به المؤرخون الإيرانيون والعرب والأجانب قائم على الشك بأن النبي (ماني) ربما يعود بأصوله من ناحية أمه أو أبيه الى الفرس وبالذات إلى العائلة الملكية الأخمينية. لكن جميع الشواهد التاريخية تثبت أن هذا النبي ينتمي عرقياً بصورة أكيدة الى سكان العراق. قد يمكن الافتراض أن أمه فارسية، لكن بعض المصادر تذكر ان اسمها «مريم». أما أبوه فلا يمكن أن يكون فارسياً، وذلك لعدة أسباب: أن اسمه (فاتك)، وهذا الاسم لا يمكن أن يكون فارسياً لأنه اسم سامي عراقي، (من فعل فَتَكَ) ومستخدم حتى الآن في العراق. ثم إن اسم (ماني) هو ايضاً ليس اسماً فارسياً إنما هو اسم سامي كذلك لفظه العربي (أماني) وهو من (التمني) واللقب الذي كان يُعرف به هو (ماني حيا) أي (ماني الحي)، ومنه أتى المصطلح اللاتيني لهذا الدين (Manicheisme) أي (ماني ـ حيا ـ سيم).

2ــ إن الزرادشتية كانت الدين القومي لجميع الايرانيين، بينما عائلة (ماني) مثل باقي العراقيين كانت على الديانة البابلية أولاً عندما كانت تقطن بابل، ثم بعد الاستقرار في ميسان اعتنقت هذه العائلة الديانة الصابئية، وهي طائفة منتشرة حتى الآن في جنوب العراق ـ بما فيه الأهوازـ، ثم إن جميع الباحثين يعترفون بأن علاقة المانوية بالزرادشتية ضئيلة جداً، ولم تدخل بعض التسميات الإيرانية إلى المانوية إلا بعد انتشارها في إيران وترجمة كتب (ماني) السريانية باللغة البهلوية. علماً أن المانوية قد اقتبست الكثير من

المسميات من جميع الشعوب التي وصلتها، فمثلاً في آسيا والصين أطلق (ماني) على نفسه لقب (بوذا الحي). وغدا واضحاً أن المانوية كانت متأثرة أساساً بالدين المسيحي وبالذات بالأفكار الثنوية للقديس السرياني (بن ديصان) الذي دعا إلى نوع من المسيحية الثنوية، بالاضافة الى المعتقدات البابلية والسامية السائدة. لقد استخدم (ماني) أساساً اسماء ملائكة اقتبسها من البيئة السريانية، مثل جبرائيل ورفائيل وميخائيل وإسرائيل، بالاضافة إلى يعقوب نبي العهد القديم. واعتبر (ماني) نفسه خاتم الانبياء والروح القدس التي تحدث عنها المسيح.

إن (الثنوية) التي اعتقدت بها المانوية لم تكن ايرانية، كما تصور خطأ الكثير من المؤرخين، بل هي أساس المعتقدات البابلية والسامية. يكفي معاينة أديان السومريين والساميين لإدراك أن هناك دائماً آلهة للخير والنور بأسماء متنوعة مثل (تموز وبعل وشمش وإيل ومردوخ وآشور) تقابل آلهة الشر مثل (نرجال وأريشكيجال وايراومروت). وثنائية الخير والشر هذه وجدت تعبيرها في الأديان السامية السماوية من خلال مفهوم الله رمز الخلق والخير والنور، والشيطان رمز الشر والخطيئة والظلام. (راجع السواح ــ مغامرة العقل ـ ص197).

3ـ المؤرخون قاطبة يتفقون على أن (ماني) ولد وعاش في بابل وميسان، وكانت لغته الأم ولغة كتبه وإنجيله المعروف هي اللغة السريانية، وقد ترجمت جميع كتبه فيما بعد باللغات الفارسية والتركية (الايغورية) واليونانية واللاتينية والقبطية. وبدأ بنشر دينه أساساً بين سكان النهرين. يمكن الاستشهاد بماني نفسه وهو يحدد بدقة وبعبارة صريحة غير قابلة لسوء الفهم، إنتماءه إلى أرض بابل وتمايز دينه عن باقي الأديان: «إن الحكمة والمناقب لم يزل يأتي بها رسل الله بين زمن وآخر، فكان مجيئها في زمن على يد الرسول (بوذا) إلى بلاد الهند، وفي زمن على يد (زرادشت) الى أرض فارس، وفي زمن على يد (عيسى) إلى أرض المغرب (الشام). ثم نزل هذا الوحي وجاءت النبوة في هذا الزمن الأخير على يديّ أنا (ماني) رسول إله الحق الى أرض بابل ...» (راجع ــ إيران في عهد الساسانيين ــ ص 172). ثم إن الأكثر من كل هذا إصرار (ماني) على جعل بابل مقر الكنيسة الأم ومركز المرجعية الدينية والحوزة العلمية لجميع الطوائف المانوية في العالم، وبقي هذا التقديس الخاص لبابل لدى المانويين حتى نهايتهم بعد ألف عام.

احتقار الحياة

يمكن اعتبار المانوية أساس التصوف، فهي دين (غنوصي ــ عرفاني) متطرف في الزهد والتنسك وتقديس الموت واحتقار ماديات الحياة. قد تكون المانوية التي نشأت في العراق تعبيراً عن ردة فعل سلبية ومتشائمة إزاء الظروف القاسية التي عاشها العراقيون بسبب السيطرة الفارسية وفشل ثوراتهم ودمار النهرين بعد تحول البلد الى ساحة للحروب الدائمة بين الامبراطوريتين الفارسية والرومانية. ثم الشعور بالخيبة والحسرة على ضياع أمجاد بابل القديمة وفقدان الامل بأية قدرة على الخلاص إلا بالزهد وتجنب ملذات الحياة.

الفكرة الاساسية للمانوية يمكن ايرادها باختصار كالتالي: إن الله هو الخير والنور، والشيطان هوالخطيئة والظلام. جميع الأشياء المادية من أرض ونبات وحيوان وأجساد هي جزء من قوى الخطيئة والظلام، وجميع الأشياء الروحية من حلم وعقل وخيال هي جزء من قوى الخير والنور. إذن على الإنسان التواق إلى الخير والخلود في حدائق النور (الجنة) أن يحتقر الجسد وجميع ماديات الوجود، بالامتناع عن: الجنس والخمر واللحم، وتجنب جميع الخطايا. وقد يصل الأمر إلى حد احتقار الحياة ونبذ الجسد وتفضيل الموت من أجل تخليص الروح والنور من سجن الجسد والظلام. واعتبر (ماني) أن روح الانسان المنيرة تتعذب في الجسد، صليب الظلام، مثلما تعذب (عيشو زاهي) (عيسى الزاهي) على صليبه.

إن الخطيئة ترتكب بثلاث وسائل: القلب (النية) والفم (الكلمة) واليد (الفعل). لهذا فإن وصايا (ماني) كانت: «لا ترتكب الخطيئة، لا تنجب، لا تملك، لا تزرع ولا تحصد، لا تأكل لحماً ولا تشرب خمراً». طبعاً مثل هذه الوصايا لا يستوجب تطبيقها من قبل جميع أتباع المانوية إنما فقط من قبل النخبة الدينية المنقسمة إلى أربع مراتب: 12 حواريون، 72 شماسون، 360 عقلاء، ثم الصديقون غير محدودي العدد. أما باقي المجتمع فيطلق عليهم (السماعون) الذين يلتزمون فقط بالصلاة أربع مرات يومياً، والسجود 12 مرة في كل صلاة، والصوم شهر كامل كل عام في نيسان، ودفع العشر والزكاة وتقديم الغذاء للصديقين.

تعتمد المانوية على كتب (ماني) المليئة بالشروحات والحكايات والأساطير المعقدة والمفصلة جداً. الأسطورة المانوية عن تكوين الخليقة تشبه إلى حد بعيد الأسطورة السومرية ــ البابلية المعروفة «حينوما عاليش» (حينما عالياً، أو حينما في الأعالي)، لكن أسماء الآلهة السامية القديمة تستبدل بها أسماء سريانية ومسيحية محدثة. مذهب التثليث في المسيحية (الأب والأبن

والروح القدس) يستبدل (ماني) بـه «العظيم الأول» و «أم الحياة»، علماً أن هـذا التثليث موجود في جميع الأديان البابلية والسامية، ولكن بأسماء مختلفة (مثلاً في قصة الخليقة البابلية هناك أبسو ـ الأب، وممو ـ الأبن، وتعامة ـ الأم) (راجع السواح ـ مغامرة العقل). والطريف أن فكرة (تناسخ الأرواح) التي اقتبسها (ماني) من البوذية، حورها تماماً بما يتلاءم مع عقيدته الخاصة. ليس أي انسان يموت تنتقل روحه تلقائياً إلى إنسان آخر، إنما يعتمد ذلك على كونه خاطئاً أم لا. لأن تكرار الحياة يعتبر نوعاً من العقاب. فالإنسان النقي المؤمن تذهب روحه مباشرة إلى حدائق النور جنان الله، أما الإنسان الخاطيء فيعاقبه الله بإنتقال روحه إلى إنسان آخر ليعيش حياة أخرى وأخرى حتى يصبح نقياً ومؤمناً، فيتوقف التناسخ وتذهب روحه إلى جنة الخلود.

تاريخ ماني والمانوية

ولد (ماني) في 14 نيسان (أبريل) عام 216 ميلادية قرب (المدائن) التي كانت مركز ولاية بابل والعاصمة الثانية للأمبراطورية الإيرانية. ولهذا يطلق على هذا النبي لقب (ماني البابلي) ويقول عنه المؤرخون العرب والمسلمون: «نبي الله الذي أتى من بابل» (راجع فهرست ابن النديم).

عندما كان (ماني) في سن الرابعة رحل به والده (فاتك) إلى قرية في ولاية ميسان جنوب العراق. ويبدو أن قرار الرحيل قد اتخذه الأب بعد أن تلقى ثلاث مرات نداءات إلهية بينما كان يتعبد في إحدى المعابد البابلية تدعوه الى الرحيل إلى ميسان وكذلك تجنب الخمرة واللحم والجنس. في ميسان اعتنق (فاتك) دين الصابئة الذين يتكلمون لهجة آرامية قريبة إلى السريانية. وكان هذا الدين سائداً في جنوب العراق قبل هيمنة المسيحية ويسميه العرب كذلك (دين المغتسلة) بسبب تقديسهم لعملية التطهر بالماء. وهو دين مزج بين روحانيات العرفانية والمسيحية (الشامية) مع رموز عبادة الكواكب البابلية، ويرتبط باسم النبي يحيى أو (يوحنا المعمدان) (لمزيد من المعلومات راجع الثقافة الجديدة ـ 248 ـ ص25).

بقي (ماني) صابئياً حتى سن الواحدة والعشرين، بعدها بدأ تأثره مباشرة بالمسيحية وخصوصاً بالتجربة الحياتية للسيد المسيح وعذابات صلبه. وتذكر التقاليد المانوية أنه في سن الرابعة والعشرين، في 23 نيسان 240م تلقى (ماني) رسالة النبوة من الله بواسطة الملاك (توأم ـ توما) على أنه هو (الروح القدس) الذي بشر به النبي عيسى. حينها بدأ

(ماني) يعلن أنه (نبي النور) و (المنير العظيم المبعوث من الله)، نتيجة هذا تم طرده من الطائفة الصابئية.

رحل (ماني) مع أبيه وإثنين من أصحابه إلى بابل، منها قام بأول رحلة عبر بلاد فارس ثم الى الهند وبعدها إلى بالوشستان حيث عاين ودرس الأديان السائدة من زرادشتية وبوذية وهندوسية. بعد عامين (242م) عاد (ماني) إلى ميسان بحرا عبر الخليج. وتذكر المصادر التاريخية أن ثمة قبائل عربية قادمة من عمان كانت متنفذة حينذاك في ميسان تحت سيطرة الحكم الفارسي (راجع ايران في عهد الساسانيين ـ ص75). هناك شاءت الظروف أن يخوض (ماني) تجربة مشهودة مكنته من فرض تأثيره على حاكم ولاية ميسان الفارسي (مهرشام) وكسبه الى جانب المانوية. وكان (مهر شام) هذا ايضاً شقيقاً للأمبراطور الأيراني (شاهبور) حيث توسط لدى أخيه ليسمح لـ (ماني) بنشر دينه دون مضايقة. ومن المعروف عن (ماني) أنه بالاضافة الى شخصيته النبوية فإنه كان طبيباً ونقاشاً ورساماً وكاتباً ومترجماً. وهو النبي الوحيد الذي قام بنفسه بكتابة إنجيله وباقي كتبه المعروفة التي تزيد على سبعة، بينها كتاب مزين برسوم توضيحية ملونة، يعتقد أنها شكلت الأساس الأول لانبثاق فن النمنمة العراقي العربي ثم الفارسي والتركستاني (راجع الموسوعة الكونية ـ المصدر نفسه).

بدأ (ماني) بتكوين كنيسته في بابل وأطلق عليها (كنيسة النور) وانتشرت الكنائس أولاً في بلاد النهرين: ميسان والأهواز وبابل ونينوى وكركوك. لكن (ماني) لم يكتف بحدود النهرين بل اعتبر نفسه (عيسى المخلص للانسانية جمعاء) وأنه (خاتم الأنبياء) ويقول في هذا الخصوص: «ندائي يتجه نحو الغرب وكذلك نحو الشرق، وهو يسمع بجميع اللغات وفي جميع المدن. كنيستي تفوق الكنائس السابقة، لأن تلك الكنائس قد اختيرت لبلدان ومدن محددة، بينما كنيستي أتت لجميع البلدان، وإنجيلي يبتغي جميع الأوطان..» (الموسوعة ـ المصدر نفسه). لهذا بدأ (ماني) يبعث تلامذته (الحواريين) الاثني عشر إلى جميع بقاع الأمبراطوريتين الفارسية والرومانية لنشر الدعوة الجديدة. فبعث أولاً الى الشام ومصر ثلاثة من حوارييه، توما وهرمس وعدي. وخلال أقل من قرن انتشرت المانوية في مختلف بقاع الأرض من شواطىء المحيط الهادي والهند والصين والتبت وسيبريا وتركستان وإيران ثم جميع الضفاف الشرقية للمتوسط حتى إيبريا وإيطاليا وبلاد الغال. لقد وجدت آثار معابد وكتابات ورسوم هذا الدين في جميع هذه البقاع، وأهم الوثائق وجدت في جنوب مصر (الفيوم) مكتوبة باللغة القبطية. يبدو أن المانوية كان لها الانتشار خصوصاً بين الطوائف

المسيحية بسبب علاقتها المباشرة معها . ومن أهم الذين تحدثوا عنها هو القديس (أوغسطين القرطاجي) الذي اعتنقها لعدة سنوات قبل أن يصبح فيلسوف المسيحية الأول.

في تاريخ غير محدود بصورة تامة، بين (274 ـ277) ميلادية تم صلب (ماني) على أحد أبواب مدينة بيت العابات (جندشابور) في الأهواز، تم ذلك بقرار من الامبراطور الفارسي (برهام الأول) لأسباب سياسية طبعاً وبعد تحول (بابل) إلى مركز لدين عالمي واحتمال استعادتها من جديد لأمجادها السابقة وما يشكله هذا من خطر على النفوذ الايراني. كذلك خوف رجال الدين الزرادشتيين الذين نقموا على (ماني) بسبب تأثيره المتزايد. لقد عذب (ماني) وصلب وقطعت أطرافه ثم احرقت جثته ونشر رماده. لكن المانويين ظلوا يعتقدون بصعوده إلى السماء مثل السيد المسيح، ويعتبرون هذا اليوم مقدساً يصومون خلاله ثلاثين يوماً في شهر نيسان.

الضربات التالية تلقتها المانوية على يد الرومان. في عام 445م أعلن البابا (ليون العظيم) قراره بتحريم نشاط المانوية. وفي عام 527م قرر الامبراطور (جوستان) الحكم بالاعدام على جميع أتباع المانوية. لكن الكثير من المؤرخين الأوروبيين يعتقدون أن المانوية ظلت حية في أوربا بأشكال خفية متعددة، خصوصاً بين الطوائف المسيحية السرية المؤمنة بالتصوف والروحانيات والطقوس السحرية والتي تعتمد في إيمانها على الأفكار الثنوية (Ledualisme).

في القرن الخامس حدث أول انشقاق في الكنيسة المانوية، حيث تم انفصال الطوائف المانوية في اسيا الوسطى (تركستان ومنغوليا)، ورفضوا تبعيتهم لكنيسة (بابل) وكونوا كنيستهم القومية. ثم اعقب ذلك انشقاق الكنيسة المانوية في بلاد فارس وذلك بتكوين فرع قومي مستقل عن بابل حمل اسم (المزدكية) نسبة الى مؤسسها (مزدك) الفارسي. يبدو أن هذه الطائفة ابتعدت عن المانوية بالاقتراب أكثر ناحية (الزرادشتية)، مع ميول «ثورية واشتراكية». ربما لهذا السبب خلط معظم المؤرخين المسلمين والعرب بين المانوية (العراقية) والمزدكية (الايرانية)، علماً أن طائفة (المزدكية) أثناء نفوذها في الدولة الايرانية قامت باضطهادات ومذابح معروفة ضد المسيحية والمانوية في بلاد النهرين مما أدى إلى هجرة الكثير من المسيحيين والمانويين العراقيين إلى بلاد تركستان (الصغد) وتكوين جاليات مانوية مسيحية نسطورية نشطت بنشر الثقافة السريانية البابلية.

إن الهروب المستمر للمانوية من العراق والمشرق وخصوصاً أثناء اضطهادات الفترة العباسية أدى إلى تزايدهم في أواسط اسيا التركية المنغولية. في عام 745 كون الأتراك دولتهم

(الأوغرية) على حدود الصين في منغوليا الشمالية. كان أحد ملوكهم يسمى (بوقي خان) اعتنق المانوية وجعلها الدين الرسمي للدولة. من خلالها وصلت المانوية إلى الصين فشيدت المعابد المانوية إلى جانب المعابد البوذية حتى وصلت إلى روسيا وسيبريا. لكن نهاية الدولة التركية الأوغرية عام 817 على يد القرغيز أدى الى نهاية المانوية في آسيا. ويُعتقد أنها استمرت في تركستان الصينية حتى القرن الثالث عشر، ومع اجتياح المغول بقيادة جنكيز خان تم القضاء التام على المانوية. لكن الأثر الكبير الذي تركه هذا الدين في شعوب آسيا يتمثل في تبنيهم للأبجدية المانوية (السريانية) في كتاباتهم الأوغرية التركية، بالإضافة إلى تأثيرات ثقافية ودينية لا تحصى.

الاسلام والمانوية

كانت القبائل السامية (العربية) النازحة قبل الاسلام تندمج طبيعياً مع أهل النهرين وتتبنى الأديان السائدة مثل اليهودية والصابئية والمسيحية والمانوية. يذكر أن عمر بن عدي ملك الحيرة العربي كان من أنصار المانوية وحماتها المعروفين. يتحدث المؤرخ الإسلامي (ابن قتيبة) عن وجود المانوية في مكة قبل الاسلام: «وكانت الزندقة في قريش أخذوها من الحيرة». علماً أن تسمية (زنديق) قد شاعت في الفترة الإسلامية بمعنى (المانوي). لقد اقتبس العرب هذه التسمية من الفرس الذين كانوا منذ قرون يطلقونها على المانوية بمعنى (المنحرفين عن الدين)، وهناك من يعتقد أنها ربما كانت مشتقة من (صديق) السريانية وتعني رجل الدين المانوي (للمزيد من التفاصيل عن المانوية والإسلام، راجع ـ التاريخ الاسلامي ـ فاروق عمر ـ ص 193 ـ 213).

يبدو أن الفتح العربي لم يضعف المانوية بل على العكس منحها بعض الزخم بسبب كثرة اتباع المانوية في العراق بعد هجرة الأعداد الكبيرة منهم من الشاميين والمصريين إلى العراق بعد حكم الاعدام الذي كان قد أصدره الرومان بحقهم. ثم إن الإسلام في أول الأمر لم يكن موقفه واضحاً من المانوية، وقد اعتبرها في البدء من أديان أهل الكتاب. في العصر الأموي تمتع أتباع المانوية ببعض الحرية خصوصاً في زمن الخليفة (الوليد الثاني 743ـ744). وتذكر المصادر العربية أنه بين 754ـ775م كان (إمام الكنيسة المانوية) في أفريقيا هو أبا هلال الديهوري. ومما ساعد على نشاط المانوية في العصر الأموي استخدام الكثير من اتباعها كُتّاباً في الدواوين في العراق بدل المجوس الفرس، وذلك بعد قرار تعريب الدواوين في ولاية الحجاج بن يوسف الثقفي بعد أن كانت باللغة الفارسية. ويبدو أن الاستعانة بأتباع المانوية في الدواوين وسع المجال

أمامهم وركز أهميتهم. (نموذج ساطع لسوء فهم المؤرخين العرب، عندما يستغرب مؤرخ «قومي!» مثل عبد العزيز الدوري هذا التحول نحو المانوية في الدواوين الأموية، لأنه لا يدرك أن الزرادشتيين فرس ولا يتقنون غير الفارسية، أما اتباع المانوية فأنهم عراقيون فكانوا يتقنون العربية القريبة من السريانية، لغتهم الأصلية. ولهذا تم استخدامهم في عملية تعريب الدواوين) (راجع ـ الدوري ـ الجذور التاريخية للشعوبية ـ ص22).

رغم تزايد الاضطهاد ضد المانوية في الفترة العباسية بإسم مكافحة الزندقة والمثنوية والإلحاد والدهرية والمجون، إلا أن أتباعها كانوا نشيطين خصوصاً في المجال الفكري، وشكلوا الحلقات الثقافية التي يطلق عليها «إخوان الصدق» (لاحظ التشابه مع «اخوان الصفا»). ويصف الجاحظ نوعية كتبهم بأنها: «أجود ما تكون ورقاً يكتب عليه بالحبر الأسود البراق ويستجاد له الخط». ويذكر المؤرخون المسلمون أسماء لا تحصى من المثقفين الذين اتهموا بالزندقة (المانوية) في هذه الفترة. (قد يمكن تشبيه تهمة المانوية والزندقة بتهمة الشيوعية والماركسية التي سادت العصر الحديث). وقد شملت هذه التهمة كتاباً وشعراء مثل: صالح ابن عبد القدوس، بشار بن برد، أبو النواس، أبو العتاهية، حماد الراوية، عبد الله بن المقفع .. وغيرهم. وقد حكم بالموت على الكثير من هؤلاء المثقفين بسبب هذه التهمة. وهذا النشاط المانوي دفع الكثير من المثقفين المسلمين إلى تأليف الكتب للرد عليها وتفنيدها، مثل: واصل بن عطاء، الجاحظ، أبو محمد بن الحكم، الجبائي، النوبختي، المسعودي، الرازي، الرقي ... وغيرهم (راجع فاروق عمر ـ المصدر نفسه).

يعتبر الخليفة العباسي (المهدي) (775ـ785)، أول من أعلن الحرب ضد المانوية وجميع التيارات الفكرية المعارضة باسم مكافحة الزندقة، حتى سمي (قصاب الزنادقة). وقد أنشأ من أجل ذلك (ديوان الزنادقة) بقيادة (عريف الزنادقة). وكان اتباع المانوية يجبرون على المثول أمام القاضي، ثم يبصق المتهم على صورة (ماني) ويذبح طائراً، ذلك لأن المانوية تحرم ذبح الحيوان. وفي حالة رفضه التوبة فإنه يحكم بالموت. وقد اوصى المهدي ولده الهادي طالباً منه الاستمرار في محاربة المانوية، قائلاً: «إني رأيت جدك العباس في المنام قلدني سيفين وأمرني بقتل أصحاب الاثنين». وفي أواخر العهد العباسي توسعت تهمة (الزندقة) حتى وصلت على يد الإمام الغزالي الى كل محاولة اجتهادية تخالف المذاهب السلفية وتنحرف عنها في التفسير (راجع فاروق عمر ــ المصدر نفسه). واستمر الاضطهاد وتعاظم مع الخليفة (المقتدر)

(908ـ932)، وحسب (فهرست ابن النديم)، أنه في أواخر القرن العاشر الميلادي قد هبط عدد رموز المانوية في بغداد من 300 شخص إلى 5 أشخاص فقط. بسبب اضطهاد العباسيين اضطر الكثير من اتباع المانوية إلى الهروب من العراق إلى خراسان وكردستان وتركستان (ربما يكون اليزيديون في شمال العراق من بقايا المانوية الذين هربوا من اضطهاد العباسيين).

خاتم الانبياء

من الخصال الكبيرة التي تميز بها الاسلام والمسلمون الأوائل هي القدرة على استيعاب معارف ومعتقدات الشعوب التي بدأ ينتشر بينها الاسلام. فمن المعروف أن الحضارة العربية الإسلامية بنت عظمتها من انفتاحها أولاً على تراث الشعوب التي أسلمت واستعربت، خصوصاً حضارات بلاد النهرين والشام ومصر وشمال أفريقيا. ففي العراق مثلاً، بالإضافة إلى تراث المسيحية النسطورية والصابئية واليهودية، لعبت المانوية دوراً كبيراً في نقل الكثير من المعتقدات البابلية والعرفانية الصوفية إلى الحضارة العربية الإسلامية. يكفي ملاحظة التشابه الكبير بين الفلسفات الإشراقية والصوفية العربية الاسلامية وبين المانوية، ليس صدفة أن التصوف نشأ في حواضر العراق، البصرة والكوفة وبغداد، لأن الكثير من اتباع المانوية الذين تحولوا إلى الاسلام نقلوا معهم معتقداتهم الإشراقية والصوفية البابلية ومزجوها بالإسلام. طبعاً هذا لا ينفي التأثيرات المباشرة للمسيحية والعرفانية الشامية المصرية، بالإضافة إلى المجوسية الإيرانية والأفكار اليونانية. ومن التشابهات الواضحة بين المانوية والإسلام، أن (ماني) ادعى أنه النبي المخلص الذي بشر به المسيح وأنه (خاتم الأنبياء). بالإضافة إلى تشابهات أخرى مثل تحريم الخمر، والصيام 30 يوماً، والوضوء بالماء أو التراب، والركوع أثناء الصلاة، وتفاصيل وصف الجنة والنار ويوم القيامة والحساب وعبور الصراط المستقيم. كذلك وجوب مساهمة أتباع المانوية (السماعين) بدفع جزء من أموالهم (عشر) و(زكاة) لرجال المانويين (الصديقين).

ويمكن الافتراض أن المانوية قد لعبت دوراً مهماً في تكوين الكثير من الطوائف الصوفية والباطنية مثل الاسماعيلية والعلوية والدرزية. أما بالنسبة إلى تشابه المانوية مع المذهب الشيعي فإنها تبدو قوية بحكم انبثاق التشيع في اراض النهرين حيث كانت المانوية نشيطة. إن الكثير من اتباع المانوية (وكذلك النسطوريين) دخلوا المذهب الشيعي بحكم اشتراكهم مع باقي العراقيين في معارضة الحكمين الأموي ثم العباسي. يمكن ملاحظة هذا التشابه في مسألة الأئمة الإثني

عشر (حواريوا ماني كانوا كذلك 12، مثل السيد المسيح). بالإضافة إلى الميول العرفانية والإشراقية في المذهب الشيعي القريبة جداً من إشراقيات المانوية. ثم إن مفهوم «الاستشهاد» وتضحية (ماني) بحياته من أجل خلاص ملته له تشابه كبير مع تبجيل الشيعة لذكرى استشهاد الإمام الحسين (ع) وتضحيته بحياته من أجل تقويم الإسلام. ويبدو أن طقوس الاحتفال بذكرى كربلاء وأيام عاشوراء تتشابه مع طقوس احتفال المانوية بذكرى استشهاد ماني وصلبه، وهذه بدورها لا تبتعد كثيراً عن طقوس الاحتفال بصلب المسيح، وقبلها لدى سكان العراق والشام بذكرى موت تموز (بعل) وعودته إلى حياة الخلود. ثم ان التشابه الأهم من ذلك بين الشيعة والمانوية إختيار (الحلة) ثم (النجف) التي هي جزء من أرض بابل التاريخية لتكون مركز الشيعة في العالم والمنطقة المقدسة ومقر الحوزة العلمية كما اختار المانويون وقبلهم أهل النهرين (بابل) لتكون المركز المقدس لديانة أسلافهم.

مقترحات لتوحيد تاريخنا الممزق

إن التمادي في تجاهل الحضارات القبلاسلامية أثر سلباً وشوه كذلك الرؤية الواقعية للحضارة العربية الاسلامية. جميع المؤرخين العرب والاجانب اتفقوا على القطع التعسفي للأصول الوطنية العريقة للحضارة العربية الاسلامية. بالنسبة لهم أن الجذور الأولى لحضارة العرب لا تتعدى أصول البداوة وشعر المعلقات وسجع الكهان. إذن، فإن كل ما هو غير ذلك فهو أجنبي: الفنون فارسية والتصوف هندي والفلسفة اغريقية!

لقد تناسى هؤلاء المؤرخون حقيقة تزيد اثباتاً بعد كل عام مع تزايد الاكتشافات التاريخية والأثرية، وهي أن الذين صنعوا الحضارة العربية الاسلامية ما هم إلا أحفاد وورثة، بشرياً وحضارياً للشعوب والدول والأديان السابقة، رافدية وفينيقية ومصرية وقرطاجية ويمنية.

في جميع نتاجات الحضارة العربية الاسلامية نجد الاصول الأولى للحضارات السالفة في الدين الاسلامي تكمن في الإرث الروحي والديني لشعوب المنطقة: (اليهودية والمسيحية والأديان والميراثات السامية ـ المصرية ثم الشرقية العالمية). أما بالنسبة للثقافة والفنون والعلوم وأنماط الحياة والإبداعات الجمالية نجد خصوصاً تأثيرات الشعوب السامية الحامية أولاً ثم بعدها التأثيرات الفارسية والآرية والتركية والافريقية. في التصوف الاسلامي هناك أثر الهنود والصينيين ولكن التصوف المسيحي الشرقي وكهان أديرة الصحارى العربية يبقى هو أساس التصوف العربي الاسلامي.

إن أفظع درجات سوء الفهم ومسخ التاريخ تتجلى في تعاملنا مع تاريخ وأصول الفلسفة العربية الاسلامية. إن جميع المؤرخين عرباً وأجانب اتفقوا على اعتبار اصول الفلسفة العربية اغريقية وأوروبية. لأن الاعتقاد السائد أن العقل الشرقي (السامي الحامي العربي) هو بطبعه روحاني وديني ومثالي مخالف لروح المنطق والعقلانية والتفلسف التي هي خصوصيات اغريقية لاتينية أوروبية!

والحقيقة أن تفاصيل التاريخ تبين أن ما يسمى بالفكر والفلسفة الاغريقية هي ليست اغريقية تماماً رغم أنها كتبت باللغة الاغريقية ثم اللاتينية.

لقد اتفق المؤرخون على التمييز بين مرحلتين: أولهما الحضارة الهيلينية التي نشأت في أثينا والجزر الاغريقية قبل الميلاد ببضعة قرون، واعتمدت كثيراً على ما اكتسبته من الحضارات

الشرقية وخصوصاً نظام الابجدية الذي كان ثورة كبرى في الحضارة البشرية ودليل ساطع على منطقية وعقلانية الفكر السامي.

بعد القرن الثالث قبل الميلاد فرض الاغريق وبعدهم الرومان سيطرتهم العسكرية والسياسية على الضفة الشرقية للمتوسط، فتكونت بذلك حضارة وفلسفة جديدة ميزها المؤرخون باسم الحضارة (الهلنستية) أي الحضارة التي نشأت من مزج العقل الاغريقي واللاتيني مع العقل الشرقي السامي الحامي. وازدهرت هذه الحضارة في مدن الساحل الشرقي مثل انطاكيا (السورية) والاسكندرية (المصرية) ثم حران ونصيبين والرها في بلاد النهرين بالاضافة الى قرطاجة والقيروان في شمال افريقيا. أما في بيروت فقد نشأت أكبر المدارس الحقوقية التي أغنت الحضارة الرومانية. وساهم في تأسيس هذه الحضارات الاغريقية اللاتينية من أبناء الشرق فلاسفة ومبدعون من دونهم لا يمكن الحديث عن أي ابداع اغريقي لاتيني: «إفلاطون» المصري مؤسس الأفلاطونية الجديدة، وفاراتوستين القيرواني مكتشف محيط الارض، إنطيوخوس العسقلاني، وسينازيوس الفورنائي الليبي، وسابيوس القيصري الفلسطيني، وأسماء لا تحصى. ويمكن الجزم أن ما يقرب من نصف المبدعين والمفكرين المنسوبين الى الحضارة الاغريقية اللاتينية هم ممن ولدوا وعاشوا في مدن شرق المتوسط وبلاد النهرين. بل هناك أسماء عدة لرجال ساهموا بقيادة الامبراطورية الرومانية ومن أشهرهم الامبراطور المعروف بـ (فيليب العربي) والملكة (جوليا) والاثنان من حمص في سوريا.

ضمن هذا السياق يمكن كذلك التعامل مع تاريخ المسيحية. بكل طيبة شاركنا المؤرخين الأوروبيين خطيئتهم باعتبار المسيحية حالة أجنبية أوروبية منذ البدء. ترانا اتفقنا بصورة عجيبة على اعتبار الجاهلية وعبدة الاصنام هي تراث العرب الوحيد قبل الاسلام، كأن مدينة مكة هي مختصر جغرافي أسطوري لجميع بقاع المنطقة العربية ومدنها وشعوبها! لقد تناسينا أن المسيحية ظلت خلال القرون الثلاثة الأولى ديناً خالصاً لأبناء الضفة الشرقية للبحر المتوسط. قبل مجيء الاسلام كانت المسيحية هي الدين الأول لجميع شعوب المنطقة، من بلاد الشام الى اليمن ومصر وشمال افريقيا. إننا نتناسى أن الصناع الأوائل للفقه المسيحي هم أسلافنا: أوغسطين القرطاجي واريوس الليبي ونسطور ويعقوب الشاميين ومئات من الأسماء السامية ـ الحامية التي صنعت الفكر المسيحي. إن مدرسة الاسكندرية ومعها أنطاكيا ونصيبين والرها وحران هي التي صنعت الوحدة بين الفلسفة والفقه المسيحي أي ما يسمى بالعرفانية

(الغنوصية) مثلما صنعت بغداد والبصرة بعد قرون نفس الوحدة بين الاسلام والفلسفة (المعتزلة والأشعرية). في أنطاكيا عرف «المسيحيون» لأول مرة بهذا الأسم. وفي صور تكونت أول جالية مسيحية. ولم تصبح المسيحية ديناً للأوروبيين، إلا بعد ثلاثة قرون. وما تخلى هؤلاء المحتلون (بيزنط ورومان) عن أديانهم وتبنوا مسيحية الشرق إلا بعد أن فرضت نفسها كحركة فكرية وسياسية تحررية. لولا استيلاء الأوروبيين على المسيحية ربما كانت نجحت في تحقيق هدفها التوحيدي والتحرري لشعوب المنطقة.

الانقطاعات العقلية مع الماضي والحاضر

إن المهمة الجبارة الأولى التي تنتظر انجازها من قبل العقل العربي، تتمثل بإعادة كتابة التاريخ العام للمنطقة العربية ضمن رؤية توحيدية وشمولية تحطم الجدران الانفصامية التي خلفتها الأوهام الدينية والقومية، وفرضتها الهيمنة الأوروبية الغربية.

إن إعادة كتابة تاريخنا الحضاري والسياسي والروحي والديني تتضمن كذلك إعادة النظر بالتاريخ الديني والتاريخ اللغوي، حسب السياق التالي:

أولاً: توحيد الميراث التاريخي

الجانب الأكثر حساسية في هذه القضية يتمثل بذلك التناقض الذي اختلقناه بين التاريخ العربي القومي المشترك بين جميع البلدان العربية إزاء التواريخ الوطنية «القبلاسلامية» الخاصة بكل بلد عربي. لأن الفصل القسري بين التاريخ العربي الاسلامي والتاريخ ما قبلاسلامي ورطنا كذلك في عملية فصل جغرافي قطري بين تواريخ البلدان العربية المتنوعة. بالنسبة لكل مواطن عربي هنالك تاريخ واحد فقط مشترك بين العرب جميعهم هو التاريخ العربي الاسلامي. بالنسبة لغير الشامي فان حضارة الفنيقيين والآراميين تبدو أجنبية وحضارة القرطاجيين تبدو كذلك أجنبية لغير المغاربي. العراقي مثلاً يمكن أن يشعر بالانتماء المشترك مع المغاربي عندما يتحدث عن الفترة العربية الاسلامية، لكن ما إن يتم الحديث عن الحضارة القرطاجية والحضارة البابلية حتى يبدأ الافتراق بين العراقي والمغاربي والانحدار نحو المنافسة الوطنية.

إذن كيف يمكن الجمع بين هذه التواريخ الوطنية المتنوعة؟ كيف يمكننا من ناحية احترام التاريخ الوطني المتميز والخاص بكل بلد عربي، ومن ناحية أخرى وضع كل واحد من هذه التواريخ الخاصة في سياق متكامل ومنسجم رغم التمايزات وحتى التناقضات؟

إن المهمة التي تواجه العرب تتمثل بالعمل على كتابة التاريخ العربي بطريقة تعيد اكتشاف جميع العلاقات التكاملية بين التواريخ الوطنية المختلفة. وهذا يبدأ أولاً باعادة الترابط بين التاريخ العربي الاسلامي والتاريخ ما قبلاسلامي. رد الاعتبار لماضينا وتراثنا الأقدم والأطول زمناً، الممتد جذوره في أعماق وعي الناس وتقاليدهم ومفاهيمهم التي اندمجت في الحضارة العربية الاسلامية.

الأوربي مهما ركز على تاريخه الوطني «القطري» فانه يشعر بالانتماء المشترك لتواريخ جميع الشعوب الأوربية: الاغريقي الروماني الجرماني السلافي. وهذا بالضبط الذي تحتاجه رؤيتنا الى تاريخنا. من حق المصري أن يعتز بتاريخه الفرعوني، لكن هذا لا يتنافى أبداً مع الشعور بالإنتماء المشترك لجميع حضارات المنطقة، كحضارة متكاملة مشتركة بكثير من الخواص الروحية والمادية التي تميزها عن الحضارات الجارة: أوربية وافريقية وآسيوية.

إننا بحاجة الى باحثين في التاريخ والثقافات قادرين على تعقب مراحل التقارب والانصهار بين شعوب وحضارات المنطقة، وصولاً الى المرحلة العربية الكبرى.

يتوجب النظر الى التواريخ الوطنية لكل بلد عربي من خلال هذه الزاوية التطورية المتصاعدة نحو التقارب والتكامل البشري ـ الثقافي.

إن النظرة الشاملة لعموم تاريخ العالم العربي لا تمنع من تقسيم التاريخ المشترك الى تواريخ اقليمية متمايزة مثلما هو الحال عندكتابة التاريخ لعموم منطقة المغرب العربي. على هذا الأساس يمكن كتابة تاريخ الجزيرة العربية، وتاريخ منطقة المشرق العربي (الهلال الخصيب)، وتاريخ منطقة النيل (مصر والسودان)، كل هذا ضمن نظرة شاملة ومتكاملة لعموم التاريخ العربي بجميع مراحله منذ ما قبل الحضارة وحتى الآن.

ثانياً: توحيد الميراث الديني

من المعضلات التي يعاني منها العقل الديني العربي هي معضلة الفصل التعسفي بين الميراث الاسلامي والميراث ماقبلاسلامي. لا زالت النظرة الاسلامية عن الجاهلية والكفرة وعبدة الاصنام والتفسخ الأخلاقي والوحشية هي الطاغية في تعاملنا مع تراثنا القديم. لا زال الاسلامي يزايد على العلماني بالتمسك بالتراث، ولكن العلماني ينسى دائماً أن يسأل الاسلامي عن آلاف الأعوام من التراث الحضاري ما قبلاسلامي. إننا تعودنا أن نتعامل مع هذا التراث بطريقة مشابهة لتعامل الغزاة الأوروبيين مع التراث الامريكي. فتاريخ أمريكا يبدأ يوم «اكتشافها» من قبل هؤلاء الغزاة!

إننا حتى تجاوزنا الحقيقة التي يقرها الاسلام نفسه. فالقرآن الكريم خلا تماماً من هذا الفصل التعسفي والتنكر للماضي. فالقرآن رغم رؤيته الإلهية للتاريخ إلا أنه في حقيقته العميقة لا يتنافى مع الرؤية العلمية العلمانية لتاريخ المنطقة العربية. فالقرآن قد تبنى تراث الأسلاف والأديان والحضارات السابقة، وأكبر مثال على هذا أن النبي محمد صلى الله عليه وسلم اعتبر نفسه وارثاً ومتمماً للأنبياء السابقين، وأن العرب هم أحفاد ابراهيم واسماعيل، وان الاسلام مكمل للأديان الأخرى وعلى الأخص اليهودية والمسيحية. وتم تقديس جميع أنبياء وحكماء الأسلاف بل إن الاسلام قد أضفى القدسية على شخصيات تاريخية غير دينية مثل الاسكندر المقدوني.

إن كان من حق المتدينين والقوميين أن يضفوا القدسية على الحقبة العربية الاسلامية، فليس من الحق والعدل أبداً إنكار آلاف الأعوام من تاريخ وتراث ما قبل الاسلام، وحتى اعتباره أجنبياً ومعادياً لايماننا الديني والقومي. من حق المتدينين أن يؤمنوا بأن هذا التاريخ ما قبلاسلامي غير مقدس، وأن اسلافنا كانوا جاهلين للحقيقة الإلهية، لكن هذا لا يمنع أبداً أن نعترف بالعلاقة بيننا وبين أولئك الأسلاف على أنهم صناع تاريخنا وحضارتنا السالفة.

إن الرؤية التاريخية المنفتحة سوف تكشف لنا عن بعد تاريخي وحضاري للاسلام لا زال مجهولاً بالنسبة لنا. أن الإسلام ما هو إلا وليد طبيعي لتطور التقارب الروحي والثقافي والديني لشعوب المنطقة. التقارب العرقي والديني الذي كان في تصاعد ونمو تدريجي منذ فجر التاريخ.

مثلما اغتصبت الصهيونية منا اليهودية وحورتها لأهدافها الاستعمارية الغربية، كذلك اغتصبت أوربا منا المسيحية وكتبت تاريخها بمعزل عن تاريخنا. إن النظرة الموضوعية للتاريخ ستكشف لنا أن اليهودية هي نتاج طبيعي لتلاقي حضارات شعوب المنطقة: شامية ورافدية ومصرية. اليهودية مرحلة ابتدائية في مجرى تكون روح مشتركة بين هذه الشعوب. تاريخ اليهودية الأسطوري يكشف بشكل واضح عن هذا التلاقي والتمثل: «العبرانيون خرجوا من اور في العراق، وابراهيم تزوج بهاجر المصرية لتكون ام اسماعيل والعرب، وعاش اليهود لاجئين في مصر وصار نبيهم موسى الضابط المصري، ثم كونوا دولتهم في فلسطين وكتبوا تلمودهم في بابل ...». تاريخ اليهودية وكتبهم المقدسة مثال بيّن على الأصول الأولية لعملية التقارب الفكري والروحي بين شعوب المنطقة.

لكن اليهودية، رغم أنها كانت نتاج مشترك لجميع حضارات المنطقة إلا أنها ظلت تجربة أولية وقاصرة بسبب انطوائها القبائلي العبراني. لهذا فان المسيحية قد شكلت مرحلة متقدمة اكثر تطوراً وشمولية من سابقتها اليهودية. لم يعد الله رب للعبرانيين وحدهم بل جعله المسيح رب جميع البشر. حسب الانجيل فإن المسيح قد تمرد وثار ضد طرفين، هما اليهود والرومان. المسيحية أتت ضد العصبية القبلية العبرانية وضد الهيمنة الأجنبية الرومانية.

ضمن هذا السياق يمكن اعتبار الاسلام هو المرحلة الناضجة والمتقدمة التي نجحت في الوصول الى الهدف التوحيدي الذي شقت دربه شعوب المنطقة وتجلى في الأديان السالفة. إن تاريخ الاديان الثلاثة يكشف عن عملية نمو متصاعد نحو الأكمل والأشمل: الأديان المشرقية (العراقية الشامية) والفرعونية صنعت الدين وطورت الأفكار الروحية ... ثم أتت اليهودية التي جمعت بين الثقافتين المشرقية والمصرية وساهمت في توحيد فكرة الإله .. ثم أتت المسيحية التي وحدت الله والبشر .. أما الإسلام فقد وحد الله والبشر والأوطان وصنع حضارة موحدة للدين والثقافة واللغة، أي أنه أكمل تكوين «الأمة».

إن اعتقادنا واحترامنا للاسلام وتاريخه وأصوله هو الدافع لأن ندرس ونتعرف على أديان ومعتقدات ماضينا التي يعترف بها الاسلام ويُعرِّف عليها. لتكون جزءاً من تراثنا ومناهجنا الدراسية وجميع الأديان والميراثات الروحية لأسلافنا: السامية والمصرية واليهودية والمسيحية والصابئية والمانوية واليزيدية وجميع الأديان والمعتقدات الميتة والحية التي صنعتها حضارتنا في بلاد العراق ومصر واليمن والشام وشمال افريقيا. إن أعادة ربط التراث العربي الاسلامي بالتراث الروحي لحضارتنا السالفة سوف يخدم العقل العربي في ناحيتين:

أولهما، أنه يعيد إلينا جزءاً كبيراً من ذلك التراث الذي صنعه أسلافنا خلال آلاف السنين وسلبته منا أوربا وبكل صلافة اعتبرته المصدر الاول لتراثها الفكري. إنه التراث المسيحي الذي سلبته منا أوربا منذ احتلال الرومان والاغريق للضفة الشرقية للبحر المتوسط، رغم ان هذا التراث نشأ ونما خلال قرون في مدن الشرق، الاسكندرية وقرطاجة وإنطاكية ونصيبين وحران وغيرها. ولقد نجحت أوربا بجعله جزءاً أساسياً من تراثها رغم أن جميع القديسين والفقهاء والفلاسفة الذين صنعوا هذا التراث هم من أبناء منطقتنا. ونفس الحالة بالنسبة للتراث اليهودي الذي نجحت أوربا كذلك بسلبه في نهايات القرن الفائت من خلال نشوء الحركة الصهيونية كأداة سياسية فكرية لديمومة الهيمنة الغربية. رغم أن هذا التراث نشأ منذ البداية في المنطقة، بل إن جزءاً مهماً من هذا التراث قد كتب باللغة العربية أثناء الحقبة العربية الاسلامية وخصوصاً

في الأندلس. وصل الأمر بالخطاب الاوروبي الحالي أن يطلق على الفكر الأوربي الحالي تسمية (الفكر اليهودي ـ المسيحي).

أما الناحية الثانية التي ستخدم الفكر الديني العربي، فتتمثل برد الاعتبار لتاريخ وأصول الفكر الاسلامي بالذات. أي نبذ ذلك الوهم السائد بأن الاسلام نشأ أولاً من تراث بدوي جاهلي في مكة والجزيرة وأن باقي أصوله هي أجنبية: فارسية وهندية واغريقية. إن رد الاعتبار للتراث الديني قبلاسلامي سوف يكشف لنا ان الاسلام ما هو إلا خاصة إبداعية لجميع الميراثات الدينية والروحية التي صنعها أبناء المنطقة العربية: العرفانية (الغنوصية) والتصوفية المانوية والمسيحية واليهودية والآداب السريانية والفنون المصرية والفلك البابلي والعلوم الفينيقية والقرطاجية، وغيرها من المصادر المعرفية التي ضختها شعوب المنطقة في الحضارة العربية الاسلامية.

إن اعادة كتابة تراث الاسلام وتاريخ العالم العربي يعني اعادة كتابة تاريخ الحضارة البشرية وخصوصاً تاريخ شعوب البحر المتوسط. وان انعتاقنا من الرؤية التقطيعية والانفصامية لتاريخنا هو انعتاق من هيمنة الرؤية التمركزية الأوروبية.

ثالثاً: توحيد الميراث اللغوي

العربية وأصولها السامية ـ الحامية

مكتشفات العصر الحديث التاريخية أثبتت بصورة جلية على أن اللغة العربية هي جزء من تلك العائلة اللغوية الكبرى المسماة «العائلة السامية ـ الحامية(*)». وعائلة هذه اللغات تمثل تراث الشعوب السالفة التي أورثتنا الانسان والثقافة واللغة. لماذا اذن هذا الاصرار على التعامل مع هذه اللغات كأي لغات أجنبية وميتة؟ لماذا هذا التردد في الاعتراف والكشف عن ديمومة هذه اللغات في داخل اللغة العربية ولهجات وثقافات شعوب المنطقة؟

إن اعادة الربط بين اللغة العربية ولغات الأسلاف السامية ــ الحامية عامل أساسي لخلق رؤية منسجمة ومتوازنة لتاريخنا الشامل، ضمن سياقه التطوري التوحيدي المحتم بظروف الجغرافيا والمناخ وتجانس الأعراق والثقافات. لو نظرنا الى تاريخنا اللغوي لوجدنا أن هناك

---

* نكرر، أنه بمفهومنا، العائلة اللغوية، ليست لها أية معاني (قومية عرقية) بل تشابه لغوي فقط .

مراحل تدرجية بدأت منذ أولى الحضارات لتصل الى قمتها في القرن السابع بهيمنة اللغة والأبجدية العربية. إن أولى المراحل البدائية تتمثل باختراع الكتابة الصورية: الهيروغليفية في بلاد النيل، والمسمارية في بلاد النهرين. مع الزمن توطد هذا التقارب بأول وأهم اختراع في تاريخ البشرية، إنه النظام الرمزي، نظام الأبجدية الفينيقية. ويعتبر هذا الاختراع حصيلة تعاون وتمازج معرفي طويل بين الشعوب السامية والحامية. إذ ليس صدفة أن أول ظهور لهذه الأبجدية كان في صحراء سيناء، حيث تلتقي هناك جميع قبائل وحضارات المنطقة. بعد ذلك شاعت اللغة الآرامية (السريانية) مع شيوع المسيحية كلغة أساسية وثقافية في جميع أنحاء المنطقة، ولتكسر الهيمنة السياسية الثقافية التي فرضتها اللغات الاغريقية واللاتينية والفارسية. مع بزوغ الاسلام في القرن السابع وصل التقارب الى قمته في الاتفاق على اللغة والأبجدية العربية التي لخصت حصيلة تطور جميع اللغات والثقافات السابقة، يمنية وبابلية وفنيقية وسريانية وقبطية وباقي لغات المنطقة.

إن الفرد الاوربي مهما كانت لغته، فإنه مجبر على دراسة اللغات والآداب الاغريقية اللاتينية كمدخل أساسي لدراسة لغته الوطنية، فرنسية أو إيطالية أو إنكليزية وغيرها. إن سر قوة الثقافة الأوروبية يكمن في قدرتها على إعادة التواصل بين ثقافات الحقب التاريخية المختلفة التي عاشتها أوربا. لكننا نحن العرب تجاهلنا هذه المهمة الأساسية وأبقينا ثقافتنا العربية منفصلة عن أصولها التاريخية التي صنعتها شعوبنا خلال آلاف السنين من الحضارات الكبرى التي قامت في بلاد النهرين والشام ومصر واليمن وشمال افريقيا.

يبدو أن جذور الانفصام تعود الى فترة قيام الدولة العربية الاسلامية في القرن السابع، وبسبب ظروف الصراع الديني والمنافسات القومية، كذلك الاختلاف الظاهري للغة العربية عن اللغات السامية ـ الحامية السائدة، ثم انتشار هذه اللغة وتحولها الى لغة الحضارة والدين واللغة الأم لأغلبية السكان. لكن هذه الظروف أدت الى اندثار هذه الثقافات الماقبلاسلامية الناطقة بلغات وأبجديات صارت منسية من قبل الأجيال المستعربة. ثم إن خشية العرب المسلمين من التشبه بلغة أسلافهم (غير المسلمين)، قد خلق لدى هذه الشعوب المستعربة حالة تناسٍ واعية، وغير واعية، وصلت الى حد الشعور بالأجنبية المطلقة عن أولئك الأسلاف. وساد اعتقاد خاطىء بأن الثقافة واللغة العربية منقطعة تماماً عن الثقافات واللغات السابقة واعتبارها نتاج «مطلق» للقبائل العربية التي نشرت الاسلام واللغة العربية!

إن دراسة العائلة اللغوية السامية ـ الحامية يجب أن يكون موضوعاً أساسياً وإجبارياً في مناهج تدريس اللغة والأدب والثقافة العربية. ومن الخطأ الإبقاء على التصور القائل بأن دراسة تلك الثقافات سيكون على حساب اللغة العربية، بل الحقيقة هي العكس تماماً. لأن دراسة السريانية والقبطية والعبرية والسومرية والبربرية، وإظهار دورها في إغناء وتطوير اللغة العربية سوف يعيد الاعتبار الى اللغة العربية نفسها، ويظهر حقيقتها على أنها خلاصة وذروة لجميع تلك الثقافات واللغات. بالاضافة الى الفائدة التاريخية التي سيجنيها العقل العربي من أجل تكوين هوية ثقافية وسياسية عربية (شرقمتوسطية) تستمد عنفوانها وشرعيتها من أصول الثقافات الأولى.

لننظر مثلاً الى القواميس العربية، حتى الآن لا زالت جاهلة ومنقطعة تماماً عن أصولها اللغوية السابقة. وأبرز مظاهر هذا التقصير تتجلى في تفسير معاني الأسماء. نشيد هنا بتجربة رائدة وجديدة تستحق التقدير وهي (معجم أسماء العرب ـ موسوعة السلطان قابوس)، رغم انه يعاني من نقص كبير، يتمثل باتفاقه مع القواميس الاوربية باعتبار الاسماء المسيحية بأنها(عبرية)، وهذا غير صحيح تاريخيا، فهي اسماء استعملتها الشعوب الناطقة بالسامية ومعهم العبرانيون.

في القواميس السائدة، مثلاً عندما تبحث عن معنى اسم «عيسى» فإن جميعها تختصر الجواب بعبارة واحدة: اسم عبراني أو آرامي. ويعني المنقذ والمخلص! لكن أي مطلع على اللغات السامية سوف يكتشف أن معنى هذا الاسم موجود في صلب اللغة العربية: عيسى في العربية يمكن أن يعني أيضاً المخلص أو المُنجد. هناك كلمة عسى، وتفيد بمعنى التمني، وهناك كلمة عسس، وهم حراس النجدة الليلية، وهناك كلمة فيها إبدال لحرف السين الى شين، وهي العيش، وتفيد بمعنى الحياة والانقاذ، ومنها اسم «عياش».

على هذا المنوال سوف نكتشف ما لا يحصى من أسماء الأشخاص والمدن والقرى. مثلاً، من أسماء المسيحيين اسم «توما» وهو أيضاً له معنى بالعربي لأن معناه في الآرامي والعبري هو «توأم». خذ أيضاً اسم قديس آخر «متى»، وحسب الأصل الآرامي يعني المانح والواهب، ولفظه العربي هو «مُعطي»! أما اسم «مريم»، فيبدو واضحاً بالعربية عندما نعرف أن في الأصل الآرامي يتكون من «مار» ويعني القديس أي «الإمرؤ والأمرأة» ومنه الأمر، ثم «يم» وهو البحر والماء. إذن فإن اسم مريم يعني بكل بساطة في العربية مثلما في الآرامية «أميرة

اليم»، «قديسة الخصب» وهناك اسم آخر يكشف لنا عن التمازج العميق بين العربية وأسلافها السامية وهو اسم «إيليا» ويعني المقدس والعالي في جميع اللغات السامية، ورديفهُ العربي هو «علي، علاء» ومنه اشتق اسم «الله» وهو لفظ سرياني وليس عربي، لأن حرف اللام بهذه الطريقة المفخمة لا يوجد في أية كلمة عربية أخرى غير «الله». وقد يكون اللفظ الأقرب الى العربية هو «العالي» ومنه «إله». إذن جميع الأسماء التي تحتوي على «أيل» لها معنى مرادف في العربية: «جبرائيل» يعني «إيل الجبار» أي «علي الجبار» وهو «الله الجبار» و «ميخائيل» هو «محيائيل» ويعني «إيل الذي يحيي» و«اسرائيل» هو «إصراعيل» «إيل الذي يُصرع» و «دانييل» هو «إيل الذي يدين ويحكم»(*). ومدينة «بابل» تعني «باب أيل» «باب الله».

الدكتور يوسف حوراني يفترض أن «أل» التعريف في العربية قد أتت من اللغة الأكدية. إذ يعتقد هذا الباحث أن أهل النهرين تعودوا لفظ اسم «إيل» قبل أي اسم من أجل حفظه من الشر. ومع الزمن صارت «إيل» أداة ضرورية تسبق الاسم، وبالتالي صارت هي أداة التعريف عند معظم الساميين ومنهم العرب. بينما اللغة الآرامية والعبرية اختارتا كلمات «ها» للتعريف، ورديفها العربي أيضاً «ها» التي تستعمل للضمائر والإشارة: «ها، هو، هي، هذا، هذه، .. كتاب.. الخ» ومنه اشتق اسم الحياة والهواء، أي ضمير الوجود. أما الأكديون وكذلك الكنعانيون فكانوا يستعملون التنوين كأداة تعريف، فتقول «لبنان» وهي «لبناً» أي الأبيض، وهو جبل لبنان. ولا زالت العربية تحتفظ بهذا الأسلوب التنويني الذي صار مختصاً بالكلمات غير المعرَّفة (البنية الذهنية الحضارية ـ يوسف حوراني ـ ص172ـ 178).

والأكثر طرافة في الموضوع هو تحول الأسماء السامية العربية الى أسماء أوروبية، واستخدامها من قبل المسيحيين العرب على أنها أوروبية، منها مثلاً اسم «حنا» أو «يوحنا» وأصله السامي العربي مشتق من «حنان»، أما تنوعات لفظه الأوروبي فلا تحصى: في الفرنسي «جان» للمذكر و «آن» للمؤنث، وفي الإيطالي «جيوفاني»، وفي الاسباني «خوان»، وفي الانكليزي «جون»، وفي الألماني «هان»، وفي الروسي «إيفان»، وهكذا تعود علينا بضاعتنا بحلة جديدة تماماً.

أما اللغات الحامية (المصرية والبربرية) وهي الأبعد جغرافياً وتاريخياً عن العربية، فإنها تركت آثارها أيضاً على العربية بصورة مباشرة وغير مباشرة وخصوصاً في القسم الافريقي من

---

* لمن يرغب الاطلاع على معاني الأسماء (المسيحية) يمكنه مراجعة أي قاموس للأسماء بأحدى اللغات الأوروبية المعروفة. للأسف لايوجد أي قاموس عربي يعالج هذا الموضوع.

العالم العربي، في هذا المجال نستشهد بما يذكره الباحث المصري سليمان الحكيم، عن الأصول السامية ـ العربية لمعظم أسماء الآلهة المصرية، وكذلك الأسماء الشائعة حالياً للمدن والعوائل المصرية: الشناوي، شنودة، الصاوي، الحفناوي، البسطاوي، الصفطاوي، الهواري، الأشموني، الأسنزاوي، السخاوي، مريت، سمير، سوزي، شيري .. الخ. ومثال على هذا نذكر اسم «أشموني» ورديفه العربي «ثمانية»، واسم «سمير» ورديفه العربي «سمير» وهو المحبوب والمسامر، واسم «سخاوي» ويعني السخي، والسخاء هي الأرض اللينة في العربي والمصري. واسم «مريت» يعني في المصري «الماء» أو «المروي» كما في العربي. واسم «سوزي أو سوزان» هو السوسن في العربي و «الهكسوس» هم «ساسة الخيل» لأن «هق» في العرب تعني الخيل، ولأن «الهكسوس» هم أول من أدخل الخيل الى مصر من بلاد الشام. (سليمان الحكيم ـ الأصول المشتركة بين اللغتين العربية والفرعونية ـ الحياة 31 أيار 1992) . وفي هذا السياق يمكن التعامل مع اللغات البربرية في شمال افريقيا حيث نجد التشابه في الأصول بين العربية والبربرية. وعلى هذا الأساس اتفق علماء اللغة والتاريخ على إطلاق تسمية «العائلة اللغوية السامية ـ الحامية».

تبقى هذه الأمثلة، أمثلة لا أكثر، بل إن غايتها هي التوكيد على الأهمية الكبرى لاعادة النظر في مناهج تدريس اللغة والأدب العربي التي تتجاهل تماماً الأصول العريقة للغات وآداب الحضارات الأولى التي من دونها ما كان للغة وآداب العرب أن تنبثق وتتطور وتهيمن أبداً.

ترجمة تراثنا العربي الى العربية!؟

لا .. ليس خطأ في العنوان لتوضيح المسألة، يمكن ايراد أمثلة لشعوب قد عاشت من قبلنا نفس الاشكالية وتخطتها بحل سهل جداً لكنه يتطلب الكثير من الجرأة والشجاعة. منذ قرن واليوناني لا يقرأ أرسطو وأفلاطون والالياذة وجميع تراثه الاغريقي، إلا وهو مترجم من الاغريقية القديمة الى الاغريقية الحديثة. والايطالي منذ أربعة قرون يفعل ذلك مع تراثه المكتوب باللاتينية. والفرنسي ترجم أيضاً تراثه المكتوب بفرنسية القرن العاشر والهندي والصيني فعلا نفس الشيء، وفعلت هذا عدة شعوب في الشرق والغرب عندما عانت من تطور لغتها الأصلية وصعوبة التعامل مع نصوص لغة الأسلاف.

صحيح أن الفرق بين العربية الحديثة والعربية القديمة ليس بالكبير بحيث يسمح لنا بالحديث عن لغتين مختلفتين، لأنه لم يؤد الى اختلاف قواعد الاعراب وبنية اللغة المتعارف عليها، لكنه اختلاف كبير في الأسلوب وقواعد البلاغة. بالاضافة الى التغير الشاسع في معاني الكلمات والغاء جزء كبير من مفردات القاموس واستحداث ما لا يحصى من الأسماء والأفعال والمصطلحات والتعابير، مع اشكال جديدة من الجمل بسبب حرية التلاعب بمكان الفاعل والفعل والمفعول به في اللغة المعاصرة.

لو افترضنا ان الجاحظ أو ابن عربي أو أياً من مثقفي العصور السابقة، وجد يوماً جريدة عربية صادرة في أيامنا هذه. يا ترى هل سيتمكن من فهم واستيعاب مقالاتها؟ قد يفهم المعنى العام لكنه يقيناً سوف يعاني من صعوبة وملل في التعامل مع تلك النصوص المختلفة عن لغة عصره. سوف يجهد ويلجأ كثيراً الى قواميس المنجد والوافي وأخرى متخصصة في الصحافة والاعلام والعلوم الحديثة.. كل هذا من أجل استيعاب نص صحافي يفهمه أي طالب عربي معاصر متوسط الثقافة.

وهذه هي ذات الاشكالية التي نعيشها نحن أبناء اللغة العربية الحديثة. يمكنني إيراد مثال تجربتي الشخصية. فأنا ثقافتي عربية، والعربية هي لغتي الأم، وتعلمت القرآن في المدرسة والعائلة. لكني مع كل هذا ما تمكنت حتى الآن من قراءة نصوص التراث والتمتع بانسيابيتها وسهولتها.. بل اني فوجئت بفهمي الأفضل لنصوص تراثية عربية بعد قراءتها مترجمة الى اللغة الفرنسية، رغم أني لم أدرس هذه اللغة إلا منذ سنوات!

كنت في البدء أعتقد أن الاشكالية شخصية وفردية، مع الزمن ومن خلال اطلاعي المباشر على حال المثقفين العرب وعلاقتهم مع نصوص التراث، اكتشفت أن الغالبية العظمى يعانون من نفس الصعوبة. والطريف أن الجميع يساهمون بشكل أو آخر بعدم التطرق الى هذه الحقيقة المُرّة، بل وتجنبها من خلال حفظ الآيات القرآنية وأبيات من المعلقات والمتنبي والمعري ثم ترديد الأسماء التاريخية المعروفة مثل فلان وابن فلان وأبو فلان؛ دون التمكن من إقامة علاقة طبيعية مع هذه النصوص.

الناطق بالعربية، إن كان طالباً أو عاملاً أو مثقفاً، لا يستطيع أن يقرأ بنفسه أبا حنيفة أو الشافعي أو جعفر الصادق وباقي رموز الثقافة العربية والاسلامية، بل يحتاج دائماً الى تلك النخبة من المثقفين والمتدينين ليكونوا وسطاء بينه وبين ميراث إيمانه ومعتقداته. ولو كانت هذه النصوص مكتوبة بلغة حديثة ومفهومة لما احتاج القارىء لهؤلاء الفقهاء، أو على الأقل لكان امتلك حرية وقدرة أكثر في محاورة واغناء وتطوير ما يطرحه هؤلاء الوسطاء، والتخلص من الايمان الضيق والحرفي بما يقولونه.

وهذا الواقع الاشكالي ساعد على خلق هوة عميقة بين المثقف العربي والثقافة الموروثة، وبالتالي فرض حالة من الانفصام في العقل العربي برمته، وعمّق الهوة التاريخية بين ما يسمى بالثقافة المعاصرة والثقافة التراثية، وخير تمثيل لهذه الحالة هو الفصل العقلي الثقافي والسياسي ما بين المثقف العصري ذي اللغة المعاصرة، والمثقف التراثي المتضلع بفك رموز لغة الأسلاف.

أمر طبيعي وواقعي أن يكون هناك تعارض بين اتجاهين حداثي تغييري وسلفي محافظ، فهذا أمر تفرضه سنة الحياة في كل أمة وعصر. لكن الحاصل لدينا نحن الناطقين بالعربية، ان الشقة بين هذين الاتجاهين متطرفة جداً بعمقها وشدتها وكأنها بين ثقافتين لشعبين متناحرين ومنفصلين زماناً ومكاناً.

المثقف العصري لم يتعرف على نصوص التراث الدينية والأدبية والعلمية إلا بصورة محدودة جداً ومتقطعة وغالباً ما تكون من خلال المدرسة والمقتطفات التراثية المنشورة في الصحافة. بينما نجد من الطبيعي جداً أن معظمنا قد قرأ التراث الأدبي الأوروبي واليوناني والأمريكي والصيني ربما وحتى الهندي، وكل هذا من خلال الكتب المترجمة، لأننا نستوعب ونتمتع بكتاب لفيلسوف غربي مترجم الى العربية الحديثة، لكننا نواجه صعوبة في الانسجام مع كتاب تراثي مثل رحلة ابن بطوطة أو مقامات الهمذاني، رغم جفاف لغة الفلسفة وخفة وطرافة وغنى حكايات ابن بطوطة والهمذاني!

وعلى الطرف الأقصى الآخر، نجد مثقفنا السلفي المتضلع بلغة التراث والفقه والدين وعلم الكلام، في معظم الأحيان، يعيش حالة انقطاع شبه تام عن الثقافة المعاصرة. بسبب انقطاعه عن اللغة الحاضرة وانكبابه على نصوص مكتوبة بلغة تختلف عن لغة عصره. وغالباً ما يشعر في أعماقه، هذا المتفقه، بأجنبية النصوص الحديثة وتبعيتها للغة «مشوهة» وبعيدة ومنفصلة عن لغة التراث المقدسة!

ان الانقطاع اللغوي عن التراث أدى الى توتر كبير في علاقة العربي مع ميراثه العقلي وماضيه الروحي والديني، ويبدو الأمر وكأنه قد جرت عملية طلاق غير معلنة بين اتجاهي العقل العربي: المثقف المعاصر له الحاضر، والمثقف التراثي له الماضي، وبموجب هذه الاتفاقية قد صار التاريخ بأجمعه والتراث الديني وما يتعلق بالتقاليد والطقوس الروحية حكراً خاصاً للمتضلعين بفقه اللغة والدين. والنتيجة، فقدت الثقافة المعاصرة أصالتها وعمقها الروحي التاريخي، وفقدت الثقافة الدينية التراثية قدرتها على التجدد والاجتهاد واكتساب علوم العصر.

صحيح أن هنالك نصوصاً تراثية مفهومة جداً، مثل نص ألف ليلة وليلة المكتوب بلغة مبسطة ومنفتحة أقرب الى اللغة المعاصرة. لكن عموماً أن غالبية النصوص التراثية تتراوح مستوياتها بين الغموض المطلق والغرابة العصية على الفهم. يمكننا ايراد مثال نموذجي للمستوى الشائع، وهو نص معروف لـ (ابن حزم الأندلسي) في «طوق الحمامة» (ص97).

باب من أحب صفة لم يستحسن بعدها غيرها مما يخالفها :

«واعلم أعزَّك الله أن للحُب حكماً على النفوس ماضياً، وسلطاناً، وأمراً لا يخالف، وحدّاً لا يعصى، وملكاً لا يتعدّى، وطاعة لا تُصرف، ونفاذاً لا يرد، وأنه ينقض المرر، ويَحُلّ المُبرم، ويُحلّل الجامد، ويخل الثابت، ويحلّ الشغاف، يُحلّ الممنوع، ولقد شاهدت كثيراً من الناس لا يتهمون في تمييزهم، ولا يخاف عليهم سقوط في معرفتهم، ولا اختلال بحُسن اختيارهم، ولا تقصير في حَدْسهم، قد وصفوا أحباباً لهم في بعض صفاتهم بما ليس بُمستحسن عند الناس ولا يرضى في الجمال، فصارت هجيراهم، وعُرضة لأهوائهم، ومنتهى استحسانهم ثم مضى أولئك إمَّا بسلوّ أو بَيْن. أو هجر أو بعض عوارض الحب، وما فارقهم استحسان تلك الصفات ولا بان عنهم».

أغلبنا يتفق بوجود صعوبة لفهم واستيعاب هذا النص. بالاضافة الى فقدان الانسيابية المفترضة. علماً أن هذا ليس بنص فلسفي ولا صوفي انما وصفي، بين السرد القصصي والتحليل الواقعي، ولا يحتوي على مفردات مجازية أو شعرية.

هنا أسجل محاولة لترجمة هذا النص الى العربية المعاصرة. أؤكد أنها محاولة ليس أكثر، لأني لست متخصصاً، ولم أبذل جهداً كبيراً في استخدام القواميس والبحث والتقصي. إني أطرح المحاولة كما هي وبكل تلقائية وصدق، لاعطاء مثال على اشكالية القراءة والترجمة. لقد تركت بعض العبارات بين هلالين، وهي التي لم أفهمها معنى أو بلاغة.

«باب من أحب صفة فلا يستحسن ما يخالفها. واعلم، أعزك الله، ان للحب تأثيراً كبيراً على النفوس، وسلطاناً جباراً، وهيمنة لا تخالف وقانوناً لا يعصى، وسيطرة غير محدودة، وخضوعاً غير منته، ونفوذاً لا يرتد، والحب كذلك، (ينقض المرر؟)، ويفتح المعقود، ويذوب الجامد، ويخلل الثابت، (ويحل الشغاف؟)، ويسمح بالممنوع. ولقد شاهدت كثيراً من الناس لا يُشك في نباهتهم، ولا يخاف عليهم من ضعف معرفتهم، ولا اختلال بحسن اختيارهم، ولا تقصير في حدسهم، أقول ان هؤلاء قد وصفوا أحباباً لهم بطريقة غير مستحسنة عند الناس ولا تتفق مع الجمال، (فصارت هجيراهم، وعرضة لأهوائهم، ومنتهى احسانهم؟)، ثم رحل اولئك إما عن نسيان أو موت أو هجر أو بعض حوادث الحب..».



الناظر للتاريخ الثقافي للعالم العربي يجد أننا نعيش عدة أشكال أو مستويات من القطيعة الثقافية الروحية، منها القطيعة التاريخية مع التراث السابق للاسلام، وكذلك القطيعة مع الواقع التحديثي السريع والمفروض من الخارج. أما القطيعة التي تعنينا في هذا الموضوع هي القطيعة مع التراث العربي الاسلامي، بسبب توقف التواصل الحضاري المعرفي والمادي خلال قرون ما يسمى بالفترة المظلمة، حيث القطيعة الروحية والمادية بين الانسان الناطق بالعربية وإرثه المادي والروحي، وهذا الانقطاع هو الأدنى مسافة والأقوى تأثيراً والأعمق جراحاً بسبب قربه وحضوره الثقافي والديني واليومي الواعي. حالة الفصل هذه ساعدت على خلق الغرابة والغموض حول ذلك التراث وتبرير قدسيته واضفاء اللاهوتية على من يتعامل معه.

يمكن الاعتقاد مثلاً، ان هذه الاشكالية تأخذ طابعاً مختلفاً لدى شعوب قريبة لنا مثل الأتراك والايرانيين والباكستانيين. لهؤلاء علاقة مع النص الاسلامي مختلفة عنا لأنهم مجبرون على الأطلاع على التراث بلغاتهم الوطنية المعتادة، وخصوصاً بعد خطوة الأتراك أوائل القرن، في ترجمة النصوص الدينية العربية وما أعقبها من تطورات ثقافية وسياسية. ولعل ما يميز اشكالية هذه الشعوب هو الاحساس بالأسف وتوتر الهوية القومية بسبب اضطرارهم

للاعتماد على تراث ديني مكتوب بلغة اسمها العربية وهي مختلفة تماماً عن لغات شعوبهم. وهذه الاشكالية طالما عبر عنها المثقفون القوميون في تركيا وإيران.

المختصون بالتراث يتحدثون عن وجود ثلاثة ملايين مخطوط عربي واسلامي مبعثرة في أنحاء العالم، ولم يطبع منها حتى الآن غير 5٪. وفي هذه الملايين من المخطوطات يكمن ماضينا وتاريخنا وديننا وتراثنا العربي الاسلامي بأكمله.

يخطىء من يتصور أن الزمن كفيل بحل مشكلة علاقتنا مع لغة التراث، لأن التطور الثقافي واللغوي لا يؤدي كما يعتقد هؤلاء الى تقليل الهوة بين لغة التراث ولغة العصر، العكس هو الحاصل، فالمشكلة تتعقد أكثر فأكثر بمرور الزمن، لأن المسافة تنأى مع الأعوام بين هاتين اللغتين، لغة التراث باقية كما هي محفوظة في الكتب، بينما لغة العصر تتطور مع الحياة وتبتعد أكثر فأكثر عن لغة تلك العصور.

يتوجب أيضاً التأكيد أن الدعوة الى ترجمة التراث ليست ضد التراث أبداً، بل العكس، انها دعوة لجعل النصوص التراثية بمتناول الأغلبية الساحقة من القارئين والناطقين بالعربية. وهذا أمر سيجعل من التراث ثقافة شائعة وسهلة القراءة والاطلاع، وبالتالي طمر الهوة اللغوية والروحية بين التراث وابناء العصر. ثم يجب التذكير ان ترجمة النصوص التراثية الى العربية الحديثة لن يضاهي بجرأته ترجمة هذه النصوص الى اللغات الفارسية والتركية والأوردية وغيرها من لغات الشعوب الاسلامية.

ان دعوتنا هذه محاولة لاعادة الشباب الى اللغة العربية ونصوص التراث. اننا أشبه بمن يبتغي اخراج كنوز وثياب فاخرة من صناديق عتيقة، ويلبسها لحسناء فاتنة وفقيرة أضاع منها الزمان ميراث أسلافها الأثرياء.

ملاحق معلوماتية

عن العربية والسامية وأصول شعوب المنطقة وتاريخ التعريب

أصل معاني أسماء الأبجدية العربية

أما نحن فنقول إن الخط الكنعاني ليس إلا من صنع الكنعانيين واختراعهم وحدهم لأنه لا دليل مطلقاً على وجود أبجدية حرفية من هذا النوع عند غيرهم من الأمم.

ولا يمنع هذا احتمال أن مخترعي هذا الخط كان لهم إلمام بالخط الهيروغليفي والقلم المسماري وأنهم استعانوا ببعض صور وعلامات لهذين الخطين على اختراع خطهم الجديد.

وقد يؤيد هذا الاحتمال أن الحروف الكنعانية وإن كانت ليست صوراً فإننا نجد لمعانيها بالكنعانية علاقة بالصور كما يتضح ذلك من الجدول الآتي :

ألف : بقرة	جيمل : جمَل
بيت : بيت	دالت : باب
ها : شبكة حديد للشباك	نون : حوت
واو : وتَد	سامخ : آلة يعتمد عليها كالعصا
زاين : سلاح	عين : عين
حيت : حائط	فا : فم
طيت : حنش	صادي : شبكة للصيد
يود : يد	قوف : سم الخياط
كاف : كف اليد	ريش : رأس
لمد : عصا لضرب البقر	شين : سِنّ
ميم : ماء	تاو : علامة

من كتاب «تاريخ اللغات السامية ـ ولفنسون ـ ص 99ـ100».



الخط العربي والأبجدية، والأصل الآرامي

❖ «سأل العرب : من أين أتانا الخط؟ وفي سؤالهم إقرار أنه ليس أصيلاً بل مقتبساً.

والتاريخ يعلمنا حقيقة عامة : وهي أن كل سؤال عن غامض يكون الجواب عنه أساطير وخرافات، لكأن المسؤول القديم كان يستنكف من أن يقول : «لست أدري» بل كان الأمر على نقيض هذا إذ يقول : «نعم أدري» ثم يروح يضع القصص والروايات تاركاً خياله للشرود.

ومن الأجوبة الطريفة عن هذا السؤال ما جاء في احدى الأساطير من أنّ الذين علموا العرب خطّهم كانوا أناساً هلكوا في الجاهلية القديمة منهم أبو جاد، أو أباجد، وهواز أو هاوز وحاطي وكلمان... الى آخره وواضح ان هذه الأسماء ليس لها مسميات، هي ترتيب حروف الهجاء الآرامية القديمة بشكل كلمات يسهل على الصغار حفظها. فالحروف الآرامية ــ وعددها اثنان وعشرون ــ قد جمعت بحسب ترتيبها في كلمات «أبجد هوز حطي كلمن سعفص قرشت». وذلك بغية حفظها على هذا الترتيب، لأنها كانت تستخدم أيضاً للأرقام قبل اقتباس الأرقام الهندية. فكانت قيمة الألف واحداً والباء اثنين الى حرف التاء وقيمته العددية 400. والسريان هم الذين اقتبسوا الأرقام الهندية. وعن السريان أخذ العرب هذه الأرقام التي تعرف في الغرب بالأرقام العربية وهماً أنها من وضع العرب. أما نحن فنعطي كلّ ذي فضل حقه من الفضل، ونسمى أرقامنا الأرقام الهندية.

ونعود الى أبجد هوز، لنقول إن صاحب الأسطورة توهم أن أبجد هو أبو جاد وهو بشر، وكلمن يصبح «كلمان» وله أربع بنات، واحدة منهن شاعرة رثت أباها عند موته بقصيدة».

من كتاب «نظريات في اللغة ـ أنيس فريحة ـ ص 89 ـ 90».



العربية بين البداوة والحضارة

إن مشكلة أصل المفردات العربية وارجاعها دوماً الى أصلها في الصحارى العربية يبدو أمراً خاطئاً، لأن أصل المفردات العربية وخصوصاً الحضارية يجب إرجاعه الى اللغات السامية في العراق وسوريا. هنا رأي في هذا المجال:

❖ «ولكن مما يؤسف له أشد الأسف أن جميع علماء اللغة من المسلمين لم يكونوا يعرفون شيئاً من اللغات السامية كالعبرية والسريانية معرفة صحيحة فنشأ عن ذلك أنهم لم يوفقوا الى بيان المعاني الدقيقة التي يؤديها كثير من الكلمات العربية في أصل وضعها ونشأ عن ذلك أيضاً وقوعهم في أغلاط فاحشة فيما يتعلق بفهم اشتقاق الكلمات لأنه ليس من الممكن في كل الأحوال أن يهتدي الباحث الى أصل اشتقاق الكلمة اذا اقتصر في بحثه على لغة سامية واحدة. لكنه اذا وازن بين اللغات السامية التي تشترك في كلمة من الكلمات استطاع أن يهتدي بسهولة الى الحقيقة الواضحة في أصل اشتقاقها.

ونشأ من حرص العلماء على أن يجمعوا من الأعراب كل ما يمكن جمعه من الكلمات ان جاؤوا بكلمات عربية غير مألوفة عند العرب ولا متداولة بين فريق منهم وذلك لأن هؤلاء العلماء كانوا يلحون بشدة على الأعراب أن يأتوا لهم بجديد من الكلمات وكان بين هؤلاء الأعراب بطبيعة الحال من هو صادق ومن هو كاذب ومن الكاذبين من كان يقصد التلفيق واختلاق الكلمات.

ولكن هذه الكلمات المختلقة لم تستطع أن تندمج في اللغة العربية اندماجاً تاماً بل بقيت غير واضحة المعنى وكثير منها ظل غير موثوق بصحة استعماله.

وكذلك نشأ من كثرة استعمال المجاز في الأدب العربي وجود كثير من الألفاظ غير واضحة المعنى ولا مفهومة الدلالة من ناحية مادتها اللغوية.

ولما حاول العلماء أن يشرحوا معناها ويوضحوا دلالتها لم يجدوا من الألفاظ ما يوصلهم الى ذلك بمعناه الحقيقي فاستعملوا الفاظاً أخرى في معانٍ مجازية أيضاً كان من شأنه أن زادت عدد الألفاظ المبهمة المعنى فكأن هؤلاء العلماء بمحاولتهم تعليل الإبهام والغموض في المادة اللغوية قد أرادوا مضاعفته والزيادة فيه.

وقد استغل هذا النوع من الألفاظ بعض الشعراء الذين كانوا يميلون الى الإبهام والإغراب فحشوا شعرهم بالألفاظ النادرة الاستعمال أو المشكوك في صحتها».

من كتاب «تاريخ اللغات السامية ـ ولفنسون ص 217 ـ 218».



الأصل الأكّدي لـ «الـ» التعريف

إن اللغة العربية وريثة الغنى التاريخي والحضاري للغات السامية في العراق وسوريا. وكانت اللغة الأكدية هي الرائدة الأولى والأكبر لهذه اللغات، والتي ظلت مستعملة في العراق والمنطقة حتى بضعة قرون قبل الميلاد حيث ورثتها اللغة الآرامية ـ السريانية. والأكدية بدورها كانت قد استوعبت كل ميراث اللغة السومرية وحضارتها.. إذن العربية وريثة جميع اللغات السامية بالاضافة الى السومرية، وهنا مثال على صحة هذا الأمر :

❖ «المبدأ اللاهوتي لـ «ال» التعريف العربية ، كمبدأ فكري ونظام ذهني تطورت معه علائق الانسان بالعالم حوله لم يبق الإله «إيل» حساً متعالياً بعيداً منفصلاً عن يوميات الانسان، بل نجده فرض تعاليه كعلاقة ذهنية ، تتجلى لنا خلال استعمال اللغة بوجه خاص. فنحن حين نستعرض طريقة التصنيف السومرية للمفردات هذه الطريقة التي لجأ اليها السومريون للتمييز بين الأشياء التي تحمل تسمياتها تجانساً في اللفظ ، حين نستعرض هذه الطريقة ، نجد «ايل» بلفظه السومري «آن» كان يعني نوعاً من الوجود المبدئي الكامن في الأشياء.

لقد كان السومريون يرفقون كل لفظة باشارة تحدد صنف مدلولها ، وذلك لكثرة الألفاظ المتجانسة لديهم وضيق لغتهم التي يغلب على ألفاظها المقطع الواحد. وبهذه الاشارة التي تكون غالباً كبادئة للكلمة كانوا يحددون صنف الكلمة ، إذا ما كانت اسماً لإله أو لشجرة أو لطائر أو لإنسان أو لمعدن ، أو لأي شيء آخر. وحيث ورث الأكاديون الذهنية السومرية بثقافتها ، ورثوا عنهم هذه الطريقة في التصنيف. وكما كانوا يضعون اشارة أرض «كي» الى جانب تسمية أحد الأقطار كذلك كانوا يضعون اشارة «ال» الى جانب تسمية أحد الآلهة لتمييز وصفه.

أما الأسماء التي رافقتها صفة «ال» فقد بلغت الآلاف ، بحيث وجدت في مكتبة «أشور بانيبال» الشهيرة قائمة تضم أكثر من الفين وخمسمائة اسم إله ، بابلي الأصل. كما جمع «د. ديمل» ثلاثة آلاف وثلاثمائة اسم بلقب إله. عدد «ك. تولكفيست» ألفين وأربعمائة منها.

واذا استعرضنا امكانات اللغات السامية ، وفي رأسها الأكادية التي ورثت أسلوب التصنيف السومري هذا ، نجد أن هذه اللغات واسعة المفردات وتحمل قابلية ذاتية لخلق تسميات بطريق الاشتقاق ، أولاً ، لانتشارها وتعدد لهجاتها وخبرات أبنائها ، وثانياً ، لكون مفرداتها الأساسية ثلاثية المقاطع ، بعكس اللغة السومرية ، التي يغلب عليها المقطع الواحد للكلمة الواحدة.

وبنتيجة هذه الميزة للغات السامية راحت اللغة الأكادية تستغني عن طريقة التصنيف القديمة لعدم الحاجة لها بسبب قابليتها لتنويع اللفظ. وهو ما لم يكن في قابليات اللغة السومرية. ولكن ما لم يحدث الاستغناء عنه هو بادئة «ال» اللاهوتية. فهذه بقيت ترافق المطلق في كل تسمية. وقد وصلتنا ، كما يبدو ، الى اللغة العربية وفق المبدأ اللاهوتي القديم فعرفناها بوظيفة «ال» التعريف للأسماء ، إذ هذه ، على تنوع استعمالاتها ، تجدها لا تزال تحمل المبادىء اللاهوتية ذاتها التي كانت تدل اليها في الذهنية القديمة.

وما يشجع على هذا الافتراض هو التأثير الأكادي الواسع الذي نلاحظه في قواعد اللغة العربية وأدواتها ومفرداتها، بحيث نستطيع القول باطمئنان أنها الوارثة الشرعية لقواعد اللغة الأكادية، وحركات إعرابها، الى جانب الكثير من مفرداتها التي لا تزال حية في أسماء النباتات المختلفة المستعملة اليوم، وغيرها من اللهجات العامية بوجه خاص.

وهكذا تكون قد سقطت بوادىء التصنيف السومرية جميعاً مع التطور اللغوي على أيدي الساميين، وبقيت بادئة «ال» وحدها في اللغة العربية شاهداً على المبدء التصنيفي اللاهوتي الذي تعامل به انسان حضارة الشرق المتوسطي الآسيوي طوال ما يقارب ثلاثة آلاف سنة.

وحين نبحث عن حلقة تصل بين «ال» اللغوية و «أل» اللاهوتية نجد معالم هذه الحلقة في البادية السورية، المكان الطبيعي الصالح لمثل هذا التطور الذهني والتفاعل اللغوي بين الأكاديين والساميين الغربيين الذين تحدر منهم العرب بسلالتهم وتراثهم الثقافي.

لقد عرف الإله «مارتو» في النصوص الأكادية بأنه إله البادية السورية وهو يدعى كذلك «رمّانو» (أي رحمان). وهذا الإله كان يأتي اسمه غالباً مسبوقاً باشارتين لاهوتيتين، «أل أل» أي «الاله» الذي أصبح فيما بعد «الله»، بالإدغام. وهنا نفترض أن الاشارة الأولى للألوهة كانت أصبحت «أل» التعريف، التي غدت توضع، بعد ذلك، قبل اشارة الألوهة الثانية لتفييد الألوهة المطلقة. واذا استعملنا هذا التعريف قبل الاسم الثاني للإله «مارتو» أي الرحمان تصبح موافقة للترادف العربي، «الله رحمن» ومن المعروف أن حرفي الحاء والهاء لا وجود لهما في الأكادية، ولهذا فإن «رمانو» هو ذاته رحمان، كما أن هناك ملاحظة هامة لا بد من ذكرها حول إله البادية هذا «مارتو» أو «أمورو». فهذا الإله يرد على الأختام مرفقاً بإله آخر، وكأنه صفة له. فهل يعني هذا أنه كان إلهاً مطلقاً يوصف به الآخرون؟ إن افتراض كلمة «الله» كصفة تعريف له تقتضي أن يكون ذلك. لأن هذه الكلمة بطبيعة تركيبها تتضمن معنى التوحد للمطلق، إذ هي ادغام في كلمة «الاله»..»

من كتاب «البنية الذهنية الحضارية ـ يوسف الحوراني ـ ص 173ـ178».



قاموس سرياني عربي

السريانية	العربية	السريانية	العربية
قابيل	قبل	عال	على
قرو	قرأ	حاد	واحد
كتاب	كتب	تلوثو	ثلاثة
كتوبو	كتاب	أربعو	أربعة
قوم	قام	حمشو	خمسة
ايثو	أتى	شتو	ستّة
ايريث	ورث	شبعو	سبعة
يأمو	يمّ(بحر)	ثمونيو	ثمانية
فتاح	فتح	تشعو	تسعة
نهرو	نهر	عسرو	عشرة
عومقو	عمق	حد عسار	أحد عشر
ملكو	ملك	ثلوثا عسار	ثلاثة عشر
عبدو	عبد	اربعسار	أربعة عشر
جملو	جمل	عسري	عشرين
حمورو	حمار	تلوثين	ثلاثين
روعيو	راعي	أربعين	أربعين
لنحت	إلى تحت	خمشين	خمسين
عيلويو	عال	موؤو	مائة
الوهو	الله أواله ألفو	ألفو	الف
روحو	روح	اينو	أنا
يومو	يوم	آت	أنت وهي تكتب أنت
ليلو	ليل		بدون لفظ النون

جابورو	جبّار	هي	هي
ميثو	ميّت	حنان	نحن (احنا باللهجة البدوية)
مين	من	جوبو	جبّ بئر
آتون	أنتم انتون	جونو	لون
هينون	هم	جزورتو	جزيرة
آتين	أنتن انتين	جيغلو	عجلة دولاب
هينين	هنَّ	جيسو	جيش
هو	هو	جويو	جرو

أمثلة على الألفاظ المتشابهة مع
تغيير حرف واحد بين اللغتين

السريانية	العربية	السريانية	العربية
زبنو	زمن	جوشمو	جسم
هونو	هذا	جاتو (تكتب جنتو)	جنّة
هودي	هذه	حرتو	آخرة
هولين	هؤلاء	بهلو	أبله أحمق بهلول
أيبين	الذين	زعرور	صغير
لبيش	لبس	(بالعامية أزعر)	
نفاص	نفض	ديبورو	دبور
كرسو	كرش	ديبورثو	نحلة (دبورة)
كازو	كنز	داجولو	دجّال كذاب وغشاش
دوميو	دمية	ديوثو	محبرة — دواة
أجيروا	أجير	دروعو	ذراع
ياب	وهب أعطى	هويدين	حينئذ
ايخال	أكل	هيمين	أمن

عوربو	غراب	هيمونوثو	إيمان
أشوي	سوى	هوخانو (هوكانوا)	هكذا
أتو	أية	وويلي	ويلي ـ الويل لي
سباع	شبع	فاحو	فخّ
دخار	ذكر	دوش	داس
أرعو	أرض	ليشونو	لسان ولغة
جديشو	كدس كديس	نورو	نار
جدام	جزم وقطع	حيويو	حيّة
ليعزو	لهجة	حايوثو	حيوة (حياة)
شيتستو	أساس ـ أس	مدرشتو	مدرسة
كيفو	الصخرة ـ الكهف	ميخولتو	مأكل
سحاف	سحق	مدينتو	مدينة
برونوشو	ابن الانسان	عامو	شعب (العامّة)
نيثي	نساء	حولو حولتو	خال وخالة
حاجو	حج وعيد	سوبو وسوبتو	شيخ وشيخة
نوهرو	نور	(شايب وشايبة)	
هيكلو	هيكل		

الألفاظ المتباعدة والتي لا تزال لها في العربية

رسوبات وتعابير معينة (العربية الفصحى)

الكلمة السريانية	معناها بالعربية	الرسوبات والتعابير الباقية
سهر وسهرا	قمر	كانت السهرة على ضوء القمر
سليق	صعد	تسلق
فلح ـ فولحونو	عمل عملاً	فلاحة
يرخو يرخا	الشهر	اشتق منها أرّخ تاريخاً
قينتو	أغنية نغم	القينة هي مغنية لدى العرب
سوجيثو	أغنية أنشودة	شجيّ ـ شجيّة
سودورو ـ سوادارا	عمامة منديل	سدارة
نوخرويو	غريب أجنبي	نكرة
قروبو	الحرب	الخراب
ايمار	قال	أمر
رابو	عظيم كبير	ربّ وربة
بيشو	شرير	بائس
عولو	طفل	عيّل
حايوبو	أثيم خاطىء	خائب
عاوولو	آثم مخطىء ظالم	عايل العاميّة
عطمو	فخذ ورك	عظم
عطو	مأفنى آباد	غطّى
عماط	أظلم قتم غام	غمط (حقّه)
حيوورو	أبيض	حوّر ـ حور العين
ترنوغلو	ديك	ترغلّة (باللهجة اللبنانية اليمام)
تيمنو	الجنوب	اليمن والتيمن
ايزال	ذهب مضى	زال
هوشو	الآن	هسّع باللهجة البدوية
شاري	بدأ	شرع ومنها تشرين أول أشهر السنة

سورودو	خوف رعب فزع	شرود
زبان زابين وزبونو	اشترى وباع	الزبون أو العميل في البيع والشراء
موريو مورتو	سيّد وسيدة	امرؤ وامرأة
شتو واشتي	شرب	أشتى شتاء (بمعنى شربت الأرض)
شواح	نبت	الشوح
سوموقو سمّاقا	أحمر	السمّاق (لونه أحمر)
يرقو يرقا	أخضر	الورق الأخضر
حاجو	عيد	الحج بالعربية أصلاً معناها العيد
جبو	اختار انتخب	جبى واجتبى
زينو	سلاح	زينة (كان السلاح بمثابة الزينة للشباب)
حفار	خجل استحيا	خفر ـ الخفر هو الخجل والحياء
سنو	كره أبغض	شنأ يشنأ شنأة
أعيق	أحزن أكرب غمْ	أعاق
نفال	سقط	النافل والنوافل (سقط المتاع)
ايشكورو	قطعة ارض	بالعاميّة (اشكاره)
عادار	ساعد	عذر وعضد
عفرو	تراب	عفّر وعفرا
عيقورو	أصل (نباتي)	عقار (دواء من الأعشاب)
نحيث	نزل انحدر	نحت (غاص في عمق القطعة)
شملي	تمم أكمل	الشمل
ترعو	باب	ترعة بمعنى باب وبوابة
سرهيب	أسرع هرع	سرب وانسرب وتسرّب
حوبو	خطايا آثام	حوبة
جمار	أكمل	غمر
حاليف	بدل غير	الحليف هو البديل أو الرديف
جايوسو	سارق ناهب تاعب	جاس يجوس

الألفاظ المحرّفة أو التي اختلف تركيبها بالعربية :

الكلمة السريانية	معناها بالعربية	وجهة التحريف فيها
بخار	خبر	جاءت الخاء قبل الباء
بوركو	ركبة	جاءت الراء عوضاً عن الباء
سابار	بشّر	جاءت الباء قبل الشين
سدار	سرد	جاءت الراء قبل الدال
سراط	سطر	تحوّلت الطاء إلى مكان الراء
عام	مع	انقلبت الكلمة وانعكس الحرفان
سعار	شرع	سبقت العين الراء
عاميط	عتّم	استبدلت الطاء تاء وجاءت التاء قبل الميم
فورقتو	الفارة	سبقت القاف الراء
اشفيل	افشل	استبدل كل من الفاء والشين
شتيق	سكت	استبدل مكان الفاء والشين
حراع	خدع	استبدلت الراء دالاً
بحان	امتحن	استبدلت الباء ميماً
حسام	حسن	استبدلت الميم دالاً
قوفدو	قنفذ	أضيف اليها حرف النون
عيندو	عندليب	أضيفت اللام والياء والباء
زرنوفو	زرافة	حذفت النون
راغ	رغب	أضيفت الباء
اوحادتو	أحجية	قلبت الدال جيماً
هويدين	حينئذ	قلبت الهاء حاء وأضيفت النون
حيصرو	الخنصر	أضيفت النون
عفاق	عانق	استبدلت الفاء نوناً
عطرونو	القطران	استبدلت العين قافاً

بعض أسماء مدن وقرى وأعلام معروفين مشتقّة عن الآرامية أو السريانية :

الاسم العربي	لفظه الآرامي	معناه بالعربي
جرش	جراش	جرش
الرمثا	رمتو رمتا	العالية
الأردن	يوردنون	مورد الماء
سرغايا	سراغ	سرّج (سراجين)
المعرّة	معرتو معرتا	المغارة
معلولا	معلولو معلولاً	مدخل شقّ
صيدنايا	صيدانايا	مكان الصيد
ميروبا	ميورابي ـ مايا رابا	مياه غزيرة
بقعاتا	بقعواثو ـ بقعاثا	بقاع عديدة
الخطيئة	حاطويو	قلبت الياء همزة (الخاطئة)
السموأل	شموئيل	صموئيل
امرؤ القيس	مورو ديقسو	صاحب الخشب (نجار أو حطّاب)
الفيجة	فاييغ	أروى الغليل (العطش)
علي	عيلويو	عال وعلي ورفيع
عامر	عومورو ـ عامورا	ساكن
عمر	عمرو أوعمومرو	ساكن أو مسكن أو دير
بحيرا	باحيرا	متبحّر معمّق
صور	صورو ـ صورا	عنق ـ رقبة
شلهوب	شلهيب	احترق عطشاً أو أشعل النار
لبيد	لبيدو — لبيدا	كثيف (ذو لبدة) أو كث الشعر
طرفة	طرفو ـ طرفا	(ورقة)
النابغة	نباغ	نبغ ونبر الماء
نباع نابوعو	نبع ـ ينبوع	
الفرات	أوفرت	فرات = شقّ فتت
الفرزل	فرزلو	الحديد (أرض الحديد)
تدمر	تدمورتو تدمورتا	المعجزة ـ الأعجوبة

اليمن	تيمنو ـ تيمنا	الجنوب
أريحا	أراح	ابتعد ارتحل تنحّى
حيفا	حيفو ـ حيفا	قوة ـ شدّة ـ حدّة
رفح	رفوحو رفاحا	انتفاش العجين لدى التخمر
بيت الدين	بيت دينو ـ بيث دينا	المحكمة ـ قصر العدل
بعبدا	بيت عبدو ـ بيت عبدا	ـ بيت العبد بيت العمل ـ
مردوخ	موردكوـ ماردوكا	رب الطهارة أو امرؤ الوضوح
سركيس	شارـ كيش	ملك كيش
برديصان	برديصون ـ بارديصان	ابن الفح
جبلة	جبيلتو ـ جبيلتا	
هابيل	هاب ايل	عطا الله ـ وهب الله
خلدة	حلاد ـ خلاد	حفر الأرض الخلد
دير الزور	دير زعورو ـ ديرا زعورا	الدير الصغير
حلب	حلفو — حلفا	نبات الحلفى
لجش	لاقيش	جمع الثمار أو لقط الثمار؟
تل كلخ	قلاح	اقتلع ـ مقلع
تيلوتيلا	التل المرتفع	
لوط	ليطو	ملعون
لوط ـ لاط	لعن	
الخابور	حابورو ـ خابورا	كدس من القمح المجموع
مشغرة	شغار ـ مشغرتو منشغرتا	مكان لا ضرام النار
زغرتا	زعورتو ـ و زعورتا	الصغيرة
قاسيون	قشيو ـ قشيونو	قليل الوعورة ـ (قليل القسوة)
شمّوط	شوموطو ـ شمْوطا	عنقود ذرة

من مجلة «دراسات اشتراكية ـ عدد خاص 1990 ـ دراسة داؤود درويش ـ ص 38»

قاموس عن التقارب بين اللغات السامية

عربي	اشوري بابلي	عبري كنعاني	آرامي سرياني	لغات جنوب الجزيرة والحبشة
أبٌ	أبُو	أب	أبا	أب
ابنٌ	بنُو	بن	برْضا	بن
أخٌ	أخُو	أح	أحا	أحُو
أخَذُ	إخُّوز	أحزيا	دنحُود	أخْزَ ياخز
أحَدٌ (واحد)	أدُو	أحاد	حَدْ	أحَدُ
أُذُنٌ	أُزنُو	أزن	أُوْدنا	أزْن
إثْنَتان	شِنا	شنَايم	تْرين	سَنيت
أرْضٌ	أرْصتُو	أرص	أرْعا أرْقَا	أرض
أربَعٌ	أربَعُو	أربَع	أربع	أربع
إسْمٌ	شُومُو	شم	شْما	سم
أُمٌّ	أُمُّو	أم	أمَا	أُمّ
أمة	أَمْتُو	أمَه	أَمْتَا	أَمَة
إنْسانٌ	نِشُو	انوش	ناشا	انش
أَنْفٌ	أَبُو	أف	آبَّايا	أَنْف
أُنْثى	أشْشَتُو	إشَه	أتَتا	أنست
أيْلٌ	أيلُو	أَيَّال	أيلا	(يّال)
بِئْرٌ	بُورو	بور	برا	بئر
بَرْق	برقو	بَاراق	بَرْقا	(مبرق)
بَعْلٌ	بْلُو	بَعَل	بَعْلا	بَعْل
بِكْرٌ	بُكْرُو	بكور	بُكْرا	بكر
بَكَى	إبْكى	بكى يَبْكه	بْكا نبْكا	بكا يَبكى
بِنْت	بنْتُو	بَتْ	بَرْتا	بنت
بيت	بِتْو	بَيت	بَيْتا	بيت

عربي	اشوري بابلي	عبري كنعاني	آرامي سرياني	لغات جنوب الجزيرة والحبشة
تِسْعٌ	تِشُو	تشَعْ	تْشَعْ	تشْعُ
ثلاثٌ	شَمَانُو	شمْونه	تعمَنَا	سَمانى
ثُوْرٌ	شورو	شور	تَوْرا	سور
ثُومٌ	شومُو	شُوم	تُوما	سومات
جَمَلٌ	جَملو	جمَل	جَمْلا	جَمل
حَبْلٌ	أبْلُو	حبل	حبْلا	حَبْل
حَفَرَ يحْفر	حَفر	حَفَر يحْفر	حْفَ	حفر
حَقْلٌ	أقْلُوا	حلق	حَقْلا	حَقْل
حَمٌ	أمُو	حام	حمْا	حَم
حِمارٌ	إمْو	حَمور	حْمارا	حمار
خَبَل	خبل	حبَل يَحْبل	حبْل	خَبَل
خَمْسٌ(5)	خَشُو	حَمش	حَمْشا	خَمْس
خِنْزيرٌ	خُمْسُر	حَزير	حْزيرا	خَنْزير
دُبْس	دِشبُو	دْباش	دْبشا	دبس
دمٌ	دمُو	دَم	دْما	دم
ذئبٌ	زيبُو	زْاب	دابا	زاب
ذُبابٌ	زُبُّو	زبوب	دَبُّوبا	ذبب
ذَكَر	زَكُو	زَكَر	زَكْرا	ذكر
ذَنَبٌ	زِبَّاتُو	زانَاب	دُونْبا	زناب
رأسٌ	رشُو	روش	ريشا	راس
رَحِمَ	إِرم	رَحم	رْحم (أحَبَ)	رحم
رَحَضَ	رحص	رحص	رحص	حَضَ
رَكِبَ	ركب	ركَب	رْكَب	ركب
زرْعٌ	زرُو	زَرَع	زَرْعا	زَرْع
سَبْعٌ (7)	سِبُو	شبَعْ	شْبَع	شَبْعُو

عربي	اشوري بابلي	عبري كنعاني	آرامي سرياني	لغات جنوب الجزيرة والحبشة
سِتٌ (6)	شَشو	شَشْ	شْتا	سسُو
سُكْر	شِكرُو	شَكَر	شكْرا	سكَر
سَلَم : سلاَم	شَلَمو	شَلم شلوم	شْلَما شلم	سلم: سلام
سنٌّ	شِنُو	شن	شنَا	سن
سُنْبُلَةٌ	شوبُلّتُو	شِبلت	شبْلتا	سَبْل
سألَ يَسْألُ	إشْأل	شأَل يشأل	شأل	سال
سماءٌ	شَمُو	شَمَايم	شْمايا	سماي
شَمْسٌ	شَمْشُو	شمش	شمْشا	شمس
شعْرٌ	شَرْتُو	سعار	سَعْرا	سعْرتْ
صرَخَ	صرخ	صَرَح	صرْح	صرخ
ضرَّة	صرّتُو	صَارَاة	عرَتا	ضر
طَحَنَ يَطْحَنُ	إطن	طَحَنَ يطحَن	طحن نطْحن	طحن
طَعْمٌ	طمو (عقل)	طَعَم	طَعْما	طَعْم
طيِّبٌ	طَبو	طوب	طَبا	طيب
ظُفر	صُبرُو	صِبرن	طفْرا	ظفر
ظِل	صِلُّو	صل	طُلاَّ	(صلّلوت)
عشر (10)	عشْرو	عسْر	عْسَرْ	عَشْرُو
عُضَّ : عَصا	عِصُو	عص	أعَا	عُد
عَظْم	عصمْتُو	عصم	عَطْمَا	عَضْم
عقرب	عَقْرَبو	عَقْرَب	عقربا	عَقْرب
على	إلى	عَل	عَل	على
عمود	إمْدو	عَمُود	عَمُودا	عَمَد
عِنَب	إنْبُو (كرم)	عنَب	عنْبْتا	عنب (سبئى)
عين	أنُو	عينِ	عَينا	عَين
فَتَحَ	إبت	فتح يفْتَح	فْتَح	فَتح

عربي	اشوري بابلي	عبري كنعاني	آرامي سرياني	لغات جنوب الجزيرة والحبشة
فتل يفتل	فتل	فتل يفتل	فْتَل	فتل
فم	بُو	به	بُوما	أَفْ
قرُب يَقْرب	قرب	قرب يقْرب	قْرب	قرب
قَرْن	قَرْنُو	قرن	قرْنا	قَرْن
قمح	قمُو	قَمح (دقي)	قَمْحا (دقيق)	قَمْح (فاكهة)
قوس	قَشْتُو	قشت	قَشْتا	قَشت
كبد	كبتُو	كَابد	كَبْدَا	كَبد
كرش	كَرْشُو	كرس	كَرْسَا	كَرْش
كلب	كَلعبُو	كلب	كَلبًا	كَلْب
كوكَب	كاكُبو	كوكَب	كَوْكَبا	كوكَب
كلية	كِلتُو	كِلْيَه	كِلْتا	كُلت
كل	كُللاتُو	كل	كُل	كل
كما	كِما : كِ	كما : كَ	كَ كْما	كَمَا
لب (قلب)	لِبُّو	لب	لبَا	لبه
لَبس	لبش	لبش يلبش	لبش	لبس
لسان	لشانو	لشون	لشَنا	لسَان
لهب	لابو	لهب	شلهب	لَهْب
ليل	ليلَتُو	لَيْلَه لَيلِ	لليَا	ليله
ماء	مُو	مايم	مَيَا	مَاي
مائة	مأتُو	مأه	مَاا	ما أت
متى	مَتى	مَتَى	أمَتْ	مت (ي)
مثل	مِشْل	مَشَل	مثل مَثْلا	مسل
مر	مرُّو	مَر	مَرْ	مَرَّا
ملك	مَلْكُو	ملك	مَلْكا	ملكي
موت	مُوتُو	مَوت	مَوْتا	موت
نسر	نشْرُو	نشر	نشْرا	نشْرْ

عربي	اشوري بابلي	عبري كنعاني	آرامي سرياني	لغات جنوب الجزيرة والحبشة
نَفَخَ	نفح	نَفَح	نفح	نفخ
نفس	نَبشْتُو	نفش	نَفْشا	نَفْس
نمر	نِمْرُو	نَمر	نْمَرا	نَمر
و، حرف عطف	و	و	و	و
ودَّ	ودّ	يَدَد	يـِدُّ	وُدَّ
ورق	وَرْقُو	يرق	يَرْقا	وَرق
وقر	وَقْرو	يَقَر	إيقَر	وَقر
وَلَدَ	وُلد	يَلَد	إيلدْ	وَلَد
يد	إدُو	يَدْ	إيدَا	أدْ
يمين	إمْنُو	يَمين	يَمينا	يَمَنْ
يوم	أُمْنُو	يوم	يَومَا	يوم

من كتاب «تأريخ اللغات السامية ـ أ. ولفنسون (أبو ذؤيب) ـ ص 283ـ294».

اللغة المندائية (الصابئية) وأصلها الآرامي

هذا جدول يكشف عن مدى التقارب بين اللغتين العربية والسريانية. أما بالنسبة للغة (المندائية) فإنها لغة الصابئة في جنوب العراق والأحواز. والمندائية هذه لغة آرامية ولكن بلهجة خاصة متميزة عن السريانية. ان آرامية اللغة المندائية تثبت أن لغة أهل الجنوب كانت الآرامية ولكنها ذابت في اللغة العربية مع انتشار الاسلام والتعريب ، وقد حافظ الصابئة على لغتهم الآرامية بسبب محافظتهم على دينهم الجامع بين عبادة النجوم البابلية والروحانية العرفانية القريبة من المسيحية :

السرياني	المندائي	التفسير بالعربي
إليا	الا	مرتفع معناها المكان العالي
آلاها	آلاها	الله
أطفا	أطف	العطف والعاطفة
أيّا	أيا	هذه أو هي للمؤنث
الما	الما	عالم بالعربية
اليها	الف	المتعلم الذي يستطيع قراءة حرف الألف
أمّا	اما	ومنها العمة
امّو	امو	ومنها العم
آمين	امين	آمين والامين
أمرَ	امر	أوعز
أمر	امر	العمر
اناشا	اناشا	الانسان والناس
ناشوثا	ناشوثا	الإنساني
أمثا	أنتا	أُمّة من كلمة الام
أنا	أنا	انا
أنا	أنا	عني عناية
ادمّا	آدم	أدم وأديم الارض الحمراء
بخ	اها	أخ اخوان
أصبا	أصبا	اصبع اصابع

ابشر	اباثر	اتبع الاثر
ابد	أبد	الى الابد
أَبَدَ	أَبَدَ	عبد وعبادة
سارا	سرا	القمر (السهر)
اسوثا	اسوثا	الصحة والسعادة
اربايا	اربايا	عربي
اصرا	اسرا	عشرة

من مجلة «حويودا ـ حزيران 1995 ـ ص 35 السويد»

الساميون ليسوا عرباً بل سكان المشرق الأصليون

يبدو أن كتابة تاريخ المنطقة خضعت الى حد متطرف للمعتقد السياسي «العروبي»، من الأكاذيب الكبرى التي هيمنت على الجميع بحيث الغت تماماً أي امكانية للشك والتساؤل هي الفكرة القائلة بأن «أصل الساميين من الجزيرة العربية(*)». ليست المشكلة بمدى صحة هذه الفكرة بل المشكلة بالاعتقاد المطلق بأن هذه الفكرة «الفرضية» هي الوحيدة التي تداولها العلماء المختصون. لكن الحقيقة ان اي قارىء سريع لكتب العلماء المعروفين بهذا الشأن يندهش باكتشاف أن هناك عدة فرضيات متداولة بهذا الخصوص ولا زال الجدل والبحث جارياً ولم يتوقف:

❖ «واذا فرضنا صحة الرأي القائل بأنه كان لجميع الأمم السامية موطن واحد ومهد أصلي نشأت كلها فيه ثم تفرعت عنه وانتشرت في أنحاء المعمورة فأين كان هذا الموطن الأصلي؟

الحق ان هذه مشكلة دقيقة جداً بذل فيها العلماء المستشرقون جهداً كبيراً ولكنهم لم يتفقوا على حل لها حتى الآن بل تشعبت فيها آراؤهم واختلفت أقوالهم اختلافاً عظيماً.

فبعضهم يزعم أن المهد الأصلي للساميين انما هو أرض أرمينية بالقرب من حدود كردستان وبعضهم يقول أن هذه المنطقة هي المهد الأصلي للأمم السامية والأمم الآرية جميعاً ثم تفرعت منها جموع البشر في أرض الله الواسعة.

وللتوراة نظرية خاصة عن أقدم ناحية عمرها بنو نوح وهي أرض بابل وقد تكون هذه النظرية أقرب الى الحقيقة فقد أثبتت البحوث التاريخية أن أرض بابل هي المهد الأصلي للحضارة السامية.

وقد أيد العالم جويدي هذه النظرية في رسالة يقول فيها إن المهد الأصلي للأمم السامية كان في نواحي جنوب العراق على نهر الفرات وقد سرد عدداً من الكلمات المألوفة في جميع اللغات السامية من العمران والحيوان والنبات وقال أن أول من استعملها هم أهل تلك المنطقة ثم أخذها عنهم جميع الساميين.

---

* نكرر القول ونؤكد لكي لايساء فهمنا، بأن رفضنا لفكرة قدوم الساميين من الجزيرة العربية لايتنافى مع احترامنا واعتزازنا بشعوب الجزيرة العربية وبأنهم أشقاء لنا في التاريخ والجغرافية والحضارة.

ولكن نولدكه (Noeldeke) يعارضه في هذه النظرية معارضة شديدة ويقول إن من العبث أن نعتمد في اثبات حقيقة كهذه على جملة كلمات ليس ما يثبت لنا أن جميع الساميين أخذوها عن أهل العراق ثم يذهب في تأييد معارضته الى سرد بعض كلمات عن الحيوان والعمران كانت ولا شك عند جميع الأمم السامية من أقدم الأزمنة مثل جبل وصبي وخيمة وشيخ واسود وضرب فهذه المعاني تختلف تسميتها فكل لغة سامية منها تسميها باسم يغاير الاسم الذي تطلقه عليه اللغة الأخرى مع أنها أجدر المعاني بأن يكون لها لفظ مشترك في كل اللغات السامية لأنها كانت موجودة عند الجميع حين كانوا أمة واحدة وحين تفرقوا أمّما شتى.

من كل هذا يتبين أن من العسير أن نجزم برأي في المهد الأصلي للأمم السامية.

من كتاب «تاريخ اللغات السامية أ ـ ولفنسون ص 4 ـ 5».



في السنوات الأخيرة بدأ الكثير من العلماء يميلون الى فرضية قدوم الساميين من شمال افريقيا، بسبب تأكدهم من التشابه اللغوي والعرقي بين الساميين والحاميين (المصريون والبربر). لكن مع هذا الميل الا ان العلماء يدركون ويعترفون ان بلداننا ظلت مقطونة منذ عشرات الآلاف من السنين قبل شيوع اللغة السامية وبالتالي فان الناطقين بالسامية هم أولاً منحدرون من أسلافهم الأوائل السابقين للهيمنة اللغوية السامية. لكن اللغة السامية نفسها تكونت من امتزاج لغة القبائل «السامية» القادمة من شمال افريقيا مع لغة الشعوب الأصلية، وهم السومريون الذين عرفوا في العراق كبناة أول حضارة مكتوبة، مع افتراض وجودهم في كل المنطقة المشرقية من دون تمكنهم من كتابة لغتهم كما حدث في جنوب العراق. هنا رأي بخصوص سكان فلسطين:

❖ لقد ارتأى فرونزارولي (Fronzaroli) أن موطن الساميين لم يكن الصحراء العربية، بل الأراضي الزراعية في سوريا ــ وفلسطين نفسها، وذلك بالاستناد إلى أركيولوجيا ما قبل التاريخ، وانطلاقاً من شبه القاموس الذي وضعه فرونزارولي، أيد تيلوك (Tyloch) ــ رغم عدم موافقته على نظرية فرونزارولي حول الأصول السورية ــ الفلسطينية ــ تصوره لأصل الساميين بأنهم شعب مستقر يعرف الزراعة جيداً. إحدى نقاط قوة هذا الاتجاه الجديد في

اللغويـات المقارنـة هـي تأثرهـا بالتـاريخ وإفـرازه بـضرورة ربـط النظريـة اللغويـة بالـسجلات الأركيولوجية وفق أحكام التاريخ الأثنو ـ أركيولوجي.

عام 1981، وبالاستناد لشبه القاموس الذي وضعه فرونزارولي، حاول دياكونوف وضع الخطوط العريضة لأصول اللغات السامية المشتقة من اللغات الأفروـ آسيوية نتيجة هجرات من شمال إفريقيا بين الألف السادس والألف الرابع إثر جفاف الصحراء. ويحدد دياكونوف فترة الانحلال الأولى للهجات الأفرو ـ آسيوية إلى أسر لغوية بين الألف التاسع ــ السابع قبل انتشار الكثبان الرملية في شمال إفريقيا. أواسط الثمانينات، اقترح بي. بيرنز (P. Behrens) تصحيحاً رئيسياً للهيكلة التي أعاد دياكونوف بناءها، معترضاً على تحديده لموطن اللغات الأفرو ـ آسيوية بأنه «الصحراء الخضراء» (Green Sahara)، مقترحاً بدلاً منه إقليم كردفان ــ دارفور في السودان، قبل 6000 قبل الميلاد، عندما انتقلت اللغة البربرية إلى الصحراء قبل أن يعزل توسعها شمال إفريقيا عن اللغات البربرية السابقة إلى الجنوب الشرقي. تصحيح بيرنز لمقولة دياكونوف جذاب بصورة خاصة، لأنه يحل مشكلة انعزال اللغات البربرية جنوب وشمال الصحراء، ولكنه رغم ذلك، يعتمد على صحة تصوره لتطور جفاف الصحراء، ولا يبدو أنه يقدم تصوراً مناسباً لتطور اللغات الأفرو ـ آسيوية الأخرى في الشمال.

وينبغي أن يكون التحول الثقافي للغات الأفرو ــ اسيوية قد حصل هذا التحول عبر الهجرات إلى مصر شرقاً، ثم سوريا وفلسطين شمالاً. أما متى حصل هذا التحول بالضبط، فغير معروف. انتقال الساميين التدريجي إلى سوريا ـ فلسطين، يمكن اعتباره قد بدأ في أي وقت خلال هذه الفترة واستمر إبانها، رغم أن عبور الدلتا (التي كانت في ذلك الوقت بحيرات ومستنقعات) لا يبدو محتملاً خلال القرون الأولى من فترة الجفاف، أو ملائماً للرعاة والفلاحين. وإذا أراد المرء أن يعتبر أن الانتقال قد بدأ مبكراً، فالمسار عبر النيل وفي اتجاه وادي الحمامات معقول أكثر. أما التاريخ اللاحق، الأقرب إلى 4000 ق. م فهو مناسب أكثر لإيضاح الانعزال المصري السابق، لأن انخفاض منسوب المياه في الدلتا وتقلص فيضانات النيل في ذروة الجفاف، يجعل مساحات واسعة في الدلتا ووادي النيل صالحة للزراعة، فيما أخذت مصر في الوقت نفسه تنعزل عن الغرب بسبب تضخم الكثبان الرملية في ليبيا (الوقت الأنسب هو 4000 ق. م.) ويحتمل أن يكون الجفاف المعاصر في النقب وسيناء وصحراء مصر الشرقية قد قطع الاتصالات مع المجموعات الأفرو ـ اسيوية في سوريا ـ فلسطين، مما أتاح للغة المصرية أن تستقل عن السامية المتمركزة في هذه الفترة (5000 ــ 4000 ق.م.) في سوريا ــ فلسطين. كما

يتوجب أن يكون قد تم في هذه الفترة أيضاً (فترة ذروة الجفاف، أي حوالي 4000 ق.م.) انفصال السامية الغربية عن اللهجات السامية الشمالية التي انتقلت إلى وادي النهرين، مما جعلها تتصل بالسومرية خلال الألف الرابع. والمرحلة التالية القليلة الأمطار في سوريا ــ فلسطين والتي دامت من 3500 ــ حوالي 2350 ق.م. (فترة تطور الزراعة الكثيفة في العصر البرونزي القديم) أدت أيضاً في مجرى الاستقرار الكثيف في المنطقة إلى الانعزال اللغوي وتفرد اللهجات السامية المتمركزة في الشمال والتي نجدها في نصوص أواخر الألف الثالث والألف الثاني. هذا التغير اللغوي في سوريا ـ فلسطين أواخر العصر الحجري الحديث وأوائل العصر النحاسي، يجب أن لا يعتبر غزواً كثيفاً أو اقتلاعاً للسكان المحليين. إبان العصر الحجري الحديث كان الخليط الإثني في فلسطين قد أصبح معقداً، ولا معلومات لدينا عن أي تطورات هامة خلال فترة الانتقال إلى العصر النحاسي. وأكثر من ذلك، فإن وجود مستويات ثقافية مادية لدى السكان المحليين، ووجود قرى ومدن ذات حجم كبير ونظام اجتماعي، تفوق أي شيء يمكن توقعه في إفريقيا، يجعل من الصعب ان نتصور سوريا ـ فلسطين عرضة لغزو قام به عدد لا بد أن يكون صغيراً، من الفلاحين والرعاة الساميين الذين انتقلوا من شمال افريقيا إلى المنطقة، خلال هذين الألفين من السنين. الأحرى هو أن السكان المحليين استمروا، وأن التغير كان لغوياً وتدريجياً. وفي مجرى هذا التفاعل الثقافي ونتيجة للاستقرار والتكامل (ربما بعد انتشار الأكادية شرقاً في وادي النهرين)، أصبحت السامية الغربية السابقة لغة ثانية ــ ومع تكثف الاستقرار في العصر النحاسي الأخير والعصر البرونزي القديم، تحولت الى لهجات سائدة، وربما بالتالي لغة وحيدة للسكان المحليين في سوريا ــ فلسطين، قبل ظهور إيبلا بمدة طويلة».

من كتاب «التاريخ القديم للشعب الاسرائيلي ـ توماس طومسن ـ ص121 ـ 124».



❖ «واذا لم يكن من شك بأن عروقاً مختلفة شاركت في تكوين سكان سورية فان وجود عرق غريب من «الطغاة في الأرض في تلك الأيام» ليس هنالك ما يؤيده. ولا بد أن قبور المغاور الضخمة المنتشرة انتشاراً واسعاً والتي يبلغ طول بعضها مئات الأقدام بالاضافة الى الأضرحة الأثرية المسماة دولمن (Dolmens) المبنية بحجارة كبرى غير مهذبة على أسس

مستديرة متينة قد كان تأثيرها عظيماً على القادمين الجدد مما أدى الى ظهور مثل هذه الأساطير. وقد انتقلت هذه الأساطير المتعلقة «ببني عناق من الجبابرة» وبالعمالقة الى الأدب العربي والاسلامي. واسم المدينة الفلسطينية الواقعة في المنطقة التي أتى منها جليات وهي بيت جبرين (بالعبرية بيت جُبرين) معناه «موطن الجبابرة».

وتكثر الدولمن حتى اليوم في شرقي الأردن ومرتفعات فلسطين وسورية وفي آسية الصغرى. وتبرهن آثار الأدوات المعدنية على جدران بعض الكهوف الضخمة والحلقات النحاسية التي اكتشفت في احدى الدولمن في شرقي الأردن انها تعود الى العصر النحاسي الحجري. وأكثر هذه القبور (الدولمن) بدائية توجد في أرض كنعان وترجع الى العصر الحجري الحديث أي 5000 ق. م. وتظهر المنشآت المصنوعة من الحجارة الضخمة غربي أوربا بعد ذلك بألف سنة أو أكثر وقد أثار وجودها قصصاً خيالية مماثلة عن الجبابرة في عصور ما قبل التاريخ.

من كتاب «تاريخ سوريا ـ فيليب حتي ـ ج2 ص 28 ـ 29».

العراقيون عرب .. أم العرب عراقيون؟

لقد عودنا المؤرخون القوميون على تقبل فكرة أن سكان الجزيرة العربية «العرب» هم الأصل العرقي والثقافي للمشرق العربي «الشام والعراق». لكن هناك العديد من الشواهد التاريخية التي تثبت العكس تماماً : أن الجزيرة العربية هي الفرع والمشرق هو الأصل. لأن المشرق هو الأقدم سكانياً وحضارياً وقد سبق تاريخ الجزيرة بعدة آلاف من السنين. فكيف يمكن أن يكون الأقدم فرعاً من الأحدث، والأب فرعاً من الابن؟ اننا أبداً لا نبتغي نفي علاقتنا السكانية والحضارية مع الجزيرة العربية ولكن يجب قول الحقيقة والاعتراف بأن سكان الجزيرة العربية وحضارتهم الفرع والمشرق هو الأصل :

❖ «أما من الغرب، حيث يقع هذا الامتداد الصحراوي الرهيب الذي يعد أوسع امتداد صحراوي في الأرض.. وأخطر مصدر للبداوة وأساليبها في التفكير والحياة؛ قد كان باستمرار يتهدد أرض العراق بالاجتياح البدوي العاصف بما يحمل معه من أنماط سلوكية فجة ومُثل متخلفة للغزو والعدوان والفرهود. وكثيراً ما عصف هذا الاجتياح بالمنجز الحضاري والاجتماعي والعمراني لأرض النهرين، فعاد بها القهقرى الى مراحل أدنى انتهت اليه في سلم تطور المجتمع. ولعل زحف البداوة الذي أعقب سقوط بغداد على يد المغول.. اشتد قوة

وترسخ جذراً واتسع أثراً إبان سيطرة الدولة العثمانية على العراق، أوضح ما يمكن أن يقود اليه هذا الزحف من آثار سلبية؛ إذ عاد العراق وأهله بعد أن بلغا الأوج في مراحل التطور المادي والروحي الذي شهدته المجتمعات القديمة، الى حالة من التشتت القبلي والتخلف الروحي والفقر المادي ما عصف بديناميكية الحياة وقوى التطور وآليات الصيرورة الاجتماعية.. وجاء على كل مظاهر النماء والازدهار اللذين شهدتهما هذه الأرض؛ حتى لقد أضحت بغداد ـ حاضرة الدنيا.. وسرة العمارة والتقدم في الأرض؛ لا تعدو ـ على ما شاهدها نيبور ـ قرية كبيرة تنوء بالتخلف والخواء المادي والروحي والفقر في أشد مظاهره وأنكى آثاره؛ وحتى وقف غوستاف لوبون يتساءل : أحقاً أن هذين النهرين هما بالذات اللذان روّيا اولئك المبدعين العظام الذين انبتتهم ارض سومر وأكد وبابل، والذين سنوا للبشر طرائق الحياة المدنية.. وعلموهم من اسرار الوجود والحياة ما أضحى قدراً مشتركاً مسلماً به بديهة في حياتهم اليومية.. وأساساً لبناء الروح والذهن والعمل في اكثر الأصعدة غنى في التركيب وديناميكية في العطاء.. أليس هم ـ على سبيل المثال العابر ـ الذين حددوا الأسبوع بسبعة أيام.. والشهر بأربعة أسابيع.. والسنة باثني عشر شهراً وحددوا الدائرة بـ (360) درجة، واليوم بأربع وعشرين ساعة والساعة بستين دقيقة.. وابتدعوا النظام العشري والستيني في الحساب والقياس الخ، ما ضمته بدعهم وابداعاتهم في تنظيم سياقات العمل والحياة مما ليس لنا أن نستبدلها أو نستغني عنها في حياتنا اليوم، وقد صرنا مما انتهى اليه عصرنا من كشوف ومنجزات ذهنية وتكنولوجية جبارة الى تدشين مرحلة غزو الفضاء الخارجي؟؟!

قد يكون من المناسب بل الضروري، أن نستدرك هنا.. فنقول : ان الصحراء هذه بالذات، هي التي منحت العراق وأرضه ما شمخت به بغداد العباسيين، واستطاعت ان تعيد لبابل دورها الحضاري المتميز في الأرض. فكيف اذن، نوفق بين هذه الحقيقة التي ليس لنا ان نعشو عنها، وبين ما ذهبنا اليه من أمر زحفها الذي لا يورث غير الخراب.. ولا يضم بين طياته غير الدمار الذي يعصف بكل شيء؟؟!

ولتوضيح مرادنا بهذا الزحف.. وازالة ما يتلبسه من غلالات التناقض في القول.. والمفارقة الصارخة في الحكم نقول: اننا لم نرَ بهذا الزحف غير زحف البداوة التي ارتبطت منذ البدء وترتبط بظاهرة الاعراب حيث كانت السمة الثابتة المميزة لهم من حيث هم ظاهرة اجتماعية وانماط متخلفة عادية في التفكير والسلوك؛ وليس العرب الذين جاءوا بالاسلام. اذ ليس خافياً

ان سكان هذه الصحراء كانوا نمطين من البشر: أعراب لا يشدهم الى بعضهم غير العدوان والغزو والسلب والنهب(*)؛ ولا يرتبطون بمبدأ أو يبرون بقسم.. وهم يجمعون بين وحشية الذئب وقسوة القطة وغدر ابن آوى. بل ان القرآن الكريم لينص في وصفهم على مثل هذا الذي ذهبنا اليه.. مفرقاً بينهم وبين العرب الذي حرص على أن يكونوا جند الدعوة وحملة رسالتها.. فقال في محكمه: ﴿قالت الاعراب آمنا. قل لم تؤمنوا، ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الايمان في قلوبكم﴾ الآية 14؛ وقال: ﴿يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم﴾ ـ سورة الفتح، الآية 11؛ وقال: ﴿الاعراب أشد كفراً ونفاقاً وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله﴾ سورة التوبة، الآية 97.

أما النمط الثاني من سكان هذا الامتداد الصحراوي الرهيب.. فهم العرب الذين استوطنوا مراكز حضرية ـ مدينية هي اقرب في وضعها الحياتي وبنيتها الاجتماعية وأساليبها في التفكير والعمل من مراكز الحضارة القديمة في الأقطار المحيطة بأرض الجزيرة العربية .. وداخل أرض الجزيرة ذاتها في اليمن وسواحلها الشرقية المطلة على الخليج العربي وخليج عمان. وهناك من يرى أن سكان هذه المراكز الحضرية ـ المدينية هم خليط من سكان العراق القديم والقبائل التي استهوتها التجارة فأقامت في هذه المراكز التي أقيمت على طول طريقي التجارة العالمية عبر الصحراء العربية الشرقي والغربي، حيث يصل الأول سواحل الخليج العربي وخليج عمان بسواحل البحر الأبيض المتوسط في غربي آسيا وشمال افريقيا؛ ويصل الثاني اليمن وسواحل البحر الأحمر ببلاد الشام. ولعل اتخاذ آخر ملوك بابل من الكلدان ـ نبونيد، من مدينة تيماء التي تقع شمال خيبر والمدينة المنورة بين حائل وتبوك في شمال أرض الجزيرة، عاصمة ثانية له.. ومن الصحراء العربية وحران عمقاً استراتيجياً لبابل، يبرر لهذا الرأي ما ذهب اليه بشأن سكان هذه المراكز الحضرية. بل ان هناك من يذهب أبعد.. فيرى أن البابليين الذين تسنى لهم النجاة من المقتلة التي أقامها داريوس دارا إثر احتلاله الثاني لبابل انتقاماً من ثورتها عليه وخلعها نير سلطانه، هم الذين بنوا حضارة الحجاز.. وعقدة حركة قوافلها على طريقي تجارتها الشرقي والغربي.. ومركزها الديني الذي لا يضاهى ـ مكة جرهم وقريش. لذلك كان هذا الثراء الذي تميزت به لغة قريش وحياتها المادية والروحية، والذي تفجر بالقرآن وعياً وصياغات ما زالت تحتفظ بألق عجيب في النسيج الصوتي والدلالي الذي تفردت به ووقف

---

* إننا لانتفق مع هذا الوصف السلبي التعسفي للبدو. والحقيقة ان سلبيتهم تكمن في اختلافهم عن أهل الحضر، وان اجتياحهم للمدن بسبب قحط الصحراء هو سبب هذه النظرة السلبية عنهم (سليم مطر).

منه العقل والخيال العربيان موقف المحاكي والتابع لا المماثل والنظير عبر مختلف عصور الابداع والعطاء في مختلف صنوف فن القول.

وربما جاءت الأسطورة الدينية التي تقول بأن ابراهيم الخليل ـ وهو كلداني من اور، هو الذي بنى بمكة بيتها المقدس، وكان من نسله ابنه اسماعيل من زوجته الجرهمية.. حيث كانت قبيلتها تسكن مكة وقريش وكل العرب المستعربة ـ أي المتحضرة من قبائل شمال شبه الجزيرة وشرقها من سكان المراكز الحضرية التي أشرنا اليها آنفاً، لتؤكد هذا الرأي أو الفرض التأريخي وتكرسه واقعة تاريخية..»

من كتاب «محاولة في فهم الشخصية ـ محمد مبارك ـ ص 21 ـ 24».



ان أقدم حضارة في الجزيرة العربية هي الحضارة السبئية في اليمن. التي بدأت حوالي الف سنة قبل الميلاد. أي بعد أكثر من الفي سنة من حضارة العراق وسوريا. وقد استغرب العلماء من انتقال اليمن فجأة من العصر الحجري الى عصر البناء والكتابة من دون اي تطور معقول، وهذا يعني قدوم شعب متحضر الى اليمن:

❖ «السبئيون في نظر الكثير من العلماء جاءوا الى اليمن من الشمال. فالدكتور فرتزهومل يقول: ان الفترة السابقة لتاريخهم الحقيقي بدأت خارج اليمن، ويرجح هذا الوطن الخارجي أنه كان في الأصل في شمال بلاد العرب. ومثل هذا سبق أن أوصى به سترابر حين ربط بين الأنباط والسبئيين لكونهم أول من سكن العربية السعيدة. وتمشياً مع هذا الرأي اقترح الأستاذ و. ف. البرايت تاريخاً لهجرتهم حوالي 1200 ق. م ذاهباً في نفس الوقت إلى أن هجرتهم تلك تأتي بعد هجرة القبائل الأخرى (معين وحضرموت وقتبان) والتي حدثت في تقديره حوالي 1500 ق. م».

من كتاب «تاريخ اليمن ـ محمد بافقيه ـ ص 51»



ان هذا الشعور الموروث لدى العرب بأنهم من أصل «بابلي» قد عبر عن نفسه من خلال الاعتقاد بقدوم اسماعيل من «أور» وان ابراهيم هو الذي بنى الكعبة. وهذه حكاية معروفة من الامام علي :

❖ «جاء في اللسان: قال محمد بن سيرين: سمعت عبيدة قال: سمعت عليّاً (رض) يقول: «من كان سائلاً عن نسبتنا فإنّا نبط من كوثى».

قال أبو المنصور : والقول هو الأول لقوله (رضي) : فإنها نبط من كوثى، ولو أراد كوثى مكة لما قاله نبط. وكوثى العراق هي سُرّة السواد من محل النبط. وإنما أراد عليٌّ أن أبانا إبراهيم كان من نبط كوثى. ونحو ذلك قال ابن عباس : نحن معاشر قريش حيّ من النبط من أهل كوثى. والنبط من أهل العراق».

وأنت تعلم أن مراد العرب بنبط العراق : البابليون الأقدمون. وعلى هذا يكون القرشيون بابليّي الأصل فلما دخلوا بلاد العرب أدخلوا إليها لغتهم معهم».

من كتاب «حصاد الفكر في اللغة العربية ـ لجنة باحثين ـ ص 285 ـ 286».



ومن الشواهد التي تؤكد ارتباط الجزيرة العربية بالشمال (العراق وسوريا) ان اديان العرب «الجاهلية!» قدمت من الشمال، كما يخبرنا الباحث المصري شوقي عبد الحكيم :

❖ «واذا ما حاولنا تتبع المراحل التي قطعها تطور الآلهة والأساطير السومرية، بعد أن توارثها الكلدانيون والبابليون والآشوريون، أي الفرع السامي سكان الحضر في دلتا العراق، ثم كيف انتقلت عبرهم الى القبائل العربية أو السامية قد كشفت أن الآشوريين واليمنيين كانوا يحتفظون بأوثان الآلهة السومرية التي توارثها الكلدانيون من أسلافهم السومريين اللاساميين القدماء.

فلقد كانت بابل وآشور هما بمثابة المنبع الأكثر خصوبة وتحضيراً والذي فاض على ما يجاوره من تخوم وقبائل مثل القبائل العربية على طول شبه الجزيرة، بل ومن نفس اور الكلدانيين بين النهرين خرجت ونزحت قبائل ابراهيم وآشور السامية الى الشام وفلسطين قبل انتهاء الألف الثالثة قبل الميلاد.

وكشفت الدراسات الأسطورية المقارنة عن أن هناك أساساً اسطوريا عقائدياً بل لاهوتياً مشتركاً لأغلب هذه الشعوب السامية منذ أكثر من الفي عام قبل الميلاد، سواء فيما بين النهرين أو في مكة واليمن والشام وفلسطين. فاذا ما أخذنا مثلاً بسيطاً : فالاله الكلداني البابلي بعل الذي من اسمه تسمت بعلبك في لبنان، ظهر منذ بداية الألف الثالثة ق. م. عند البابليين باسم «بل»، وعنهم أخذه الكنعانيون ولقبوه بالسيد، اي «زوج»، وجمعها بعليم والصيغة المؤنثة منه هي بعليت أو بعلاية.

وعرفت ديانة البعل ـ كاله ولقب ـ في سوريا وفلسطين منذ بداية الألف الثانية قبل الميلاد. ثم تطورت ديانته ودخلت في اللاهوت المحلي بعد ذلك الزمن، فأصبح لكل مدينة بعلها أو ربها الحامي، وتنوعت القابه، فالآلهة «ميلكارت» كانت بعل طيرة. بينما أصبحت عشتروت هي البعلة الأنثى في بيبلوس.

وينسب لعمر بن لحي الجرهمي، انه أول من جاء بأصنام هذه الآلهة من الكلدانيين ـ العراقيين ـ والأنباط، ونصبها حول الكعبة.

وكان تمثال الاله «بعل» أو «بيل» عند الكلدانيين والآراميين، على هيئة ملك جليل جالس على عرشه، وعلى هذا تعارف عليه العلماء عندما وجدوه في الكعبة، وعرفوا على الفور انه اله دخيل مجلوب من الخارج. يقول الكلبي صاحب كتاب «الأصنام» : «كان فيما بلغني، من عقيق أحمر، على صورة الانسان، مكسور اليد اليمنى، أدركته قريش فجعلوا له يداً من الذهب».

كما يرى البعض أن البعل هو الأصل الذي منه جاء الاله اشور في الميثولوجي الآشوري، وكان يصور على هيئة نسر له رأسان وجناحان مقدسان في هيئة المحارب، وتظهر عشتروت كثيراً كزوجته وشريكة حكمه، كما يرى البعض ان عاشوراء (أول شهور السنة الاسلامية) أو آهورا الفارسية من بقايا شعائر الاله اشور الذي من اسمه تسمى الملوك الأشوريون.

فلقد كان للاله بعل أو هبل رب الأرباب في الميثولوجي البابلي، بنات ثلاث، هنّ «ايرشكيجال» الهة العوالم السفلى أو الجحيم، واخواتها الانثيان «مامناتو» و «عشتر» أو «عشتروت». وهنّ الآلهات الثلاث اللاتي عرفن بـ «بنات الله الثلاث».

فآلهة العوالم السفلى والموت والظلام ايرشكيجال عند السومريين، والتي عنهم أخذها خلفاؤهم وورثتهم الساميون البابليون، ولقبت باسم «اللات» المرة الأولى في احدى قصائد الفروسية البابلية، وهي ملحمة الملك أزدوبار الذي يرى البعض أنه هو بعينه نمرود الجبار، الذي ما تزال تتواتر حوادثه على طول الشرق الأدنى، مع الخليل ابراهيم.

كما ان اللات عندما دخلت الميثولوجي السوري، أصبحت قرينة الاله «حداد» اله المطر، ولقبت بربة البيت عند الأنباط، كما تشير بهذا حفريات بعلبك. وباختصار فان اللات كآلهة للشمس، كما يرى «ولهوسن»، دخيلة على العرب المكيين، كما يرى ابن الكلبي «هي أحدث من مناة». ويقال ان عمر بن لحي قد جاء بها من النبطيين، وكانوا يعتبرونها آلهة الشمس.

أما الأخت الثانية من بنات الله الثلاث، فهي «العزى»، وعرفت بدورها تحت هذا الاسم في الميثولوجيا البابلية، وقيل ان معناها ملك أو اله النار، فالعزو هي النار في اللغة البابلية، ومعناها في العبرية الشدة أو القوة. وعندما نزل الساميون الأوائل فلسطين. وجدوا عديداً من الأماكن ـ غير السامية ـ المقدسة، مثل الأشجار والجبال وآبار الماء، فأطلقوا على كل منها اسم بعل، وعن هذا الطريق عبد سكان كل مدينة بعلها المنفرد كاله محلي. وبتوالي العصور دخلت ديانة البعليم لدى كل شعوب الشرق الأدنى القديمة، فأصبح الها للسماء، بل انه توحد بالسماء، وأنزل المطر، وعرف ببعل شيم عند شعوب آسيا الغربية، كما توحد مع حرارة الشمس التي منها ينبت النبت ويكثر الاخصاب، كما أن من القابه التي عرف بها اله التنبؤ. ومن اسم بعل جاءت تسمية البطل القرطاجي هانيبال ــ وقرطاجنة كانت من أقدم المستعمرات الفينيقية، كما ان من أسمائه الأخرى بعل قبيلة جاد، وبعل زيفون، وبعل زيبوب أو الذباب. كما أن البعل توحد بالاله السومري الذي توارثه الساميون وهو الاله ميردوخ أو مردوك، والذي أصبح الوريث الشرعي لسلطان الاله الآشوري آشور، الذي تضاعف نفوذه عقب اضمحلال اشور، وكان يعرف باسم «بعلو».

يقول «اورث» في كتابه «ديانة البعليم» ان بعل العبري هو بنفسه الاله «هبل» اله قبيلة قريش في مكة.. وقال: «وفي اعتقادي ان عبادة البعليم ليست بعبادة فلكية أو تنبؤية في منبتها الأصلي، ذلك لأن علم النجوم لم يعرف في آسيا الغربية قبل عصر الآشوريين والكلدانيين».

ويرى المستشرق نولدكه: ان اللقب الالهي بعل ـ أي السيد أو الزوج ـ كان معروفاً لدى الساميين الشماليين، وعنهم توارثه عرب شبه جزيرة سيناء، فعرف عندهم باسم «بعلو» ووجد في النقوش عقب اسماء الاعلام مثل «عبد البعلي» و «اوس البعلي» و «جرم البعلي».

يقول ابن حزم، ان في بعض كتب اليهود تفسيراً لتيه بني اسرائيل مع موسى في سيناء «حتى ماتوا كلهم، انما كانت لأن فرعون كان قد بنى على طريق مصر الى الشام صنما سماه بعل صفون، وجعله طلسما لكل من هرب من مصر، يحيره ولا يقدر على النفاذ منه».

ويرى نولدكه ان عرب شبه الجزيرة العربية، أخذوه عن عرب شبه جزيرة سيناء وعنهم وعرفوه لفظاً ومعنى، ووجد في التنزيل ﴿أتدعون بعلاً وتذرون أحسن الخالقين﴾.

ويقال ان أول من استقدمه الى مكة هو عمر بن لحي الجرهمي، فقد قدم بصنم يقال له «هبل»، وكان هبل من أعظم أصنام قريش، فنصبه على البئر في بطن الكعبة، وأمر الناس

بعبادته، فكان الرجل اذا قدم من سفر بدا به على أهله بعد طوافه بالبيت، وحلق رأسه عنده، وكان اسم البئر التي في بطن الكعبة «الأخسف» والعرب تسميها «الأخشف»، كما يقول الآزر في أخبار مكة.

ويمكن القول بأن العزى عند العرب هي في منبتها الأصلي «اينانا» عند السومريين، والتي اشتهرت باسمها الأكادي عشتروت عند البابليين، واناثا ـ أي أنثى ـ عند الكنعانيين، وايزيس في مصر، وافروديت عند اليونان، وفينوس عند الرومان، وكو بيلا عند الحثيين.

يقول نولدكه : «ان الشاعر السوري اسحاق الانطاكي الذي كان يعيش في أوائل القرن الخامس الميلادي ذكر احتفاء العرب بعبادتهم العزى أو نجم الصباح أو الزهرة ــ فينوس ــ، كما يقال انهم كانوا يقدمون لها التضحيات، فالمنذر ملك الحيرة قدم لها قرباناً من الزسرى، وقيل انه ـ أي المنذر ـ ذبح ابن حليفه المسيحي الملك الحارس، قرباناً لها».

فكانت العزى الهة للجنس والاخصاب عند العرب، كما كانت عند البابليين. ويعتبر الحمام والغزال من طيورها وحيواناتها المقدسة، وهما نفس شعائرها عند البابليين والسوريين والنبطيين، وكان العرب الجاهليون مغرمين بتشبيه النساء الجميلات بالغزال.

يقول الألوسي: «كانت المرأة من العرب اذا عسر عليها خاطب النكاح، نثرت جانباً من شعرها، وكحلت عينيها، وحجلت على احدى رجليها، ويكون ذلك ليلاً. وتقول : يا نكاح أبغي النكاح قبل الصباح». أي أنها تريد الزواج أو المخالطة الجنسية قبل ظهور نجم الصباح أو الزهرة. وتحفل المواويل والأغاني الشعبية، بآلاف القطع الشعرية التي تتغنى الى اليوم بنجمة الصبح.

ويضيف سميت : ان عبادة الزهرة ــ أو نجم الصباح ــ انتشرت في اليمن، وخلال اقامة شعائر اعيادها كانت تقام الاحتفالات والأفراح المختلطة، أو ما عرف عند معظم الشعوب والأقوام السامية، بالغرس المختلط، وما تزال بقاياه أسرية حتى وقت قريب، خلال الاحتفالات بالموالد المحلية، على طول مصر والعالم العربي، وربما ما تزال أيضاً تقويمات العرس المختلط سارية يجري التعامل بها.

يتضح من هذا أن منابع الميثولوجيا العربية تضرب بجذورها على مدى 6 آلاف عام، أي منذ السومريين غير الساميين، الذين توارثهم العرب واليهود الساميون».

من كتاب «موسوعة الفلكلور والأساطير العربية شوقي عبد الحكيم ص 31 ـ 37»



الرؤية «العروبية» لتاريخ الشعوب الشرقانية

هذا نموذج للرؤية «العروبية» للتاريخ. المؤرخ العراقي المعروف (أحمد سوسة) بعد أن تحول من ديانته اليهودية واعتنق الاسلام، راح يطبل ويزمر لـ «العروبة» وجعل من تاريخ المنطقة كله ينطلق من الجزيرة العربية ويحمل اسم «العرب» حتى قبل ان يظهر العرب الى الوجود بعدة آلاف من السنين. في كتابه الشهير (حضارة العرب ومراحل تطورها) قام بعملية تعريب سطحية وساذجة لكل تاريخ المنطقة وخصوصاً التاريخ العراقي. هذا مقطع من كتابه :

❖ «أول امبراطورية عربية تؤسس في وادي النهرين ـ الدولة الأكدية (2350ـ 2159 ق.م.) :

الأكديون هم من أقدم القبائل العربية التي نزحت من جزيرة العرب واستوطنت في وادي النهرين منذ أقدم العصور واستقروا في بداية الأمر على ضفة نهر الفرات الغربية في البقعة الممتدة بين دير الزور وهيت(*)، وهي أقرب موئل خصيب من موطنهم باعتبارها مجاورة لبادية الشام، ثم انحدروا جنوباً حتى اتصلوا ببلاد سومر ودام هذا الاحتكاك بين الأكديين والسومريين عدة قرون حتى تمكن الزعيم الأكدي سرجون الأول (2340ــ 2284 ق. م.) من القضاء على المملكة السومرية وأسس أول امبراطورية عربية، وهو يعتبر اول قائد عربي عرفه التاريخ ومؤسس أول مملكة عربية عظيمة في غربي آسيا شملت معظم أقسام الهلال الخصيب وبلاد عيلام وجزءاً مهماً من اسيا الصغرى الى البحر المتوسط».

من كتاب «حضارة العرب ومراحل تطورها عبر العصور ـ أحمد سوسة ـ ص 135»



تأثير حضارة بابل على العرب وغيرهم من الشعوب

❖ «عمّن أخذ العرب تقسيم أيام الشهر الى أسابيع؟ وما معنى الأسماء؟

يبدو أن تقسيم الزمن إلى فترات معينة تحدرت إلى مختلف الحضارات في بلدان الشرق الأدنى القديم من البابليين. فإنهم بتقدم الحضارة شعروا بضرورة تقسيم الزمن الى مُدَدْ، أو فترات معينة : ساعات وأيام وأسابيع وشهور وسنوات. وكان التقسيم الطبيعي الأول إلى نهار وليل، والسنة إلى فصول متتابعة. وهذا التقسيم قائم على حركة الأرض حول محورها، وحول

* هذه المنطقة تقع على حدود سورية، وهذا يؤكد أن الساميين قد قدموا من الشام وليس من الجزيرة العربية . وليس بالصدفة أن العراقيين قد أطلقوا على الساميين تسميات : اموريون وعرب، والكلمتان تعنيان : أهل الغرب أي غرب العراق بلاد الشام (سليم مطر) .

الشمس. أما أكثر الشعوب التي كانت تقطن المناطق الصحراوية الجافة الحارة فكانت ترى في القمر وتقلّب وجوهه أحسن ظاهرة طبيعية لتقسيم الزمن. القمر عند الرعاة أقرب الى قلوبهم وألصق بخيالهم من الشمس المحرقة. الليل الصحراوي رائع، وجمال القمر فيه ساحر. وإلى جانب روعته وسحره فانه بالنسبة لظهوره هلالاً، ثم بدراً، ثم نقصاناً، فمحاقاً، ينقسم طبيعياً إلى قسمين متساويين: من ولادته إلى تمامه بدراً (14 يوماً)، ومن ظهوره بدراً إلى محاقه (14 يوماً) والـ 14 تنقسم إلى قسمين متساويين : 7 + 7 وهكذا كان الأسبوع. الأسبوع 1/4 الشهر القمري.

وقد خطا البابليون خطوة أخرى إلى الأمام عندما قرنوا 1/4 الشهر (أي الأسبوع) بالسيارات الخمس التي كانت بدورها تقرن بأسماء الآلهة الخمسة وهي :

ماردوخ (أو مردوخ)، وكانوا يقرنون اسمه بالمشتري.

عشتار (أو عشتروت). ونجمه الزُّهرة.

ننب (ni-nib)، ونجمه زُحل.

نابو (أونبو)، ونجمه عطارد.

نِرجال (ne-uru-gal، ومعنى اسمه سيد المسكن العظيم)، ونجمه المريخ؛ ثم أضافوا يوماً من أيام الأسبوع للقمر (Sin=)، ويوماً آخر للشمس (shamash=) وبذلك أصبح عدد أيام الأسبوع عدد الآلهة السبعة العظيمة.

وكذلك الحال عند الشعوب الغربية التي لا نشك في أنها تأثرت بتقسيم الزمن البابلي. وها هي أسماء الأسبوع عندهم أسماء نجوم وآلهة».

من كتاب «دراسات في التاريخ ـ أنيس فريحة ـ ص 115 ـ 116»



عملية التعريب التي جرت بعد الفتح الاسلامي للعراق وسوريا الطبيعية (الشام)

❖ «أما الوجه الثالث من هذا الفتح فهو الفتح اللغوي. كان الانتصار اللغوي أبطأ الانتصارات وآخرها. ففي هذا الميدان اتخذت الشعوب المغلوبة في سورية وسواها أشد تدابير المقاومة. والظاهر أنهم كانوا أكثر استعداداً للتخلي عن عهودهم السياسية بل والدينية منهم للتنازل عن استقلالهم

اللغوي. لذلك استطاعت العربية الفصحى ان تحرز كسبها قبل العامية، فشرع الأدباء السوريون في التأليف باللغة العربية تحت رعاية الخليفة، قبل أن ينتحل الفلاحون السوريون اللسان الجديد. وأقدم ما وصل الينا من المخطوطات العربية النصرانية المؤرخة، مخطوطة الفها أبو قرة (ت 820)، ونسخت سنة 877 في دير القديس بابا قرب القدس. وهي محفوظة اليوم في مكتبة المتحف البريطاني. أما المؤلف وهو من تلامذة القديس يوحنا الدمشقي فقد كان اسقف المذهب الملكاني في حرَّان. ولا شك في ان اعتناق الاسلام قد سهل حركة الاستعراب وزاد في سرعة خطاه، وان التحول من لغة سامية الى أخرى لم يواجه مشكلات لغوية مستعصية.

وما استهل القرن الثالث عشر وآذن العصر العباسي بالزوال، حتى كان النصر قد تم للعربية على اللغة المحلية، وغدت هي اداة التفاهم في الحياة اليومية. إنما بقيت هناك «جزر لغوية» لأقوام غير مسلمين، نظير اليعاقبة والنساطرة والموارنة؛ وقد كان في عهد الصليبيين كثير من مثل هذه «الجزر». وعندما زار بنيامين التودلي جبل سينا حوالي سنة 1170 وجد على قمته معبداً سريانياً، وعند سفحه قرية كان أهلها يتكلمون «اللغة الكلدانية». وفي لبنان الماروني دافعت اللغة السريانية المحلية دفاعاً مريراً وطويلاً، وصمدت في دفاعها حتى القرن السابع عشر. ولا تزال السريانية اللغة المحكية في ثلاث قرى في لبنان الشرقي هي: معلولا وبخعة وجبعادين. وهي لا تزال لغة الطقس الكنسي لدى الموارنة، وفي بعض الكنائس السريانية الأخرى. على أن الموارنة يجرون بعض شعائرهم الكنسية بالكرشوني أيضاً، وهذا الاسم يطلق على العربية المكتوبة بالحرف السرياني، أما السريان الناطقون باليونانية فلم يظهر منهم مثل هذا التعلق بلغتهم الأم، وليس لدينا الا نص عربي واحد كتب بالحرف اليوناني. وهو نص من الكتاب المقدس (المزمور 78 : 20ـ 31 ، 56ـ 61) يعود على ما يبدو الى القرن الثامن وقد عثر عليه في الجامع الأموي».

من كتاب «تاريخ سوريا ـ ج2 ـ فيليب حتي ـ ص 171»



❖ «واذ اخذ غير العرب في الاستعراب واعتناق الاسلام عمدوا الى الالتحاق ببعض القبائل العربية على صورة موالٍ وذابوا فيها تباعاً. ثم أخذ الخط الفاصل بين العرب وغير العرب، وبين المسلمين القدماء والمسلمين المستجدين في الاضمحلال وسرعان ما غدا الجميع عرباً بلا تمييز. حتى كان عهد المماليك فعرف فيه سكان الحواضر «بأولاد العرب» وهم يعرفون

به الى اليوم تمييزاً لهم عن الاعراب سكان البوادي. وقد انقرض السواد الأعظم من أولئك الذين تكلموا السريانية في سوريا والعراق، وكانوا يسمون بالأنباط أو العلوج تحقيراً لهم، ثم زال اسم «آرام» الذي كان يطلق على سورية باللغة المحلية، ليحل محله اسم جديد هو الشام، ومعناه الشمال، واليسار، لأنها تقع الى يسار الكعبة، وذلك في مقابل اليمن التي تقع الى اليمين. وهكذا تمّ تعريب العالم الاسلامي برمته في غضون العصر العباسي، ولأول مرة أخذ الشعور الواعي بالوحدة، مقروناً بوحدة اللغة ووحدة الاعتقاد يستحوذ على النفوس.

على أن اللغة السريانية ما كانت لتزول دون أن تترك طابعها الدائم على اللغة العربية السورية اللبنانية. وهذا الطابع هو الفارق الأساسي الذي يميّز هذه اللهجة عن لهجات البلدان المجاورة. وهو واضح في التراكيب والمفردات والأصوات اللغوية. على أن المفردات في اللهجة الدارجة وعند المزارعين غنية بصورة خاصة بالألفاظ المستعارة من السريانية. وهذه أسماء الأشهر قد تحدرت من السريانية مباشرة وكانت السريانية قد تلت اكثرها من اصل اكادي. هي ابتداءاً من كانون الأول والثاني: كانون معناه الموقد؛ شباط: الضارب أو المهلك؛ آذار: تغييم؛ نيسان: العلم، آيار: انتاج الحبوب؛ حزيران: الحصاد؛ تموز: وليد الماء العذب؛ آب: العصب؛ ايلول: التهليل؛ تشرين: تكريس (الى اله الشمس).

«المصدر السابق ـ 21 ـ 23»



❖ أما بالنسبة لحضور السريان في الدولة العباسية وعلاقتهم مع الطبقة العباسية الحاكمة فان التاريخ يخبرنا بهذا المثال :

«وكانت زبيدة زوجة الرشيد وام الأمين سنداً فعّالاً للمسيحيين في البلاط ومحسنة كبيرة الى الكنائس والأديرة. ويقول عنها ماري : «كانت زبيدة ام الأمين تكرّم طيمثاوس كثيراً وتميل الى النصارى وتستخدمهم، واخرجت توقيع الرشيد باعادة المستهدم من الدير وتوسيعه، وعملت اعلام الشعانين وصلبان من ذهب وفضة، وعاونت سرجيس مطران البصرة على بناء البيع وعضدت جبريل الطبيب في خطابه في ذلك». وتختلف الروايات حول طلاقها ودور طيمثاوس في اعادتها الى وضعها الشرعي. مهما يكن من أمر، فانها احتفظت في قلبها باحترام عميق للبطريرك وعملت جهدها في مساعدته في شتى المجالات».

من كتاب «تاريخ الكنيسة السريانية ـ البيرابونا ـ ج 2 ـ ص24»



علماؤنا الذين صنعوا المسيحية

هذه لمحة عن نموذجين من العلماء الكبار من الشعوب الشرقانية الذين لعبوا الدور الأول في صنع الديانة المسيحية وتطويرها. اخترنا هذين الاسمين لكي نبين ان الكثير والكثير من العلماء والفلاسفة الذين يحملون اسماءً تبدو (يونانية) لأنها تنتهي بحرف الـ (س) على الطريقة اليونانية، ما هم بالحقيقة الا من أبناء منطقتنا ولكنهم عاشوا في ظل السيطرة اليونانية الرومانية وتم حسابهم على أوربا مثلاً اسم (اريوس) بلفظه الليبي الأصلي هو (حاري) يمكن مثلاً مراجعة كتاب (جورج طرابيشي) (معجم الفلاسفة) لاكتشاف انه ما يقرب من نصف الفلاسفة اليونان كانوا من أبناء المنطقة الشرقمتوسطية «العربية».

❖ **الأريوسية :**

«وهي نسبة الى اريوس الذي ولد عام 256 وتوفي عام 336، كان ليبي الأصل تلقى العلم على يد لوقيانوس الأنطاكي ـ ثم ذهب الى مصر حيث رُسّم كاهناً وأخذ يبشر بآرائه التي كفرها ورفضها فيما بعد مجمع نيقيا.

بعد هذا المجمع والمطالبة بنفيه أمر الامبراطور بعودة اريوس وتبرئته عام 330، وحين كان يستعد للرجوع الى القسطنطينية منتصراً، اذا به يفاجأ بموت شنيع جعل أعداءه يذكرون ما ورد في الكتاب المقدس عن موت يهودا الأسخريوطي «لقد مات من اندلاق أحشائه».

آثاره : لم يبلغنا من كتاباته سوى منثورات من آثار ثلاثة تنسب اليه :

1 ـ بعض منثورات من كتابه «ثاليا» أي المائدة أو الوليمة.

2 ـ رسالتان احداهما إلى صديقه أوزيبيوس النيقوميذي عام 321، والأخرى إلى أسقف الإسكندرية قبيل انعقاد مجمع نيقيا.

3 ـ العقيدة التي وجهها إلى الإمبراطور قسطنطين عام 330 ليبرر فيها موقفه في مجمع نيقيا.

الأبولناريّة :

وهي نسبة إلى تعاليم أبوليناريوس اللاذقاني الذي ولد عام 310 وتوفي عام 390 مع أبوليناريوس الذي كان أسقف اللاذقية تحول الاهتمام من سر الثالوث إلى سر التجسد أو التأنس.

يميل أبوليناريوس في تعريفه للإنسان إلى النظرية الأفلاطونية القائمة على أن الإنسان مركب من أصول ثلاثة هي : الجسد ـ النفس الحيوانية ـ الروح أي النفس الناطقة. والكلمة

ناب مناب الروح. فالمسيح لم يكن إلا طبيعة واحدة هي الطبيعة الإلهية اذ أن الجسد بحد ذاته ليس الطبيعة الإنسانية. ولم يكن لأفعال المسيح بعد ذلك إلا أصل واحد تردّ اليه فيتولاها. وهذا الأصل هو الطبيعة الإلهية بالذات».

من كتاب «لاهوت التحرير ـ غسان دمشقية ـ ص 112 ـ 144»



لمحة عن عملية التعريب التي جرت في سوريا الطبيعية (بلاد الشام)

❖ «بلغ الجيش العربي الذي فتح سورية نحواً من 25 ألف جندي. فقد كان عدد الجنود من المسلمين العرب في عهد مروان الأول عشرين ألفاً، كما في سجلات ديوان الجند في حمص وتوابعها. وكان عددهم في عهد الوليد الأول خمسة واربعين الفاً في دمشق وملحقاتها، التي اشتملت على الساحل الفينيقي. وعلى هذا الأساس فان عدد المسلمين في سورية في القرن الأول بعد الفتح لا يحتمل ان يكون قد زاد على مئتي الف نفس من أصل مجموع السكان الذين كانوا يقدرون بثلاثة ملايين ونصف. أما لبنان فقد بقي معظم سكانه من الآراميين الذين تحدروا من أصل فينيقي، وكان في جميع الأمصار اقلية ضئيلة من البدو، لكن هؤلاء استطاعوا ان يلعبوا دورهم الهام في العمل على توحيد الأكثرية المنتشرة في الأصقاع المتباعدة.

لقد كان من استقرار العرب في المدن ان غدت العربية في غضون ذلك الزمن لغة المدن. ثم ان تردد ابناء الريف الى المدن لبيع منتجاتهم او مزاولة اعمالهم دعاهم الى تعلم اللغة الجديدة دون أن يضطرهم الى التخلي عن لسانهم القديم. وكذلك أهل الفكر من السكان الأصليين، فقد استنسبوا ان يتعلموا العربية من أجل ان يؤهلوا انفسهم للعمل في وظائف الدولة.

ان عدد الذين سارعوا الى اعتناق الاسلام من ابناء الأرياف كان أقل بطبيعة الحال من اولئك الذين اقبلوا على اللغة الجديدة. ذلك في الدرجة الأولى، لأن الخلفاء الأمويين باستثناء الخليفة الورع عمر الثاني لم يحبذوا هذا التحول لا سيما في الأوساط الزراعية. وعلى ذلك فان تساهل الأمويين لم يكن محصوراً في الأمور السياسية بل كان عاماً في المنحى الديني والفكري أيضاً. ولئن كانت العاصمة والمدن الكبرى قد اتسمت لدى انصرام العهد الأموي بسمات المدن الاسلامية، فان الأماكن الأخرى وعلى الأخص المناطق الجبلية قد حافظت على

مظاهرها الاقليمية وأبقت على طابعها الحضاري المحلي، ولقد أخرجت سورية الأموية لاهوتياً من أعظم لاهوتي الكنيسة الشرقية واشهر واضعي التسابيح في شعائرها، هو يوحنا الدمشقي؛ وأعدّت للمسيحية من أبنائها خمسة من البابوات، ارتفع منهم اثنان الى مصاف القديسين. اما لبنان، فقد بقي مسيحياً في ايمانه، وسريانياً في لسانه لقرون عديدة بعد الفتح. والواقع ان الذي انتهى امره بالفتح هو النزاع الحربي، أما الخصام الديني والعرقي والاجتماعي، وفوق ذلك كله اللغوي، فكان ما يزال في أوله.»

من كتاب «تاريخ سوريا ـ فيليب حتي ـ ج2 ـ ص 96»



هنا مثال بسيط عن عملية التعريب التي مرت بها الأغلبية الساحقة من شعوب البلدان «الشرقانية». ويبدو ان سكان المدن هم اول من اضطر إلى التعريب بسبب الاحتكاك المباشر مع الدولة العربية وجيوشها. وان المثقفين والمهنيين والكوادر التي تبحث عن أسباب العيش لدى الدولة العربية هم أول الناس الذين فضلوا الادعاء بالنسب العربي لتسهيل عملية تقبلهم في الدولة. هنا نموذج لشاعر سوري معروف :

❖ أبو تمام الطائي :

«ولد حبيب أبو تمام على ما يرجح في قرية قرب دمشق على طريق طبرية نحو سنة778 م من أب أجمع المؤرخون على أنه نصراني اسمه تدّوس «وعندما انتحل الشاعر الاسلام ديناً، عبر اسم أبيه فدعاه أوشا، وانتسب الى قبيلة طيء العربية فعرف بالطائي».

وقد خصّص الأب شيخو فصلاً طويلاً (ص 256 ــ 260)للبحث عن حقيقة انتسابه للنصرانية. وبعد أن أورد عدة حجج ثبت رأيه في هذا الانتساب، أضاف ما يلي : «على أن في ديوانه عدة أبيات تشعر بأنه يدين بالاسلام حيناً يحلف بالبيت الحرام ويقول انه حجّ إليه وحيناً آخر يذكر نبي العرب ودين الإسلام كأنهما نبيّه ودينه واذا ذكر الروم نبذهم بالشرك والكفر ويعظهم بالقرآن. وهذا كله لما يثبت إسلامه» (ص 258)» .

من كتاب «المسيحية والحضارة العربية ـ جورج قنواتي ـ ص 137»



❖ **الصابئة**

«ولم يقتصر الفضل على النصارى من السريان وحدهم، بل كان للوثنيين منهم كذلك فضل كبير على حياة العرب الفكرية. وهؤلاء السريان الوثنيون هم الصابئة أو على الأصح هم منتحلو الصابئية. وقد كانوا يقيمون في مدينة حران. ولما كان هؤلاء من عبدة النجوم وكانوا ورثة العلوم البابلية، فقد توفروا على الاهتمام بالفلك والعلوم المتصلة به من عهد عريق في القدم. اما في ما يتصل بالاقبال على علوم اليونان فقد كان لهم من الرغبة فيها ما كان لمواطنيهم النصارى. وكان من ابرز علماء الفلك ثابت بن قرة (حوالي 836 ـ 901) وإليه والى تلاميذه يعود الفضل في ترجمة معظم المؤلفات اليونانية في الفلك والرياضيات، لا سيما مؤلفات بطليموس وارخميدس. هذا عدا تهذيب الترجمات السابقة، نظير ما قام به ثابت بن قرة من تهذيب ترجمة حنين بن اسحق لآثار اقليدس. وقد تعهد هذا العمل بعد ثابت ابن له وحفيدان وابن لأحد أحفاده، وبنى كل منهم شهرة لنفسه في ذلك. وقد حمل احد الخلفاء سنان بن ثابت على اعتناق الاسلام، وكذلك اسحق بن حنين فقد حمل على قبول الاسلام ديناً له.

وكان محمد بن جابر بن سنان البتاني (حوالي 858 ـ 929) مسلماً آخر من أصل صابئي، وعالماً من مشاهير علماء الرقة. قام بابحاث مبتكرة ادت الى اصلاحات كثيرة في نظام أفلوطين، لا سيما في حساب فلك القمر وأفلاك بعض الكواكب السيارة الأخرى. وقد جاءت ارصاده للخسوف والكسوف رائعة من حيث سعة مداها ومقدار دقتها. ثم اثبت امكان وقوع الكسوف سنوياً وقرر بأرقام ادق مما في الأرصاد السابقة مقدار الانحراف في دائرة الفلك ومدى طول السنة الاستوائية وقد عين في احدى نظرياته المبتكرة الأحوال التي يستطاع فيها رؤية الهلال الجديد. وأثره النفيس الباقي وهو «الزيج الصابئي» ترجم لأول مرة الى اللاتينية في اسبانيا وذلك في القرن الثاني عشر.

على أنه من المحتمل ان يكون الآراميون والسريان المقيمون في بلاد بابل قد عملوا على نقل آثار رياضية وفلكية أخرى. ذلك أن الجبر مثلاً يظهر لتوه علماً مستكملاً في كتاب للرياضي الشهير الخوارزمي (ت 850). وقد كان لهذا العلم عند البابليين اسم خاص هو هذا الاسم عينه أي «غبرو». لكن حلقات الاتصال المفترضة بين السريانية والبابلية في هذا الموضوع مفقودة تماماً».

من كتاب «تاريخ سوريا ـ ص 17 ـ 180».



مثال عن تنوع الفئات اللغوية (الأعراق)

في السودان

❖ «كانت قبائل شمال السودان حتى حصول السودان على الاستقلال في 1956 هي وحدها التي اتصلت بالعرب الذين آل إليهم حكم البلاد، وهذه القبائل هي : النوبيون والفور والبجة. أما أهالي الجنوب النيلي فلم يعرفوا سوى غزوات تجار العبيد، ومثل تلك الظروف لا تساعد على انشاء دولة متعددة الأعراق.

والسودان بمثابة برج بابل من حيث تعدد لغاته، فهناك على الأقل تسع عشرة مجموعة عرقية، يتحدثون حوالي مائة لهجة. ولا يمثل العرب سوى 40٪ من السكان، ولكن يتكلم العربية 52٪ من السكان، مما يبين أن اللغة العربية تتقدم على حساب اللهجات الأخرى. ونظراً لأن العرب أكبر عرق في البلاد، فقد استطاعوا أن يستولوا على أهم مراكز السلطة، مستفيدين من الخلافات الشديدة التي تسود أهل الجنوب وكانت اتفاقيات أديس أبابا (1972) قد وضعت حداً موقتاً لأول انتفاضة يقوم بها أهل الجنوب ومنحتهم بعض الاستقلال الذاتي، فلم تعد العربية لغة رسمية في الجنوب وأصبح لمديريات الجنوب الثلاث ـ بحر الغزال، والمديرية الاستوائية، ومديرية النيل الأعلى ـ مجلس نيابي أي برلمانها الخاص. هيأت هذه الاتفاقيات للسودان سلاماً موقتاً، ثم عادت الحرب الى الجنوب عام 1980 وقد يمتد التمرد إلى مديريتي البحر الأحمر وكردفان. وعلى هذا لم يعرف السودان بعد استقلاله سوى ثماني سنين من السلام.

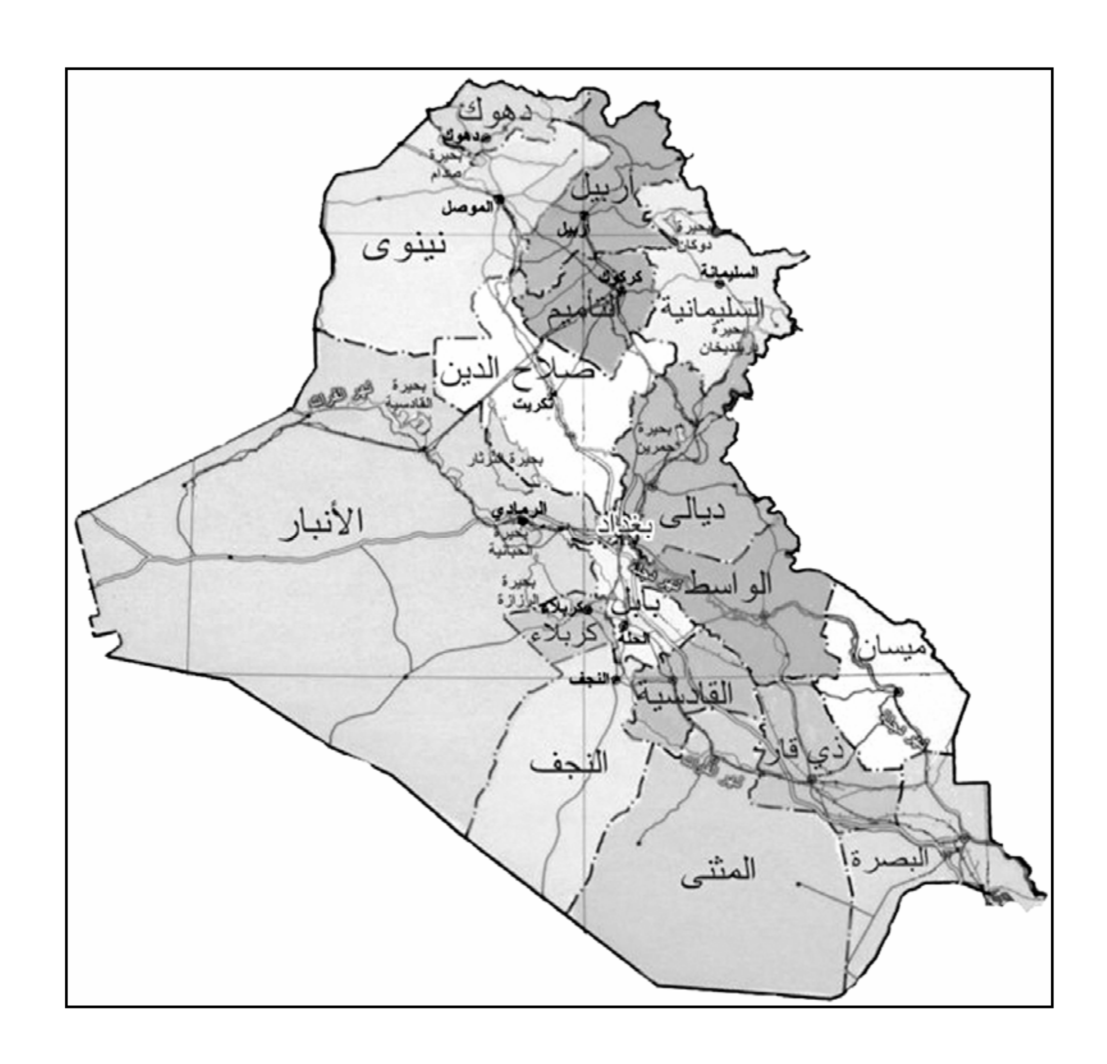
العناصرالعرقية	السكان في 1989 (5)	العناصر العرقية	السكان في 1989(5)
عرب	9500000	نوبر	1100000
فور	3200000	زند	500000
دنكا	3000000	نوبيون	850000
بجة	1500000	اعراق أخرى	3150000
نوبة	1400000	المجموع	24200000

من كتاب (اطلس العالم العربي ـ البستاني وخارج ـ ص 36).

الفصل الخامس

تجديد الهوية الوطنية ـ الحالة العراقية

- ❖ المعارضة وتجديد البنية الفكرية
- ❖ الهوية العراقية الممزقة
- ❖ الشيعة والمشكلة الطائفية في العراق
- ❖ قضية كردستان الكبرى وحقوق الفئات العراقية
- ❖ ملاحق معلوماتية عن إشكاليات الوضع العراقي وتنوع الفئات اللغوية والدينية والمذهبية



التقسيم الاداري الحالي للعراق

المعارضة العراقية والبناء الفكري الجديد

«صرخت عشتار كامرأة في مخاض :

كيف انتهت الى طين تلك الأيام القديمة..»

كَلكَامش

التاريخ يثبت أننا شعب ذو خيال مبدع خلاق، ولعل قرون الحقبة المظلمة وأجيال التجارب الدامية عمقت فينا الخوف من التفكير والإبداع في رؤية الواقع. تعلمنا ان نستخدم خيالنا وحسنا النقدي المتمرد في مجالات الشعر والفن وتفاصيل الحياة الحسية والروحية إلا في الواقع السياسي ـ الاجتماعي. جردة سريعة لتاريخ الحركة السياسية والدولة العراقية الحديثة منذ تكوينها عام 1921 حتى الآن تكشف عن شبه الغياب للبحث الفكري السياسي. يكفي القول أن جميع ما أبدعته الحركة السياسية حكومات وأحزاباً طيلة عقود انتاجها الفكري لم يعادل ما أنجزه باحث متخصص واحد (على سبيل المثال العمل الكبير الذي أنجزه الباحث الفلسطيني ـ الأمريكي حنا بطاطو عن تاريخ العراق السياسي ـ الاجتماعي الحديث). بل إن هذه الحركة كانت قاصرة حتى عن الاهتمام بترجمة ما يكتبه الآخرون عنا، وفي معظم الأحيان يتبرع أشقاؤنا الشاميون بالقيام بهذه المهمة.

طبعاً يمكن الحديث عن دور القمع والإبادة الوحشية المستمرة ضد المثقفين خصوصاً الذين يقتربون من حرمة الدولة وتوابعها الفكرية. ولهذا كان الابداع في الفن والأدب أقل خطراً من البحث الفكري والسياسي. يبدو أن ديمومة الحالة خلقت شروط تكرارها حتى لدى الذين يرفضونها أساساً. فجميع أطراف الحركة السياسية استطابت لحالة الكسل الفكري هذه ووجدت التعويض عن ذلك بترجمة و «تعريق ـ أي جعلها عراقية» الشعارات والأهداف الكبرى مع بعض التلاوين والرتوش العراقية. ويتم إضفاء البعد الفلسفي العميق على هذه الشعارات عن طريق الاستشهاد بمصادر وتحليلات كبار المفكرين الخالدين والمبجلين من أجانب وعرب ومسلمين، حسب الطلب.

في هذا المجال نحن متخلفون حتى مقارنة بأشقائنا وجيراننا. العجيب أنه حتى حزب البعث الذي يحكم العراق منذ عقود ويستحوذ تماماً على الدولة والمليارات والمؤسسات الإعلامية

والآيديولوجية، لم يستطع أبداً تكوين ولو نصف مفكر عراقي بعثي بمستوى المفكرين البعثيين القادمين من البلدان الشامية! حتى المحاولات التلقائية الصغيرة كان يقمعها جسدياً أو يدفعها الى الصمت. جميع كبار المفكرين الذين اعتمدهم الحزب هم من أشقائنا الشاميين: منيف الرزاز أردني (لسوء الحظ لم ينج من الاعدام)، الياس فرح وميشيل عفلق من سوريا. ولعل صدام حسين هو «المفكر» العراقي الوحيد الذي أنجبه حزب البعث وسمح لنفسه أن لا يصمت وأن يبقى طليقاً وحياً أيضاً!

الحركة السياسية العراقية بجميع أطرافها لم تخلق مفكريها. لهذا فإنها حتى الآن لم تنجح في خلق أي تيار فكري ـ سياسي أصيل ومزروع في الواقع العراقي. ونشكر الله أن هناك دائماً من الأشقاء والأصدقاء من يفكر نيابة عنا: بعثنا وعروبتنا صنعها لنا الشاميون، واشتراكيتنا جلبناها معلبة من موسكو وبكين وهافانا، وإسلامنا لا زال يصنعه لنا إخواننا الإيرانيون(*)، أما ديمقراطيتنا فها هو الغرب يهبها لنا معطرة ببارود وإذلال...!

المثل العراقي والعربي يقول: (لا يحك جلدك مثل ظفرك). فالاقتباس والتعلم من الآخرين أشقاء وجيراناً وحتى أعداء، أمر جيد ومقبول، لكن خصوصية الواقع والأحداث تفترض الأصالة في الكشف والتحليل لا التقليد والتكرار. رؤانا خارج الزمان والمكان. برامجنا وشعاراتنا ثابتة لا تتغير سوى تواريخ إصدارها. بيان الحزب الفلاني الصادر في أعوام الخمسينات يصلح مع تغييرات طفيفة ان يصدر في أعوام التسعينات. كل جيل ينقل عن الآخر وكل حركة تنقل عن الأخرى. كسل فكري مع إصرار عجيب على غرور الابداع الزائف. رغم كل هذه الفواجع والكوارث في بلادنا ورغم كل المتغيرات الفكرية والسياسية في العالم، ليس هناك غير ترجمة إخبارية لما يقال في الخارج. لا حوارات ولا مناظرات ولا مؤتمرات فكرية ولا نقد ولا إعادة نظر بأي من الطروحات العتيقة المقدسة(**).

مثال ساطع على هذه الحالة يكفي استطلاع كم من القضايا التي نتداولها منذ أجيال في أحاديثنا ـ غير المعلنة ـ، بينما هي ملغية تماماً من حواراتنا الرسمية وبيانات وتصريحات أحزابنا: قضية الكويت ـ مثلاً، منذ فجر التاريخ وهي محل تداول جميع اتجاهات وانتماءات العراقيين. منذ طفولتنا وحتى

* نستثني هنا تجربة المفكر العراقي الشهيد ـ محمد باقر الصدر ـ الذي يعتبر المفكر الوحيد الذي أنجبته الحركة السياسية العراقية حتى الآن، وأن الثورة الأيرانية حسب اعتراف الكثيرين هي تطبيق لأفكار الصدر.

** إن نقدنا العميق هذا لايمنعنا من الأشادة بالمبادرات الفردية من قبل المثقفين العراقيين من أجل الحوار والبحث.. لكنها تبقى فردية ومتأخرة وبحاجة إلى دعم واستمرارية.

الآن ونحن نستمع الى أهالينا يتحدثون عن تبعية الكويت للعراق ويتحسرون على ضياع هذا الجزء. جميع الحكومات العراقية ملكية وجمهورية حلمت بعودة الكويت للعراق... رغم كل هذا وبقدرة قادر ظلت هذه القضية أبداً غائبة عن تنظيرات وبرامج الأحزاب والحكومات. بل العجيب انه حتى نظام صدام والبعث لم يكتب أو يفكر أو يلفظ سطراً واحداً بشأن الكويت قبل أن يغزوها! يبدو أن الكفاح والحرب والموت لدينا أسهل بكثير من التنظير والكلام!

هناك أمثلة عديدة لمثل هذه القضايا المطروحة دائماً في نقاشاتنا الشخصية، لكنها مغيبة تماماً عن تنظيراتنا وحواراتنا المعلنة والرسمية: قضية التمايز السياسي والطائفي بحق الشيعة والأغلبية الجنوبية. تفاصيل وإشكالات الفئات الدينية واللغوية، وحقائق العلاقات بين العرب والأكراد والطروحات الانفصالية المعروفة وغير المعلنة. الفترة الملكية والمشاريع التي يتقول بها الكثيرون.. وقضايا أخرى نتداولها جميعنا ولكننا نفضل وضعها تحت الطاولة لأن الحديث بها يثير الشجون. ثم (وهذا هو الأهم) أننا دائماً نميل الى الصمت والتستر كأشخاص مرضى كل منهم يخشى أن يكشف علته لجاره فيستحيل الصمت آفة تفتك بهم واحداً بعد الآخر.

حالتنا السياسية تجد تعبيرها الفاجع في حياتنا الاجتماعية من خلال علاقاتنا مع بعضنا البعض نحن العراقيين في المهجر. في جميع القارات وفي أية جالية عراقية تستمع دائماً لنفس المشكلة: الحزن والألم بسبب عدم القدرة على الالتقاء والحوار بين بعضنا البعض، لأن اللقاء والحوار مهما كان اجتماعياً وصداقياً يؤدي في أغلب الأحيان الى الخراب والى العنف والدم حتى كوارث الوطن وعذابات المهجر عمقت فينا عقدة الصمت. أي حوار مهما كان حيادياً وجمالياً كفيل بمس جراح الخيبات وإيقاظ وحش النكبات الذي يمسخ في لحظات كل جميل وانساني: الحوار يستحيل الى جدل، والحكاية الى رد وإفحام، والرأي الى مسامير صدئة، والضحكة الى سهام مسمومة .. وفي النهاية تنمسخ جلسة الحب الى صورة مصغرة لحال الوطن: حقد وغيرة ونميمة وانفجار مرتقب! قمع الدولة من ناحية وفردانية قادة الحركات السياسية من ناحية أخرى وضعت المثقف أمام خيارين لا ثالث لهما: إما تابع ومفسر ومزوق لإرادة السياسي، وإما خصم مهمش ومبعد ومنبوذ اقتصادياً واجتماعياً وسياسياً طبعاً.

رغم التشرد والعوز وإذلال المنفى فإن معظم المثقفين العراقيين لا زالوا يمتلكون إصراراً رائعاً على ديمومة الابداع وعشق الوطن. لكن ثمة صمت شاحب يكبر ويهيمن يوماً بعد يوم، باستثناء أقلية من الذين ما زالوا في ساحة الحوار والنقد والمطالبة، فإن الأغلبية الساحقة قد

التجأوا الى الصمت الحزين اليائس. رغم تمردهم على ما آلت اليه حالتنا، إلا أنهم ارتضوا الإدانة السلبية التي ترفض حتى الدخول بالموضوع؛ إذ يعبر بعضهم عن خلاصة رأيه في الحالة ببضعة كلمات هي خلاصة الخلاصة :

« ـ الحالة تعبانة.. دعنا عن الموضوع».

ومهما حاولت لن تجد إلا التشكي والسأم من الذي جرى ويجري، والغياب التام للحوار والتحليل الموضوعي، وفقدان الأمل بأي مشروع حضاري في الأفق.

تجربة السنوات الأخيرة للمنفى أبرزت خاصية يتمتع بها المثقف العراقي موروثة منذ عهد سحيق : ذلك الشغف الشفاف بسمو الانسان والتاريخ، لكنه شغف مخدوش بجرح لا يندمل من احساس أصيل بلا جدوى الحياة. وهذا هو سر الصراع الأزلي في أرواحنا المنفصمة. في انتصاراتنا وملذاتنا يسمو فينا الانسان والوجود؛ وفي إحباطاتنا وخيباتنا تنزف أرواحنا بذكريات اللاجدوى وقدرية الفناء، وترانا في هزائمنا نعلنها بعبثية لا ترحم كما أعلنتها من قبل سيدة الحانة لكلكامش :

«لقد قدرت الآلهة الفناء للانسان.

واستأثرت بخلود الحياة

فاملأ بطنك بملذات الطعام

وابتهج ما شئت ليل نهار..

فهذا هو نصيبنا من الدنيا!»

من أجل ثقافة مستقلة ونقدية وسلمية

غياب التفكير والحوار عن حياتنا السياسية والاجتماعية صار داءاً يتأصل فينا يوماً بعد يوم. بناء الديمقراطية في بلادنا لا يمكن أن يوكل الى شركات أجنبية متخصصة. الديمقراطية يشيدها الديمقراطيون المؤمنون حقاً بالمشروع الديمقراطي. ولكن الحالة الروحية والفكرية والسياسية للأسف لا توحي بأننا نجحنا فعلاً بخلق فكر ديمقراطي عراقي أصيل مع نخبة مؤمنة وقادرة بتلقائية على الحوار والتبادل والانفتاح. هذه حقيقة قاسية ومرة، تزعج الجميع وخصوصاً رجالات حركاتنا السياسية.

غياب الحوار والتفكير الأصيل والواقعي جعلنا منذ عقود نتخبط في دوامات من التيه. جميع حركاتنا السياسية أنهكتها صراعات أسبابها لا تمت الى الواقع بصلة. ضيعتها العموميات والشعارات التي تتشابه حتى بمفرداتها: ثوراتنا الجمهورية والديمقراطية والقومية والاشتراكية، لم تكن إلا إعلانات موت لهذه الشعارات: حروب أهلية ودولية خاسرة، واصلاحات اجتماعية ممسوخة، ومليارات ثرواتنا الوطنية استهلكتها التنمية الحربية والبوليسية وعبقرية القمع. جميع قضايانا ما زالت هي هي، بل تفاقم تعقيدها: لم تكفنا إشكالات الانقسام الاجتماعي والسياسي والقومي والديني، والآن يضاف الى القائمة انقسام جديد وخطير اسمه الانقسام الطائفي!

معارضة النظام الحالي في بلادنا، لا تعني فقط معارضته سياسياً، انما اساساً معارضته حضارياً وعقلياً. طرح بديل تاريخي حقيقي لمعضلة دولتنا ومجتمعنا. اعادة النظر في جميع المحرمات والمقدسات التي تراكمت على طريق تفكيرنا. ممارسة التعددية الفكرية والسياسية والحوار النقدي الصريح مع الذات ومع الآخرين، قبل مطالبة الدولة بممارستها. يكفينا منذ اجيال ونحن نكافح الأنظمة السيئة بمشاريع سيئة، ونطيح بظالم لنأتي بظالم آخر.

إن المطلوب منا جميعاً البدء بحوار حضاري وانساني يأخذ بنظر الاعتبار الغايات التالية :

أولاً ـ من أجل الديمقراطية وخلق تيار فكري مستقل :

اذا كانت الاتجاهات السياسية وتنظيماتها أشبه بالأحجار التي يتكون منها البناء العقلي لأي شعب، فان الذي يجمع صرح هذه الأحجار ويشدها الى بعض هو الفكر والثقافة المستقلة. الثقافة المستقلة هي البحيرة التي تطفو عليها وتمخر عبابها سفن الأحزاب. سر تشتتنا الروحي والسياسي يعود أساساً الى فشلنا في خلق فكر وثقافة عراقية مستقلة ومتخلصة من هيمنة الطروحات الملتزمة بالمعنى الحزبوي والضيق. واحدنا تعود أن يطرح رأيه ليصف في خانة الاتجاه والتنظيم الفلاني، وإلا فان تهمة العمالة للحكومة جاهزة حسب القياس. الصمت لتجنب أوجاع الرأس أمر منصوح به دائماً ... وهذا ما آلت اليه الحال.

وفي الجهة المعاكسة، فإن ثمة حالة قد تنامت بين المثقفين المستقلين والمبتعدين عن الارتباط الحزبي، هي نوع من الاحتقار والاستخفاف المتعالي بجميع الطروحات الملتزمة، ليبلغ حد الحقد أو التعصب وبالتالي الوقوع في الحزبية المضادة. يصل الأمر الى حد اتهام جميع الأحزاب والاتجاهات بالخيانة والعمالة للقوى المحلية والأجنبية؛ ليفهم من هذا ان صاحبنا وحده المسيح المنقذ والجميع ما هم إلا نسخ مكررة من يهوذا.

والحال فان المطلوب لا هذا ولا ذاك. الحوار والقبول بالتنوع والاختلاف هو المطلوب. ان من يدين الحركة السياسية ورجالاتها على كل هذه الأمور يجب أيضاً أن يمتلك ما يكفي من ضمير وصدق وتواضع ليحترم فيهم المخلصين والصادقين في ايمانهم والحالمين بالأفضل والأجمل والذين نذروا زهرة شبابهم في السجون والتشرد والحرمان الوحشي. من لا يؤمن بالشيوعية يمكنه أن يحترم فيها ذلك الحلم الجميل الذي منح أجيالاً كاملة عنفواناً رقراقاً وأملاً بالمستقبل. أما الملحد فانه يستطيع تقدير حاجة الانسان للإيمان بإله عادل جبار يمنحه القوة والأمان لمواجهة غدر الزمان. المستقل يمكنه ان يتفهم المنتمين والملتزمين لأنهم ربما أكثر حرصاً منه على انقاذ الوطن. من يعشق المدينة ليس مضطراً أن يحتقر الريف؛ وبانتظار نور الشمس ليمضي المرء في مسامرة القمر.

ثانياً ـ من أجل النقد الذاتي واعادة تقييم تاريخ الدولة والحركة السياسية العراقية:

إن تخلفنا في معرفة ماضينا سبب ونتيجة لتخلفنا في معرفة حاضرنا، ثم فشلنا في وضع برنامج واقعي وممكن لانقاذنا من كوارثنا وتوجهنا نحو مستقبل أقل مأساوية. بكسل فكري قياسي نستمر باختصار تاريخ دولتنا وشعبنا عبر شعارات من الشتم أو المديح. حقبة طفولتنا نطلق عليها (العهد الملكي المباد)، وحقبة مراهقتنا الجمهورية وطيشنا الثوري أغرقناها في طوفان الألقاب الرنانة. أضفينا على تجاربنا الخائبة مسحة وطنية هي مزيج من مأساوية التصوف الآسيوي ونرجسية البطولة الأوروبية: جميعنا ضحايا وجميعنا أبطال. أما كوارثنا ومشاريعنا الدامية فلا أحد مسؤول عنها، لأننا كلنا مسؤولون عنها. حتى الآن لا زالت أحزابنا تدين المذابح التي عانت منها وتعتبرها ردة ونكسة، أما المذابح التي قامت هي بها فتعتبرها انتصارات وكفاحاً ضد الحاقدين من الرجعيين أو الملحدين أو العملاء.. الخ. إن تغيير الحاضر لن يتم إلا بالايمان حقاً بتغييره. وهذا الإيمان لن يكون ما دامت الروح ملوثة بأكاذيب الماضي والتستر على آثامه. الشعوب والجماعات مثل الأفراد، لن يكون الانسان سوياً وطبيعياً في حاضره إلا بعد كشفه عن ماضيه وانفتاحه على ذاته من أجل تخطي الذكرى وانقشاع الرؤيا.

لنعترف على الأقل أن غبار الماضي لم يزل يحجب عنا رؤية الحاضر.

ثالثاً ـ من أجل نبذ العنف وسيادة الحوار وقدسية الكفاح السلمي :

كل الشعوب تمر بحياتها في فترة يسودها العنف والدم. ولكن دور المثقفين كان دائماً رافضاً للعنف من أي كان. ولا تحل الكارثة في أي شعب إلا عندما يصبح العنف والسلاح مبدءاً مقدساً يدافع عنه حتى الشعراء الذين يدمعون لمرأى الفراشات وطيور البطريق!

النظام لدينا أسطورة عن سلاطين أرادوا امتلاك الخلود بتعاويذ القبور ونهش القلوب وارتداء الجلود والنوم على قرعِ الحروب. أنه نظام أسطوري حقاً، الى حد غدا له أمراً طبيعياً جداً بل وحتى شاعرياً وجميلاً أن يكتب على جدار جميع مدارس العراق ذلك الشعار البعثي الأقرب الى التعويذة الأسطورية العجائبية:

«وطن تشيده الجماجم والدم

تتهدم الدنيا ولا يتهدم..!»

أمام ثقافة الجماجم هذه، ماذا طرحنا نحن المعارضين والمعترضين على سلطة الخراب، أي بديل ثقافي روحي...!؟ وكأن حالة العنف قد سحرتنا بأسطوريتها. عذابات التجربة وقسوة الأحداث ما كفت عن إسقاطنا في قدرية العنف ودائرته الجهنمية. قدسناه وشرعنا نصوغ له تعاويذنا المحدثة: الثورة، العنف الثوري، الكفاح المسلح، حرب المدن، حرب التحرير الشعبية، الانتفاضة المسلحة، الطريق الى السلطة يمر عبر فوهة البندقية، الزحف المسلح من الريف الى المدينة، أو العكس.. والخ. ثم أتانا الإسلاميون ليحيوا من جديد كلمة «الجهاد» ونتفوا عنها كل معانيها الروحية والكفاح بالمال والوقت والكلمة، وأصروا على الحفاظ فقط على معنى الموت والقتال والاستشهاد والعمليات الانتحارية. لا زلنا الأوائل في التسابق نحو الموت. من كردستان نحن أول من تعاقد مع العصيان المسلح الدائم والأزلي، من الجنوب انتفاضات الأهوار لا تكف تخبو وتشتعل، مع الفلسطينيين ثم الإسلاميين فإن العراقيين أول من ساهم بالعمليات الانتحارية.. فضلاً عن تفتق العبقرية العراقية (الرسمية) عن مكتشفات صناعة الحروب والأسلحة الكيماوية والنووية.. حتى صار الكون العرقي والمشرقي يرتج ليل نهار: بالروح بالدم نفديك يا هذا ... بالروح بالدم...!!

كل هذا لم يكف، بل الذي ينتظرنا سوف يجعلنا نتحسر على ما نحن عليه الآن، كل يبتغي تغيير النظام، ثم وبعد؟ إنها مسألة لا تتطلب الكثير من التفكير: معاقبة ومحاكمة أتباع النظام الحالي أمر مفروغ منه، أليس كذلك؟ كل معارض في ذهنه على الأقل ثلاثة أو أربعة سيطالب بسجنهم واعدامهم وفرم لحمهم بعد سقوط النظام، بالاضافة الى قطف جميع الرؤوس التي أينعت في بساتين الحكم. وهكذا فان الثورة تبدأ بأكل أعدائها لتنتهي بأكل رجالها. كم من الآلاف المؤلفة الذين ستدخل السجون، وكم من المشانق ستنصب، ثم كم هم الذين سيهربون الى الخارج ليحلوا محلنا في دهاليز المنفى. والعوائل والأطفال الذين

سيحرمون من معيليهم... كل هذا من أجل العدالة الثورية ، لكي نعود من جديد لتمثيل مسرحية الخراب الدائم.

علينا منذ الآن اتخاذ موقف صريح وثابت ضد العنف ، واعلان العفو العام عن جميع أتباع النظام. ان الخوف من عقاب النظام القادم يجبر الكثيرين على الدفاع عن النظام الحالي ، لأن الخوف يصنع التضامن والقوة. الوعد بالعفو سيكسب الكثيرين الى صفوف المعارضة. والوعد بالعفو يجنب الوطن خطر الحرب الأهلية ، لأن الخوف من العقاب يدفع الى الهجوم. ولتكن مثال لنا تجربة التغيرات في أنظمة البلدان الاشتراكية السابقة ، فحتى الآن لم يحدث أن حاول أحد أن يحاكم ويعاقب أي مسؤول شيوعي سابق ... وهذا يكفي.



يجب إعادة الاعتبار لدور المثقف العراقي في داخل حركة التغيير السياسي ، ان حقب القمع والتشريد عمقت الى حد متطرف عملية الفصل بين الحالة الثقافية والحالة السياسية في العراق. اذا كان المثقف يمثل الجانب الروحي الابداعي الجمالي والتنظيري من عملية التغيير فان السياسي يمثل الجانب الواقعي والمباشر والتطبيقي من هذه العملية. وطبعاً هذا الفصل تعسفي وغير حقيقي لأن الروحي والواقعي ، التنظيري والتطبيقي ، متوحدان في الحياة ، لكن الفصل القسري يمكن أن يتم في الظروف التاريخية الاستثنائية حيث يصبح كل شيء في خدمة المالك الاداري ـ السياسي ، ويسقط الفكر في الضرورة اليومية ، وتستحيل الكلمة واللون واللحن والخيال بكليته ، الى مادة خام لانتاج مال وسلاح ومساحيق تجميل للطامحين والمتمسكين بالثراء والجاه والسلطة.

لينطلق الخيال ولتنعتق الروح ولتعد الحياة الى الحوار والتفكير والابداع. ولتعطى الكلمة الى المثقفين في تقرير مصير الوطن. لتعقد المؤتمرات الفكرية ، ولتنشر اعترافات السياسيين ومذكراتهم ، ولتسجل الحوارات النقدية والتحليلية ، ولتصدر البيانات التي تعبر عن مواقف المثقفين. ليطالب المناضلون أحزابهم بفتح الحوارات واجراء مراجعات النقد الذاتي. ليخرج الى العلن الجدل المكتوم والنقد السري وجرد الآثام. لتكن شعاراتنا : كشف الماضي من أجل كشف الحاضر. الديمقراطية مع الذات قبل الديمقراطية مع الآخر بالسلم والحوار والتسامح نكافح العنف والدمار والوحشية. استقلالية القرار العراقي وتعاون ايجابي مع الأشقاء والجيران. انها ليست مهمة السياسيين والحزبيين وحدهم بل هي خصوصاً مهمة المواطنين والمثقفين المستقلين ، فنانين وأدباء وحالمين بمستقبل أقل وحشية وأكثر انسانية.

المعارضة ودور المثقفين

ان النقطة الأساسية التي تستحق الذكر في معرض الحديث عن الوضع الثقافي في العراق، أن سلطة البعث التي تحكم منذ عام 1968 تميزت عن جميع السلطات العراقية السابقة بأنها أدركت منذ البدء ضرورة الاستفادة من تجربة ما يسمى بالأنظمة الاشتراكية: السيطرة المطلقة على المثقفين من خلال الاغراء والقمع. لقد جندت السلطة لهذه الغاية مليارات النفط وتقنيات الغرب وأجهزة القمع ومؤسسات الحزب والدولة لشن أكبر عملية «غسيل دماغ» وتجهيل في تاريخ العراق الحديث. حتى وصل الأمر بمثقف السلطة الى حد الهبوط الى ما هو أدنى من الانمساخ الثقافي، الى حضيض الإخصاء الرجولي بالمعنى المباشر للكلمة بحيث صار من الطبيعي للمثقف (ومعه باقي الفئات التابعة) أن يعلن تغزله بالنظام كما تتغزل الجارية بسيدها!!

الذي يهمنا إذن ليس الحديث عن دور السلطة في هذا الخراب، فهذا أمر أصبح من البديهيات؛ إنما الذي يعنينا بالذات هو دور المثقفين والسياسيين المعارضين للنظام والطامحين الى الخلاص من هذا الخراب وإقامة البديل الوطني الحضاري.

إن المراجعة السريعة لنشاط المعارضة العراقية المقيمة في المهجر، وماذا قدمته حتى الآن للحركة الثقافية العراقية المقيمة أيضاً في المهجر، تكشف عن ديمومة هذه العلة رغم حرارة وصدق الطروحات البديلة.

ثمة سؤال واقعي ومباشر يفرض نفسه في هذا المجال: أين هي عشرات الملايين من الدولارات التي قبضتها وتقبضها المعارضة كمساعدات من الدول الأخرى لدعم الكفاح ضد النظام..؟

حتى بالنسبة للفهم الحزبي الضيق، فان الكفاح السياسي لا يمكن ان يستغني عن الكفاح الفكري والثقافي. فهل يكفي لتغيير نظام استبدادي كوارثي واقامة نظام ديمقراطي عقلاني، تلك الصحف والنشريات الحزبية والبيانات الثورية؟ أين هي تلك الأموال الطائلة التي يمتلكها السياسيون والتي لم تستثمر حتى بأصدار كتاب واحد؟ هل فكرت يوماً المعارضة العراقية أن تمنح جزءاً من هذه الملايين لتلك الإسهامات الثقافية الشجاعة التي تخدم القضية العراقية بما يفوق نشاط عدة أحزاب مجتمعة: مثل مجلات «الاغتراب الأدبي» و «الملف» في لندن، و«الجمل» في ألمانيا، و «المدى» في قبرص، وغيرها العديد من الإسهامات الفردية والجماعية الجريئة في أنحاء المهجر العراقي التي تعاني الفقر والكساد. من حق المثقف العراقي ان يستغرب

هذا الاستخفاف والتجاهل لكفاحه اليومي من أجل أن يظل شريفاً ومبدعاً بنفس الوقت. المثقف العراقي يقتطع من مصدر عيشه لينجز مشروعه الثقافي، ولا يسمع من السياسيين سوى الخطب وبيانات الاتحاد والانشقاق والعمليات المسلحة.

نحن متخلفون في هذا المجال حتى مقارنة بأشقائنا الشاميين مثلاً. يكفي أن يجتمع بضعة سوريين ولبنانيين وفلسطينيين في بلد ما حتى تنبثق الصحف الكبرى والمجلات المتخصصة ودور النشر والمنتديات والتجمعات التي تشمل جميع الجاليات العربية! أما نحن فلا بلدنا بملياراته النفطية قادر على الاهتمام بهذا الأمر، لأنه ظل دائماً مشغولاً بتجييش الجيوش وصناعة الكيماويات والنوويات وخوض الحروب الخاسرة. ولا معارضتنا ألتي هي الأخرى مشغولة بالزيارات المكوكية وعقد المؤتمرات الدولية وتكوين الميليشيات المسلحة:

- هل فكرت المعارضة العراقية مثلاً بتكوين «دار نشر» تهتم بنتاجات المثقفين العراقيين(*).
- هل فكرت المعارضة العراقية بتكوين صندوق لدعم الكتاب والدارسين والباحثين العراقيين الذين يشحذون لقمة الخبز من أجل الجهاد اليومي في الكتابة والبحث والدراسة؟
- هل فكرت المعارضة بتكوين لجان من المترجمين والمفكرين والمختصين والباحثين في الشأن العراقي، والاستفادة من ترجماتهم وكتبهم وبحوثهم في تطوير الفكر السياسي العراقي؟
- هل فكرت المعارضة بأصدار مجلة سياسية فكرية منفتحة على جميع المثقفين العراقيين، لتطوير الحوار والنقاش في المسألة العراقية؟

طبعاً، مع كل هذه التساؤلات يمكن الإشادة ببعض المحاولات المحدودة التي تحاول انجاز بعض هذه المهمات الكبيرة.

إذا كانت المعارضة العراقية تكافح من أجل البديل الوطني، فإن من أول خصال جميع الحضارات الزاهرة في التاريخ، هي الانفتاح والتنوع الثقافي والديني من خلال منح الحكماء والمثقفين المجال الواسع للمشاركة في تسيير الدولة والمجتمع: «الى جانب السياسيين من ملوك وإداريين وعسكر هناك دائماً الحكماء والمنجمون والرهبان والأطباء والشعراء والفنانين وغيرهم». مثل هذه المشاركة الواسعة بين السياسيين والمثقفين تشهد عليها كذلك جميع الأنظمة الديمقراطية الحالية. وليس من الضروري للمعارضة انتظار السيطرة على الدولة للشروع بمثل هذه المشاركة، بل يتوجب التهيئة لها منذ الآن، من خلال الاعتراف بحرية

---

* تتوجب الاشادة بتجربة «دار المدى للنشر» في دمشق التي يشرف عليها الشيوعيون العراقيون.

المثقف وإشراكه المباشر في جميع القرارات السياسية. وتشجيع المثقفين (مادياً ومعنوياً) على التجمع وتكوين اللجان وعقد المؤتمرات الفكرية للإسهام بخلق بديل حضاري وثقافي للوضع الكارثي العراقي. لكي تثبت المعارضة العراقية حقيقة مشروعها الحضاري، عليها منذ الآن الاعتراف العملي بدور متميز للمثقفين العراقيين.

ان يتم إشراك لجان المثقفين بصورة أساسية (نشدد هنا على كلمة أساسية) في جميع قيادات ومؤتمرات واجتماعات المعارضة. وهذا هو الشرط الأول لكي تتخلص المعارضة من ضعفها الثقافي والجماهيري، ويكف الخطاب السياسي العراقي عن تبسيطيته وتعنته الحزبي.



المعارضة وقضية الديمقراطية

المتتبع لتاريخ العراق الحديث يرى أن مفهوم الديمقراطية كان شائعاً منذ تكوين الدولة العراقية عام 1921. وكانت الدولة وجميع الأحزاب تستخدمه بالمعنى الليبرالي على المثال الانكليزي. وحتى التيارات المختلفة من محافظة حتى يسارية كانت بشكل أو آخر تحاول أن تحتذي بالتيارات السائدة في أوربا الليبرالية. حتى الحزب الشيوعي العراقي ورغم حرمانه الدائم من العلنية، إلا أنه ظلّ متفقاً بالتمام مع طبيعة اللعبة البرلمانية فكان يطالب بحقه بالعلنية والمشاركة. بل إن هذا الحزب حتى عام 1958 لم يصدر أية وثيقة تحث وتطالب بإسقاط النظام الملكي. كانت جميع الأحزاب تدعو الى تغيير الحكومة مع إصلاحات اجتماعية سياسية مختلفة لا تمس أبداً الطبيعة الملكية للنظام.

موت النظام الملكي بدأ بموت فيصل الأول (1933)، ويُعتقد أن الانكليز ساهموا بموته بسبب ميوله الوطنية، ثم اغتيال ولده الملك غازي (1939) بسبب ميوله «الألمانية». أخذ الانكليز يدفعون النظام بالقوة نحو إقطاعي الريف ويعزلونه عن الطبقة الوسطى المدينية: رأسماليين وضباطٍ ومثقفين وموظفين واختصاصيين وغيرهم. لأن الميول الوطنية والراديكالية الاصلاحية لهذه الطبقة كانت تزعج الانكليز. ووصلت قمة الأزمة بالنظام في أعوام الخمسينات عندما تفاقمت عزلته عن الطبقة الوسطى. وهذا الأمر طبعاً كان يدفع أكثر فأكثر بهذه الطبقة نحو التيارات الجذرية والتقرب من الطبقات الكادحة من عمال وفلاحين، وتبني الدعوات الثورية القادمة من الخارج. ان جبهة الاتحاد الوطني من شيوعيين وبعثيين وقوميين (عرب وأكراد) وبقيادة الضباط الأحرار كانت تمثل القطيعة بين الطبقة الوسطى

والنظام الملكي، ووصل الأمر الى القيام بثورة تموز 1958 التي كانت تقليداً للتجربة الناصرية.

مع نهاية الخمسينات بدأت تأثيرات التجربة الناصرية بالاضافة الى التجارب الثورية الأخرى في الصين وآسيا وأمريكا اللاتينية، المدعومة من قبل المعسكر الاشتراكي والحركة الشيوعية والماركسية العالمية. إذ تم تبرير جميع الممارسات الدكتاتورية بطروحات نظرية تعتمد على مفهوم «دكتاتورية البروليتاريا» أو ما يسمى أحياناً بشكل مخفف : «الديموقراطية الشعبية». وهذه التجارب الثورية والمعادية للامبريالية كانت تتفق على رفض الديمقراطية البرلمانية على أمل بناء ديمقراطية حقيقية لكل طبقات الشعب الكادح. وباسم هذا الشعار كانت تدعو وتمارس بدرجات ومسميات مختلفة نظام الحزب الواحد أو القائد. وأحياناً يكون هذا الحزب القائد محاطاً بأحزاب تابعة تحت ستار جبهة وطنية.

ثورة 14 تموز أحدثت قطيعة كاملة مع البنية السابقة للدولة والمجتمع، وخصوصاً في قضية الديمقراطية. الأمر الذي يستحق الانتباه حقاً أن ثورة تموز كانت أشبه باعلان موت لجميع الأحزاب الرسمية والمجازة في العهد الملكي السابق، حتى التي ناصرت الثورة مثل الحزب الوطني وحزب الاستقلال. وهذا يعني بالتالي موت جميع التيارات السابقة التي كانت تدعو الى الديمقراطية البرلمانية. التيارات الجديدة التي هيمنت على الساحة السياسية كانت جميعها تعيش سابقاً بسرية، وهي تتوزع بشكل عام الى تيار شيوعي، ثم تيار قومي ــ بعثي، وتيار ديني ضعيف، بالاضافة الى الحركة الكردية بتياراتها القومية والماركسية. والغريب أن جميع هذه التيارات كانت تختلف في كل التفاصيل وتتصارع فيما بينها الى حد الموت، إلا أنها في الموقف المتردد والحذر إزاء الديمقراطية كانت تتفق دائماً بأسم معاداة الليبرالية والميول الرأسمالية الغربية!

نجاحات حركات التحرر واندحار الاستعمار ثم اندلاع الحرب الباردة وانقسام العالم الى معسكرين متصارعين وانتشار مبادىء التقدم والاصلاح الثوري، كل هذا دفع بمفهوم الديمقراطية البرلمانية الى الانحدار الى أسفل قائمة الأهداف الوطنية. ارتفعت الى رأس القائمة أهداف التحرر من الاستعمار والتغيير الاجتماعي والتصنيع والاصلاح الزراعي وحقوق العمال، بالاضافة الى هدف الوحدة والانبعاث القومي. لهذا فقد سادت الدعوة والتثقيف بالنموذج الثوري الرافض للتعددية و «الانحلال الليبرالي» : النموذج الناصري والسوفياتي

والصيني ثم اليوغسلافي والكوبي. كل هذه التجارب كما نعرف، بالنتيجة كانت تطبق نظام الحزب القائد والفكر الواحد. وهذه الحالة قد سادت وبدرجات متنوعة أغلبية البلدان العربية والعالم الثالث.

الوسطية والنسبية أساس الديمقراطية

في نهاية عقد الثمانينات، من جديد شرعت جميع التيارات السياسية بالاتفاق على هدف الديمقراطية البرلمانية بصورة شبيهة بالحالة التي كانت سائدة زمن الملكية. يبدو أن نهاية المعسكر السوفياتي وسقوط حلم الاشتراكية وفشل ثورات العالم الثالث قد أسقط أهداف التغيير الاجتماعي والاصلاح الثوري الى أسفل القائمة ورفع عالياً هدف الديمقراطية والتعددية البرلمانية ونظام السوق.

أمر طيب أن يسود الآن الحديث عن الديمقراطية في جميع التيارات السياسية العراقية والعربية. لكننا كالمعتاد لم نستطع أن نبتدع الأساس الروحي والفكري لهذه المسألة. ليست مشكلة أننا نتغير حسب الموجة العالمية السائدة، وليست مشكلة أن نكون أشبه بالتلاميذ الذين يقلدون أساتذتهم الكبار، لكن المشكلة أن معظمنا ظلوا غير مجتهدين وحفظة دروس يكررونها دون أن يستوعبوا منها أية معاني تساعد على التطبيق المبدع والأصيل.

إننا حتى الآن نرفع هدف الديمقراطية كشعار ونطالب فعلاً بتطبيقه على الدولة والوطن، لكننا في نفس الوقت نعيش ازدواجية قاسية في الايمان العميق والعملي به. يمكن اكتشاف هذه الازدواجية لدى أكثر المطالبين بالديمقراطية الذين يدعون الى حرية وشرعية وجود الأحزاب والتيارات الفكرية الأخرى، بينما في تفاصيل القناعات وأثناء الحوار الشخصي والعميق مع هؤلاء «الديمقراطيين» نكتشف أنهم معادون ومتألمون من وجود الأحزاب والتيارات الأخرى، الاسلامي مثلاً، قد يعلن منذ أول الحديث عن ايمانه بالديمقراطية ويؤكد دفاعه عن حرية وجود اليساريين والعلمانيين لكنه في التفاصيل يكشف تدريجياً عن وجهات نظره «الشخصية» من أن الشيوعيين والعلمانيين خونة وكفرة ويحق الحد والعقاب عليهم وأنهم ماديون لا أخلاق ولا ضمير ولا دين لهم وأنهم وأنهم، حتى يكشف بالنهاية عن ازدواجية كوميدية عجيبة: الايمان بحرية الآخر، وبنفس الوقت الايمان بشرعية تكفيره وتحريم أفكاره وحتى مقبولية إسكاته وتصفيته. وطبعاً فان صاحبنا الديمقراطي جداً هذا، لا ينسى أن يضيف في خاتمة الحديث: «أنا ديمقراطي ومسألة العقاب والمنع نتركها للشعب...»!

نفس الحالة بالضبط نجدها عند اليساريين والشيوعيين. واحدهم قد يجابهك منذ البداية بايمانه الديمقراطي، لكنه في التفاصيل يكشف عن اعتقاده بأن التيار الآخر، القومي أو الاسلامي، رجعي وبرجوازي ووجوده وقتي وتكتيكي، وأن الفكر الأصح هو الاشتراكية، والشعب الكادح سيكتشف يوماً من هي طليعته الحقيقية التي تقوده نحو المستقبل الاشتراكي، وأن جميع التيارات والأحزاب وقتية وستفقد أهميتها ومصداقيتها مع الزمن ونمو الاشتراكية!

طبعاً هذا الموقف «السياسي» منبثق أساساً من موقف تربوي اجتماعي. يبدو أن قسوة التجارب والمجازر والحروب والتشرد والقمع الدائم، تزرع في روح الانسان وعقله خاصية رئيسية تستفحل الى حد الهيمنة المطلقة: التكتيك والمراوغة وفن إظهار غير الذي يعتقد به، مجاملة وتجنباً للمتاعب وحسب موازين القوى. المبدأ السائد في الحوارات يتلخص كالتالي: لكي أحترم اختلافك عني، اذن يجب عدم الحوار معك. الاختلاف يعني بالنسبة لنا وقف الحوار وتغيير الموضوع. لقد تم التعود على أن استمرار الجدل بين رأيين مختلفين يؤدي عادة الى الغضب وجرح المشاعر وربما الى القطيعة التامة. والمجال الوحيد للحوار، هو بين طرفين متفقين بالرأي. وفي أحسن الأحوال عندما يتم الحوار بين رأيين مختلفين فانه لكي يبدأ ويستمر فيجب اللجوء الى المجاملة والكذب والتملق. لأن الحوار السائد إما مديح ومجاملة، وإلا فإنه خلاف وخصام وشجار خطير. إن عبارة «هذا رأيك وأحترمهَ.. تستخدم دائماً لإنهاء الحديث وإلغاء الحوار. فالحوار فقط مع الذي نتفق معه ويتفق معنا! »

النقد الوحيد المفضل، إما خلف الظهر وغياب المتهم. إما هو النقد اللامباشر والمبطن أو ما يسمى بـ «لغة المسامير». أي إشعار الآخر بالاختلاف معه دون التصريح المباشر، إنما من خلال العبارات المبطنة والتهكمات، ويصل الأمر الى حد اللجوء الى اختلاق أية حجة للانتقاص من كرامة الآخر وجرحها دون التصريح له أبداً بأساس الخلاف الحقيقي. مثلاً، الحزب الفلاني عندما يعمل جبهة مع الحزب الحكومي الفلاني فانه يجب ان يكيل له المديح والتملق الى أقصى الحدود لكي يوصل له في النهاية بعض النقد المبطن والمؤدب، ولكنه بنفس الوقت (خلف الظهر) يثقف أنصاره ليل نهار بحتمية ذوبان الحزب الحاكم ونهايته مع احتدام الصراع الطبقي!

إن العجز عن استيعاب درس الديمقراطية يكمن في العجز عن استيعاب الذات واحترام الهوية والخصوصية الفكرية للأنا ثم الآخر. حتى الآن لم يستوعب معنى الدين ولا معنى الاشتراكية ولا معنى القومية ولا معنى الاستقلالية الحزبية. هل يستطيع اليساري العلمي أو

الملحد أن يعتبر الدين حالة انسانية وروحية وجمالية ونفسية تمنح الانسان الاستقرار والاطمئنان الى قوة جبارة تحميه وتمنحه الثقة بنفسه وبالوجود؟ هل يستطيع المتدين أن يعتبر العلم والحداثة والأفكار غير المؤمنة تعبيراً عن ميل إنساني وتلبية لحاجة الشك والتساؤل عن ماهية الوجود والبحث عن أجوبة جديدة واكتشافات في الطبيعة والفكر قد تخدم بالنتيجة الفكر الديني نفسه؟ ألا يمكن للعلمي أن يعتبر صلاة المؤمن فعلاً فنياً للاتحاد مع الجميل المطلق.. كما يقوم المتدين باعتبار النتاج الابداعي والفني والأدبي والعلمي أشبه بصلاة ومناجاة مع الضمير الإلهي حتى وإن قام بها إنسان غير مؤمن؟

يلاحظ مثلاً، أن الشخص غير المؤمن بالدين، إما أن يقوم بالتستر والكتمان لكي يعبر عن احترامه لمشاعر المؤمن؛ وإما أنه يتطرف بابراز عدم إيمانه، والتهكم من مقدسات الشعب وحتى تبرير الشتم والسخرية بحجة الشجاعة بالتعبير عن الرأي. الديمقراطية في هذه الحالة إما الكذب والسكوت، وإما التهجم والسخرية! ويظل نادراً ذلك الحوار الذي يأخذ ويعطي، يتفق ويختلف، دون ضعف ولا عنف.

السؤال السائد الذي يطرح لمعرفة وتقييم أي تيار أو شخص: هل هو صح أم خطأ.. رجعي أم تقدمي.. مؤمن أم ملحد.. قومي أم قطري؟ ونتناسى دائماً السؤال الأكثر جدوى: هل هذا التيار أو الشخص يعترف بحرية الآخر وحقه بالاختلاف .. ويعترف بحق الحوار والنقد والتمايز دون إلغاء وتكفير وتخوين. إن المشكلة كانت دائماً في الميل الى التطرف في المواقف والتمسك بالمطلق ورفض مبدأ (الوسطية والنسبية)(*). الذي يختلف عن ميلي هو سيّىء والذي يتفق مع ميلي هو جيد. المسألة الأساسية التي يتم تجاهلها حتى الآن، ان كلمة «اختلاف» لا تعني بالضرورة «التفاضل» أي من هو الأحسن ومن هو الأسوأ بل هي في أغلب الأحيان تعني «التكامل»، أي الفرق بين شيئين يكمل بعضهما البعض. كما لو نسأل أيهما أفضل، التفاح أم البرتقال، المدينة أم الريف، الليل أم النهار، الأحمر أم الأصفر، المرأة أم الرجل.. فالنتيجة النهائية أن جميع هذه المتناقضات ضرورية للوجود ويكمل بعضها البعض. من حق أي انسان أن يتذوق الفاكهة الفلانية ويمقت الفاكهة الأخرى، ولكنه لا يمتلك أي حق باعتبار كل ما يختلف عن طعمه وميله سيئاً له ولجميع البشر.

---

* لمزيد من العلومات عن مفهوم «الوسطية». نرجوا العودة إلى الفصل الأول من هذا الكتاب.

الديمقراطية الحقة لا تقوم إلا على مبدأ الوسطية، يعني أن يقبل الآخر ليس بدافع تكتيكي ومن باب المجاملة والضرورة السياسية، بل إني أقبله لاعتقادي بأن هذا الآخر الذي يختلف عن ميلي، مفيد وضروري لي وللوطن وللحفاظ على توازن المجتمع والدولة. وحياة الطبيعة تمنحنا أمثلة كثيرة حول مبدأ «تبادل المنفعة». فكم من الحيوانات أو الحشرات التي يتم ابادتها للاعتقاد بأنها ضارة، ثم يتبين بعد ذلك ان اختفاءها تسبّب بتنام قوة وشراسة حيوانات وحشرات أخرى أكثر ضرراً!

إن أول شروط الديمقراطية، هي النسبية في رؤية الوجود وضرورة الاعتقاد بأن الميل الآخر قد يكون هو الأصح، وقد يثبت الزمن أنه أكثر مصداقية، ثم أنه ما دام موجوداً ومقبولاً من بعض الناس، لما لا يكون بالنهاية مفيداً لهم ولي. لو يبادر أي شخص أو طرف ويسأل نفسه، كمن من المتغيرات الفكرية والسياسية مرت بتاريخه؟ وفي كل مرة كان يعتقد لفترة أن هذا المعتقد هو الأصح والأمثل والأفضل بين الجميع، ثم تداول الأمور ليكتشف عقم معتقداته السابقة ويلعن تضحياته ويأسف على الأذى الذي ألحقه بالمعارضين الذين قد يكون هو واحداً منهم الآن!

الديمقراطية تعني وجود حد معقول من الايمان أن الآخر له حق الوجود ليس بسبب منفعي تكتيكي فقط، بل لأنه فعلاً مفيد وايجابي للمجتمع ولي أنا، فرداً وجماعة. لو شبهنا الدولة بالمستشفى الذي يعالج المجتمع، فان طبيب الأسنان مهما كان متفوقاً ومتعصباً لمهنته لا يمكنه أبداً التخيل أن طب الأسنان وحده قادر على شفاء جميع المرضى. أطباء العيون لهم مرضاهم وأطباء القلب وأطباء العظام وجميع الاختصاصات لها ضرورتها وتكاملها مع بعضها البعض. من حق واحد أو مجموعة من الأطباء الكفاح من أجل قيادة المستشفى، لكنهم أبداً لن يتخيلوا يوماً أنهم قادرون على معالجة جميع المرضى والاستغناء عن باقي الاختصاصات الطبية.

هذا هو بالضبط الإيمان الذي ينقص اعتقادنا الديمقراطي. أن جميع التيارات السياسية والفكرية لها أهميتها وفائدتها للمجتمع وهي تتكامل في تواجدها السياسي ـ الفكري ـ الاجتماعي:

ـ التيار الليبرالي: مفيد وضروري للدفاع عن الميول التعددية ونظام السوق والقطاع الخاص وحريةالتجارة وتنوع الاقتصاد والانفتاح على الحياة الغربية المعاصرة.

ـ التيار الاشتراكي (الماركسي واليساري عموماً): مفيد وضروري للدفاع عن الكادحين والمنتجين ونظام التعاونيات والقطاع العام والسيطرة على التجارة والاقتصاد، ثم الانفتاح على العلوم والحداثة ورفض التبعية للسوق العالمية.

ـ التيار الديني: مفيد وضروري للدفاع عن جموع المؤمنين والمؤسسات الدينية وعن الضمير الديني والميراث الروحي للمجتمع وإعادة الثقة بالذات من خلال الإيمان الإلهي واعتماد عظمة الماضي الاسلامي للتعويض عن قسوة وجبروت وهيمنة الحاضر الثقافي الغربي.

ـ التيار القومي: الحقيقة أن التيار القومي يحتوي وبدرجات متنوعة حسب الحزب واختلاف الظروف على خصال جميع التيارات السابقة، فهو قد يكون أكثر ليبرالية، أو أكثر اشتراكية، أو أكثر تديناً. على كل حال هو مفيد وضرروي للمجتمع خصوصاً في الدفاع عن الشعور القومي والمطالبة بالحقوق التاريخية والثقافية والسياسية، إعادة الثقة بالتاريخ القومي والتقارب بين أجزاء الأمة.

جميع هذه التيارات هي مفيدة وضرورية للوطن بشرط واحد: أن كل تيار وحزب يعترف ويؤمن بضرورة وفائدة التيارات والأحزاب الأخرى. تواجد مختلف التيارات والأحزاب من خلال اللعبة البرلمانية أشبه بتواجد النغمات والأصوات المتناقضة المتنوعة والتي تشكل بمجموعها سمفونية منسجمة واحدة. وهنا يكمن الدور الحاسم في الايمان العميق بضرورة التنوع والاختلاف من أجل تشييد هذه الديمقراطية. من حق القومي والبعثي والشيوعي والاسلامي أن يدعو الكل لأفكاره، بشرط عدم الدعوة الى قمع الآخرين. من حق الاسلامي أن يدعو الى الحجاب واطلاق الذقن وتأدية فروض الاسلام، لكنه ليس من حقه أن يجعلها قانوناً يطبق بالقوة على الجميع.

الحرية لا يصنعها إلا الشعب الذي يؤمن حقاً بها، والعبد لن يكون حراً ما دام يجهل حقه بالحرية. وهذا هو الدور المطلوب من جميع الأحزاب ورجال الدين والمثقفين.



المعارضة وقضية العنف الثوري

«نصبت مجموعة من مقاتلينا كميناً.. وتمكنت من قتل آمر الرتل و (60) شخصاً من ضباط ومراتب قوات النظام.. نفذ مقاتلونا هجوماً بالصواريخ والأسلحة الخفيفة، وأسفر الهجوم عن قتل وجرح أكثر من (50) شخصاً من قوات النظام! هاجمت قوات النظام مؤخراً مئات

العوائل العراقية من أبناء الأهوار.. قامت قوات النظام بإلقاء كميات كبيرة من السموم في الأهوار الجنوبية!..»

مثل هذه العمليات التدميرية لم تمارس بين طرفين من شعبين أو وطنين مختلفين، بل بين عراقيين من نفس الوطن والشعب والدين، بل حتى من نفس المنطقة والطائفة والعشيرة الواحدة.. إنها حرب مدمرة تجري بين القوات العراقية ومقاتلي المعارضة، وكبش الفداء في هذا القتال دائماً هم عراقيون من الفلاحين والمدنيين، والثروات التي تستنزف والأملاك التي تحرق هي أيضاً عراقية.

الظروف التاريخية والطبيعية جعلت من العراق (وعموم الهلال الخصيب) معقلاً لأولى وأبرز الحضارات والأديان والقوانين والدول، وأيضاً معقلاً للعنف والدم والخراب الأعظم. أسباب نعمتنا وازدهارنا هي ذاتها أسباب نقمتنا وخرابنا: موقع جغرو ـ سياسي عالمي، وتنوع مناخي وعرقي وديني وثقافي، والتوسط بين حضارات الشرق والغرب، بالاضافة الى ازدواجية الرافديين من كرم وخصب ثم طوفانات غدارة وطواعين وغزوات. كل ذلك ظل يضخ في العراقيين توقاً أبدياً الى السمو الحضاري، وأيضاً الى العنف والدمار الذاتي. كانوا أول من بنى وصنع وكتب وقرأ وأبدع الأفكار والعلوم والأديان. وكانوا أول من شيد السجون وقوانين القمع ووسائل التعذيب وأسس الجيوش وغزا الأوطان واستعبد الشعوب.

القرن العشرون أضاف لنا أسباباً جديدة للنعمة، والنقمة طبعاً: النفط... مادة الحياة ودم الأرض وعصارة ميراث الأسلاف.. كان الشر أيضاً، ما جلب لنا سوى جيوش الطامعين ومخابراتهم وتجار أسلحتهم وعلمائهم ليصنعوا لنا ملوكاً وجنرالات وجيوش مخابرات وثورات، وأحزاباً مأساوية.

حتى اليهود، أبناء تاريخنا المشرقي وثقافتنا وعرقنا، بدل أن يكونوا نعمة من أجل نهضتنا ووسيطاً لعلاقة ايجابية مع الغرب صاروا (اسرائيل) نقمة ومصدر تخلفنا ومعقلاً عالمياً لخرابنا.

منذ تكوين الدولة العراقية (1921) لم تتضاعف كمية العنف فحسب، بل إن شكل العنف تغير ووسائل التعبير عنه كذلك. في بدايات الدولة ومحدودية مؤسساتها القمعية كان العنف السائد هو ما يمكن تسميته بـ «العنف الأهلي»، أي العنف الذي تمارسه مؤسسات قمعية لا تمثل الدولة : المؤسسات العشائرية والعائلية والدينية، ثم تأتي بصورة أقل علنية مجموعات المتنفذين والعصابات والأشقياء. ويتخذ العنف شكلاً أوسع في تفاصيل الحياة اليومية بين الأفراد وداخل المجموعات العائلية والمدنية. إذ تسود العقوبة الجسدية في التربية والعلاقات بين

الـصغار والكبـار، بـين النـساء والرجـال، بـين الأقويـاء والـضعفاء، وفي حـل الخـصومات الشخـصية والمعتقديـة. كانـت التعـبيرات الأهليـة عـن العنـف تتمثـل بـالحروب بـين العـشائر والغـزوات وجـرائم غـسل العـار والثـأر العـائلي والـسرقات بالاضـافة الى الجـرائم اليوميـة بـين الأفراد والمجموعات.

مع تنامي قوة الدولة اقتصادياً وعسكرياً كانت جرائم العنف الأهلي تقل لتحل محلها جرائم «العنف السياسي» التي تمارسها الدولة والجيش والأحزاب. بكل بساطة يمكن الافتراض أن نسبة ضحايا العنف الأهلي (العشائري ـ المدني) في أعوام العشرينات ربما تضاهي نسبة ضحايا العنف السياسي (الحكومي ـ العسكري ـ الحزبي) في أعوام الستينات! الذين كانوا يبررون العنف وإبادة الـنفس البـشرية باسـم قـيم الثـأر وغـسل العـار والكرامـة والعـصبية، هـم أنفـسهم الـذين راحـوا يبررون الموت باسم الدولة والمعتقد والشعب والثورة، وفي كلتا الحالتين هنالك دائماً ثمة تبريرات عقلية وأخلاقية وسياسية لهذا العنف والدمار الذاتي.

بعد ثورة تموز 1958، رغم إدانة الأحزاب لقسوة النظام الملكي وإرهابه للجماهير، كانت أطراف الثورة تتغاضى أو تبدي التفهم وربما الإعجاب بالحشود التي ارتكبت جرائم تـستنكف الضمائر من نسبها الى الشعب والجيش: قصفوا قصر العائلة المالكة وفتكوا بالنساء والأطفال والحاشـية. ثـم عربـدوا في شـوارع بغـداد ليفترسـوا بهمجيـة رجـالات الـسلطة سـحلاً وتقطيعـاً وحرقاً. بينما كانت اذاعة الثورة ومنشورات الأحزاب تـصرخ بالديموقراطيـة والحريـة والـسلام. بعد الثورة أبـاح الـشيوعيون دمـاء القـوميين والاسـلاميين في الموصـل وكركـوك باسـم مكافحـة الرجعية وعمـلاء الاسـتعمار. الآخـرون قـاموا بـنفس الـشيء إذ أبـاحوا دمـاء الـشيوعيين باسـم مكافحة الالحاد والقطرية والشعوبية، بل أصدروا الفتاوي الدينية بذلك. الجميع ينهشون باسم الشعب والوطن. عام 1968 ركب البعثيون السلطة معبئين بخلاصة تجارب الدم السابقة.

يكفي القول أنه ليس ثمة أي بلد من بلدان المنطقـة قـدم مـن الـضحايا مثلمـا قـدم العـراق في الثلاثين سنة الأخيرة، حتى مقارنة بالحرب الأهلية اللبنانية وكفاح المقاومة الفلسطينية: أعـداد لا تحـصى مـن ضـحايا الثـورات الكرديـة منـذ عـام 61 حتـى الآن، أعـداد لا تحـصى في مـذابح الموصل وكركـوك (59 ــ 60)، ثـم مـذابح الحـرس القـومي عـام 1963، ثـم حمـلات التـصفية والاعدام والكفاح المسلح في الجنوب وبغداد في أواخـر الـستينات. ومـع وصـول البعثـيين عـام 1968 وامتلاك مليارات النفط بعد تأميمه، دخل العراق في ثورة حقيقية مـن تكنولوجيـا القمـع والـدمار، حقـق فعـلاً قفـزة تاريخيـة في الاسـتحواذ علـى أحـدث مـا اكتـشفته أوربـا الغربيـة

والاشتراكية من وسائل وخبرات السيطرة والمراقبة والقمع المتطور جداً. اضافة الى صرف معظم الميزانية في بناء المؤسسات المخابراتية والتجسسية والعسكرية لشن الحروب الداخلية والإبادة الجماعية. بل إن عبقرية السلطة تفتقت عن مكتشفات في هذا المجال فاقت حتى مكتشفات الغرب. مثل استخدام مادة الثاليوم في استحداث سرطان الدم في جسم المعتقل.

ليس صدفة أن المجال العلمي الأول الذي برع فيه علماء العراق وبلغوا فيه مستوى الدول الكبرى هو مجال الطاقة النووية والأسلحة الكيماوية والصناعات العسكرية. السلطة الحاكمة نجحت حقاً في جعل صناعة العنف والحرب حالة ثقافية وعلمية وتكنولوجية ومؤسساتية يعتاش ويستفيد منها الآلاف المؤلفة من العسكر والمخابرات والموظفين والعمال والعلماء والطلاب ورجال الأعمال والشركات الأهلية والدولية.

ليتهم فعلاً استفادوا من هذه الحالة وحققوا الانتصارات التي يبتغونها. لكنهم لم يحققوا حتى الآن غير الهزائم والدمار للبلد والحروب اللامجدية ضد الأكراد والشيوعيين والقوميين وحتى ضد البعثيين أنفسهم بل ضد العشائر والمناطق التي ينتمي اليها رجالات النظام! ثم الحرب ضد ايران، وصولاً الى «أم الكوارث» التي دمرت كل بنائهم الأسطوري.

فشل هذه السلطة يعود أولاً وأخيراً الى اعتقادها أن القوة والعظمة والانتصارات تتحقق بالعسكر والسلاح وحدهما، متناسية أن عظمة أي وطن تكمن في عظمة المواطن نفسه. وأنه على مر التاريخ، الشعوب التي خاضت الحروب وانتصرت كانت تتمتع بصفة أساسية أولى : أن مستوى تطور الجيش متوازن مع مستوى تطور الوطن. وتتساوى في هذا تجارب الشعوب المتطورة وغير المتطورة. إن آيديولوجيا العنف تؤدي الى تضخم المؤسسات العسكرية والمخابراتية والقمعية حتى تشل باقي مكونات الدولة والوطن. وإن كان هذا المثال ينطبق على الدولة فانه كذلك ينطبق تماماً على الأحزاب والمنظمات التي تتضخم فيها الحالة العنفية بحيث ينمسخ التنظيم بأكمله الى جهاز عسكري تسوده روح العنف والبطولة حتى وإن انتفت الأسباب الموجبة لذلك.

بدائل العنف

إن الإقرار بشرعية الكفاح ضد النظام المستبد، لا يعني بالضرورة الاقرار بشرعية الكفاح المسلح وحرب العصابات. صحيح أن أي كفاح ضد سلطة عنيفة مهما كان سلمياً، يعرض القائمين به الى القمع والعنف. لكن المشكلة لا تكمن في الاضطرار للتعرض الى العنف، بل تكمن في تقديس مبدأ العنف وصياغة آيديولوجيا وعقلية وأخلاقية تعتبر العنف أسلوباً ثورياً

شاملاً والقتل وتدمير الذات فعلاً بطولياً! إن خطيئة الكفاح المسلح تتمثل في دفع ضحايا العنف الى ممارسة العنف وتقديم الضحايا والخسائر المجانية، كمن يكافح النار بالحطب!

إن معاينة تجارب الكفاح المسلح في العراق وفي البلدان الأخرى، تكشف عن السلبيات التالية :

1ـ مهما بلغت خسائر الكفاح السلمي، فهي أقل بمئات المرات من خسائر الكفاح المسلح. جميع النتائج الايجابية والانتصارات التي تتحقق عن طريق العنف المسلح، يمكن تحقيقها نفسها وحتى أفضل منها بأسلوب الكفاح السلمي وبخسائر بشرية ومادية أقل بكثير.

منذ عشرات الأعوام والمعارضة الكردية مستمرة في تمرداتها وثوراتها المسلحة وحروبها ضد السلطة وضد بعضها البعض. حتى الآن لم يحقق هذا الكفاح الدامي غير المآسي وتدمير المنطقة وتشريد السكان من قبل الجيش. يكفي الاستشهاد بتجربة ثورة البرزاني الكبرى في السبعينات، انتهت هذه الثورة الى الصفر بمجرد أن وقع صدام والشاه اتفاقهما المعروف. الحركة الكردية كانت قادرة على الحصول على نتائج أفضل وبخسائر أرواح أقل بآلاف المرات لو أنها لجأت وابتدعت وطورت أسلوبها الخاص في الكفاح السلمي.

يكفي معاينة تجربة الشيوعيين في أعوام الثمانينات. آلاف الشبان والشابات من جميع أنحاء العراق تم توريطهم في كردستان والجميع يعرف النتيجة، اذ انتهت هذه التجربة بالخيبة والحسرات على آلاف الضحايا الذين راح معظمهم ضحية عمليات الانتقام التي مارستها بعض الأطراف الكردية.

إن مشكلة الحركات التي تتبع أسلوب العنف، تكمن في تفاقم خضوعها لسيادة العقلية العنفية وانحسار الأساليب السلمية والفكرية الممكنة. حتى يصبح العنف والقتال هو الهدف الذي من خلاله يستمر وجود التنظيم. كم من الحركات المسلحة التي تضخمت فيها ميول العنف فكرياً وعسكرياً، بحيث انتفت فيها القدرة على العيش بسلام حتى بعد الانتصار. والتجربة الأفغانية مثال قريب على ديمومة حالة العنف وسيادته حتى بعد نهاية العدو والسيطرة على الدولة. الحرب الحالية بين الأطراف الأفغانية الاسلامية فاقت بعنفها ووحشيتها حتى الحرب ضد الجيوش السوفيتية! أما التجربة الصومالية فهي لا تختلف كثيراً. لأنها قامت على العنف وعلى الميليشيات، وانتهت الى حرب شعواء بين المعارضين الذين اسقطوا نظام سياد بري، حتى استحال الصومال الى فتات من الدويلات القبائلية المتطاحنة. حتى الثورة الجزائرية بكل الهالة

القدسية التي لا زالت تتمتع بها والاحترام الكبير الذي استحقه شهداؤها المليون والنصف المليون ؛ وها نحن نكتشف مؤخراً وباعترافات القادة التاريخيين أنفسهم من ان هذه الثورة باسم قدسية العنف المسلح ارتكبت الكثير من الخطايا ضد المناضلين الحقيقيين وقدمت الآلاف المؤلفة من التضحيات المجانية وتم بعدها تبرير السلطة الدكتاتورية وصولاً الى الحرب الأهلية التي هي بصورة أو أخرى تتمة للعنف المتطرف الذي قامت عليه الثورة منذ البدء.

تجربة الحرب اللبنانية.. تجربة المقاومة الفلسطينية، التي ما زالت أهوالها ودروسها طرية في الذاكرة!

إن الحركة السياسية العراقية (والكردية) وحتى الآن عاجزة عن القيام بوقفة جريئة ازاء تكرار فشل هذه الثورات وما سببته من دمار وخيبات للشعب الكردي وعموم الشعب العراقي. لا زالت معظم الحركات العراقية تزايد بتقديسها للتجربة الكردية وتعلن تبنيها للكفاح المسلح من كردستان، بل هذه الحالة دفعت الأطراف العراقية لمنافسة الحركات الكردية بخلق البؤر المسلحة في جميع أنحاء العراق وخصوصاً في المناطق الجنوبية.

2ـ رغم بطولة منفذي العمليات المسلحة وتكبيدهم للنظام خسائر بشرية ومادية، فإن هذه العمليات لا تضعف حقاً النظام، بل على العكس تدفع أطرافه للتضامن وتبرير الاستبداد، ثم تدفع سياسياً ونفسياً قوات النظام الى القسوة واليقظة الدائمة، خوفاً من هجمات الثوار. تجارب الماضي والأحداث الأخيرة بينت أن العنف لم يقدم حركة المعارضة ضد النظام ولا حتى خطوة واحدة، بل ما سبب غير خيبة آمال الشباب الحالم بالتغيير والحرية، أما الشعب فإن إعجابه ببطولات العمليات المسلحة لا يمنحه الشجاعة بل الخوف والوجل بسبب حدة القمع الذي يعقب كل عملية ضد الثوار وأقاربهم. ما هو الربح الجماهيري حينما تقوم مجموعات الثوار بقتل الجنود المجبرين على الخدمة، ثم تأتي القوات الحكومية في اليوم التالي لتقصف وتعاقب المنطقة وسكانها جميعهم!

كم من الشعوب تحررت وكم من الأنظمة الاستبدادية تغيرت دون أي اضطرار لشن حرب عصابات. وإن كانت تجربة غاندي وتحرير الهند مثالاً معروفاً بهذا الخصوص، فإن تجربة الثورة الايرانية نموذج قريب لنا زمنياً وفكرياً. دروس ومعاني هذه التجربة، دحض مباشر لكل دعاوي تقديس العنف المسلح. الامام الخميني ظل لعشرات الأعوام يدفع للكفاح السلمي السري القائم على العمل الصبور الدؤوب لتكوين الخلايا الشعبية في جميع مدن وقرى إيران. حتى أثناء اندلاع الثورة ظل الخميني يصر على الكفاح الشعبي السلمي. فكانت الجماهير الايرانية تستقبل بنادق الجيش ودباباته بهتافات الاعتزاز بالأخوة بين الشعب والعسكر، حتى انتصار الثورة.

أما تجربة «الانتفاضة» الفلسطينية فتستحق أن تكون نموذجاً ناجحاً للكفاح السلمي : سلاح الحجارة وصرخات الصبيان والتنظيم الشعبي منحت للكفاح السلمي والعصيان المدني شرعية لا تدحض.

3ـ أن شيوع روح العنف المسلح لدى الشعب ونخبه السياسية والمثقفة، يؤدي الى ديمومة حالة الانمساخ الروحي التاريخي الذي يعاني منه الفرد العراقي. يكفي العراقيين هذا الانمساخ النفسي الدائم من جراء ديمومة القمع والحروب الداخلية والخارجية، ثم تربية الدولة القائمة على أخلاق القوة والحرب. وصل الانمساخ الى حد، أنه صار من أوليات التربية الوطنية إجبار الناس والتلاميذ على حضور مشاهد إعدام «الهاربين والخونة!».

أمام هذا الواقع الممسوخ فان الحركة السياسية العراقية مطالبة بخلق العقلية البديلة المضادة لكل ميراث العنف والدمار. رفض الاستمرار بالخضوع الأبدي للمصير الدامي، وعدم ترك مراكب المعارضة تسير مع رياح الموت. كأن قدر التاريخ يدفع للاستمرار باستبدال دمارنا بدمار آخر، كسجين يمضي عمره في حفر أنفاق للحرية، تقوده في كل مرة الى سجون جديدة!

يجب التوقف عن تقديس مبدأ الثورة المسلحة، كمسألة بديهية لا تقبل الجدال! حتى الذين لا يؤمنون حقاً بأسلوب العنف، فانهم مضطرون عادة للصمت وعدم إدانة هذه الدعاوي التدميرية خوفاً من الاتهام بالتخاذل وضعف «الرجولة» ومساومة النظام!

إذا كان قدر التاريخ والجغرافية قد حتم على العراق هذا المصير الدامي، فان ارادة الناس والنخبة هي عنصر حاسم في تشكيل ارادة هذا القدر. وهذا يعتمد على دور العقل في فهم قدر التاريخ والجغرافية ومسايرته ثم التغلب عليه. هنا يكمن دور النخب السياسية والثقافية والدينية في محاولة إدراك هذا الواقع العنفي وتحليله وإدانة مساوئه، ثم وضع البديل السياسي والتربوي القادر على توجيه عنف الواقع نحو الفعل الايجابي والبناء الحضاري.

الشعب العراقي بحاجة أولاً وأخيراً، الى عقلية مناهضة تماماً لكل ثقافة القوة والعنف وتقديس الموت. عقلية الايمان بالحوار والاقناع و «الجهاد» الثقافي السياسي الصبور ضد مفاهيم الخنوع لمنطق الأشقياء والأقوياء.

ان الكفاح المسلح سوف يفاقم خراب الوطن ويمنح السلطة كل مبررات الديمومة لممارسة وحشيتها ويعرض مستقبل العراق الى خطر التفتت وحروب الميليشيات الأهلية التي ستفوق بهمجيتها ودمارها ما حصل في لبنان والصومال وافغانستان ويوغسلافيا، بالاضافة الى ما هو حاصل الآن بين الأطراف الكردية المتنازعة في شمال العراق.

العراقيون في المهجر .. أي أمل؟

ها هي الأعوام تمر وساحات المنفى العراقي تعيش معادلة عكسية غرائبية مخالفة للمنطق الحسابي المعهود: كلما مرت الأعوام وازدادت حشود العراقيين الهاربين من جحيم الوطن، كلما ضعفت الهمة وتفرقت الصفوف وتبعثرت أحلام التغيير المنشود!!

هذه حقيقة يحسها المرء ويعاني من طنينها الذي يضج به الضمير مهما تفنن بالتبرير والنسيان. طبعاً لكل منا فرضياته عن أسباب هذه الحالة، ويكاد أن يتفق الجميع على إدانة الشخصيات المعارضة المتنفذة. ولكن مشكلتنا ليست بإدانة فلان وفلان على أمل رفع العتب عن الذات؛ المشكلة في السؤال الذي يصفعنا كل يوم: كيف الخروج من المأزق؟ الأعوام كشفت عن فشلنا بخلق أي قاسم سياسي وفكري مشترك بيننا: مؤتمراتنا التوحيدية أصبحت في مهب الريح وأحزابنا تعاني التمزق وسكرات الموت البطيء .. شمالنا الكردي قد تمت قراءة الفاتحة على روحه، بينما الطالباني والبرزاني قد صار واحدهما أشبه بالطنطل العراقي الذي لا يكف عن الانمساخ والتحول.. الوضع في الوطن ظل على حاله وكأن الكرة الأرضية توقفت عن الدوران بالعراق من ثقل الرئيس القائد. لم ننجح حتى بإصدار صحيفة واحدة تلتقي فيها خواطرنا. ليس هناك أية هيئة أو مؤسسة حتى ولو ثقافية أو خيرية أو دينية يجتمع حولها العراقيون ويشعرون بتمثيلها لتنوعاتهم السياسية واللغوية والدينية والمذهبية.

الغريب، أن هذا الوضع السياسي المتناحر والمشتت ليس تعبيراً مباشراً عن العلاقات الاجتماعية الانسانية السائدة بين الجاليات العراقية. لا زلت تجد العراقيين في المهجر، كما في الوطن، يقيمون علاقاتهم مع بعضهم البعض اعتماداً على أمزجة فردية لا تؤثر فيها كثيراً الفوارق اللغوية والفكرية والدينية والمذهبية. يبدو أن العراقيين تجمعهم الحياة الاجتماعية وتفرقهم السياسة. السياسة تدفع الى السطح بالحساسيات الطائفية واللغوية والدينية والعشائرية. إن مشكلة الانفصام لدى العراقي بين العمق الانساني الاجتماعي والتعبير السياسي مرتبط بتاريخ علاقته المتوترة مع القوى العليا المتمثلة بالدولة والطبيعة. منذ فجر التاريخ والعراقي يعيش حالة شك وخوف ازاء عظمة أرضه الخصبة ونهريه الكريمين ودولته الجبارة: مهما ازدهرت الحضارة وشمخ البنيان وهيمنت الدولة واستتب الأمن والسلام والاستقرار، لا بد أن يحل يوم الكارثة، إذ يثور النهران ويستيقظ وحش الطوفان ويسود الطاعون وتجتاح الوطن جحافل بدو الصحراء من الغرب ورعاة زاغاروس وهضاب آسيا من

الشرق والشمال. خلال بضعة أسابيع تستحيل حضارات مدن شامخة مثل اوروك وبابل ونينوى وبغداد الى هياكل خراب تصدح بين أرجائها مراثي الأمهات وقهقهات الغزاة. هذا هو تاريخ العراق، خلال عقد واحد فقط عشنا تراجيديا الشموخ والسقوط مرتين، في الثمانينات والتسعينات. لا زالت تتكرر هذه المأساة على مسرح العراق منذ سبعة آلاف عام وحتى الآن. هذا هو قدر التاريخ والجغرافيا، إذ جعل أهل النهرين، توحدهم الأرض والحياة وتفرقهم السياسة والسماء.

لا نريد أن نسهب. باختصار نقول، إن السياسة حتى الآن فشلت بتوحيدنا ولم تخلق لنا غير الخيبات والاندحارات. لا يعني أننا نطالب بالتخلي عن السياسة، انه مطلب مستحيل لأن السياسة بالنسبة لأي مجتمع: شر لا بد منه. اننا نطالب فقط بتغيير أسلوب التعامل مع السياسة. لنبتدع أسلوبنا الخاص بنا. السياسة بالنسبة للعراقي أشبه بالحيوان المفترس، كثيراً ما يتعرض بسببها الى جروح نفسية وبدنية لا شفاء منها. لماذا اذن لا نجد طريقة أفضل بالتعامل مع هذا الوحش. بدل الطريقة الانفعالية المعروفة بـ (الهوسة): «يلله نهجم على السياسة، أما نأكلها أو تأكلنا!»، وكالعادة ينتهي الصراع بالمأساة: إما أن تتهاوى الروح مثخنة بجراح الخيبة والنسيان، أو ينهار الجسد على يد دكتاتوري كاسر يظهر بين الرفاق ليفترس الأخضر واليابس.

اذن، كيف السبيل لحل هذه الإشكالية. اننا لا ندعي امتلاك الفانوس السحري ليخرج لنا الجن القادر على تحقيق أحلامنا. ندعو فقط للتساؤل والتفكير وتجاوز الاعتقاد بأن مشكلتنا تكمن في الأشخاص، بل يجب قول الحقيقة ان مشكلتنا تكمن في الأسلوب قبل الأشخاص .. في طريقتنا التي تعودنا أن نتعامل بها مع السياسة.

لننظر الى التاريخ، لنتمعن في تجارب الشعوب القديمة والمعاصرة؛ ان الأوطان لا يقودها فقط الحزبيون والسياسيون، بل هنالك أيضاً القادة الاجتماعيون وفاعلو الخير واصحاب القلم والفنانون ورجال الدين. الحزبيون جزء محدد من قيادة الوطن والمجتمع، فلماذا تعودنا اذن أن نترك كل القيادة لهم: هم الذين يقودون المثقفين ويمولون الصحف والمجلات ويحددون برامج التجمعات الثقافية، وهم الذين يسيطرون على الجمعيات الخيرية ويوجهون برامجها. المجال الديني كان آخر المعاقل المنسية من الحزبيين حتى السبعينات، ثم اجتاحت الحركات الدينية هذا المعقل لتضمه الى ممتلكات الطبقة الحزبية. اننا أبداً لا ندعو للعداء للسياسة والسياسيين، فكلنا بالنتيجة سياسيون وتهمنا السياسة. اننا فقط ندعو الى التخلي عن هذا

التقديس الأعمى لكل ما هو سياسي. الحد من جبروت ذلك الحزبي الذي يفرض هيمنته حتى في المنافي باسم البطولة والرجولة والدفاع عن الشعب والتمسك بالقضية العادلة، والنتيجة انه يلتهم كل قضايا الناس وتصبح قضية الوطن أشبه بالجنة الموعودة التي باسمها تبرر التضحية بخيرات الدنيا! كما تقول الحكمة المعروفة: «بدل أن تشكو من ظلام الكون، فعلى الأقل اشعل شمعة..». لندرس تجاربنا السابقة ونستكشف حقيقة امكانياتنا وحدود مساحة تحركنا التي تسمح بها الظروف المحلية والدولية، لكي نتمكن بالتالي من انارة الشموع بدل النواح على ظلام الوجود.

ولكي لا يبقى موضوعنا هذا ضمن التنظير، نطرح مقترحنا العملي الذي نعتقد بأنه قد يشكل وسيلة لتجاوز عقدة السياسة هذه.. لنحاول مراوغتها وتدجينها بدلاً من خوض الصراع اللامجدي معها. اننا نقترح قبل كل شيء المبدأ التالي :

«ضرورة عكس الطريقة العتيقة التي تعودنا عليها منذ عقود وحتى الآن: بدلاً من اعتبار السياسة وتغيير الدولة هو الهدف القريب والبعيد وبالتالي يجب اخضاع كل النشاطات الاجتماعية والثقافية للسياسة وللقادة الحزبيين؛ نقوم بعكس هذه القاعدة تماماً، اذ نجعل من النشاط الاجتماعي والثقافي هو الهدف العملي واليومي اللامحدود بأية فترة زمنية. بدلاً من الجبهات الحزبية والمؤتمرات الدولية والمشاريع السياسية التوحيدية والتقسيمية، يتم التركيز على خلق مشروع تنظيمي توحيدي كبير يقود النشاطات الاجتماعية والثقافية للجاليات العراقية في الخارج. بمعنى أوضح، لنفكر بالأرض والحياة قبل السياسة والسماء.»

يكفي الاعتراف بأننا طيلة هذه السنوات لم نقدم للوضع العراقي غير الأحلام الخائبة. لنكن متواضعين ونقتنع بأننا مهما كان عددنا في الخارج، لا نعتبر أنفسنا كل الشعب العراقي. هناك في العراق أكثر من عشرين مليون انسان، ونحن مهما كان اخلاصنا وحماسنا لا يمكننا أبداً أن نحل محل هؤلاء العشرين مليوناً. لنكن واقعيين وضميريين ونفكر بقضية مئات الآلاف من العراقيين المشردين في أنحاء الأرض وبالذات في البلدان المجاورة للعراق، والذين صارت مغامرات بحثهم عن مأوى أساطير تتناقلها وسائل الاعلام. بدلاً من كل هذه العرعرة والعنعنة والخنخنة عن قضية العراق وتحرير كردستان واسقاط صدام، لنتساءل عن مصير عشرات الملايين من ا لدولارات التي استلمتها الحركات السياسية من دول العالم باسم قضية الشعب العراقي. لو تم استخدام ربع هذه المبالغ باقامة المشاريع الاجتماعية والثقافية والاستثمارية، أما كان حالنا أفضل بكثير مما نحن عليه الآن؟

النشاط الاجتماعي الثقافي قبل النشاط الحزبي السياسي

لتتركز الجهود على خلق «الهيئة العراقية العليا للنشاط الاجتماعي والثقافي» والتي ليس لها دخل مباشر بالسياسة. هذا لا يعني أبداً معارضة الراغبين بالنشاط السياسي والاستمرار بالكفاح ضد (صدام والامبريالية التكريتية!). لهؤلاء المناضلين الحزبيين كل الحق والحرية، ولكن بشرط أن لا يعيقوا نشاط الهيئة العراقية. هناك عدة ملايين من العراقيين في الخارج. خلال سنوات قليلة انتثرت الجاليات العراقية كالكمأ بعد المطر، من القطب الشمالي حتى القطب الجنوبي ولا زال الحبل على الجرار. بين هؤلاء الكثير من العلماء والاختصاصيين والكتاب والفنانين والعسكريين ورجال الدين والمتعلمين والحرفيين. وفيهم التجار ورجال الأعمال والأغنياء. فيهم كذلك آلاف مؤلفة من المسحوقين، عوائل وأفراد، مشردين في صحراء السعودية وفي ايران والأردن وسوريا وتركيا. لو تدركون أية طاقات هائلة يمكن أن تقدمها هذه الجاليات من أجل دعم بعضها البعض وخلق المشاريع الاجتماعية والثقافية والاستثمارية التي ستؤدي الى نتائج مادية ومعنوية للعراقيين في الخارج ثم في الداخل، بصورة تجعلنا نتأسف فعلاً لجهود الأعوام العجاف التي ضاعت على نشاطات حزبية وسياسية وعسكرية كان ضررها أكثر من نفعها.

على أساس المبدأ المذكور، نقترح العمل على تأسيس المشروع الذي نسميه مؤقتاً «الهيئة العراقية العليا للنشاط الاجتماعي والثقافي». ومن أجل تجنب ان يكون هذا المشروع مثل الكثير من المشاريع العراقية التي يتم تحقيقها بحماسة وتسرع وبطريقة «الهواة» الخالية من روح الاحتراف والتخطيط، وبالتالي تنتهي أو تظل تمارس دورها بشكل رمزي. نقترح القيام بالخطوات التالية لاعداد وتحقيق المشروع:

أولاً: يتنادى للقاء أهل الخير من الشخصيات العراقية من جالية لندن، بسبب عددها وأهمية مركزها وتمثيلها لتنوعات الشعب العراقي. في هذا الاجتماع يتم اختيار نخبة من الشخصيات المعروفة بجديتها ونزاهتها وحماسها للنشاط الاجتماعي والثقافي، ليكونوا (لجنة العقلاء) التي تشرف على المشروع. من المستحسن ان تعبر هذه اللجنة عن التنوع اللغوي والمناطقي والمذهبي والفكري للشعب العراقي، بالاضافة الى مراعاة تمثيل المرأة بنسبة مقبولة. ومن الضروري جداً تجنب احتمالين متطرفين يمكن أن يقع بأحدهما اصحاب هذا المشروع: باسم الاستقلالية ورفض أهل الأحزاب والسياسة، تسود

الروح الانعزالية والنخبوية وبالتالي يتحول المشروع نفسه الى عامل انشقاق وتحزب. الاحتمال الثاني، ان تحاول مجموعة حزبية نشيطة اخذ المبادرة والاستحواذ على المشروع. لتجنب هذين الخطرين، يتوجب إشراك أكبر عدد ممكن من الأطراف السياسية والهيئات الثقافية والدينية والمهنية في الاجتماع التأسيسي، وبنفس الوقت محاولة اختيار الأشخاص المعروفين باستقلاليتهم الحزبية ولكنهم قريبون ومقبولون في الوسط السياسي والاجتماعي. ومثل هؤلاء الأشخاص لا يندر وجودهم بين عراقيِّي لندن. من الأفضل ان تكون من بين الشخصيات شخصية عربية معروفة وكذلك شخصية انكليزية أو أوربية متعاطفة مع قضية الشعب العراقي. ان هذا الأمر يمنح أفقاً عربياً وعالمياً لهذا المشروع.

ثانياً : تقوم (لجنة العقلاء) المنتخبة هذه بعقد الاجتماعات والاتصالات للاشراف على تكوين لجنة من الكوادر الادارية الحسابية والاعلامية وتعيين مدير عام للمشروع. ويتم دفع رواتب شهرية لهؤلاء الموظفين من أموال التبرعات التي يستحصلها المشروع. اما (لجنة العقلاء) المنتخبة فانها لا تتدخل في الأمور الادارية والتقنية للمشروع، بل تبقى قيمتها معنوية واخلاقية للاشراف على حسن سير المشروع وتحقيق أهدافه. يكفي أن تجتمع مرة كل فترة زمنية للتداول والمراقبة.

ثالثاً : يقوم اداريو المشروع بتنظيم حملة اعلامية عبر وسائل الاعلام العراقية والعربية والأجنبية ومن خلال الهيئات المختلفة لدى جميع الجاليات العراقية والعربية في المهجر، عبر بيان مكتوب من أجل التعريف بالمشروع. المهم أيضاً في البيان ان يجري في نهايته ذكر اسماء (لجنة العقلاء) التي تشرف على المشروع وتقديم نبذة مختصرة عن كل منهم، بالاضافة الى ذكر اسماء الهيئات والأحزاب والجهات التي تزكي المشروع وتسانده. ان التعريف بالشخصيات المشرفة والهيئات المساندة، أمر مهم جداً لأنه يخلق الثقة لدى العراقيين والمتعاطفين معهم من العرب والأجانب، ويؤكد جدية المشروع ويدفع للتبرع والإسناد. طبعاً المسألة الأساسية التي يتم تأكيدها في البيان هي حث العراقيين واصدقائهم للتبرع الشهري أو الفصلي، حسب الامكانية والرغبة على «رقم حساب مصرفي» في لندن. ولكي يأخذ هذا النشاط بُعداً شعبياً عراقياً ويجلب الثقة التي يستحقها، نقترح ان يقوم بعض اعضاء (لجنة العقلاء) بزيارات منتظمة للجاليات العراقية في انحاء العالم للحوار معها وسماع مقترحاتها وحثها على ابتداع المبادرات

والنشاطات لجمع التبرعات وارسالها على رقم الحساب في لندن. وتقبل كذلك التبرعات من الأفراد والجهات العربية والأجنبية المتعاطفة مع الشعب العراقي، ولكن بشرط ان هذه الهبات لا تفرض مطالب غير موجودة أساساً في برنامج الهيئة أو يتعارض مع مبادئها المعلنة.

كما أشرنا، فان غاية المشروع هو تكوين صندوق مالي واستثماري تابع الى «الهيئة العراقية» للقيام بالنشاطات الاجتماعية والثقافية العراقية في جميع مناطق المهجر، ***ويمكن ايراد بعض المجالات المعروفة التي يمكن للهيئة التركيز عليها :***

1ـ قبل كل شيء العمل على انقاذ ومساعدة الآلاف المؤلفة من العوائل العراقية والأشخاص المشردين في الأردن وإيران وتركيا وسوريا ولبنان (قوافل الهجرة من جحيم الوطن مستمرة)، وتكوين اللجان المالية لانقاذهم من مرارة الجوع والانتظار، وكذلك تكوين اللجان القانونية والتقنية لمساعدتهم على السفر والعثور على بلدان للاقامة والاستقرار. ويمكن ان يمتد مستقبلاً هذا النشاط ليشمل العراقيين في داخل الوطن.

2ـ تكوين بنية من المؤسسات الاجتماعية والتعاونية بالتنسيق مع المؤسسات الموجودة سابقاً والعمل على توحيد جهودها ودعمها مالياً وتقنياً. وتستهدف خطة العمل في هذا المجال تكوين شبكة من (المراكز الاجتماعية العراقية ــ المنتديات) في جميع مناطق الجاليات العراقية. تشرف على هذه المراكز لجان تقنية قادرة على القيام بعدة نشاطات منها التربوية والفنية والقانونية والترفيهية وغيرها. وتقوم أيضاً هذه المراكز بنشاطات خاصة ومشتركة لتنظيم الاحتفالات الوطنية والدينية (بما فيها مناسبات مختلف الفئات اللغوية والدينية والمذهبية العراقية) من أجل التقارب بين مختلف تنوعات الشعب العراقي، والتعريف بثقافة وخصوصيات هذه الفئات. وستكون هذه المراكز وسيلة أيضاً للقيام بنشاطات لدعم قضية الشعب العراقي وتنظيم النشاطات للتعريف بالعراق وتاريخه وحضارته وكذلك للتقارب مع الجاليات المشرقية والعربية وغيرها من الجاليات الصديقة.

3ـ تعمل الهيئة على تكوين «مؤسسة النهرين الثقافية»، ليكن مركزها أيضاً في لندن. تكون هذه المؤسسة أشبه بدار نشر للكتب العراقية والعربية، فيها لجنة تشرف على ترجمة ونشر الكتب التي تتحدث عن ماضي العراق وحاضره. والاشراف على اصدار صحيفة يومية شبيهة بالصحف العربية المعروفة مفتوحة لجميع الأقلام العراقية والعربية بمختلف تنوعاتها.

واصدار مجلة دراسات وبحوث متخصصة بالشأن العراقي. والمهم أيضاً أنه يتوجب فسح المجال من أجل التعريف بالخصوصيات الثقافية للفئات العراقية المتنوعة: مسلمون شيعة وسنة، أكراد، تركمان، سريان، يزيدية، فيلية، صابئة، أرمن، يهود، وغيرهم. اقامة الندوات وكتابة البحوث ونشر الكتب للتعريف بهذه الفئات اللغوية والدينية والمذهبية بهدف الاعتراف والتعارف المتبادل الذي سيخلق التقارب والتفاهم والشعور بالانتماء لهوية عراقية مشتركة.

هذه الخطوط العامة للمشروع، أنه مشروع عملي يقوده (التكنوقراط والكتاب والفنانون والحرفيون ورجال الدين، بالاضافة الى الحزبيين). ربما سيلاقي الصعوبات، ولكننا على يقين بأن التراجيديا العراقية الحالية قد وصلت الى ذروتها، وسوف لن تسمح الضمائر الحية بأن تصل الحالة حد الضياع الكلي. ان هذا المشروع يمكن أن يشكل مرحلة واقعية لمأزق الوجود العراقي في الخارج، وخلق الأمل بأننا رغم الظلام الدامس قادرون على إشعال الشموع التي ستنير درب الذين سيزيلون الظلام عن شمس الوطن.

الهوية العراقية الممزقة

هل هذا عراق.. أم قارّة أمريكا!؟

أي باحث في تاريخ العراق الحديث (منذ العشرينات وحتى الآن)، سيكتشف بصورة جلية أن العامل الأول في ديمومة التوتر والعنف في الوضع السياسي والاجتماعي يعود أولاً الى هشاشة الهوية الوطنية العراقية. صحيح أن من طبيعة العراقيين مهما اختلفت انتماءاتهم الدينية والطائفية واللغوية، فإنهم يتعايشون يومياً بصورة تكاد أن تنعدم فيها العنصرية بشكلها الاجتماعي المعلن. من خصال تاريخ بلاد النهرين (مقارنة بتاريخ الهند مثلاً) انعدام الحروب العنصرية والأهلية بين الناس وسهولة ذوبان الشعوب الجديدة في الشخصية الرافدية المشتركة. مثال الحرب الكردية دليل واضح على هذه الحالة، فإن هذه الحرب بقيت دائماً على الصعيد السياسي أي بين الحكومة والأطراف الكردية ولم تتطور أبداً الى حالة صراع أهلي بين العرب والأكراد رغم تعايشهم المشترك في كل أنحاء العراق من الشمال حتى الجنوب.

رغم هذه الخصال الايجابية في طبيعة الشعب العراقي إلا أن النخب السياسية العراقية لم تحاول أبداً تطوير هذه الخصال الى المستوى السياسي والتربوي الواعي بصورة كاملة لتفاصيل هذا التنوع في المجتمع العراقي. المشكلة أن الدولة والنخب والأحزاب لجأت الى أبسط الحلول وأكثرها سطحية من اجل تربية العراقيين بحقيقة هذا التنوع: أسلوب السكوت وتجنب أي تفاصيل لماهية الأديان والمذاهب والجماعات اللغوية التي يتكون منها المجتمع العراقي. كل هذا تحت شعار؛ «جميعنا عراقيون وكفى، ولا داعي لإثارة الحساسيات...»! وهذا التجاهل والتجهيل المستمر منذ أجيال وحتى الأن، انغرز عميقاً في العقلية العراقية بحيث غدا التطرق لمثل هذه الأمور من المحرمات التي يتم تداولها فقط بين أبناء الجماعة اللغوية أو المذهب أو الدين، وبالتالي صارت كل جماعة تشعر في داخلها بأجنبيتها عن الجماعات الأخرى وكذلك بأجنبيتها عن الهوية العراقية المشتركة. نتيجة هذا الوضع تعمقت «ازدواجية الهوية» في الفرد والجماعات العراقية: من ناحية تجد العراقيين يشتركون ويتآلفون في معظم عاداتهم وتفاصيل حياتهم الاجتماعية اليومية، ومن ناحية أخرى تراهم يتناقضون في مشاعرهم «الجماعية السياسية» وانتمائهم التاريخي الوطني المشترك. من الغريب ان التربية المدرسية والحزبية العراقية تثقف العراقي بكل تفاصيل تاريخ أوربا والبروتستان والكاثوليك وكالفن ولوثر وتواريخ

شعوب وطوائف العالم، إلا أنها تتجنب عن سبق الإصرار أية معلومات مهما كانت حيادية عن تاريخ الطوائف والاديان والفئات اللغوية العراقية! والنتيجة ان المتعلم والسياسي العراقي يكاد ان يمتلك معلومات عن كل تواريخ جماعات أوربا والعالم الا الجماعات العراقية التي يعيش في كنفها ويتداول معها حياته اليومية! تأثير هذه التربية المشوهة خلق وعمق المعتقدات الموروثة والعتيقة لدى كل جماعة عن الجماعات الأخرى: مثلاً السني، يجهل تماماً من هم الشيعة، وكل الذي يعلمه مهما كان ضئيلاً فانه محمل بالشكوك الموروثة منذ الحقبة العثمانية عن «الميول الايرانية» للشيعة. والشيعي بدوره لا يفهم كثيراً عن «السنة» وكل الذي يعرفه لا يبتعد كثيراً عن قضية مقتل الحسين ودور السنة في دعم يزيد بن معاوية. المسلم عموماً لا يعرف من هم المسيحيون السريان (الكلدان والآثوريون) ويخلطهم عادة بالأرمن، وينظر الى المسيحيين عموماً وكأنهم جاليات أوروبية مقيمة في العراق! وطبعاً المسيحي بدوره كثيراً ما يكون محملاً بفكرة سلبية عن «المسلم العربي البدوي» القادم من بادية «الحجاز»، وأن هذا المسيحي هو الوارث الوحيد لحضارة النهرين!

يمكننا هكذا الاستمرار في الكشف عن التجاهل والتجهيل السائد بين الجميع ازاء الجميع: الاكراد غرباء «هندو أوربيون» كما يُعتقد وليس لهم أية صلة بشعب العراق ولا تاريخ العراق وحضارته وارضه، وكل بقعة قطنوا عليها من ارض العراق هي تلقائياً جزء من حلم «كردستان الكبرى» وتقرير المصير والكونفدرالية، وهلم جراً! أما التركمان فهم أتراك مرتبطون بـ«الوطن الأم» تركيا!!! (سنتطرق لاحقاً بالتفصيل لمثال التركمان هذا). أما «اليزيدية» فهم بالنسبة للآخرين غرباء يعبدون الشيطان وكفى. كذلك «الصابئة» فهم دين غامض وأصلهم مجهول!.

هكذا أدى شعار الأحزاب والنخب والدولة بـ«أننا عراقيون وكفى». الاعتقاد بسذاجة وسطحية بأن السكوت والتكتم عن التطرق لتنوعات المجتمع اللغوي والدينية والطائفية سيؤدي تلقائياً الى التوحد، لكن الذي حصل هو العكس تماماً. ان هذا التجاهل والتنافر تفاقم في السنوات الأخيرة الى حد التعبير السافر عنه من خلال الانقسامات السياسية تبعاً للانتماء اللغوي والديني والطائفي، وبصورة تدعو الى الرثاء والتشاؤم بالنسبة لمستقبل العراق السياسي: الشيعة لهم أحزابهم الاسلامية، والسنة لهم أحزابهم الاسلامية. الاكراد طبعاً كانوا الأوائل في تكوين أحزابهم القومية (ثم الاسلامية) التي ما فتئت تزداد حدة طروحاتها الانفصالية وصار واضحاً اعتقاد الكثير من هذه الحركات بأن انتماءهم للعراق تكتيكي ووقتي

بانتظار تحقيق هدف «كردستان الكبرى». السريان (الآثوريون أو الآشوريون) هم أيضاً تنوعت حركاتهم واحزابهم. التركمان كذلك تراهم يمتلكون احزابهم التركمانية العلمانية والاسلامية الشيعية والسنية. ويمكن ان تستمر هذه الحالة بالتفاقم بحيث يمكن ان نتنبأ قريباً، مع بعض الخيال التهكمي بانبثاق الاحزاب التالية: الحركة الديمقراطية «الدليمية».. حزب «بني تميم» الاشتراكي.. منظمة «الخزاعل» الثورية. حركة «تلكيف» الاستقلالية. وهكذا دواليك بحيث يصبح لكل عشيرة ومنطقة حزب وحركة تمثل «جماهيرها» الخاصة!!

الحزب الوطني التركماني العراقي

نتناول طروحات هذا الحزب كمثال على حالة التشرذم السائدة في الوضع السياسي العراقي. نعتمد في تقديمنا على مقابلة نشرتها صحيفة «الوفاق» العراقية الصادرة في لندن (عدد 136ـ 1994). وهي مقابلة جرت في أربيل مع «مناضل يونس» ممثل الحزب وعضو لجنته المركزية. ان تاريخ هذا الحزب وتكوينه يمكن تلخيصه كالتالي:

أن الحزب تكون عام 1988 في امريكا، ومقر قيادته في تركيا «انقرة». وفي عام 1990 فتح له مكتباً علنياً في «شقلاوة» في ظل السلطة الكردية. ثم فتح مكتباً في «اربيل ـ العراق» وأنشأ اذاعة باسم «صوت التركمان» وكذلك محطة تلفزيون وجريدة في اربيل بالاضافة الى جريدة الحزب التي تصدر في «انقرة»!، ولديه مكاتب في عواصم أوربا وامريكا.

أما اهداف الحزب ومواقفه فيمكن تلخيصها حسب النقاط التالية، وقد اقتطعناها كما هي من المقابلة:

«ـ احقاق الحقوق القومية للتركمان باعتبارهم العنصر الثالث من الناحية العرقية في العراق بعد العرب والأكراد. ويعني هذا أيضاً ذكر «القومية التركمانية» في الدستور العراقي مثلما ذكر العرب والاكراد.

ـ أن هذا الحزب هو الممثل الشرعي والوحيد للتركمان في العراق.

ـ أن الحزب لم يحدد المطالبة بالفدرالية، ولكنه يطالب بمنح التركمان جميع الحقوق التي يمكن ان تحصل عليها القوميات الأخرى بما فيها الفدرالية.

ـ ان الحزب يعتبر «الوطن الأم» هو تركيا، ويرتبط معها بعلاقات قومية خاصة» ***(يتوجب التوضيح ان هذا الامر قد تغير نهاية اعوام التسعينات، حيث اصبحت غالبية النخب التركمانية العراقية تحمل لواء الوطنية العراقية والانتماء الى الامة العراقية).***

وقبل الدخول في تحليل طبيعة هذه الأهداف، نبدأ بالرد على النقطة الاخيرة التي تمثل حجر الزاوية بالنسبة لفكر هذا الحزب، وتكشف عن مدى هشاشة الهوية العراقية التي تسمح بنشوء مثل هذه الطروحات المنافية لأبسط المبادىء الوطنية والانسانية.

تركيا هي «الوطن الأم» ويرتبط الحزب بها بعلاقات «قومية خاصة»!!

إنه من العار على حزب يدعي انه يمثل «جزءاً» من الشعب العراقي، ان يعلن بصراحة سافرة ان «الوطن الام» هو تركيا! اذن ما هو العراق بالنسبة لكم، هل هو «الوطن الخالة» أم «الوطن العمة». اذا كان بالنسبة للتركمان «تركيا» هي الوطن الام، اذن بالنسبة لعرب العراق فإن «السعودية» هي الوطن الأم! باعتبار العرب أصلهم من الجزيرة العربية كما هو شائع! ثم لِمَ لا يكون «وسط آسيا» هو الوطن الأم بالنسبة للأكراد باعتبار هذه المنطقة هي موطن الشعوب الآرية! ويمكننا على هذا المنوال توزيع الجماعات العراقية: التركمان على تركيا، والشيعة على ايران، والسنة على سوريا، والسريان على أوربا، والصابئة على المجهول، واليزيدية على الشيطان، وهكذا دواليك بحيث يصبح العراق أرضاً قاحلة بلا أم ولا أب ولا أبناء!

إن الحركات السياسية «العراقية» هذه تجاوزت أبسط حدود المنطق الوطني المعروف والسائد في جميع أوطان الأرض: «الوطن الأم» الذي تولد فيه أنت وأهلك وأبناؤك. يكفي أحياناً جيل واحد أو جيلان، أو ثلاثة في أحسن الأحوال، لأن تكون بقعة الأرض هذه هي الوطن الأم والأب وكل شيء. أما الأصول القديمة والعلاقات الثقافية واللغوية مع وطن آخر، فانها يجب أن لا تتنافى وتتناقض مع الانتماء للوطن الأم الذي هو وطن الميلاد والتاريخ والعيش المشترك.

لنا على هذه الحالة تجربة شعوب أمريكا واستراليا كمثال حديث على تكون الأوطان والشعوب من مئات المجاميع والتنوعات اللغوية والدينية والمذهبية التي تجتمع في بقعة ارض وتبني وطناً قائماً على العيش والتاريخ والمصالح المشتركة، وبالتالي الثقافة والهوية الوطنية والحضارية المشتركة. اللبناني أو الياباني القاطن في الأرجنتين مهما تعاطف مع وطنه الأصلي وحافظ على ثقافته الأولى فانه يكفي جيل أو جيلان أو ثلاثة لكي يندمج تماماً مع وطنه الجديد ويصبح هو «وطنه الأم».

ولنا أيضاً تجربة العراق (بلاد النهرين) نفسه كمثال تاريخي معروف على الأوطان القديمة التي حافظت على ديمومتها رغم ما لا يحصى من الجماعات المتنوعة اللغات والحضارات

والأديان التي استوطنت فيه وامتزجت بشعبه وحضارته وصارت جزءاً منه : سومريون وساميون(*) (أكديون وبابليون وآشوريون وكلدانيون وعرب). قبائل آسيا من أسلاف الأكراد والتركمان والفرس (عيلاميون وغوتيون وكوشيون وحوريون وميديون وفرس). اغريق ورومان وسلاف، ثم أفارقة وهنود وترك ومغول وأخيراً العثمانيون. بالاضافة الى ما لا يحصى من الجماعات والأفراد الذين استمروا حتى الآن بالاستيطان في العراق وآخرهم المصريون. اذا كان معظم سكان العراق الحالي هم من الناطقين بالعربية، فان أي باحث في التاريخ يدرك أن عرب العراق ما هم بالحقيقة الا الجزء الأكبر من سكان النهرين الأصليين الناطقين بالسريانية ثم تبنوا العروبة والاسلام وحملوا اسماء القبائل العربية الفاتحة بعد الفتح العربي الاسلامي. نفس الشيء ينطبق على التركمان والسريان واليزيدية والصابئة وكذلك معظم الأكراد القاطنين في المناطق العراقية، كل هؤلاء ما هم الا أجزاء من سكان النهرين الأصليين الذين حملوا لغات كردية وتركمانية وآرامية (سريانية ومندائية صابئية)، حسب ظروف التاريخ وضرورات العيش والامتزاج مع القبائل الجديدة التي هيمنت على مناطق سكناهم.

لو تفحصنا تاريخ «تركمان» العراق فاننا سنكتشف بصورة لا تقبل الجدل بان هؤلاء «التركمان» شكلوا «جزءاً» حيوياً وفعالاً من حضارة النهرين وشعب النهرين وحكومات النهرين. ان العلاقات بين القبائل التركمانية القاطنة في وسط آسيا «طوران» وبلاد النهرين تعود الى زمن سحيق. وهناك بعض المؤرخين ممن يؤكد أن أول استيطان للتركمان في النهرين يعود الى الشعوب الآسيوية «المجهولة الأصل» التي توالت على غزو النهرين والاستقرار به منذ الألف الرابع قبل الميلاد: غوتيون وكوشيون وحوريون وغيرهم. ولكن الوجود المؤكد للتركمان شمال النهرين يعود الى القرن التاسع قبل الميلاد عندما بدأت القبائل التركمانية «الياقوتية» بالنزوح والاستقرار بين دجلة والفرات. وكان سكان النهرين وخصوصاً التجار والمبشرون على علاقة مستمرة بشعوب وسط آسيا. من المعروف مثلاً أن أول ابجدية تركمانية في التاريخ هي الأبجدية «الأوغورية» التي كونها لهم المبشرون السريان «نسطوريون ومانويون» القادمون من النهرين في القرن الخامس الميلادي (راجع الملحق عن التركمان). وقد انتشرت

* ان تسمية (سامي) لاتعني عرقاً أو قومية بل لغة ينطقها أناس من مختلف الأصول .

بالنسبة للعراق فأن اللغة السامية مرت بثلاث مراحل : الأكدية بلهجتيها (البابلية والآشورية)، ثم الآرامية السريانية، ثم العربية . وقد نطق هذه اللغات كل العراقيين بمختلف أصولهم، مثلما اللغة العربية هي اللغة الرسمية الفصحى، رغم وجود لهجات ولغات محلية عديدة .

الديانة المسيحية النسطورية وكذلك المانوية البابلية بين القبائل التركمانية في آسيا وظلت سائدة حتى بعد الاسلام، وكانت سبباً لتعلق هذه القبائل ببلاد النهرين لأنها تمثل لهم موطن الأديان المنتشرة بينهم. عام 54 هجرية بدأ انتشار الاسلام على أيدي المحاربين القادمين من العراق بقيادة عبيد الله بن زياد وخضوع التركمان للامبراطورية العربية، ثم استقرار الكثير من هؤلاء المحاربين العراقيين وتزاوجهم مع التركمان. وكان هذا سبباً جديداً لانبثاق نزوحات جديدة للقبائل التركمانية نحو بلاد النهرين. نحن نعرف دور هذه القبائل في تكوين الجيش العراقي أيام الخليفة المعتصم الذي كان من أم تركمانية، وقد بنى مدينة سامراء لاستقرار الجيش التركماني فيها بالاضافة الى استقرار البعض في كركوك. ثم توالت هجرات التركمان «السلاجقة» الذين سيطروا على الخلافة في بغداد لعدة قرون. وبدأت هجرات تركمانية جديدة مع الغزو المغولي للعراق ولاحتواء الجيوش المغولية على الكثير من القبائل التركمانية. أما بالنسبة للحقبة العثمانية فانها لم تشهد نزوح أية مجاميع تركية للعراق، بل ان الحضور التركي كان على شكل افراد وعوائل معظمها من اصول جورجية وسلافية والبانية تسيطر على ادارة الولايات العراقية. رغم تقرب التركمان العراقيين من الدولة العثمانية فانهم أبداً لم يعتبروا يوماً كعناصر تركية عثمانية بل ظلوا يعاملون كعراقيين «غرباء» عن الطبقة العثمانية الحاكمة ذات الأصول البلقانية والقفقاسية. والذي زاد من الشقة بين تركمان العراق والطبقة العثمانية ان الكثير من التركمان تبعوا المذاهب الشيعية والعلوية السائدة في العراق والمختلفة عن مذهب الدولة العثمانية.

أما بالنسبة لدور التركمان في تكوين الدولة العراقية الحديثة وديمومتها فاننا نلاحظ الدور البارز للعناصر التركمانية في جميع الادارات والوزارات العراقية في الفترتين الملكية والجمهورية. بل ان العناصر التركمانية كانت متميزة في قيادات الجيش العراقي. ثم ان التركمان خلال هذه القرون الطويلة من العيش المشترك مع باقي الجماعات العراقية اكتسبوا شخصية عراقية تميزهم عن جميع الأتراك في الأوطان الأخرى، رغم حفاظهم على اللغة التركمانية. ومعروفة حالات التزاوج والتمازج بين التركمان والعرب والأكراد، وحتى مع السريان المسيحيين بحيث أن أبرز ملحمة شعرية تركمانية «سفيل يونان» كتبها كلداني من كركوك هو «سركيس عيواز» في أواخر القرن الماضي. بالاضافة الى مثال الكثير من القبائل العربية الممتزجة الى حد بعيد مع التركمان وكذلك الأكراد مثل بعض أقسام «البيات وربيعة والجبور» وغيرهم. ولنا بهذا الخصوص مثال رجل الدولة العراقي الشهير «نوري السعيد» ذو الأصول التركمانية

العربية الكردية. يمكن الاستشهاد بما لا يحصى من الأمثلة عن الدور البارز للتركمان في جميع المجالات الاجتماعية والسياسية والثقافية في العراق، وأبرزها مثال «مصطفى جواد» التركماني الكركوكلي وفقيه اللغة العربية البارز.



مناطق انتشار التركمان في شمال العراق

أشكالية الانتماء القطري والانتماء القومي

يبدو أن مشكلة التكوين القومي للعراق تعود الى أساس تكوين الدولة العراقية عام 1921من قبل الانكليز. فعندما احتل الانكليز العراق كانوا يمتلكون معلومات واسعة تاريخية وعملية عن أصل العراق، ولهذا كان يطلقون على العراق في جميع وثائقهم «بلاد بين النهرين ـ MESOPOTAMIA». وعلماء الآثار والتاريخ الانكليز منذ القرن الماضي هم أول من اكتشف حقيقة الديمومة الحضارية والتاريخية لبلاد النهرين منذ فجر التاريخ. وكانوا يدركون ان بين دجلة والفرات استقرت ما لا يحصى من الشعوب والأديان والمذاهب التي كانت سرعان ما تتفاعل وتمتزج لتكون حضارة واحدة ودولة واحدة مهما تنوعت المسميات والمنافسات السياسية. لكن الطبقة الاستعمارية الانكليزية اضطرت لتجاوز جميع هذه الحقائق التي أكدها علماؤهم، وخضعوا لنزعتهم الاستعمارية القائمة على مبدئهم المعروف: «فرق تسد». نلاحظ رسوخ هذه النزعة التقسيمية في جميع الوثائق التي تداولها القادة العسكريون بخصوص تكوين الدولة العراقية. فهذا وزير المستعمرات «شرشل» يبرق عام 1921 الى المعتمد السامي في بلاد النهرين قائلاً : «ان المعيار لتقرير خط الحدود بين المناطق التي تديرونها وتديرها حكومة بلاد ما بين النهرين يجب أن تكون الحد السكاني للمناطق العربية الصرفة...» (راجع عزيز الحاج ـ القضية الكردية ـ 162).

رغم محاولات النخبة الملكية العراقية لتجاوز هذه المشكلة من خلال اشراك العناصر غير العربية في قيادات الدولة العراقية، إلا أنها فشلت في خلق هوية عراقية مشتركة تمثل مختلف الفئات العراقية، وذلك لسببين:

- تداخل المشكلة القومية مع المشكلة الطائفية والدينية. لأن النخبة الملكية ورثت عن الدولة العثمانية مشكلة التكوين الطائفي «السني» للنخبة الحاكمة. فلم يكن هدف هذه النخبة توحيد مختلف العناصر العراقية على أساس التنوع اللغوي والاقليمي، بل على أساس التعصب الطائفي. فكان التركماني والكردي والعربي مفضل في ادارة الدولة العراقية بسبب انتمائه «السني» وبالتالي الاستمرار بممارسة عزل العناصر الشيعية العربية والتركمانية والكردية «الفيلية»، كما كانت تفعل دائماً الدولة العثمانية. واستمرت هذه السياسة بشكل اكثر تطرفاً في الحكومات الجمهورية والبعثية خصوصاً.

ـ بروز تيار الحركات القومية العربية منذ الخمسينات، ثم استيلائها على السلطة منذ الستينات وحتى الآن. مشكلة هذا التيار القومي العربي انه افتعل تعارضاً ساذجاً بين ما يسمى بـ «الانتماء القطري» و «الانتماء القومي»، أي بين أن تكون «عراقياً» وان تكون «عربياً». وعلى هذا الأساس فان الشرط الأول لقياس «مواطنية» أي عراقي هو «أصله العربي»، وبالتالي تبرير سياسة «تعريب» المناطق غير العربية في شمال العراق. هذه السياسة دفعت الكثير من العناصر غير العربية بالادعاء بالأصل العربي من أجل تبرير وتأكيد أصالتهم العراقية. ان هذه السياسة القومية التعصبية أشعرت الفئات العراقية غير العربية بعدم عراقيتها وغرابتها عن الهوية العراقية التاريخية.

لو أخذنا مثلاً حزب «البعث» الحاكم نفسه، هل ننسى أنه يسمى صراحة: «عربي» دون أي ذكر لاسم «العراق»؟ وهو بأحسن الأحوال يمثل «أبناء القومية العربية» في العراق. معنى هذا، انه من الطبيعي ان يحق للتركماني العراقي أن يكون حزبه القومي، والسرياني كذلك، واليزيدي، والصابئي. وهذا بالضبط ما هو حاصل الآن. فكل فئة سكانية عراقية صار لها حزبها، بل قل أحزابها وحركاتها وحتى يسارها ويمينها.

ان المشكلة لا تكمن في الاعتراف بـ «الانتماء العربي» للعراق بل المشكلة في تحجيم هذه الهوية الى «المعنى القومي والعرقي» الضيق والمتعصب المناقض والمنافي لمعنى «الهوية الوطنية» وبالتالي اختصار تاريخ وتكوين الشعب العراقي الى تاريخ القبائل العربية التي نزحت الى العراق و «عربت وأسلمت» سكان العراق الأصليين الناطقين بالسريانية. لقد تم تربية العراقي «العربي» على أنه منحدر بصورة لا تقبل الجدل من القبائل العربية التي نزحت بعد الفتح الاسلامي، وشعور العراقي العربي أنه غريب «سلالياً وبدنياً» عن تاريخ أسلافه صانعي حضارات النهرين السامية. وهذه التربية القومية دفعت الجماعات العراقية المختلفة للبحث أيضاً عن تواريخ وأصول مختلفة خارج بلاد النهرين: الكردي وجد تاريخه الميدي الايراني. التركماني وجد تاريخه التركي العثماني. السرياني هو الوحيد من لجأ الى التاريخ النهريني، ولكنه جعل نفسه غريباً تماماً عن تاريخ النهرين العربي الاسلامي.

إن رفض استخدام عبارة «قومية عربية» لا يعني أبداً معاداة العرب، بل بالعكس ان الدعوة الى هوية عراقية موحدة وشاملة لجميع مكونات الشعب العراقي، تستهدف أساساً اشراك جميع العراقيين وليس عرب العراق وحدهم بهدف التقارب والتضامن والتوحد بين

البلدان العربية. فان هدف وحدة العراق مع أي بلد عربي لن يتم دون شعور جميع العراقيين بوحدتهم الوطنية واشتراكهم في الهوية العراقية التي هي جزء من «هويات» متدرجة ومتنوعة: مشارقية (مع بلدان الشام) وعربية (مع العالم العربي) وشرق أوسطية (مع ايران وتركيا). ان التركماني أو الكردي أو السرياني عندما يشعر بانتمائه الكامل الى العراق فانه سوف يشعر أيضاً بانتمائه الى العالم العربي ما دام العراق هو جزء من هذا العالم العربي، كما يشعر مثلاً أي مواطن فرنسي مهما اختلفت طائفته أو لغته بأنه طبيعياً أوروبي ما دامت فرنسا جزءاً من العالم الأوروبي.

يمكن الاستفادة في هذا المجال من تجربة «مصر» ونجاح النخبة المصرية في خلق «هوية مصرية» تعترف بديمومة الشعب المصري منذ الفراعنة والأقباط حتى التكوين العربي الاسلامي. أي محاولة المجانسة بين الأصالة المصرية من ناحية والانتماء العربي الاسلامي من ناحية ثانية. رغم النواقص التي لا زالت تعاني منها هذه التجربة. على هذا الأساس أن النخبة العراقية بحاجة الى تكوين «مفهوم جديد» لـ «الوطنية العراقية» يعتمد خصوصية «الهوية العراقية» القائمة على المبدأ التالي :

ان العراق الحالي، هو الديمومة الطبيعية والتاريخية لبلاد النهرين وحضارتها وتكوينها منذ فجر التاريخ وحتى الآن. وان شعب العراق الحالي بكل أديانه ومذاهبه وفئاته اللغوية هو النسل الطبيعي للجماعات التي قطنت وصنعت تاريخ النهرين: سومريون وبابليون وآراميون وأكراد وتركمان وعرب. بالاضافة الى جميع الفئات الصغيرة والكبيرة التي استقرت وامتزجت في تاريخ العراق مثل الاغريق والهنود والسلاف والقفقاس والأفارقة.

وهذا التحديد التاريخي لـ «الهوية الرافدية» المتميزة لا يمنع أبداً من الاعتراف بانتماء العراق وجميع العراقيين الى «هويات أكبر» تتدرج بأهميتها حسب التالي :

- الهوية المشارقية: وهي تشمل مجموعة بلدان «منطقة المشرق»، أي ما يسمى بالهلال الخصيب التي تجمع العراق وبلاد الشام (سوريا ولبنان والأردن وفلسطين). حيث تشترك شعوب هذه المنطقة بالتاريخ والجغرافيا والمكونات الحضارية والسكانية منذ فجر الحضارة وحتى الآن. بل التشابه يشمل حتى التنوعات المذهبية والدينية واللغوية : عرب أكراد تركمان مسلمين مسيحيين، شيعة سنة، وغيرهم. ان الانتماء لِ «الهوية المشارقية» ليس نقيضاً للانتماء للهوية العربية «الشرقمتوسطية» بل هو جزء متميز منها، مثل «الهوية

المغاربية» التي تجمع بلدان شمال افريقيا بخصوصياتها الجغرافية والتاريخية والثقافية. ان انتماء العراقيين بجميع تنوعاتهم الى «الهوية المشارقية» سوف يبدو مقبولاً بسبب عدم حمل هذه «الهوية» لمفاهيم ومسميات قومية عرقية محدودة ومناقضة للجماعات اللغوية والدينية الأخرى. ثم ان هذه «الهوية المشارقية» تعترف تلقائياً بالخصوصيات التاريخية والسياسية لشعوب بلدان المشرق، مع الاعتراف بالقاسم المشترك بينها وهدف التقارب والتعاون، وربما يكون نوعاً من الاتحاد الديمقراطي في المستقبل.

- «الهوية العربية»: ان انتماء العراق الى منطقة المشرق يفترض أيضاً انتماءه للعالم العربي «الشرقمتوسطي» الكبير الذي ينقسم الى مناطق متمايزة: منطقة المغرب، منطقة النيل (مصر والسودان)، ومنطقة الجزيرة العربية، ثم منطقة المشرق. ان الشعب العراقي يرتبط مع باقي شعوب العالم العربي بقواسم مشتركة في التاريخ والجغرافية واللغة والثقافة والجوار والمصالح. وهذه الهوية العربية لا تجمع فقط «عرب العراق» مع «عرب» البلدان العربية، بل إنها تجمع كل العراقيين مع كل سكان البلدان العربية، فهي تجمع السرياني أو الكردي العراقي مع البربري أو القبطي. انها باختصار مثل «الهوية الأوروبية» التي تجمع الأوروبيين مع احترام الخصوصيات الوطنية لكل بلد. انها ليست رابطة قومية عرقية ولا رابطة «أمة واحدة»، بل رابطة «جيو ـ سياسية» بحكم التاريخ والثقافة والجوار والمصالح المشتركة. يتوجب هنا التأكيد أن «الانتماء العراقي الحقيقي» يؤدي الى «الانتماء المشرقي» ومن ثم الى «الانتماء العربي» ، وليس العكس كما حاول أن يفرضه التيار القومي المتعصب.

- «الهوية الشرق أوسطية»: ونقصد بها بالذات تركيا وايران. لأن التربية القومية التي سادت العراق منذ أجيال، زرعت في النفوس فكرة التناقض بين الانتماء القومي للعراق من ناحية، واحترام الشعبين الجارين في تركيا وايران من ناحية ثانية. ان الفهم القومي المتعصب أشاع الاعتقاد أن «العروبة» تعني أولاً معاداة الشعوب المجاورة غير العربية. مهما كانت الخلافات والإشكالات التاريخية والحدودية مع تركيا وايران فانهما تظلان جارتين تجمع العراق بهما ما لا يحصى من علاقات الجوار والتواريخ المشتركة والدين والثقافة والتمازج الروحي والسكاني. وهذه العوامل يمكن العناية بها ومنحها الزخم الايجابي وتطويرها من خلال العلاقات الثقافية والسياسية والاقتصادية والتقارب الأخوي.

دور المصطلحات في تمزيق الوحدة

إن العامل الآخر الذي لعب دوراً مهماً في إضعاف الهوية الوطنية يتمثل في التمزق «التنظيري». إن الحركة السياسية العراقية (حكومة وأحزاب) حاولت أن تمسك المشكلة من ذيلها من خلال ترجمة التنظيرات والمصطلحات الأجنبية. منذ سنوات الأربعينات بدأت الحركات السياسية العراقية تلهث من اجل اقتباس كل ما أنتجته قريحة المفكرين الغربيين والسوفيات لاستخدامه وحشره على تنويعات المجتمع العراقي. المتفحص للأدبيات السياسية سيفاجأ بهذا السوق العجيب الذي تزدحم فيه المصطلحات الوطنية بصورة تفوق أي بلد آخر في العالم، حتى مقارنة بالبلدان العربية المجاورة. إذ بدأت اللغة السياسية تفحمنا كل فترة بمصطلح جديد لوصف تنويعات المجتمع العراقي : «أمة، شعب، قومية، أقلية طائفية، أقلية عرقية، أقلية دينية...» حتى وصلنا إلى نتيجة أن أي شخص غير عراقي عندما يطلع على هذه المصطلحات سيعتقد لا محالة ان العراق هو نموذج مصغر لقارة امريكا، اذ تتواجد فيه ما لا يحصى من القوميات والشعوب والأقليات والعرقيات والطوائف والأديان!

ثم انه بسبب المشكلة الكردية راحت تسود اللغة السياسية العراقية مفردات ومصطلحات ومسميات لعبت ولا زالت تلعب دوراً سلبياً في تكوين وتوحيد الهوية الوطنية العراقية. صار من الطبيعي ان نسمع في الخطاب السياسي العراقي (حكومة ومعارضة) مفردات عجيبة غريبة، من نوعية : (القومية العربية في العراق ـ القومية الكردية، الأقليات القومية، الأقليات العرقية، الشعب العربي في العراق، وغيرها).

إن العقبة الأساسية التي تمنع من تكوين هوية وطنية عراقية شاملة لجميع الفئات العراقية هي المشكلة الكردية. لأن الطرح الخاطىء عن انقسام الشعب العراقي الى «قوميتين رئيسيتين : عربية وكردية «مع أقليات دينية وعرقية مختلفة» هو طرح خاطىء من الأساس، وهو أشبه بالخنجر في خاصرة الهوية العراقية الموحدة. لنوضح القول كما يلي :

إن تسمية العراقيين الناطقين بالعربية على أنهم قومية عربية، يعني أن جميع غير الناطقين بالعربية هم قوميات مختلفة، وهذا يعني أن هناك قومية تركمانية وقومية سريانية وقومية صابئية وقومية يزيدية وقومية فيلية، وهكذا دواليك! ولو استمر الأمر على هذا الحال سوف لن يكون غريباً أن نسمع من يتكلم عن «القومية الشيعية!» و «القومية السنية!»

إن كلمة «قومية» خاطئة ومبهمة، وهي ترجمة عربية سيئة لكلمتين لاتينيتين تم الخلط بينهما : (NATION) و (ETHNIE). ان كلمة (NATION)، تعني بالضبط الشعب الموحد ضمن وطن ودولة، وربما تكون أدق ترجمة عربية لها هي كلمة (أمة) بمعناها الوطني المحدد، فنقول مثلاً، الأمة البريطانية والأمة الهندية والأمة الأمريكية، رغم احتواء هذه الأمم على جماعات دينية ولغوية مختلفة إلا أنها تعتبر «أمة» ما دامت موحدة ضمن وطن ودولة واحدة. ولهذا فانه يقال الأمة الفرنسية ولكن لا يقال الأمة الأوروبية بل الأمم الأوروبية لأنها لا زالت لم تتحد فعلاً بدولة واحدة ولو حدث هذا الاتحاد الفعلي فانها ستصبح أمة أوروبية. من الخطأ القول «أمة عربية» ما دامت لم تتحد بدولة واحدة. ربما القول الأصح هو «العالم العربي» و «الشعوب العربية» للتعبير عن وجود بلدان مختلفة تجمع بينها روابط عديدة ومصالح وطموحات مشتركة. وقد يصح القول «أمة عراقية» ما دام الشعب العراقي بجميع تنوعاته مرتبط بوطن ودولة واحدة.

أما كلمة «ETHNIE» التي تترجم الى العربية، تارة «قومية» وتارة «عرقية» وتارة «اثنية»، فهي بالحقيقة أقرب الى معنى «شعب». لكن المشكلة ان هذا المصطلح الأوروبي قد ساد استخدامه منذ القرن الماضي من قبل العلماء الغربيين المختصين بالانثربولوجيا والاثنولوجيا أي كل ما يتعلق بما يسمى «الشعوب البدائية» أي الشعوب غير الأوروبية والغربية. فتراهم يتحدثون عن الاثنيات في افريقيا وآسيا واستراليا وامريكا القديمة، ولكن عندما يتحدثون عن أوربا والغرب فانهم يقولون بكل بساطة «شعوب أو فئات لغوية »-GROUPE LIN GUISTIQUE». مثلاً في فرنسا هناك البروتون والالزاس والباسك والكورس الذين يتكلمون بلغات أصلية مختلفة مع استخدامهم الفرنسية كلغة أساسية. لكن لا أحد في فرنسا يتحدث عن قومية أو أثنية أو عرقية، بل يتم الحديث عن «فئة لغوية»، وهم جزء من الأمة الفرنسية والعرق الفرنسي والقومية الفرنسية والشعب الفرنسي. لأنهم يدركون أنهم لو تحدثوا عن قومية أو أقلية عرقية، فان هذا يعني أنه هناك أيضاً قومية باريسية وقومية مارسيلية وهلم جرا، فكيف اذن سيحق الحديث عن شعب فرنسي واحد وأمة فرنسية واحدة! ونفس الكلام يمكن تكراره بالنسبة لمعظم البلدان الأوروبية المتنوعة الطوائف والمجموعات اللغوية مثل انكلترا وبلجيكا واسبانيا وسويسرا.

أما نحن، فان سياسيينا ومثقفينا لا أحد يدري كيف راحوا يتحدثون بشأن العراق عن قوميات وأقليات عرقية وأحياناً عن شعوب ضمنها طبعاً «الشعب» العربي في العراق!!

ثم الأسوأ من هذا عبارة : «الأقليات الدينية والعرقية». كلمة «أقلية» مهما كانت حسنة النية فانها تشعر الانسان الذي ينتمي اليها بشيء من المهانة والضعة. الأقلية المسيحية السريانية والأقلية التركمانية والأقلية الفلانية، وكأن العراق بأجمعه استحال الى حزب لينيني حديدي متكون من «أكثرية» حاكمة وأقليات خاضعة. ومثل هذا يجر الى الحديث الذي لا ينتهي عن عدة أكثريات وعدة أقليات. سوف يحق القول مثلاً : أكثرية مسلمة وأقليات غير مسلمة .. أكثرية عربية وأقليات غير عربية، أكثرية شيعية وأقليات غير شيعية.. الخ.

الحقيقة ان كلمتي أكثرية وأقلية قد يصح استخدامهما في سياق المقارنة وعند التحليل الأكاديمي الاجتماعي والتاريخي ومن أجل تبيان الفروق العددية لا أكثر، ولكن من الخطأ الكبير استخدام واحدة من هاتين الكلمتين كصفة وتسمية ثابتة لمجموعة من السكان. المطلوب اذن أن يقال بكل بساطة «العرب» أو الناطقون بالعربية، بدل «القومية العربية أو الأكثرية العربية»، وأن يقال التركمان أو الناطقون بالتركمانية، بدل «الأقلية التركمانية أو الأقلية القومية أو العرقية التركمانية». وان يتم استخدام كلمة «الفئات اللغوية والدينية والطائفية» بدل هذه «الأقليات القومية والعرقية والدينية والطائفية».

المهمات المطلوبة

ان الهوية المشتركة لا يمكن أن تتشكل الا بمعرفة الجميع للجميع، ثم اعترافهم ببعضهم البعض. الوحدة التي تقوم على الجهل والتجاهل هي وحدة هشة وقابلة للتفسخ الى عدة وحدات متصارعة.

هنا يمكننا تسجيل بعض المقترحات القابلة للحوار والتطوير، والتي يمكن أن تساعد على تجنب النتائج السلبية لممارسات وتنظيرات المراحل السابقة والحالية للوضع السياسي العراقي وتساعد على بناء «هوية وطنية عراقية» واضحة ومحددة.

بالنسبة للمشكلة الكردية فانه يجب الاعتراف انها استثناء خاص في الوضع العراقي. ولكن هذا الاستثناء يجب أبداً أن لا يكون قاعدة عامة تؤثر على مجمل الوضع العراقي. وهنا نستذكر مثال تصريحات عضو «الحزب التركماني» (المذكور أعلاه) حيث يطالب للتركمان بجميع الحقوق التي سيحصل عليها الأكراد. على هذا الأساس تم «تكريد» الوضع العراقي ودفع الفئات المختلفة لأن تطالب بالفدرالية وحق تقرير المصير والانفصال وهلم جرا.

من أجل بلورة موقف واضح ازاء المشكلة الكردية، يتوجب الأخذ بنظر الاعتبار الأمور التالية:

ـ يجب التفريق بين كردستان الحقيقية التي تمتلك حق الفدرالية وحق تقرير المصير (أي الشريط الجبلي الحدودي مع ايران والذي يشمل أجزاء من محافظات السليمانية واربيل ودهوك)، وبين المناطق الكردية العراقية النهرينية الأصيلة التي يقطنها أكراد ولكنها أبداً لن تكون جزءاً من كردستان، ونعني بهذا مدن اربيل وكركوك وخانقين وغيرها (راجع موضوعنا المفصل عن الأكراد)، في ايران مثلاً رغم أن الأكراد يسكنون في عدة مناطق الا أن هناك محافظة واحدة اسمها «كردستان».

ـ يجب الغاء الفقرة الواردة في الدستور العراقي: «ان الشعب العراقي يتكون من قوميتين رئيسيتين هما القومية العربية والقومية الكردية» لتحل محلها الفقرة التالية: «ان الشعب العراقي سليل تاريخ النهرين، هو أمة واحدة موحدة تتكون من عدة فئات لغوية ومذهبية ودينية، منها الشعب الكردي القاطن في كردستان العراق..» وهذا يعني تجنب «تكريد» الوضع العراقي وتقسيمه الى قوميات وشعوب أقليات، ولكن بنفس الوقت الاعتراف بالأمر الواقع بأن أكراد كردستان لهم مميزاتهم الفئوية والتاريخية الخاصة ولهم وضعهم الاستثنائي الذي يجب أن لا يؤثر على عموم الأمة العراقية الموحدة. بمعنى أوضح ان الاعتراف بوجود «شعب كردي» لا يعني تلقائياً الاعتراف بوجود «قومية عربية أو شعب عربي» بل ان الأمة العراقية بجميع تنوعاتها هي جزء من منطقة المشرق وكذلك العالم العربي الكبير.

ـ تبني جميع السياسيين والمثقفين مبدأً عاماً ومقدساً يثبت في دستور الدولة والأحزاب يؤكد على منع تشكيل أي تنظيم سياسي يمثل ويدافع فقط عن مجموعة من السكان، سواء دين أو طائفة أو مجموعة لغوية وله طموحات ونشاطات خارج حدود العراق مع غير العراقيين. ويفرض على أي تنظيم أن تكون دعوته واضحة لتمثيل جميع تنوعات الأمة دون أي اعلان واضح عن تمثيل جزء معين. أما الاستثناء الوحيد بالنسبة لهذا المبدأ فيخص الحركات الكردستانية، فهذا أمر أقره الواقع واضطرت لقبوله جميع الحركات وحتى الحكومات الدكتاتورية منذ الأربعينات وحتى الآن. وهو يدل على اعتراف الجميع بحقيقة خصوصية الشعب الكردستاني في داخل الأمة العراقية. (يمكن الاعتماد على مثال الدستور الجزائري الجديد الصادر عام 1996 الذي أكد هذه المسألة بوضوح تام).

أما بالنسبة لعموم الوضع العراقي، فيمكن تسجيل النقاط التالية:

- تشكيل مجموعة من الباحثين من أجل اصدار كتاب موحد يتضمن مختصر تاريخ كل الفئات الدينية والطائفية واللغوية العراقية: عرب، شيعة، سنة، سريان، تركمان.، أكراد، فيلية، صابئة، يزيدية، شبك، الخ. ثم اقرار كتاب خاص بهذه المسألة في جميع المراحل الدراسية في العراق. ويمكن التعمق بهذا المشروع باصدار دراسات وبحوث ومجلة متخصصة بتاريخ الجماعات العراقية والمشرقية وتشجيع الحوار والتفاهم بينها. بالاضافة الى إشراك وسائل الاعلام ومناهج التثقيف الحزبي بالتطرق لتراث وتاريخ هذه الجماعات ودورها في صنع تاريخ النهرين ومنطقة المشرق.

- أن يحق لجميع الفئات اللغوية والدينية والمذهبية بتكوين مؤسساتها ومنتدياتها الثقافية والاجتماعية والدينية الخاصة بها. مع التأكيد على تجنب أن تتحول هذه المؤسسات الدينية الثقافية الاجتماعية الى مؤسسات سياسية مغلقة على أبناء الجماعة بل أن يكون من أول أهدافها التعريف بجماعتها الى باقي جماعات الأمة العراقية.

- من حق الفئات اللغوية والطائفية العراقية المتنوعة وكذلك أبناء جميع محافظات العراق، المطالبة بوجود افراد منهم في جميع أجهزة الدولة والحركات السياسية. أي أن يكون من حق السرياني أو التركماني أو الفيلي أو الصابئي أو اليزيدي أو الموصلي أو البصري أن يطالب بوجود أفراد من جماعته أو محافظته في مناصب الدولة العليا وكذلك في قيادات الأحزاب. ومثل هذه الامكانية تتم دون أية ضرورة لتكوين حزب خاص بالجماعة أو المحافظة الفلانية، بل من خلال جميع الأحزاب العراقية وكذلك المستقلين. بمعنى أوضح أن قيادات الدولة والجيش والمجتمع يجب أن تمثل بصورة نسبية تقريبية جميع التنوعات الاقليمية واللغوية والمذهبية في العراق، وهذا المبدأ مقدس وثابت في جميع الأنظمة الديمقراطية.

- من أجل ضمان نجاح المبادىء السابقة فان المبدأ الأساسي والأهم الذي يتوجب تبنيه هو التالي: «على جميع الحركات السياسية العراقية مهما كانت مبادئها وبرامجها حتى الاسلامية منها، ان تضم في قياداتها وقواعدها نسب تقريبية من أعضاء ينتمون الى جميع تنوعات الأمة العراقية» بمعنى أوضح أن يسود مبدأ أخلاقي يجعل من المعيب وأقرب الى الخيانة الوطنية أن يتكون حزب ما من قيادات تضم فقط فئة لغوية أو طائفية أو اقليمية معينة. يتوجب على جميع الحركات العراقية ان تجعل من أول أهدافها ان تضم في قياداتها

وقواعدها نسب معينة من أفراد ينتمون الى جميع تنوعات الشعب العراقي. (مثال السلطة الحالية في العراق نموذج لسوء التمثيل العشائري الاقليمي الطائفي). يمكننا هنا أن نستشهد بمثال حدث في لبنان، حيث لجأت بعض الحركات الاسلامية الشيعية الى ضم أفراد من الطوائف المسيحية في صفوفها وجعلهم نوابها في البرلمان، نذكر هذا كمثال لا أكثر مع إدراكنا لصعوبته ولنواقصه التفصيلية.

خلاصة القول، أن حركات المعارضة العراقية لن تنتصر في كفاحها من أجل بناء عراق جديد ما لم تتخل عن طروحاتها العتيقة. لا تكفي أبداً الدعوة الى إسقاط النظام الدكتاتوري واقامة نظام ديمقراطي مع البقاء على نفس الأساليب القديمة باقتباس وترجمة التنظيرات الغربية والشرقية ومحاولة فرضها عنوة وبصورة سطحية وساذجة على الوضع العراقي مع العمل على تغطية هذا النقص بكيل الشتائم للنظام الدكتاتوري والحديث المسهب عن جرائمه وكوارثه.

ان المهمة التاريخية المطلوبة الآن تتمثل بتكريس المعارضة العراقية لجميع إمكانياتها المادية والمعنوية من أجل تكوين المؤسسات المتخصصة بدراسة الوضع العراقي بجميع تفاصيله السياسية والتاريخية والاجتماعية، من ثم اقتراح الحلول والبرامج المطلوبة لمشاكل المجتمع العراقي ومن أجل بناء عراق جديد، وهذه أولاً مهمة ثقافية فكرية ومن ثم سياسية.

الشيعة والمشكلة الطائفية في العراق

الجرح الطائفي في الهوية العراقية لا يكف عن النزيف جاعلاً من الوطن مبتغى لأحلام الطامحين الى التوسع والاستحواذ. يمكن تعزية النفس بظاهرة ايجابية أخذت تسود بين السياسيين والمثقفين العراقيين وتتلخص بالفكرة التالية: بما أنه ليس بالضرورة أن تكون كادحاً لكي تدافع عن حق الكادحين، ولا أن تكون امرأة لكي تدافع عن حق النساء، ولا أن تكون كردياً لكي تدافع عن الأكراد... فاذن ليس هناك ضرورة أن تكون شيعياً لكي تدين طائفية الدولة وتدافع عن حق الشيعة بالمشاركة العادلة بادارة الوطن ... يكفي أن تكون عراقياً فحسب لكي يحق لك إدانة الظلم المسلط ضد أي طبقة أو فئة أو طائفة أو مجموعة أو فرد من الشعب. ويكاد أن يتفق الجميع على حقيقة احتكار الدولة من قبل طغمة تعتمد الطائفية والعشائرية والحزبية في إذلال الناس وقمعهم. وأن الحل الوحيد للتخلص من سرطان الطائفية هو الاعتماد على نظام التعددية ومشاركة جميع المواطنين بادارة الوطن، كل حسب جدارته وليس حسب انتمائه الطائفي والعشائري والحزبي.

إن هذا الاجماع على الحل الديمقراطي للمشكلة الطائفية ايجابي وأساسي، لكنه يظل ناقصاً إن لم يرافقه حوار عميق وشامل وجاد في كل تفاصيل المشكلة الطائفية. ان الأغلبية المتعلمة لا زالت حتى الآن تتعامل مع مسائل الدين والطائفة فقط من الناحية السياسية ودور الدولة في حل المشكلة وتتجنب عن عمد كل ما يخص الجانب الآخر من المشكلة، أي أديان وطوائف الوطن نفسها. وهذا متأتٍ من طبيعة العقلية التي سادت النخب المتعلمة (في العراق والعالم العربي) منذ بدايات النهضة الحديثة: كل ما يخص الدين يجب تركه لرجال الدين والتعامل مع أية مشكلة تخص الدين بمنطق التجاهل والتعالي، وفي أحسن الأحوال بمنطق الدبلوماسية وتجنب التفاصيل واعتبار كل من يقترب منها رجعياً وطائفياً ويتطرق لأمور «قد عفى عليها الزمن»!

للتخلص من سرطان الطائفية والتعصب الديني، يجب التخلص أيضاً من سرطان التعصب «العصراني» وتجاهل الدين والطوائف والتعالي على الأصالة والتراث الروحي. من أجل اصلاح المجتمع والوطن لا يكفي اصلاح الدولة والأحزاب بل يتوجب كذلك اصلاح الطوائف والأديان لأن الدول تتغير بينما الأديان دائمة.. واصلاح الدائم أهم من اصلاح المتغير. وهنا يتحمل المسؤولية جميع المثقفين والسياسيين ورجال الدين من جميع الطوائف والأديان.

شروط أولية للحوار في الطائفية

من أجل أن يكون الحوار في هذه المشكلة الحساسة والمثيرة ايجابياً ويبتغي العلاج والحل، من الضروري الأخذ بنظر الاعتبار الأمور التالية:

- ان هذه المشكلة مهما كانت معقدة فانها تبقى أبداً ضمن الثابت التاريخي الوطني بوحدة بلاد النهرين وشعب العراق من نينوى حتى الخليج. وان الحديث عن مشكلة الشيعة لا يعني الشيعة ولا المتدينين وحدهم، انما هي مشكلة تعني جميع العراقيين. من أجل تخليص الدولة العراقية من سرطانها «الحزبي ـ الطائفي ـ العشائري» الذي قاد جميع العراقيين الى كوارث وحروب ونكسات لم تسلم منها أية عائلة أو قبيلة أو طائفة أو منطقة، ولا حتى الفئة الحاكمة. لذا فان الشرط الأول للحديث عن هذه المشكلة هو التسامح وتجنب الوقوع في التعصب ضد المذهب الفلاني أو معه، وأن يبقى ثابت الوحدة الوطنية هو الدليل والغاية.
- ان تسمية (الطائفة الشيعية) التي يستخدمها الاعلام الغربي وغير الغربي بخبث مقصود تستوجب بعض التروي والتوضيح لأنها تتضمن الكثير من التنوعات والتفاصيل. الشيعة ليسوا أقلية طائفية محددة سكانياً وثقافياً وجغرافياً. إذ يمكن القول بكل بساطة ان ما سمي بـ «الطائفة الشيعية» هم الشعب العراقي بأغلبيته الساحقة. فلو اعتبرنا كردستان حالة خاصة، فان ما يسمى بالشيعة يشكلون ثلاثة أرباع الشعب العراقي. هناك تداخل عميق الجذور بين الشيعة والسنة في العراق. من الناحية الجغرافية يمكن رؤية الشيعة والسنة يتعايشون معاً في مناطق كثيرة، على الأخص في العاصمة بغداد ثم البصرة وسامراء والموصل وكركوك. أما من الناحية القبائلية، فان معظم القبائل العربية الكبرى في العراق، كل واحدة منها منقسمة الى فرع شيعي وفرع سني حسب منطقة السكن، مثل شمر والدليم والجبور وربيعة والزبيد (راجع بطاطو ـ الكتاب الأول ـ ص 61، 62).

حتى المجموعات اللغوية العراقية الأخرى مثل التركمان فان ما يقرب من نصفهم شيعة، بالاضافة الى الأكراد الفيلية الذين يتميزون عن أكراد كردستان كونهم شيعة ومنتمين للثقافة العربية وللعراق. لهذا فإن مشكلة الشيعة بالحقيقة ما هي إلا مشكلة الشعب العراقي برمته، ولولا التأثير العثماني التاريخي الموروث للدولة العراقية واصرارها على عدم اشراك العناصر «الشيعية» في الفئة الحاكمة، لما لاحظ أحد أن هناك «طائفة شيعية» متميزة. (راجع الفصل الثاني من هذا الكتاب).

ـ ان التقصير الكبير الذي وقع فيه رجالات الدولة العراقية يكمن في تغافلهم عن عامل القوة الجبارة التي يفقدها العراق بسبب التهميش السياسي الوطني للشيعة ومراكزهم المقدسة. لننظر مثلاً الى العربية السعودية التي منحها التاريخ مدينة مكة وكعبتها الشريفة لتكون عامل قوة روحية وسياسية للدولة السعودية في العالم العربي والاسلامي وفي قلوب المسلمين. كذلك لنا مثل آخر هو ايطاليا، التي منحها التاريخ مدينة الفاتيكان لتكتسب عبرها هيبة وتقديس جميع كاثوليك العالم. أما بلدنا العراق فقد منحه التاريخ مدينة (النجف) وباقي العتبات المقدسة لتكون عامل قوة روحية وسياسية واقتصادية للعراق في العالم الاسلامي وفي قلوب الشيعة خصوصاً. مثل مكة والفاتيكان، فان النجف هي العاصمة الفقهية والروحية لملايين الشيعة في آسيا وافريقيا والبلدان العربية. لكن الذي حدث في العراق هو العكس تماماً: بدل أن تكون النجف والعتبات المقدسة عامل قوة وهيبة للعراق، تم اعتبارها دائماً كعامل ضعف وخوف من نفوذ القوى الخارجية وخصوصاً ايران! لماذا هذا الاعتقاد الراسخ لدى رجالات دولتنا ان مراكز الشيعة هي مراكز للمعارضة الداخلية وللتغلغل الإيراني؟ لماذا لا يكون الأمر على العكس تماماً، وهذا هو المعقول والواقعي؟

أمر نادر في التاريخ ان تضطر دولة ما الى مهاجمة وتدمير مراكزها الوطنية المقدسة. أما في العراق خلال العقدين الأخيرين فقط (1975 ـ 1991) تمت مهاجمة النجف وباقي العتبات بالطائرات وقصفها بالمدافع كأي مواقع أجنبية معادية! أليس النجف وكربلاء وسامراء والكاظمية هي مناطق عراقية ويقطنها عراقيون؟ لو كانت الدولة العراقية تمتلك الحد الأدنى من الروح الوطنية والحنكة السياسية، أما كان من المعقول أن تتحول هذه المناطق الى مراكز للتأثير على الشيعة في العالم وكسب الشعب الايراني الى سياسة العراق؟ كيف أتيح لايران منذ قرون وحتى الآن أن تتمكن من التأثير على سياسة العراق من خلال هذه المراكز، لولا غباء الدولة العثمانية، ثم الدولة العراقية التي ورثتها!

مظاهر الطائفية في الدولة العراقية

ان مشكلة تمثيل جميع تنوعات وفئات المجتمع في الدولة مشكلة سياسية تاريخية لم تحلها الانسانية بصورة تامة. لا زالت النظم الديمقراطية البرلمانية الغربية تعاني من سوء عدالة تمثيل الكثير من تنوعات الشعب. يكفي النظر الى نسبة تمثيل النساء في الحكومات والأحزاب والبرلمانات والادارات ومالكي الثروات، اذ لا تتعدى في أرقى النظم الديمقراطية 15٪، رغم

أن المرأة هي نصف المجتمع! نفس الشيء بالنسبة لتمثيل الطبقات الكادحة وأبناء الريف والأحزاب المعارضة، وحتى بالنسبة لبعض الأديان والطوائف. حتى الآن في امريكا فان الأغلبية الحاكمة ـ المالكة هي الأقلية الأنكَلوسكسونية البروتستانتية، يقابل هذا قلة نسبة المنتمين الى الفئات الأخرى من النساء والزنوج والكاثوليك والناطقين بالاسبانية، رغم أنهم يمثلون أغلبية المجتمع.

ضمن هذا السياق يمكننا الحديث عن الحالة العراقية رغم خصوصياتها المتطرفة في القمع والدموية وتوالي الكوارث. مقارنة بسيطة لتركيبة الدولة العراقية مع تركيبة المجتمع العراقي، تكشف عن خلل رهيب بين التركيبتين لحد يكاد أن يتشابه مع وضعية دولة عنصرية مثل جنوب افريقيا من حيث تمثيل الأغلبية السوداء في الدولة!

المجتمع العراقي يحوي على نسبة من الشيعة تزيد على 60٪ من مجموع السكان (عرب أولاً ثم أكراد فيلية ونصف التركمان)، وترتفع نسبتهم الى 75٪ من سكان العراق من غير كردستان! معنى هذا ان نسبة السنة تقرب 40٪ من سكان العراق (عرب وأكراد ونصف التركمان)، ولكن هذه النسبة لا تتجاوز 20٪ من سكان العراق من غير كردستان!

تركيبة المجتمع هذه تتناقض تماماً مع تركيبة الدولة العراقية. يكفي ايراد بعض الأرقام المتوفرة عن فترة السبعينات للكشف عن هذا الخلل المدهش: مجلس قيادة الثورة المتكون من (15) عضواً جميعهم من العرب السنة ومن المناطق الشمالية الغربية، ليس فيهم شيعي أو جنوبي واحد. أما القيادة القطرية لحزب البعث فتتكون من 16 عربياً سنياً، وكردي سني واحد، وعربي مسيحي واحد، وثالث عربي شيعي (راجع حنا بطاطو ـ الكتاب الثالث ـ ص402، ثم ص 394). وهذا التمايز الطائفي في تكوين الدولة له أيضاً تأثيره الطائفي على الصعيد الطبقي: من بين واحد وثلاثين مقاولاً كبيراً يسيطرون على مشاريع الدولة هناك (2) مقاول كردي و (1) تركماني و (23) عربي سني و (5) فقط من العرب الشيعة. (راجع عصام الخفاجي ـ الدولة والتطور ـ ص 80).

ويبدو أن هذه الحالة ليست من صنع النظام الحالي بل تم تكريسها وتعميقها بعد وراثتها من النظام الملكي، إذ تدل الأرقام عن وضعية طائفية واضحة: خلال ما يقرب الأربعين عاماً (1921 ـ 1958) من بين (575) منصباً وزارياً هناك فقط (159) للعرب الشيعة والباقي للعرب السنة وأقلية للأكراد والتركمان وغيرهم. ومن بين (58) رئاسة وزراء هناك (5) فقط للشيعة. (بطاطوـ الكتاب الأول ـ ص 69، ثم ص 219).

اذن، من خلال هذه الأرقام ومع شيء من التبسيطية يمكننا وصف الفئة الحاكمة في العراق آخذين بنظر الاعتبار تكوين 80٪ من القادة والمستفيدين اقتصادياً وسياسياً من الدولة:

المجموعة اللغوية: عرب .. الطبقة والمهنة: عسكر واداريين ومالكين وحديثي النعمة. الانتماء الحزبي: بعث. الأصل الجغرافي والسكاني: سامراء، تكريت، الأنبار، الموصل (منطقة شمال وغرب العراق). الأصل الديني والمذهبي: مسلمين سنة.

إن هذا التقسيم عام ويمثل القسم الأعظم من رجالات الدولة من منصب مدير عام وضابط ومالك متوسط حتى قمة القيادة من أعضاء مجلس قيادة الثورة ومجلس الوزراء والقيادة القطرية والقيادة العسكرية وكبار أصحاب الثروة. هذا لا ينفي وجود أقلية بين القياديين والمتنفذين ينتمون الى الفئات المبعدة عن الدولة والثروة: ثمة نساء، وثمة غير بعثيين، كادحين، وجنوبيين، وأكراد، ومسيحيين وصابئة وغيرهم، وهنالك طبعاً شيعة. لكن جميع هؤلاء ما هم إلا أفراد معدودين بالاضافة الى أنهم لا يمثلون عملياً فئاتهم الأصلية.

يتوجب الاشارة الى أنه هناك فرق كبير بين الانتماء الطائفي السني للدولة، وبين الناس المحسوبين على مذهب السنة. ليس بالضرورة أن جميع السنة هم تلقائياً من أنصار الدولة ومن المستفيدين منها. فهل يصح القول مثلاً، ان الدولة الفلانية (في مصر أو الجزائر أو ايران) تمثل حقاً جميع المسلمين في بلدانها لكونها من نفس الطائفة السائدة. ولنفترض أن النظام الحالي في العراق كان بأغلبية قيادته من الشيعة، هل يمكن التأكيد انه سيكون أكثر ديمقراطية وأفضل تعبيراً عن مصالح أغلبية الشيعة؟

إن العلاقة بين المجتمع والدولة ليست علاقة انتماء قومي وديني فقط، بل تشتمل كذلك على علاقات مهمة أخرى، مثل الانتماء السياسي والطبقي والاجتماعي والمهني والفكري. والدولة الأكثر ديمقراطية هي الدولة القادرة على التمثيل المتوازن للمجتمع في جميع تنوعاته الفئوية والدينية والجغرافية والحزبية والطبقية والمهنية والفكرية. اذن، ان عامل التمثيل الطائفي رغم أهميته ليس هو وحده الأساس لتقييم النظام، بل يتوجب أيضاً الأخذ بنظر الاعتبار عوامل التمثيل المتنوعة الأخرى.

ان سوء تمثيل الدولة لمختلف فئات المجتمع ما هو إلا عامل مساهم مع عوامل سوء التمثيل الأخرى. وسوء التمثيل الشامل هذا هو الذي يدفع الدولة الى الانكماش والتعويض عن ضعفها بالاضطرار الى تكثيف القمع والاستبداد لكي تضمن هيمنتها الكاملة والشاملة.

على هذا الأساس، فان المواطن العراقي (السني) قد لا يعاني مباشرة من التمايز الطائفي، لكن هذا لا ينفي أنه يعاني مثل الجميع من التفرقة الطبقية والمهنية والحزبية والفكرية ويشترك مع جميع العراقيين بالمعاناة من الاستبداد والقمع والحروب والكوارث الوطنية التي لا تتوقف.

حضور الشيعة في الواقع العراقي

إن هذا الجدول يكشف عن أن الشيعة ليست فئة مهمشة واقعياً وليست (أعجمية) كما يتصور الكثيرون، بل هي الشعب العراقي بكل تركيبته. وإن عزلتهم عن الدولة لا تعني عزلتهم عن واقع العراق بمكوناته الطبقية والاقتصادية:

أكبر ملاك الأراضي في العراق سنة 1958

أو المالكين لأكثر من 100000 دونم من الأرض[أ]

الاســم	الشريحة أوالطبقة بغض النظر عن ملكية الأرض	العشيرة	الطائفة والأصل الإثني (العِرقي)	المساحة المملوكة بالدونم	اللــواء
أحمد عجيل الياور	شيخ أعلى	شَمَّر	سني عربي	259509	الموصل وبغداد
محمد الحبيب الأمير[ب]	شيخ أعلى	ربيعة	شيعي عربي	206473	الكوت
بلاسم محمد الياسين	شيخ	مياح[ج]	شيعي عربي	199826	الكوت
علي الحبيب الأمير[د]	شيخ	ربيعة	شيعي عربي	196020	الكوت
حسن الخيون القصاب	شيخ	السراي	شيعي عربي	146195	الكوت
نايف الجريان[د]	شيخ	البوسلطان	شيعي عربي	108074	الحلة
عبد الهادي الجلبي	تاجر	—	شيعي عربي	104158	بغداد

من كتاب «العراق ـ ج1 ـ حنا بطاطو ـ ص70»

(أ) هذا الجدول لا يشمل موحان الخير الله، وهو شيعي عربي من لواء المنتفق وشيخ عشيرة الشويلات، نظراً لأن ملكيته للعقارات الواقعة تحت سيطرته كانت ما زالت موضع نزاع قانوني في العام 1958 وكذلك فإن الجدول يستثني أيضاً المستأجرين الدائمين عملياً لمساحات كبيرة من أراضي الدولة في لواء العمارة. وحول هذه النقطة الأخيرة راجع الجدول 6 ـ 13.

(ب) والد زوجة الوصي على العرش وولي العهد الأمير عبد الإله، وشقيق علي الحبيب الأمير الوارد اسمه أعلاه.

(ج) فرع من عشيرة ربيعة.

(د) توفيا قبل ثورة 1958 ولكن أملاكهما لم توزع على الورثة.

المصدر: تم الحصول على الأرقام من سجلات وزارة الإصلاح الزراعي، شباط/ فبراير 1964.

التمثيل الطائفي للدولة العراقية

رغم الوجود الفعلي لـ «الشيعة» في الواقع العراقي ونسبتهم التي تتجاوز أكثر من نصف الشعب العراقي. إلا أنهم ظلوا أقلية مهمشة عن الدولة العراقية منذ العهد العثماني. واستمرت الحالة بصورة جلية بعد تكوين الدولة العراقية (1921). هذه الجداول تعطي فكرة عن سياسة التهميش الدائمة التي مارستها الدولة العراقية منذ تأسيسها وحتى الآن :

المناصب الوزارية الشيعية

في العهد الملكي (1921ـ 1958)

باستثناء منصب رئاسة الوزراء

السـنة	مجموع عدد	عدد مناصب المناصب	النسبة المئوية الشيعة
1921ـ 1932(مرحلة الانتداب)	113	20	17,7
1932ـ 1936	57	9	15,8
1936ـ 1941(مرحلة الانقلابات العسكرية)	65	18	27,7
1941ـ 1946(مرحلة الاحتلال البريطاني الثاني)	89	25	28,1
1947ـ 1958	251	87	34,7
المجموع	575	159	27,7

من كتاب «بطاطوـ ج1ـ ص69»

إجمالي المعلومات الحياتية المتعلقة بقيادة حزب البعث في القطر العراقي 1952ـ 1970

الدين والطائفة والأصل العرقي

	قيادات 1952ـ تشرين الثاني (نوفمبر) 1963				قيادات تشرين الثاني (نوفمبر) 1970			
	عدد الأعضاء	٪	عدد الأفراد	٪	عدد الأعضاء(*)	٪	عدد الأفراد	٪
مسلمون:								
شيعة عرب	28	53,8	12	46,2	3	5,7	3	14,2
سنة عرب	20	38,5	13	50,0	45	84,9	16	76,2
أكراد	4	7,7	1	3,8	4	75	1	84
تركمان	–	–	–	–	–	–	–	–
فرس	–	–	–	–	–	–	–	–
يهود	–	–	–	–	–	–	–	–
مسيحيون	–	–	–	–	1	1,9	1	4,8
صابئة	–	–	–	–	–	–	–	–
يزيديون وشبك	–	–	–	–	–	–	–	–

من كتاب «بطاطوـ ج3 ـ ص 394»

---

* هذا الجدول يكشف عن خطأ التهمة الموجهة إلى الشيعة بانعزالهم عن التيار القومي. تاريخ حزب البعث في العراق يكشف عن أن الرعيل الأول من قادة وكوادر الحزب كانوا بمعظمهم من الشيعة. وحتى عام (1963) كانت قيادة البعث تتكون من (46٪) من الشيعة، ولكن بعد عام (1963) وعودة العسكر (السنة) إلى قيادة البعث تمت تصفية الكوادر الشيعية (المدنية) جسدياً وسياسياً حتى هبطت نسبتهم عام (1970) إلى أكثر من ثلاث مرات وأصبحت (14٪).

الأساس العرقي المذهبي لأعضاء مجلس قيادة الثورة 1963

الجماعة	عدد الأعضاء	نسبتهم المئوية
الشيعة العرب	5	٪27,8
السنة العرب	12	٪66,7
الأكراد	1	5,5

من كتاب «الطائفية السياسية في العالم العربي ـ فرهاد ابراهيم ـ ص 290»



❖ إن العنصرية عندما تبدأ لا تعرف كيف تنتهي. تبدأ ضد الشيعة والأكراد باسم (الوحدة الطائفية ـ القومية) ثم تهبط إلى (الوحدة المناطقية) تهبط إلى (الوحدة العائلية) ثم تهبط أكثر نحو (الوحدة الشخصية) كما هو حاصل الآن في النظام الحالي. الجدول يكشف عن الميل المناطقي (العشائري) الذي هيمن على قيادة الدولة في العراق :

ممثلوا التكريتيين في الحكومة من 69ـ 1992

عام التشكيل	العدد الكلي للأعضاء	عدد التكريتيين	النسبة المئوية
1969	5	3	60
1970	15	5	33,3
1977	5	2	40
1977 ـ 1979	5	2	40
1979 – 1982	16	4	25
1982 ـ 1986	9	2	22,2
1991	9	2	22,2

من كتاب «المصدر السابق ـ ص 340»

❖ رغم أن نسبة الشيعة في قيادات البعث عام (1963) كانت أكثر من (46٪) إلا أن مجلس قيادة الثورة عكس النسبة تماماً بسبب سيطرة العسكر السنة على الحكومة.

الشيعة واصلاح الطائفة

بالنسبة للمشكلة الطائفية في العراق، فان الشيعة الذين يمثلون الأغلبية الساحقة من الشعب العراقي يتحملون مسؤولية أساسية في عملية الاصلاح الطائفي (طبعاً الدولة كذلك والطوائف الأخرى).

الكاتب العراقي حسن العلوي له رأي طريف يستحق التمعن والبحث رغم المبالغة الواضحة فيه. إذ يعتقد أن حرمان الشيعة من الدولة وضعفهم السياسي يعود الى طبيعة التشيع العراقي (والعربي عموماً) وتأثيره على تربية الفرد وممارسته السياسية، لأن : «الطائفية الشيعية ذات طابع نظري تتحدث عن أفضلية الإمام علي في الخلافة وتؤكد على قضية النص والتعيين. فيما لا يعني الطائفي السني بشيء من ذلك. إنه لا يعيش في التاريخ كالطائفي الشيعي، ولا يتحدث عن حق عمر في الخلافة أو حق علي، وإنما يبحث عن حق قريبه في أن يحتل المركز المعين والوظيفة المعينة... أي أن الطائفية الشيعية معتقد والسنية فعل. والشيعية تعيش في التاريخ والسنية تعيش في الحاضر. ولهذا يلتصق الشيعي بالكتب ويلتصق السني بالحياة... الشيعة يتشاركون في البكاء والسنيون يتشاركون في السلطة ... هذا يلطم وهذا يحكم» (راجع حسن العلوي ـ الشيعة والدولة القومية ـ ص 266 ـ 268).

رغم المبالغة الواضحة في رأي الكاتب إلا أنه استطاع أن يضع يده على نقطة حساسة لفهم أسباب ضعف الشيعة في العراق والعالم العربي وعزلتهم عن المشاركة الفعالة في إدارة الدولة. والحقيقة كما ذكرنا سابقاً أن المشكلة لا تكمن في المذهب الشيعي ذاته، بل في الظروف التاريخية التي حتمت عزلة الشيعة وبالتالي ضعفهم وتمسكهم بالماضي على حساب الحاضر. مثلاً ان التشيع الإيراني مختلف تماماً من الناحية التاريخية السياسية عن التشيع العراقي. ان التشيع الايراني منذ تكوينه على يد الصفويين في القرن 16 م، كان ولا زال مذهب دولة وقيادة على عكس التشيع العراقي والعربي. منذ سنوات والجدل محتدم بين المعنيين بأمر الشيعة من متدينين وعلمانيين من أجل تخطي حالة الضعف الموروثة واصلاح الوضع السياسي والمذهبي. هنا نذكر المقترحات الرئيسية المتعلقة بعملية الإصلاح هذه :

أولاً ـ الاصلاح التنظيمي (لكل بلد حوزته ومرجعيته)

يتركز الجدل الآن حول اصلاح المرجعية العليا (القيادة الدينية ومقرها النجف في العراق). يعتبر الامام الشهيد محمد باقر الصدر في العراق من أبرز دعاة التجديد والاصلاح في الفقه الاسلامي

والمرجعية الشيعية. وله في هذا المجال دراسات جادة وأطروحة معروفة بـ «أطروحة المرجعية الموضوعية الصالحة»... وهذه الأطروحة تشكل الآن مطلباً أساسياً للكثير من الأحزاب الاسلامية، ويعتبر البعض هذه الأطروحة بديلاً عن: «محاولات الترقيع وترميم الأوضاع البائسة للمرجعية التقليدية المتخلفة عن حركة الاسلام وروح العصر..» (راجع بيان حزب الدعوة والحركة الاسلامية ـ 7 نيسان 1992). وتكاد الآن جميع الأطراف المعنية بالشيعة تشترك في الجدل الحامي حول المرجعية، وتتوالى البيانات والتوضيحات والادانات والتعليقات وبشأن هذه المسألة (راجع مثلاً بيان رابطة العلماء في العراق5 ـ 11 ـ91، كذلك تعليق مؤسسة الخوئي ومجلة النور عدد 9 ـ 1992).

اشتدت هذه المعركة بعد وفاة المرجع الأعلى الإمام الخوئي في آب 1992. ويتمحور جدل الاصلاح أساساً حول: مشكلة الهوية القومية لهذه المرجعية، ثم علاقتها بالأنظمة الحاكمة خصوصاً في ايران والعراق، بالاضافة الى اصلاحات فقهية اسلامية وحياتية عديدة تتعلق باستنباط اسلوب جديد للتعامل مع خصوصية التواجد الشيعي في كل بلد. شيعة لبنان وعلماؤهم شرعوا بتصدر معركة الاصلاح. ولمجلة الشراع المقربة من منظمة أمل ولمسؤولها حسن صبرا دوراً بارزاً في الدعوة لعملية الاصلاح وخلق المرجعية العربية. آخر مبادرة قامت بها المجلة والتي بدأت تثير ضجة كبرى في الوسط الشيعي هي المقابلة التي أجرتها مع العلامة المجتهد الشيخ محمد تقي الفقيه الذي تحدث بكل صراحة عن «الظروف الحرجة التي تمر بها الحوزات العلمية في النجف الأشرف وتشتتها، وتعدد الاتجاهات في ايران بسبب تدخل الحاكمين في إدارة الحوزات وفي منح الألقاب الدينية الدالة على المرتبة بل وفي تعيين مرجع التقليد...». وذكرت المجلة أن القوات الايرانية قامت بمحاصرة ومضايقة ومنع أنصار المرجع الأعلى الامام الخوئي من اقامة مجالس التعزية بمناسبة وفاته. وعن عملية اختيار مرجع أعلى جديد. قالت المجلة بالحرف الواحد: «كأن الأمر لم يعد بيد كبار العلماء والمراجع والحوزات العلمية والعريقة والشهيرة بريادتها وعلمها وادارتها، بل صار يطبخ في أروقة الأجهزة والدهاليز المختصة بالأمن بشكل ينذر بأوخم العواقب على الطائفة الاسلامية الشيعية التي كانت وما تزال وستبقى مثالاً حياً ونابضاً للاجتهاد والعلم». (راجع الشراع عدد 545 ـ أيلول ـ 1992).

والمنافسة مستمرة بين الحكومتين في العراق وايران من اجل التأثير في اختيار المرجع الشيعي الأعلى. الحكومة العراقية تحاول أن تفرض (السيد محمد الصدر)(*) كمرجع أعلى، بينما ايران

* إن هذا لم يمنع سلطة صدام من اغتيال السيد محمد الصدر، بسبب خروجه عن سياستهم وإصراره على اقرار صلاة الجمعة لدى الشيعة.

تحاول بدورها ان تفرض (السيد محمد علي اراكي) على أمل أن يكون من أنصار مبدأ ولاية الفقيه ويبايع السيد علي خامنئي باعتباره قائد الأمة.

ازاء حالة الصراع والتمزق في المرجعية ــ المؤسسة القيادية الروحية، فان شيعة لبنان وعلماءهم يحاولون اتباع طريق ثالث مستقل عن تأثيرات الدول ومصالحها. ويضيف العلامة الشيخ الفقيه: «المستقبل لجبل عامل، ومن قديم تكهنا بهذا قبل ثلاثين سنة، بعدما رأينا النجف قد تزعزعت نتيجة مكافحة الأنظمة الحاكمة لها...».

ويبدو أن حالة التشتت والانقسام تصل الى ذروتها من خلال تأثيرها السلبي على المتدينين من الشيعة (خصوصاً في العراق). عندما تسود بين هؤلاء فكرة رفض الاعتماد على أي مرجع شيعي، وتقليد الامام الغائب (صاحب الزمان المهدي المنتظر)، وهذا يعني العودة مباشرة الى النصوص القرآنية والإمامية دون استشارة أي فقيه ومرجع.

حول تاريخ المرجعية يقول العلامة تقي الفقيه: «المرجعية لم تكن واحدة حتى في زمن الأئمة عليهم السلام، فقد كان الشيعة في عهد الباقرين عليهم السلام يرجعون الى العلماء الموجودين في بلادهم، وفي أواخر عهد الأئمة اشتهرت قم والكوفة، فكانوا يرجعون في الشرق الى علماء قم وفي البلاد العربية الى علماء الكوفة... ثم اشتركت معهما بغداد ومصر وذلك عهد انتشار الدويلات الشيعية كالفاطميين والبويهيين والحليين والحمدانيين وغيرهم... وقبل عدة قرون اشتهر العلم في جبل عامل... ومنه استوردت ايران أعظم علماء الشيعة... وبقيت كذلك الى عهود قريبة حيث كان لكل البلاد مراجعها... ويقال ان اول من بدأ بتوحيد الرئاسة المرجعية هو الميرزا حسن الشيرازي الكبير في سامراء وذلك أثناء الحرب العالمية الأولى».

من هذا الكلام، نفهم طبيعة الاشكالية الحالية التي تعاني منها المرجعية الشيعية: التداخل بين القيمة الدينية للمرجعية والانتماء الوطني لهذه المرجعية. ما زالت حتى الآن تثقل على الشيعة مشكلة التداخل والتعارض بين المنزلة العلمية للمجتهدين من ناحية، وانتمائهم الجغرافي والوطني من ناحية أخرى. طبيعة الحوزات العلمية مختلطة الجنسيات، فتجد مجتهداً ايرانياً مقيماً في النجف ولكن أتباعه ومقلديه معظمهم في أفغانستان، ثم تجد مجتهداً عراقياً مقيماً في قم بإيران ولكن أتباعه ومقلديه في لبنان.. هذا الأمر قد يبدو رائعاً وانسانياً ودليلاً حقيقياً على أن الاسلام فوق الأوطان وحدود الدول، ولكن الواقع قاس والحدود جبارة

وخصوصيات الشعوب تفرض نفسها. مثلاً، هل من الممكن أن يكون رجالات الدولة في ايران من العراقيين أو اللبنانيين حتى لو كانوا من الشيعة. الدولة لا يقودها إلا أبناء وطنها.. اذن لماذا لا تكون المرجعية كذلك؟ الحوزات العلمية ومجتهدوها لهم سلطة روحية تفوق أية سلطة، ومن أجل ذلك يتوجب الأخذ بعين الاعتبار الناحية الجغرافية ـ الوطنية لكل حوزة. أي بكل وضوح أن المطلوب هو التالي :

يجب أن يكون لشيعة كل بلد «حوزة وطنية» ومرجعية عليا واحدة خاصة بهم، ومتكونة من مجتهدين ومجتهد أكبر من أبناء البلد نفسه، ليكن لشيعة البحرين حوزتهم الوطنية ولشيعة العراق ولبنان والكويت وايران والسعودية وباكستان وافغانستان. ولكي يحافظ الشيعة في جميع الأوطان على علاقاتهم ومشاوراتهم يمكنهم كذلك تكوين «حوزة مشتركة»، أي أن تبعث كل «حوزة وطنية» ممثلاً عنها ليجتمعوا مع بعض للحوار والتعاون. ويكون مقر هذه «الحوزة المشتركة» بالتناوب بين جميع المدن الشيعية. ويمكن بالاضافة الى ذلك ان تتشكل حوزات مشتركة متنوعة، مثلاً «حوزة مشتركة عربية» تجمع ممثلين عن حوزات الشيعة في البلدان العربية.

إن هذا التخصص سوف لا يخدم شيعة العراق والبلدان العربية وحدهم، بل انه سيخدم كذلك ايران دولة وشعباً، يخلصها من متاعب الانفصام بين المصالح الوطنية ومصالح الشيعة في البلدان الأخرى. اذ ان التاريخ سجل لنا الكثير من الحوادث التي تبرز هذا التعارض، على الأقل من الناحية التكتيكية الآنية ؛ كما يحدث الآن، وكما حدث أثناء الكثير من الفترات. منها مثلاً، أثناء الحرب العراقية ومعاناة الامام الخوئي من الكثير من المصاعب من أجل الموائمة بين ظرف الشيعة العراقيين وقضية الحرب مع ايران. لقد اضطر هذا الإمام الى اعلان تناقضه مع الامام الخميني ومعارضته لمبدأ ولاية الفقيه وإدانة استمرارية الحرب.

ويمكن معاينة تجارب المذاهب الاسلامية الأخرى، إذ يلاحظ أن هذه المذاهب تتمتع بخاصية الاندماج الفقهي ـ الاداري في الحالة الوطنية. والدليل على هذا أن هناك مفتياً سنياً مع مؤسسات دينية خاصة بكل بلد. ويمكننا كذلك الاستشهاد بتجربة الكنائس المسيحية. فالأرثوذكس نجحوا في احترام الخصوصيات الوطنية وانقسموا الى كنائس كبرى روسية واغريقية وارمنية ومشرقية ونسطورية وقبطية وغيرها. أما البروتستانت فقد أخضعوا تماماً نشاطهم للحالة الوطنية. ثم الكاثوليك رغم مركزية كنيستهم فانهم في طور الاصلاح من اجل التلاؤم اكثر مع الخصوصية

الوطنية، ونذكر مثال الكنيسة الكاثوليكية في فلسطين عندما فرضت أخيراً أن يكون بطريركها فلسطينياً عربياً. علما بأنه رغم هذه المركزية العالمية في الكاثوليكية، الا ان الخصوصيات الوطنية معترف بها من خلال تعيين (اسقف عام) خاص بكل بلد.

ثانياً ـ الاصلاح الفقهي (المذهب الاسلامي الخامس)

يذكر علي الوردي، عالم الاجتماع والمؤرخ العراقي: «ان الشريف المرتضى كان قد اتفق مع الخليفة العباسي القادر بالله على أن يأخذ من الشيعة مائة الف دينار ليجعل مذهبهم في عداد المذاهب السنية فترتفع التقية (التكتم والسرية) والمؤاخذة على الانتساب اليهم، وقد كلف المرتضى الشيعة بأن يجمعوا نصف المبلغ ويدفع هو النصف الآخر من خاصة ماله فلم يوفقوا الى ذلك .. ثم بعد ذلك حاول الشاه الايراني التركماني نادر قلي... وكانت خطته أن يجعل من التشيع مذهباً فقهياً خامساً يضاف الى المذاهب الأربعة الموجودة عند أهل السنة، وقد أطلق عليه اسم «المذهب الجعفري» نسبة الى الامام العلوي جعفر بن محمد الصادق.. . والظاهر انه وجد في الامام جعفر الرجل الذي يصلح ان يكون رمزاً للتقريب بين الشيعة وأهل السنة، فقد كان هذا الإمام يعيش في نفس العصر الذي عاش فيه مالك وأبو حنيفة، وكان جعفر بالاضافة الى ذلك ينتمي الى علي بن أبي طالب من جهة أبيه، والى أبي بكر من جهة أمه وجدته، والمأثور عنه أنه كان يعلن للناس قائلاً: «ولدني أبو بكر مرتين» وذلك لكي يردع الذين اعتادوا سب أبي بكر وصاحبه عمر» (راجع علي الوردي ـ لمحات اجتماعية ـ ج 1 ـ ص 120 ـ 121).

من المعروف ان الفقه الشيعي يتمتع بخاصية الاجتهاد في معالجة الأمور الدينية والدنيوية، وهذه خاصية ايجابية تميزه عن المذاهب السنية التي أغلقت باب الاجتهاد. لعل التقسيم الجغرافي ـ القومي لنظام الحوزة والمرجعية العليا سوف يساعد كثيراً على عملية الإصلاح الفقهي والسياسي في المذهب الشيعي.

العلامة الدكتور موسى الموسوي يقترح عدة اصلاحات فقهية في التشيع من أجل التقريب مع المذاهب السنية الأربعة. ومن هذه الأمور الأساسية التي يعتقد أنها قد طرأت بعد قرون على التشيع وخصوصاً بتأثير تجارب الدول الشيعية التي قامت في ايران منذ القرن السادس عشر: «مسألة اعتقاد الشيعة بعدم شرعية الخلفاء الراشدين، وتحليل مسبتهم. مسألة التقية والكتمان. مسألة ضرب القامات يوم عاشوراء. مسألة الشهادة الثالثة، أي ذكر الإمام علي في

الشهادة. مسألة إعتقاد البعض بتحريف القرآن..» وأمور أخرى رئيسية وثانوية تستحق الجرأة في الحوار والبحث من أجل التقارب بين الشيعة وباقي المذاهب السنية. (راجع كتاب العلامة موسى الموسوي ـ الشيعة والتصحيح).

فيدرالية المحافظات والتمثيل الطائفي والقومي

بالنسبة لدور الدولة والحركة السياسية العراقية في عملية اصلاح الوضع الديني والمذهبي والقومي وتحقيق العدالة في المشاركة والتعايش الوطني، فيمكن تسجيل الملاحظات التالية :

ـ كثر الحديث في الآونة الأخيرة عن تقاسم التمثيل الطائفي والقومي للقيادة السياسية العراقية المعارضة ثم الدولة المستقبلية، بين : (شيعة وسنة وأكراد). بخصوص وجود ممثلين رسميين للأكراد في جميع المؤسسات القيادية العراقية، مسألة معقولة لا يمكن الاعتراض عليها وهي متداولة منذ قيام الدولة العراقية. وبعد قيام الجمهورية عام 1958 صارت مسألة تمثيل الأكراد في الدولة فقرة قانونية مذكورة بالدستور. هذا الأمر يؤكد اتفاق جميع الأطراف العراقية السياسية والحكومية على أن وضع كردستان له خصوصية تميزه عن باقي الوضع العراقي.

لكن وضع العراق يختلف تماماً في هذه الناحية. الأمة العراقية لا تنقسم فقط الى عرب وأكراد وسنة وشيعة، هناك التركمان والمسيحيون والصابئة واليزيديون والأكراد الفيلية.. والخطر في مثل هذا الإقرار العلني لتقاسم الدولة، هو تكرار الحالة اللبنانية التي أدت الى الحرب الأهلية. أي أن المواطن لن يعامل على أساس عراقيته بل على أساس انتمائه الديني والمذهبي واللغوي. ومثل هذه الحالة تؤدي الى عكس المطلوب، أي الى تعميق الهوة بين فئات الوطن ودفع الأفراد الى اعتبار أنفسهم كأعضاء في الطائفة والفئة اللغوية أكثر من كونهم أعضاء في الأمة الواحدة.

هناك من يعترض بالقول على أن عدم الإقرار الدستوري والرسمي بهذا التقسيم سيؤدي كذلك الى استحواذ طائفة أو أقلية على مقاليد السلطة، كما هو سائد الآن في العراق ودول أخرى. وهذا أيضاً قول صحيح.

اذن ثمة حلان متناقضان بالنسبة لهذه الاشكالية : إما الإقرار الدستوري بالتقاسم التمثيلي بين جميع الطوائف والمجموعات اللغوية على الطريقة اللبنانية، وإما ترك الأمور على ما هي

عليه الآن اعتماداً على الحظ والصدفة وصراعات القوى التي ستفرض الطائفة والمجموعة المهيمنة، كما هو سائد الآن! لكن ثمة حل ثالث، هو الوسط تماماً بين الحلين، وهو الحل المتبع في الكثير من الأنظمة الديمقراطية: ما يسمى باتفاق العرف والتقليد. أي الممارسات المتفق عليها من قبل الجميع دون اللجوء الى تسجيلها بدستور أو قانون ولا الاعلان عنها رسمياً وصراحة. انها ممارسات تفرضها الأخلاق والضمير والمصلحة الوطنية المشتركة.

الكثير من الدول الغربية، انكلترا وفرنسا وألمانيا وسويسرا وإسبانيا، تماثل العراق تقريباً في إشكالية تنوع وتمايز المجموعات السكانية: بين الكاثوليك والبروتستان، ثم اليهود وكذلك المهاجرين بقومياتهم وأديانهم المتنوعة، بين المناطق الفقيرة والمناطق الغنية، بين الفئات اللغوية الوطنية المتعددة، بين سكان الريف والمدينة، بين النساء والرجال، بين الأحزاب المختلفة.. الخ. ولتجاوز هذه الإشكالية اعتمدوا الاتفاق العرفي الأخلاقي في تجاوز هذه الفروقات وخصوصاً الفروقات المذهبية. مثلاً، الجميع متفقون عرفياً وأخلاقياً وليس علنياً ودستورياً على أن أعضاء الحكومة وجميع قادة الدولة والجيش والنقابات والأحزاب يجب أن يشملوا جميع تنويعات المجتمع الدينية والجغرافية واللغوية والمهنية. في الحكومة الفرنسية مثلاً، هناك دائماً ثمة وزير بروتستاني واحد أو أكثر وكذلك هناك يهودي، رغم أنهم أقلية ضئيلة. وهناك امرأة وزيرة أو أكثر. وهناك ماسوني أو أكثر، وهناك وزراء من المناطق اللغوية الفرنسية المختلفة، وبعضهم يمثلون مهناً مختلفة، وآخرون يمثلون التيارات الفكرية الاجتماعية المستقلة مثل الكنائس والنقابات ومؤسسات المجتمع والبيئة. كل هذا يتم بصورة تلقائية وصامتة ومتعارف عليها من قبل الجميع دون أية اشارة مباشرة للانتماء المذهبي والديني واللغوي لهذا المسؤول أو ذاك.

إن خلق مثل هذه الوضعية يعتمد أولاً وأخيراً على طبيعة الدولة الديمقراطية. لأن النظام الانتخابي المنبثق من القاعدة الشعبية والشامل لكل مناطق وأرياف وفئات وطوائف الشعب يؤدي تلقائياً الى حصول الجميع على فرص شبه متساوية للصعود الى البرلمان والمساهمة في ادارة الدولة ومؤسسات المجتمع. هذا لا يعني أن هذه الأنظمة الليبرالية توصلت حقاً الى الدولة المثالية الشاملة للجميع وتخلصت فعلاً من مشكلة تمايزات المجتمع. المثال المعروف في هذا المجال، هو مثال الدولة الأمريكية المحتكرة تاريخياً من قبل الأقلية الأنكلوسكسونية البروتستانتية، كذلك مثال سويسرا، اذ ينقسم سكانها حالياً مناصفة الى بروتستان

وكاثوليك، لكن الدولة لا زالت في بعض المناصب ترث الهيمنة التاريخية للمذهب البروتستاني: ثمة مناصب حساسة معينة مثل وزير الدفاع وكبار مدراء المصارف، لا زالت حكراً على البروتستان! ويمكن الحديث كذلك عن انعدام تمثيل الفئات المهاجرة في جميع الدول الغربية.

ـ إن التمايز الممارس من قبل الدولة ضد الشيعة والمذاهب والأديان العراقية الأخرى، ليس فقط تمايزاً في التمثيل السياسي، بل كذلك في القوانين والحقوق وحرية ممارسة الشعائر. الحاصل في العراق، أن الدولة تمثل في قوانينها وسياستها التربوية والاعلامية والحقوقية المذهب السني الحنفي فقط، جاعلة من الشيعة الجعفرية (والمذاهب والأديان الأخرى) مذهباً ثانوياً وتابعاً وحتى أجنبياً، ومحروماً من المساواة في الحقوق الرسمية والقانونية التي يتمتع بها المذهب الحنفي.

في جميع مؤسسات الدولة الاعلامية والتربوية والجامعية والفقهية والأوقاف فان المذهب الحنفي هو السائد والمتبع، وكأنه المذهب الوحيد الذي يمثل العراقيين جميعهم. من المعقول مثلاً أن تمنع الدولة بعض الشيعة من ممارسة طقوس العنف وتجريح الجسد وتعذيب النفس، فهذه مسألة يقرها الكثير من الشيعة ومطروحة للنقاش حتى في ايران. لكنه ليس من المعقول أبداً أن تمنع الدولة المؤمنين الشيعة من ممارسة شعائرهم التاريخية غير المؤذية للذات أو للوطن، مثل مجالس التعزية في أيام عاشوراء وقراءات ذكرى كربلاء. فمثل هذه الشعائر معقولة ولها مماثلات في جميع أديان العالم، ولا تختلف كثيراً عن بعض الشعائر المسيحية الممارسة في الدول الأخرى. كان من المفروض على الدولة العراقية بدلاً من منع وقمع هذه المناسبات أن تتبناها وأن تشرك الطوائف الأخرى بها وأن تشجع المؤسسات الدينية والثقافية والفنية على تطويرها لجعلها مناسبات للتوعية الأخلاقية والاجتماعية والوحدة الوطنية.

فيدرالية المحافظات

ان (نظام فيدرالية المحافظات)، هو افضل الحلول الديمقراطية والإنسانية. وهذا النظام هو المعمول به في جميع الانظمة الفيدرالية ومنها الانظمة الامريكية والسويسرية والالمانية. فليس هنالك مثلا في امريكا، اقليم من عدة ولايات خاص بالسود، واقليم خاص بالناطقين بالاسبانية..الخ، كذلك نفس الامر في المانية وسويسرا. ان تجارب البلدان الفيدرالية المعروفة، مثل المانيا وسويسرا وامريكا، تبين لنا ان نظام (فيدرالية المحافظات) يعني:

ـ ان تجري الانتخابات، ليس على اساس القوائم الممثلة للاقاليم والتحالفات القومية والطائفية، بل على اساس كل محافظة(قد تسمى مقاطعة او ولاية)، بما تحتويه من مناطق انتخابية مختلفة. وحسب عدد سكان كل محافظة يتم انتخاب ممثلين الى البرلمان الوطني(مجلس الامة). يعني ان يكون نواب (مجلس الامة) ليسوا ممثلين لطوائفهم وقومياتهم، بل ممثلين لمحافظاتهم.

ـ اما بالنسبة لتكوين الحكومة، فالامر يختلف تقريبا. حيث يتم اختيار اعضاء الحكومة من جميع المحافظات الثمانية عشر، بحيث تكون كل واحدة منها لديها على الاقل وزير واحد في الحكومة. ونعتقد ان التقسيم الامثل هو: وزير واحد لكل محافظة سكانها اقل من مليون. ووزيرين لكل محافظة تتجاوز المليون. اما بغداد فثلاثة وزراء. وفي حالة وجود عدد فائض من الوزراء، يكون بعضهم وزيرا بلا وزارة. ويتم تداول رئاسة الحكومة والوزارات المهمة على جميع المحافظات بصورة تناوبية عقلانية.

كذلك أن الحل المعقول لإشكالية التمثيل المذهبي والاجتماعي في مؤسسات الدولة والمجتمع، أن يتجنب الدستور العراقي(نظام المحاصصة) وفرض تسمية الأشخاص حسب انتمائهم المذهبي واللغوي، إنما يتم بشكل عام مراعاة أن تمثل الدولة جميع القطاعات بصورة عرفية وأخلاقية. ولضمان تطبيق مثل هذه العدالة يمكن مثلاً الاشارة في دستور الدولة، وذلك في دساتير الأحزاب والمنظمات الاجتماعية، الى الفقرة التالية: «يتوجب على جميع مؤسسات الدولة والمجتمع القيادية والقاعدية أن تتجنب أي تمايز بين المواطنين حسب انتمائهم الديني والمذهبي والجغرافي واللغوي والسياسي، مع المراعاة الممكنة لضرورة اشتراك جميع هذه القطاعات في ادارة المؤسسات تقريباً حسب النسبة المئوية. ويتم هذا عرفياً وشفهياً دون أية إشارة صريحة ومكتوبة للانتماء الديني والمذهبي واللغوي للمواطنين».

الاصلاح التربوي

إذا كان الفهم السائد لمعنى العلمانية هو فصل الدين عن الدولة، فاننا نفهم العلمانية بمعنى تمثيل الدولة لجميع الأديان والمذاهب والتيارات الفكرية والدفاع عن حرية ممارسة حقوقها. أي أن المسألة ليس بفصل الدين عن الدولة، انما بجعل الدولة مركزاً توحيدياً لجميع المذاهب والأديان والأفكار الوطنية، وأن تكون دولة شاملة لجميع تنويعات المجتمع الفكرية والدينية واللغوية والسياسية.

ومـن أجـل تحقيـق مثـل هـذا الهـدف الـوطني يتوجـب علـى الدولـة وجميـع الأحـزاب والمؤسسات الثقافية والدينية ان تساهم جميعها بتكوين (اللجنة الوطنية العليا للحوار بين المذاهب والأديان في العراق)، وتتشكل من ممثلين لجميع الأديان والمذاهب العراقية: (سنة وشيعة وكاثوليك وأرثوذكس وصابئة ويزيديين، وغيرهم). المهمة الأساسية لهذه اللجنة هي إقامة الحوار الدائم بين ممثلي جميع المذاهب والأديان من أجل تعميق التقارب بينها وحل الإشكالات الفقهية والاجتماعية الوطنية، وضمان حقوق الجميع بممارسة شعائرهم دون المساس بحقوق الآخرين. ولتقوم هذه اللجنة بعقد المؤتمرات الفكرية واصدار النشريات ومجلة فكرية دينية للحوار. وتكون لهذه اللجنة قيمة استشارية ومعنوية بالتعاون مع البرلمان والحكومة بشأن السياسة والقوانين المتعلقة بالأديان والمذاهب العراقية. وكذلك تقوم هذه اللجنة بدور أساسي في الحوار مع الأديان والمذاهب في الدول الأخرى.

ومن أول شروط التربية الوطنية ودعم السلام الاجتماعي، إقرار كتاب مدرسي في جميع المراحل الدراسية والجامعية موضوعه هو: (المذاهب والأديان في العراق). حيث يتم من خلاله الحديث عن كل مذهب ودين عراقي بصورة موضوعية وحيادية ليفهم من خلاله كل عراقي طبيعة المذاهب والأديان العراقية.. مع مساهمة وسائل الأعلام الأخرى بالتوعية بمثل هذا الموضوع وتقديم البرامج المخصصة لاحتفالات وشعائر جميع الأديان والمذاهب. وللمثال على مدى تجاهل الدولة لهذه المسألة، نذكر الممارسة العجيبة للتلفزيون العراقي، إذ يتم في كل عام مع ذكرى ميلاد السيد المسيح تقديم برنامج خاص بالمناسبة تشرف عليه الجاليات الأوروبية، وكأن السيد المسيح نبي أوروبي، والمسيحيون في العراق هم جالية أوروبية! إن السياسة التربوية المطلوبة في هذا المجال تهدف الى تخليص العراقيين من سوء الفهم والنظرة المشوهة التي يحملها الجميع ضد بعضهم البعض. وإقرار سياسة تربوية تشجع احترام أتباع كل دين ومذهب للأديان والمذاهب الأخرى وتشجيع الروح الوطنية المشتركة وإشعار الجميع بأنهم عراقيون مع حرية احتفاظهم بميزاتهم الدينية والمذهبية واللغوية والفكرية.

للحديث عن اكراد شمال العراق، من الافضل الحديث عن عموم(شمال النهرين) ونعني به الأجزاء العليا من نهري دجلة والفرات والموزعة حاليا بين سوريا وتركيا والعراق. لقد اطلق الآراميون ومن بعدهم العرب على(شمال النهرين) تسمية(الجزيرة) وهي تسمية رديفة لتسمية(منطقة النهرين)، أي(الجزيرة الواقعة بين النهرين). وكان يطلق عليه احياناً «اقليم آقور أو آثور» وهو اللفظ العربي لـ «آشور» حسب ياقوت الحموي.

لقد كانت منطقة الجزيرة، منذ القدم مقطونة بالجماعات الناطقة بالسامية ومقراً للدولة الآشورية. خلال القرون الأولى للاسلام ظلت هذه المنطقة بغالبية سريانية وعربية، قبل أن تصبح بغالبية كردية في القرون المتأخرة.

ان تركيزنا على منطقة «الجزيرة» يبتغي تبيان حقيقة الانتماء التاريخي والطبيعي لهذه المنطقة، ومضمون الطروحات القومية الكردية التي تعتبر معظم هذه المنطقة جزءاً من «كردستان الكبرى».

لقد قسم العرب العراق الى عدة اقاليم ادارية، تابعة عموماً للعاصمة بغداد: اقليم «السواد» وهو الجزء الأسفل من العراق إبتداءاً من بغداد والأنبار حتى خليج البصرة، ثم اقليم «الجزيرة» ويضم جميع شمال النهرين من تكريت وسامراء جنوباً حتى حدود جبال أرمينيا وطوروس شمالاً. ثم اقليم الجبال، ويضم المناطق الجبلية في شمال شرق العراق، وهي المناطق الكردية العراقية الحالية: السليمانية والاقسام الجبلية من اربيل ودهوك(مدينة وسهل اربيل كانت دائما ضمن الموصل)..

أن إقليم الجزيرة هذا كان يضم ثلاث مناطق، سميت بحسب القبائل العربية التي فرضت سيطرتها على المنطقة منذ ما قبل الاسلام، والكثير من هؤلاء العرب اعتنقوا المسيحية ونطقوا بالسريانية : ديار ربيعة في الجزء الجنوبي وتشتمل على شمال العراق الحالي من تكريت وسامراء والأنبار حتى سنجار والموصل، ديار مضر في الوسط وتشتمل على الرها والرقة ورأس العين ومركزها حران، ثم ديار بكر التي تشتمل على ميافارقين وملطية وجزيرة إبن عمر ومركزها «آمد» ديار بكر.

كانت تمر بعض الفترات القليلة تكون فيها منطقة الجزيرة مرتبطة بدمشق. كانت مدينة الموصل هي عاصمة الجزيرة في أغلب الأوقات. وكانت هذه المنطقة مركزاً للثورات الشيعية

والخارجية ضد الخلافة في دمشق وبغداد. وفي زمن آخر الخلفاء الأمويين مروان الثاني انتقلت عاصمة الخلافة من دمشق الى الجزيرة (مدينة حران المعروفة والتابعة لتركيا حالياً). وكانت الجزيرة أيضاً ساحة للمنافسة بين القيسيين وبنو تغلب الذين أسسوا الدولة الحمدانية الشيعية في الموصل وحلب. ظلت هذه المنطقة ساحة للصراع بين الدول والامارات المتنافسة في المنطقة: عباسيين وفاطميين وبويهيين وسلاجقة وأتابكة ومغول وتركمان وأكراد وإيرانيين وعثمانيين.

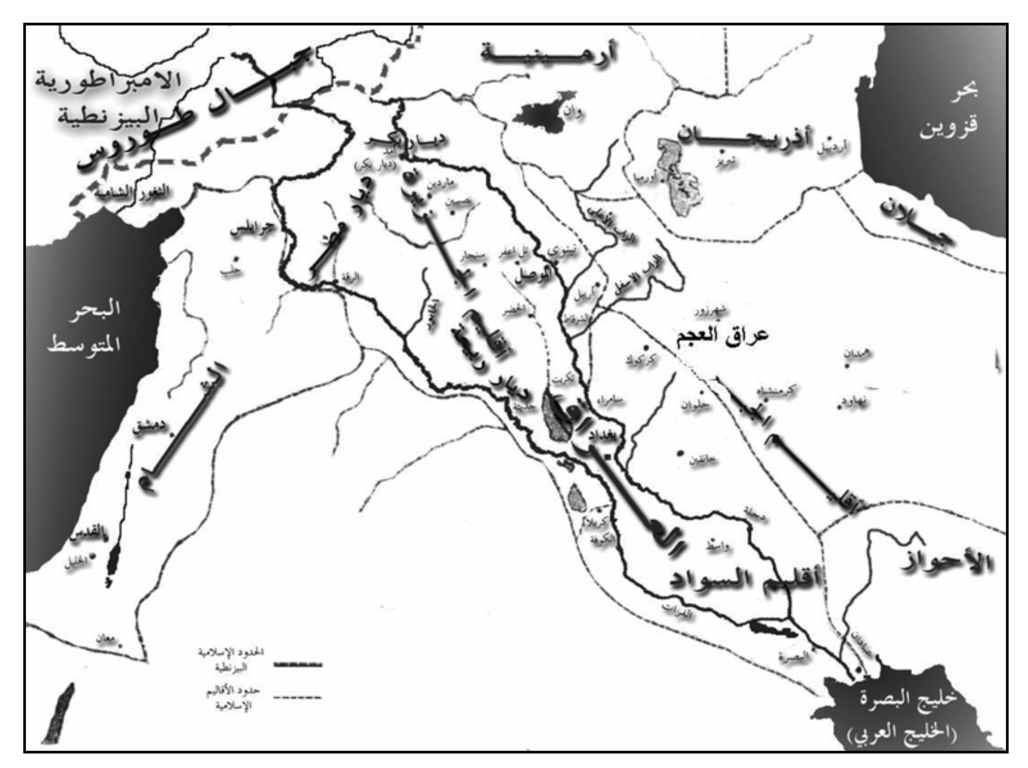
خلال العصر العثماني، كان الجزء الجنوبي من الجزيرة «ديار ربيعة» الذي يشمل كل المحافظات الشمالية العراقية الحالية باسم «ولاية الموصل» جزءاً من العراق المقسم الى ثلاث ولايات: بغداد والموصل والبصرة.

بعد نهاية الحرب العالمية الأولى وسقوط الدولة العثمانية، انقسمت منطقة الجزيرة الى ثلاث مناطق تابعة كل منها لدولة:

- الجزء الجنوبي، أي ولاية الموصل (كل شمال العراق) وتبعت العراق.
- الجزء الوسط، أي محافظات الحسكة والرقة وأقسام من حلب ودير الزور، وقد تبعت سوريا.
- الجزء الشمالي، وهي مقاطعات ماردين وديار بكر والرها، ولقد اقتطعتها فرنسا من سوريا ومنحتها الى تركيا بعد الحرب العالمية الأولى.

الأقوام الجبلية ومنطقة الجزيرة

ان منطقة الجزيرة هذه كانت منذ القدم عرضة لانسياح القبائل القاطنة في المناطق الجبلية المجاورة: جبال زاغروس الكردية من الشرق وجبال أرمينيا وطوروس من الشمال. الحقيقة ان بلاد النهرين بأجمعها كانت على مر التاريخ عرضة لانسياح القبائل القاطنة في المناطق الجبلية من الشرق والشمال. تاريخ سومر وبابل وآشور شهد مرات عديدة مثل هذه الحالات، حيث سيطر سكان الجبال لعدة قرون متقطعة على النهرين: عيلاميون، غوتيون، كوشيون، حوريون، حيثيون، ومختلف الأقوام الايرانية، بالاضافة الى الأقوام القادمة من تركستان في وسط آسيا، يعتقد علماء التاريخ أن بعضاً من هذه الأقوام الجبلية هم من أسلاف الأكراد الحاليين، ربما الكوشيون الذين كونوا سلالة بابلية معروفة خلال أربعة قرون (1570 ـ 1158 ق.م). كذلك «الحوريون ـ الميتانيون» الذين سيطروا على شمال النهرين لأكثر من قرن بين



(اقاليم العراق)

هذه الخارطة التي تمثل تقسيم المنطقة في القرن الثالث الهجري وهي تكشف عن الأمور التالية :

ـ إن العراق كان مقسماً إلى ثلاث ادارات تابعة للعاصمة بغداد : اقليم السواد الذي يبتدىء من الخليج ويشتمل على أجزاء من الأحواز (خوزستان) وهي المحمرة وعبادان التابعتين الآن لأيران ، وكذلك يشتمل على الكويت. وفي أقليم السواد سامراء والأنبار ويشتمل من الشرق على مناطق كثيرة تابعة الآن إلى أيران .

ـ أما الأقليم الثاني فهو أقليم الجزيرة ألذي يشتمل على كل شمال العراق الحالي عدا منطقة السليمانية (شهرزور) التي كانت ضمن أقليم الجبال (جبال زاغاروس) والذي يسمى أيضاً (العراق الأعجمي) .

ويلاحظ شمول أقليم الجزيرة لكل شمال النهرين الجغرافي التاريخي حتى منابع دجلة والفرات. وقد أقتطعت تركيا هذه المناطق بعد الحرب العالمية الأولى (ديار بكر ، وماردين ونصيبين وحران) بعد أن تم تكريد السكان وتتريكهم.

(1300 ـ 1200 ق.م). ولكن في جميع هذه الحالات كان هؤلاء الجبليون من أسلاف الأكراد والايرانيين والتركمان وغيرهم، رغم سيطرتهم السياسية فأنهم سرعان ما كانوا يذوبون بسكان النهرين والمشرق الأصليين ويتبنون اللغة والحضارة السامية السائدة. لقد استمرت هذه الاجتياحات (الجبلية والآسيوية) حتى بعد الاسلام والقرون الحديثة، فكانت انسياحات شعوب الهضبة الايرانية وأكراد جبال زاغروس ثم أتراك ومغول آسيا الوسطى وصولاً الى العثمانيين الذين سيطروا على المنطقة حتى الحرب العالمية الأولى.

ان منطقة الجزيرة «شمال النهرين» قد تعرضت أكثر من الجزء الجنوبي لانسياح القبائل الجبلية، يعود هذا الأمر الى أن هذه المنطقة محاطة بالجبال من جانبين: من الشرق حيث جبال زاغاروس الكردية والآذربيجانية، ومن الشمال حيث جبال أرمينيا وطوروس الأناضول. بالاضافة الى أن منابع دجلة والفرات والأنهار التي تصب فيها تأتي من هذه الجبال، وهذا الأمر ساعد دوماً قبائل الرعاة الجبلية على الانحدار السهل نحو مراعي وادي النهرين وأراضيه الخصبة. لقد أدرك العرب (الأمويون والعباسيون) خطورة هذه المنطقة الجبلية على أمن النهرين، لذلك جعلوها اقليماً مستقلاً ولكن تابعاً للعراق باسم «اقليم الجبال» العراق الأعجمي.

ان العنصر الكردي (كذلك اللور وبختيار) القاطن في هذه الجبال هو جغرافياً وحضارياً أقرب العناصر الجبلية لبلاد النهرين، لهذا فان الأكراد وأسلافهم شكلوا على مرّ التاريخ جزءاً فعالاً من سكان العراق، وامتزجت دماء الأكراد وأسلافهم بدماء أهل النهرين عبر آلاف الأعوام من الجوار والغزو والعيش المشترك. بعد الفتح العربي الاسلامي ودخول الأكراد في الاسلام وتبعيتهم السياسية للخلافة العربية في دمشق وبغداد، فإن هذا الامتزاج العرقي والثقافي تنامت قوته وتوسعت مجالاته حتى صار من الصعب التفريق بين تاريخ الأكراد الحضاري وتكوينهم القومي عما هو عليه في بلاد النهرين، خصوصاً بالنسبة للمناطق الكردية المجاورة للرافدين، وبالذات الجزئين اللذين يشكلان حالياً ما يسمى بـِ «كردستان العراق وكردستان تركيا». بل يمكن الافتراض بناءً على قراءة التاريخ أن جزءاً كبيراً من دماء أهل النهرين الحاليين بما فيهم العرب والسريان تحمل نسبة كبيرة من الدماء الكردية، ونفس الشيء ينطبق على الأكراد. (سنتطرق لهذه المسألة لاحقاً).

أصل الأكراد

لقد اختلف المؤرخون حول أصل الأكراد وطرحت عدة نظريات وافتراضات متنوعة : قبائل آرية نزحت الى الجبال من إيران منذ القدم واختلطت بالقبائل الجبلية الأصلية، قبائل سامية وسومريةعراقية نزحت الى الجبال واختلطت بالقبائل الأصلية ثم خضعت للقبائل الآرية أو قبائل جبلية أصلية تبنت اللغة الآرية الايرانية.

الحقيقة المعقولة التي يمكن استخلاصها من جميع هذه الفرضيات، أن الأكراد هم أولاً من القبائل الجبلية الأصلية وهم ينتمون الى العرق «الأرموندي أو القفقاسي» القاطن منذ القدم في المنطقة. لقد تعرضت هذه القبائل خلال حقب التاريخ لهجرة القبائل الآرية القادمة من الشرق حيث الهضبة الايرانية، وكذلك الجماعات السومرية والسامية النازحة من الغرب حيث وادي النهرين. يبدو أن العنصر الآري (بسبب الطبيعة الجبلية) هو الذي تمكن اكثر من فرض لغته بحيث اعتبرت اللغة الكردية لغة آرية إيرانية، ولكن هذه اللغة الكردية تحمل في طياتها الكثير الكثير من التأثيرات السومرية السامية العربية بما فيه الكتابة العربية التي تبناها الأكراد (السورانيون) في العصر الحديث. ان البحوث التي أجراها علماء الأجناس على الأكراد أثبتت هذه الحقيقة، ولوحظ خصوصاً أن الأكراد في غرب زاغروس أي في المناطق المحاذية للرافدين قريبون عرقياً وثقافياً الى سكان شمال النهرين (راجع الموسوعة الاسلامية. العراق، كردستان).

ان الأساطير المتداولة لدى الأكراد تعبر عن هذه الحقيقة. هناك مثلاً الأسطورة التي ذكرها المؤرخ العراقي المسعودي من أن أصل الأكراد يعود الى القبائل الايرانية «الميدية» التي التجأت الى الجبال هرباً من اضطهاد الملك الايراني «الضحاك!». ثم هناك الأساطير الشعبية الكردية التي يتداولها خصوصاً أكراد العراق والجزيرة والتي تذكر أن جدهم أصله من «بني ربيعة أو بني مضر» وقد هرب بحبيبته الى الجبال ثم «كردها» أي تزوجها فأصبح أبناؤهم أكراداً، علماً أن فعل «كرد» وهمي ولا يوجد بالعربية، لكن هناك من يعتقد أن تسمية «كرد» متأتية من السومرية بمعنى «جبلي»! أن هذه الأسطورة تعبر عن ذكريات قديمة تعود الى القبائل السامية ثم العربية التي قطنت وذابت في الأكراد، ومنهم قبائل ربيعة ومضر التي كانت تسيطر على الجزيرة بجوار الأكراد. لا زالت حتى الآن حالة التمازج هذه واضحة في العراق، لدى بعض القبائل العربية المجاورة للقبائل الكردية مثل بعض أقسام من بني ربيعة والقيسيين والجبور وتميم والبيات، حيث

تسود بينهم اللغتان العربية والكردية وأحياناً التركمانية كذلك بالاضافة الى الانتماء والتزاوج العرقي المشترك. وبالعكس هناك قبائل كردية معروفة تعتقد بأصولها العربية القديمة مثل قبائل الجاف وبابان والحفيد والطلباني وغيرهم. ويذكر الرحالة الأوروبي (هاي) الذي زار المنطقة في أوائل هذا القرن: «يفخر كل زعيم كردي تقريباً بأنه ينحدر من أصل عربي، ويحاول إرجاع نسبه الى النبي أو أحد صحابته» (عزيز الحاج ـ القضية الكردية ـ ص 84) وتبدو هذه الحالة بدرجة اكبر بين الأكراد الفيلية في «خانقين وديالي» الممتزجين باللور والعرب. وهناك مثل آخر على التمازج السرياني العربي ـ الكردي يتمثل بطائفة اليزيدية كما سنرى لاحقاً. من النماذج التاريخية المعروفة التي تعبر عن هذا التمازج هو «صلاح الدين الأيوبي» الذي تمكن بأصله العراقي الكردي أن يكون سلالة عربية كردية حكمت الشام ومصر، هل هي صدفة أن أول صحيفة كردية باسم «كردستان» قد صدرت في القاهرة عام 1898؟

تاريخ كردستان ومساحتها

بالنسبة للتاريخ السياسي للأكراد وتكوين «كردستان». فان المرة الأولى التي تم فيها استخدام مصطلح «كردستان» كان في زمن السلاجقة التركمان في العصر العباسي (1157م). لقد كون السلاجقة مقاطعة بهذا الاسم مركزها «بهار» في شمال غربي همادان ومحاذية لأذربيجان. هذه المقاطعة كانت تمثل الجزء الشمالي من جبال زاغاروس، أي عموم «منطقة شهرزور» التي كانت تشمل «مقاطعة كردستان» الايرانية الحالية كذلك محافظة «السليمانية» الحالية في العراق.

الذي يستحق الانتباه في تاريخ «كردستان» أن مساحتها الجغرافية كانت تتوسع مع مر القرون، وهذا يدل على توسع الهجرة الكردية الى مناطق جديدة كانت مقطونة بشعوب اخرى: نحو الجنوب حيث مناطق بختيار واللور، ثم نحو الشمال حيث بلاد الأرمن واذربيجان، ثم نحو الغرب حيث منطقة الجزيرة «شمال النهرين»:

مثلاً في (عام 1349م) أي بعد قرنين من تكوين مقاطعة كردستان، نرى مصطلح «كردستان» قد توسع حسب المؤرخ حمد الله مصطفى ليشمل كذلك مناطق جديدة في الشمال والجنوب وفي عام (1596م) نرى المؤرخ شرف الدين في كتابه «شرف نامة» يتوسع في تعريف بلاد الأكراد نحو الجنوب ليشمل كذلك كل «مقاطعة لورستان» أي إقليم الجبال بأجمعه بعد أن كان نصفه منذ أربعة قرون، بعد ذلك يأتي المؤرخ التركي «الشلبي» (عام 1682) يتوسع

بدوره بمساحة «كردستان» نحو الشمال لتشمل الجزء الأكبر من أرمينيا السابقة (ولايات أرضروم ووان وحكاري)، وكذلك يتوسع بـِ «كردستان» الى الغرب نحو «منطقة الجزيرة» الرافدية لتشمل ديار بكر والعمادية والموصل وأربيل وكركوك، ثم الى الشمال الغربي لأذربيجان الغربية! (راجع الموسوعة الاسلامية بالفرنسية والانكليزية. قسم الأكراد).

عوامل التوسع الكردي

كيف يمكن أن يفسر هذا التوسع في مساحة «كردستان»؟ خلال بضعة قرون تضاعفت عدة مرات مجالات سكنى الأكراد الى مناطق لم تكن كردية خلال حقب التاريخ السابقة ومقطونة بشعوب أخرى مثل اللور وبختيار والأرمن والسريان والعرب!

إن الإجابة عن هذا التساؤل تستوجب العودة الى التاريخ، بالذات الى الفترة التي أعقبت الفتح العربي الاسلامي وتكوين الامبراطوريات والدول الاسلامية. أية قراءة لتاريخ هذه الدول العربية والايرانية والتركية التي نشأت بعد الاسلام تكشف بشكل جلي عن وجود العنصر الكردي في جميع الحروب والمنافسات والتغيرات السياسية والعرقية التي جرت منذ القرن السابع وحتى الآن. يمكن تعداد العوامل الرئيسية التي ساعدت على التوسع الجغرافي ــ السكاني الكردي خلال قرون الإسلام:

1ــ العامل الجيوــ سياسي: حيث يقطن الأكراد تاريخياً في مناطق جبلية تشكل الجزء الشمالي من جبال زاغاروس وتشرف هذه المناطق خصوصاً على سهول وادي النهرين، والمناطق المنخفضة في أذربيجان وأرمينيا. ثم أن منطقة كردستان الجبلية محاطة ببلدان شكلت اكبر المراكز الحضارية العالمية المتنافسة منذ القدم: وادي النهرين من الغرب، وهضبة إيران من الشرق، وهضبة الأناضول وأرمينيا من الشمال. موقع الأكراد هذا منحهم ميزة لعب دور وسطي بين هذه المناطق الحضارية الكبرى، بما يحتويه هذا الدور من منافع ومضار. ولا زالت هذه الحالة تفرض نفسها على الأكراد حتى الآن، وفيها يكمن سر ضعف وتشتت القوى الكردية، ولكن أيضاً فيها يكمن سر أهمية الأكراد وتكوينهم القومي!

2ــ عامل البداوة: أن الكثير من الأكراد وحتى القرن الحالي كانوا قبائل رعاة ورحل يتنقلون بين الجبال والوديان، حيث يصعدون الى الجبال صيفاً ويهبطون شتاءً في الوديان والسهول الدافئة بحثاً عن الكلأ. ان عملية «تكريد» المناطق غير الكردية بواسطة هذه القبائل ظلت شائعة حتى القرن الحالي. مثلاً، من القبائل التي تم توطينها في أوائل هذا القرن هم

الجاف والهركية والبولي والخيلاني. يورد المؤرخ الكردي قاسملو مذكرة أرسلتها الحكومات الأوروبية الى تركيا عام 1880 : «لما كان الأكراد الرحل الذين يعيشون في الجبال والذين يهبطون الى الوديان التي يقطنها المسيحيون لا لغرض الا لإشاعة الفوضى، ينبغي أن لا يدخلوا في الاحصاءات التي تحدد من هم غالبية سكان المنطقة» (الحاج ـ ص 10).

3ـ العامل الديني والمذهبي : ان العاملين السابقين لم يكتملا الا بوجود العامل الديني المذهبي الذي لعب دوراً حاسماً في منح الأكراد القوة السياسية والمعتقدية لكي يفرضوا وجودهم القومي المتميز في المنطقة. يبدو أن الأكراد قد اعتنقوا الاسلام بسهولة من القرن الأول الهجري وصاروا جزءاً فعالاً ومحارباً من الامبراطوريات والدول والامارات الاسلامية التي توالت على المنطقة.

من «حسن حظ» الأكراد ان بعض الشعوب المجاورة لهم ظلت على مسيحيتها ولم تعتنق الاسلام، مثل الأرمن في بلاد أرمينيا والسريان في شمال النهرين، وهذا الأمر منح الأكراد التبرير السياسي والديني لكي يتوسعوا سكانياً وجغرافياً في هذه المناطق.

ثم ان الاجتياح الآسيوي (التركي المغولي) قد لعب دوراً حاسماً في عملية التوسع الكردي. يبدو أن الاسلام كان عاملاً أساسياً لإيقاظ شعوب آسيا الوسطى ودفعها للتحرك والانسياح التاريخي نحو المنطقة الاسلامية والعربية حيث اجتاحت إيران والنهرين والشام حتى مصر : قبائل السلاجقة والتركمان والمغول، وأخيراً العثمانيون الذين اجتاحوا الأناضول وشرق أوربا وكل المنطقة العربية.

أن تحالفاً مذهبياً قام بين هذه القبائل التركستانية والقبائل الكردية. خلال بضعة قرون تحولت كل اذربيجان الفارسية ومعظم أرمينيا والأناضول الاغريقية وشمال النهرين العربي السرياني الى مناطق تركية وكردية وأصبح سكانها الأصليون أقليات ضعيفة حتى ذابت وانقرضت تماماً في القرن العشرين.

بالنسبة لمنطقة «الجزيرة»، بالاضافة الى الدافع الديني لدى الأكراد (ضد السريان المسيحيين). هناك أيضاً العامل الطائفي الذي لعب دوراً حاسماً لصالح التوسع الكردي : أن جميع القبائل التركية السلجوقية ثم المغولية التي اجتاحت المنطقة تبنت المذاهب السنية، بما أن القبائل الكردية كانت كذلك على المذهب السني، وهذا الأمر خلق تحالفاً بين الطرفين لمكافحة المذاهب الشيعية والخارجية التي كانت شائعة بين القبائل العربية في شمال النهرين. ثم

تعمق التحالف مع قيام الدولة العثمانية التي تبنت المذهب السني «الحنفي» مقابل منافستها الدولة الايرانية الصفوية التي تبنت المذهب الشيعي الجعفري، حيث لعب الأكراد دوراً مهماً في السيطرة على المد الشيعي والخارجي في منطقة الجزيرة وباقي بلاد النهرين. وهذا الأمر دفع العثمانيين أيضاً إلى تشجيع التوسع الكردي «السني»، ثم السماح إبتداءً من عام 1515 مع السلطان سليم الأول باقامة إمارات كردية شبه مستقلة ـ على الحدود ـ ايران (شهرزور والسليمانية) وفي منطقة الجزيرة (ديار بكر) لنشر الاسلام «السني» ومكافحة الطوائف الأخرى من شيعة وخارجية ويزيدية ومسيحية، ومن أشهر هذه الأمارات الامارة البابانية التي ساعد العثمانيون على إقامتها عند الحدود مع إيران أي في منطقة السليمانية.

صحيح أن الدولة العثمانية نجحت خلال قرون أن تفرض المذهب السني على ولاية الموصل بحكم طبيعة الموصل الجغرافية والدينية المنفتحة وكذلك تأثير العلاقة التاريخية مع شمال سوريا. لكن العثمانيين فشلوا بفرض هذا المذهب على القسم الشمالي من النهرين (ديار بكر وماردين وغيرها. أي ما يسمى بكردستان تركيا) بسبب طبيعة المنطقة شبه الجبلية التي تسمح بالانطواء والحفاظ على المعتقد. ان سكان هذه المنطقة الذين كانوا من أهل النهرين المعتنقين للمذاهب العلوية والخارجية اضطروا للانتماء الكردي والتركي بحكم واقع الامتزاج مع القبائل الكردية والتركية المهيمنة، لكنهم رغم ذلك تمكنوا من الحفاظ على انتمائهم المذهبي العلوي الذي ظل يميزهم عن مذهب الأكراد والأتراك الذين هيمنوا عليهم. علماً أن في هذه المناطق لا زالت هناك جماعات كثيرة من العرب والسريان التي تتناقص يوماً بعد يوم بحكم الهجرة وعمليات التكريد والتتريك المستمرة. يمكن على هذا الأساس تفسير التحالف الجاري بين بعض الأطراف الكردية العراقية (السنية) مع تركيا (السنية) والطرفان ضد حزب العمال الكردستاني التركي، وهو حزب بمعظمه علوي قيادة وقواعد، بما فيه مؤسسهُ عبد الله اوجلان!

ويمكن ملاحظة دور العامل الطائفي في المسألة الكردية حتى القرون المتأخرة: لقد عقدت معاهدة «أرضروم ـ 1847» بين الدولتين العثمانية والإيرانية، إذ تنازل بمقتضاها العثمانيون عن مطالبتهم بمنطقة «المحمرة وعبدان» العربية العراقية «الشيعية» الى إيران، لقاء تنازل ايران عن مطالبتها بمنطقة «شهرزور» الكردية «السنية». وتكرر الأمر في عهد الملك فيصل عندما تغاضى عن ضم إيران لإمارة المحمرة «الأحواز» عام 1925 لقاء قيام الانكليز بقمع ثورة الحفيد وضم منطقة «السليمانية» الى العراق، ثم تكررت الحالة في اتفاقية الجزائر عام 1975 إذ وافق

صدام على التنازل عن مطالبته بعربستان «الأحواز» بالاضافة الى نصف شط العرب لقاء سحب إيران دعمها للثورة الكردية.

ان العناصر الكردية لعبت دوراً متميزاً في ادارة الولايات العراقية زمن العثمانيين. يمكن لأي مطلع على أسماء رجالات الادارة في هذه الفترة ان يكتشف ما لا يحصى من العناصر المعروفة بأصلها الكردي، ومن هؤلاء الكثيرون الذين انتموا للهوية العراقية ولعبوا دوراً متميزاً في تشجيع الميول الاستقلالية عن الدولة العثمانية. على سبيل المثال يذكر دور العائلة الحيدرية وعائلة بابان وعائلة الزند التي أنجبت مفتي بغداد في القرن التاسع عشر ثم عائلة الزهاوي المعروفة التي أنجبت أيضاً مفتي بغداد وولده الشاعر جميل صدقي الزهاوي الذي كان من دعاة الاستقلالية العراقية. واستمر الدور الكردي المتميز كذلك بعد قيام الدولة العراقية عام 1921 حيث شاركت العناصر الكردية في جميع الوزارات والادارات والقيادات العسكرية العراقية طيلة هذه الفترة وحتى الآن : صدقي والقزاز وبابان والطلباني وأمين والجاف ووهبي ومئات غيرهم. ويمكن ملاحظة نفس الحالة تقريباً في تاريخ سوريا العثماني والفرنسي وملاحظة الأسماء الكردية التي لعبت أدواراً قيادية في الدولة والمجتمع.

يمكن القول، أن العناصر الكردية (السنية) كانت ولا زالت مفضلة في أجهزة الدولة العراقية مقارنة بالعناصر العربية الشيعية. ان الاحصائيات ومراجعة أسماء رجالات الادارة في العراق منذ العهد الملكي وحتى الآن تثبت هذه الحقيقة/ (راجع مثلاً : تاريخ الوزارات العراقية. وأعلام الكرد ـ مير بصري).

مناطق اكراد العراق

ان هذه الوقائع وتاريخ منطقة شمال النهرين تؤكد أن أكراد العراق وعموم منطقة الجزيرة رغم تمايزهم اللغوي فإنهم بكل يقين ممتزجون عرقياً وحضارياً بأحفاد حضارات النهرين : ان مراجعة تاريخ المناطق العراقية التي تقطنها حالياً غالبية كردية تكشف أن هؤلاء الأكراد ما هم إلا من نسل تلك القبائل والمجاميع السامية السريانية العربية التي امتزجت وتزاوجت وذابت بالعنصر الكردي الغالب خلال حقب التاريخ البعيد والقريب. هنا تاريخ بعض المناطق التي تكشف عن هذه الحالة :

منطقة كركوك

منذ القدم كانت هذه المنطقة جزءاً من بلاد النهرين. أقدم ذكر ورد لها باسم «أربخا» في التقويم الجغرافي الشهير عن ممتلكات الملك سرجون الأكدي (2530 ــ 2473 ق. م). هناك من يعتقد ان اسم «كركوك» أتى من السومري بمعنى العمل العظيم (كار ـ عمل، كرك ـ عظيم).

يبدأ تاريخ مدينة كركوك مع انبثاق «النار الأزلية» عام 550 ق. م في العهد الكلداني، من المعروف ان هذه النار التي لا زالت حتى يومنا هذا في «بابا كركر» تتشكل من الغازات النفطية المنبعثة من باطن الأرض. منذ ذلك التاريخ بنيت المدينة تقديساً لهذه النار، وقريباً من الماء والكلأ المنتشر في المنطقة. وتحولت الى مركز لعبادة الاله «حدد» السامي.

بعد احتلال الاسكندر المقدوني للرافدين عام 331 ق. م تحولت المنطقة الى مركز لنشاط القائد الأغريقي سلوقوس الذي بنى فيها منطقة عسكرية سميت «كرخ سلوقايا» أي قلعة السلوقيين ومنها ربما أتى اسم «كركوك».

في العصر الايراني الساساني تحولت كركوك الى مركز رئيسي للمسيحية النسطورية السريانية التي انتشرت في بلاد النهرين قادمة من سوريا. وأطلق على أسقفية كركوك اسم «بيت جرماي». وقام الأباطرة الساسانيون بعدة مذابح شهيرة ضد النساطرة وأشرسها في القرن الرابع الميلادي راح ضحيتها عدة آلاف من السكان. في القرن السادس تمكن «يزيدن» أحد القادة السريان أن يكون أميراً على المدينة حتى سميت باسمه «كرخايزدن». في كركوك بنيت واحدة من أقدم الكنائس في التاريخ عام 470 م وظلت هذه الكنيسة حتى فجرها الأتراك بعد انسحابهم عام 1918. ويعتقد ان جامع النبي دانيال المعروف في المنطقة قد أقيم محل كنيسة نسطورية قديمة ظلت قائمة حتى عام 1700م.

منذ الفترة العباسية، بدأ التركمان يقطنون كركوك، لانها قريبة من سامراء التي اصابها الخراب، وكذلك لانها تشبه موطن اسلافهم إذ هي وسط بين الجبال والسهول. ومع الزمن بدأت العشائر التركمانية تتكاثر حتى اصبحت هي الغالبة في مدينة كركوك، حتى اللغة التركمانية هي لغة المدينة ويتكلم بها حتى العرب والاكراد والسريان.

بعد تكوين ولاية الموصل عام 1879 تبعت كركوك هذه الولاية. عام 1918 فصلت عن كركوك 3 أقضية لتكوين لواء اربيل. أما بالنسبة للتركمان القاطنين في المنطقة فهم من بقايا عدة

مجاميع بدأت تستقر منذ القرن الثامن قبل الميلاد واستمر مع السلاجقة والأتابكة والعثمانيين، وقد امتزجوا بالسكان السريان والعرب وحملوا ميراثهم الحضاري رغم تمايزهم اللغوي.

يبلغ عدد سكان كركوك حالياً النصف مليون تقريباً بنسب عددية شبه متقاربة من الأكراد والتركمان مع نسبة اكبر من العرب تزداد مع الأعوام بحكم سياسة التعريب التي اتبعتها الحكومات العراقية بالاضافة الى بضعة آلاف من السريان الكلدان والنساطرة.

مدينة اربيل

تقع اربيل في السهول الزراعية بين الزابين الأعلى والأسفل اللذين يصبان في نهر دجلة. تعتبر من أقدم المدن الحية في العالم. عثر في طرفها الجنوبي على تجمعات سكنية تعود الى العهد الآشوري. قلعة أربيل المعروفة تمثل الجزء التاريخي من المدينة وتقوم على سبعة تجمعات سكنية مدثورة منذ العهد السومري. يرد اسم أربيل في المنحوتات السومرية باسم «أوربيلم»، وفي الوثائق البابلية والآشورية «أربعيلو» أي الآلهات الأربع. كانت أربيل العاصمة الدينية للدولة الآشورية، وقد أنشأ الملك الأشوري «سنحاريب 705 ـ 681 ق. م» أول مشروع مائي، لا زالت آثاره واضحة حتى الآن، ضمنها لوحة حجرية صغيرة تضم كتابات آشورية يذكر فيها سنحاريب أنه أنجز المشروع من أجل إيصال الماء الى مدينة الآلهة عشتار. أشتهرت «أربيل» بمعركة «كومل» التي جرت بين الأغريق بقيادة الاسكندر المقدوني والايرانيين بقيادة داريوش عام 331 ق. م والتي انتهت بسيطرة الاغريق التامة على بلاد النهرين وعموم المنطقة. منذ القرن الأول الميلادي بدأت المسيحية تنتشر في النهرين وتمركزت في أربيل التي تحولت الى مقر لأسقفية نسطورية مثل كركوك. وفي زمن الساسانيين تعرض المسيحيون فيها الى مذابح معروفة، حتى أن حاكمها الفارسي «قرداخ» قد تم إعدامه عام 358م بسبب تخليه عن المجوسية واعتناقه المسيحية.

مسجد قلعة اربيل كان في الأصل معبداً لتقديس الآلهة «عشتار»، ثم تحول الى معبد لتقديس النيران بعد سيطرة الايرانيين على النهرين، ثم تحول الى كنيسة سريانية في القرن الثالث الميلادي، وأخيراً تحول الى مسجد بعد دخول الجيش الاسلامي عام 16 هجرية.

المؤرخون العرب يذكرون أربيل على أنها مركز اقليم حلوان التابع للعراق. اشتهرت أيضاً بآخر معركة جرت بين الجيش العباسي والجيش الأموي وانتهت بمقتل الخليفة الأموي مروان

بن محمد. لعبت هذه المدينة دوراً رئيسياً في زمن الدولة الأتابكية الكردية التركمانية التي سيطرت على معظم منطقة الجزيرة بين تكريت وسنجار وحران.

حتى العصر المغولي كان السريان المسيحيون هم الغالبية في المدينة رغم سيطرة الأمراء الأكراد والتركمان. في ظل المغول عام 1261 تمكن أحد السريان «تاج الدين المكناس» أن يصبح حاكماً على المدينة، وساعد على نشر المسيحية اليعقوبية وبناء كنيسة واسقفية خاصة بها. في عام 1294 قام المغول بعمليات اضطهاد ومذابح ضد السريان وهدموا ثلاث كنائس. وفي عام 1309قام المغول بمذابح جديدة ضد السريان وهدموا وحرقوا معظم كنائسهم. منذ ذلك الوقت فقد السريان حضورهم في أربيل وتحولت الى مدينة كردية مع بعض الأقليات السريانية والتركمانية. بقيت أربيل في زمن العثمانيين جزءاً من كركوك وتابعة لبغداد، في عام 1892 كان عدد سكان المدينة لا يتجاوز 3200 بينهم 457 يهودياً.

أما الآن فان عدد سكان محافظة أربيل يقرب النصف مليون أغلبهم من الأكراد مع نسب مهمة من السريان والتركمان.

منطقة سنجار واليزيدية

ان الحديث عن سنجار يعني الحديث عن «اليزيديين» المحسوبين على الأكراد.. أن يُحتسب «اليزيديون» على الأكراد أمر ليس مهماً ما داموا يقطنون في منطقة عراقية وعاشوا تاريخ النهرين وورثوا حضارة هذه البلاد من خلال دينهم الذي يعتبر ديناً رافدياً خالصاً مع تأثيرات «كردية عراقية» واضحة.

عدد اليزيديين يبلغ أكثر من مئة الف في العراق، 85٪ منهم يقطنون في جبل «سنجار» في وسط منطقة الجزيرة غرب الموصل، والباقون في قريتي «الشيخان» و «باعذرى» شرق الموصل. بعض اليزيدية موجودون أيضاً في سوريا وفي أرمينيا. معظم المؤرخين والباحثين اعتبروهم من الأكراد، لكن بالحقيقة هم «عراقيون» بكل معنى الكلمة. بصورة أدق أنهم يمثلون أفضل نموذج للجماعات العراقية السريانية التي تم تكريدها في القرون الأخيرة بحكم السيطرة الكردية على المنطقة والتزاوج القبائلي والثقافي الذي تم مع الجماعات الكردية النازحة. يشبهون في وضعهم هذا بعض القبائل العربية ـ الكردية الموجودة في العراق، مثل بعض افخاذ الجبور وربيعة والبيات وغيرهم. انهم يحملون الثقافتين والانتمائين العربي ـ

الكـردي بـآن واحـد. يـتكلم اليزيـديون العربيـة والكرديـة ويرتـدون الأزيـاء الرجاليـة العربيـة السريانية والأزياء النسائية الكردية. لهم كتابان مقدسان أحدهما بالعربي «كتاب الجلـوة» يعـود الى المتصوف الشامي «عدي بن مسافر» وكتاب حديث يُعتقد أنه مكتـوب بـالكردي «مـصحف رش» أي «الكتاب الأسود». يعتقدون بأن أسمهم «اليزيدية» يعود الى «يزيد بن معاويـة الخليفـة الأموي» الذي تم تقديسه بعد سقوط الدولة الأمويـة كـرد فعـل علـى تقـديس «علـي» مـن قبـل «العلوية» والشيعة المجاورون لهم. ثم أنهم يقدسون فقيهاً عراقياً معروفاً هو «الحسن البـصري». ان سلالة جميع شيوخ اليزيدية يجب أن يكونوا منحدرين من هذين الأمامين «عدي بن مـسافر والحسن البصري».

من دلائل أصالتهم السريانية، مثلاً إنهم في سنجار يقدسون دير «مار عـدي» أحـد حـواريي السيد المسيح، ويحتفظون فيه بأقدم مكتبة كلدانية مكتوبة علـى رق الغـزال باعتبارهـا مكتبـتهم المقدسة.

مـن ناحيـة تكـوينهم الـديني، فـان المـؤرخين والفقهـاء لم يحـسموا قـضية انتمـاء اليزيديـة للاسلام أم لا. لقد أسـيء فهـم الفكـرة الـسائدة عـنهم بـأنهم يعبـدون الـشيطان: أنهـم يهـابون «المـلاك طـاووس» رمـز قـوة الـشر (الـشيطان) لا حبـاً بـه ولكـن تجنبـاً لـشره. يـشبهون معظـم الطوائـف «الغاليـة» الـتي حاولـت أن تغطـي معتقـداتها الـسامية الأصـلية بـتلاوين مـسيحية واسلامية، مثلما فعلت العلوية والدرزيـة والاسماعيليـة والـشبكية وغيرهـم. ان اليزيديـة تمثـل خلاصـة الـدين البـابلي القـديم القـائم علـى تقـديس الكواكـب الـسبعة المعروفـة، والـذي تـأثر واضطر لتقبل المعتقدات السامية الجديدة التي انبثقت في المنطقـة بعـد سـقوط بابـل: المسيحية ثم المانوية البابلية ثم الاسلام. أي أن اليزيدية هم من بقايا المجاميع السامية السريانية التي فرض عليها التاريخ للحفاظ على دينها الأصلي أن تتقبل بعضاً من معتقدات الأديان الجديـدة. بـل ان ديناميكية اليزيدية اضـطرت كـذلك لتقبـل ثقافـات الأقـوام الجديـدة الـتي فرضـت نفسها علـى المنطقـة، أي ثقافـة العنـصر العربـي أولاً ثـم ثقافـة العنـصر الكـردي الـذي هـيمن في القـرون الأخيرة.

تاريخ اليزيدية عموماً مجهول ولم يتم الاهتمام به الا في القرن الـسابق، وهـذا يعـود أساسـاً الى تكتم اليزيدية ومحاولة ابتعادهم عن اثارة الطوائف الاسلامية والمسيحية المحيطـة بهـم. رغـم هذا فانهم تعرضوا لحقبات من الاضطهاد والمذابح المعروفة خصوصاً في زمن الدولـة العثمانيـة.

في القرن التاسع عشر قام العثمانيون بإبادة يزيديي جزيرة إبن عمر في منطقة الجزيرة وكذلك تم ذبح الآلاف في جبل سنجار لاجبارهم على التخلي عن دينهم. في عام 1847 حاولت الحكومة العثمانية إجبارهم على الخدمة العسكرية بإعتبارهم طائفة إسلامية، وبعد مذابح كثيرة إضطر الكثير منهم للجوء للكنائس وإعلان مسيحيتهم للتخلص من الاضطهاد. وتكررت المذابح كذلك في عام 1872 لنفس السبب. حاولت البعثات التبشيرية الأوروبية كسبهم الى المسيحية دون أن تحقق نجاحاً ملحوظاً. يبدوا أنهم قد لعبوا دوراً مميزاً بالتحالف مع السريان في ضم الموصل الى العراق في عام 1925.

رغم ديمومة اللغة الكردية (مع العربية) في بعض نواحي اليزيدية فان هناك شعوراً متنامياً لديهم بأصولهم السريانية الرافدية. في عام 1919 اشتركوا مع الآشوريين بوفد موحد بقيادة الجنرال أغا بطرس في مؤتمر السلام في باريس للمطالبة بحقوقهم. لقد نشرت صحيفة الشرق الأوسط في 24 ـ 2 ـ 1993 برقية شيخ اليزيدية الأمير معاوية يقول فيها : «أنه ليس لمسعود البرزاني ولا جلال الطالباني ــ القادة الأكراد ــ الحق بالادعاء بأنهما يمثلان اليزيديين والآشوريين». ثم نشرت مجلة «حويودو ــ الوحدة» السريانية (عدد 43 ــ 1994) بياناً للأمير معاوية يتحدث فيه عن : «نبتة أجدادنا أيام الامبراطورية الآشورية... أننا فهمنا تاريخنا بأننا والآشوريين من أصل واحد ...».

ان من يطلع على تاريخ اليزيدية يكتشف ان هذه الطائفة تمثل خلاصة رائعة لتاريخ منطقة شمال النهرين (منطقة الجزيرة). يمكن اعتبار اليزيدية أشبه بقصر تاريخي مظهره اسلامي مزين بنقوش عربية وعبارات كردية. لكن لو أزلنا هذه الأصباغ الخارجية عن الجدار لاكتشفنا تحتها طبقة من نقوش مسيحية بأيقونات ملونة وصلبان منحوتة. ولو تعمقنا أكثر بالحفريات لاكتشفنا طبقة ثالثة من جداريات آشورية ورسومات آلهة النهرين وكتابات مسمارية. ولو تعمقنا في الحفريات سنصل الى أعماق تاريخ المنطقة وجذورها البدائية المنسية. الحقيقة أن جميع طوائف وأديان العراق وسوريا تتشابه في هذه الطبقات الآثارية المخفية، لكن اليزيدية من بين الكل هي أقل الطوائف التي نجحت بأخفاء طبقاتها التاريخية، بحيث تبدو وكأنها موزاييك رائع للتراث الديني والأقوامي لبلاد النهرين.

يمكن ملاحظة هذا التنوع العجيب في اليزيدية من خلال الأمور التالية :

ـ اعتقادهم بأنهم من نسل آدم فقط وليس من نسل حواء، وإنهم أتوا بعد الطوفان.

ـ اعتقادهم بالكواكب السبعة المقدسة لدى العراقيين، لكنهم غيروا أسماء الآلهة البابلية بأسماء الملائكة السريانية المسيحية: يودائيل وإسرافيل وميكائيل وجبرائيل وشمنائيل ونورائيل، أما زعيم الملائكة الأكثر قدسية فهو عزرائيل «الملك الطاووس»، الذي تصوره البعض على أنه «الشيطان». ويمثل هؤلاء الملائكة سبعة شيوخ مقدسين مثل الشيخ عدي والشيخ حسن وأبو بكر.

ـ يحتفلون بأول أربعاء من شهر نيسان بهبوط الملاك «طاووس» الى الأرض، مثلما كان يحتفل أهل النهرين في بابل وآشور بشهر نيسان أول أشهر السنة حسب التقويم البابلي، لأنه شهر الربيع والخصب والميلاد والبداية. وهو عيد الاله (تموز)، ويبدو جلياً أن هناك تشابهاً بين اسمي (طاووس وتموز). نفس هذا الشهر أيضاً كان يحتفل المانويون البابليون بيوم صلب «ماني البابلي» وخلوده في الأبدية، وكذلك هو عيد الفصح وعودة المسيح للحياة.

ـ إنهم اقتبسوا من المانوية مسألة تناسخ الأرواح وانتقال البشر بين حيوات عدة.

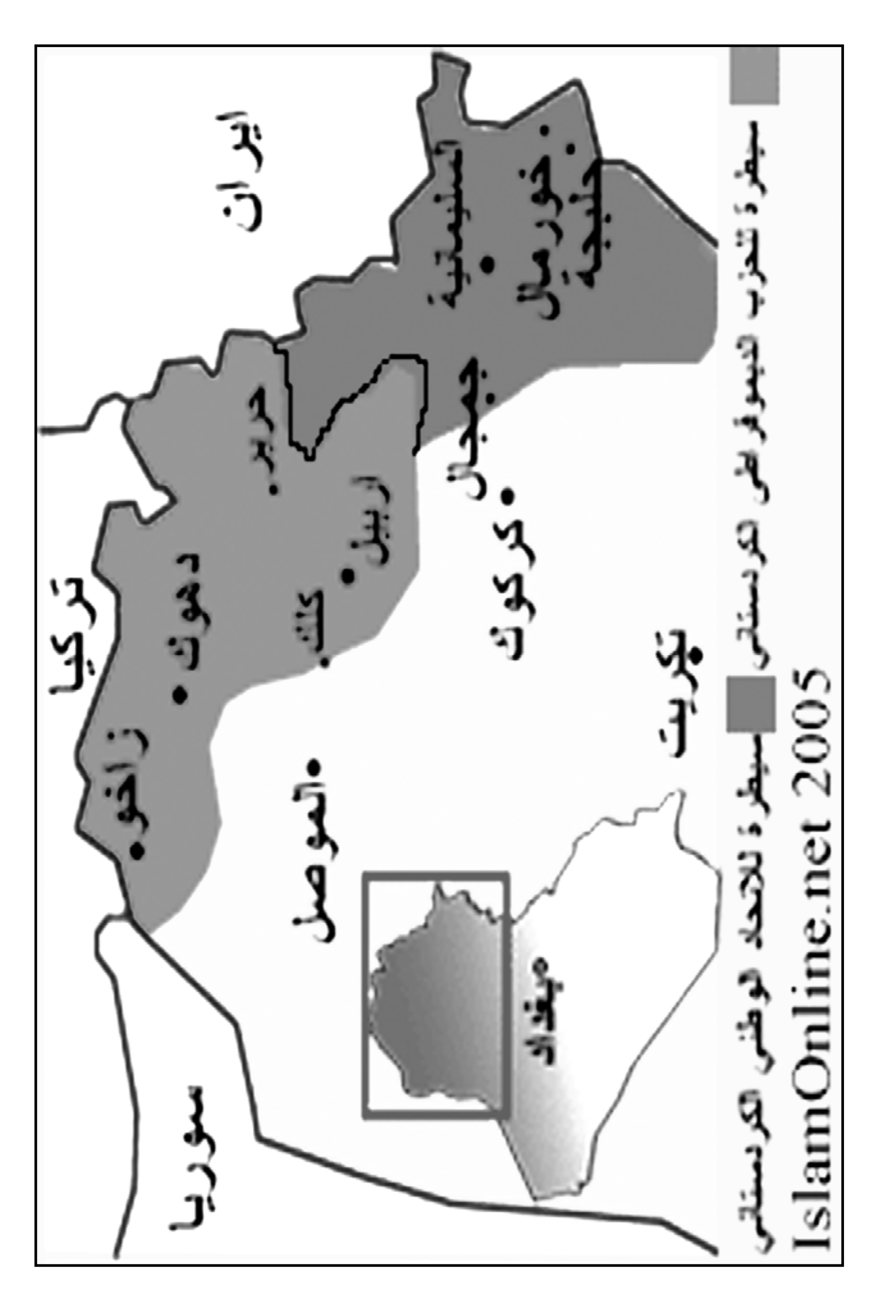
ـ إنهم يشتركون مع المسيحيين في الكثير من المناسبات والاعياد مثل عيد الفصح والقيامة وكذلك التعميد بالماء وقطع الخبز، ثم زيارة الكنائس والحج لمزار الشيخ عدي المقدس أيضاً لدى المسيحيين في العراق.

ـ إنهم يشتركون مع المسلمين بالصيام والختان وتقديس القرآن وبعض رجالات الدين.

ـ إنهم يحتفلون بعيد «القربان» أي عيد الأضحى حيث ضحى النبي إبراهيم بولده اسماعيل.

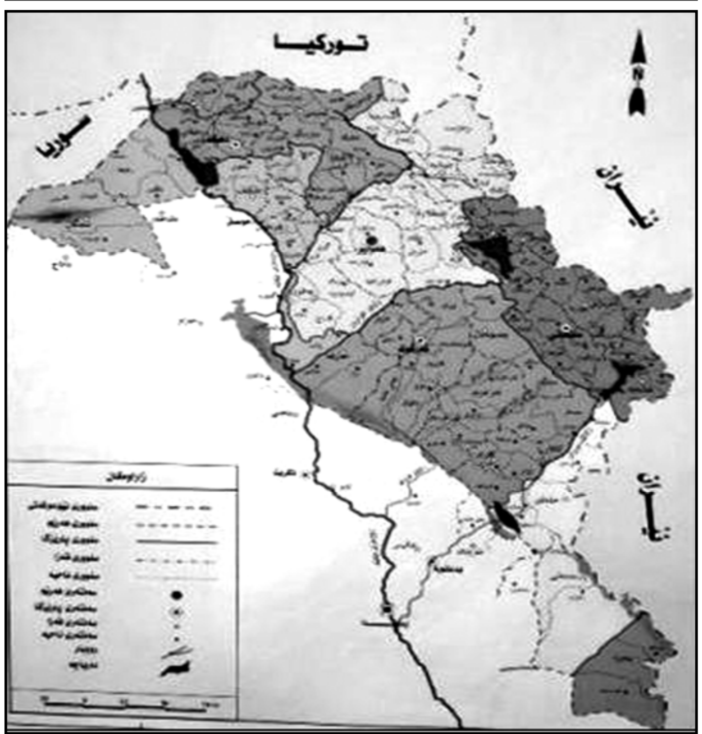
ـ إنهم يعتمدون التقويم الشمسي الشرقي الذي كان يعتمده من قبلهم أهل النهرين في بابل وآشور.

ـ انهم يمتلكون تنظيماً دينياً هرمياً مثل نظام الكنيسة المسيحية والمانوية وكذلك الشيعة الجعفرية. بالاضافة الى تقديسهم أحفاد عدي والحسن البصري مثلما يقدس الشيعة أحفاد الأمامين علي والحسين.

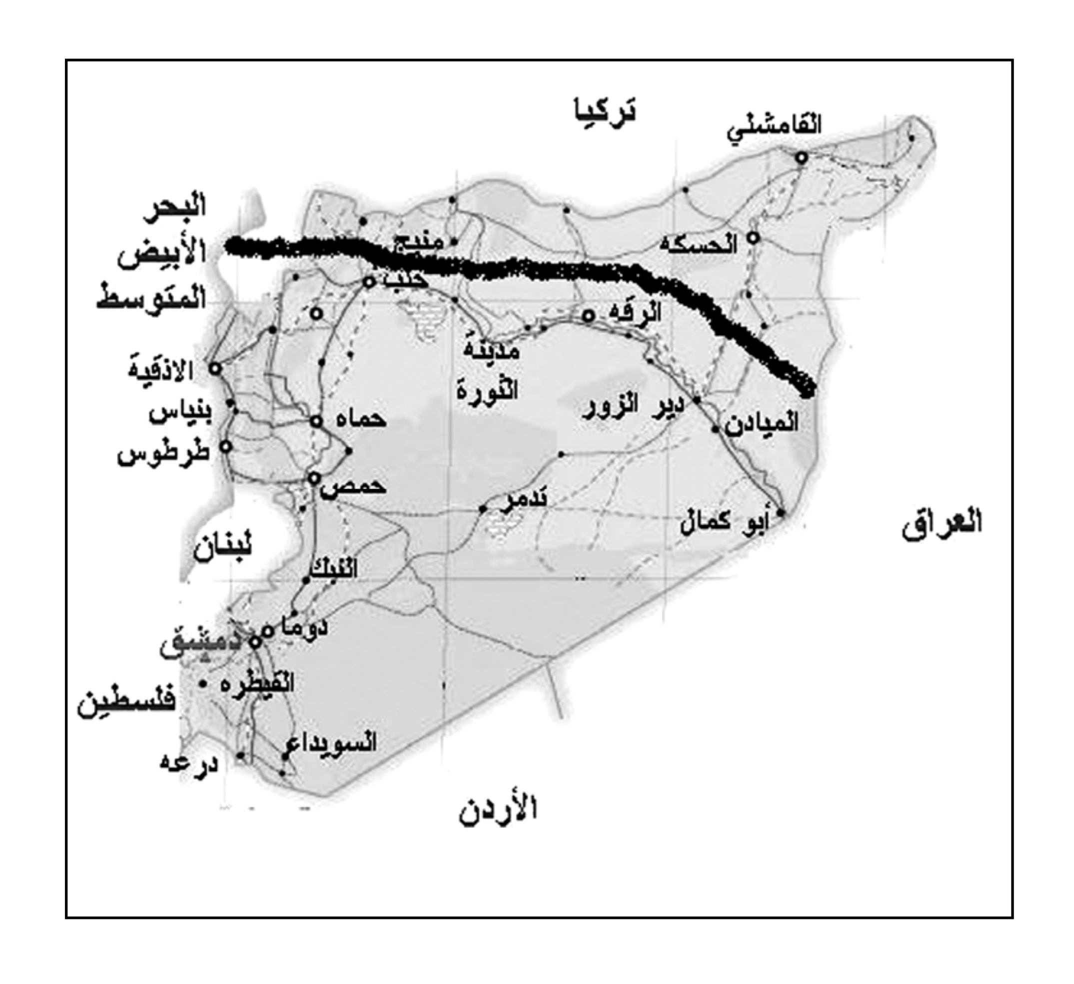


المحافظات الكردية الثلاثة التي تتمتع بالحكم الذاتي..

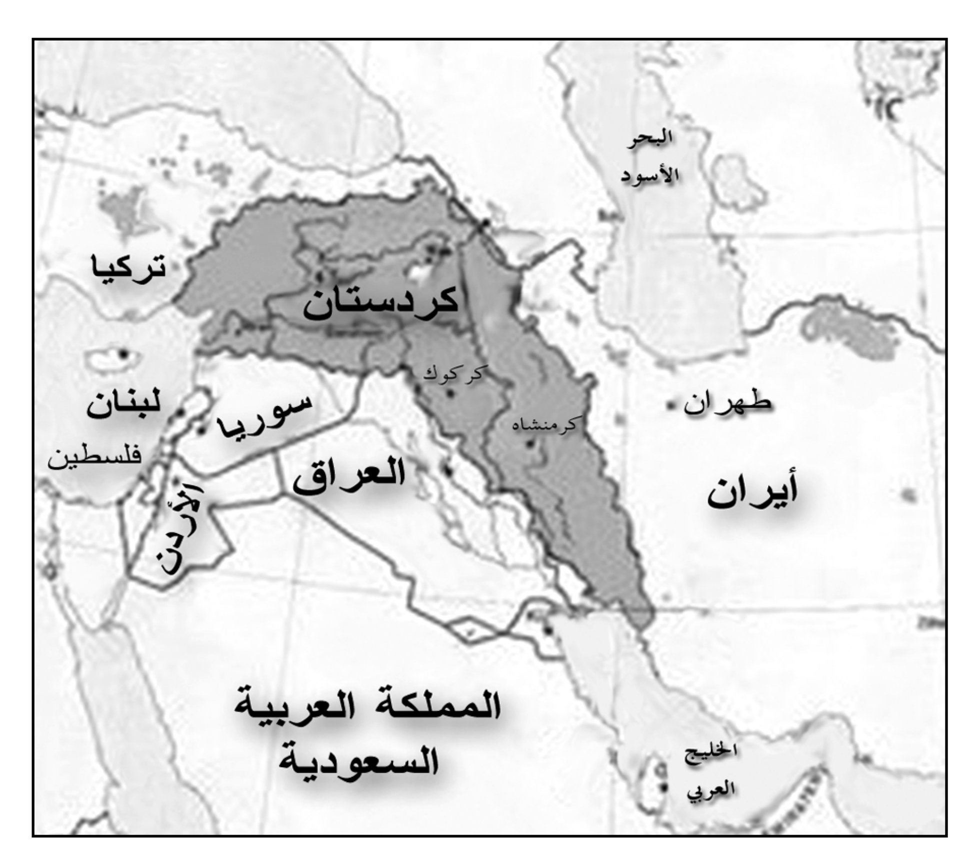




كردستان العراق حسب المشروع القومي العنصري الذي يطالب بكل شمال العراق واجزاء من بغداد وديالى والكوت!



كردستان سوريا ، حسب ادعاءات القوميين العنصريين الذين يطالبون بكل شمال سوريا !



« كردستان الكبرى » والنظرة العنصرية القومية التوسعية

هذه خارطة «كردستان الكبرى» التي تدعي بها الأحزاب الكردية. ويلاحظ أن تصوير هذه الخارطة اعتمد على المبدأ العرقي ـ السكاني القومي على الطريقة الجرمانية : «أينما يوجد من يتكلم جرماني فتلك المنطقة جزءاً من المانيا الكبرى». وعلى هذا الأساس فأن القوميين الأتراك يحلمون ان تشمل حدود تركيا المنطقة الواقعة من حدود الصين حتى يوغسلافيا ، أي أينما وُجد من يتكلم التركستاني !! وعلى هذا الأساس أيضاً تبنى «العروبيون» فكرة «الوطن العربي الكبير» الذي ظل يتوسع على مر السنين بحثاً عن أي منطقة تتكلم أي لغة قريبة من العربي. فأدخلت الى الجامعة العربية بلدان افريقية تجهل العربي مثل (جيبوتي والصومال) لأن لغاتها فيها أصول عربية ! وجرت محاولات ليبية لضم (مالطا) التي تتحدث لغة من أصل فينيقي وعربي.

علماً بأن هذه الخارطة لـ «كردستان الكبرى» تحتقر تماماً الحقوق التاريخية لشعوب مضطهدة عديدة : الأرمن والسريان في تركيا والعراق. وكذلك الآذربيجان واللور في ايران .

لاحظ ان خارطة «كردستان الكبرى» تدعي بكل شمال العراق بالاضافة الى أجزاء من الوسط مثل خانقين وديالي ، أما سوريا فأن كل شمالها بالاضافة الى منطقة الاسكندرونة السورية المحتلة من قبل تركيا. والطريف ان الخارطة هذه ذات أحلام استراتيجية كبرى وعالمية من حيث أنها تشمل منابع النفط الأساسية في العراق وكذلك في ايران وتركيا. ثم انها الخارطة الوحيدة التي تمتد من الخليج في الجنوب حتى البحر المتوسط في الشمال !!

قضية كردستان الكبرى

جميع الذين تطرقوا الى القضية الكردية حتى من الكتاب والسياسيين العراقيين والعرب تعاملوا مع هذه القضية بمنطق الدفاع عن شعب مظلوم ومجزأ له الحق في تقرير مصيره وبناء أمته. ليس هناك أي إعتراض على هذا المنطق، بل ينبغي التأكيد هنا على الدعوة للتضامن مع قضية هذا الشعب الجار والشقيق التاريخي للشعب العراقي وشعوب منطقة المشرق. ولكن في زخم هذا التضامن قد تم التغاضي عن حقوق عدة شعوب متميزة مقيمة في هذه الأرض منذ فجر التاريخ وتعرضت لمذابح وإضطهادات لا تقل بل تزيد عما تعرض له الشعب الكردي، أي الأرمن في أرمينيا، ثم السريان في شمال النهرين الذين تعرضوا لعمليات تصفية بدنية وقومية خلال القرون الأخيرة. بالاضافة الى الشعوب الأخرى التي تم «تكريد» الكثير من مناطقها في إيران مثل اللور وبختيار وأذربيجان.

قبل الحديث عن الطموحات القومية الكردية «المتطرفة»، فأنه من الواجب «الضميري» التذكير أولاً بمعاناة الأكراد والحروب والمذابح التي شنت ضدهم من قبل الحكومات المسيطرة.

بالنسبة للعراق مثلاً، فأنه من أكبر الأخطاء «التعصبية» التي مارستها الحكومات والنخب السياسية العراقية تتمثل بالفكرة التالية: أن الوطن العراقي هو جزء من الوطن العربي، وأن الشعب العراقي هو جزء من «الشعب» العربي، إذن فأن العراق يشترط وجود العنصر العربي، وأية منطقة ليست فيها أغلبية عربية هي بالضرورة ليست عراقية بشكل تام!! وعلى أساس هذا المفهوم «القومي المتعصب» قامت الحكومات العراقية بتطبيق سياسة «تغريب» الأكراد ومحاربتهم في وطنيتهم العراقية ومحاولة «تعريب» مناطقهم أو تهجيرهم وجلب السكان العرب محلهم. وهذا الموقف الضيق أدى كذلك إلى إهمال قضية السريان وعدم إدراك حقهم التاريخي بمناطقهم والاعتراف بدورهم في تشكيل «الهوية الرافدية» التاريخية، بل ان الحكومات العراقية ساهمت بقصد وبغير قصد في تهجير الكثير من السريان من قراهم ومدنهم في الموصل واربيل ودهوك نحو بغداد أو خارج العراق، ثم بالتالي تشجيع عملية «تكريد» هذه المناطق. في هذا الفهم القومي الضيق يكمن سر المشكلة الكردية ثم السريانية. الأنكى من هذا أن هذا الفهم القومي الضيق أرتبط كذلك بالشعور الديني والطائفي «السني». أن المفارقة التي ظلت تعيشها الدولة العراقية أنها من ناحية تعادي الأكراد قومياً، ولكنها بنفس الوقت تتحالف معهم طائفياً

أمام «خطر» الأغلبية الشيعية العربية، وتفعل العكس كذلك مع «الشيعة». هذه هي معضلة «الهوية الوطنية العراقية» بأكملها والسبب الأول في الأزمة الدائمة للدولة العراقية منذ تكوينها عام 1921 وحتى الآن. بصورة مختصرة: أنه غياب الدولة الممثلة لهوية عراقية رافدية واضحة وأصلية تصهر في داخلها جميع التنوعات الدينية والطائفية واللغوية. هذا الفهم « الوطني العراقي» هو وحده الكفيل بجعل الانتماء الى «الهوية المشرقية» ثم «الهوية العربية» أمراً طبيعياً وإيجابياً. نفس الوضعية طبعاً تعاني منها أيضاً بلدان الشام وبالذات سوريا رغم اختلاف حدة المشكلة.

هذا التمزق في الهوية العراقية برر للحركات الكردية أن تتطرف أيضاً بحساسيتها القومية وتتمادى بطموحاتها عن «كردستان الكبرى». مشكلة الحركات الكردية أنها اعتبرت حدود كردستان تشمل جميع المناطق التي يسكنها حالياً أكراد، أي انها اعتمدت فقط على الحق السكاني «الديموغرافي» متناسية دور الحق التاريخي ـ الجغرافي في تحديد الانتماء الوطني لأية بقعة أرض.

من أول الأمور التي تم تناسيها أن جزءاً كبيراً من الأراضي التي يقطنها الأكراد حالياً في منطقة الجزيرة في العراق وسوريا وتركيا هي منذ فجر التاريخ وحتى وقت قريب كانت أراضي تقطنها شعوب غير كردية وبالذات السريان الذين لا زال أحفادهم يعيشون مشردين حتى الآن وهم مثل الأكراد يتشوقون الى الكرامة الوطنية وحلم الاستقرار في بلاد تعترف بحقوقهم الانسانية والثقافية والسياسية. ان خارطة «كردستان الكبرى» التي تطالب بها الحركات الكردية تضم الكثير من المناطق التي هي تاريخياً وحتى بدايات القرن الحالي مقطونة بأغلبية سريانية وعربية تشكل حضارياً وتاريخياً وعرقياً القسم الشمالي من بلاد النهرين بجزئيه العراقي والسوري بالاضافة الى الجزء الذي اقتطعته تركيا.

بالنسبة لكردستان العراق مثلاً، فإن الحركات الكردية لم تكتف ولا زالت تصر على المطالبة ببعض المناطق التي لم تدخل في منطقة الحكم الذاتي الكردية، وهي مناطق كركوك وسنجار وخانقين، بل هم في الحقيقة يطالبون بكل شمال العراق من خانقين وتكريت حتى سنجار. الغريب ان الحركات الكردية تعتمد في مطالبتها هذه على حقيقة أن العراق في زمن العثمانيين كان مقسم الى ثلاث ولايات: ولاية البصرة في الجنوب، ولاية بغداد في الوسط، ولاية الموصل في الشمال، وجميع هذه الولايات يحكمها والي بغداد. بما أن منطقة كردستان

العراق (السليمانية والمناطق الجبلية من أربيل ودهوك) كانت تابعة الى ولاية الموصل، اذن هذه الولاية بأجمعها صارت هي كردستان، أي كل الجزء الشمالي من العراق!

المشكلة لا تكمن في الاعتراف بحق الأكراد بالسكن في أي جزء من أرض العراق وهذا حق وطني وانساني مشروع، بل المشكلة أساساً تتمثل في الطموحات الاستقلالية ومبدأ «حق تقرير المصير للشعب الكردي» الذي تبنته معظم الحركات السياسية العراقية والكردية. ان حق «تقرير المصير» لا يمنح عادة على أساس الوجود السكاني «الديمغرافي» انما على أساس «الحق الجغرافي التاريخي». بمعنى أوضح أن تقرير المصير لا يمنح فقط للسكان المتميزين ثقافياً أو دينياً، لأن هذا يعني أنه يجب أن يمنح كذلك الى كل الجماعات العراقية المتميزة دينياً أو لغوياً: التركمان والسريان والصابئة واليزيديين، ولم لا كذلك الشيعة والسنة!!

ان «حق تقرير المصير» لا يعتمد فقط على التمايز الديني واللغوي، إنما يعتمد قبل كل شيء على التمايز التاريخي الجغرافي، ينبغي أولاً وقبل كل شيء تحديد ماهية حدود «كردستان» المتميزة تاريخياً وجغرافياً عن جغرافية وتاريخ بلاد النهرين.

أن منطقة الحكم الذاتي الكردية تتكون من ثلاثة محافظات: السليمانية وأربيل ودهوك. ليس هناك اعتراض على جعل هذه المحافظات جزءاً من كردستان ما دامت كردستان هذه جزءاً من العراق، لكن عندما يتحدث الأكراد عن تقرير المصير ويساجلون بحلم الاستقلال والانفصال وتكوين كردستان الكبرى، فان هناك اعتراضاً مهماً يفرض نفسه:

ان منطقة الحكم الذاتي الحالية تضم مناطق «كردية» عراقية هي جزء من جغرافيا وتاريخ العراق منذ القدم ولا يمكن أن تمتلك أي حق بالانفصال وتقرير المصير. بصورة أوضح، أنه فقط المناطق الجبلية الكردية الطبيعية والتاريخية هي جزء من كردستان ولها الحق بتقرير المصير والانفصال. أما المناطق العراقية الأصلية والتي يقطنها أكراد هي ليست جزءاً من كردستان وبالتالي هي مثل جميع المناطق العراقية الأصلية ولا تمتلك أي حق بتقرير المصير والانفصال عن الوطن الأصلي. لو أردنا حقاً الاعتراف بوجود «كردستان» مضمومة الى العراق فانها بالحقيقة في أقصى الأحوال تشمل «معظم» منطقة الحكم الذاتي الحالية، نقول معظمها وليس كلها. أي بصورة أوضح أن «كردستان التاريخية» التي تمتلك حق تقرير المصير هي المناطق والمدن الجبلية في الشريط المكون من السلاسل الجبلية للسليمانية واربيل ودهوك وهي عموم «منطقة شهرزور» التاريخية المقسمة حالياً بين العراق وإيران. أما مناطق دربندخان ومدينة اربيل

ومخمور وزاخو، فانها مناطق عراقية أصلية وجزء جغرافي وتاريخي من بلاد النهرين وليس لها أية علاقة بكردستان الأصلية.

هذا الموقف لا يعني أبداً معاداة حقوق الأكراد، بل هو بالحقيقة توضيح وتمييز بين حق «كردستان» وحق «الأكراد». ان الحركات الكردية هي نفسها صاحبة هذه الفكرة: الكردستاني هو الانسان القاطن في كردستان، وربما يكون كردياً أو سريانياً أو تركمانياً أو يزيدياً أو حتى عربياً. كردستان وطن جميع أبنائها بمختلف تنوعاتهم الدينية واللغوية. هذا يعني أنه ليس جميع الكردستانيين هم أكراد، ولاجميع الأكراد هم كردستانيون. الكردي القاطن في الموصل أو خانقين أو البصرة هو عراقي مثل أي عراقي وله الحق بالتمتع بجميع ميزاته الثقافية الخاصة به مثل جميع أبناء الفئات الدينية واللغوية العراقية.

هذه المسألة تقود الى نتيجة مهمة جداً :

أن هناك فرقاً كبيراً بين المناطق الكردستانية والمناطق الكردية. أي هناك فرق مثلاً بين مدينة السليمانية التي هي جزء من جغرافيا وتاريخ كردستان، ومدينة خانقين أو كركوك وأربيل التي يقطنها أكراد ولكنها جزء من جغرافية العراق وتاريخ النهرين. أن المعيار الذي طالما طالبت به الحركات الكردستانية هو نسبة السكان الأكراد القاطنين في المنطقة، هو معيار خاطىء وغير مقبول وطنياً ودولياً. لأن الانتماء الوطني لمنطقة ما لا تحدده فقط نسبة السكان إنما أساساً الانتماء التاريخي والجغرافي. نضرب أمثلة عديدة على هذه الحالة:

- الناظر الى أية خارطة عالمية عن انتشار الأجناس واللغات يلاحظ أن معظم الساحل الشرقي الايراني للخليج تقطنه قبائل عربية وتسوده اللغة العربية من حدود العراق الجنوبية حتى بلوشستان وحدود باكستان، بل ان القبائل العربية تشكل جزءاً مهماً من التكوين العرقي لسكان بلوشستان الايرانية. ولكن مع هذا لم يفكر أحد من العراقيين أو العرب باعتبار الساحل الايراني جزءاً من العراق أو البلاد العربية، وأقصى ما تم في هذا المجال ان دولة البحرين تمنح بعض التسهيلات بالاقامة لسكان بلوشستان من أصل عربي.
- رغم الاتفاق على أن إيران دولة فارسية فان الناطقين بالفارسية كلغة أم لا يبلغون حتى 50٪، وهناك جزء كبير من الشعب الايراني ينطق بلغات تركستانية وخصوصاً في أذربيجان (مقارنة بحالة العراق، فانه أكثر من 75٪ يتكلمون العربية كلغة أم)! لكن جميع هذه الشعوب تعتبر إيرانية وتنطق بالفارسية في حياتها اليومية على اعتبار أن القبائل التركمانية

والأذربيجانية نزحت الى إيران بين القرن العاشر والسابع عشر، وبالتالي أصبحت جزءاً من الأمة الايرانية. بل أن جميع الدول التي حكمت ايران وأعادت مجد الحضارة الفارسية خلال عدة قرون أقامتها عناصر تركستانية: السامانيون والطاهريون والصفويون والقاجاريون، ولم يتزعم الفرس السلطة إلا في القرن الحالي مع «رضا شاه».

- ان هناك الكثير من مناطق الجمهوريات السوفياتية السابقة مثل كازاخستان وطاجكستان تقطنها أغلبية روسية، ولكن أحداً لم يفكر أن يجري استفتاءاً للمطالبة بالانضمام الى روسيا، لأن هذه المناطق هي جزء من تاريخ وجغرافيا هذه الأوطان رغم التغيرات السكانية التي جرت عليها.
- لنفترض مثلاً أن فرنسا استمرت باستعمارها للجزائر وعموم المغرب، لكان من اليقين أن تصبح بعض مدن فرنسا مثل «مرسيليا» بأغلبية مغاربية، فهل من المعقول أن يفكر أحد باجراء استفتاء يضم هذه المناطق الى بلدان المغرب!.

من كل هذا يمكن استخلاص النتائج التالية:

- ان الأكراد الذين يقطنون في مناطق عراقية أصلية هم مواطنون عراقيون مثل جميع أبناء العراق ولهم جميع الحقوق بما فيها حق المشاركة بقيادة الدولة العراقية وجميع الأجهزة الادارية وكذلك حق الاحتفاظ بخصوصيتهم الثقافية واللغوية. ليس من حق القوميين والانفصاليين الادعاء بعدم عراقية هؤلاء الأكراد وإجبارهم على الانتماء لشعار كردستان الكبرى.
- ان هؤلاء الأكراد العراقيين يشتركون مع باقي الفئات العراقية بالانتماء الى «الهوية العراقية الرافدية »ثم «الهوية المشرقية». لأنهم رغم تمايزهم اللغوي، الا أنهم تأريخياً وجغرافياً هم ورثة الحضارة الرافدية والمشرقية السامية بكل تنوعاتها الثقافية والدينية والعرقية. بمعنى أوضح أن الميراث «الايراني والميدي» الذي ينتمي اليه أبناء كردستان الأصلية. هو ميراث ثانوي وغير وطني بالنسبة للأكراد العراقيين.
- بالنسبة لكردستان الحقيقية المضمومة للعراق (المناطق الجبلية للسليمانية وأربيل ودهوك) فانه من مصلحة الشعب العراقي دعم كل الميول الفيدرالية وحتى الانفصالية لهذا الجزء لأنه سيجنب العراق حمل دموي ثقيل ويحل المشكلة الكردية المسببة للخراب الدائم لشعب كردستان ولشعب العراق.

السريان وتكريد مناطقهم

ان قضية السريان مرتبطة الى حد كبير بالقضية الكردية بسبب التداخل الجغرافي والتاريخي بين مناطق تواجد السريان وتواجد الأكراد، أي ذلك التداخل بين منطقة شمال النهرين ومنطقة كردستان. هذا التداخل يفرض تحليل ومناقشة هاتين القضيتين بآن واحد. مع ادراكنا لصعوبة مثل هذه العملية.

من أجل أن لا نهضم حق هاتين المجموعتين المتمايزتين اللتين عانتا الاضطهاد والتشرد منذ القدم وحتى الآن، يتوجب تفصيل بعض الجوانب التاريخية المتعلقة بهذه المسألة الحساسة.

من هم السريان ..

الحديث عن السريان يرتبط بالحديث عن تاريخ منطقة الهلال الخصيب التي تمتد من خليج البصرة حتى غزة عند حدود سيناء.

منذ الألف الأول قبل الميلاد بدأت تسود المنطقة لهجة سامية جديدة سميت بـِ «الآرامية» نسبة الى قبائل شمال النهرين القاطنة في المناطق المرتفعة. يُعتقد أن إسم «الآراميين» هذا مشتق من «اور رمثا» أي الأرض المرتفعة. مثلما أطلق على سكان الصحراء وبادية الشام اسم «عرب» أي سكان «عرباً أو غرباً» وهي الصحراء التي تقع «غرب» الفرات ومنطقة «غروب» الشمس لسكان النهرين.

مثلت اللغة الآرامية خلاصة تمازج اللغتين العراقية والشامية أي الأموية (البابلية ــ الآشورية) والكنعانية، لهذا فأنها تمكنت ان تسود «المشرق» وأصبحت لغة الثقافة الأولى، وصار جميع سكان المنطقة يتسمون بالآراميين (مثلما فعلت اللغة العربية فيما بعد بتمثلها جميع اللغات والحضارات السامية السابقة وصار جميع الناطقين بها يتسمون عرباً). لقد فرضت اللغة الآرامية ثقافتها وأبجديتها الكنعانية «الفينيقية» حتى على الامبراطوريات الايرانية والاغريقية التي بدأت تنبثق بعد القرن الخامس قبل الميلاد. ثم انها كانت لغة السيد المسيح والمسيحيين الأوائل، علماً أن اللغة العبرية تعتبر بالحقيقة لهجة آرامية ـ كنعانية.

بعد القرن الأول الميلادي تحولت منطقة الرها ونصيبين في شمال النهرين (خاضعة حالياً لتركيا) الى مركز ثقافي وروحي لنشر المسيحية. يبدو أن لهجة هذه المنطقة الآرامية تمكنت من فرض نفسها على اللغة الأم (مثلما تمكنت فيما بعد لهجة قريش ان تصبح هي اللغة العربية

الفصحى بفضل القرآن والاسلام). إذن تمكنت لهجة الرها ونصيبين هذه من فرض نفسها وصارت تعرف بـِ «اللغة السريانية». أن هذه التسمية اشتقت من «آشوريا» نسبة الى الدولة الآشورية التي كانت سائدة سابقاً في المنطقة. وعندما أتى الاغريق أطلقوا على هذه اللغة تسمية «سريانيا» وكذلك أطلقوا على جميع منطقة المشرق تسمية «سوريا»، بما فيها القسم الشرقي منها الذي سمي أيضاً بـِ «ميزوبوتاميا ـ بين النهرين أو النهرين» علماً أن دولة الآشوريين قد سقطت عام 612 ق. م وكانت عاصمتهم نينوى (شمال النهرين)، وهم مزيج من القبائل العراقية القاطنة منذ القدم في المنطقة، وتسموا بالآشوريين نسبة الى مدينتهم المقدسة «آشور» مقر «إله الثور المجنح» رمز القوة والخصب، وعاصمتهم «نينوى» وهي «الموصل» الحالية.

ان هذه اللغة السريانية قد حلت محل الآرامية وصارت اللغة الفصحى لجميع الكنائس المسيحية والمانوية البابلية في جميع منطقة المشرق من خليج البصرة حتى سيناء. بل ان هذه اللغة كانت أيضاً لغة القبائل العربية التي إعتنقت المسيحية واستقرت في «الحيرة ــ أي الحارة» قرب الكوفة. وفي الحضر وبصرى وتدمر، ثم أنها كانت لغة كنيسة نجران في جنوب الجزيرة العربية، وكذلك انتشرت في منطقة الخليج المعروفة بـِ «البحرين» و «قطرايا» أي قطر الحالية. وتمكنت هذه اللغة أن تصبح لغة الثقافة الأولى في الامبراطورية الايرانية الساسانية ومنحت ابجديتها الى اللغة البهلوية الايرانية. ان الثقافة السريانية انتشرت مع النسطورية والمانوية البابلية في الكثير من مناطق آسيا حتى حدود الصين، ولا زالت حتى الآن بقايا الطائفة النسطورية في الهند، ولا زال مسيحيو الصين محتفظين بوثائقهم الدينية السريانية. لقد اشتق التركمان كتابتهم الأولى «الأغورية» من السريانية بفضل المبشرين المسيحيين والمانويين، ويعتقد أن السبب الأول لتعلق القبائل التركمانية و (المغولية) بالقدوم الى منطقة المشرق وأرض النهرين يرجع الى علاقتهم القديمة وتأثرهم بالثقافة السريانية «النسطورية والمانوية». وهذا أيضاً يفسر (سهولة انتشار الاسلام فيما بعد بين تلك الشعوب).

بعد الفتح العربي الاسلامي أخذ السكان السريان يتخلون بالتدريج عن مسيحيتهم ويعتنقون الاسلام ويمتزجون بالقبائل العربية الفاتحة ويحملون أسماءها ويتبنون لغتها، خصوصاً أن القرابة العرقية بين العرب والسريان لعبت دوراً أساسياً في تسهيل هذه العملية. وكانت عملية الأسلمة والتعريب تحدث أولاً في المدن والحواضر بينما بقيت الكثير من أرياف العراق والشام على «نبطيتها» حتى العصر العثماني. وشكلت المناطق المرتفعة وشبه الجبلية مانعاً طبيعياً امام الاسلام والتعريب، فتحولت هذه الموانع الى ملجأ للسريان والجماعات

العربية المسيحية والشيعية والخارجية المتمردة على مراكز الخلافة في دمشق وبغداد: جبال لبنان والعلوية والدرزية وغيرها، لكن اكثر المناطق التي تمكن فيها السريان من الحفاظ على مسيحيتهم هي منطقة «شمال النهرين ـ أي الجزيرة» بسبب طبيعتها شبه الجبلية ومحاذاتها للمناطق الجبلية من كردستان وأرمينيا وطوروس «الأناضول». رغم انتشار العربية فان السريانية بقيت نشيطة في المشرق حتى القرن الثالث عشر. وازدهرت خصوصاً في العصر العباسي، لكن شعلتها بدأت تنطفىء بعد الغزو المغولي للعراق والمشرق وسقوط بغداد، ثم قضي عليها تقريباً في الفترة العثمانية، رغم بقائها حية في بعض كنائس المشرق وكذلك في الكثير من مناطق النهرين وبلدان الشام. بدأت نهضة جديدة للثقافة السريانية في أواخر القرن الماضي، ومن معالمها صدور الصحف الناطقة بالسريانية والعربية، وبواكيرها الأولى صحيفة «مرشد الآشوريين» وصدرت في الجزيرة عام 1908، ثم صحيفة «كوكب الشرق» عام 1910 في ديار بكر للمناضل المعروف «نعوم فائق». ولا زال الاهتمام بهذه اللغة ينمو ويجذب الكثير من المؤسسات الرسمية والعلمية العربية والأجنبية.

تكريد مناطق السريان

ان بقاء سريان منطقة الجزيرة على مسيحيتهم جعلهم عرضة سهلة لاكتساحات القبائل التركية والكردية المنحدرة من آسيا ومن الجبال المجاورة. ثم ان العامل المهم الذي شجع على التوسع التركي والكردي في منطقة الجزيرة هو ضعف العنصر السامي ـ العربي في القرون الأخيرة. بعد الاجتياح المغولي ـ التركي للمنطقة وسقوط بغداد والخلافة العباسية وفقدان العرب للقيادة السياسية فان القبائل العربية البدوية والعناصر العربية المستقرة قد فقدت عنفوانها التاريخي التوسعي السابق. ثم ان نشوء المدن والحواضر والمراكز العسكرية العثمانية في العراق والشام قد لعبت دوراً في عزل منطقة الجزيرة عن بادية الشام وجزيرة العرب وإيقاف الموجات القبائلية العربية. هذا الأمر أدى الى ضعف المجاميع السريانية والعربية المستقرة في الجزيرة. ثم الى غلبة المجاميع الكردية والتركية، وبالتالي «تكريد» و «تتريك» الكثير من المجاميع العربية والسريانية المستقرة سابقاً.

قبل الحديث عن المذابح وعمليات الاضطهاد التي قام بها «الأغاوات ـ الشيوخ» الأكراد ضد السريان، يجب التأكيد قبل كل شيء أن هذه المذابح لم يقم بها الشعب الكردي الذي

يشهد له التاريخ بدور كبير في حماية المسيحيين والتجاور معهم وحتى استقبالهم وحمايتهم في مناطق كردية مثل جبال حكاري وشهرزور وغيرها. ان هذه المذابح قام بها الشيوخ الأكراد المدفوعين من قبل السلطات العسكرية العثمانية ولأسباب سياسية وتعصبية بحجة تعامل المسيحيين الأرمن والسريان مع الدولة الروسية والعملاء الانكليز. بل انه حتى البعثات التبشيرية المسيحية الغربية كانت تلعب دوراً بدفع بعض الأغوات الأكراد لاضطهاد النساطرة واليزيديين لاجبارهم على اعتناق الكاثوليكية. ويمكن كذلك ذكر دور الحركة الصهيونية والقوى الغربية التي جهدت على تشجيع عملية التفتت القومي والطائفي للمنطقة من أجل التمهيد للمشاريع الاستعمارية والصهيونية المعروفة.

لقد اعتمدت الدولة العثمانية كثيراً على المحاربين والأغوات الأكراد من أجل حماية شرق الأناضول ومنطقة الجزيرة من الخطرين الايراني والروسي، لقد كون السلطان عبد الحميد في أواخر القرن التاسع عشر فرقاً حربية شبيهة بفرق القوزاق الروسية، وتتكون هذه الفرق العثمانية أساساً من الأكراد وسميت بالفرق «الحميدية». لقد قامت هذه الفرق ومعها الأغوات بدور كبير في طرد السريان من مناطقهم في الجزيرة (كذلك الأرمن في ارمينيا) وارتكاب مذابح كثيرة معروفة ضدهم وإجبارهم على الرحيل أو التحول الى مسلمين اكراد. لقد عانى سريان شمال النهرين من سبع مذابح كبرى خلال العصر العثماني وحتى الحرب العالمية الأولى. مثلاً، بين عامي 1843 ـ 1847 قام الأمير الكردي بدر خان بأبادة ما يقرب 10 آلاف من سريان منطقة حكاري الكردية، والباقون اضطروا للهرب أو اعتناق الاسلام. زمن السلطان عبد الحميد 1895 جرت مذابح ضد الأرمن وكذلك السريان كلفتهم ما يقرب 5 آلاف قتيل في ماردين والرها وتشريد آلاف العوائل. في عام 1909 بدفع من حركة تركيا الفتاة جرت مذابح ضد السريان في ادنا (شمال سوريا) كلفت اكثر من 800 قتيل وآلاف المشردين. أما أعنف المذابح وأقساها فهي مذبحة (1914 ـ 1919) التي ذهب ضحيتها أكثر من (300) الف سرياني وتشريد اكثر من (100) الف من مناطقهم، حسب الوثيقة التي وجهتها اللجنة الوطنية الآشورية لعصبة الأمم المتحدة عام 1919، وشملت هذه المذابح أيضاً ما يقرب المليوني أرمني. بين عامي 24 ـ 1926 تم طرد جميع سريان طور عابدين وماردين الى سوريا والعراق.

يمكن ايراد مثل واحد على مدى قوة عملية «التكريد» التي حصلت في المنطقة: مدينة «ديار بكر، شمال الجزيرة» التي تعتبر ضمن كردستان تركيا وهي مدينة كردية خالصة حالياً.

كانت حتى أواخر القرن الماضي تتكون من (35) ألف نسمة منهم (4130) كردياً فقط مع أكثر من (13) الف سرياني. (حسب دائرة المعارف الاسلامية). علماً أن هذه المذابح وعمليات «التكريد» ظلت مستمرة حتى من قبل الحكومات العراقية التي شجعت على تهجير الكثير من سكان القرى والمناطق السريانية الى الموصل وبغداد والخارج. ولا زالت حتى الآن تمارس عملية «التكريد» هذه في شمال العراق مع السلطة الكردية الحالية، وكذلك اعتداءات حزب العمال الكردستاني على بقايا السريان في «الجزيرة » جنوب تركيا.

الوضع الراهن للسريان

ان تحديد الموقف بوضوح ازاء القضية الكردية يتطلب كذلك الفهم الواضح للمسألة السريانية. أن الحركات السياسية المدافعة عن حقوق الجماعات السريانية تعاني من مشكلة تبدو ثانوية ولكنها في الممارسة معقدة وتثير بعض الاشكالات والحساسيات بين مختلف الاتجاهات السياسية والفكرية، ونعني بهذا مشكلة التسمية الموحدة. المطلع على أدبيات هذه الحركات يكتشف مدى عمق هذه المشكلة، فالبعض يقول «السريان» والبعض الآخر يقول «آشوريون» وآخرون يقولون «آثوريون» وهناك من يقول «الكلدان»، ثم يحاول البعض الأكثر واقعية استخدام تسمية «الكلدو ــ آثوريون» والحقيقة ان هذه التسميات المختلفة تأتيه من أسباب تاريخية أخذت شكل الانقسام الطائفي. منذ القرن الخامس الميلادي اثر مجمع أفسس المسيحي سنة 431 م انقسم سكان المشرق المسيحيين السريان الى طائفتين:

ـ أتباع كنيسة الشرق «النهرين» ومقرهم في «طيسفون ــ سلمان باك» أي كنيسة بابل، وتسموا بالنساطرة نسبة الى القديس نسطور السرياني.

ـ أتباع كنيسة الغرب «سوريا» وهم الأرثوذكس وتسمو بـ «اليعاقبة» نسبة الى «يعقوب البرادعي» السرياني ومقرهم في إنطاكيا وانتشر مذهبهم في عموم سوريا وكذلك في مصر أي الكنيسة القبطية.

بالاضافة الى الكنيسة «الملكية» وكذلك الكنيسة «المارونية».

وهذه الكنائس عموماً انتشرت كذلك بين القبائل العربية وأمتزج خلالها السريان بالعرب، وتبنت بمعظمها اللغة العربية في طقوسها الدينية.

ظلت المنافسة خصوصاً بين الطائفتين النسطورية واليعاقبية طيلة قرون، ثم أضيفت لها تعقيدات جديدة بعد القرن الخامس عشر مع نشاطات البعثات التبشيرية الغربية حيث تحول الكثير من النساطرة الى «كاثوليك» وتسموا بـ «الكنيسة الكلدانية» وبعضهم حمل اسم «الكنيسة السريانية». أما الذين بقوا على نسطوريتهم فاطلق عليهم «الآثوريين».

إذن فان التسميات التاريخية القديمة حملت معنىً طائفياً جعل من الصعب تجاوزها نحو تسمية موحدة بسبب العقبة الطائفية. هناك ميل قوي لدى بعض النخب والحركات السياسية لاستعمال تسمية «آشوريين»، لكن هذه التسمية تتعارض مع تسمية «كلدان وسريان». رغم هذه الفروق في التسميات والفروق بين الطوائف فان هناك عنصراً أساسياً يوحد كل هذه الجماعات: أنهم رغم تبنيهم للعربية في الكثير من نشاطاتهم، فانهم جميعاً يعتبرون اللغة السريانية لغة كنسية مقدسة ويتحدثون بلهجات مختلفة بقربها وبعدها عن السريانية الفصحى. وهذا الانتماء الى الثقافة السريانية يخلق لدى الكثير من النُخب والجماعات شعوراً بالانتماء المشترك لتاريخ بلاد النهرين وسوريا، أي الانتماء لعموم بلاد المشرق وحضاراتها السومرية البابلية الآشورية الكنعانية والآرامية. خلاصة القول ان إطلاق تسمية «السريان» تبدو الأكثر معقولية رغم نواقصها، أن هؤلاء السريان بجميع تنوعات مسمياتهم يشكلون جزءاً متميزاً من الشعبين العراقي والسوري، بل يصح القول أن «السريان» هم أسلاف شعوب «منطقة المشرق» ومثلهم الأقباط هم أسلاف الشعب المصري، والبربر هم أسلاف شعوب المغرب والنوبيون هم أسلاف الشعب السوداني، وكل هذه الانتماءات المتنوعة تجتمع في الانتماء الى عالم عربي كبير وثقافة وتاريخ شرقمتوسطي مشترك.

نتيجة الأوضاع السياسية المعقدة وعمليات الاضطهاد القومي والديني التي تعرض لها سريان منطقة الجزيرة فان الكثير منهم هجروا قراهم ومدنهم بحثاً عن مناطق آمنة. وحسب الاحصائيات المتوفرة فان السريان بجميع طوائفهم وتسمياتهم الكلدانية والآثورية وغيرها. يتوزعون حالياً حسب التالي :

ـ العراق : مليون ونصف المليون، نصفهم في بغداد والباقون في الموصل وأربيل ودهوك وكركوك والبصرة.

ـ سوريا : ربع مليون، أغلبهم في منطقة الجزيرة وحلب بالاضافة الى دمشق.

ـ لبنان : عشرون ألفاً أغلبهم في بيروت.

ـ تركيا : عشرة آلاف اغلبهم في إسطنبول.

ـ أكثر من مليون منتشرين في جميع بقاع العالم، أوربا الغربية والقارة الأمريكية واستراليا وإيران وروسيا.

طبعاً هذه الأرقام تقريبية لأنها تعود لأعوام الثمانينات، مع التغيرات المستمرة المتعلقة بالهجرة وتنقل الجاليات وزيادة السكان.

ان معظم السريان في سوريا والعراق تمكنوا من الاندماج في الحياة الاجتماعية والسياسية في البلدين ولعبوا دوراً بارزاً في النشاطات السياسية والثقافية لهذين البلدين ووصل بعضهم الى مراكز قيادية ومميزة. في السنوات الأخيرة برزت بعض المراكز السياسية والثقافية والدينية الخاصة بالسريان، وخصوصاً بين الآثوريين «النساطرة» الذين تعرضوا أكثر من غيرهم للمذابح والتشريد من مناطقهم الأصلية، ومن أبرز هذه الحركات :

ـ نوادي «بيت النهرين» وهي منتديات اجتماعية ثقافية منتشرة بين جميع الجاليات الآثورية (والسريانية) في العالم. وتشرف كذلك على نشر المجلات والكتب باللغة السريانية والعربية.

ـ الكنائس المتنوعة الخاصة بالطوائف السريانية المختلفة، والمنتشرة أيضاً بين الجاليات المهاجرة. وعموماً تتبع هذه الكنائس مراكزها في سوريا والعراق.

ـ الحركات السياسية المطالبة بحقوق السريان، مثل المنظمة الآثورية الديمقراطية التي تأسست عام 1957. والحركة الديمقراطية الآشورية التي تأسست عام 1979 وفازت بالمقاعد الخمسة المخصصة لطوائف السريان في انتخابات كردستان عام 1993.

آفاق التعامل مع حقوق السريان

أن «مسألة حقوق السريان» التي طالما تم تجاهلها من قبل شعوب المنطقة وحركاتها السياسية، تقع أولاً وقبل كل شيء على عاتق الشعبين العراقي والسوري بحكم انتماء السريان التاريخي والسياسي لهذين الشعبين. بالاضافة الى أن هذه القضية تتطلب تفهماً من قبل الحركات القومية الكردية وبعضاً من روح التضامن مع شعب شقيق وجار للشعب الكردي.

ان الحركات والنخب في العراق وسوريا يمكنها أن تتبنى المبادىء التالية في التعامل مع حقوق السريان :

1ــ الاعـتراف بـأن الـسريان بجميـع طـوائفهم الأرثوذكـسية والنـسطورية والكاثوليكيـة والبروتستانتية هم أشقاء وأسلاف للشعبين العراقي والسوري، رغم أنهم جزء متميز دينياً ولغوياً من هذين الشعبين. وهذا يتطلب جهداً خاصاً من أجل كتابة جديدة للتاريخ الرسمي والمدرسي والتربية الوطنية.

2ـ أن يـتم اعتبـار اللغـة الـسريانية لغـة ثانيـة وتاريخيـة في جميـع مـدارس بلـدان المشرق علـى اعتبارهـا الأسـاس الثقـافي والحـضاري الـذي انبثقـت منـه اللغـة العربيـة، وهـذا يـشبه تمامـاً تدريس اللغة اللاتينية في مدارس أوربا على اعتبارها الأساس التـاريخي والحـضاري للغـات الأوربية ـ (راجع القسم الخاص باللغة العربية وأصولها، في هذا الكتاب).

3ـ اعتبـار منـاطق شمـال النهـرين «الجزيـرة» الـتي اقتطعتهـا تركيـا (مـاردين وديـار بكـر والرهـا) بالاضافة الى لواء الاسكندرونة الـسوري، هـي جـزء جغـرافي وتـاريخي مـن العـراق وسـوريا، وأن السريان والعرب القاطنين هذه المناطق هم سكان عراقيـون وسـوريون. يعـني هـذا أن يـتم التثقيف وإشعار الحركات الكردية والحكومة التركية بهذا الموقف. وبالتالي الدفاع عـن الحقـوق الثقافية والتاريخية لهؤلاء الأشقاء. وهذا الموقف يشمل أيـضاً الـسريان القـاطنين في منـاطق غـير رافدية أي تابعة تاريخياً لكردستان العراق وإيران وتركيا (مثلاً في السليمانية والعمادية وأورميـا وحكاري)، وهذا الموقف لا يعني أبداً التدخل بالشؤون الداخلية لهذه البلـدان. إنمـا نوعـاً مـن التضامن مثلما تتعامل جميع الشعوب مع جالياتها المقيمة في أوطان أخرى.

4ـ أن يتم التعامل مع الجاليـات الـسريانية (حتـى مـن ذوي الجنسيات غـير العراقيـة والـسورية) المقيمة في المهجر الأوروبي والأمريكي والاسترالي علـى اعتبارهـا جاليـات عراقيـة سـورية، وأن يتم منح الجنسية لجميع الراغبين، ومـنحهم حـق المـشاركة والتعـبير والاقامـة في العـراق وسوريا مثل جميع المهاجرين من البلدين. (لقد قامت الحكومة الـسورية بخطـوات إيجابيـة في هذا المجال وخصوصاً ناحية الاتصال بهذه الجاليات ودعوتها لزيارة سوريا).

5ـ ان مـنح الجنـسية وحـق العـودة لـسريان البلـدان الأخـرى لا يعـني أبـداً أن يـتم الأمـر علـى حساب الـسكان الـذين توطنـوا في هـذه المنـاطق الـسريانية التاريخيـة، ونعـني بهـذا خـصوصاً المنـاطق والقـرى الـتي يقطـن فيهـا حاليـاً أكـراد في العـراق وسـوريا. بمعنـى أوضـح أن «حـق العودة» لا يعني أبداً «حق الطرد» على الطريقة الصهيونية العنصرية والمعادية للانسانية.

هذه بعض من المبادىء التي يمكن أن يتعمق حولها الحوار بين جميع المهتمين بحقوق السريان وقضية خلق «هوية تاريخية أصلية» تحترم جميع الخصوصيات والتنوعات الدينية والمذهبية واللغوية لبلدان «منطقة المشرق».



نقاش صحفي عن العرب والسريان

يبدو أن موضوع (السريان) والتأكيد على أصالتهم التاريخية وأنهم لعبوا الدور الأساسي في التمهيد للحضارة العربية الاسلامية، مثل هذا الطرح ازعج ولا زال يُزعج الكثير من (القوميين العروبيين) الذين تعودوا ان ينظروا الى تاريخ منطقتنا من منظار (عروبي قح) ونفي تماماً لأصالة شعوبنا واعتبار التاريخ السابق للفتح الاسلامي هو تاريخ غريب لأنه غير عربي.

هنا نقدم الرد الذي نشره الكاتب في جريدة القدس (6 ـ7 ـ 1995) على اعتراضات باحثة (قومية) ازعجتها طروحات الكاتب عن الدور الأساسي للسريان في تاريخ بلدان المشرق :

«مرة أخرى عن السريان والهوية الوطنية

❖ نشرت صحيفة «القدس العربي» في 22 حزيران (يونيو) 1995 رداً من الباحثة العراقية المقيمة في اليونان السيدة سعاد الشيباني، على مقالتنا «عن حقوق السريان» بقسميها الأول والثاني، والمنشورة في 25 و 27 أيار (مايو) 1995.

ان مقالي هذا «عن السريان» رغم قصره فهو حصيلة أعوام من المتابعة والقراءة والحوار وتسجيل الملاحظات وحفظ الوثائق المتعلقة بتاريخ السريان قبل الاسلام وبعد الاسلام ثم في الفترتين العثمانية والحديثة. اكتشفت ان تاريخ السريان «أو الأراميين» قد تم شطبه تماماً من تاريخنا العراقي والمشرقي لأسباب دينية وعروبية يطول الحديث عنها. وقد أدى هذا القصور الى تناسي وضع اشقائنا السريان في القرون العثمانية الأخيرة، وخصوصاً المذابح والتشريد الذي تعرضوا له من قبل العسكر الأتراك والأغوات الأكراد، اننا نقول دون أية مبالغة، ان معاناة السريان تضاهي تقريباً معاناة الشعب الفلسطيني من ناحية طردهم من قراهم ومدنهم والغاء هويتهم واعتبار أراضيهم جزءاً من تركيا ومشروع كردستان الكبرى.

أما بالنسبة للنقطة التي ركزت عليها الباحثة بل كانت هي الموضوع الأساسي للرد وشكلت محوره منذ البداية حتى النهاية : اعتراض الباحثة على قولنا بأن العرب قد اطلقوا

على السريان تسمية «نبط أو أنباط» بعد الفتح العربي للعراق والشام. وقد اسهبت الباحثة باستخدام الاستشهادات والمصادر والشروح لكي تثبت بأن النبط كانوا عرباً وليسوا سرياناً.

مع كل اعتزازي بالجهد العلمي الذي بذلته الباحثة، فاني اقول لها بكل بساطة، للأسف ان جهدها لم يكن ضرورياً ابداً لأنها تحدثت عن مسألة لم أتطرق اليها. والسبب يعود الى «جهل» الباحثة بالحقيقة التالية: ان تسمية «نبط» قد تم استخدامها في التاريخ خلال فترتين متتاليتين ومعنيين: فترة ما قبل الفتح العربي الاسلامي، ثم فترة ما بعد الفتح العربي الاسلامي.

وأنا تحدثت في مقالي عن الفترة الثانية، بينما الباحثة تحدثت عن الفترة الأولى. واستخدام تسمية «نبط» قد اختلف بين الفترتين، وهذا امر معروف لدى أي مهتم بتاريخ المشرق العربي! لكن الباحثة للأسف لم تدرك هذه البديهية رغم تخصصها. وكما رغبت بذلك، ولكي نبرهن لها على أننا لا نعتمد في تحليلنا على «المشاعر والأحاسيس» كما اتهمتنا في ردها، بل على المصادر الموثوقة والمعروفة جداً:

قبل الحديث عن «النبط» في هاتين الفترتين، يتوجب علينا توضيح حقيقة معنى تسمية «نبط أو أنباط». السيدة الباحثة تعتقد بأن هذه التسمية أتت من «نبوت بن اسماعيل» المذكور في التوراة. مثل هذا التفسير «الأسطوري» يذكر بأولئك الذين يرجعون تسمية «عرب» الى «يعرب» جد العرب الأسطوري، يقول ابن منظور في (لسان العرب): «النبط انما سموا نبطاً لاستنباطهم ما يخرج من الأرض، وفي حديث لا تنبطوا في المدائن أي لا تتشبهوا بالنبط في سكانها واتخاذ العقار والملك...» ج 7 ص 411.

اذن هذه التسمية، ليس لهاعلاقة بنسل أو قومية، بل صفة اجتماعية اطلقت على الناس المستقرين في الريف والمدينة الذين يستنبطون أو يستنبتون الأرض والخيرات، أي ان «النبط» رديف «الحضر»، وقد استخدمت هذه التسمية، الصفة في الفترتين التاليتين:

1 ـ الفترة التي سبقت الفتح العربي الاسلامي، وقد اطلقت تسمية «نبط» على الجماعات البدوية «العربية» التي استقرت في جنوب سورية وفلسطين بالذات في منطقة البتراء في الأردن الحالية.

لقد جاهدت السيدة الباحثة من أجل اثبات عروبة هؤلاء الأنباط، ودحض «التهمة الخطيرة جداً» بأن لهم علاقة مع سكان المشرق الآراميين، ثم تأثير الحضارة والثقافة واللغة

الآرامية السريانية على عرب قبل الاسلام. لنترك اذن احد المصادر الموثوقة يتحدث عن المسألة. هذا مقطع من كتاب عالم اللغات السامية (أ ــ ولفنسون) والمكنى بـ (بوذؤيب) في كتابه المعروف (تاريخ اللغات السامية. دار القلم ــ بيروت) والذي وضعه مباشرة باللغة العربية. يقول العالم عن أنباط هذه الفترة:

«لا شك أن هناك عناصر نبطية أرامية أصلية كما أن هناك عناصر نبطية عربية. ويظهر ان ارهاط النبط الفاتحين كانوا من الآراميين ثم بعد استقرارهم في طور سيناء «يقصد الأردن» اختلطوا بالعرب فظهرت هناك طبقتان: واحدة آرامية أصيلة وأخرى عربية كثرت عناصرها الى أن تغلبت بالتدريج على العناصر الآرامية ومحتها محواً تاماً وبقيت لغة الحضارة هي اللغة الآرامية التي كانت في تلك العصور لغة العمران عند جميع أمم الشرق الأدنى... ويجب أن لايغيب عن بالنا ان وجود اللغة الآرامية والكتابة الآرامية عند النبط الذين كانوا قد اتصلوا اتصالاً مباشراً بالعرب قد أثر تأثيراً لا يستهان به على الحضارة العربية الجاهلية وعلى تكوين المادة اللغوية العربية في شمال الجزيرة العربية من ناحية التمدن والعمران كما يتضح ذلك من الخط النبطي وتأثيره على الخط العربي الاسلامي...» ص 135 ـ 137.

اعتقد ان في هذا ما يكفي للرد باختصار على المحور الأساسي في رد الباحثة. والآن لنتحدث عن الفترة الثانية التي غابت عن بال الباحثة رغم أنها كانت هي المقصودة في مقالنا عن السريان:

2ــ الفترة التي أعقبت الفتح العربي الاسلامي، وقد اطلق العرب على سكان المشرق المسيحيين الناطقين بالسريانية (الآرامية)، تسمية «نبط» بالاضافة الى تسميات مختلفة، منها الكلدان والآراميون، والنساطرة، والنصارى، وغيرها من التسميات نورد المقطع التالي من كتاب (تاريخ العراقي الاقتصادي ــ الدكتور عبد العزيز الدوري ــ دار المشرق ــ بيروت)، يقول المؤرخ :

«ويستعمل لفظ (النبط) للاشارة الى الفلاحين الذين يتكلمون الآرامية في العراق ولقد أوضح ابن الكلبي ان العرب كانوا يطلقون لفظ (النبط) على سكان العراق الذين لم يكونوا رعاة ولا جنوداً ويسمي المسعودي فلاحي العراق (النبط) و (السريان)، ويصيب المسعودي حين يعتبر النبط سكان العراق القدماء ... ولقد قامت الطبقة المتوسطة من الآراميين بدور مهم

في الحركـة الثقافيـة في العـراق وأخرجـت عـدداً مـن الأطبـاء الكبـار والفلكـيين والعلمـاء والمترجمين...» ص 31 ـ 32.

نـضيف كـذلك مقطعـاً آخـر لـنفس المـؤرخ ، مـن كتابـه (الجـذور التاريخيـة للـشعوبية ــ دار الطليعة. بيروت) :

«وفي هذا النطاق نستطيع ادخال الاشارات الى عصبية النبط ويقصد بهـم الساميون سـكان العراق القدماء ، «ومنهم ملوك بابل» وهم يذكرون ما كان لهم من عز وما صاروا اليه.

وقد وجد بين المتكلمين مـن قـال انهـم أفضل مـن العـرب ، وقـد سـبق أن أشـرنا الى كتـاب الفلاحة النبطية لابن وحشية ، والذي أراد مؤلفه أن يظهر طول باعهم في الحضارة والعمران ، وقد وردت بعض الأحاديث والأخبار في فضلهم» ص 90.

ان رد الـسيدة الباحثـة نمـوذج للنظـرة «العروبيـة» الـسائدة في التعامـل مـع تـاريخ البلـدان العربية ، أي تلك النظرة القائمـة علـى أسـاس المفهـوم « العرقـي» للتـاريخ ولـيس علـى أسـاس المفهوم «الوطني الأرضي». بمعنى أوضح ، أننا تعودنا أن نعتبر تاريخنا هو تاريخ العرب كقبائـل وكعرق لأننا نحن «العرب» النسل البدني لتلك القبائل العربية ، وتاريخنا يبدأ بها. أمـا الـشعوب الـسابقة فهـي تكـاد أن تكـون أجنبيـة بالنـسبة لنـا ، بـدنياً وعرقيـاً وتاريخيـاً. هكـذا علمنـا دعـاة القومية ، متناسين بـذلك ان تـاريخ أي شـعب هـو تـاريخ أرض الـوطن بمـا حملتـه مـن شـعوب وحضارات بمختلف عروقها ولغاتها وأديانها. والسيدة الباحثة جهدت طيلة ردها للبرهنة علـى أن الأنباط كانوا عرباً ، وأن العرب توطنوا فلسطين وان وجود الأنباط يثبت عروبـة فلـسطين ، طيب يا سيدتي ، وهل «عروبة فلـسطين» تعتمـد فقـط علـى وجـود الأنبـاط .. ايـن اذن تـضعين الكنعانيين والفلستين والعـبرانيين والآراميين الـذين سـبقوا الأنبـاط في فلـسطين بـآلاف الـسنين وكانوا جزءاً من أرض فلسطين وتاريخها وشعبها؟ ان مـشكلة هـذا المنطـق العروبـي الـضيق أنـه يخدم المنطق الصهيوني دون أن يـدري. ان هـذا المنطـق العرقـي هـو أسـاس خـراب القـضية ، ان المنطق الصحيح هو الذي يعترف بأن شـعب فلـسطين الحـالي بمـسلميه ومـسيحييه بالاضـافة الى اليهـود والأرمـن والـشركس وغيرهـم ، هـو سـليل طبيعـي وحقيقـي لكـل الجماعـات الـصغيرة والكبيرة التي قطنت أرض فلسطين وصنعت تاريخها منذ العصور المجهولة».

من مقالة في جريدة القدس اللندنية ـ سليم مطر 6 ـ 7 ـ 1995

ملاحق معلوماتية

إشكاليات الوضع العراقي

وتنوع الفئات اللغوية والدينية والمذهبية

التأثير النسطوري السرياني في التشيع العراقي

إن أي تفحص ولو سريع للمصادر التاريخية (الإسلامية) يكشف لنا بصراحة ووضوح مدى قوة الإرث الآرامي (السرياني) للمراكز الحضرية العراقية والمراكز الدينية الإسلامية. لو تفحصنا مثلاً تاريخ «النجف» التي تعتبر حاضرة الشيعة الأولى في العراق ولشيعة العالم. وهي مقر المرجعية العليا والحوزة العلمية وفيها قبر الإمام علي بن أبي طالب، إن تاريخ النجف يكشف لنا قوة الأثر السرياني النسطوري في تكوين الفقه الشيعي حيث اعتنق السريان الدين الإسلامي ونقلوا معهم كل تراثهم المسيحي والبابلي إلى المذهب الشيعي. وهذه الحقيقة التي جهد العروبيون والإسلاميون على إخفائها من أجل اتهام الشيعة بالتبعية لايران واعتبار ميراثهم منحدر من الميراث الفارسي. قبل إيراد الشواهد على عراقية الميراث الشيعي، ننوه إلى المسألة التالية: إن مدن الحيرة والكوفة والنجف هي في منطقة واحدة وقد ورثت كل واحدة عن الأخرى سكانها وحضارتها. الحيرة كانت حاضرة المسيحية النسطورية والثقافة السريانية قبل الإسلام وحتى الفتح. ثم انتقل المركز إلى الكوفة بعد الفتح حيث عسكر الجيش الإسلامي قرب الحيرة وتحول معسكرهم إلى مركز حضري انتقل إليه أهل الحيرة المجاورة. وبعد دفن الإمام علي في النجف قرب الكوفة انتقل السكان ومركزهم الحضاري إلى النجف حول قبر الإمام علي. هنا لمحة عن ميراث النجف السرياني المسيحي:

❖ « الأديرة النسطورية السريانية في النجف، كانت معروفة بجودة خمرتها وبها حانات شهيرة يأتيها الناس من بغداد والشام:

ـ دير حنة: «ودير حنة بالأكيراح الذي قيل فيه: يا دير حنة من ذات الأكيراح» هذا أيضاً بظاهر الكوفة والحيرة، لا أدري أهو هذا المذكور هنا أم غيره وقد ذكر شاهده في الأكيراح». وقد كان قال في الأكيراح: ... بالقرب منها ديران يقال لأحدهما (دير مر عبدا) وللآخر (دير حنة) وهو موضع بظاهر الكوفة كثير البساتين والرياض، وفيه يقول أبو نؤاس:

يا دير حنة من ذات الأكيراح	من يصح عنك فإني لست بالصاحي
يعتاده كل مجفو مفارقه	من الدهان عليه سحق أمساح
في فتية لم يدع منهم تخوفهم	وقوع ما حذروه غير أشباح
لا يدلفون إلى ماء ببطاية	إلا اغترافاً من الغدران بالراح

وحكى الربيع عن بعض أهل الحيرة قال: كان في دير حنة خمار يقال له مار عبدا موصوف بجودة الخمر ونظافة الآنية وملاحة الحانة.

ـ دير الاسكون، قال ياقوت : «هو بالحيرة ـ راكب على النجف وفيه قلالي وهياكل وفيه رهبان يضيفون من ورد عليهم: وعليه سور عال حصين واليه تجتمع النصارى فى أعيادهم وفي كل جمعة بعد صلاة الجمعة فإذا كان يوم الشعانين أتوه من كل ناحية مع شماميسهم بصلبهم وأعلامهم فإذا استتموا فيه وفي القصر الأبيض والعلالي المدانيّة خرج أسقفهم بهم إلى مكان يعرف بقبيبات الشعانين.

ـ قبة الشنيق، قال الشابشتي: وهي من الأبنية القديمة بالحيرة، على طريق الحاج وبإزائها قباب يقال لها السكورة، جميعها للنصارى، فيخرجون يوم عيدهم من السكورة إلى القبة في أحسن زي عليهم الصلبان، بأيديهم المجامر والشمامسة والقسان معهم يقدسون على نغم واحد متفق من الألحان، ويتبعهم خلق كثير من متطربي المسلمين وأهل البطالة إلى أن يبلغوا قبة الشنيق فيتقربون ويتعمدون ثم يعودون بمثل تلك الحالة فهو منظر مليح، ولبعض الشعراء فيه:

والنصارى مشددين الزنا   نير عليهن كل حلي وثيق

يتمشين من قباب الشعانين   إلى صحن قبة الشنيق

يا خليلي فلا تعنفني يوم   ترى اللهو فيه بالتحقيق

ـ دير الحريق، قال ياقوت : «سمي بذلك لأنه أحرق في موضعه قوم ثم دفن فيه قوم من أهل من أحرقه هناك وعمل ديراً.»

من كتاب «موسوعة العتبات المقدسة» جعفر الخليلي ـ قسم النجف ـ ج1ـ ص 27ـ64».



ومن معالم تأثيرات الميراث المسيحي ـ البابلي على أهل النجف، انهم منحوا بعداً أسطورياً لتاريخ مدينتهم. فهم يقولون:

❖ «في أخبار ابراهيم الخليل ـ عليه السلام ـ خرج من بابل على حمار له ـ ومعه ابن أخيه لوط ـ يسوق غنماً، ويحمل دلواً على عاتقه. حتى نزل «بانتيا» ـ وكان طولها اثني عشر فرسخاً ـ وكانوا يزلزلون في كل ليلة. فلما بات ابراهيم عندهم لم يزلزلوا. فقال لهم شيخ ـ

بات عنده ابراهيم عليه السلام ــ والله ما دفع عنكم إلا بشيخ بات عندي. فإني رأيته كثير الصلاة. فجاؤوه وعرضوا عليه المقام عندهم، وبذلوا له البذول، فقال: إنما خرجت مهاجراً إلى ربي، وخرج حتى أتى (النجف). فلما رآها رجع أدراجه ـ أي من حيث مضى ــ فتباشروا وظنوا أنه رغب فيما بذلوا له، فقال لهم: لمن تلك الأرض ـ يعني (النجف)؟ قالوا: هي لنا، قال فتبيعونها؟ قالوا: هي لك ـ فوالله؛ ما تنبت شيئاً. فقال: لا أحبها إلا شراء. فدفع إليهم غنيمات كن معه بها. فقال: أكره أن آخذها بغير ثمن. فصنعوا ما صنع أهل بيت المقدس بصاحبهم، وهبوا له أرضهم. فلما نزلت بها البركة رجعوا عليه. وذكر إبراهيم ــ عليه السلام ـ أنه يحشر مع ولده من ذلك الموضع سبعون ألف شهيد.».

(المصدر السابق 68).



والتاريخ يخبرنا كذلك أن مدارس النجف الشيعية ورثت مدارس المسيحية السريانية لغة ودماً وفكراً:

❖ «وعلى هذا كان قيام أول مدرسة نجفية مرتبطاً بقيام أول دراسة للعلوم اللسانية والعقلية والروحية في النجف وتأريخ هذه المدرسة قديم جداً، فكم من معاهد أدبية توارثت الحركة الفكرية معهداً بعد معهد مثل (عاقولا) الواقعة حول الكوفة أو هي الكوفة في الزمن القديم.

لقد كانت (عاقولا) مدرسة سريانية، وبقيت إلى عهد الرومان في العراق وقد انتقلت إليها دراسات يونانية، ولما اندرست (عاقولا) نهضت الحيرة. فكانت واجهة كبرى للأدب، ترى فيها الكثير من الأفكار المبثوثة بين العاصمة الحيرة وما حولها من الديارات، وانتقل ما في الحيرة إلى الكوفة ثم انتقل ما في الكوفة إلى النجف.

وأول ما نزل عليّ (عليه السلام) في العراق نزل الكوفة، ونزل مسجدها لا قصورها كما فعل غيره من الولاة، وقد اتخذ مسجد الكوفة مصلى له، ومعبداً ومدرسة يدرس ويخطب ويقضي فيه بين الناس، وقد تخرج من هذه (المدرسة) المدرسة العلوية أو مدرسة الكوفة الكبرى أمثال (أبي الأسود الدؤلي) و(عبدالله بن عباس) حبر الأمة، وقد قام بعد علي (عليه السلام) في التعهد بمدرسته أولاده وأحفاده حتى جاء دور الأمام الصادق وعلى قلة استيطان

الأمام الصادق (عليه السلام) بالكوفة فقد تخرج عليه علماء كثيرون. وإذا عرفنا سعة العلوم الإسلامية في الكوفة وشهرتها بالفنون الأدبية اتضحت لنا قيمة مدرسة الكوفة التي انتقلت إلى النجف وانتقل معها ما حملت الكوفة من الأفكار المتبلورة بالدراسات السريانية والعربية والروحية الإسلامية وهي وإن لم تكن مدارس على نمط هذا العصر من حيث البناء أو المكان فهي مدارس على نمط عصرها من حيث الاجتماع في المساجد أو الساحات أو الأسواق والاستماع والمناقشة والمقاهي الأدبية والقراءة والكتابة».

(نفس المصدر السابق ـ الجزء 2 ـ ص 116ـ 117».

يكفي أن نتذكر أن هذه المنطقة قدمت للحضارة الإسلامية أعظم النوابغ السريان ألا وهو المترجم والطبيب والعالم (حنين بن اسحاق العبادي) من أبناء الحيرة وكان نسطورياً ولغته الأم هي السريانية مع إتقانه للعربية واليونانية. وقد ترجم إلى العربية تسعة وثلاثين كتاباً. لكنه ترجم إلى السريانية خمسة وتسعين كتاباً فلسفياً وعلمياً. «راجع مثلاً كتاب المسيحية والحضارة العربية ـ ص 103».

وتحدثنا المصادر الإسلامية عن الأصول النسطورية العراقية لكثير من النوابغ والقادة العرب المسلمين الذين اعتنقوا الإسلام وساهموا بأدوار معروفة، مثل (موسى بن نصير) فاتح المغرب والأندلس، و(الحسن البصري) أول المفكرين والفقهاء في الإسلام، ومثقفين كبار مثل محمد بن سيرين وغيرهم. ويبدو أن آباء هؤلاء كانوا صغاراً يدرسون الانجيل في (عين تمر) قرب كربلاء وقد أسرهم الجيش الإسلامي ونقلهم إلى (مكة) ليكبروا ويعتنقوا الإسلام ويخلفوا أبناء من القادة والمفكرين:

❖ «ولا تخلو كثرة من الروايات من ذكر بعض هذا السبي الذي سيكون له في تاريخ المسلمين نصيب، ففي الثني أقام خالد ـ يسبي عيالات المقاتلة ومن أعانهم وكان في السبي حبيب أبو الحسن يعني أبا الحسن البصري، وكان نصرانياً: وفي عين التمر اعتصموا بحصن هناك فضرب خالد أعناق الحصن أجمعين، وسبى كل من حوى حصنهم وغنم ما فيه، ووجد في بيعتهم «أربعين غلاماً يتعلمون الانجيل» ـ عليهم باب مغلق فكسره عنهم وقال: ما أنتم؟ قالوا: رُهُنٌ. فقسمهم في أهل البلاد: منهم أبو زياد مولى ثقيف، ومنهم نُصَيْر أبو موسى بن نصير، ومنهم أبو عمرة جد عبدالله ابن عبد الأعلى الشاعر وسيرين أبو محمد بن

سيرين، وحُريث وعلاثة، فصار أبو عمرة لشرحبيل بن حسنة، وحُريث لرجل من بني عباد، وعلاقة للمعنى، وقمران لعثمان، ومنهم عُمير وأبو قيس نثبت على نسبه من موال أهل الشام القدماء، وكان نُصير ينسب إلى بني يشكر وأبو عمرة إلى بني مُرّة، ومنهم ابن أخت النمر.

وقد نُقل هذا السبي إلى الجزيرة وتوزعته الأسر العربية الكبيرة.»

من كتاب «المجتمعات الإسلامية ـ شكري فيصل ـ ص 82 ـ 83».

نموذج احصائي لتنوع فئات الشعب العراقي

هذا الجدول الاحصائي لعام 1947 هو الوحيد الذي يمكن الاعتماد عليه لتقدير النسب العددية لفئات الشعب العراقي. علماً أنه جدول تقريبي ويمكن الافتراض أن نسبة الشيعة الحقيقية تتجاوز الـ 60٪ من مجموع السكان. ثم إنه في الفترة الحالية لا يوجد يهود من أعوام الخمسينات إلا بنسبة ضئيلة جداً. وفي أعوام الثمانينات تم طرد الذين يعتقد أنهم من أصول فارسية ، علماً بأنهم بأغلبيتهم الساحقة عراقيون منذ عدة أجيال ويجهلون حتى اللغة الفارسية.

التوزيع الجغرافي والاثني لشعب العراق عام 1947 (تخمين أولي)

(بالآلاف)

الفئــة	مديني	النسبة المئوية	ريفي	النسبة المئوية	المجموع	النسبة المئوية
مسلمين :						
شيعي عربي	673	41,9	1671	65,5	3344	51,4
سني عربي	428	26,7	472	16	900	19,7
سني كردي	176	10,9	664	22,4	840	18,4
شيعي فارسي	49	3,1	3	0,1	52	1,2
سني تركماني	39	2,5	11	0,3	50	1,1
شيعي تركماني	11	0,7	31	1,1	42	0,9
شيعي كردي فيلي	14	0,9	16	0,5	30	0,6
غير مسلمين :						
مسيحي	94	5,9	55	1,8	149	3,1
يهودي	113	7	4	0,2	117	2,6
يزيدي وشبك	2	0,1	31	1	33	0,8
صابئة	5	0,3	2	0,1	7	0,2
المجموع	16,4	100	2960	100	4564	100

من كتاب «المجتمع والدولة في المشرق العربي ـ غسان سلامة ـ ص 91».

مدرسة ساطع الحصري

وسياسته الثقافية والشيعة العراقيون

❖ «لم يتميز وضع الشيعة ـ على الأقل تحت حكم فيصل ـ فقط بالتمثيل الضعيف في وظائف الدولة الهامة، بل أيضاً بكونهم معرضين لنوع من «المكافحة الثقافية» التي يعد ساطع الحصري المحرض عليها.

ينتمي ساطع الحصري إلى آخر رجال الفكر العثمانيين الذين ظلوا مرتبطين بوهم العثمانية حتى انهيار الامبراطورية عام 1918. لذلك فقد رفض كلاً من القومية التركية والعربية بشدة. ولم يستطع أصدقاؤه العرب مثل عبد الكريم الخليل الذي نفذ فيه حكم الإعدام في دمشق عام 1916 أن يقنعه لهذا السبب بالتعاون مع المنظمات السياسية العربية. وبالرغم من أن الحصري كان يعمل في مجال التربية والتعليم إلا أنه أبدى رأيه بعد ثورة 1908 في كثير من المسائل السياسية الهامة، وخاصة في مسألة مستقبل الدولة العثمانية... وفي مقالته "Vatan Icin" إلى الوطن، التي كتبها عام 1912 لتكون محاضرة يلقيها في دار الفنون في اسطنبول نادى الحصري بالوطنية العثمانية، وفي رأيه أنه يمكن الوصول إلى الوطنية بتوحيد جميع الجماعات الدينية والعرقية بالدولة.

إن آراء الحصري التي لم يتراجع عنها حتى انهيار الدولة العثمانية لم تستند على الوقائع السياسية ـ كما أنها أخطأت تقدير مدى القوة النامية للقوميين في الشعب داخل الدولة العثمانية وقد حاول كليفلاند تفسير آراء الحصري على أنها نتيجة لوضعه الشخصي: «لقد وهب هو وعائلته مستقبلهم لخدمة الدولة العثمانية فقد كان مسلماً لغته الأولى هي التركية العثمانية تلقى تعليمه بأحد أشهر المعاهد في الدولة معه أنشئ لتربية النشء والشباب العثماني. وكانت لدى الحصري رغبة مكتسبة في بقاء استمرار تواجد الحالة الراهنة من عدم القومية بوصفه عثمانياً، استئصال جذور العربية لغوياً وثقافياً.

وصل الحصري إلى سوريا عام 1919 أي قبل تنصيب فيصل ملكاً على سوريا بقليل، وذلك ليتولى منصب وزير التعليم. وبذلك لم يترك الحصري مقر إقامته في استنبول ودائرته الثقافية التركية بل إنه غير أيضاً آراءه السياسية، وخواطره النظرية، ولم يعد الفرد والدولة هما نقطة انطلاقه في التفكير، بل القومية.

فقد اتخذ قرارات هامة أثناء تقلده منصب مدير شؤون التعليم اعتبرها الكتاب الشيعة معادية للشيعة وكانوا محقين في ذلك، فقد منع تأسيس كلية للتربية في مدينة الحلة عام 1928 بدعوى أن المدرسين الشيعة سوف يشكلون نسبة عالية في هيئة التدريس.

كما اتخذ قراراً هاماً آخر بحل الإدارة التعليمية في منطقة الفرات الأوسط الشيعية، وإلحاق الشؤون الدراسية لهذا الإقليم ببغداد. وقد كان من عواقب هذه الخطوات أن ظل عدد التلاميد الشيعة منخفضاً مقارنة بعدد التلاميذ في مناطق السنة، وبذلك لم تعمل الوزارة التعليمية تحت قيادة الحصري على موازنة التفرقة التي خلقها العثمانيون في مجال التعليم بين السنة والشيعة.

ويلفت النظر أنه عبر في مذكراته التي نشرها عام 1968 بعام واحد قبل وفاته. عن علاقته المعقدة بالشعب العراقي. كان ساطع أبعد ما يكون عن فهم وتقبل الأعراف التاريخية التي نشأت في بلاد النهرين وخاصة العلاقات الوثيقة بين الجماعات الشيعية بها مع الشيعة الإيرانيين، لقد تحول إلى مؤيد للعربية بالرغم من معلوماته الضعيفة بكل من الحضارة العربية واللغة العربية. ولم يكن اعتراض الشيعة على جهود الحصري لإنشاء نظام مدرسي دنيوي عربي قومي، ولكن على سوء تقديره للدور القيادي للعلماء الشيعة ورفضه القاطع لأية علاقات خاصة للمجتمع الشيعي في إيران والعراق، مما ترك لديهم انطباعاً بأنه يكره الشيعة بوجه خاص. وقد ضغط الحصري على موضع الجرح بتلميحاته حول تأثير الفرس على الشيعة العراقيين. حيث إنهم كانوا يفسرون أية أشارة تحمل أكثر من معنى حول هذا الموضوع بأنه هجوم على عروبتهم حتى أنهم كانوا يرجعون العلاقات الخاصة بين الشيعة في إيران والعراق إلى أسباب دينية ويدافعون عنها لذلك السبب. لم يراع الحصري في هذه الناحية منذ البداية حساسية الشيعة العراقيين. وتجاهل الحصري تعدد العناصر في المجتمع العراقي، وذلك في تصريحه المبدئي الذي أعلنه في مذكراته قبل وفوده إلى العراق قائلاً: «سوف أعضد بكل الوسائل الشعور القومي الوطني، كذلك الايمان بوحدة القومية العربية أثناء عملي بالعراق».. وقد كان الحصري يتمتع بسمعة مريبة بين صفوف الشيعة العراقيين. كذلك بين الأكراد العراقيين، وولعه الشديد بفحص السيرة الذاتية للمدرسين الشيعة والبحث عن أصول فارسية لهم، وذلك بوصفه مدير شؤون التعليم من ناحية أخرى كل هذا أدى إلى عدم تمتعه باحترام كبير داخل صفوف الشيعة العراقيين. ومن المؤكد أن ساطع الحصري لم يكن لديه أية خلفيات دينية طائفية في موقفه تجاه الشيعة لأنه كان طوال حياته علمانياً صرفاً. ولكن على ما يبدو أنه كان يعتقد أن الشيعة في العراق هوية وانتماء خاص ويجب التغلب عليها لصالح القومية العربية. وقد اتخذ بهذا الرأي موقفاً معادياً من التعددية الثقافية التي نشأت على مر التاريخ في العالم العربي واعتبرها فعلاً من أعمال القوى الأجنبية وقد أرجع المصري محمود عزمي وهو

من معاصري الحصري في مقال بعنوان «جبهة من الشعوب العربية، ضرورة خلقها وكيفية تأليفها» وهذا الموقف مسمياً إياه بالحصرية.

ويقول «نحن نعني بكلمة الحصرية الشعور الذي تولد لصالح العربية ويتطلب موقفاً عدائياً تجاه العناصر غير العربية سواء كانت هذه العناصر متواجدة داخل البيئة العربية أو خارجها. وتضعف هذه الحصرية التي رأيناها داخل العراق كيان العراق نفسه منذ بدأت تحتقر الأكراد بنوع من الكره، ولا ترغب في إقامة علاقات وثيقة مع الإيرانيين أو مسلمين آخرين متاخمين حدود السكان المتحدثين العربية... وهذا من شأنه أن يخلق مشاكل للجبهة العربية. إذ قامت سياسة الحصري الثقافية وطريقة التفكير الحصرية، التي استعارت أساساً الأفكار القومية الشعبية الألمانية كما أكد طيبي فقد قامت بتثبيت المذهبية السياسية في العراق وبررت آيديولوجياً سياسة السنة العرب حتى وقتنا الحاضر».

عن كتاب «الطائفية السياسية في العالم العربي ـ فرهاد ابراهيم ـ ص 128 ـ 134».



الدولة العراقية
بين التعصب القومي والتعصب الطائفي

رغم الادعاءات القومية التي سادت الدولة العراقية منذ تأسيسها إلا أن الميل الطائفي كان هو الأقوى وخصوصاً في عملية اختيار كوادر الدولة والجيش، فرغم العداء المعلن للأكراد فإنهم كانوا مفضلين على الشيعة «العرب» في مختلف المجالات المهمة وخصوصاً الجيش:

❖ شكل الوجود الكردي في القوات المسلحة العراقية حجماً لا بأس به، فالسلطات العثمانية كانت تختار من بين متعلمي الأكراد عدداً من الضباط، جرياً على عادتها في التعامل مع سكان العراق في التفرقة والتمييز الطائفي، ولكون النسبة الكبرى من أكراد العراق من طائفة السنة، فقد كانت لهم حصة في إدارة الحكم في العراق في العهد العثماني تتناسب إلى حد ما مع حجم وجودهم القومي السكاني، حيث برز من بين الضباط الأكراد الذين خدموا في الجيش العثماني، ثم انتقلوا إلى الجيش العراقي في بداية تشكيله، وساهموا في بناء نواته الأولى، كما تسلم قسم منهم مسؤوليات رفيعة أخرى في الدولة وأصبح منهم وزراء ورؤساء وزراء خلال فترة الحكم الملكي، ومن بين هؤلاء كل من جمال وجلال بابان، نور الدين عبد

الوهاب، نور الدين محمود، بهاء الدين نوري، بكر صدقي، وغيرهم العشرات، وظل وجودهم واضحاً جداً خلال فترة الحكم الملكي الذي كان يعتمد الطائفية في انتقاء الضباط للعمل في الجيش، وظل وجود الضباط الأكراد في القوات المسلحة يزيد عن وجود الشيعة فيها عن الضعف.

ـ بسبب كون القاعدة الرئيسية التي تتألف منها لحمة القوات المسلحة العراقية مؤلفة من ضباط الصف والجنود من الشيعة، فإن هؤلاء ينقلون بصورة آلية العادات التي تتبعها جماهير الشيعة في المناسبات الخاصة بهم، كالمراسم التي تجري كل عام في اليوم العاشر من شهر محرم بمناسبة استشهاد الإمام الحسين (عليه السلام)، وقد اعتادت جماهير الجنود وضباط الصف في القوات المسلحة أن تؤدي مراسم العزاء هذه بأسلوب ملائم، يختلف بالطبع عمّا يتم اجراؤه من مراسم خارج ثكنات الجيش في المدن الشيعية، لأن القوانين العسكرية وأعرافها لا تسمح بالقيام بتلك المراسم كما تجري خارج المعسكرات، لذا فإنها كانت تقتصر بأن يتجمع عدد من ضباط الصف والجنود الشيعة في أغلب وحدات الجيش ليلة العاشر من محرم، بحيث يقومون بإجراء مراسم التعزية واللطم على الصدور، وهي حالة تعايشت معها الأنظمة التي سبقت نظام الحكم الحالي في العراق، وبحدود تتفاوت من نظام حكم إلى آخر تبعاً إلى شدة تمييزه الطائفي، أو لعدم إثارة الحساسية بين جماهير غفيرة داخل القوات المسلحة العراقية، ولقد كانت حركة الشيعة وتيارهم الأساسي يظهر على هذا الشكل الذي لا يحمل بين طياته أي مظهر من مظاهر الخطر الذي يهدد أمن الدولة ووجودها، ويتكرر هذا العمل في ذكرى الأربعين لاستشهاد الإمام الحسين (ع) أيضاً، ولكن بصورة أكثر اتساعاً، حيث يقوم بعض ضباط الصف والجنود الشيعة فيما بينهم بجمع مبلغ من المال يشترون به ما يُحتاج إليه من الذبائح والرز والسمن وغيره من أجل تقديم الطعام يوم الأربعين، كما تجري العادة التي يحرص عليها الشيعة حرصاً عظيماً في هذه المناسبة.

عن كتاب «البناء المعنوي للقوات المسلحة العراقية ـ العقيد أحمد الزيدي ص193 ـ 211».

ديمومة المشكلة الطائفية في العراق

هذا المقاطع الأساسية من خطاب الملك الراحل فيصل الأول عن طبيعة الشعب العراقي. لاحظ أن الخطاب قد ألقي في عام 1933، ولكن فحوى الخطاب لا زال ينطبق على الوضع الحالي دون اختلافات كبيرة:

❖ «العراق مملكة تحكمها حكومة عربية سنية مؤسسة على أنقاض الحكم العثماني. وهذه الحكومة تحكم قسماً كردياً أكثريته جاهلة، بينه أشخاص ذوو مطامع شخصية يسوقونه للتخلي عنها بدعوى أنها ليست من عنصرهم. وأكثرية شيعية جاهلة منتسبة عنصرياً إلى نفس الحكومة، إلا أن الاضطهادات التي كانت تلحقهم من جراء الحكم التركي الذي لم يمكنهم من الاشتراك في الحكم وعدم التمرن عليه والذي فتح خندقاً عميقاً بين الشعب العربي المنقسم إلى هذين المذهبين. كل ذلك جعل مع الأسف هذه الأكثرية أو الأشخاص الذين لهم مطامع خاصة الدينيون منهم وطلاب الوظائف بدون استحقاق والذين لم يستفيدوا مادياً من الحكم الجديد يظهرون بأنهم لا يزالوا مضطهدين لكونهم شيعة، ويشوقون هذه الأكثرية للتخلي عن الحكم الذي يقولون بأنه سيىّء بحت ولا ننكر ما لهؤلاء من التأثير على الرأي البسيط الجاهل. أخذت بنظري هذه الكتل العظيمة من السكان بقطع النظر عن الأقليات الأخرى المسيحية التي يجب أن لا نهملها نظراً إلى السياسة الدولية التي لم تزل تشجعها للمطالبات بحقوق غير هذه وتلك. وهناك كتل كثيرة غيرها من العشائر كردية وشيعية وسنية لا يريدون إلا التخلي عن كل شكل حكومي بالنظر لمنافعهم ومطامح شيوخهم التي تتدافع بوجود الحكومة.

تجاه هذه الكتل البشرية المختلفة المطامع والمشارب المملوءة بالدسائس، حكومة مشكلة من شباب مندفعين أكثرهم متهمون بأنهم سنيون أو غير متدينين. أو أنهم عرب.. فهم مع ذلك يرغبون في التقدم. ولا يريدون أن يعترفوا بما يتهمون به، ولو بوجود تلك الفوارق وتلك المطامع بين الكتل التي يقودونها. يعتقدون بأنهم أقوى من هذا المجموع والدسائس التي تحرك هذا المجموع غير مبالين أيضاً بنظرة السخرية التي يلقيها عليهم جيرانهم الذين على علم بمبلغ قواهم.

أخشى أن أتهم بالمبالغة. ولكن من واجبي أن لا أدع شيئاً يخامرني، خاصة لعلمي بأنه سوف لا يقرأ هذا إلا نفر قليل ممن يعلمون وجائبهم ومسؤولياتهم. ولا أرغب أن أبرر موقف الأكثرية الجاهلة من الشيعة وأنقل ما سمعته ألوف المرات وسمعه غيري من الذي يلقون في أذهان أولئك ـ المساكين البسطاء من الأقوال التي تهيجهم وتثير ضغائنهم. إن الضرائب على الشيعي، والموت على الشيعي والمناصب للسني. ما الذي هو للشيعي؟ حتى أيامه الدينية لا اعتبار لها. ويضربون الأمثلة على ذلك؛ مما لا لزوم لذكرها.

أقول هذا على سبيل المثال وذلك للاختلافات الكبرى بين الطوائف التي يثيرها المفسدون وهناك حسيات مشتركة بين أفراد الطوائف الإسلامية، ينقمون بمجموعهم على من لا يحترمها. وهناك غير هذا دسائس آشورية وكلدانية والتعصب للتفرقة بين هؤلاء الجهلاء توهن قوى الحكومة تجاه البسطاء. كما أن العقول البدوية والنفوذ العشائري الذي للشيوخ وخوفهم من زواله بالنسبة لتوسع نفوذ الحكومة كل هذه الاختلافات وكل هذه المطامع والاحتراسات. تشتبك في هذا الصعيد وتصطدم وتعكر صفو البلاد وسكونها فإذا لم تعالج هذه العوامل بأجمعها وذلك بقوة مادية وحكيمة معاً ردحاً من الزمن، حتى تستقر البلاد وتزول هذه الفوارق وتتكون الوطنية الصادقة وتحل محل العصب المذهبي والديني. هذه الوطنية سوف لا تكون إلا بجهود متمادية وبسوق مستمر من جانب الحكومة بنزاهة كاملة فالموقف خطر.

وفي هذا الصدد أقول وقلبي ملآن أسى أنه في اعتقادي لا يوجد شعب عراقي بعد بل توجد كتلات بشرية خالية من فكرة وطنية مشبعة بتقاليد وأباطل دينية لا تجمع بينهم جامعة، سماعون للسوء ميالون للفوضى مستعدون للانقضاض على أي حكومة كانت. فنحن نريد والحالة هذه أن نشكل من هذه الكتل شعباً نهذبه وندربه ونعلمه. ومن يعلم صعوبة تشكيل وتكوين شعب في مثل هذه الظروف يجب أن يعلم أيضاً عظم الجهود التي يجب صرفها لاتمام هذا التكوين وهذا التشكل.

هذا هو الشعب الذي أخذت مهمة تكوينه على عاتقي وهذا نظري فيه».

بغداد ـ آذار ـ 1933

من كتاب «تاريخ الحركة الديمقراطية في العراق ـ عبد الغني الملاح ـ ص 32 ـ 34».

ملاحظة: بعد أشهر قليلة من هذا الخطاب توفي الملك الراحل في سويسرا لأسباب صحية مفاجأة ويُعتقد أنها مفتعلة من قِبل «اللوبي» الطائفي المتحالف مع بريطانيا.



كفاح الملك فيصل من أجل بناء هوية عراقية
وموته المشكوك فيه

إن فشل النخبة العراقية للدولة الحديثة (1921) بتكوين هوية عراقية وطنية موحدة لجميع فئات الشعب العراقي، يعود إلى تأثير الميراث العثماني الطائفي العنصري والتمسك السطحي والساذج بـ «العروبة» لتعويض الشعور بالأقلية والانعزال عن الأغلبية الساحقة من الشعب العراقي. رغم صدق نوايا الملك الراحل فيصل الأول وتحالفه مع الانكليز من أجل دعم مشروعه الوطني، إلا أن موته المبكر أفشل هذا المشروع الذي مزقه أبناء النخبة «المتعثمنة».

❖ «**مرحلة التحالف القومي العربي مع بريطانيا**»

إن مسؤولية بناء الدولة بعد توحيد الولايات العثمانية الثلاث ـ بغداد، الموصل، البصرة ـ وقعت على كاهل الأمير فيصل الذي تولى العرش عام 1921 بعد استفتاء شعبي عملت بريطانيا على ضمان نجاحه. واعتمد الأمير فيصل على رجال الرعيل القومي الأول من عراقيين وغيرهم من العرب أمثال ساطع الحصري ورستم حيدر في بناء العراق ـ الدولة. وقد وجد هؤلاء في تحالفهم مع بريطانيا ضرورة وطنية من أجل بناء الدولة الحديثة، وحماية هذا الكيان الجديد والضعيف في آن واحد، من التهديد الداخلي والخارجي. فقد كان فيصل في حالة خوف دائم من أطماع فرنسا في الموصل وعودة الاحتلال التركي في حالة انسحاب بريطانيا، ولذا اعتبر معاهدة 1930 بين العراق وبريطانيا ضمانة العراق من أي اعتداء خارجي وكان من ثمار هذا التحالف رسم الحدود العراقية مع كل من تركيا وايران لصالح العراق، وخاصة فيما يتعلق بالموصل (في وقت تخلت فرنسا عن الاسكندرون لصالح تركيا)، وشط العرب الذي أصبح نهراً عراقياً، كما أنهى الدعم البريطاني تهديد حركة الاخوان الوهابية للنجف والمناطق المجاورة.

أما على الصعيد الداخلي، فلم يكن بمقدور العرش الجديد التصدي لمسؤولية الأمن في مجتمع قبلي يمتلك من السلاح أكثر ما تملكه الدولة، لولا مساعدة بريطانيا.

وفي ظل استتباب السلم الأهلي والإقليمي بمساعدة بريطانيا، نهض فيصل بمهمة بناء الدولة الحديثة، فشهد العراق في غضون سنوات حكمه (توفي فيصل الأول عام1933) وضع الأسس لحكم مدني قائم على مؤسسات مستقلة ومتوازنة، فسن الدستور العراقي الأول لعام

1925 الذي يعتبر بحق أفضل ما شرع في تاريخ العراق، كما أجرى أول انتخابات برلمانية لا تزال تعتبر لحد اليوم الأكثر نزاهة وتمثيلاً للشعب العراقي، ووضع الأسس لسلطة قضائية مستقلة لا تزال قدوة ليومنا هذا، كما وضع الأسس لسياسة تعليمية حديثة كانت الحاضنة لكفاءات عراقية لاحقة. كل ذلك قبل أن يصبح النفط مصدر ثراء. ان عراقية فيصل بلغت أوجها عندما قدم مصلحة العراق في مصالحته آل سعود، رغم سقوط عرش والده في الحجاز على أيديهم.

المشروع الفيصلي : بناء الدولة القطرية بتأكيد الهوية العراقية

كان فيصل واعياً لفسيفسائية وتناقضات المجتمع العراقي، فعمل جاهداً لصهره في بوتقة مدنية واحدة وفي اعتماده «السدارة» كغطاء موحد للرأس، والتي عرفت بالفيصلية نموذجاً لهذا المسعى في مجتمع كان يرتدي رجله أكثر من أربعين شكلاً من أغطية الرأس.

وحاول النظام الفيصلي ـ وريث الحكم العثماني السني ـ كسب العناصر والشرائح الاجتماعية التي طالما كانت خارج دائرة الحكم، بل في صراع معها مثل العشائر والمراكز الشيعية الدينية والأقليات الأخرى.

إن مسؤولية الحكم وفشل تجربته في الحكم القومي في سورية أقنعت فيصل الأول ـ الحجازي القومي التطلع ـ بضرورة بناء الدولة القطرية أولاً، جاعلاً من المواطنة العراقية وأولوية الانتماء للعراق أساساً لحكمه انطلاقاً من شعار العراق لكل العراقيين. فحرص فيصل «العربي» على مشاركة الأكراد، كما فتح فيصل «السني» الأبواب لمشاركة الشيعة في الحكم رغم معاداة بعض رجال الدين الشيعة لنظامه، وعمل على كسب ود العشائر العربية ومشاركتها في الحكم، وحرص فيصل «المسلم» على مشاركة غير المسلمين من مسيحيين ويهود، وكان تألمه كبيراً عندما سمع وهو خارج العراق بقمع حركة الآشوريين على يد الجيش العراقي.

ولكن بوفاة الملك فيصل الأول المبكرة عام 1933 تراجع مشروع بناء الدولة القطرية اعتماداً على هوية الانتماء للوطن، ليتصدر الحكم فئة وصفها فيصل : «حكومة مشكلة من شبان مندفعين، أكثرهم متهمون بأنهم سنيون أو غير متدينين، أو أنهم عرب، فهم مع ذلك يرغبون في التقدم، ولا يريدون أن يعترفوا بما يتهمون به، ولا بوجود تلك الفوارق، وتلك المطامع بين الكتب التي يقودونها. يعتقدون بأنهم أقوى من هذا المجموع والدسائس التي تحرك هذه الجموع».

إن هؤلاء الشبان الذين لا يريدون أن يعترفوا بما يتهمون به، تخلوا عن المشروع الفيصلي في بناء الهوية العراقية انطلاقاً من أولوية الانتماء للأرض المشتركة العراق، لصالح الانتماء للعروبة والقومية العربية. هنا وقع العراق وبريطانيا ضحية استمرار تحالف الأخيرة مع الرعيل القومي العربي دون خلق تحالفات جديدة تعتمد مشاركة تلك المكونات الاجتماعية التي سعى فيصل إلى دمجها بالنظام الجديد. وإذا كانت بريطانيا مقصرة في هذا الخيار، فإن المكونات الاجتماعية الأخرى لم تفرز قيادات عراقية الولاء قادرة على التعاون مع بريطانيا، بما دفع الأخيرة للاستمرار بتحالفها مع من وصفهم فيصل بالذين «لا يريدون أن يعترفوا بما يتهمون به». وبذلك خسر العراق استمرار التعاون مع بريطانيا بما يحقق لنا ما حققته سنغافورة أو ماليزيا اليوم».

من مقالة في «جريدة القدس اللندنية ـ غسان العطية 6 ـ 8 ـ 1996»

الحزب الشيوعي العراقي و «القومية»

على الطريقة البعثية السوفيتية!

لقد تعود الناس في بلداننا على فكرة بأن الأحزاب الشيوعية في البلدان العربية كانت «قطرية ــ امية» معادية للقومية والوحدة العربية. لكن الوثائق التاريخية تكشف لنا بأن الشيوعيين مثل الأغلبية الساحقة من مثقفي المشرق (العراق والشام)، قد شاركوا بحفلة التطبيل والتهريج للتيار العروبي الكاسح. بل إن الشيوعيين تجاوزوا القوميين بالتنظير والتفلسف المستوردة مفرداته من موسكو، لهذه العروبة التي مزقت العراق إلى قوميات وأقليات واثنيات وشعوب وأمم لها «حق تقرير المصير» على الطريقة السوفياتية:

❖ «موقفنا من القضية القومية في العراق

تقوية الأخوة والوحدة في النضال بين القوميتين العربية والكردية وسائر الأقليات القومية ضد النعرات الطائفية والشوفينية ولانهاء الحكم الاستعماري والرجعي في العراق. والاعتراف بحق تقرير المصير، بما فيه حق الانفصال للشعب الكردي وضمان مساواة حقيقية لحقوق الجماعات القومية والجنسية الأخرى كالتركمان والأرمن والآثوريين».

من الميثاق الوطني للحزب الشيوعي العراقي
(أقرته اللجنة المركزية للحزب) أوائل آذار 1953



ان حركة الانبعاث القومي حليف قوي للحركة القومية الكردية ولطموح الشعب الكردي إلى التحرر والوحدة القومية. وفي العراق، تتظافر هاتان الحركتان التقدميتان ضد الاستعمار وأحلافه، وفي سبيل التحرر الوطني والقومي.

فحركة الجماهير العربية في العراق، في الوقت الذي تنتهج فيه سياسة عربية تحررية ينبغي لها أن تؤازر وتشجع حركة الانبعاث القومي الكردي الرامية إلى التحرر والوحدة. لأن الحركة القومية الكردية حليف لا غنى عنه لحركة التحرر العربي. فمن دون مساهمة جماهير الشعب الكردي في العراق في الكفاح ضد الاستعمار وحلف بغداد ومن أجل استقلال العراق وسيادته الوطنية، لا يمكن أن يحقق العراق هدفه في اللحاق بركب العروبة المتحررة. وكذلك ليس أمام حركة الشعب الكردي من أجل التحرر القومي والوحدة سوى سبيل المشاركة الايجابية الفعالة في حركة الشعب العربي وسائر الأقليات القومية في العراق.

من تقرير اللجنة المركزية الذي ناقشه وصادق عليه المجلس الحزبي (الكونفرنس) الثاني للحزب الشيوعي العراقي أيلول 1956.

«خطتنا السياسية في سبيل التحرير الوطني والقومي الخ».

من كتاب «القضية الكردية في العراق ـ عزيز الحاج ـ ص 162 ـ 163».



نموذج رائد للعمل الوطني المستقل

من الشواهد التي يمكن ايرادها للتدليل على صحة المطالبة بـ «تحرير» النشاط الاجتماعي ــ الثقافي العراقي من هيمنة الأحزاب، أمامنا نموذج «ديوان الكوفة» في لندن ومؤسسه السيد محمد مكية الذي تخطى بجهده الشخصي جميع أطراف المعارضة العراقية التي تبذر إمكانياتها المادية والمعنوية في تجارب فاشلة بل مضرة للشعب العراقي هنا لمحة عن «ديوان الكوفة» ومؤسسه :

❖ «على مدى العقد الماضي قدمت في ديوان الكوفة مئات المحاضرات والندوات والأمسيات الفكرية والأدبية والفنية، كما أقيمت المعارض الفنية التشكيلية والفوتوغرافية

والوثائقية، لكتاب وفنانين عرب وغربيين مهتمين أو متخصصين بالثقافة العربية الإسلامية، أو الحضارات الشرقية عموماً.

هذه النشاطات هي موضوع معرض «يوميات ديوان الكوفة 1986ـ 1995، الذي يقدم انطباعات عنها من خلال عرض وثائق وملصقات من المعارض الفنية عن كل عام من الأعوام العشرة، وكذلك بواسطة عرض نشاطات الديوان الأخرى من خلال فيلم فيديو وعبر شاشة الكومبيوتر.

مؤسس الديوان وصاحبه هو المعماري العراقي المعروف الدكتور محمد مكية.

الديوان هو «جمعية علمية ثقافية»، حسب صفته الرسمية أو القانونية في لندن. مهمته، كما يقول الدكتور مكية، التعريف بالثقافة العربية والحضارة الإسلامية، انطلاقاً من «هوية عراقية». حيث يستطيع العراقي المغترب أن يعرف نفسه ويعرف غيره. العراقيون كفاءاتهم تأخذ بسبب ظروف وعوامل كثيرة، اتجاهات فردية. وما يجمعهم غالباً سوى الحنين أو التعازي والفواتح أو طرق العودة إلى الوراء. الديوان فكرة لجمع الشمل عن طريق هوية ثقافية حضارية، ومؤسسة تود أن تكون لائقة بهوية شكلت جزءاً مهماً وغنياً من وسط حضاري كوني. فكنوز العراق المادية والمعنوية موجودة في كل مكان والديوان لا يحتكر هذه المهمة ولا يستطيع ذلك أيضاً. إنما هو بداية للغير. مبادرة يمكن أو يجب أن تتطور وتلهب الغير».

❖ **هل تعني أن النطاق الثقافي للديوان عراقي؟**

ـ لا قلت المنطلق هو هوية عراقية. وأعتقد أن اسم الديوان يدلك على أن مركز اهتمامه هو الثقافة العربية الإسلامية، والعراق تاريخياً. كما هو معروف مركز عصر تدوين الثقافة العربية الإسلامية كما أن الكوفة هي رحم الثقافة والحضارة الإسلامية قاطبة.

❖ **ألهذا حمل الديوان اسمها؟**

ـ أجل. وهناك أسباب أخرى. ان الكوفة هي إحدى قضايا عمري وهمومي الشخصية الكبيرة.

❖ **مع أنك بغدادي**

ـ نعم ومن صبابيغ الآل في محلة المأمونية. كان بيتنا قد بني على دار الخلافة.

لم يتوقف الدكتور مكية عند «بغداديته» طويلاً وبدأ ساهماً لبعض الوقت. إنه من مواليد عام 1916، وكان قد درس العمارة في جامعة كمبردج البريطانية.

وقد امتدت بصماته المعمارية الكبيرة من العراق إلى دول عربية وإسلامية اخرى كثيرة وكان أحد الوجوه الثقافية والفنية اللامعة في جيل نهضة العراق الحديث.

فهو شاهد على تاريخ العراق الحديث وساهم في بنائه. وكل نقطة مهما صغرت تستثير فيه عشرات الصور والأفكار، وتفتح عليه دفقاً من المعلومات، صروحاً من آمال وجد بعضه الطريق إلى التحقق واجهض البعض الآخر ومن هذا البعض الأخير ما يتعلق بـ «الكوفة»، وقد عاد إليها ليقول:

ـ الكوفة هي وريثة حضارات العراق القديم، أترك الأوراق وانظر إلى البيئة والجغرافيا بحواسك ستجد أن سواد العراق يبدأ انطلاقاً منها بعد اليمن هناك في منتصف الصحراء مكة المكرمة والمدينة المنورة ثم امتداد صحراوي هائل يتوقف عند سواد الكوفة، والوادي العجيب الذي يعتبر سواد البصرة مكملاً له. وقد أعطتها الحضارة العربية الإسلامية أو أعطت لهذه الحضارة دفقاً ضخماً جعل منها «أثينا الشرق» كما قال البرت حوراني.

وعلى مدى التاريخ كانت مثل الواحات للغزلان، تستقر فيها الهجرات من جانب الصحراء.

لكن الذي حدث مع تأمين العراق أن الهجرات الآتية هذه المرة من أرياف العراق أخذت وجهة العاصمة بغداد، ففكرنا في بناء أو تأسيس جامعة في الكوفة تحمل اسم المدينة، هدفها أولاً الحفاظ على هوية المدينة، وثانياً بعث ثورة استيطان توقف الهجرة إلي بغداد. لقد اردناها مدينة جامعية بروحية خاصة تعيد بناء الأرض صناعياً وزراعياً، وتصبح قبلة للمتخصصين والمهتمين بالحضارة العربية الإسلامية. بقية القصة معروفة. وقد نقلت شيئاً من روحيتها عندما سميت الديوان باسم المدينة تعبيراً عن محبتها وعن مشروع جامعتها المجهض.

الدكتور مكية يتحدث عن مشروع «جامعة الكوفة». وهو مشروع لانشاء جامعة أهلية مستقلة عن الحكومة وأولى من نوعها في العراق. وكان عدد من كبار المثقفين والأكاديميين، بينهم مكية، قد تولى ذلك المشروع، وبدأ تنفيد الكثير من خطواته العملية في النصف الثاني من الستينات. لكن الحكم الجديد عام1968 منعه بعد شهور من قيامه، لأنه اعتبر «خطراً على المركزية».

من جريدة «الشرق الأوسط 27ـ 2 ـ1997»



لمحة عن تاريخ التركمان ولغتهم

❖ «يصنف العلماء اللغة (التركية) عموماً إلى لهجتين أساسيتين (الاوغوزية ــ والجغتائية) وتتكلم القبائل المنحدرة من فرع الأوغوز وهم (التركمان، أذريين، أتراك، بلان، وأتراك أناضول... الخ) باللهجة الأوغوزية، وتتكلم الفروع الأخرى (قزاق، قرغيز، اوزبك، ايغور توغاي، سالار التاي.. الخ) باللهجة الجغتائية. ويمكن لأفراد كل مجموعة التفاهم في ما بينها إلى حد ما رغم وجود اختلافات ناجمة من المفردات الداخلة فيها من اللغات المحلية والاختلاط بالأقوام الأخرى، بينما يصعب التفاهم بين أفراد المجموعتين.

ديانتهم

يدين الأتراك اليوم بنسبة ساحقة بالديانة الإسلامية عدا المغول في منغوليا الحالية فيعتنقون البوذية والكونفشيوسية، وهنالك أقلية من قبيلة قاقاوز في قفقاسية يدينون بالمسيحية، وهناك بضع مئة من العوائل المسيحية (كاثوليك)[*] في قلعة كركوك من التركمان ويقال انهم جاؤوا مع الجيش المغولي. وأن مسلمي الترك خليط من كل المذاهب كالعرب تماماً. فيهم السنة والشيعة وفيهم من الغلاة العلوية والبكتاشية والكاكئية وغيرها. غير أن السنة الأحناف يشكلون الأكثرية الكبيرة. وعلى صعيد آخر تؤكد كل المصادر أنهم دخلوا الإسلام عن قناعة لأنهم كانوا على دين الحق أو التوحيد وخدموه خدمة جليلة. قاموا بالفتوحات ونشروا الدين الإسلامي إلى أصقاع واسعة من العالم.

الموطن الأصلي

إن المواطن الأصلية للترك والتركمان (التراكمة) والمغول، في آسيا الوسطى في منغوليا الحالية والتركستان، تقع في أطراف صحراء قرة قوم. انتقلت جموع قبائلهم شرقاً، وسكنت أولاً في بقاع ما وراء النهر حين مكثت فيها فترة من الزمن، ثم ارتحلت إلى خراسان ومرو. وأقامت في ماهان. ومن ثم نزحت قبائل منها إلى الأناضول والعراق وبلدان الشرق الأوسط وأسست فيها دولاً وإمارات، فيما تشكلت من فروعها الجمهوريات التركية الإسلامية التي نالت استقلالها أثر تفكك الاتحاد السوفياتي وهي (التركمانستان والأذربيجان والقزاقستان واوزبكستان وقيرغزستان وطاجكستان وتخجوان).

---

* هنالك اختلاف حول أصل مسيحيي القلعة، هل هم تركمان أم سريان..الأمر بحاجة الى بحث .

استيطان العراق

دخل التركمان العراق بفترات زمنية وعهود مختلفة ابتداءاً من العهد الأموي وانتهاءاً بالعهد العثماني وهذه الفترات كالآتي :

في العهد الأموي : يرجع تاريخ هذه الفترة التي وطئت اقدام التركمان فيها ارض العراق الى العهد الأموي الى سنة 54 هجرية اذ استقدم عبيد الله بن زياد الفين من التركمان استرعت انتباهه شجاعة جنود التركمان وحسن استعمالهم السلاح خلال حملته ضد الملكة قبج خاتون في بخارى وأسكنهم في البصرة كما وشكل الحجاج بن يوسف الثقفي وحدة عسكرية منهم واسكنهم في الواسط (البدرة).

في العهد العباسي : لم ينقطع سيل الاستقدام للعسكرة والهجرة لأسباب اقتصادية والتحاقات بالعوائل ومن ذلك استقدام الخليفة المنصور بعد انشاء مدينة بغداد. اذ شكل من التركمان وحدات عسكرية كذلك شكل هارون الرشيد وحدات عسكرية منهم بغية تحقيق توازن مع الفرس في جيشه ، في حين اعتمد المعتصم كلياً عليهم وجلب اعداداً (40 الفاً) منهم ، اسكنهم في سامراء بعد بنائها. كما كثر عددهم في أيام البويهيين ، ودخلوا أيضاً مع الصفويين. ويمكن وصف هذه الفترة بأنها فترة التعرف على البيئة وأحوال المجتمع الاسلامي وحضارته عن قرب.

عصر الاحتلالات والاستيطان : يعتبر هذا العصر ابان العهد السلجوقي من أهم عصور الاستيطان التركماني في العراق وأشار الى ذلك مصطفى جواد وذكر ان دور السلاجقة كان أعظم الأدوار أثراً في المجتمع العراقي دخلوه جموع احرار مسلحين فاتحين في 1055م. انقذ طغرل بيك الخليفة القائم بأمر الله من البويهيين... وتأسست هذه الفترة عدة امارات ودول تركمانية مستقلة نكتفي بذكر اسماء وتواريخ تأسيسها.

الامارات التركمانية التي تشكلت في مناطق مختلفة من العراق :

1ـ امارة الاتابكية في الموصل (الزنكية) : نسبة الى عماد الدين الزنكي الذي اشتهر بالدهاء السياسي والعسكري استمرت (106) أعوام من 1127 ـ 1233م.

2ـ الامارة التركمانية في اربيل : انشأها زين الدين علي كوجك من امراء السلاجقة في عام 1144م حكمت شهرزور وحكاري وسنجار وتكريت دامت (65) عاماً.

3ـ امارة الايواقية (الاوائية) التركمانية في كركوك ضمت السليمانية وسهل شهرزور ومن ملوكها قبجاق ارسلان طاش 1217م خضعت لأتابكية الموصل في ما بعد.

الحكومات التركمانية في العراق إذ أسس التركمان في هذه الفترة حكومات (دول مستقلة) في العراق :

1ـ الدولة الجلايرية 737هـ ـ 769 هـ. دامت (31) عاماً.

2ـ الدولة السلجوقية من 1118م ـ 1194م. دامت (76) عاماً.

3ـ الدولة البارانية وعرفت بـ (قراقوينلو) مؤسس الدولة قرأ يوسف (1411 ـ 1470م) دامت (59) عاما.

4ـ الدولة البايندارية (اق قوينلو) مؤسسها حسن الطويل من 1470 ـ 1508م. دامت (40) عاماً.

مجموع الفترة التي تعاقبت هذه الدول في حكم العراق قبل العثمانيين (196) عاماً. ويتضح أن التركمان سكنوا العراق وحكموا فيه قبل العثمانيين بأكثر من قرنين من الزمن هذا عدا حكم بعض أجزائه كالموصل واربيل وكركوك بتشكيل اماراتهم فيها.

في العهد العثماني (1416ـ 1918م) : انتهى دور التركمان بصفتهم حكاماً مباشرين في العراق بظهور العثمانيين على المسرح، وتوليهم الحكم فيه. ولم يعد يظهر زعماء منافسون لهم من القبائل التركمانية التي تحولت غالبيتها الى مجتمع مدني وباتت جزءاً من موازييك المجتمع العثماني المتعدد القوميات والطوائف في الحكم الاسلامي، وقد استهوتهم منذ أيام حكوماتهم الحياة المدنية الحضارية التي اعتادوها بعد أن استقروا في المدن والقصبات وزاولوا الزراعة والصناعات اليدوية. وبحكم دخولهم في الاسلام واختلاطهم بالحضارتين العربية الاسلامية والفارسية ازدهر الأدب التركي ويظهر منهم الشعراء والأدباء والمتصوفة وصارت مدينة كركوك مركزاً مهماً تزود الدولة العثمانية ومن بعدها الدولة العراقية في مراحلها الأولى، بمعين لا ينضب من الموظفين المدنيين والعسكريين. لا يتسع المجال لذكر أعمال الأدباء والشعراء والمتصوفة ورجال الحكم من السياسيين والعسكريين، وقد ذكرهم الأستاذ مير بصري في كتابه تحت الطبع الموسوم باعلام التركمان، لذا نكتفي بذكر بعض الأسماء منهم، الشاعر فضولي البغدادي البياتي، وفضلي بن فضولي، ونسيمي البغدادي الحروفي، وعهدي ومن تلاميذهم هجري دده، وخضر لطفي، ومحمد صادق وغيرهم كثيرون» .

من دراسة «جريدة الحياة ـ عزيز قادر ـ 13 ـ 6 ـ 1995»



مقاطع أخرى عن التركمان

❖ «تركمان العراق هم حصيلة الهجرات القديمة من القبائل التركمانية. ولعل أقدم هذه الهجرات كانت هجرة القبائل الطورانية من الياقوتيين الذين هاجروا من شمال الصين وسلكوا الطريق الجنوبي (نان ـ لو) والذي يمتد من جبال تيان شان ـ كشغر ـ سغد ـ فرغانه ـ إيران ـ ميديا ـ قفقاسيا ـ بوسفور. وينتهي بالجزيرة وعندما وصل الياقوتيون إلى بلاد ميديا انتشروا على ضفتي دجلة والفرات وذلك سنة 800 ق. م.

وفي سنة 54 هجرية بدأت هجرة القبائل التركمانية إلى العراق بعد أن تغلب عليهم القائد عبد الله بن زياد. ثم تتابعت هجرات القبائل التركمانية من الشرق إلى الغرب.

يعتبر الأدب التركماني فرعاً من الأدب التركي الضخم فقد كان (الإويغوريون) أوفر القبائل التركمانية حظاً من الثقافة حيث كان لهم خط معروف يكتبون به حتى أن جنكيز خان «أمر بأن يتعلم أطفال المغول الخط الأويغوري» وبعد أن قطع الأويغوريون شوطاً بعيداً في تطوير أدبهم بواسطة الأبجدية السامية، التي انتقلت اليهم بواسطة المبشرين السريان منذ القرن الخامس الميلادي.

أما الأدب التركماني في العراق فقد بقي تحت تأثير أدب الديوان رغم التحولات والتغييرات المهمة التي طرأت على الأدب التركي في تركيا وظهور شعراء كبار أمثال نامق كحال، عبد الحق حامد، رضا توفيق، حسين رحمي، خالدة ديب حتى بداية القرن العشرين. وكان خير من يمثله هو الشاعر المهجري دهده (1877 ــ 1952) أعظم شعراء التركمان بعد فضولي البغدادي حيث يعتبر لسان التركمان بلهجة العصر، كما وظهر شعراء كبار في كركوك وما حوله أمثال رسول حاوي المتوفى في 1826 وخضر ثاقب (1793 ــ 1818) ومحمد مهري (1849 ـ 1918) الذي عاصر الشاعر الكردي الشيخ رضا الطالباني، وطبيب أوغلي (1836 ـ 1906) وسركيس عيواز أوغلي (كلداني من محلة قلعة كركوك) الذي كتب ملحمته الشعرية (سفيل يونان). وقد أعدم بتهمة الارتداد في 1799. وبرز عمر أغا ترجيل المتوفى سنة 1900، وقد اعتبر من الشعراء الوطنيين فقد قاوم بأشعاره الاحتلال الإنكليزي والحكم الملكي الرجعي حتى نهاية حياته حيث سجن وشرد».

من دراسة «مجلة الثقافة الجديدة، محمد حبيب ـ آب 1992».



نبذة عن الصابئة (المندائية)(*)

❖ «من هم الصابئة؟ وأين كان موطنهم؟ وبم يدينون؟ هنا اشكاليات عديدة وحقيقية ليس من الهين التعامل معها، ان لم نقل انها تكاد ان تكون عصية على الحل تماماً ان لم تسعفنا الاكتشافات الآثارية بشيء ومما يثير الأسف ان أغلب الباحثين الذين تناولوا الموضوع في بلداننا من السريان أو غيرهم لم يسهموا في دراسة هذه الاشكاليات دراسة موضوعية معمقة، ولم يستفيدوا من كون الصابئة يعيشون بين ظهرانيهم وتربطهم واياهم قرابة اللغة، واستمروا يكررون ذات التقييمات التي اطلقها بعض خصومهم من السريان قبل قرون.

الصابئة مجموعة صغيرة مسالمة من الناس، تدين بدين خاص، يعيش معظمها في العراق، وبعضها يقطن في المناطق الاحوازية الواقعة على نهر كارون (التابعة حاليا لايران). قبل بضعة عقود كان معظمهم يسكن مدن أقصى الجنوب في العراق: قلعة صالح وسوق الشيوخ والناصرية والعمارة والبصرة والقصبات والقرى القريبة منها. لكن اغلبهم نزح من بعد الى بغداد واستقر فيها. كانوا في السابق يمتهنون الحرف التي يحتاجها القرويون، واضافوا لها في المدن صياغة الذهب والفضة المطعّمة بالميناء، وبرعوا فيها كثيراً. لكن الحياة العصرية جذبتهم الى المهن الأخرى، وانصرف شبابهم الى التحصيل العلمي الحديث بنشاط ملحوظ. وهم يتحدثون بالعربية في العراق، ولا يتقن لغتهم الخاصة سوى الكهنة. أما في الاحواز فكثير منهم يتحدث بها الى جانب العربية والفارسية. لغتهم هي الآرامية الشرقية ولكن اصابها كثير من التحوير والاحلال بفعل المحيطين العربي والفارسي. ولها ابجدية خاصة تقترب في بعض حروفها من النبطية والتدمرية. لعبت هذه المجموعة دوراً ذا شأن في الحياة الروحية والثقافية للمنطقة وامتد هذا التأثير منذ ظهور المسيحية (وربما قبلها بقليل) حتى ظهور الاسلام، لا سيما أيام ازدهار الحياة الفكرية والاجتماعية في بغداد في العهد العباسي الأول. وكان لهم دور خاص في نقل الفلسفة اليونانية الى العربية كما كان لهم دورهم الملحوظ في العلوم الرياضية والفلكية والطب والأدب، وكان هذا سبباً في تقريب البلاط العباسي والبويهي لبعضهم. وقد اثار هذا الدور انتباه المفكرين والمؤرخين العرب. ولكن مع تدهور الحضارة العربية الاسلامية، واثر احتلال المغول والعثمانيين، ابتعدت الطائفة عن الحياة العامة وتعرضت الى الاضطهاد في بعض الأحيان، لقد جذبت المجموعة انتباه الرحالة والباحثين الغربيين منذ منتصف القرن

---

* ان تسمية(مندائية) أي (مندا‌عية) آرامية وتعني (عرفانية) وهي نفس كلمة (غنوصية) الأغريقية .. (راجع موضوعنا عن المانوية).

السادس عشر. ومنذ ذلك الحين تطورت الدراسات بشأنهم حتى وضعت حولهم مئات الكتب والأبحاث. وتحول هذا الاهتمام الكبير الى ما عُرف بالحمى المندائية في بعض دوائر اللاهوت الغربي. وكان مبعث هذا الاهتمام الكبير اصرار بعض كبار باحثي اللاهوت في الغرب على أن انجيل يوحنا وبعض أعمال الرُسل المسيحيين قد تأثر بأدب المندائيين، ولأنها أيضاً الفرقة (الغنوصية) الوحيدة التي تعيش الى الآن فيما زالت المجموعات الغنوصية الأخرى منذ ألف عام تقريباً. فقد دُعوا بالصابئة أو الصابة كما في بعض كتب التراث الاسلامي. وقيل في تفسير الكلمة أنها من الفعل صبا بمعنى مال وزاغ «والشهرستاني في الملل والنحل يفسر هذا الميل بالمروق عن الحق والزيغ بالزيغ عن نهجٍ الأنبياء فيما يذهب الدكتور جواد علي الى تفسير الميل بالخروج عن الوثنية الى التوحيد استناداً الى أن الجاهلية كانت تدعو كل من يخرج عن عبادة الهتها بهذا الاسم وارجعها الشهرستاني ايضاً الى العشق والهوى وهو يريد بهذا تعصبهم الى «الروحانيين». ويرى العقاد انها محوّرة عن الفعل سبح للمماثلة هنا بين السباحة وتعميد الصابئة بالماء الجاري. أما الصابئة أنفسهم فيرجعون الكلمة الى الآرامية. فصبا في لغتهم تعني الانغمار أو الانغماس في الماء نظراً الى أنهم يمارسون التعميد في الماء، ومنها اشتقوا المصدر (مصبتّا) أي التعميد. ويدعوهم ابن النديم في فهرسته المغتسلة تارةً وبصابة البطائح تارة أخرى. وواضح هنا ان اسم المغتسلة قد جاءهم من التعميد بالماء الجاري. أما الطبري فيرى أن تسميتهم بالصابئة جاءت من نسبتهم الى «صابي» الذي تقول الأساطير انه أحد أبناء ميتوشالح وهو جدّ نوح. وقد ذكرهم القرآن الكريم في ثلاث من السور الى جانب اصحاب الكتاب من اليهود والنصارى.

وبقدر ما تسعفنا به المصادر التاريخية، والنظر في كتبهم الدينية يمكن أن نشخص فترتين قديمتين للإحياء الديني اقترنت بتعديلات مهمة أولاهما في القرن الثالث الميلادي والثانية بعد الفتح الاسلامي. ففي الأولى، واجهوا انشقاقاً واسعاً قاده ماني البابلي، مؤسس (المانوية) في عام 240م، بعد أن كان قد اعتنق هو وأبوه دينهم وعاش بينهم في (الطيب) اكثر من عقدين من السنين، وكما هو معروف فان المانوية امتدت كثيراً في المكان والزمان، وكان لها وزنها الكبير بين الأديان الأساسية في القرون الوسطى. ويبدو ان كهنة المندائيين انصرفوا في هذه الفترة بهمة الى تدوين ما لم يدون من معتقداتهم وأساطيرهم مدخلين عليها تعديلات تتطلبها المواجهة على جهتين. المسيحية والمانوية وفي الثانية، أعني بعد الفتح الاسلامي واعتناق معظم الأقوام التي كانت تحيط بهم الدين الاسلامي، انصرفوا الى تدوين كتبهم من جديد آخذين

بالاعتبار التطورات الفكرية التي حملها الاسلام. تدل على ذلك كثرة من الاصطلاحات الاسلامية المستخدمة في كتبهم.

ان ما وصلنا من تراثهم الديني المدوّن، و ما نقلته كتب التراث العربي الاسلامي، وما أورده عنهم المؤرخون السريان لم يُعر لهذا التطور الانتباه الضروري. نحن هنا امام حالة من القطع أو تكاد. والنُبذ التاريخية القصيرة التي وردت في بعض كتبهم قد وضعت أو ألحقت بعد فترة طويلة من الأحداث ذاتها.

ان الأمام أبو حنيفة الذي عاش ما بين 80 و 150 هـ (696 ـ 767م) وتوفي في زمن المنصور وصفهم بالموحدين وافتى بتحليل الزواج منهم، ولم يُعب عليهم كونهم يعظمون الكواكب وإنما اعتبر ذلك من بقايا معتقداتهم السابقة. وبذلك يكون قد نظر الى معتقداتهم نظرة تاريخية، وعلى نهجه سار تلميذه أبو يوسف قاضي القضاة في عهد الرشيد»

من دراسة «مجلة الثقافة الجديدة ـ سنان بن ثابت ـ آب 1992»



نبذة عن الكاكائية

رغم قلة عدد اتباع هذه الطائفة الا أننا اخترنا التعريف بها كمثال على أصالة طوائفنا وعلى التنوع الكبير الذي يميل اليه العقل العراقي والمشرقي:

❖ «الكتابة عن التاريخ الاسلامي خصوصاً فيما يتعلق بالطوائف والفرق ذات الطقوس السرية تبدو مغامرة محفوفة بالمخاطر، فالخفايا والأشواك والجروح كثيرة على سفوح ذلك التاريخ وأغواره وأكثر منها ذلك التشابك ــ المقصود في معظمه ــ بين جذوره الذي وصل بالكثيرين الى حد الاختناق فاصبحت طرق التعبير عنه ـ حتى على مستوى الحوار ــ تنطلق ــ في الأغلب من عنف لا شعوري، ومن جهة أخرى.. ذلك التكتم والغموض والابهام وحجم الأسرار حتى على مستوى الخطاب العادي ومستوى التسلسل التنظيمي الاجتماعي الذي أحاط بتلك الطوائف والفرق..

وبين هذا وذاك.. صارت التربة مهيأة لأن تقبل الكثير من التقولات والتشنيعات التي صنعت ـ بالوعي واللاوعي ـ حواجز نفسية اخرت والى حد كبير ذلك التفاعل الاجتماعي ــ المطلوب لأي وحدة اجتماعية ــ القائم على حرية الرأي والعقيدة والتعبير في اطار من

الاعتراف والاحترام المتبادلين، والكاكائية واحدة من تلك الطوائف والفرق التي لم تسلم من سطوة ذلك القانون الذي بدا وكأنه يتحكم في مسار التاريخ الاسلامي.

الجذور ..

ما بين ايدينا لا يقطع بجذر محدد للكاكائية، فهم متكتمون لا يصرحون الا بالقليل وأفكارهم يحيط بها الابهام والغموض، وبالتالي فان الكتابات القليلة المتوفرة عنهم لا ترقى الى مستوى تكوين فكرة/ معرفة شمولية عنهم، ولكن من الممكن استناداً الى ما هو متوفر، القول أنها طائفة اسلامية تعود بأصولها الى الفرق الصوفية ذات المنحى الباطني، ومنها جاءت طريقتهم في التكتم، وخطابهم التأويلي في التعبير والغلو في الاعتقاد، خصوصاً من جهة الاسحاقية ونظام (الفتوة) الذي تطور كثيراً أيام الخليفة الناصر لدين الله العباسي، ومنه جاءتهم المبادىء الأخلاقية والتسلسل التنظيمي الاجتماعي ـ مضافاً إليه (الاخية).. الطريقة التي عرفت في العراق وايران وتركيا، وتنسب إلى أخي .. وكل واحد منهم يدعو صاحبه.. أخي ـ استناداً الى الآية القرآنية الكريمة ﴿إنما المؤمنون أخوة﴾ فجاءت لفظة (كاكائية) الكردية من كاكا.. بمعنى الأخ، وبالشيعة من جهة الارتباط بالامام علي (رضي) والعلو في مكانته الى حد الاعتقاد بألوهيته عند البعض منهم، وانتساب بعض أمرائهم في كركوك الى الامام موسى الكاظم.

الكاكائية في الأصل طريقة صوفية، تحولت الى طائفة بانتماء مجموعة من القبائل المتصوفة اليها، لهذا لا يمكن الحديث عن قبيلة واحدة تنتسب اليها الكاكائية، وانما مجموعة قبائل تنتشر في العراق وايران، منها مثلاً «سيد كاكاي، مام، باوه، جولكي»..

والرئاسة عندهم دينياً وعشائرياً تخضع للفرع الابراهيمي، نسبة الى شاه ابراهيم حفيد سلطان اسحاق البرزنجي، وهم السادة الذين لهم السلطة الروحية المطلقة عند الكاكائية، ولهم مكانة اجتماعية عشائرية كبيرة، ويسمون حالياً بـ «الأغا» ورئيسهم الحالي السيد عدنان بن السيد عبد الفتاح ابن السيد خليل.

ربما من أصعب المشكلات هو البحث عن ماهية عقائد الطوائف التي حرصت كثيراً على التكتم عليها وعدم التصريح بها كأنها سر مغلق، ولكن من القول مما يتواجد تحت ايدينا، ان عقائدهم لا تختلف عن عقائد الغلاة في ضروبها والرؤية الصوفية الباطنية عندهم مكثفة متناقضة لا يمكن تصورها ظاهرياً، ويمكن تلخيصها بما يلي ..

ـ الخلق والتكوين والحلول واطوار التجسد عندهم ـ تناسخ الأرواح .. فكرة تقديس الأعداد.. اعتنق الكاكائية مذهب الغلاة في الأعداد، ولا سيما عقيدتهم في الرقم ـ 7 ـ فالمظاهر المتوارثة للألوهية سبعة تجسدات وجاء في خلاصة سرنجام ان دوران مدار العالم سبعة والملائكة الذين رافقوا السلطان اسحق كانوا سبعة، والأسر الكاكائية التي شكلها اسحق هي سبع وغيرها : اليوم الآخر.. الجنة والنار.. عقيدة التناسخ والحلول متناقضة، مع فكرة القول باليوم الآخر والجنة والنار، لكن هناك اشارات واضحة في كتبهم المقدسة عن البعث والجنة والنار.

وهم لا يؤمنون بجمع القرآن ولا يأخذون بشيء من الحديث والخبر، ويقول السيد أكرم زينل الصالحي أنهم لا يتلون القرآن ولا يعتبرونه كتاباً مقدساً لأنه من نظم محمد(ص) كما يدعون ولأنه من جمع عثمان بن عفان (رضي)..

وجاء في ملخص سرنجام : ان مسلك اهل الحق الكاكائية اربعة اركان وهي النظافة، الصدق والرضى والاحسان ونكران الذات..

اسقاط التكاليف الشرعية

لا صلاة لديهم أصلاً، فهم أهل مناجاة عند بزوغ الشمس أو غروبها، وهم يؤمنون بالصيام.. لكن ضمن أعيادهم الخاصة. في يوم الاستقبال (11 ك 2 من كل سنة صيام يوم واحد)، ويوم العيد صيام يوم واحد، ورمضان ليس بفرض صيامه، وليس لديهم حج، لكنهم يزورون مشاهد بعض اكابرهم من أولاد السادة خصوصاً في كربلاء. لا زكاة عند الكاكائية ولا تجد لها ذكراً في كتبهم المقدسة، ولكنهم يجمعون مبالغ أشبه ما تكون بالتبرعات وتعطى الى (السيد) وهو يصرفها بالوجه الذي يراه.

عاداتهم وتقاليدهم

لديهم عادات وتقاليد تجمع بين البعدين الاجتماعي والديني، يمكن الاشارة الى بعضها على سبيل المثال لا الحصر..

- الزواج : الزواج عندهم مرعي غير تابع لمراسيم او احتفالات خاصة، عقد بسيط على يد شيوخهم ويشترط فيه رضى الطرفين فقط، لا رضى أولياء الأمور، ويتم يومي الاثنين والجمعة فقط وتعدد الزوجات عندهم ممنوع، لكن المراعاة له في الوقت الحاضر خفت، والطلاق ممنوع الا برضى الطرفين ..

ـ تسمية الأطفال : بعد ولادة الطفل بعدة أيام يحضر (كبير العائلة ـ السيد ـ ودليلهما مع ولي أمر الطفل للقيام بمراسيم (مرسبودون) أي أخذ عهد الطاعة والاذعان، وبعد اجراء المراسيم يقدم ولي أمر الطفل الاسم المختار له، ويقدمه الى السيد والدليل، فيبدأ بقراءة دعاء التسمية (دعاوي ناونان) على الطفل.

ـ لا يقومون بقص شواربهم، اما علامة للتفريق، أو ان موس الحلاقة.. لا تقوى على قص شعر الامام علي (رض) كما يعتقد البعض منهم.

ـ لهم لغة مستقلة يتفاهمون بها، ولا يطلعون احد عليها.

ـ التكتم ومراعاة السرية التامة، الذي أصبح من أركان عقيدتهم، وضرب المثل ــ سره سر الكاكائي.

ـ حلف اليمين عندهم بالبقرة الصفراء (كازرد) وبـ (بير خاور) شيخ الشرق وبـ (علي)..

والآن..

الكاكائية الآن مسالمون بشكل عام، وبدأوا منذ زمن ينفتحون على المجتمع ويخالطونه حتى عن طريق الزواج خارج اطار الطائفة، ولا يمكن القول ان طائفتهم على وشك الانقراض استناداً الى بعض التهاون مع بعض عناصر النظام الفكري/ العقيدي الخاص بهم، يمكن القول ان انفتاحهم هو من قبيل الموازنة بين تراثهم والحقائق التي طرحها العصر فكرياً وعملياً وانسانياً..

«من دراسة «جريدة القدس ـ فاضل جواد 10ـ3ـ1997»

تاريخ الأرمن في العراق

رغم قلة عدد الأرمن حالياً في العراق (30) ألفاً، الا أننا وجدنا في تاريخ علاقتهم مع العراق نموذجاً للشعوب العديدة التي استوطنت النهرين وذابت على مر الزمن وربما بقيت منها الجاليات الحديثة الاستيطان. بالنسبة للأرمن، تتوجب الاشارة الى أن بلاد ارمينيا التاريخية تقع على حدود العراق الشمالية (بحيرة وان ومحيطها) ولكن هذه المنطقة منذ اوائل هذا القرن تحولت الى منطقة (كردية ــ تركية) وبقيت ارمينيا الصغرى الحالية في القفقاس، هذه جردة سريعة على التواجد التاريخي الأرمني في العراق.:

❖ «إن بلاد ما بين النهرين ـ وهي التي نشأ العراق على امتدادها فيما بعد ــ تُعدُّ إحدى البلاد المجاورة لأرمينيا من الجنوب، والتي نزلت ميدان التاريخ معها منذ أزمنة موغلة في

القدم. وحواشي المخطوطات الأرمنية ولا سيما تلك التي نسخت في انطاكية والرها وبغداد وحلب، هي من أهم المصادر التي تمدّنا بأخبار الجاليات الأرمنية في بلاد ما بين النهرين.

العلاقات التاريخية بين أرمينيا وبلاد ما بين النهرين قديمة جداً، فقد وردت في الكتابات المسمارية الأوداراتية والآشورية أدلّة عدة على وجود علاقات مباشرة بين الشعوب في كلا البلدين، وكانوا يحاربون بعضهم بعضاً أحياناً ويتحالفون أحياناً أخرى.

مع بدء الخلافة العربية سنة 637م حتى وقوع عاصمة العبّاسيين بغداد بيد السلاجقة سنة 1065م، يذكر المؤرخون الأرمن أنّه وقعت حوادث تهجير من أرمينيا، إحداهما كانت إلى بغداد سنة 852م ويشهد عليها المؤرخ الأرمني موسيس كغانكوداتسي. ويُعتقد بأن عدد الأرمن في بغداد كان كبيراً أثناء إنشائها سنة 762م، كما يشهد المؤرخ الأرمني توما آردزروني بأنّهم كانوا يتمتعون بمكانة مرموقة.

ان المؤرخين العرب ذكروا في مؤلفاتهم شخصيات أرمنية بارزة خدمت دولة الخلافة العربية أمثال أبو الحسن علي بن يحيى الأرمني.

وعندما حصلت مجاعات كبيرة في آسيا الصغرى في السنوات 1079 ـ 1080م هاجر الألوف من الأرمن واستقرّوا في بلاد ما بين النهرين وشمالي سورية.

لقد ألحقت غزوات السلاجقة الأتراك أضراراً بالغة في الجاليات الأرمنية، وكانت غزوات المغول والتتار أكثر مأساوية من سابقاتها. وتُفيد المعلومات التاريخية أنّه في سنة 1222م كانت توجد جالية أرمنية كبيرة في البصرة وضواحيها.

في القرن السابع عشر وقعت ثلاث هجرات جماعية إلى العراق، فنشطت الجالية الأرمنية في بغداد وكذلك في الموصل.

فالموجة الأولى كانت تضمّ الأرمن الذين ساقهم الشاه عباس سنة 1604 ـ 1605م إلى أصفهان، إذ هاجرت جماعات منهم إلى العراق واستقرّت في المدن الجنوبية منه.

والموجة الثانية قدمت حوالي سنة 1616م من تركية هرباً من ظلم الجلاليين.

أما الموجة الثالثة فقد وقعت سنة 1638 م عندما احتلّ الأتراك مدينة بغداد.

في الثمانينات من القرن السابع عشر للميلاد بدأت بغداد تُذكر في حواشي المخطوطات بالأرمنية وفي مؤلفات الرحالة الأرمن والأجانب على أنها مركز تجاري كبير. ويُذكر أنه في سنة

1604م كانت توجد في بغداد وضواحيها جالية أرمنية صغيرة. وتذكر المصادر الأرمنية أن بغداد في هذه الفترة كانت من أبرز مراكز نسخ المخطوطات الأرمنية في الشرق الأدنى.

في نهاية القرن السابع عشر وبداية القرن الثامن عشر للميلاد قدمت موجة جديدة من المهاجرين الأرمن من مختلف المدن الإيرانية استقرّوا في البصرة، وتتفق المصادر على أنّها كانت ثاني مدن العراق بعد بغداد. وفي هذه المرحلة كانت الجالية الأرمنية في العراق تضمّ كبار التّجار الذين كانوا يتاجرون بالأحجار الكريمة، كما ذكر أنّ بعض التجّار الأرمن في البصرة كانوا يملكون سفناً تجارية تعمل في المحيط الهندي، فضلاً عن الأطباء والمهندسين والحرفيين والمزارعين والعمال.

يُعدّ النصف الثاني من القرن الثامن عشر للميلاد أهم مرحلة من مراحل تاريخ الجالية الأرمنية في العراق، ذلك لأنّ المدن العراقية الساحلية كانت قد غدت مراكز تجارية هامة في تلك الفترة.

ووفق المصادر الأرمنية، فقد تلقّت الجالية الأرمنية ضربة قاضية من مرض الطاعون المنتشر في العراق في السنوات 1771 ـ 1772م، فقد توفي في البصرة 55000 نسمة كان 40000 منهم من الأرمن. وفي سنة 1831م وعقب انتشار الطاعون مرة ثانية في بغداد فإنّه من أصل 130 عائلة أرمنية كانت تضم 673 أرمنيّاً بقي 27 أرمنياً، بعد أن هاجر بعضهم الآخر إلى مناطق أخرى.

لا توجد إحصائيات دقيقة عن عدد الأرمن في بغداد في القرن الثامن عشر للميلاد، ويُعتقد أنه كانت تعيش في بغداد نحو 200 ـ 300 عائلة أرمنية، ولا توجد معلومات مستفيضية عن حياة الأرمن هناك.

عقب الاضطهادات العثمانية للشعب العراقي في نهاية القرن التاسع عشر، تعرضت الجالية الأرمنية بدورها إلى خسارات فادحة، فهاجر بعض الأرمن إلى الهند وإيران وبعضهم الآخر إلى البلاد الأوروبية، وتذكر بعض المصادر الأرمنية أنّه بقيت في العراق 150 عائلة أرمنية، منها 90 عائلة في بغداد والباقي في البصرة والموصل.

وكان عدد الأرمن حتى بداية الحرب العالمية الأولى لا يتجاوز الألف : وفي أيام النكبة الكبرى سنة 1915م تمتّع أبناء الجالية الأرمنية في العراق بحماية الشعب العراقي. وكان والي بغداد سليمان باشا أحد أولئك الذين وقفوا ضد الإجراءات اللاإنسانية لحكومة الأتراك وضحّوا بوظائفهم في سبيل حرية الضمير.

في آذار سنة 1917م عندما احتلّ الانكليز بغداد هاجر نحو 25000 أرمني من المناطق الجنوبية ـ الشرقية لأرمينيا الغربية ومن منطقة أرمية في إيران إلى العراق.

وكانت الجالية في هذه الفترة تضمّ الأطباء والمهندسين والمزارعين والخياطين وصنّاع الأحذية والخبازين وأصحاب المتاجر والتجار والممرضين الخ.

ـ في المجال الثقافي. كان المركز الواقع في صحراء طوفين بالقرب من مدينة ماردين من أشهر مراكز نسخ المخطوطات الأرمنية في القرنين الرابع والخامس عشر للميلاد، ثمّ مركز بغداد والبصرة في القرن الثامن عشر للميلاد. وبرز في بغداد الخطاط مرقس بينما لمع في البصرة الخطّاط آسدوادزادور طاويطان.

ومن المؤسف أنّه لم يصلنا من الآثار الثقافية لهذه الجالية التاريخية سوى الشيء اليسير. وأقدم صرح معماري هو كنيسة «السيدة العذراء» في بغداد، ويُعتقد أنّها تأسست قبل 600 سنة، ثم أعيد ترميمها سنة 1840م. وكنيسة «السيدة العذراء» في البصرة التي تأسست سنة 1736م.

وأقدم مدرسة أرمنية هي مدرسة «جارانكافوراتس» في بغداد تأسست سنة 1852، ومدرسة «زابيليان» الخاصة للبنات والتي تأسست سنة 1901م، كما تأسست مدرسة «ارطانانتس» في البصرة سنة 1910م. واليوم توجد خمس مدارس في المدن العراقية التي يعيش فيها الأرمن وهي بغداد والبصرة والموصل والكركوك.

وأقدم مطبعة تأسست في بغداد سنة 1874م بمبادرة الأخوة طاطيوسان، وظهرت منها في الفترة الممتدّة ما بين السنوات 1890 ـ 1892م أوّل دورية أرمنية باسم «لباقة».

ـ وفي المجال الصناعي. كانت أكبر ظاهرة صناعية في العراق امتلاك مؤسسة ««كلبنكيان» الأرمنية لاستثمار النفط أسهماً في استثمار البترول العراقي».

من كتاب «الجاليات الأرمنية في البلاد العربية ـ هوري عزازيان ـ ص 91 ـ 105».



كردستان الكبرى

الزعيم السياسي (الكردي) الايراني ـ عبد الرحمن قاسملو رغم ادعائه بالاعتدال فانه اتفق مع مفهوم «كردستان الكبرى» وحددها بالضبط كما هي مرسومة في الخارطة المرفقة (راجع ص 344) :

❖ «يبدأ خط مستقيم عند قمة ارارات (ارمينيا) في الشمال الشرقي، ينحدر جنوباً الى الجزء الجنوبي من زاغروس وبشتكوه (في غرب إيران)، ومن تلك المنطقة ترسم خطاً مستقيماً نحو الغرب الى الموصل في العراق، ومن ثم خطا مستقيماً نحو الغرب يمتد من الموصل الى المنطقة الكردية من لواء الاسكندرونة، ومن تلك النقطة يمتد نحو الشمال الشرقي حتى أرضروم في تركيا، ثم من أرضروم يمتد الخط نحو الشرق الى قمة ارارات».

والمساحة الكلية للأراضي الواقعة ضمن هذه الحدود هي 409650 كيلو متراً مربعاً ومن هذه المساحة توجد 194,400 كم2 في تركيا و 124,950 كم2 في ايران و 72,000 كم2 في العراق و 18,000 في سوريا. ويقدر قاسملو طول كردستان اذا قيست من الشمال الى الجنوب 1000 كم أما معدل العرض فهو 200 كم في الجزء الجنوبي ثم يتزايد شمالاً حتى يبلغ 750 كم.

ويلاحظ هنا أن هناك تقديرات أخرى، وان الأرقام والتقديرات أعلاه ليست موضع اتفاق. وسيرى القارىء التضارب والاختلافات في تقدير المنطقة الكردية العراقية مثلاً، فبعض الأوساط الكردية تدخل ضمنها كل محافظة كركوك ومدناً ووحدات ادارية في أجزاء أخرى من العراق لمجرد أن فيها نسبة عالية من السكان الأكراد، وهذه تقديرات نرى أن بعضها ظاهر الاصطناع والمغالاة لأسباب سياسية».

من كتاب «القضية الكردية في العشرينات ـ عزيز الحاج ـ ص 227 ـ 228»

حول تعريب وتكريد وتتريك سكان العراق الأصليين

على مر التاريخ، كل شعوب الأرض ظلت تتعرض لاجتياحات الجماعات المحاربة من الرعاة والبدو، الذين يفرضون أنفسهم بقوة السلاح على الجماعات الأصلية المستوطنة، ويشكلون الطبقة المالكة والحاكمة. وحسب الظروف قد تفرض هذه الطبقة ثقافتها ولغتها ودينها على المستوطنين الأصليين، أو بالعكس تتبنى لغتهم وثقافتهم. والعراق من أكثر بلدان الأرض الذي ظل يتعرض لاجتياحات الجماعات الجبلية الآسيوية من الشرق والجماعات البدوية من الغرب، وبحكم موقعه الجغرافي المتوسط وانفتاح حدوده وأرضه السهلية وخصوبة نهريه ظل العراق طيلة تاريخه عرضة لهذه الطبقات الجديدة التي كانت عموماً تذوب بثقافة النهرين وتصبح جزءاً من سكانه وحضارته الراسخة الأصلية. حتى زمن قريب يلاحظ وجود هذا التمايز «العرقي» بين الفئات المالكة المحاربة والجموع المستوطنة الأصلية. هذا المقطع يعطي مثالاً عن شمال العراق :

❖ «كان ملاك الأراضي تركماناً، يملكون الكثير من الأراضي الزراعية في منطقة المالحة على امتداد الزاب الصغير، وفي الضواحي الغربية لكركوك، ولكن العرب هم الذين كانوا يعنون بأراضيهم المزروعة وأغنامهم. وفي الموصل كان أسياد الأرض من كبار العرب المسلمين بشكل رئيسي، بينما كان عدد غير قليل من فلاحيهم في القرى المحيطة من الآراميين المسيحيين.

وحتى في المناطق الكردية التي يفترض فيها الانسجام الإثني (العرقي)، كان الفلاحون غير العشائريين الذين يسمون «رعية» أو «مساكين»، يبدون من أصل عرقي مختلف عن الأغوات الملاّك ووكلائهم ومحاربيهم العشائريين، وفي الواقع كان يمكن تمييز هؤلاء الفلاحين بسهولة بملامحهم ولهجتهم الخاصة عن المزارعين العشائريين الأحدث استيطاناً وعن أفراد العشائر الأخرى وأغواتهم الذين كانوا يمارسون بشكل عرضي وفي بعض المناطق على الأقل سلطات حقّ تقرير الحياة والموت بالنسبة للمساكين وبكل ما في الكلمة من معنى. وقد ذكر سي. ج. ريتش مندوب شركة الهند الشرقية المقيم في بغداد عام 1820، أن بعض الخبراء أكّد له أن فلاحي كردستان في أيامه كانوا «عرقاً متميزاً تماماً» عن الأكراد العشائريين، مما جعله يتساءل إن لم يكونوا هم السكان الأصليين لهذه المناطق وعما إذا لم يكونوا قد أخضعوا ذات يوم من قبل عشائر رحّل جبلية».

من كتاب «العراق ـ ج1 ـ حنا بطاطو ـ ص 67».



السريان وتكالب القوى المعادية

منذ القرن الماضي تكالبت على السريان ثلاث قوى : القوات التركية العثمانية والأغوات (الشيوخ) الأكراد والمبشرون الأوروبيون الكاثوليك، رغم التناقض الكبير بين هذه القوى الا أن مصالحها المختلفة اجتمعت على اضطهاد السريان: الأتراك العثمانيون لأنهم اتهموا المسيحيين السريان ومعهم الأرمن بالتحالف مع روسيا والمطالبة بحقوق قومية استقلالية. الأغوات الأكراد لأنهم كانوا مرتزقة لدى العثمانيين وقد طمعوا بالاستيلاء على قرى السريان وأراضيهم التي تحولت بمعظمها الى مناطق كردية ـ تركية مثل ديار بكر وماردين وحران (اورفا)، بالاضافة الى المناطق الأرمنية حول بُحيرة (وان). اما المبشرون الأوروبيون فانهم

تأملوا من اضطهاد السريان اجبارهم على التخلي عن النسطورية واليعقوبية والقبول باعتناق الكاثوليكية وقد نجحوا فعلاً بذلك بحيث تحول معظم نساطرة شمال النهرين الى كاثوليك. هنا لمحة عن هذا الاضطهاد..

❖ «لقد امتد نضال الآشوريين التابعين للكنيسة النسطورية ضد المبشرين الكاثوليك من القرن السابع عشر وحتى القرن التاسع عشر، نتيجة لذلك اضطر البطريرك الآشوري النسطوري الملاحق من قبل الكاثوليك للخروج إلى جبال هاكاري ولذلك اختيرت قرية قوجانس (المكان المقدس) في ولاية هاكاري مقراً رئيسياً للبطريرك النسطوري.

وكان المبشرون الكاثوليك قد رشوا الباشوات الأتراك والشيوخ الأكراد وألّبوهم على الآشوريين ليبيدوا الكنوز الثقافية في الكنائس والمدارس والأديرة لدى الآشوريين، إذ ان هدف المبشرين كان يتلخص في اجبار الآشوريين على التخلي عن ثقافتهم العريقة والبدء بتاريخ جديد يبدأ من يوم توقيع الاتحاد مع روما.

لقد أباد المبشرون الروميون الكاثوليك الكنوز الثقافية الآشورية بأيدي الآشوريين ذاتهم وتشهد المعطيات التالية المنتشرة بين أهالي الموصل على ذلك، فهم يؤكدون «بأن المؤمنين المتعصبين الجدد (النساطرة الذين اعتنقوا الكاثوليكية)، نقلوا المكتبة الواسعة في هذه المدينة والحاوية على عدة آلاف من الكتب إلى ضفاف دجلة وبأمر من الرهبان اللاتين تم رميها في النهر».

من كتاب «الآشوريون والمسألة الآشورية ـ ق . ب. ماتييف ـ ص 5»



❖ «كانت الحكومات الأوروبية تدعم ارسالياتها التبشيرية بالضغط على السريان الشرقيين والغربيين لقبول مذاهبها وكانت تلجأ في كثير من الأحيان إلى استخدام بعض زعماء السكان المحليين من بيكاوات الأتراك والأكراد والايرانيين للضغط على السريان واضطهادهم باسم الدين حتى يلجأوا إلى هذه الارساليات هروباً من الاضطهاد والموت فتتلقفهم هذه الارساليات وتفرض عليهم الحماية بشرط الانتماء إلى مذهبها الديني. وأن الحكومة العثمانية كانت تستغل دوماً وحدة الدين فيما بينها وبين رعاياها المسلمين الأتراك والأكراد لاضطهاد وقتل السريان بحجة محاربة الكفر والالحاد والحصول على الثواب في الجنة وكان طرح مثل هذه الأفكار يلقى آذاناً صاغية من بعض الجماهير المسلمة الفقيرة وذلك بسبب التخلف والجهل

والفقر الذي كان مطبقاً بحق على هذه الجماهير أيضاً وهي في الأغلب كانت مغلوبة على أمرها وتسير وفق ارادة البيكاوات والزعماء الأكراد والأتراك، وقد كانت أغلب هذه الزعامات تسير في فلك الحكومات العثمانية وكانت ضد شعوبها أيضاً وأن أبشع أساليب وطرق الاستغلال هي التي اتبعتها الحكومة العثمانية مع بعض الزعامات الكردية في الحرب العالمية الأولى وهذه بدورها استغلت جهل شعوبها في محاولة ابادة السريان والأرمن فكان من نتيجة ذلك استشهاد 300 ألف اشوري ومليون أرمني ما بين عامي 1914 ـ 1919 ميلادية، فكانت تباد قوافل بعشرات الآلاف من الأطفال والشيوخ والنساء دون رحمة».

من مجلة «دراسات اشتراكية ـ عزيز آي ـ ص 20 ـ 21»



❖ «زرت كنيسة القرية الصغيرة. على الجدران شاهدت بعض الصور للقديسين والعذراء بألوان بشعة مع كتابة لاتينية تحتها لا تناسب هذا المكان، سألتهم هل يعرفون ماذا تعني هذه الصور؟

ـ لا ـ أجابوني، بعد موت كاهننا قدم الينا المطران يوسف الكاثوليكي، وهو الذي علّقها وطلب منا أن نركع أمامها، أما نحن فنزعناها من على جدران كنيستنا، وكان جواب محمود آغا شيخ الأكراد الميزوريين أن جمع مخاتيرنا وأمر بضربهم حتى كسرت العصي على أقدامهم، وبعدها ضربونا نحن أيضاً. ولهذا تركنا هذه الصور كما علقها الكاثوليكي، وبما أن الأكراد قد باعوا أنفسهم لقاء منعهم لأي كاهن نسطوري من الاقتراب للقرية لهذا نحن مجبرون أن نسمع وعظ المطران الكاثوليكي الذي من فترة لأخرى يأتي الى القرية تحت حماية الأكراد المسلحين ...

ولكن بدرخان كشف المكان إلاّ أنه عجز عن احتلاله بالقوة. ولهذا أحاط كل المنافذ برجاله منتظراً ساعة الاستسلام. مؤونة الآشوريين لم تكفهم إلاّ لثلاثة زيام. بسرعة نفدت المياه والمواد الغذائية بسبب الحرَّ الجهنمي. وضعيتهم بدت بدون مخرج ولهذا قرروا اعلان الاستسلام تحت شروط وضمانات، تعهد بدرخان التمسُّك بها مقسماً بالقرآن: «لن يصاب أي تياري بأذى بعد تسليمه سلاحه وما عنده للأكراد». ثقة التياريين بهذه الوعود جعلتهم أن يسمحوا للأكراد العبور عن طريق المنافذ الجبلية. بعد حصول الأكراد على سلاح الأسرى الآشوريين مباشرة وجهوا أفواه البنادق الى العزل المنهكين دون ان يرحموا فرداً منهم. طبقات

من أشلاء القتلى الآشوريين غطت سفوح الجبل. وعندما أنهكهم الرمي راحوا يقذفون من بقي حياً من فوق الصخور الشاهقة الى نهر الزاب الأكبر. من ألف اشوري اعتصم بهذا الجبل لم ينج ـ كما قيل لي ـ سوى انسان واحد..

ذكرني جسر «ليزان» بقصة سمعتها عن بطولة عشر فتيات آشوريات من قرية «سيرسبيتة» التيارية. عند عودة الأكراد بعد المذبحة الفظيعة للآشوريين قادوا أمامهم تلك الفتيات عبر هذا الجسر الضيق. فور وصولهنّ سوية ألقين أنفسهنْ الى النهر وغرقن معاً.

فضّلن الموت عن العبودية».

من كتاب «البحث عن نينوى ـ هنري لا يارد ـ ص 19ـ 34 ـ 35»



حقوق السريان والدولة العراقية

أصدرت الحكومة العراقية عدة قرارات بخصوص الاعتراف بالحقوق الثقافية للفئات العراقية المختلفة. ولكن كالعادة فان هذه القرارات تم الالتفاف عليها وعدم تطبيقها. من هذه القرارات ذلك المتعلق بحقوق السريان الثقافية الصادر عام (1972) وقد نص على :

❖ « ـ اعتبار اللغة السريانية لغة التعليم في كافة المدارس الابتدائية التي غالبية تلاميذها من الناطقين بالسريانية مع اعتبار تعليم اللغة العربية إلزامياً في هذه المدارس.

ـ تدريس اللغة السريانية في المدارس المتوسطة والثانوية التي غالبية تلاميذها من الناطقين بهذه اللغة، مع اعتبار العربية لغة التعليم في هذه المدارس.

ـ تدريس السريانية في جامعة بغداد كإحدى اللغات القديمة.

ـ استحداث برامج خاصة باللغة السريانية في الاذاعة العراقية ومحطتي تلفزيون كركوك ونينوى.

ـ اصدار مجلة شهرية باللغة السريانية من قبل وزارة الأعلام.

ـ انشاء جمعية للأدباء والكتاب الناطقين بالسريانية، وضمان تمثيلهم في الاتحادات والجمعيات الأدبية والثقافية العراقية.

ـ مساعدة المؤلفين والكتاب والمترجمين الناطقين بالسريانية مادياً ومعنوياً بطبع ونشر نتاجهم الثقافي والأدبي.

ـ تمكين المواطنين الناطقين بالسريانية من فتح النوادي الثقافية والفنية، وتشكيل الفرق الفنية والمسرحية لإحياء وتطوير التراث والفنون الشعبية.

ورغم الشروع بتنفيذ بنود هذا التشريع لكنه كغيره من التشريعات كان يتعثر ويتعرض في التطبيق الى مقاومة بعض أوساط عناصر الأجهزة الحكومية ويصطدم بمشاعر الحذر المتراكمة في المجتمع العراقي ولا سيما كردستان، تجاه الآثوريين بالذات. وقد واصلت الدوائر الغربية والأمريكية بالذات، نشاطها التخريبي بين أوساط الأقلية السريانية وتأسست في الغرب منظمات وجمعيات لتشجيع المواطنين العراقيين الناطقين بالسريانية على الهجرة لأمريكا وأوربا وتقديم المساعدات المادية اللازمة لهم».

من كتاب «القضية الكردية في العراق ـ عزيز الحاج ـ ص 176»



أمير اليزيدية يتحدث عن طائفته

هذه مقاطع من مقالة كتبها (الأمير أنور معاوية اسماعيل الأموي) أمير الطائفة اليزيدية في العراق وعموم المنطقة. في هذه المقالة نتعرف على بعض الأمور الأساسية في اليزيدية التي تؤكد العمق التاريخي لهذه الطائفة وعلاقتها الأصلية بميراث بلاد النهرين بمختلف تنوعاته :

«لقد اثيرت اسئلة كثيرة وظهرت افكار عديدة في اذهان الكثير من الباحثين سواء الشرقيين منهم أو الغربيين وخاصة فيما يتعلق بأحوال الديانة اليزيدية وتفسير اسم «طاووس ملك». فقد ذكر البعض منهم بأن الديانة اليزيدية هي عبادة الشيطان أو ابليس، وحاولوا ربط الطاووس برمز الشيطان وهذا قول لا أساس له من الصحة وخاطىء وكل ادعاء على الطائفة اليزيدية باعتبارهم عبدة الشيطان او الابليس هو مجرد كذب وافتراء.

ان اسم «طاووس ملك» عند أبناء الديانة اليزيدية هو احدى اسماء جبرائيل. أي أبناء الطائفة اليزيدية يسمون جبرائيل باسم «طاووس ملك» ويأتي «طاووس ملك» في المرتبة الثانية من الأهمية بعد رب العالمين، فاليزيدية تعبد الله وحده، وهذا واضح وجلي في التراتيل الدينية، حيث يقول الشيخ عدي (رض): «لا تُجدى ماهيته في مقال، ولا تخطر كيفيته ببال، عن الأمثلة والأشكال صفاته قديمة كذاته». ان هذه النظرة التوحيدية في الديانة اليزيدية تنفي ما يذكره خصومها من عبادتها للشيطان، وكذلك نذكر دائماً في الأبيات الدينية «الله هو الواحد الذي لا شريك له. ولا خليل له هو الواحد القهار».

والطاووس رمز مقدس عند أبناء الطائفة اليزيدية، مثلما الصليب رمز السيد المسيح المقدس عند المسيحيين.

والطاووس تمثال يشبه طير الطاووس، مصنوع من البرونز ويرجع قدمه لتاريخ ابراهيم الخليل (عليه السلام).

وهذا الرمز قديم لدى اليزيدية وكذلك هو صورة أثرية خالدة من زمن البابليين والآشوريين ومن الآثار المهمة التي بشكل أجنحة تعتليها صورة شخص يمسك بيده حلقة والرجل ينظر باتجاه الشرق (شمس)، والطاووس يتخذه لزيارة اليزيدية. وقد خصص لكل منطقة طاووس يزورهم بمرافقة رجال الدين للتبرك فيها. وهذا من أهم المقدسات اليزيدية..

وكذلك يسمى رمز الطاووس بالسنجق وعددها سبعة حالياً، لجمع الزكاة في المناطق التالية، سوريا، وتركيا، وايران وروسيا (القفقاس) أما في العراق فهي :

- العراق، سنجق منطقة جبل سنجار «طاووس شنكار».
- العراق، سنجق منطقة شيخان «طاووس شيخا».
- العراق، سنجق دائم يبقى في خزينة الرحمن، ويسمى «طاووس عنزل أي أزلي».

وهكذا يتضح ان اليزيدية لا علاقة لها بالشيطان أو ابليس وليس لها صلة بالفكر اللاهوتي أو الفلسفي الزرادشتي.

وهنا يأتي السؤال المهم، لماذا يغضب اليزيدي حينما يذكر له اسم الشيطان ويرد ذكر اللعنة؟

ان اليزيدي في تاريخه الديني الطويل مر بظروف كان من الصعب عليه التفاهم مع الأقوام المجاورة فيما يتعلق بما يقصدونه بالشيطان وأسباب اطلاق هذه التسمية عليه. وذلك لأن من يجد اليزيدي وهو يقوم بتكريم او تقديم فرائضه الدينية للسنجق (تمثال يرمز الى رئيس ملائكة عند اليزيديين). ويسوء الأمر اكثر حين يتحول هذا التعبير (الشيطان) الى لجاجة لا تطاق. فاليزيدي في موطنه عزيز لا يتحمل الإهانة، فإن غادر لحاجة مهمة (هذا ما كان يحدث حتى منتصف القرن التاسع عشر) ثم دخل المدينة في محيط مشحون بالتعصب الديني، جاءته اللعنات وجاء التشنيع على الشيطان جملة. وهذه الحالة تجعله يثور في أية ظروف واية أحوال حين يسمع بعد ذلك اسم الشيطان أو اللعنة تقال له عن قصد، فهو يعلم أو يفهم ذلك بالغلط ان المقصود من الشيطان اهانة طاووس ملك (جبرائيل). وسوء التفاهم هذا جعل من

اليزيدي لا يفهم ماذا يقصد به من يقول له ذلك. واشتدت الحالة هذه خاصة بعد حمل الامبراطورية العثمانية حملات ابادة ضد اليزيديين متهمة إياهم بـ «عبدة الشيطان». وابتدأت الغزوات بالقتل والنهب. وهذا الأمر جعل اليزيدي يفهم هذه العبارة كتهمة له. ولكن الأمر مختلف اليوم بالنسبة لأبناء الطائفة وأصدقائهم.

لليزيدي تمثال يرمز الى طاووس ملك (جبرائيل) يقيم له التكريم كل سنة فيظن الغريب ان شاهدها بأن اليزيدي يعبد الصنم، غير أن اليزيدي يكرم ذلك التمثال الذي يرمز الى شخصية سماوية فلا يكرمه الا من أجل من يرمز اليه».

من «مجلة حويودو ـ شباط ـ 1996 ـ ص 39»



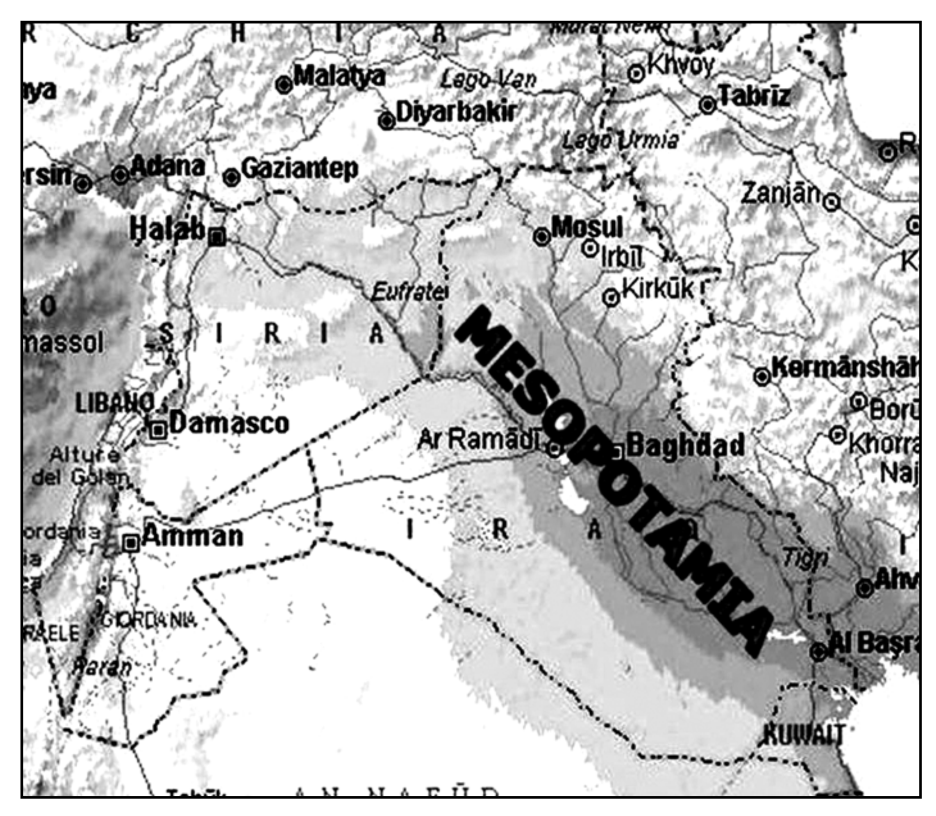
خاتمة

اقتراحات تكميلية لبناء هوية وطنية

الحالة العراقية

أثناء الأحاديث التي تجري في وسط العراقيين عن اشكاليات الهوية الوطنية، تتردد الكثير من الآراء عن ضرورة اعادة النظر في كل التاريخ العراقي و «العربي» الشائع وإجراء اصلاحات وتغييرات في بعض النواحي المادية والمعنوية المتعلقة بالهوية الوطنية. نحاول هنا أن نسجل بعض هذه المقترحات الأساسية المتداولة في الوسط العراقي :

أولاً- اضفاء البُعد التاريخي لتسمية «العراق»



لقد لاحظ العراقيون في المهجر ان الأغلبية الساحقة من الغربيين وحتى العرب، لا يربطون بين إسم (النهرين ـ ميزوبوتاميا) وإسم (العراق)، بل ان الأغلبية الساحقة من العراقيين لا تعرف بأن تسمية (بلاد النهرين) معروفة في العالم الخارجي بترجمتها اليونانية (ميزوبوتاميا ـ MESOPOTAMIA). بل ان المطلع على الوثائق السياسية والأثرية التي ظلت مستخدمة من قبل الأوروبيين وبالذات الانكليز حتى سنوات العشرينات كلها تستخدم تسمية (MESOPOTAMIA)، ولم يتم فرض تسمية (IRAK) عالمياً إلا من قبل الحكومة العراقية بعد تكوينها.

نتيجة هذا الاهمال بإيضاح العلاقة بين الإسمين، فان الكثير من الناس في أوربا والعالم يحدثونك عن سومر وبابل وآشور وكَلكَامش ونبوخذ نصر وسميراميس، وعندما تسألهم من أين هذه الأسماء، يقولون أنها من بلاد (ميزوبوتاميا)، وعندما تسألهم اين تقع هذه البلاد، تزوغ عيونهم في الخيال بحثاً عن الجواب، فيقول بعضهم انها في اليونان على اعتبار الاسم يونانياً، وآخرون يعتقدون في الهند، أما الأكثر معرفة فيقولون انها في الشرق الأوسط، لكنهم لا يعرفون اين تقع بالضبط! كلنا نعرف أهمية هذه المسألة بالنسبة للسمعة التاريخية والسياحية والحضارية للعراق وانعكاس تأثير هذا الجهل على الأفراد والفئات العراقية ومدى ثقتها بانتمائها للامة العراقية ولهويتها التاريخية.

الحقيقة ان الحل بسيط جداً ويعتمد فقط على قرار حكومي بسيط ولا يتطلب اية تكاليف ولا مؤتمرات ولا حملات اعلامية وسياحية. وهذا الحل شائع لدى الكثير من بلدان العالم، ولنا مثال قريب هو المثال المصري. من المعروف أن (مصر) هو الاسم المستعمل بالعربي (والعبري والآرامي) وليس له جذور بعيدة في تاريخ مصر، وهو مثل إسم (العراق) قد شاع بعد الفتح العربي. أما في الخارج (غير العربي) فهناك اسم آخر مستخدم رسمياً هو (ايجبت ـ EGYPTE). وهذا الاسم اطلقه اليونان والرومان على بلاد النيل اشتقاقاً من تسمية مصرية قديمة تحور الى تسمية (قبط). لو تخيلنا مثلاً ان الحكومة المصرية اصرت على استخدام تسمية (مصر) وكتبتها بالحروف اللاتينية هكذا (MISR) ليصبح اسمها رسمياً وإعلامياً في الخارج، باعتبار (ايجبت) ليس عربياً، لكان حصل لمصر من التجاهل المعلوماتي والتاريخي ما هو حاصل للعراق الآن.

ان الكثير من بلدان العالم لها اسماء وطنية خاصة بها ، أما في الخارج فانها معروفة باسم آخر أو حتى بأسماء مختلفة حسب البلدان. مثلاً (هولندا) ، وتعني (البلاد المنخفضة) ولهذا فان الألمان والفرنسيون والانكليز ، كل منهم ترجم هذه التسمية الى لغته واصبح يطلقها رسمياً على (هولندا). مثال آخر (النمسا) وهي تسمية يطلقها العرب والأتراك عليها ، اما اسمها الوطني (اوستريا) وبالفرنسي (اوتريش). (المانيا) هي التسمية المستخدمة من قبل الشعوب اللاتينية ، أما اسمها الوطني فهو (دويج لاند). هناك عشرات الأمثلة العالمية على هذا الحال ومنها الصين وروسيا.

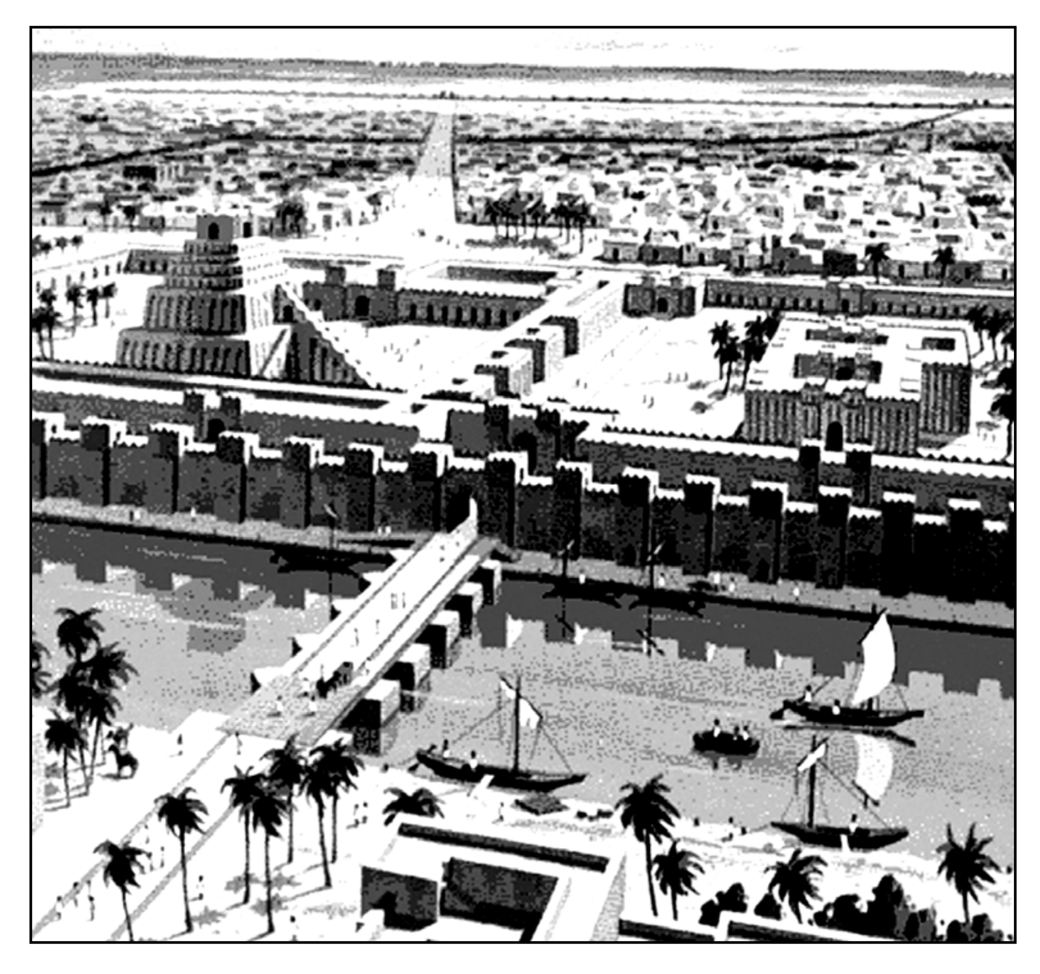
بناءاً على هذه الأمثلة ، نقترح التالي : أن يبقى اسم (العراق) الاسم الرسمي المستخدم في اللغة العربية ، مع اضافة (بصورة ثانوية) (بلاد النهرين أو النهرين) في المطبوعات الاعلامية والسياحية والمدرسية. أما على صعيد بلدان العالم (غير العربي) ، فيتم الغاء التسمية الشائعة حالياً (IRAK) ، وتحل محلها التسمية التاريخية المعروفة (ميزوبوتاميا ـ MESOPOTAMIA ويتم التعامل مع هذا الاسم من قبل السفارات في الخارج وفي جميع المطبوعات الرسمية غير العربية. ويمكن الاستفادة كثيراً من التجربة المصرية في هذا المجال.

ثانياً ـ بناء عاصمة ثانية بأسم (بابل الجديدة)

منذ البدء نقول أن هذا المقترح ليس هناك تيقن تام من صلاحيته ، ولكنه يُطرح للنقاش والبحث : أن تبقى (بغداد) العاصمة الاقتصادية الثقافية للعراق وأكبر مدنه ، وتصبح (بابل الجديدة ـ New Babylon) العاصمة الادارية السياسية.

قبل أن نشرح مبررات الفكرة ، نقول أن هذا المشروع ليس غريباً ، بل أمر معروف ومعمول به في الكثير من البلدان ، إذ توجد (عاصمة كبرى ثقافية وسكانية واقتصادية) بالاضافة الى (عاصمة إدارية حديثة وصغرى) أقل ازدحاماً ومشاكل ، ومن أجل جعل الحكومة وقيادة الدولة بمنأى عن صعوبات العاصمة وسلبيات المدينة الكبيرة المكتظة بالسكان ، مثلاً هناك : هولندا فيها امستردام ثم لاهاي ، أمريكا فيها نيويورك ثم واشنطن ، المغرب فيه الدار البيضاء ثم الرباط ، باكستان فيها كراجي ثم اسلام أباد.. ويمكن أن نستمر بذكر بلدان عديدة أخرى.

أما حيثيات المشروع فتقول ان تغيير (العاصمة الادارية) من (بغداد) الى منطقة بابل (الحلة) ، ربما يخدم العراق بنواح كثيرة :



ـ ان هذه العاصمة الجديدة هي تعبير عن بدء عصر حضاري وطني جديد (بعد تغيير النظام الحالي طبعاً) يرتبط مباشرة بتاريخ العراق الأصيل وعاصمته الحضارية الأولى ذات الشهرة الأسطورية والدينية والحضارية.

ـ ان بناء عاصمة جديدة يساعد على بناء دولة عراقية جديدة، خارج مدينة بغداد المثقلة بكوارث التاريخ وجراح ذكرياته منذ حرائق المغول وتشويهات العثمانيين، وصولاً الى انتكاسات مشاريعنا وخيبات ثوراتنا في العصر الحديث. ثم ان بغداد اصبحت كأي مدينة من مدن العالم الثالث المحتشدة بالملايين من البشر تعاني من سوء التخطيط والاحياء الفقيرة وازدحام السير وتوتر الحياة الاجتماعية والسياسية. وكل هذا يؤثر على عناصر الدولة ويعيق

عمل اجهزتها الادارية ويجعل الحكومة والبرلمان والادارات تعيش بجو خانق متوتر ينعكس مباشرة على استقرار الدولة ويمنع انسجام أجهزتها وافرادها.

ـ ان موقع بغداد غير مأمون عسكرياً، وكلنا نتذكر المخاوف التي سادت أثناء الحرب مع ايران، من أن بغداد معرضة للاحتلال الايراني بسبب قربها من الحدود مع ايران التي تشرف عسكرياً على بغداد من خلال جبال زاكاروس الحدودية. أما منطقة بابل فأنها تقع على الفرات وبعيدة كثيراً عن ايران. بالنسبة للمخاطر التي يمكن ان تهدد بابل فانها كانت على مر التاريخ تتمثل بالقبائل البدوية القادمة من بادية الشام والتي طالما سببت الأذى للمنطقة، وفي زمننا هذا ما عاد الحديث ممكناً عن خطر القبائل البدوية لأنها عملياً قد انقرضت.

ان اقتراح بناء عاصمة جديدة يحتاج الى نقاشات كثيرة تدعم بدراسات جغرافية وبيئية واقتصادية وسياسية، من أجل التأكد من مدى صلاحية مثل هذا المشروع.

ثالثاً ـ تغيير علم الدولة والشعار الوطني



شعار الجمهورية العراقية بعد عام 1963

منذ أعوام الستينات فرض على العراق (علم) بنجوم ترمز الى الوحدة العربية. وكلنا نعرف ان هذا التبجح بالوحدة العربية لا يعكس الحقيقة في الواقع والتطبيق. لأن هؤلاء

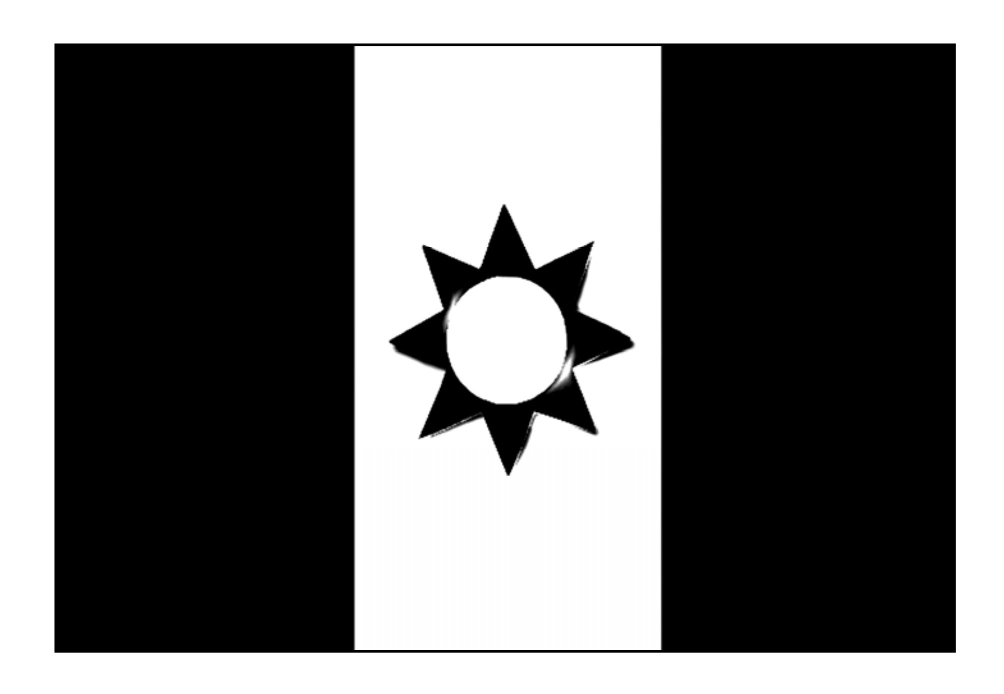
العروبيين رغم تضحيتهم بالوحدة الوطنية الداخلية باسم العروبة والقومية الا أنه في الواقع العملي، هم أكثر من آذى الوحدة العربية ومزق التضامن والتقارب بين الشعوب العربية، بحيث انه من النادر في تاريخ بلدان العالم المعاصر ان تبقى الحدود مغلقة بين بلدين مثل (سوريا والعراق) منذ عشرات السنين. يقال أن الوان هذا العلم العروبي مستمدة من قصيدة حماسية تتحدث عن أمجاد العرب وخصالهم في الحروب، ولا أحد يدري ان كانت فعلاً تلك الخصال هي التي يحلم بها المواطن ويحتاجها العراق الجديد:

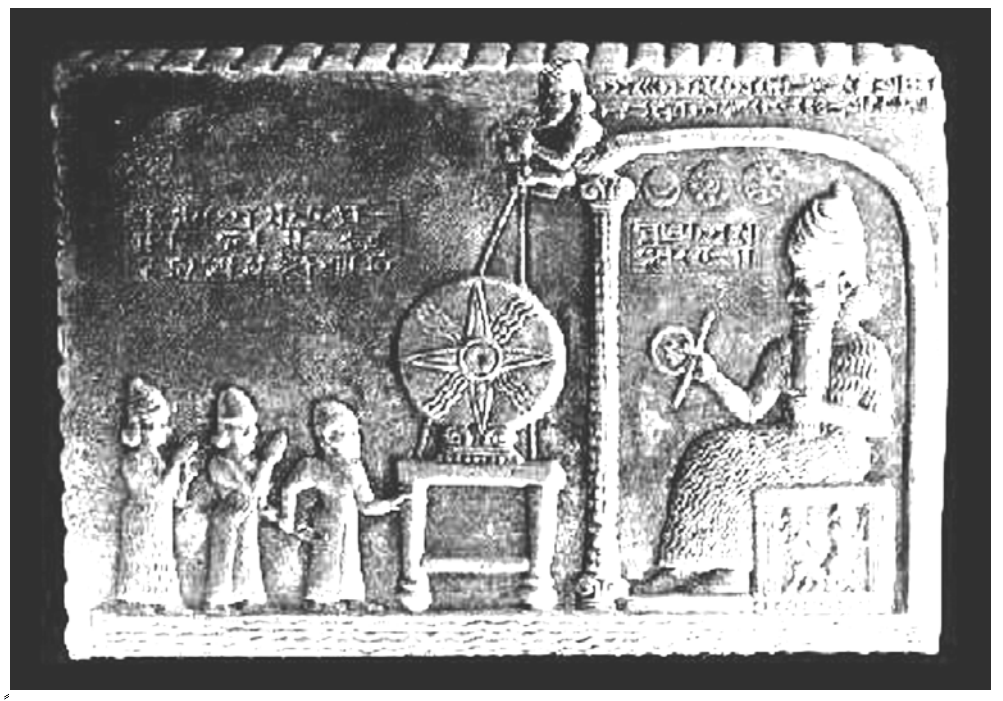
بيض صنائعنا، سودٌ وقائعنا   خضر مرابعنا، حمر مواضينا

أما بالنسبة للشعار الوطني فهو (الصقر العربي) وهو رمز مكرر وبدائي جداً وليس فيه غير معنى العنف وافتراس الحيوانات المسالمة. ان وجود هذا الصقر يشبه رئيس الدولة أو رجل الأمن بعينيه الشرستين المقتحمتين وأنفه السيفي الجارح.

اننا بحاجة الى (علم وشعار) فيهما رموز وطنية اصيلة بمعان انسانية تدعو للمحبة والسلام وليس للحروب والمفاخر الزائفة. حتى الألوان يجب أن تؤخذ بنظر الاعتبار، لأن تأثير الألوان على الانسان معروف، لهذا فان الوان الرموز الوطنية يجب أن لا تراعي فقط الناحية الجمالية بل تأثير هذه الرموز والوانها على نفسية الانسان ونوعية المشاعر التي يمكن أن تثيرها: هدوء أو عنف، صفاء أو قلق، انفتاح ام انكماش. لأنه من المعروف أن (العلم والشعار) هي اكثر الأشياء التي يشاهدها المواطن كل حياته منذ الطفولة وينطبع تأثيرها يومياً في أعماقه.


الجمهورية العراقية
١٤ تموز
١٩٥٨





ان الشمس(الاله شمش) رمز نور الحكمة، وهو من الآثار العراقية المعروفة. انه يصلح ان يوضع في العلم العراقي، علماً بأن هذا الرمز العراقي الأصيل قد تم استخدامه كشعار للعراق بعد (14 تموز 1958) لكن القوميين قد الغوه فيما بعد.



(كأس النهرين)، أنه عمل فني رائع وفيه من الحداثة بحيث أن أكبر الفنانين يمكن أن يتوهم حداثته ولا يصدق انه معمول منذ ما يقرب ثلاثة آلاف عام. ثم ان هذا الشعار ليس فقط رمزاً بقيمة فنية جمالية عالية، بل الأعظم من هذا أنه رمز عراقي بكل معنى الكلمة من حيث انه يصور نهري دجلة والفرات يفوران من كأس الوطن ويصبان في كفين متعاضدين بلونين مختلفين يمكن ان يرمزا لثنائية العراق في كل شيء : ثنائية دجلة والفرات، وثنائية الموقع (بين هضاب آسيا شرقاً وامتدادات البحر المتوسط غرباً)، وثنائية التكوين السكاني والحضاري والديني والمذهبي (الآسيوي ــ السامي) (الكردي ــ العربي) (السني ــ الشيعي)، وحتى نفسية الفرد العراقي ثنائية الى حد كبير في حدة جوانبها الايجابية والسلبية.

رابعاً ـ الاتفاق على أعياد وطنية تاريخية

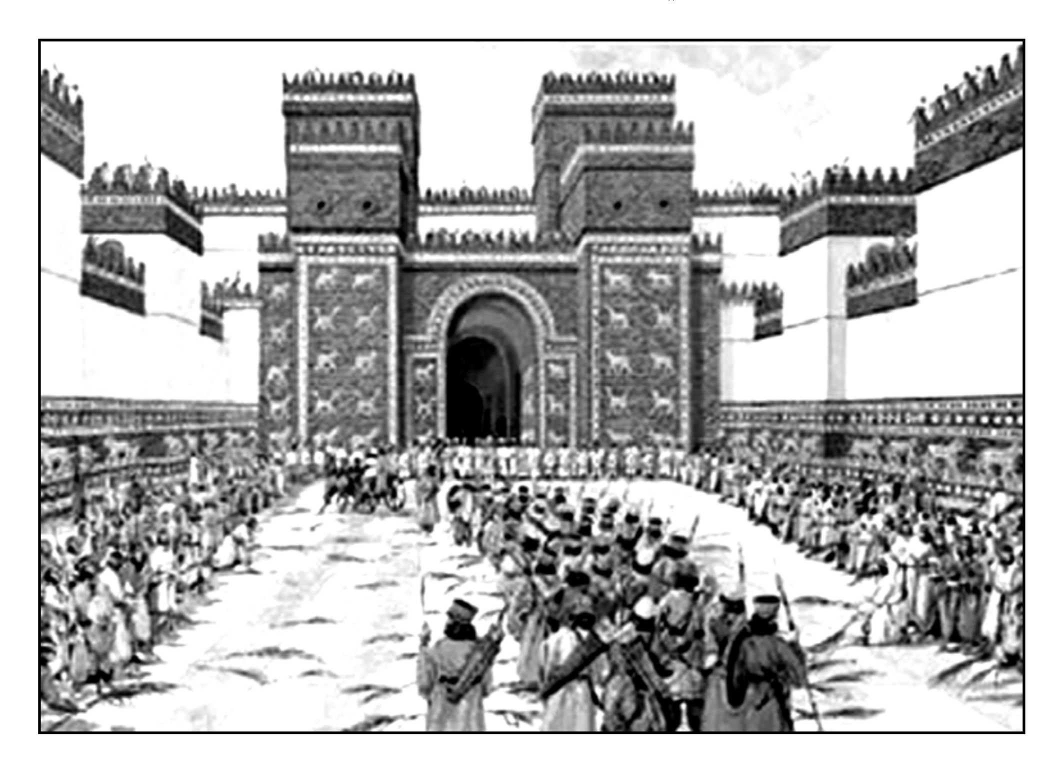
الذي يجلب الانتباه في الوضع العراقي، هو غياب أية مناسبة سنوية يشعر العراقيون بالارتباط بها مهما كانت ميولهم وفئاتهم اللغوية والدينية والمذهبية. حتى الآن لدينا مناسبة (14تموز) وقد أضاف اليها البعثيون تموزين (17 و 30). وفي كل الأحوال فأن هذه الأيام التموزية الثلاثة لا تمثل أبداً مناسبة وطنية حقيقية يجتمع عليها كل العراقيين. هناك يوم الجيش ويوم الشجرة ويوم الشرطة ويوم العمال.. الخ، وهذه مناسبات لا نعتقد أنها تمس حقاً مشاعر الانسان العراقي. أما الأعياد الدينية فهي عمومية وتشمل كل المسلمين في العالم، وليس فيها خصوصية وطنية.

اننا بحاجة الى مناسبات تاريخية لها معان حضارية ورمزية معروفة وثابتة. لو أخذنا مثلاً مناسبة تاريخية ظل العراقيون القدماء يحتفلون بها لمدة ثلاثة آلاف عام: عيد بداية السنة العراقية الجديدة ابتداءاً من أول نيسان لعدة أيام. لأن العراقيين كانوا يعتبرون نيسان ابتداءاً (نيسانو بالاكدي بمعنى الدليل والعلامة، ومنها نيشان بالعربي بنفس المعنى) أول أشهر السنة الجديدة ولأنه أول فصل الربيع والاعلان عن ولادة الحياة ورمز الخصب، ولا زال نظام السنة العراقية موجوداً في (علم الأبراج) الذي أوجده البابليون حيث (الحمل) أول الأبراج في نهاية آذار. وكان شهر نيسان العراقي يبدأ في أول بدر يعقب المنقلب الربيعي في (21 آذار الحالي).

لقد ظل العراقيون يحتفلون بهذا العيد في سومر وفي بابل وفي نينوى لعدة آلاف من السنين حتى سقوط بابل على يد الفرس (539 ق.م) وبداية ضياع الحضارة العراقية. يبدو ان الايرانيين حتى قبل احتلال العراق، ظلوا يقتبسون الحضارة العراقية من كتابة ولغة وفنون وعلوم وأفكار دينية. من جملة هذه الأمور التي اقتبسها الايرانيون التقويم البابلي وتقسيم السنة، وبالذات (عيد السنة العراقية). أطلق الايرانيون على هذا العيد العراقي (نيروزـ اليوم الجديد)، ويشير الى هذه الحقيقة جميع من كتبوا عن تاريخ ايران، ومنهم المؤرخ الشهير (آرثر كريستنسن)[1].

بالنسبة لعيد الربيع العراقي فانه كان يسمى لدى السومريين (زاكموك) وباللغة السامية يسمى (اكيتو) وتلفظ بالعربي (حجتو) ولا زال في السرياني كلمة (حج) تعني العيد. نسجل هنا المقطع التالي الذي يصف طبيعة هذا العيد :

الربيع العراقي ـ عيد السنة الجديدة وأول الربيع(*)



«يسمي السومريون العيد بأسم «زكموك Zagmuk» أي (رأس السنة) وسماه البابليون بأسم «أكيتو» أي (عيد رأس السنة) وكذا كان اسمه لدى الآشوريين.

وما دام الأمر يتصل بإحياء الطبيعة فإن دور موت «تموز» وبعثه من أهم الأدوار إلى جانب الاحتفال بإحياء انتصار مردوخ على تعامة، وخلق الكون والإنسان وغير ذلك من العبادات العامة والطقوس الدينية الرسمية والشعبية.

وبالنظر لأهمية هذه الرسوم في عقائد العراقيين القدماء نذكر بشيء من التفصيل بعض طقوسه الهامة. ففي الأيام الأربعة الأولى من العيد تجرى التطهيرات الدينية في معبد مردوخ «إيساكلا» في كل صباح قبل شروق الشمس حيث يدخل الكاهن الأعلى بعد التطهير فيصلي لمردوخ وللآلهة الأخرى، وبعد ذلك يقوم الكهنة الآخرون بالأعمال الطقسية المقررة. وفي

---

* من كتاب «حضارة مصر والعراق ـ دلو ـ ص 393» كذلك كتاب «رحلة الى بابل ـ كلينكل ـ ص 155 ـ 158».

مساء اليوم الرابع تتلى أسطورة الخليقة «حينما في العلى» في المعبد، لأن رأس السنة الجديدة كان بمثابة خلق جديد.

ولم يقتصر مغزى هذا العيد على الالتقاء السعيد لكافة الناس فحسب بل ان الأحداث التي تجري هنا لها في رأي البابليين الأهمية الحاسمة لوجود الدولة، وإذا صادف أن الاحتفال لم يتم بهذا العيد بسبب الحرب أو احتلال العدو للبلاد أو غياب الملك فإن ذلك يعتبر كارثة قومية. إن إحتفالات هذا العيد تجري في كافة أنحاء البلاد، إلا أن أهم الاحتفالات تجري في مدينة بابل بالذات. تبدأ إحتفالات رأس السنة من 1 إلى 11 نيسان أي في وقت تكون فيه الطبيعة في ذروة جمالها وحيث الحياة الجديدة تدب في كل شيء بعد أن يزول برد الشتاء القارص.

وفي المساء تحكى أمام تمثال مردوخ ملحمة تكوين الخليقة وربما تقدم بعض الحركات التمثيلية. وبعد الصلوات والقرابين الاعتيادية في اليوم الخامس كان الكهنة المعوذون ينظفون المعبد. وكان أحد الطباخين يذبح شاة يقوم أحد الكهنة بمسح جدران المعبد بدمها وبهذه العملية تنقل الذنوب إلى الشاة التي ترمي في النهر «ككبش الذنوب».

كان الملك يلعب في الاحتفالات الدينية اللاحقة دوراً مهماً حيث يدور في أرجاء المعبد ويلقي كافة شارات حكمه أمام الاله. ثم يقدم تقريراً عن أعماله في السنة المنصرمة، ويعترف بذنوبه وعليه ان يعلن براءته عن وقوع بعض الأحداث التعسة والمصائب، وبعد ذلك يتلقى الملك صفعة على وجهه من رئيس الكهنة مع جرّ الأذنين منبهاً إياه بتأدية كل الواجبات الدينية على أكمل وجه. وبعد ذلك يسمح له بحمل شاراته الملكية. وفي المساء كان الملك ورئيس الكهنة يضحيان معاً بثور أبيض. وفي اليوم السادس يتم استقبال الاله نبو القادم من بورسبا في شارع الموكب. وكانت الدمى المزوّقة المعدة للاستقبال تحرق بعد اجراء بعض المراسيم الدينية معها.

وأما العيد الحقيقي للشعب فإنه يبدأ في اليوم العاشر، حيث يلمس الملك يد الاله مردوخ ويرجوه النهوض. وبهذا المشهد يتم الاقرار بشرعية الملك في حكمه. والآن ينطلق مردوخ مع حاشيته وكان تمثاله يوضع في سفينة (ماكوا) ويحتمل أنه يترك المدينة متوجهاً إلى الشمال وهناك خارج أسوار بابل يتواجد (بيت اكيتو) أي «دار عيد رأس السنة» حيث تقام مراسيم دينية أخرى. وربما تقام هناك استعراضات درامية لبعض الأساطير. وكان مردوخ يلعب فيها الدور الرئيس.

كانت المواكب المحملة بتماثيل الآلهة تعود إلى بابل عبر الطرق البرية ولهذا الغرض أمر نبوخذ نصر ببناء شارع الموكب العظيم الذي يمتد بين دار العيد الى باب عشتار.

وكانت عربات المواكب الكبيرة المزوقة تحمل التماثيل وتسير عبر الشارع ذي الـ 300 م طولاً والذي زخرف جانباه على أرضية زرقاء بأسود ضخمة وحيوانات مقدسة للآلهة عشتار، وكان عرض الشارع 16م غطي في منتصفه ببلاطات من حجر الكلس وأما الحواشي من الجانبين فببلاطات من أحجار عرفت بالأبيض والأحمر وكانت العربات تسير بهدوء تتبعها مجموعة كبيرة بالموسيقى والرقص وتعلو الهتافات والتهاليل في كل مكان. وكان الموكب يتوجه من بوابة عشتار على طول الأسوار العالية للقصر حتى منطقة معبد مردوخ.

ومن الأحداث الهامة التي تجري خلال أعياد رأس السنة، الزواج المقدس بين مردوخ وزوجته ساريتانيتوم ويحتمل أن ذلك يعرض من قبل الملك ورئيسة الكهنة حتى يتم ضمان الخصوبة والثروة في البلاد في السنة الجديدة، وترجع أصول هذا التقليد إلى العهد السومري أيضاً، وفي أعياد رأس السنة ينبغي أن تزول الفوارق الاجتماعية. وكان المالكون يخدمون عبيدهم. ويجلس في مكان الملك رجل آخر عليه أن يكفر عن ذنوب الملك وأخطائه خلال العام المنصرم من حكمه. ومع عودة الآلهة الى معابدهم وسفر نبو إلى بورسبا كان العيد العظيم يبلغ نهايته.

يقيناً كانت هذه الأعياد تشكل للكهنة سوقاً رابحة إذ ان المعتقدين الوافدين من جميع أرجاء البلاد يبحثون عن أماكن الاقامة بالقرب من المعبد، ويرغبون أيضاً في مختلف أنواع الشراء تعويضاً عما لم يتسن لهم تحقيقه طيلة أيام السنة. وهكذا تزدهر تجارة الكهنة بالتماثيل المقدسة ورموز العيد كالموائد والأسرة والكراسي وعربة مردوخ التي صنعت كلها من الطين. وبمقدور كل واحد ان يجلب معه هذه الهدايا الصغيرة الى البيت كتذكار لهذا العيد العظيم. أما التجار فيعرضون بضائعهم أيضاً حول المعبد جاذبين الناس للشراء. ويحتمل أنه كانت ثمة نساء للمتعة يقدمن أنفسهن للرجال تكريماً للآلهة عشتار، وهكذا لم يكن لهذا العيد أهمية رسمية للملك والكهنة فحسب، بل يشارك فيه كافة أبناء الشعب.



يبدو أن هذا العيد انتقل الى سوريا مع انتقال معظم الميراث السومري الى الساميين، ومنها عبادة تموز بأسم (أدون ـ السيد) أو (أدونيس) حسب اللفظ باليوناني، مع عشتار. ولا زال

تأثير هذا العيد واضحاً في الفصح اليهودي، أما في الفصح المسيحي فالتأثير أوضح. فعلاوة على إتباع نفس الطريقة العراقية بأختيار أول بدر بعد يوم المنقلب الربيعي في 21 آذار، فان المسيحية كذلك اعتبرت هذا اليوم قيامة السيد المسيح وعودته للحياة بعد صلبه، وهذا يشبه تماماً احتفال العراقيين بقيامه تموز من (موته الشتوي في العوالم السفلى) وعودته الى الحياة جالباً معه الخصب والربيع[2].

وفي زمن العباسيين تم اعتبار عيد الربيع عيداً رسمياً، ولكن بأسمه الفارسي المعروف (نيروز). والحقيقة ان تسمية (نيروز) لم تكن تعني ان هذا الاحتفال كان ايرانياً، بل ان هذه التسمية قد شاعت خلال قرون السيطرة الفارسية السابقة على العراق بمعنى (احتفال ربيعي)، بدليل أنه في زمن العباسيين كانوا يطلقون على هذه المناسبة احياناً تسمية (الربيع الشامي)، وفي مصر أطلقوا على عيد الربيع المصري تسمية (نيروز القبطي)[3]. ولا زال العلويون في سوريا يحتفلون به بأسم (نيروز)!

ان عيد السنة العراقية الجديدة ظل عميقاً في التقاليد الشعبية في أرياف العراق ومدنه، السريان يحتفلون بالسنة الجديدة في أول نيسان، واليزيدية يحتفلون كذلك في هذا العيد في 17 نيسان ويسمونه عيد (الملاك طاووس) وهو نفسه (الاله تموز). أما بالنسبة للمسلمين، فرغم جميع الاشكاليات الدينية ونظام السنة الهجرية (القمرية) الذي دخل على المناسبات الموروثة وخربط مواعيدها المرتبطة بفصول السنة الشمسية، نقول رغم هذا فان هؤلاء العراقيين حافظوا على هذا العيد وحسب نظام السنة البابلية الأصلي الذي يبتدىء في (21 آذار). نورد هنا مقطعاً يصف هذا العيد في أرياف محافظة ميسان :

❖ دورة السنة :-

«في هذه المناسبة التي تصادف 21 آذار يشتري الناس الخس والشموع على عدد أفراد العائلة ويضعون الرز المطبوخ واللبن والأس والسمسم والسكر والحناء في (صينية) كبيرة ويطلقون على هذه المواد (جوه السلّة) وتجتمع العائلة حولها وتنتظر هدوء الجو وسكونه وصفاءه من الغيوم بحيث (العود لا يحرك العود) واذا ما حدث هذا فان العام الجديد قد حلّ وانقضى عام. بعد ذلك تأكل العائلة ما في (الصينية). أما في اليوم التالي فيخرج الناس الى البساتين عصراً للنزهة ومعهم الأطعمة وفي المساء يعودون الى بيوتهم وتكون الاحتفالات قد

انتهت ويعتقد الناس أن السنة تدور على أشياء يتشائمون من بعضها ويتفائلون من البعض الآخر مثلاً تدور على خنزير أو كلب أو قرد أو اسد ...الخ».

من كتاب «التراث الشعبي في ميسان ـ كريم الكعبي ـ ص كذا»

من كل هذا نقول، أن عيد السنة العراقية الجديد (الربيع العراقي) هو من أفضل المناسبات التاريخية الخاصة بالعراق والتي تستحق ان يعاد الاحتفال بها مع اضفاء الطابع التاريخي عليها والاتفاق على تأدية بعض الطقوس الرمزية التي كان معمولاً بها أيام بابل ونينوى مع أنشطة فنية وثقافية واحتفالية مستمدة من هذا الميراث. بل يمكن أن يمنح هذا العيد بُعداً وطنياً شاملاً من خلال اشراك جميع الفئات العراقية وإظهار مميزاتها التراثية واصالتها التاريخية في هذا الوطن. يتوجب التنبيه ان اعادة الاحتفال بهذا العيد يجب أن لا تكون بالتنافس مع (عيد نيروز) بل على العكس، ان هذا العيد العراقي سيكون سبباً ليجمعنا مع أشقائنا الأكراد وجيراننا الايرانيين. ليطلق عليه الآخرون اسم (نيروز) ونحن اسم (الربيع العراقي)، فليس التسمية هي المهم بل الشعور بأن هذا العيد جزءاً من ميراثك الحضاري. ثم ان هذا العيد يمكن أن يعاد الاحتفال به أيضاً في بلدان الشام ليكون أيضاً سبباً جامعاً مع أشقائنا الشاميين.



يمكن ان نضيف مناسبة أخرى تستحق الابراز والاحتفال، على الأقل على الصعيد الرسمي والرمزي والاعلامي : ذكرى تأسيس أول دولة عراقية موحدة في التاريخ، على يد أول ملك عراقي تمكن من توحيد الدويلات والامارات العراقية المتناثرة على ضفاف النهرين من الجنوب حتى الشمال، انه الملك العظيم (سركَون الأكدي)، هنا مقطع تعريفي بهذا الملك وانجازاته التاريخية الريادية :

سركَون[*] الملك العادل

«يُعد سركون أهم شخصية تاريخية في بلاد النهرين بين نهاية العصر السومري القديم وحمورابي أي خلال خمسة قرون. وقد استطاع أن يطبع تاريخ بلاد النهرين بطابعه لزمن طويل بوصفه نموذجاً للعاهل الفذ والقائد الفاتح الظافر، وأضحت شخصيته موضوعاً

---

* سركَون : تعني (الملك العادل أو القانوني) وهي تتكون من كلمتين: (شرعو) وتلفظ (شارو) أي المُشرِّع وهو الملك بالسامية العراقية، ثم كلمة (قينو) وتعني (قانون) أو الحق والعدالة، إذن (سركَون) بأصلها هي (شرعو قينو) (الملك العادل).



لقصص ملحمية ولأساطير غريبة تداولتها الأجيال، ولا بد أنها تعكس جزءاً من الحقيقة على الأقل قبل أن تتضخم بأفواه الرواة والقصاصين وبأقلام الكتّاب والنسّاخين. فقد تحدث الإخباريون عن طفولته العجيبة جيلاً بعد جيل وتناقلوا الروايات عن احاطة العناية الإلهية به وعن تربيته في أحضان القداسة. وتذكرنا هذه المرويات في بعض ملامحها بطفولة النبي موسى الذي يفترض أنه جاء بعد سركَون بما يقرب من ألف عام. فلقد ولد سركَون لأب مجهول ولأم كاهنة في قرية على ضفاف الفرات، وقد أرادت أمُّه أن تتخلص منه فوضعته في سلّة من القصب المجدول وتركته في مجرى الماء. فتلقَّفه بستاني يعمل في مزرعة لنخيل وأخذه وربّاه وعلّمه حرفته. وبدأ نجم الفتى الناشيء بالصعود بعد طفولة شاقة غامضة. فبرعاية الآلهة عشتار دخل قصر ملك كيش، أور ـ زبابا، الذي اختاره ساقياً في قصره، ثم تدرجَ في وظائفه حتى أضحى وهو شاب من رجال القصر المرموقين. وعندما وجد الشاب سركَون الفرصة مواتية انفصل عن سيده وأسس لنفسه مقراً على مقربة من كيش في أغاديه = أكد.

بدأ سركَون منذ نحو (2370 ق.م) كفاحه من أجل إقامة كيان مستقل خاص به وتحت زعامته وانتصر بعد حروب طويلة ومتواصلة على «ملك البلاد» لوجال زاجيزي، وظفر بخصمه وفرض سيادته على سومر كلها بعد أن كان قد طوى تحت جناحه وسط بلاد النهرين. ولم يجد صعوبة كبرى في إخضاع عيلام، ثم صعد الفرات واستولى على ماري ودخل مناطق سورية الشمالية (حلب) حتى جبال طوروس. وتذكر الأساطير الأكدية أن سركون دخل الأناضول ووصل إلى موقع يدعى خاندا لنجدة جالية عراقية من التجار كانت قد استقرت هناك. ولم تقف في طريق تحركاته نحو الغرب (غربي الفرات) سوى مملكة إبلا (تل مرديخ

الآن) التي كانت أهم قوة دولية منافسة لأكّد في تلك المرحلة من الألف الثالث ق. م في المنطقة.

«من كتاب «دول وحضارات ـ فرزات ومرعي ـ ص 108»



ان تأكيدنا على الفترة العراقية السابقة للفتح الاسلامي يجب أن لا تنسينا أبداً عظمة انجازات الأمة العراقية خلال ستة قرون من الدولة الأموية والدولة العباسية في بغداد. يجب أن يشعر العراقي أن (بغداد العباسية) لم تكن مدينة اسطورية بعيدة، في مصر أو الأندلس أو في الحجاز، بل هي نفسها بغداد الحالية في العراق وان انجازاتها الحضارية هي من صنع اسلافه فعلاً، وأن هارون الرشيد وأبا نواس وألف ليلة وليلة والمتنبي وابن حيان والتوحيدي والكندي وابن خلكان وحنين بن اسحاق والجاحظ وغيرهم وغيرهم، كلهم عراقيون قبل أن يكونوا عرباً فقط كما عودنا الفهم العروبي للتاريخ. من هذا نقول انه يمكن الاتفاق على مناسبة معينة تتعلق بهذه الفترة، مثلاً سنة الانتهاء من بناء بغداد واتخاذها عاصمة للدولة العباسية (766م)، ويمكن تقدير يوم افتتاح هذه المدينة ليكون يوماً سنوياً للاحتفال بأسم (عيد المدينة العراقية) ويشمل جميع المدن العراقية إذ يكون مناسبة للتذكير بتاريخ كل مدينة عراقية والكشف عن تراثها وأعلامها وتعمير المراكز الأثرية فيها.

ان هذه الاقتراحات المتعلقة بالهوية العراقية يمكن أن تكون مثالاً للتعامل مع مسألة الهوية بالنسبة لجميع البلدان العربية الشرقمتوسطية. ان الفكرة الأساسية التي يتوجب أن نؤكد عليها، أننا أبداً لا ندعو الى بناء هوية وطنية على أساس التعارض والمنافسة مع شعوب البلدان الشقيقة والمجاورة. فمن السذاجة ان تتم الدعوة الى احترام خصوصية كل بلد عربي لتبرير العداء والاحتقار للبلدان الأخرى كما عودنا دعاة الخصوصية (القطرية) من فرعونيين وفينيقيين وبربر وغيرهم. أننا على العكس ندعو الى الانفتاح نحو مواريث وثقافات جميع الشعوب المجاورة مثل ايران وتركيا، وكذلك الشعوب الشقيقة التي يجمعنا معها الحاضر والماضي والمستقبل. بهذه المناسبة يمكننا مثلاً أن ندعو الى الاتفاق على مناسبات تاريخية تحتفل بها جميع الشعوب الشرقمتوسطية، منها مثلاً ذكرى كفاح (حنا

بعل ـ هانيبال) الرمز التاريخي الذي تتجاوز أهميته بلاده قرطاجة (تونس)، لأن كفاحه البطولي وانتحاره المأساوي ما هو الا رمز عظيم لكفاح الشعوب (الشرقمتوسطية) ضد الاجتياح الأوروبي (الروماني) الذي فرض سيطرته على المنطقة لعدة قرون بعد مقتل (هانيبال). وعلى هذا المنوال يمكننا العثور على رموز ومناسبات عديدة تجمعنا من التاريخ السابق للاسلام والتاريخ الاسلامي.

نكرر بهذه الخاتمة، اننا مع وحدة البلدان الشرقمتوسطية، ولكن ليس على الطريقة (القومية العروبية) التي احتقرت الخصوصيات وضّحت بالوحدة الوطنية بأسم وحدة انفعالية (عابرة للقارات) لم تثمر غير الخيبات والمؤامرات والاجتياحات وغلق الحدود والحروب الدولية (مثال حرب الكويت). أننا ندعو لوحدة على الطريقة الأوروبية، خارج الفهم (العرقي العروبي) .. وحدة نافعة لجميع الفئات اللغوية والدينية والمذهبية في العالم الشرقمتوسطي (العربي)... وحدة واقعية بعيدة عن الخطابات العروبية الرنانة والحدود المصطنعة والقاعدة الثورية التوسعية، بل تعني بكل بساطة : الحدود المفتوحة لتنقل الأشخاص والبضائع، والمشاريع الانمائية المشتركة، وخطوط السكك الحديدية الممتدة بين جميع البلدان، وحرية تنقل المطبوعات والمنتجات الثقافية.. انها بكل بساطة وحدة انسانية عامة ليس لها أي دخل بالعروبة الثورية، بل يستفيد منها ويدافع عنها البربري والقبطي والنوبي والشركسي والأرمني والكردي والتركماني والمسيحي والمسلم.. وحدة الجميع من أجل مصلحة الجميع.

المصادر الأساسية للخاتمة

1 ـ كريستنسن، آرثر ـ ايران في عهد الساسانيين ـ ص 22 – 23 ـ 162 ـ دار النهضة ـ بيروت.

2 ـ فريحة، أنيس ـ دراسات في التاريخ ـ ص 26 – 43 – 61 منشورات جروس ـ طرابلس ـ 1991.

3 ـ الخازن، وليم ـ الحضارة العباسية ـ ص 156 ـ 157 دار المشرق ـ بيروت 1986 كذلك ـ عبد الباقي، أحمد ـ معالم الحضارة العربية ـ ص 91 ـ 92 ـ مركز دراسات الوحدة العربية ـ 1991.